



برنار فيربير

@ketab_n

صندوق باندورا

ترجمة: أريج حمود

برنار فيربير

صندوق باندورا

ترجمة : أريج حمود





صندوق باندورا



اسم المؤلف: برنار فيربير

عنوان الكتاب: صندوق باندورا

ترجمة: أريج حمود

الناشر: دار المدى

الطبعة الأولى: 2022

Author: **Bernard Werber**

Title: **La Boîte de Pandore**

Translated by: **Arij Hammoud**

P.C.: **Al–Mada**

First Edition: **2022**



للإعلام والثقافة والفنون

Al-mada for media, culture and arts

بغداد: حي أبو نؤاس - محلة 102 - شارع 13 - بناية 141

Iraq/ Baghdad- Abu Nawas-neigh. 102 - 13 Street - Building 141

+ 964 (0) 770 2799 999 + 964 (0) 780 808 0800
+ 964 (0) 790 1919 290

بيروت: بشامون - شارع المدارس

Beirut: Bchamoun - Schools Street

+ 961 175 2617 + 961 706 15017
+ 961 175 2616

دمشق: شارع كرجية حداد- متفرع من شارع 29 أيار

Damascus: Karjieh Haddad Street - from 29 Ayar Street

+ 963 11 232 2276 + 963 11 232 2275
+ 963 11 232 2289 ص.ب: 8272

إلى أليس، أهلاً وسهلاً بك
في هذا الجانب من المرآة...

«إنّنا نعيش متناسين تحولاتنا»

• بول إيلوار

«وعندما يسألوننا عمّا نفعله، تستطيعون أن تجيبوا: إنّنا نتذكر. هكذا سينتهي بنا المطاف بكسب الرهان»

• راي برادبوري، فهرنهايت 451

المشهد الأول

التنويم المغناطيسي

-1-

- أنتم لستم هذا الشخص الذي تظنونه فقط، لذا سأطرح عليكم هذا السؤال: هل تستطيعون أن تتذكروا حقاً من أنتم؟

بدأت المنوّمة المغناطيسية أوبال تستعد لتسترسل في عرضها الأخير وها قد وصلت إلى الحبكة الرئيسية. أخذت تحدق في الجمهور بعينيها الخضراوين الواسعتين المخططتين بالكحل الأسود، باحثة عن متطوع.

- من يرغب منكم باكتشاف الذكريات المدفونة في أعماق روحه؟

لم يبدِ أحد أية استجابة، فالجميع أخفض نظره. أزاحت عن عينيها خصلة من شعرها الأحمر الطويل المتموج.

- لا أحد؟ إذاً في هذه الحالة سوف أختار واحداً منكم بشكل عشوائي. من هذا الذي سأختاره؟

أرجو ألّا يقع الاختيار عليّ.

وجّهت سبابتها ذات الظفر المطلي بعناية إلى القاعة، وراحت تمرر إصبعها على كل واحد من المشاهدين متفحّصة إياهم الواحد تلو الآخر قبل أن تقف إصبعها على واحدٍ منهم.

- أنت.

اللعنة، ما هذا الحظ!

- نعم أنتَ يا سيدي، هل بإمكانك القدوم إليّ لو سمحت؟

وقف الرجل مطلقاً تنهيدة. تقدم وصعد إلى المسرح وعلى وجهه ابتسامة متوترة. حينما لاحظت أوبال قلة حماسته طلبت من الجمهور التصفيق له لتشجيعه.

لماذا يقع الأمر عليّ دائماً؟

يتسع مسرح هذه السفينة المسمّاة بصندوق باندورا لما يقارب ثلاثمائة شخص. أخذوا جميعهم يصفقون بحرارة أكبر بعد أن شعروا بالارتياح كون الاختيار لم يقع على أيّ أحد منهم.

راح كلّ من المنوّمة المغناطيسية وفأر تجاربها يراقبان بعضهما بعضاً وهما على خشبة المسرح. هي بقوامها الممشوق، مرتدية فستاناً أسود بفتحة صدر واسعة تظهر منها قلادة على شكل دلفين ذي لون لازوردي. أما هو فذو شعر بني وعيون لوزية، يضع نظاراتٍ نحيلة ذات إطار مذهّب، ويرتدي قميص بولو وبنطال جينز مع حذاء ذي نعل سميك.

- أشكركَ على هذه العفوية. رحّبت به بشيء لا يخلو من السخرية. حسناً ما اسمك وكم هو عمرك؟

- اسمي رينيه توليدانو، عمري 32 عاماً. أجابها بفتور واضح.

- ما هو عملك؟

- أنا أستاذ تاريخ في ثانوية جوني- هاليداي.

- لماذا أتيت إلى هنا سيد توليدانو؟

- اعتدت أنا وزميلتي إيلودي (أشار إلى سيدة شقراء ذات شعر قصير تلوّح بيدها خجلةً وهي جالسة في الصف الثالث)، أن نشاهد عرضاً مسرحياً مساء كل يوم أحدٍ قبل ذهابنا لتناول العشاء في مطعم للبيتزا.

- آه! ستعودان غداً إلى المدرسة مع بدء العام الدراسي. يبدو أنكما تتوقعان ضغوطاً كبيرة تنتظركما في إدارة وضبط أطفالنا الأعزاء ذوي الرؤوس الشقراء، أليس صحيحاً؟

تعالت بعض الضحكات في الصالة.

- تماماً، فقد أردت أنا وإيلودي أن نخصّص آخر ليلة في العطلة للاسترخاء قبل البدء في دوّامة العام الدراسي.
- ولماذا اخترتما إذاً عرضي أنا؟
- أنا شخصياً أحبّ السحر وإيلودي من جهتها تحبّ التنويم المغناطيسي. رافقتني إيلودي في الأسبوع الماضي لحضور عرض سحريّ، وها قد جاء دوري الآن في هذا الأسبوع لأسعدها قليلاً بقدومي معها إلى هنا.
- إذاً أتيتما إلى هنا كنوع من تبادل المجاملات اللطيفة فقط؟
- حسناً عليّ القول إنّ عنوان العرض قد جذبني: «التنويم المغناطيسي وذكريات منسية».

دعته المرأة ذات الشعر الأحمر الطويل بابتسامة إلى الجلوس في وسط المسرح على أريكةٍ حمراء مخملية، تعلوها صورة ضخمة لعينٍ خضراء تشبه إلى حدّ كبير عين هذه المرأة. تابعت المنومة قائلة:

- اسمح لي بأن أطرح عليك هذا السؤال يا سيد توليدانو: ما الذي يعنيه بالنسبة إليك تعبير «ذكريات منسية» ؟

شعر رينيه بالارتياح وأصبح أكثر استرخاء فقد أثار هذا السؤال اهتمامه:

- أستطيع القول بصفتي أستاذاً لمادة التاريخ، إنّ العالم كله أصبح فاقداً للذاكرة، كوننا نعيد أخطاء الماضي ذاتها بعد أن نسينا عواقبها.

تابع رينيه حديثه متشجعاً بعد سماعه أصواتاً مؤيدة وصلته من عدة أشخاص في القاعة:

- وبما أنّ كل شيء يسير بسرعةٍ في عصرنا هذا، أشعر أيضاً بأنّ كل شيء يتمّ نسيانه بالسرعة ذاتها.

استأنفت المنومة المغناطيسية الحديث مجدداً.

- هذا ما نسميه «بالذاكرة الجمعية»، ولكن أريد معرفة علاقتك أنت... «بذاكرتك الفردية» ؟

أشعر أنها تنتظر مني شيئاً ما، ما الذي تريد استخلاصه مني؟

- يمكنني القول إنّني راضٍ عنها نوعاً ما، فأنا أستطيع تذكر تفاصيل دقيقة

عن تاريخ فرنسا. ولكنّني في الآونة الأخيرة أصبحت أعاني من النسيان وهذا ما بدأ يقلقني. فيحصل مثلاً أن أنسى مراراً وتكراراً أين وضعت مفاتيحي أو أين ركنت سيارتي. نسيت في الأسبوع الماضي الرقم السري لبطاقتي المصرفية. وكي أكون صريحاً للغاية معك، أستطيع القول إنّني أخشى أن ينتهي بي المطاف مثل والدي الذي يعاني من مرض ألزهايمر.

- سيكون فقدان الذاكرة بالنسبة لأستاذ في التاريخ أمراً رهيباً أليس صحيحاً؟

عوضاً عن الإجابة، نظر رينيه إلى القاعة باتجاه زميلته.

أنا متأكد من أنّ إيلودي تتساءل هي الأخرى عن جدوى إضاعة الوقت بهذه الأسئلة ذات الطابع الشخصي جداً عوضاً عن البدء فعلياً بالعرض.

شعر بأنّ هذه القاعة ذات النوافذ المطلة على النهر كأنّها سجن يتوجب عليه الهروب منه، وأنّ سجّانته المنومة المغناطيسية الجميلة لمّا تنهِ عملها معه. راحت تدور حول أريكته كما تدور الأفعى حين تطوّق فريستها.

- أنا هنا لا أتحدث يا سيد توليدانو عن الذاكرة القصيرة المدى ولا عن الذاكرة البعيدة المدى، وإنّما عن الذاكرة... «الدفينة»، بل حتى الدفينة جداً. سنحاول معاً اكتشاف الطبقات الداخلية لذاكرتك المخبأة وراء سطح ذاكرتك الواعية. هل أنت جاهز لاكتشاف هذه الذاكرة الدفينة التي تكوّن ما أنت عليه الآن بالضبط؟

عن ماذا تحدثني هذه المرأة؟

- «ذاكرة دفينة» ؟ عذراً، أنا لا أعرف ما يعني هذا على وجه الدقة.

- ستستطيع اكتشافه إذا وافقت على خوض هذه التجربة. أريد أن أكون صادقة تماماً معك وأخبركَ بأنّها المرة الأولى التي أقوم بهذا العمل على المسرح.

ماذا؟ أنا أوّل شخص؟ ماذا لو أنّ عرضها هذا جرى بشكل سيئ. يتوجب عليّ إجابتها بشيء ما فالجميع ينظر إليّ، من المؤكد أنّهم يجدونني مضحكاً. حسناً، لقد فات أوان التراجع في جميع الأحوال.

بعد أن أبدى امتعاضه قليلاً، أومأ برأسهِ موافقاً.

- إذا كنتَ جاهزاً هيا لنبدأ.

أومأت إلى مدير المسرح، فأصبح الضوء مسلطاً على رينيه تاركاً إياها في شيء من الظلام.

- أغلق عينيك واسترخِ. خذ نفساً عميقاً. إنّك تشعر بخدرٍ ناعم يجتاحك، وها أنت تستعدّ الآن لعيش تجربة جديدة وممتعة جداً.

«استرخِ»، هذه الكلمة بالتحديد التي لطالما أشعرتني بالتوتر. يبدو أنها بداية موفقة...

- تخيل الآن وجود سلّم. انزل على درجات هذا السلّم. هل تمّ الأمر؟ وصلت الآن أمام باب اللاوعي، هل تراه؟

أنا لا أرى شيئاً على الإطلاق.

- هل تسمعني يا سيد رينيه؟ أما زلت معنا؟ أجب عن سؤالي. هل تشاهد هذا الباب؟

لا حاجة لفتح عينيّ كي أعرف أنّ الجميع ينظر إليّ. إن لم أبذل بعض الجهد فمن المؤكد أنّ إيلودي ستقول إنّني أفشلتُ العرض لأنّني لا أحبّ التنويم المغناطيسي، ولا أولي اهتماماً إلّا للسحر التقليدي. حسناً، هيا سأبذل قصارى جهدي. ماذا طلبت مني؟ آه نعم، السلّم. نزول الدرجات ورؤية ماذا؟ «باب اللاوعي»، ها هو ذا.

تابعت المنومة:

- هل تراه إذاً؟

يبدو أنني أشاهد شيئاً ما. نعم، ربما. يجب أن يكون هذا. يمكن أن يكون هذا.

- في الواقع أنا أراه.

هذا هو.

- استمرّ في التحدث معي، وصفْ لي بالضبط كلّ ما تكتشفه حالما يظهر أمامك. نحن نصغي إليك. حسناً قل لي إذاً كيف يبدو باب اللاوعي؟

- إنّهُ باب معدني سميك ومدرّع بمفاصل كبيرة وقفل ضخم صدئ.
- تخيل أنّني أعطيك المفتاح. أدخله في القفل، ها أنت تدير المفتاح، وها قد تحرر القفل، إنّك تخفض قبضة الباب وتدفع الباب ببطء. هل نجحت في ذلك؟
- كلا.
- حاول مراراً.

من السهل قول ذلك، هذا القفل صدئ. ربما يكون من الأفضل لي أن أفتح عينيّ وأنهيَ كلّ شيء. ولكن أشعر في نفس الوقت بأنّها لن تدعني أتراجع بهذه السهولة. لا بأس، يبدو أنّه يتوجب عليّ الخوض في هذه اللعبة.

- هو ذا، فُتحَ الباب.
- أحسنت يا رينيه! ستجد ممراً بأبوابٍ مرقمة. هل تشاهدها؟ هل تستطيع وصفها؟
- السجادة حمراء وسميكة، والأبواب بيضاء وهنالك أرقام منقوشة بالأسود على لوحاتٍ مذهبة.
- ما هو الرقم الأقرب إليك؟

غير واضح، يجب عليّ أن أركز.

- إنّه الرقم مائة وأحد عشر.
- هذا يعني أنّك الآن أمام الباب رقم مائة واثني عشر. حياتك الحالية إذاً رقمها مائة واثنا عشر! حسناً، سيتوجب عليك الآن اختيار الحياة التي ترغب بزيارتها. ركز بوضوح واذكر نمط الحياة الذي يجعلك سعيداً.
- حسناً... لنقل إنّها الحياة التي كان لديّ فيها سلوك أكثر... بطولية.
- جيد جداً. الباب المقابل لهذه الحياة «البطولية» سوف يُضاء بلونٍ أحمر، أنت تراه أليس صحيحاً؟
- نعم، إنّه الباب رقم مائة وتسعة.
- إذاً أنت على مسافة ثلاث حيواتٍ إذن. حياة حديثة، وحياة متحضرة. هيا بنا، افتح هذا الباب.

لستُ مطمئناً بشكل كامل.

- هيّا يا رينيه! لا تكن خائفاً. أنا هنا، نحن جميعاً هنا، لن نتخلى عنك.

حسناً، في جميع الأحوال بما أنني وصلت إلى هذه المرحلة فمن الأفضل أن أكمل حتى النهاية.

- حسناً.

- صِف لي يا رينيه بالتفصيل كل ما تراه وتسمعه وتشعر به خلف الباب مائة وتسعة.

راحت عيناه تتحركان تحت جفنيه وبدأ رينيه يرتعش، وبدا وجهه متفاجئاً جداً. بعد فترة لا بأس بها، نطق أخيراً:

- أرى...

-2-

- ... يديّ.

تابع استكشافه مُخبراً الجمهور بكل ما يكتشفه تدريجياً.

ميّز رينيه وجود ذراعين على طول الجسد الذي وجد نفسه فيه. كانت أصابعه ممتلئة بالندبات وأظافره تالفة. يداه اللتان تظهران من لباس رسمي أزرق بلون الأفق تبدوان لشابٍ يافع.

إنّه في الخارج ليلاً، أشعل الولاعة التي وجدها في جيبه وتفحص ساعته التي كانت تشير إلى الساعة الخامسة وخمس وثلاثين دقيقة صباحاً.

أدرك وجود رجال آخرين حوله يرتدون جميعهم نفس الزي الرسمي الأزرق الفاتح. إنّ معرفته بالتاريخ تجعله يدرك دون أدنى شك أنّ هذا هو لباس الجنود الفرنسيين خلال الحرب العالمية الأولى. كانت أنفاسهم تملأ الهواء المتجمد بسحب من البخار الكامد، وقد تجمعوا كلّهم في خندقٍ مدعّم بألواح على عمق أكثر من مترين تحت سطح الأرض. كانت تحيط به رائحة لحم متعفن وأجساد محروقة. شعر رينيه أنّ جسده بارد جداً.

ما الذي أفعلهُ هنا؟

قام ضابط يضع قبعة عسكرية وشريط رتب بإعلان أنّه سيجري تفقداً للحضور. فتناهت إلى مسمعه مجموعة من الأسماء والكنى.

عندما سمع رينيه اسم «كابورال هيبوليت بيليسيه» تفاجأ بنفسه يجيب:
- حاضر!

استنتج رينيه أنّ هيبوليت بيليسيه هو «اسمه السابق» في هذه «الحياة السابقة».

قام الضابط بالمرور بين الرجال محدقاً بهم إلى أن وصل أمام هيبوليت بيليسيه، تفحّص لوحته المعدنية بدقة وقال:

- حسناً يا سيد كابورال، أنا أعرف بيانات خدمتك كلها، ولكن هذا لا يعفيك من الاهتمام بمظهرك الخارجي. يجب أن يكون مظهركَ مثالياً. صحيح أنّنا نقوم بالقتل ولكن هذا لا يمنعنا من القيام بالأمر ونحن بغاية الأناقة. هيّا اذهب وصفف شعرك قبل أن يصل القائد.

- أمرك سيدي الرقيب.

اندفع هيبوليت باتجاه الحمامات ووقف أمام المرآة وأخذ يصفف سريعاً خصل شعره بيديه بعد أن يبللها بلعابه. أصبح رينيه توليدانو بإمكانه أن يرى في هذه اللحظة الوجه الذي كان يمتلكه في حياته السابقة عندما كان هيبوليت بيليسيه.

أهذا أنا؟

من الواضح أنّ عمر هيبوليت لا يتجاوز العشرين عاماً، فعلى الرغم من أنّ شاربه بالكاد قد نبت فلقد دهنه بكريم شمعي. كما أنّ له عينين بنيتين وشعراً أسود، وشفتين رقيقتين وغمازة على ذقنه. بدا أنّ النظر إلى نفسه في المرآة يروقه، لذا استغرق وقتاً إضافياً في تصفيف شعره بلعابه. ولكن صوت الرقيب المزلزل قد انتشله من تأمله.

- ماذا تفعل يا كابورال؟ هل تظن حقاً أنّ هذا هو الوقت المناسب للعب دور الرجل النرجسي؟ هيا عُد إلى مكانك فقد حان موعد التفتيش.

رجع هيبوليت بيليسيه إلى مكانه مصطفاً مع الجنود الآخرين. طلب الرقيب من الجميع التحقق من أنّ بنادقهم ومسدساتهم تعمل بشكل جيد. فراح الجنود ينفذون الأمر.

أُعلِنَ أخيراً عن قدوم الجنرال. كان الرجل ذو الزي العسكري المغطى

بشرائط الرتب والميداليات محاطاً بضباطٍ عسكريين رفيعي المستوى. وقف الرجل على المنصة وأخذ يلقي خطاباً لجماهير الجنود الحاضرين.

- مرحباً أيها السادة، أنا الجنرال نيفيل.

كان الجميع متأثرين لأنهم بالطبع سبق أن سمعوا الكثير عن قائدهم الشهير.

- قررنا في تاريخ اليوم 16 نيسان/ أبريل في عام 1917م، ومن هذه الأراضي القريبة من مدينة لاون، شنّ هجومٍ بغية خرق خط مقاومة الجبهة الألمانية. هذا الخط هو لوشومان دي دام. سيتقدم المشاة مائة متر كل ثلاث دقائق. وسنستخدم التكتيك نفسه الذي أثبت نجاحه في معركة فيردان حيث استطعنا استعادة قلعة دوومونت في ظروف مشابهة. وستدخل لأول مرة دبابات شنايدر من أجل الانقضاض على الألمان من الخلف وبهذا نكون قد خففنا العبء عن المشاة. فهدفنا الوصول إلى جنوب لاون قبل حلول الظلام.

رفع هيبوليت يده.

- سيدي الجنرال؟

أراد بعض الضباط المتحمسين إسكات هذا الرجل اللجوج، ولكن الجنرال نيفيل كرماً منه وافق على سماعه.

تابع هيبوليت قائلاً:

- كيف هو حال هؤلاء «البوش[1]»؟

بدا الجنرال ساخراً.

- ألم تسمع إذاً أصوات مدافعنا وهي ترعد في الأيام الأخيرة الماضية؟ لقد تلقّى الألمان هناك في الأعلى ضربات من قذائفنا أصابتهم في الصميم، فقد دمرنا مصنع سان إتيان بشكل مباشر. بل أستطيع أن أعطيكم أرقاماً دقيقة؛ فقد قامت مدافعنا البالغ عددها 5310 بإطلاق خمسة ملايين قذيفة

1- كلمة احتقار كان يستخدمها الفرنسيون تجاه الألمان خلال الحرب العالمية الأولى. المترجمة

من العيار الخفيف ومليون ونصف قذيفة من العيار الثقيل. وبهذا نكون قد أجهزنا على ثلاثة أرباع خطوط العدو، ولم يبقَ لدينا سوى إنهاء ما بدأناه. فالألمان مصابون ومنهكون لدرجة أنهم لن يكونوا قادرين على مواجهتكم إلا بمقاومة ضعيفة. سوف تتسلقون هذه الهضبة للقضاء عليهم. وهكذا نحن، لا بل أنتم بصورة أدق من سينهي هذه الحرب المنهكة بفضل هذا الانتصار المحتوم الذي ستحققونه. ومن بعدها سيعود الغزاة التوتونيون[1] إلى ديارهم، ونعود نحن أبطالًا إلى وطننا ونسائنا وأطفالنا وأصدقائنا. وسيعمّ السلام من جديد كما كان في السابق.

توقف الجنرال نيفيل عن الكلام قليلاً. أخذ ينظر إلى الضباط ومن ثمّ صرخ بصوت عالٍ:

- لقد آن الأوان، ثقوا بالنصر وتشجعوا، تحيا فرنسا!

ردّد الجميع بصوت واحد:

- تحيا فرنسا!

- كونوا أبطالاً، بهذا ختم الجنرال قوله.

استأنف الرقيب الكلام قائلاً:

- كلّ واحد في مركزه، جاهزون للهجوم البري.

تفقد هيبوليت خنجره وقارورته. كان الطقس بارداً جداً لمثل هذا الوقت من شهر نيسان/ أبريل، حتى إنّها أثلجت طوال الليل. أخذت أنفاس الجنود تشكل سحب بخار تمتدّ أكثر فأكثر. كان رينيه قادراً على تمييز أنّه على يمين هيبوليت يصطفّ السنغاليون وهم يرتجفون من البرد لدرجة أنّه سمع صوت اصطكاك أسنانهم.

صرخ الرقيب:

- استعدوا!

أمسك أغلب الجنود بقواريرهم المليئة بمشروب الرُّم الكحولي وابتلعوا جرعة كبيرة كي يشجعوا أنفسهم. يفضّل هيبوليت من جهته شرب جرعة من

1- مصطلح يستخدم للدلالة على الشعوب المتحدثة باللغة الألمانية. المترجمة

النبيذ الأحمر الصقلّي. لقد كان شرب الخمر هو الشذوذ الوحيد في حياته، ولكنّه كان يحتاج إلى هذا بالفعل. فعصير العنب المخمّر يدفئه ويشعره بالتحسن.

لاح ضوء الفجر في الأفق، وكانت العصافير تزقزق من حولهم غير مبالية بجميع مخاوف البشر.

بدا الانتظار كأنّه أبديّ واجتاحت الجميع رغبة بالاندفاع خارج حفرة الجرذان التي يقبعون فيها. وأخيراً في الساعة السادسة صباحاً دوى صوت الصافرة الرنّانة للرقيب وتبعها من بعيد أصوات صافرات الضباط الآخرين.

كان هيبوليت من الأوائل الذين صعدوا السلم وانطلقوا خارج الخندق، وعلى الرغم من أنّ انحدار الرابية كان قاسياً، لم يكن مستحيل العبور. فجأة تلبدت السماء بالغيوم الكثيفة وبدأت تمطر. فأصبحت الأرض المغطاة أصلاً بالثلوج موحلة وزلقة.

من هناك حيث يقف، استطاع هيبوليت أن يلاحظ على يساره دبابات شنايدر وهي تتقدم قبل أن تتعثر بشكل سريع. عبر جنود المشاة الأمتار الأولى دون مقاومة على وقع أصوات انفجارات المدافع المتمركزة في الخلف، والتي انتهت من تنظيف ما يمكن أن يكون قد بقي من مواقع دفاعات العدو. أضيئت قمة المنحدر بمجموعة من الأضواء الصفراء لانفجارات تحولت إلى لفائف من الدخان. أخذ الجنود يسارعون الخطى وهم مطمئنون. وصلوا إلى الأسلاك الشائكة، فتقدم الجنود المهندسون بمقصاتهم وشرعوا بقص الأسلاك المعدنية بطريقة مدروسة. فأصبح العبور ممكناً.

يمكن الآن استئناف الصعود. فجأة، حصدت رشقات قادمة من معقل مدافع العدو الجنود الموجودين في الطليعة الأولى. انبطح هيبوليت ورفاقه أرضاً، ومن ثمّ حاولوا استهداف خوذ الجنود الغامقة التي تظهر من المعاقل أمامهم. قام جندي مصاب في المقدمة بإخراج قنبلة يدوية ونزع فتيلها وألقاها. تمّ تحييد الجنود الألمان في معقل المدافع بعد أن خرجوا يصرخون، بعضهم جرحى وبعضهم مشوّه. لقد قضي عليهم بسهولة. أصبح المطر ينهمر بشدة.

– تقدموا! تقدموا! كرّر الرقيب وهو يزامن كل كلمة بصوت الصافرة.

تابعوا صعودهم وإذ بهم في مواجهة معقل آخر للرشاشات يتوجب عليهم تنظيفه هو الآخر. أخذت المدفعية الفرنسية تواصل رشقاتها باتجاه قمة التلة في حين جعلت الأمطار الأراضي زلقة أكثر فأكثر وصعبة التسلق. ظهرت مجموعة من جنود العدو. انبطح هيبوليت ورفاقه أرضاً. أخذ رصاص العدو يصبح أكثر دقة شيئاً فشيئاً. التقط هيبوليت قنبلة وقعت بقربه وكردّة فعلٍ منه قام بإعادة رميها باتجاه المكان الذي بدا أنّها جاءت منه. شعر بدماء عروق صدغيه تضرب بقوة وبتسارع كبير في أنفاسه.

– هيّا! تقدموا! صرخ الرقيب الذي كان قد تموضع بحذر خلف قواته.

تخلّص الجنود ذوو الزي العسكري الأزرق الفاتح من الطين اللزج الملتصق بهم وشرعوا يركضون. كانت رشقات المدافع تضرب أمامهم في كل مكان.

سقط عدد من الجنود تحت زخّ الرصاص وصوت الرقيب يهتف:

– تقدموا! تقدموا! اللعنة!

ثمّ صرخ الرقيب بصوت أكثر قساوة:

– سيُقتل كلّ جبان يفكر بالتراجع خلفاً من قبل مدافعنا التي تمركزت خصيصاً لهذا السبب في أسفل التلّ. وإن استطاع أحدكم رغم ذلك النجاة من المدافع، سيتم إطلاق الرصاص عليه بتهمة الفرار.

كان صوت صفارته يغضب الجنود أكثر ممّا يشجعهم. تراجع البعض منهم إلى الخلف ولكنهم قتلوا بنيران المدافع القريبة من الخندق الفرنسي. لذا أدرك هيبوليت أنّه لم يعد بإمكانه التقدم ولا التراجع، فبقي هو ورفاقه عالقين في مكانهم يبحثون عن حلّ. فجأة، لمحوا جنوداً قادمين من أسفل التلّ، لم يستطع هيبوليت تمييزهم بسبب المطر الغزير. كان يأمل أن تكون التعزيزات قد وصلت، ولكن عندما اقترب الجنود منهم اكتشف أنّه كان مخطئاً بشدة. خُدع الرفاق مجدداً بجنود العدو الذين خرجوا من الخلف. لا أمل في الحصول على حماية، فقد أصبحوا محاصرين الآن بين خطين للنيران. وفي النهاية جاءت الأوامر من الرقيب الذي كان مختبئاً خلف ركام الجثث، بالتصدي للجنود القادمين من الأسفل أولاً.

أطاعه جنوده محاولين القيام بمناورة وقد تضاعفت خسائرهم. كان الرصاص يطوقهم في حين كان ضوء النهار يرتفع تدريجياً. لقد استطاع الفرنسيون قتل جميع الألمان الذين خرجوا من أسفل التل، ولكنهم تكبّدوا خسائر فادحة...

كان هيبوليت الناجي الوحيد الذي بقي على قيد الحياة في الموجة الأولى من الاعتداءات. لم يشعر أنه بطل وإنما بالأحرى حيوان مطارد. أصبح تنفسه متقطعاً وقلبه ينبض بسرعة، فقد كان يتوجب عليه أن يقرر بسرعة. فالصعود يعني أن يواجه وحيداً معقل رشاشات العدوّ، والنزول يعني المخاطرة بأن يُقتل بتهمة الفرار.

قام بتتبع آثار خطى الألمان الذين خرجوا من الخلف، فاكتشف وجود نفق مع أنّ مدخله مخبأ بساتر ترابي، فهو يمتلك معرفة عميقة بالأنفاق لكونه كان عضواً في إحدى القطع التطوعية، وقد توجب عليه عبور الأنفاق عدة مرات في ذلك الحين من أجل تنفيذ مهام المغاوير. فالجنود المحترفون في الجانب الفرنسي كما في الجانب الألماني على حد سواء هم أشبه بالخلدان في حفرهم الأرض لبناء الدهاليز ووضع المتفجرات تحت خطوط العدو.

عبر هيبوليت المدخل فقادته الخطوات إلى ممر تحت الأرض. كل شيء كان مدعماً بالعوارض. اكتشف أنّ الألمان الذين تمركزوا منذ فترة طويلة، قد أخذوا وقتهم في تدعيم هذه الشبكة من الدهاليز تحت الأرض لتجنب تعرضهم للمدفعية الفرنسية ولتمكينهم من الخروج في لحظة الاشتباكات بقوات سليمة. لهذا، وبما أنّهم لم يكونوا في أعالي التلة، فإنّ المدفعية الفرنسية التي كانت تدك طوال الأيام الماضية الأخيرة لم تؤثر عليهم على عكس توقعات الجنرال نيفيل.

تابع هيبوليت تقدمه في النفق مكتشفاً وجود صناديق متفجرات. فجأة، سمع ضجة فاختبأ في أحد الشقوق ولاحظ اقتراب جنديّ ألماني. انتظر إلى أن تقدم الجندي بما فيه الكفاية ومن ثمّ هاجمه من الخلف بأن كمّ فمه وذبحه. كانت حركات هيبوليت بسيطة ومحددة وفعالة، انسكبت على إثرها

دفقات دماء دافئة من الشريان السباتي للجندي. وقام بإفلات الجندي من يديه بعد ذلك فانهار الجسد كدمية من القماش.

سُمع صوت يصرخ بالألمانية: «هينريش! أين أنت؟ ما الذي جرى؟؟ هينريش!» وحينما لم يتلقَ أي ردّ شرع الجندي راكضاً. ولكنّ هيبوليت فاجأه وقتله هو الآخر سريعاً بنفس طريقة رفيقه. تلطخ لباس هيبوليت العسكري بدماء أعدائه.

سمع أصواتاً أخرى، كانت هذه المرة لجنديين ألمانيين ينقلان صندوق متفجرات. أخذهما هيبوليت على حين غرة، فطعن بخنجره الجندي الأول وقتله بسهولة، ولكن الجندي الآخر الذي كان أكبر وأضخم منه، أمسكه من صدره وطوّقه بذراعيه الضخمتين. ولكنّ هيبوليت الذي كان الأضعف، وجد في نفسه القدرة على الإفلات منه بتوجيه لكمة قوية له، قبل أن يواجهه بخنجره الذي يلوّح به أمامه.

حافظا على مسافة بينهما وقد أصبحت أنفاس كل منهما متسارعة. كان الآخر أكثر ثقلاً وقدرة ولكن أقلّ يقظة. تمكن هيبوليت من إصابته بعدة جروح ولكن هذه الجروح لم تكن بالعمق الذي يكفي لإبعاد خصمه خارج اللعبة، فطبقات الدهون في جسمه كانت تحميه كما لو أنّها دروع. في النهاية استطاع الألماني تجريد خصمه من السلاح وتثبيته أرضاً بالضغط عليه بكلّ ما أوتي من قوة. أمسك هيبوليت بصعوبة معصم العدو الذي كان يحمل الخنجر الذي يقترب بشكل خطير من وجهه، بينما يحاول بيده الحرة الأخرى الضغط على حنجرة العدو. ولكن، هنا أيضاً انزلقت أصابعه في طيات دهون الرقبة الزيتية.

بدت له هذه المواجهة كأنها استمرت إلى الأبد. شمّ هيبوليت الرائحة الحامضة التي تنبعث من وجه خصمه الذي يبعد عنه بضعة سنتيمترات فقط. سقطت بضع قطرات من العرق على جبهته. تابعت السكين المسلطة على عينه اليمنى نزولها بثبات. راح هيبوليت يتخبط محاولاً الضغط على رقبة الألماني ولكنه لم يستطع الاستمرار أكثر في ذلك. توقف عن الضغط وبدأ يشعر بالسكين تنغرز في عينه اليمنى وتعبر جمجمته بصوت يشبه تكسر الخشب الجاف.

استيقظ رينيه توليدانو متفضاً، وقد أصيبت عينه اليمنى بعُرّة[1] تشنجية. فتدخلت المنومة المغناطيسية فوراً:

- كلا! لا تفتح عينيك الآن نهائياً! علينا احترام العتبات من أجل الخروج من التنويم المغناطيسي، مثلما نفعل تماماً عند ممارسة رياضة الغطس. أغلق جفنيك مجدداً.

لم يُقِم أستاذ التاريخ اعتباراً لهذا الأمر. كان يمكن لجميع المشاهدين معرفة أنّه متوتر وأنفاسه متقطعة وأنّ كل خلية في جسمه ترتجف. أطلق صرخة غاضبة، وترك المسرح هارباً باتجاه باب الخروج. أرادت صديقته إيلودي إيقافه ولكنه دفعها وخرج من باب مسرح صندوق باندورا. راح يركض على طول ضفاف نهر السين وعينه اليمنى لا تتوقف عن الفتح والإغلاق دون أن يتمكن من السيطرة عليها. ظلّ يركض لفترة طويلة قبل أن يتوقف ليلتقط أنفاسه ويتقيأ في النهر.

بدأت عرّة عينه تختفي. راح يفكر من جديد بالجنرال نيفيل الذي أنبأهم بنصر مؤكد قائلاً: «كونوا أبطالاً!»

عن ماذا تتحدث! لقد كنا خرافاً منقادين وراء رعاة عميان.

وكما كان يخشى، أدرك أنّ هذه المنومة لا تتقن تقنية الغوص في اللاوعي، وأنّه كان أول فأر تجارب يتعرض لتجربة سيئة التحكم، فقد أخفقت في قيادة عملية الغوص وأخفقت أيضاً في قيادة عملية الصعود، وفشلت على الأخص في تحقيق رغبتها في جعله يعيش لحظات سعيدة.

لم يكن ينبغي تنفيذ طلبها. جُلّ ما فعلته أنها جعلتني أغوص في كابوس أمام جمهور من المتلصصين الذين لا بدّ أنهم وجدوني شخصاً مثيراً للشفقة.

عادت إلى ذاكرته المشاهد الدقيقة لهجوم شومان دي دام كأنّها فيلم، باستثناء أنّه الآن يعيش كل الأحاسيس الجسدية سواء من البرد أو من شعوره

1- العُرّة: هي تشنج عضلي في الوجه تأتي بشكل عفوي تعبيراً عن مشكلة انفعالية معينة مزمنة عند الشخص. المترجمة

بأنّ الأرض تهتز على وقع ضرب المدافع، كما أنّه يستطيع استنشاق روائح الدخان والأجساد المحروقة. لا يمكن أن يكون قد اخترع كلّ هذا في خياله.

لا يمكننا إدراك أنّ هناك أناساً عاشوا بالفعل هذا الجحيم ما دمنا لم نذهب فعلياً إلى هناك.

تنهد من جديد عندما تذكر واحداً من رفاقه رأى قدمه تنفصل عن جسده وتطير بعيداً عنه على إثر إصابته بقذيفة.

- هيه! أنتَ!

رفع رينيه رأسه وإذ بخيال أحدهم يقترب منه. كان شاباً حليق الرأس يرتدي زي سكينهيد[1] الكامل؛ أي سترة عسكرية وحذاء رينجر ويضع أقراطاً في أنفه وأذنيه.

قال له:

- أعطني نقودك بسرعة!

كان الشاب يتحدث بلكنة ألمانية واضحة، وجسده موشوم في جميع أنحائه بدلالات نازية واضحة كالصليب المعقوف والجمجمة ورمز إس إس[2].

استلّ الشاب سكين الجيب، فتراجع رينيه إلى الخلف ولكن لم يكن خلفه سوى النهر.

أصرّ الآخر:

- هيّا! أعطني محفظتك.

شمّ أستاذ التاريخ مع اقتراب الشاب منه رائحة أنفاسه المفعمة بالبيرة. لقد كان رينيه مشلولاً غير قادر على الإتيان بأية حركة ولا حتى بقادر على التحدث.

- لا بأس، سوف آخذ محفظتك من جثتك وبعدها سأرميك في النهر لتكون عشاءً للأسماك.

1- (Skinhead) أو جماعة الرؤوس الحليقة. المترجمة

2- فافن إس إس هي الجناح العسكري للحزب النازي. المترجمة

ابتسم السكينهيد كاشفاً عن أسنانه المذهبة، ومن ثمّ غيّر ملامح وجهه كازّاً على أسنانه وتقدّم بهيئة مهدّدة حاملاً السكين أمامه.

إنّ هذا حلم، ها أنا ذا مجدداً في كابوس آخر، ولكنه أكثر حداثة هذه المرة. أو أنني ما زلت تحت تأثير المنومة المغناطيسية. أعتقد أنّ هذا واقعي ولكنّ كل شيء يحدث في خيالي. يجب أن يكون هناك عدّ تنازلي وبعدها سوف يختفي كلّ هذا. 10... 9...8

عندما وجّه السكينهيد السكين إليه تحايل رينيه توليدانو متجنباً إياها بشكل لا إرادي. خدش رأس السكين يده فشعر بإحساس حارق وشاهد دمه ينزف. نظر إلى يده كما لو أنّها لا تنتمي إليه.

إن كان هذا حلماً فلماذا أشعر بالألم؟

تمكن رينيه عندما تلقى الضربة الثانية من إبعادها بتصليب يديه أمامه. ثم أمسك أستاذ التاريخ، وبشكل غريزي، بمعصم السكينهيد وقام بليّه للخلف وأجبره على رمي السكين. وعندما بدا له أنّ هذا الآخر غير متوازن، قام رينيه بثني ساقه كي يسقطه أرضاً. شعر رينيه توليدانو أنّه يمتلك مهارات قتالية كان يجهل تماماً وجودها.

ركل السكين بقدمه جاعلاً إياها تطير باتجاه النهر. أمّا السكينهيد فبدأ يوبخه ويشتمه باللغة الألمانية، وانكمش على نفسه كثور يستعد للقتال، من ثمّ استلّ خنجراً ثانياً ذا شفرة أعرض وأكثر طولاً كان يخفيها في غمد مربوط على ساقه. توقفت بعض الجرذان المندفعة التي كانت تعبر من هناك كي تراقب هذا الصراع الممتع بين الذكور البشرية.

بدأ السكينهيد هجومه الجديد.

تلاحم الجسدان وسقط المتقاتلان على الأرض وأخذا يتدحرجان. كانت يدا كلّ منهما تحاولان الإمساك بالآخر وأظافرهما تحاول الخمش وأسنانهما تحاول العض. كما كانت عينا كل منهما غاضبتين وفماهما مكشرين، ولا يفصل بينهما سوى شفرة السكين التي تُدفع حيناً ويُلوّح بها حيناً آخر.

وقام رينيه توليدانو بحركة وقلبَ شفرة الخنجر باتجاه المعتدي الذي قام وهو يدور حول نفسه، بغرّ الخنجر في صدره.

آه، كلا.

كفّ أستاذ التاريخ عن تطويقه، فحاول الشاب النهوض ولكنّ مقبض الخنجر كان قد اخترق صدره، كشّر قليلاً ولكنّه بعد أن حاول على نحو أخرق الوقوف على قدميه، سقط على ركبتيه منحنياً إلى الأمام فأخذ الخنجر ينغرز بعمق أكثر.

كلا، كلا، كلا، كلا، كلا

تفاجأت الجرذان بتوقف الأحداث بهذه السرعة.

تقدّم رينيه ببطء خشية أن يكون خصمه يدّعي الموت. قام بقلبهِ، ولكنّه لم يعد يتحرّك وعيناه مفتوحتان على اتساعهما، والدماء تسيل من زوايا شفتيه.

هذا لم يحدث، ليس لهذا وجود، سوف أستيقظ قريباً من هذا الكابوس.

بما أنّ شيئاً لم يحدث، وضع رينيه توليدانو يده أمام فم وأنف المعتدي كي يعرف إن كان ما يزال يتنفس، ومن ثمّ لمس صدره فاكتشف أنّه لم يعد يرتفع وينخفض. جسّ معصميه باحثاً عن أقلّ نبض ولكن دون جدوى.

أعتقد أنّ هذا لم يعد تنويماً مغناطيسياً ولا حلماً... إنّ هذا يجري هنا والآن في هذه الحياة.

أخذ قلب رينيه يخفق بشدة ويتنفس بصعوبة شاعراً بطعم مرّ في حلقه. تراجع إلى الخلف مبتعداً عن الجسد، أدار رأسه ليرى إن كان هناك أيّ أحد قادم.

ولكن ما الذي فعلته؟

عاد وجلس أمام جسد ضحيته الذي لم يتوقف عن سكب الدماء الحمراء. اقتربت الجرذان لتشمّ رائحة الدماء التي تسيل بعيداً.

هذا فظيع. يجب عليّ الذهاب إلى أقرب مركز شرطة لأشرح لهم حقيقة ما جرى... لقد حصل هذا دفاعاً عن النفس. تحدُث يومياً مثل هذه التهديدات في الأماكن المهجورة... وأنا لم أقم سوى بالدفاع عن نفسي.

أشاح بنظره من جديد، هذا الجزء الغربي من النهر ليس سياحياً مثل غيره لبعده عن مركز المدينة، وبالتالي لا يقصده الكثير من الناس.

يجب أن أقول الحقيقة.

بقي مكانه يحدّق في جسد السكينهيد.

لن يصدقني رجال الشرطة، سيقولون إنّني طعنت متشرداً. لا شيء يثبت أنني كنت في حالة الدفاع عن النفس. حتى جرح يدي؟ إنّه خدش بسيط، سوف يسخرون مني.

نظر في كلّ مكان حوله ولم يلحظ وجود أيّ شاهد. لذا قام بالانقياد وراء غريزته التي جعلته يقوم بسحب المعتدي حتى حافة النهر. أخذ السكين وقام برميها بعيداً في النهر. وبطرف قدمه، دفع الجسد تاركاً إياه يغرق في الماء.

ولكن ما الذي جرى لي؟ لقد قتلت رجلاً وها أنا الآن أتخلص من جثته برميها في النهر.

ومن سفينة صندوق باندورا التي تضيء في البعيد، كانت أصوات التصفيق تتواتر إلى مسمعه بشكل منتظم. عادت إليه عرّة عينه اليمنى من جديد.

ما هذه الفوضى التي أقحمت نفسي فيها؟

ركب سيارته المركونة بعيداً عن هنا وولّى هارباً في الليل.

راحت الجرذان تلعق بشيء من الإحباط بقعة الدم الصغيرة التي كانت الشاهد الوحيد على هذه المواجهة، وهي تتلذذ بتذوق أثر البيرة في الدماء.

-4-

حينما وصل إلى منزله سارع في إغلاق باب المدخل خلفه وبقي متسمراً في مكانه كأنه خائف من عدو يلاحقه. بعد أن أحكم إغلاق الباب بالأقفال جيداً، أخذ يتأمل ديكور منزله الذي يألفه جيداً، فشقته هذه تقع في الطابق السابع من مبنى صغير يتبع إدارياً للدائرة الخامسة عشرة في باريس بالقرب من محطة ميترو تدعى شارل–ميشيل.

حين وقف في غرفة الاستقبال، شعر أنّ مجموعة الأقنعة التي اقتناها من مختلف أنحاء العالم، كما لو أنّها تسخر منه تماماً مثلما فعل جمهور مسرح

صندوق باندورا. وبدا له على الأخصّ أنّ القناع الياباني للمسرح الكابوكي والقناع الإفريقي لسكان ساحل العاج والقناع الاحتفالي لسكان البندقية، هي الأكثر شراسة بالنظر إليه.

راح يتنفس بقوة.

لقد قتلتُ رجلاً!

اتجه رينيه توليدانو إلى الحمام وغسل يديه بالماء البارد. عقّم الجرح الصغير في يده ولم يكلّف نفسه عناء وضع ضمادة عليه. رمى بثيابه الملطخة بالدماء في الغسالة، وبعدها نظر إلى نفسه في المرآة الموضوعة فوق المغسلة وأزاح خصلة من شعره عن جبهته بحركة تشبه حركات هيبوليت. عادت العرّة إلى عينه اليمنى.

– من أنا؟ سأل رينيه كما لو أنّه يتحدث لخياله في المرآة.

لا أعرف نفسي. من هو هذا الشخص الذي أراه في المرآة؟ هل حقاً هذا أنا؟ لماذا أملك هذا الجسد وهذا الوجه؟ هل هذا المظهر يتوافق مع من أنا عليه حقاً؟ من هذا الرجل الذي يظن نفسه بطلاً، وما هو في الحقيقة إلا وحش؟ كلّ هذا هو ذنب «ذاكرتي الدفينة». هذا الكهف السرّيّ الذي لم يكن ينبغي عليّ فتحه على الإطلاق.

شعر برغبة في التقيؤ.

– من هذا الشخص الذي كنت عليه؟ سأل نفسه.

ولكنه لم يتجرأ على نطق ما جال في خاطره:

لقد كنت قاتلاً، ونسيت ذلك ولكنني عدت وتذكرته ثانية والآن... أصبحت كذلك من جديد.

استحوذت على كيانه صور جميع الجنود الألمان الذين قتلهم بدم بارد في ذلك النفق.

لقد حدث ذلك أثناء الحرب لذا فهو مسموح، وهذا ما كان يعنيه في الأصل أن تكون بطلاً.

عاودته العرّة في عينه من جديد، فأغلق عينيه وضغط على جفنيه بيديه.

تناهت إلى خاطره ذكريات قديمة جداً، فمنذ أن كان طفلاً صغيراً وهو يسعى دوماً لعيش حياة هانئة. لقد تلقى تعليماً مدرسياً جيداً وكان طفلاً فضولياً. كانت أمّه مدرسة علوم وقد تفانت في تربيته التربية الصالحة والخلوقة، ولطالما قالت له: «إن فعلت شيئاً سيئاً يجب عليك الاعتراف به، فالذنب المُعترف به عقابه مخفّف. ممنوع أن تكذب أو تخفي شيئاً ما، تذكر هذا جيداً يا رينيه الذنب المعترف به عقابه مخفّف». أمّا والده فكان أستاذاً في التاريخ وهو الذي علّمه كيف ينأى بنفسه عن جميع الأُطر المسبقة التي يفرضها المجتمع عليه. وبحسب وجهة نظر والده، فإنّ أفضل طريقة لامتلاك رؤية واضحة عن وجوده الشخصي هي معرفة ما يدعوه «بماضي القطيع الذي ينتمي إليه».

وفي طفولته، أشبع والده إميل مخيلته بقصص تاريخية حقيقية، فهو من زرع فيه المتعة والفضول لمعرفة تاريخ أجدادهم. وبهذا كان والده هو من شقّ له الدرب أولاً، وما كان من رينيه إلّا أن يتبع غريزياً هذا الدرب.

وبفضل والده أيضاً اكتشف بشغف كبير الأساطير اليونانية القديمة والنصوص اللاتينية العظيمة ونثريات العصور الوسطى. وفي إحدى المرات وبينما كان والده يروي له أحداث ووقائع المعارك الكبرى، توقف فجأة عن الكلام وأمسك بعدها بيد ابنه وقال له بغتة وبشكل رصين:

- يا بني، عليك أن تعلم أنّ الحرب، الحرب الحقيقية مروعة وفظيعة، ترى فيها مشاهد شنيعة لأناس بسطاء يُقتلون دون أن تكون لديهم أدنى فكرة بعضهم عن بعض. وتتكرر المشاهد المروعة ذاتها في المستشفيات بوجود الضحايا المصابين، وفي السجون بوجود الأبرياء المتعفنين في الزنازين. صدقني يا بني، ليس هناك ما هو مثير أو جميل في أية معركة. ومع ذلك، وبكلّ أسف، فإنّ المعارك هي أكثر ما نحتفظ به من التاريخ. كم أودّ بالفعل أن نحظى بتاريخ لا نسجّل فيه سوى لحظات السعادة والفرح، ولكن هذه الأمور لا تهمّ أحداً.

وفي أحد الأيام عندما كان رينيه عائداً من المدرسة، ولم يكن حينها قد تجاوز الحادية عشرة من عمره، قال لوالده:

- لقد طلبوا منا يا أبي في المدرسة حفظ تاريخ «1515م، معركة مارينيانو»، ولكنهم لم يقولوا لنا تقريباً أيّ شيء حول هذه المعركة. لذا أريد أن أسألك لماذا جرت هذه المعركة؟ وأين تقع مارينيانو؟ وماذا كان الهدف منها؟

- إنّه سؤال جيد يا عزيزي رينيه. تقع مارينيانو شمال إيطاليا، وقد أراد حينها الملك فرانسوا الأول أن يثبت مكانته كملك شاب لأنّه قادم بطريقة غير شرعية[1]. ولهذا انتظر أن تسنح الفرصة كي تستطيع هذه المعركة إحداث ضربة عنيفة. لذلك انتهز فرصة انتشار الشائعات عن فساد أخلاق نبلاء شمال إيطاليا الذين كانوا يلقون أيضاً معارضة من البابا، ليتحمّس مقترحاً على الحبر الأعظم تأديب مدينتين إيطاليتين ليكون مصيرهما كمصير سدوم وعمورة. فدخل الجيش الفرنسي عبر جبال الألب إلى شمال إيطاليا. وفي المقابل اشترى سكان ميلانو وتورينو جيش مرتزقة سويسرياً لمواجهتهم. مع أنّ مارينيانو تقع في إيطاليا فإنّ المعركة قامت بين فرنسا وسويسرا. وكانت المعركة في البداية مخفقة كلياً! فقد أضاع الجيشان وقتهما يبحثان بعضهما عن بعض في الثلج والضباب دون جدوى. وفي النهاية، حدثت إصابات بالغة عن طريق الخطأ في كلا الجيشين، حيث أطلق الجيشان النيران على قطعهم بسبب عدم وضوح الرؤية، معتقدين أنّهم يوجهون ضرباتهم إلى العدوّ. ولكن في الصباح، نجح السويسريون الذين كانوا أكثر دهاء بقليل، بتقفي أثر الفرنسيين وكانوا على وشك الفوز في المعركة قبل أن يصل لمؤازرة الفرنسيين جيش البندقية الذي انقضّ على السويسريين ففازوا على إثرها بشكل ساحق في القتال. بعد هذا، انسحب الفرنسيون من إيطاليا.

- إذن كانت هذه المعركة عديمة الفائدة يا أبي!

- مات الكثير من الناس الأبرياء في الثلج ذلك اليوم دون جدوى. لم تكن هذه المعركة سوى حملة دعائية. فقد سوّقت بالطبع للملك

1- انتقل إليه عرش فرنسا بعد وفاة أحد أعمامه. المترجمة

فرانسوا الأول، وذلك بإعلان نفسه الفائز الأعظم فيها وتقديم نفسه كقائد عسكري كبير ذي شخصية جذابة جداً. وقد نسي الجميع التدخل المصيري لجيش البندقية الذي بفضله انقلبت نتائج المعركة، وعزّز فرانسوا الأول على إثر ذلك مكانته بين شعبه باعتباره الملك المنتصر. العبرة من كل هذا يا صغيري أنّ المهم ليس ما يجري بالفعل على أرض الواقع وإنما ما يكتبه المؤرخون حول ذلك.

- إذن فالمؤرخون هم الأكثر أهمية في كلّ ما يحدث؟ ولهذا أنت مؤرخ يا أبي؟

لم يجبه والده عن سؤاله، وإنما أكمل قائلاً:

- بعد ذلك اقتنع فرانسوا الأول أنّه بالفعل هو من انتصر في المعركة وأنّه قائد استراتيجي. ولذلك فقد أقحم نفسه في مواجهة كبيرة ضد منافسه الأساسي الإمبراطور كارلوس الخامس في معركة بافيا في عام 1525م، حيث خسر الملك فرانسوا الأول خسارة كاسحة وأُسِر على إثرها وتوجب عليه دفع فدية كبيرة ثمناً لإطلاق سراحه وهذه الفدية أدّت إلى تدمير البلاد. وبعد ذلك تراجع الملك عن الحروب وكرّس نفسه للرسم والموسيقى وغرامياته مع النساء. ومن هنا جاءت صورته كملكٍ جذاب وساحر وراعٍ للفنون. إذا أردنا أن نعود في النهاية إلى معركة مارينيان، فإنّ الحقيقة وراء تَذكُّر كلّ من التلاميذ والأساتذة لهذه المعركة فلأنّ تاريخ حدوثها في العام 1515 م سهل تذكره قبل أيّ اعتبار آخر!

لقد كشفت هذه المحادثة بالنسبة لرينيه الكثير من الأشياء وفتّحت مداركه أكثر.

أضاف والده قائلاً:

- لم يقدم المؤرخ جول ميشليه يد المساعدة في هذا المجال، فقد كتب في العام 1840م تاريخاً عظيماً لفرنسا وقد أصبح هذا الكتاب مرجعاً مطلقاً عن كلّ ما يجب معرفته وقوله عن ماضينا. فكان هو من انتقى لنا المعارك المصيرية، واختار لنا الملوك الذين بدوا له حاسمين والملوك

الذين برأيه كانوا ضعفاء، كما حدّد لنا أيضاً كيفية قراءة الوقائع. ولكنه شوّه كلّ شيء في خدمة نظرته السياسية والشخصية، ولم يأتِ أحد بعده ليناقض كلامه.

حفظ رينيه في ذاكرته أنّ كلّ ما نعرفه عن الماضي ليس سوى صورة مشوّهة عن الحملة الدعائية التي ينشرها المؤرخون لإرضاء المسؤولين الأقوياء المسيطرين. ألّف رينيه بشكل عفوي، بعد هذه المحادثة الغنية عن معركة مارينيان، ملفاً شخصياً له باسم «مذكرات»، حيث ذكر فيه النسخة الحقيقية غير المعروفة كثيراً عن الأحداث التاريخية التي لا يريد نسيانها. كما تذكر أيضاً المحادثات العظيمة التي جرت بعدها مع والده إميل حول موضوعات أخرى مدهشة أيضاً والتي مكنته من إكمال كتابة ملفاته الشخصية في مذكراته.

سأل رينيه والده في أحد الأيام:

– لماذا لا تذكر يا أبي في دروسك هذه القصص التي ترويها لي؟

نظر إليه إميل نظرة جدية وقال له:

– تذكر هذا جيداً يا بني؛ لا نستطيع أن نكشف للناس بشكل مفاجئ وقائع ما جرى فعلياً في الماضي. لأنّ الحقيقة سوف تبدو مشبوهة بالنسبة للناس الذين اعتادوا على الأكاذيب.

لهذا وعد رينيه نفسه: «غداً عندما أكبر، سأصبح أنا أيضاً أستاذ تاريخ، باستثناء أنّني سأتجرأ على قول الحقيقة لجميع الناس ولا يهمّ إن لم يصدقني أحد».

أمّا والدته بينيلوب، فعندما لاحظت حبّ الفضول لدى ولدها والعلاقة الجميلة التي نشأت بينه وبين والده، لم تشأ هي الأخرى أن تبقى على الحياد. لذا أغدقت عليه من جهتها بالكثير من المعلومات العلمية هذه المرة، فحدثته عن آلية عمل الدماغ وعن أصل الكون. ولكنّ أمّه كانت عصبية المزاج جداً وكثيرة التدخين، وقد توفيت بعد سنوات لاحقة بسرطان الرئة. فأصيب إميل على إثر وفاتها بالاكتئاب، وفي تلك الفترة بالذات بدأت أولى علائم هفوات الذاكرة بالظهور لديه. فأحياناً كان يدخل إلى إحدى الغرف وينسى

ما الذي جاء ليبحث عنه. كما راح ينسى بداية أحاديثه فيقول سائلاً: «عمّ كنا نتحدث في البداية؟»، «ماذا كان سؤالك؟»، حتى إنّه نسي مرةً رمز الدخول إلى المبنى الذي يسكن فيه. كما أنّه ضاع في إحدى المرات ولم يستطع تذكر عنوان منزله، مع أنّ عمره آنذاك لم يكن سوى 55 سنة. استشار بعدها طبيب أعصاب ووقع التشخيص على كلمة ألمانية فظيعة وهي: «ألزهايمر»، إنّ هذا البلد لم يجلب الحظ لعائلتهم على الإطلاق. لهذا تقاعد والده على الفور من العمل وبشكل مبكر.

لذا توجّب على رينيه حينما كان لا يزال طالباً في الثالثة والعشرين من عمره، التوقيع على أوراق رسمية لقبول والده في أحد المراكز المتخصصة التي تدعى عيادة الفراشات. كان شعار هذه العيادة بسيطاً وهو: «الذاكرة هي كلّ شيء». أما الرسم المرافق للشعار فكان يمثل جمجمة متشققة تخرج منها فراشات، وهي ترمز بلا شك إلى الذكريات.

لم يتوقف رينيه منذ ذلك الحين عن زيارة والده مرة واحدة على الأقل أسبوعياً. وكان يلاحظ أثناء حديثه معه كيف أنّ عالمه ينكمش ويذوب شيئاً فشيئاً كما تذوب قطعة الثلج تحت أشعة الشمس. فقد عانى والده بداية من تذكر جميع الأسماء والكنى، فكثيراً ما كان يسأله: «ماذا كان اسم رئيس الجمهورية؟»، «ماذا كان اسم والدتكَ؟»، «ماذا كان اسمكَ أنت؟». وبعد نسيان الأسماء، صار ينسى المفردات: «هل تعلم اسم هذا الشيء الذي نستخدمه لفتح زجاجات النبيذ والذي له مقبض متحرك؟»، «هل لديك كرة زجاجية أخرى من هذه الكرات التي تعطينا الضوء، ماذا كان اسمها، تلك التي تحوي سلكاً كهربائياً بداخلها؟».

اكتشف رينيه حينها مصدراً آخر للقلق، فقد تكوّن لديه انطباع وهو ينظر إلى والده يغرق شيئاً فشيئاً في النسيان، أنّه هو الآخر سوف ينتهي به المطاف مثل والده، فمن المعروف أنّ هذا المرض ينتقل بالوراثة. ولهذا السبب كانت هفوات النسيان التي أصبحت تصيبه مؤخراً تقلقه بشكل جدّيّ. تصوّر أنّ دماغه يشبه حقيبة ظهر فيها ثقب صغير تسقط من خلاله الأغراض الصغيرة، وسوف يتوسع هذا الثقب أكثر فأكثر إلى أن يسمح بسقوط الأشياء الكبيرة، وبعدها ستسقط كلّ الأغراض وكل الذكريات وجميع الوجوه والأسماء

والكُنى وكلّ فتّاحات زجاجات النبيذ والمصابيح الكهربائية وأخيراً ستسقط كلّ الكلمات.

كلّ شيء يختفي بالنسبة لوالدي، وكلّ شيء سيختفي بالنسبة لي أيضاً، فهذه ليست سوى مسألة وقت.

حتى هذا المساء، كان رينيه رجلاً يتمسك بذاكرته كما يتمسك غريق بطوق نجاته. كان رجلاً مسالماً وموظفاً مجدّاً يعيش حياة رتيبة، ولديه صديقته إيلودي، كما أنّه أستاذ تاريخ متحمس يتمتع بحظوة من قبل مرؤوسيه، وينتظر أن يتقاعد في المستقبل وشبح رهيب يطاره يدعى «ألزهايمر».

هذا ما كان عليه قبل ساعة من الآن، إلى أن عاش هذا الاكتشاف «للذاكرة الدفينة»، وبعد أن حصل له أمر غير متوقع أجبره على اكتشاف جزء مخبأ من نفسه.

كان هناك قاتل مختبئ خلف الباب المدرع للاوعي. ذاكرة مدفونة خلف ذاكرتي العادية قام بإظهارها هذا العرض. لو أنني لم أحضره لكنت سأستمر في العيش دون الوصول إليه أبداً.

غسل وجهه بالماء البارد.

يجب عليّ أن أعرف.

شغل جهاز الحاسوب ونقر على محرك البحث؛ «معركة شومان دي دام».

علمَ أنّ الخط الأمامي للجبهة كان يمتد بين مدينتي سواسون وريمس. وبالفعل بدأت أول حملة للفرنسيين ضد خطوط الألمانيين في تاريخ السادس عشر من نيسان/ أبريل عام 1917م عند السادسة صباحاً. بلغ عدد الجنود من الجانب الفرنسي 850000 جندي، بمقابل 680000 جندي ألماني. وكان الجنود الفرنسيون يخضعون بالفعل لأوامر الجنرال نيفيل. تبيّن بعد المعركة أنّ الألمان قد بنوا شبكة واسعة من الأنفاق العميقة تحت الأرض، وهذا ما اعتادوا فعله منذ عام 1914م، وقد دعموها بقوة وهذا ما مكّنهم من الوصل بين مؤخرة الجبهة والخطوط الأمامية. لهذا السبب، وعلى الرغم من قصف الدبابات الفرنسية التي كانت مهمتها تنظيف التلة،

فقد وجد جنود المشاة الفرنسيين أنفسهم محاصرين بين فكي الكماشة بعد خروج أعدائهم من الأنفاق خلفهم. بلغت خسائر اليوم الأول للهجوم 150 ضابطاً و5000 جندي، كان نصفهم من الرماة السنغاليين. وعلى الرغم من وعد الجنرال نيفيل بأنّ الهجوم لن يطول أكثر من يومين كحدّ أقصى، فقد امتدت المعركة من 16 نيسان/ أبريل إلى 24 تشرين الأول/ أكتوبر من العام نفسه. وقد بلغ عدد الخسائر عند انتهاء المعركة نحو 187000 قتيل من الجانب الفرنسي مقابل 163000 قتيل من الجانب الألماني.

مع ذلك، أدرك رينيه أنّه لم يقم أيّ شخص بإجراء تقييم لهذا الخطأ الاستراتيجي الضخم. فقد نسوا في خضم نشوة انتصار الحلفاء، أنّه بقدر ما كانت هذه المعركة الرهيبة مميتة كانت بلا فائدة.

فبعد واحد وعشرين سنة، استعد الجنرالات الفرنسيون خلال الحرب العالمية الثانية بعد رضاهم عن نتائج الحرب العالمية الأولى لحرب خنادق جديدة. ولكنهم لم يتوقعوا أنّ الألمان كانوا قد أسسوا أثناء تلك الفترة لاستراتيجية تقوم على استخدام الدبابات في الخطوط الأمامية، هذا ما سمح لهم بتطويق الخطوط الأمامية للدفاعات الفرنسية بسرعة ودون صعوبة.

هذه هي الضريبة التي ندفعها عندما لا نستفيد من دروس الماضي.

بحث رينيه توليدانو على الإنترنيت عن القائمة الرسمية لأسماء قتلى الحرب العالمية الأولى. فاكتشف أنه بالفعل كان هناك عريف يدعى هيبوليت بيليسيه توفي بعمر 23 سنة أثناء الهجوم في معركة شومان دي دام.

بحث رينيه بالصدفة إن كان هناك صور لهذا المدعو هيبوليت بيليسيه. فوجد صورة يظهر فيها وجه يشبه في جميع النقاط ذلك الوجه الذي رآه أثناء جلسة التنويم المغناطيسي. نفس العينين البنيتين، واللحية نفسها، حتى الشفتان الرفيعتان والغمازة على الذقن هي نفسها. عاد رينيه إلى صفحة العريف.

كان هيبوليت بيليسيه عضواً في إحدى القطع التطوعية التي كُلّفت فيها طلائع المغاوير التي يتبع لها، بالقيام بالمهام الخطرة خلف خطوط الجبهة. وقد صُنّف هيبوليت كواحد من جنود النخبة بعد أن قتل العشرات من الجنود

في صفوف العدو أثناء مواجهات سابقة. وقد مات في أحد الأنفاق، وقُلّد وسام الشرف بعد وفاته.

لقد كان بطلاً، وفكرة أن يكون المرء بطلاً ليست بالضرورة فكرة جيدة. فالأبطال هم من يموتون أولاً، ولا يبقى حيّاً سوى الجبناء والمتخاذلون.

هؤلاء الجبناء والمتخاذلون هم الذين يعيشون حياتهم فيما بعد وينجبون الأطفال ويموتون بطريقة جميلة. وهم أنفسهم من يقصّون رواياتهم الشخصية عن الأحداث التي جرت. أمّا الأبطال الحقيقيون بما أنّهم ماتوا، فلن يكونوا حاضرين ليعارضوا هذه الروايات.

تفحّص رينيه من جديد صورة الجندي الشاب المتوفى.

أستطيع أن أصدق أنّ هذا القاتل كان مدفوناً في مكان ما داخل روحي، بيد أنّه قام بطعن الأعداء خلال الحرب، وهذا ما يعتبر عملاً بطولياً، ولكن ما فعلته أنا يسمى جريمة.

عكّرت صفوه صورة هيبوليت بيليسيه. فقد بدا له أنّ تجسده السابق ينظر إليه عبر الزمن.

لم أرغب مطلقاً في حياتي أن أضع حداً لحياة الآخرين، فهذا لم يكن قط مصدر سعادة لي.

لقد قتلتُ لأطيعَ أوامر قادتي في الحرب. قتلت لأحمي بلدي من عدوان أجنبيّ. والآن قتلت للتوّ بدافع إنقاذ نفسي. لقد كان هذا دفاعاً مشروعاً عن النفس.

راقب خياله المعكوس على شاشة الحاسوب.

هل هذه روح واحدة لجسدين مختلفين؟

تنهّد رينيه.

يجب عليّ الذهاب إلى الشرطة. سأقوم بذلك غداً صباحاً بعد أن أستيقظ.

استلقى على سريره ولكن ظلت عيناه مفتوحتين.

هل سأقضي بقية حياتي في السجن بتهمة القتل؟ بسبب ظهور تجسّد سابق لي خرج من ذاكرتي الدفينة على إثر جلسة تنويم مغناطيسي؟

كان القمر يطلّ من نافذته كعين ضخمة تنظر إليه بحنان أموميّ ولكن بشيء من الاستنكار.

«الذنب المعترف به عقابه مخفّف».

حاول أن ينسى ما جرى تاركاً نفسه تغرق في النوم.

5. مذكرات. ليثي، آلهة النسيان.

أنجبت إلهة الليل نيكس بحسب الأسطورة اليونانية، التوأم هيبنوس وهو إله النوم (الذي من اسمه جاءت كلمة هيبنوس أي التنويم المغناطيسي)، وأخاه تاناتوس إله الموت (الذي جاءت من اسمه كلمة تاناتوبراكتور أو تاناتونوت أي استحضار الأرواح).

إنّ الفارق الدقيق الذي يميز بين الأخوين التوأمين هو إمكانية الاستيقاظ.

أنجب هيبنوس من جهته مورفيوس (اشتقت منه كلمة مورفولوجيا[1])، وهو إله مهمته تسهيل نوم البشر. ويتصوّر هذا الإله بأشكالٍ مألوفة ومطمئنة لتسهيل وصول الإنسان للنوم.

كان للإلهة نيكس حفيدة اسمها ليثي، وهي تجسيد للنسيان. يتمّ الخلط أحياناً بينها وبين نهر الجحيم الذي يحمل الاسم نفسه، فمياه هذا النهر تجعل الأرواح تنسى ما كانت عليه في السابق كي تستطيع أن تولد من جديد بسلام وطمأنينة.

تحدث الشاعر فيرجيل[2] عن هذه الفكرة في القصيدة الغنائية السادسة من ملحمة الإنيادة حينما يزور إينياس الجحيم ويجد فيه والده:

«سأل إينياس والده أنتشيس:

– ما هذا النهر ومن هؤلاء الناس [...]؟

أجابه والده:

– هذه أرواح قُدّرَ لها أن تلبس أجساداً جديدة أُعدّت لها من قبل، وقد أتت

1- معناه علم التشكّل. ومن اسمه أيضاً اشتقت كلمة مورفين أي المخدر. المترجمة

2- شاعر روماني ولد عام 70 ق.م ألف ملحمة الإنيادة. المترجمة

كي تغترف من مياه نهر ليثي لتغرق في النسيان الكامل. كنت أتوق منذ زمنٍ طويل لأحدثكَ عن هذا يا بني. [...]

– هنالك إذاً أرواح مستعدة للخروج من هنا كي تولد من جديد وتسكن في كثافة الجسد؟

[...]

– حينما يختفي شعاع الحياة منهم، [...] تُطهّرُ الأرواح من الأدران التي سببها لها هذا الجسد [...]. بعد ذلك تعبر الأرواح حقول الإليسيوم[1] كي تتابع طريقها. ولا يبقى في هذه الحقول سوى بعض الأرواح الصالحة، مثلي أنا أنتشيسس، وتظلّ هذه الأرواح الصالحة محتفظة إلى الأبد بذاكرتها السليمة عن حياتها الأرضية. وفي المقابل لا تبقى بقية الأرواح هنا في حقول الإليسيوم سوى فترة وجيزة وكافية كي تجد الروح من جديد طهارتها وبساطتها.

جميع الأرواح هنا حين يأتي موعد عودتها إلى الأرض مجدداً، سوف تُدعى للوقوف في صفّ طويل على ضفة نهر ليثي لتشرب من مائه وتنسى كل ذكريات الماضي، ومن ثمّ تعبّر عن رغبتها في العودة إلى الجسد الآدمي، ومن هنا تبدأ رحلة تجسّد الأرواح. تتيح مياه نهر ليثي، مياه النسيان، لأرواح الموتى نسيان الذكريات الشنيعة لحيواتهم السابقة، كي يولدوا من جديد ويعيشوا في جسد جديد».

-6-

تفرّقت غيوم السماء لتكشف تدريجياً عن ضوء الشمس الوردي. وراحت طيور الحمام تهدل كما لو أنها تدعو بعضها بعضاً للغناء. لم يستطع رينيه توليدانو النوم في تلك الليلة، ألقى نظرة على ساعته التي كانت تشير إلى السابعة والنصف صباحاً. فنهض من فراشه متوجهاً إلى الحمام ونظر إلى نفسه في المرآة، فوجد أنّ مظهره شاحب وعينيه غائرتان.

1- Les Champs Elysées (الشانزيليزيه) في الأساطير الإغريقية تعني المكان الذي تأوي إليه الأرواح الصالحة في الجنة، لترتاح بعد موتها. المترجمة

البارحة قمت بعمل لا يُغتفر. سوف تداهمني الشرطة في أية لحظة، إلّا إذا كانوا بانتظاري في الثانوية ليلقوا القبض عليّ في مكان عملي، وربما يحدث هذا أمام تلاميذي. أيّ إهانة هذه: الرجل الذي أوكلت إليه مهمة تربيتكم لم يكن قادراً على ضبط نفسه وانساق بغريزة حيوانية وقام بعمل لا يغتفر.

رينيه الذي لم يكن يحبّ شيئاً في حياته مثل حبّه للسرية والتكتم، أخذ يتخيل الآن العناوين العريضة للصحف:

«أستاذ التاريخ وراء مقتل الشاب المتشرد».

اقشعرّ بدنه من هذه الفكرة، فردّد في نفسه:

قد يكون من الأفضل أن أسلّم نفسي للشرطة. ربّما كان هذا الأمر لمصلحتي. سأدعي أنني فعلت ذلك دفاعاً عن النفس.

ارتدى ملابسه بسرعة، والتقط حقيبة يده وأخذ سيارته وذهب باتجاه أقرب مركز شرطة.

بعد أن وصل أمام المبنى، تسمّر لبعض الوقت وهو يحدّق في المدخل مراقباً الرجال بالزي الرسمي الأزرق وهم يأتون ويذهبون.

هل سيصدقونني؟

وصلت سيارة شرطة وخرج منها رجل مكبل بالقيود. كان يقاومهم ويطلق الشتائم على رجال الشرطة قائلاً:

– اتركوني وشأني! هو من اعتدى عليّ ولم أقم إلّا بالدفاع عن نفسي.

ذُعر رينيه.

سيظنون أنني قتلت المتشرد بدافع التسلية فقط تماماً كما فعل أفراد العصابة في الفيلم البريطاني «برتقالة آلية». ولن يكون في مصلحتي ما فعلته إذ تخلصت من الخنجر والجثة ورميتهما في نهر السين. سوف أُحكم بالسجن لعشر سنوات على الأقل.

أعاد تشغيل سيارته وراح يستمع إلى المذياع محاولاً التهرّب من أفكاره. بدأ المذيع نشرة الأخبار أولاً بعرض نتائج مباريات كرة القدم. قدم الفريق الباريسي مباراة جميلة على الرغم من إلقاء القبض على كابتن الفريق في

أحد أماكن الدعارة وهو يتعاطى المخدرات. بعدها أكمل المذيع متطرّقاً إلى موضوع الحرب في سوريا. يبدو أنّ الرئيس الديكتاتور قد استخدم من جديد الغاز السام لإبادة شعبه المدني الأعزل. وقد قدّمت جمعيات مساعدة الضحايا الدلائل على هذا الهجوم الذي تسبّب بمقتل مئات الضحايا. وعلى إثر ذلك دعت عدة دول لإصدار قرار بإدانة رسمية لهذا العمل ولكنّ روسيا وإيران اللتين تدعمان الديكتاتور رسمياً، رفضتا ذلك مستخدمتين حق النقض/ الفيتو/ . ومن جهته أكد الناطق الرسمي باسم الحكومة السورية أنّ المتمردين هم من سمّموا أنفسهم من أجل جذب انتباه الرأي العام العالمي.

ومن جهة أخرى، أكمل المذيع معلناً أنّ إضراب موظفي السكك الحديدية مستمرّ على جميع الخطوط حتى عطلة نهاية الأسبوع. بعد أن رفضت النقابة الإصلاحات الجديدة التي طرحها رئيس الجمهورية. وقد أعلن هذا الأخير أنّه لن يستسلم على الرغم من العوائق. لذا فإنّ الصراع بالتالي قد يطول كثيراً.

تطرّق المذيع بعدها إلى ذكرى الإبادة الجماعية الأرمنية عام 1915م. فقد حذّر الرئيس التركي من أنّ كلّ البلدان التي تعترف بما أسماه «الكذبة التاريخية للإبادة الأرمنية» سوف تستبعد فوراً من جميع التبادلات الدبلوماسية والتجارية مع تركيا. إنّه ينفي بذلك مقتل ميلون ونصف مليون أرميني من قبل الجيش التركي، وعلى إثر ذلك انطلقت المظاهرات في الشوارع إحياءً لذكرى «مجزرة الأتراك ضد الأرمن عام 1915م». ومن جهتها طالبت الحكومة الأرمينية بلاد العالم كلها أن تتحلّى بالشجاعة لتفضيل الاعتراف بالحقيقة على المصالح الاقتصادية والدبلوماسية مع أنقرة.

وفي المتفرقات ذكر المذيع: وفاة ثلاث شابات فرنسيات عمرهنّ 20 عاماً في باريس بعد أن تناولن عقّار GHB أي غاما هيدروكسي بيوتيرات، والمسمى أيضاً «إكسير النسيان» أو «مخدّر الاغتصاب». إنّ هذا العقّار إذا لم يؤدِّ إلى الموت بسبب الجرعات الزائدة، فإنّ الضحية تكون معرضة للاغتصاب وبالكاد سوف تتذكر ما جرى وستكون بالتالي عاجزة عن تقديم أيّة مواصفات للمعتدي.

أمّا عن أحوال الطقس فقال المذيع: يتوقع أن يكون الطقس مشمساً في الأيام القليلة القادمة، كما يُحذّر من موجة حرّ شديدة طيلة أيام شهر أيلول/ سبتمبر.

انتهت نشرة الأخبار بإعلان نتائج اليانصيب.

تنفس رينيه توليدانو الصعداء، لعدم وجود أيّة إشارة لجثة وُجِدت عائمة في نهر السين.

قد لا يجدونها مطلقاً أو ربّما لن يأبهوا لهذا أبداً. ففي كل الأيام يسقط متشردون سكارى في النهر. المكان الوحيد الذي توجد فيه هذه المعلومة هو في ذاكرتي أنا. يكفي أن أنساه ليكون الأمر كما لو أنّه لم يحدث قطّ.

كان على وشك الاصطدام بسيارة على يمينه، حيث سارع السائق بإطلاق شتائمه مباشرة:

- هيه! الأولوية لمن أيها الأحمق! هل نسيت قوانين المرور؟

إنّه محق. كما يقول الشعار في عيادة أبي: «الذاكرة هي كلّ شيء». يجب أن أبقى متيقظاً، وعليّ أن أعيش في الحاضر وأن أنسى الماضي، إنّها مسألة مصيرية. ما لا نتذكره لا وجود له، أو بالأحرى لن يعود له وجود.

ذهبت البارحة مساء لحضور عرض تنويم مغناطيسي وقد وقع الاختيار عليّ لخوض تجربة جديدة لم تنجح المنوّمة في إدارتها، لهذا خرجت قبل نهاية العرض لأرتاح في منزلي.

هذا كلّ شيء.

ردّد ذلك في نفسه كتعويذة.

لم يحدث أيّ شيء آخر.

-7-

ركن رينيه توليدانو سيارته في موقف ثانوية جوني - هاليداي التي يتربع على مدخلها تمثال المغني، قدوة الشبان، جوني- هاليداي المتوفى عام 2017م. حيث يظهر المغني في هذا التمثال حاملاً جيتاره الكهربائي وقد

نقش على كعب التمثال الإسمنتي كلمات إحدى أغانيه الأقل شهرة، «اقرأ»، كما لو أنّها دعوة روحانية مهمتها حث الشباب على الاهتمام بكلمات الأغنية. في المرة الأولى التي دخل فيها رينيه إلى هذا المكان، أدهشته هذه الكلمات لشدة سذاجتها من جهة، ولأنّ طريقة عرضها للطلاب من جهة أخرى، تبدو كما لو أنّ حكيماً أسطورياً هو من تفوّه بها. لذلك قال في نفسه:

ثانوية جوني - هاليداي... ولماذا لا تسمى باسم ميكي ماوس مثلاً؟ فميكي ماوس في النهاية، هو قدوة للشبان أيضاً!

دخل أستاذ التاريخ المدرسة وحيّا من بعيد مدير المدرسة الأستاذ بينيل الذي كان يراقب جموع الطلاب والأساتذة في الساحة الرئيسية. كانت جدران المدرسة الإسمنتية مغطاة برسومات للبراز والعلاقات الجنسية غير السويّة بالإضافة إلى شتائم متنوعة تتمحور حول هذين السياقين. هناك أيضاً بضع عبارات سياسية تنادي بتهديم المجتمع الاستهلاكي وتدعو إلى التمرد.

عليّ التوقف عن التفكير بالسكينهيد والقيام بعملي.

مشى بخطىً واثقة، وأرسل إشارة إلى زملائه كما لو أنّهم يستعدون لخوض معركة.

إنّها معركة ضد الجهل، العدوّ فيها جَسور ويجب عدم الاستهانة به.

إذا توقفت عن التفكير «بما لا يتوجب عليّ التفكير به»، فلا بدّ أنني سأستطيع القيام بعملي بشكل جيد، وسيعود بذلك كلّ شيء إلى ما كان عليه سابقاً.

الذنب المنسي عقابه مخفّف.

شعر فجأة بعرّة عينه تعود من جديد. تنفس الصعداء بعمق وأحكم إغلاق يديه.

يجب أن أدخل في جوّ العمل وأستعيد ردود أفعالي المهنية.

اندفع إلى المرحاض حيث أغلق على نفسه الباب وراح يتقيأ.

لا أستطيع تغيير الماضي، ولا أستطيع العودة إلى الخلف كما نفعل في لعبة الفيديو لنعيد المشهد من جديد. إنّ هذا جزء من الماضي، ولم أعد أستطيع فعل أيّ شيء حياله.

سأعيش بقية حياتي كقاتل والخيار الوحيد الذي أملكه الآن هو واحد من اثنين:

إمّا أن أسلّمَ نفسي للشرطة وأذهب إلى السجن.

أو لا أسلّمَ نفسي للشرطة وبالتالي عليّ حينها أن أتعلّم كيف أتعايش مع إحساسي بالذنب.

أغلق عينيه وأخذ نفساً عميقاً ثم سحب سيفون الماء.

ذهب باتجاه صفّه، ومن ثمّ دخل ووقف على المنصة. كان في الصف 31 تلميذاً جديداً جميعهم جالسون بانتظار أول درس لهم. وعلى الرغم من أنّ التلاميذ لا يعرفونه مسبقاً ولكن لم يخفَ عليهم أنّه ليس بحالة طبيعية. فعدا عن شحوب وجهه وعينيه الغائرتين، فقد كانت أنفاسه متقطعة والتشنجات اللاإرادية واضحة على وجهه أيضاً. أخرج رينيه زجاجة مياه صغيرة من حقيبة يده كي يعطي نفسه المزيد من الوقت، ومن ثمّ أخذ رشفة منها وبدأ حديثه:

- سوف نعمل معاً حتى شهر حزيران/ يونيو، وأرجو أن تجري الأمور بشكل جيد دون حدوث أيّة معوقات. لأنكم سوف تجتازون في نهاية السنة امتحان الشهادة الثانوية العامة. ومن لا يكون بكامل استعداده لن يتمكن من النجاح في الامتحان.

بدأ يجري تفقداً للتلاميذ وكل واحد منهم يجيبه بكلمة «حاضر».

العريف هيوليت بيليبيه؟ حاضر يا سيدي.

ابتلع ريقه.

- حسناً، أطلب منكم قبل أيّ شيء أن تدونوا الملاحظات خلفي أثناء الدرس. وأنا أعوّل عليكم لتنجزوا أعمالكم بنفس الاهتمام والجدية اللذين أعمل بهما أنا أيضاً.

قام بحركة خرقاء أدّت إلى وقوع علبة المياه إثر ذلك. ومع أنّ التلاميذ قد انفجروا ضاحكين فإنّ هذا جعل الجو العام مريحاً بعد أن كان ثقيلاً حتى تلك اللحظة.

إنّهم يشعرون بأنّني لست بحالة طبيعية. لذا يجب عليّ أن أعيد الأمور إلى نصابها. إذ يجب على الخراف ألّا يخامرها الشكّ بأنّ الرّاعي قد تعرّض لحادث ما وإلّا فسوف أفقد سلطتي عليهم.

– انتبهوا جيداً، إنّني أحذركم ففي حال وقوع أيّة مشكلة، لن أتردّد بإرسالكم إلى المدير السيد بينيل.

قال رينيه في نفسه، إنّ هذا هو المبدأ الأساسي الواجب اتباعه لتجنّب المتاعب؛ ألا وهو إظهار أكبر قدر من القسوة في بداية العام، ومن ثمّ تخفيف الضغط عليهم تدريجياً إلى أن نصل إلى حالة من الارتياح الكلي في شهر حزيران/ يونيو.

يبدو أنّ غالبية التلاميذ غير مهتمين بما يقوله باستثناء أول صفين من المقاعد. كان رينيه قد حضّر درسه ليعرضه باستخدام برنامج بوربوينت على حاسوبه، وشرع في تقديمه على شاشة كبيرة موضوعة فوق طاولته. بدأ الدرس بعرض فيلم قصير عن الانفجار الكبير (بيغ بانغ)، بالإضافة إلى معلومات عن الكواكب على خلفية موسيقى سيمفونية «العالم الجديد» للمؤلف الموسيقي أنتونين دفورجاك. علّق بعد ذلك على العرض قائلاً:

– هذا هو الماضي، هل تدركون عدد المصادفات التي توجب عليها الحدوث لتكونوا أحياء الآن وهنا في هذا الصف أمامي؟ بداية، كان على الانفجار الكبير (البيغ بانغ) خلق الانفجار الأصلي الذي بدوره تمدّد في الفراغ ليُشكل بعدها الكون المرئي، ومن ثمّ كوكب الأرض الذي نعيش عليه، ولجعله محمياً بطبقة الغلاف الجوي، وتُغطى بعدها الكرة الأرضية بالمحيطات، كي تنبثق الحياة لاحقاً من داخل هذه المحيطات.

ظهر على الشاشة أشنيات زرقاء ومن ثمّ براميسيوم[1] وأخيراً سمكة فضية.

– كان ينبغي على أحد الحيوانات أن ينجح في الخروج من الماء ليسير على أرض اليابسة. لذا، كانت التيكتاليك[2] أول سمكة تمكنت من

1- كائن هدبي مجهري دقيق. المترجمة

2- نوع من الأسماك عاش قبل نحو 375 مليون سنة، امتلك ميزات تشبه الحيوانات الرباعية الأطراف. المترجمة

تسلّق اليابسة بمساعدة زعانفها. وهكذا بدأت «المغامرة»، مغامرة الحياة، ومغامرة الذكاء، ومغامرة الوعي.

توالت بعدها صور أخرى بصورة سريعة. تضمنت صوراً لأشباه البشر[1] ومعهم بعض الأدوات الحجرية، ولرجال ما قبل التاريخ متجمعين حول النار، وكهوف بجدران مغطاة برسوم، وقرى محاطة بحقول مزروعة، ومدن محصّنة، ومشاهد لمعارك على الأحصنة، وملوك يضعون التيجان.

- إنّ أسلافكم محظوظون كونهم ولدوا، ولم يقضوا نحبهم بأحد أمراض الأطفال، وشبّوا ولم يُقتلوا في الحروب، وتجنّبوا أو بالأحرى بقوا على قيد الحياة أثناء الأوبئة والمجاعات الكبرى.

لاحظ رينيه أنّه تمكن أخيراً من جذب انتباه تلاميذ الصف إليه.

- إلى أن التقى والدا كل منكم بعضهما ببعض ومارسا الحب...

هذا التنويه جعل التلاميذ يبتسمون متفاجئين بأنّ أستاذهم يمكنه التلميح إلى الجنس خلال درس التاريخ، ولكنّ هذا الأخير أكمل حديثه دون تردد.

- والدا كلّ منكم اللذان مارسا الحبّ، واللذان على ما آمله، قد أحسنا تربيتكم لتتمكنوا من حفظ السلالة البشرية وتطوير مستوى الذكاء والوعي العام.

ظهر أثناء حديثه على الشاشة خيال لرجل وامرأة يرتديان ملابس معاصرة، ويمسكان بعضهما بأيدي بعض وقت الغروب.

- وفي أثناء ممارستهما الحبّ، كان على حيوان منوي واحد فقط من بين 300 ميلون حيوان منوي آخر، النجاح في الدخول إلى البويضة كي يكون واحدكم حياً الآن وموجوداً في هذا الصف. لهذا من المهم جداً أن نتذكر من أين أتينا.

تتابعت الصور من جديد متسارعة بالاتجاه المعاكس؛ بدءاً من صورة الزوجين المعاصرين حتى صورة الانفجار الكبير قبل 15 مليار سنة.

- هؤلاء الذين نسوا الماضي بدافع التقاعس المحض، وهؤلاء الذين

1- Primate أولى الثدييات المنتصبة على قدمين. المترجمة

يتنكرون للماضي الحقيقيّ ويقومون بتشويهه إرضاءً لغاياتهم الشخصية، جميع هؤلاء لا يفعلون سوى اجترار الماضي بدلاً من المضي قدماً.

توقف العرض في النهاية على صورة لكتاب تاريخ يعود إلى السبعينيات.

– حتى التاريخ الرسمي الذي يتمّ تداوله وتدريسه في الكتب المدرسية يتمّ أحياناً اقتطاع الكثير منه. فمثلاً، كلّ ما نعرفه عن الحضارات السابقة آتٍ من الكتب التي تركها أولئك الأشخاص الذين أوكلت إليهم مهمة كتابة التاريخ. ولا نعرف من بين هذه الحضارات إلا ماضي الحضارات التي احتضنت وحمت المؤرخين. ولا نعرف حتى من هذه الحضارات إلا القصة التي ترويها الحضارة المنتصرة.

– لماذا يا أستاذ؟ سأل تلميذ متحمس يظهر على وجهه حبّ الشباب، ويجلس في الصف الأمامي.

– لأنّه بعد أن يموت المرء، سيكون من الصعب جداً عليه أن يعرض روايته الشخصية عن المعركة.

انفجر الجميع ضاحكين.

– ذكر المؤرخون بشكل أساسي معارك وحياة الملوك والأباطرة لأنّ هؤلاء وببساطة، هم من كانوا يدفعون الأموال للمؤرخين الذين لا يهمهم شيء سوى المال.

بدا التلاميذ مستمتعين هذه المرة أيضاً بهذا الاكتشاف الجديد. وقد شعر رينيه بالراحة أكثر ولم يتضايق من هذا الأثر الذي تركه عند التلاميذ.

عليّ التوقف عن التفكير بالسكينهيد، واستعادة هيئتي وملامحي المهنية. إنّني أستاذ تاريخ، فقط أستاذ تاريخ.

سعل قليلاً ومن ثمّ أكمل:

– ولكن دعونا لا ننخدع، فالحروب ليست سوى مجازر جماعية منظمة باسم المصالح الاقتصادية والدينية أو نتيجة لنزوات وأهواء القادة الشخصية. يقوم أفراد أنانيون عاديون أو متعطشون للسلطة بإرسال آخرين غيرهم إلى المذبحة بغاية غزو المزيد من الأراضي، والحصول على المواد الأولية، والأموال والسبايا والعبيد أو العمال. لقد حولوا

الأفراد المسالمين إلى جنود قاتلين مجبرين على قتل أشخاص لا يعرفونهم، والذين من الممكن أنّهم لو حدث أن قابلوهم هم أنفسهم في ظروف أخرى لكانوا قد تعاطفوا معهم، من يعلم، مثلهم مثل السياح. تخيلوا مثلاً جنود الجيشين وهم يقفون وجهاً لوجه، وقد قرروا فجأة أن يقضوا إجازة معاً. ربما كانوا سيلعبون كرة القدم معاً ومن ثمّ يستحمون... في الواقع، لو أنّهم لا يحشون عقولهم بالأفكار الدعائية الرنانة عن الوطن أو الدين لكان أغلب الناس سيتمنون الخير لجيرانهم.

تفاجأ التلاميذ بهذه الفكرة، وهذا ما شجع رينيه على المتابعة.

- ولكن مع ذلك، فقد وقعت الحروب. وأُنشئت نصب تذكارية لأكثر الجنود حصداً للأرواح في المعارك بصفتهم أبطالاً، وقلّدوهم الأوسمة. وقام بعد ذلك مؤرخو الأطراف المنتصرة بتأليف سيناريوهات قابلة للتصديق ليمرّروا للشعب والأجيال القادمة فكرة أنّ هذه الجرائم كانت ضرورية ومشروعة.

صمت قليلاً تاركاً المجال للتلاميذ كي يستوعبوا كلامه جيداً.

- ولكن ليس هذا هو الأسوأ. فغالباً ما كان هؤلاء المؤرخون أنفسهم ونزولاً عند أوامر رُعاتهم الأقوياء يقومون بعكس الأدوار جاعلين الناس تعتقد أنّ الضحية هو المجرم والعكس بالعكس. هل لديكم أسئلة؟

قام تلميذ آخر ذو أنف مزين بنظارات سميكة كأنها قعر الزجاجة، برفع يده وهو جالس في الصف الأول.

- كلّ هذه أشياء نظرية. هل بإمكانك يا أستاذ أن تذكر لنا مثالاً محدداً لندوّنه؟

- بالطبع، لديكم مثلاً جزيرة كريت. هل تعرفون أسطورة ثيسيوس ومينوتور؟ تقول الأسطورة إنّ مينوتور كان وحشاً برأس ثور يعيش في جزيرة كريت، وكان يُقدّم له بانتظام سبعة شبان وسبع فتيات من أثينا لالتهامهم كقربان. وبعد أن استطاعوا حبسه في متاهة، نجح البطل اليوناني ثيسيوس في قتله بمساعدة أرياني ابنة ملك كريت مينوس. بيد أنّ

الاكتشافات الأثرية الحديثة كشفت عن حقيقة مغايرة تماماً. لأنّ كريت كانت حضارة راقية ومسالمة تسبق بوجودها الحضارة اليونانية. وحينما بدأ اليونانيون باجتياح الجزر المجاورة، دخلوا مباشرة في منافسة مع كريت التي كانت قد طورت تجارة مزدهرة مع جميع حضارات حوض البحر الأبيض المتوسط. تفوّق الكريتيون على اليونانيين القارين بعدة نواحٍ، فقد كانت سفنهم أشدّ صلابة وحرفية، ومدنهم أكثر تطوراً، وثقافتهم أكثر براعة، وكان غناهم على الأخص أكبر بكثير من غنى اليونانيين. وهذا لا يمكنه إلّا أن يثير غيرة هؤلاء اليونانيين المنحدرين من الشعوب الهندية الأوروبية العنيفة. أظهر الملك الكريتي مينوس دفاعاً هشّاً بوجه المعتدين، لأنّه لم يكن يتوقع مثل هذه الشراسة واعتقد أنّه بإمكانه التفاوض معهم. ولكن كيف يمكن التفاوض مع شعوب قررت إبادتكم هكذا بكلّ بساطة ووضوح؟ وفي غضون بضعة أشهر، دمّرت جحافل المحاربين اليونانيين المتعطشين للدماء هذه الحضارة الراقية والجميلة. بعد أن أُحرِقت جميع المدن المينوسية[1]، واغتُصِبت النساء ونُهبَت الثروات، واستُعبِد الرجال، وأحرقت الكتب، اخترع اليونانيون أسطورة البطل ثيسيوس، هذا البطل اليوناني المناضل ضد وحش برأس ثور يأكل الشبان من الناس. ولم نعد نملك الآن بأيدينا سوى رواية المؤرخين اليونانيين الذين قدموا... هذا التاريخ الجميل.

ظهرت علائم الدهشة على وجوه التلاميذ. وفي الواقع، يحبّ رينيه توليدانو كثيراً هذه اللحظة التي يسميها «الكشف» ؛ ففي هذه اللحظة يشعر أنّه قام بفتح جفون تلاميذه المغمضة التي كانت محجوبة عن الرؤية، تماماً مثلما يفعل مروّضو الصقور. مع العلم أنّ مفردة «الكشف» شائعة جداً في عالم تربية الصقور. فالصيادون يقطبون جفون الطير الجارح لترويضه، وبَعد فترة يقومون بفتحها أو بالأحرى «كشفها» كي يرسلوها للصيد. أكمل الأستاذ بعدها:

– أستطيع أيضاً أن أعطيكم مثالاً أقدم ولا يتعلق هذه المرة بالحروب،

1– نسبة إلى الملك مينوس الكريتي. المترجمة

لأظهر لكم كيف يخدعنا المؤرخون. المثال هو هرم خوفو في مصر الذي لطالما كنا نظن أنّ الفرعون خوفو هو من أمر ببنائه عام 2500 ق.م. لأنّ هذا ما دوّنه النسّاخ آنذاك ولم يكن هناك أية وسيلة للحصول على معلومات أكثر. ولكنّ هؤلاء النساخ لم يكونوا في الواقع سوى موظفين ممولين لقول ما يُطلب منهم قوله. وقد تمّ تقديم دليل في بداية هذه السنة فقط، بفضل أنظمة التأريخ الحديثة والمتطورة أنّ هذا الهرم كان قد بُنِيَ على الأقل قبل 5000 عام ق.م. وحقيقة ما جرى أنّ خوفو قد اكتشف في إحدى زياراته لهذا الهرم، وجود بهو داخل الهرم فقرّر أن يبني فيه قبره. فلم يكن إذن هو من بنى الهرم، ولم يكن أساساً قادراً على بنائه آخذين بعين الاعتبار التقنيات المحدودة التي كانت سائدة أثناء فترة حكمه. لقد كان الهرم صرحاً خالياً منذ ملايين السنين، إلى أن تمّ الاستحواذ عليه وتحويل وظيفته لخدمة نرجسية هذا الفرعون. وكي أوضح لكم الصورة بشكل أفضل، تخيلوا مثلاً أنّ ملكاً سيأتي بعد 2500 عام، ويجد أمامه برج إيفيل فيقرر أن يبني بداخله قبراً له دون أن يأبه لما كان عليه حال هذا الصرح سابقاً.

ظهرت ملامح تشكيك على وجوه بعض التلاميذ.

- هل هذا ما يتوجب علينا كتابته في امتحان الشهادة الثانوية يا أستاذ؟
- هذا سيفيدكم في حياتكم كلها. أجابه رينيه بغموض. تذكروا هذا جيداً؛ هناك فرق بين التاريخ المُعاش والتاريخ المُتداول، وبين تاريخ المحكومين وتاريخ الحكّام. لأنّ الذاكرة هي أكبر قضية سياسية، ولهذا فإنّ أغلب رجال السياسة يرغبون بجمعها وتشكيلها بحسب ما تقتضيه مصالحهم.
- ولكن يا أستاذ، تابع التلميذ، إن استمعنا إليك وقمنا بكتابة مواضيع ليست في الكتاب المدرسي فسوف نرسب في الامتحان.
- أنتم تفضلون إذن النجاح في الشهادة على أن تعرفوا الحقيقية؟

لم يتجرأ التلميذ على تأكيد كلام الأستاذ، ولكنّ رأيه بدا واضحاً بهذا الخصوص.

إنّ هذا هو يومنا الأول، لذا فهو يختبرني لأنه يشعر بأنني لست على ما يرام بشكل كامل. يا لهذه البداية المشجعة!

- إنّ أمثالكم من الناس الذين يفضلون الخضوع والطاعة والتشابه مع الجميع عوضاً عن التفكير والتفرّد بالآراء، هم من يهيئون لقيام مجتمع فاشيّ.

بدا التلميذ متفاجئاً قليلاً بهذا الرد غير المتناسب.

حسناً، لقد بالغت كثيراً في هذا ولكن فات الأوان، في حال لم أجد وسيلة لأهدّئ نفسي حقاً، فإنني سأخاطر بردود أفعال جارحة أكثر فأكثر.

صدح جرس انتهاء الحصة الدراسية. انتظر رينيه خروج جميع التلاميذ من الصف كي يخرج بدوره ويشمّ الهواء النقيّ. التقت نظراته بنظرات السيد بينيل الذي يقف دائماً أمام باب مكتبه المطلّ على الباحة. أشار المدير بحركة من يده باتجاه رينيه مفادها: «هل جرت الأمور على ما يرام؟»، وقام رينيه بالإجابة برفع إبهام يده التي تعني: «بالطبع، كالعادة».

إنّه ينظر إليّ بشكل غريب. هل يشكّ بأمر ما؟ هل تظهر آثار جريمتي على وجهي؟

عادت له العرّة في عينه اليمنى. توجّه إلى الحمّامات وغسل وجهه من جديد بمياه منعشة.

هذا جيد، لقد تمالكت نفسي. واستطعت إخفاء ما بداخلي بفضل حفاظي على هيئتي المهنية. عليّ إكمال دروسي كما لو أنّ شيئاً لم يكن.

في جميع الأحوال ليس هناك سوى احتمالين اثنين؛ إمّا أن يتمّ اكتشاف الجثة وأذهب إلى السجن، أو لا تُكتشف الجثة وبالتالي لن يجدي نفعاً تكرار هذا المشهد المؤلم.

يكفي أن أنسى الأمر.

أنسى، ماذا أفعل كي أنسى؟ يكفي أن أتوقف كلياً عن التفكير في الأمر.

ماذا كان عليّ أن أنسى؟

رنّ جرس الظهيرة وحان موعد الغداء.

كانت جدران صالة المطعم في الثانوية مطلية باللون البرتقالي الساطع. وعُلّقت في السقف مصابيح تضيء الطاولات البلاستيكية ذات اللون الأبيض اللامع بوميض باهت. كلّ شيء كان معقماً وتفوح منه رائحة الصنوبر.

وجد رينيه توليدانو زميلته إيلودي تيسكيت جالسة على طاولتها المعتادة في الزاوية اليمنى الأكثر هدوءاً.

- أنت شاحب، ألم تنم البارحة؟ سألته إيلودي.

نظر إليها متأملاً مظهرها المريح. فأظهرت المرأة الشابة ذات الشعر الأشقر القصير قلقها قائلةً:

- هل أنت بخير يا رينيه؟

ماذا لو اعترفت لها بكلّ شيء؟ فهي في الآخر من اصطحبتني لمشاهدة هذا العرض. قد تستطيع فهمي.

- خرجت فجأة من مسرح السفينة، وحاولت الاتصال بك مراراً ولكن دون جدوى. تفضل خذ هذا، لقد نسيت سترتكَ، وها قد جلبتها لك.

أخرجت سترته البيج من حقيبتها.

نعم، سأعترف لها بكلّ شيء، وأفرغ حقيبتي من هذا الحِمل. فإيلودي صديقة، صديقة حقيقية.

هذه الذكرى ثقيلة جداً على الحمل، ويمكن أن يخفّ إحساسي بالذنب أكثر إن شاركتها وأفصحت لها عمّا جرى. قد تستطيع تشجيعي على الذهاب إلى مركز الشرطة للاعتراف بكلّ شيء، ولربما رافقتني حتى في الذهاب إلى هناك إذا لزم الأمر. لطالما وقفت إلى جانبي في الأوقات العصيبة. أعرف أنّها لن تتخلى عني.

- لقد...

ترك جملته معلّقة.

... قتلتُ أحداً ما.

– لقد تحوّلتُ إلى وحش أمام جمهور من مئات الأشخاص الذين وجدوني بلا شكّ إنساناً تافهاً جداً. لقد كانت لحظة عصيبة جداً عليّ.
– دعنا لا نبالغ كثيراً، فقد يكون هذا موقفاً غير مريح، ولكنّه في النهاية ليس سوى تنويم مغناطيسي. أمّا بالنسبة للجمهور فتذكر أنّه قبل صعودك أنت على المسرح كان هناك رجل يمشي على يديه وقدميه مقلداً الكلب. وبعده امرأة اعتقدت أنّ الصالة ممتلئة بكائنات فضائية قامت باختطافها، بالإضافة إلى امرأة أخرى استطاعت أن تتوازن بين كرسيين وكانت تبدو متصلّبة كلوح خشبي. هذا هو التنويم المغناطيسي كما تعلم، ولم يتهمك أحد بشيء، فالجميع كان مدركاً أنّه يشاهد تجربة جديدة يتم اختبارها على رجل قَبِل بكلّ شجاعة الخوض في هكذا تجربة أمام الجمهور. هذا كلّ ما في الأمر.

أخذ يراقب عتبة الباب متوقعاً أن يظهر من خلالها رجال الشرطة في أيّة لحظة، ولكن كلّ ما رآه هو أساتذة آخرون يدخلون للاسترخاء بعد لقائهم الأول بتلاميذهم.

– دعيني أقول لك يا إيلودي إنّني أعلم الآن لمَ لا نتذكر حيواتنا السابقة، لأنّها من الممكن أن تحمل لنا أحداثاً «تلوّث» حياتنا الحالية. على كلّ حال، بعد أن ظهرت لي من جديد حياتي السابقة كجنديّ خاض الحرب العالمية الأولى قمت بِـ... حسناً... كنت متضايقاً للغاية.
– لاحظت ذلك.
– لم أستطع النوم البارحة.
ظهرت ملامح استغراب على وجهها.
– لا تقل لي يا رينيه أنّك صدقت حقاً أنّك عشت إحدى حيواتك السابقة؟
– إنّ هذا الموضوع نوقش كثيراً في الثقافة البوذية وعند اليونانيين أيضاً.
– ولكن هذه ليست سوى نصوص غامضة تعود إلى ما قبل ألفي عام!
– لقد ذُكر هذا أيضاً في التلمود. انتظري كي أجد النصّ. آه، ها هو. قبل أن يخرج الطفل من جسد والدته، يأتي ملاك ويضع إصبعه على شفته

العليا ويقول له: «انسَ»، كي لا تقضّ مضجع الطفل ذكرياته عن حياته السابقة. والعلامة التي تبقى من أثر ما فعله الملاك هي هذا التجويف الصغير بين شفتنا العليا ورأس أنفنا الذي يسمى «بصمة الملاك». ولهذا السبب لا نعود نتذكر حيواتنا السابقة كي لا تسبب لنا الآلام في حياتنا الحالية.

- إنّها أسطورة جميلة، ولكنها تبقى مجرد أسطورة.

- لقد عبرتُ مع تجربة التنويم المغناطيسي التراجعي هذه الحدود المحظورة في ذاكرتي، وقد أخرجت مني هذه التجربة... وحشاً، وحشاً لم أعد أستطيع السيطرة عليه أو التحكم به.

نظرت إليه زميلته أستاذة العلوم متسائلة إن كان جدياً في كلامه. كانت على وشك قول شيء ما، ولكنها فضلت أن تقترح عليه:

- دعنا نحضر طعام الغداء.

قاما عن كرسييهما ووقفا في الدور بانتظار حصولهما على الوجبة.

حاولت إيلودي تغيير مجرى الحديث.

- صحيح، كيف جرت الأمور مع تلاميذك الجدد؟

- كيف أستطيع أن أشرح لكِ انطباعي الأول؟ سأحاول أن أجد الصيغة المناسبة: «كانوا يستمعون ولكنهم لا يصغون، ينظرون ولكن لا يشاهدون، يعلمون ولكن لا يفهمون».

- أوه، إنّك محبط للغاية. أشعر كأنني لا أعرفك، ما هذا النفس الانهزامي لديك اليوم!

- أعترف بأنني كنت في هذا الصباح أقلّ ارتياحاً عن مثل هذا اليوم من العام الفائت. أشعر بأنّ عملي لا فائدة منه، فالتلاميذ يبدون غير مهتمين بأيّ شيء. وقد بدأت أحس بعدم قدرتي على تحمّلهم لأنني لا أنجح في تربيتهم بالمعنى الحرفي لهذه الكلمة. إنّنا نُعدّ جيلاً غير مثقف وجاهلاً، لا يفعل سوى ترديد المنهاج والأخبار وما يقوله آباؤهم وما تنشره الإعلانات والإنترنيت، إنّهم لا يملكون أيّ فكر شخصي ولا حتى أيّة رغبة بتطوير أفكارهم. جُلّ ما يريدونه هو التمسك فقط

بالأفكار الجاهزة كأنّهم ذاهبون إلى مطعم للوجبات السريعة. إنّه الفكر «السريع» المستهلك الذي لا طعم له ولكنه سهل الاندماج والتطبع به.

– ليس صحيحاً، فهنالك تلاميذ رائعون وفطنون للغاية. أنت نفسك قلت لي في العام الماضي إنّ بعض التلاميذ بدوا لك كُسالى في بداية العام الدراسي ولكنّهم أصبحوا في مصافّ المتميزين لاحقاً. ذكّرته إيلودي.

– هناك تلاميذ جيدون نعم، ولكن هل هم أُناس جيدون، يجب أن ننتظر ونرى. حسناً على أية حال، هم لا يفهمون حتى ما الفائدة من أن يفكروا بأنفسهم! إنهم يكتفون بتكرار ما نقوله لهم كي ينجحوا في الامتحان. لا يفكرون إلّا في امتحان الشهادة الثانوية، ولا يأبهون بما جرى لأسلافهم. حتى إنّهم لا يدركون أنّني أعلّمهم تاريخ أجدادهم هم.

– يجب أن نوقظ لديهم حسّ الفضول، فهذا هو عملنا. كما أنّ مهمتنا هي أن نجد وسيلة لإثارة اهتمامهم.

اقترحت عليه عاملة المطبخ الوجبة التي يحبّها عادة وهي طبق الشوكروت[1]. ولكنّ رينيه أبدى اشمئزازه، وراح يبحث عن طبق آخر.

– ألن تأخذه؟ تفاجأت إيلودي.

– عذراً، فمنذ أن عشت حياة هيبوليت وأنا لديّ نوع من النفور من أيّ شيء يمتّ بصلة من قريب أو من بعيد إلى ألمانيا.

تناولت زجاجة بيرة، أمّا هو فتناول زجاجة نبيذ أحمر ثمّ أكمل:

– بالإضافة إلى أنّني أشعر بحالة جديدة من العدوانية تتملكني، تماماً مثلما يحدث عندما تجتاح الرجل فورة تستوستيرون. يبدو أنّ هذا هو الإحساس الذي يصيب الجنود أثناء المعارك، وأنا أواصل الشعور به كما لو أنّني قد شاركت حقاً في هذه الحرب. وربما يكون هذا هو السبب الذي منعني من النوم.

عادا وجلسا على الطاولة وتناولا طعامهما بصمت. اقترحت إيلودي

1- Choucroute طبق مكوّن من الملفوف المخلل مع اللحم، أصل تسمية هذا الطبق تعود للغة الألمانية. المترجمة

على رينيه عند انتهائها من الطعام، الذهاب لشرب القهوة خارجاً كي تستطيع التدخين.

– أشعر أنّك لست على ما يرام حقاً يا رينيه. لقد أدهشني كلامك منذ قليل عن التلاميذ الشبان، فأنا لم أكن لأتخيل قط أن تصل إلى هذا القدر من التشاؤم.

– أشعر بالسوء والألم حقاً يا إيلودي، لديّ إحساس بأنّ حياتي تهدمت فجأة هكذا.

– بسبب ما حدث مساء الأمس؟

– كم أرغب بمحو هذه الليلة من ذاكرتي كلياً.

– أنا لا أؤمن بالحيوات السابقة، وإنّما أؤمن بقوة الاقتناع.

وضعت الشابة الشقراء يدها فوق يد رينيه وأومأت إليه بإشارة تدلّ على تعاطفها معه.

– نحن أصدقاء منذ فترة طويلة، ولكنك لم تكن تهتمّ بي حقاً يا رينيه. لذا يجب أن أحدّثك عن طفولتي لأنّ هذا قد يساعدك في حلّ مشكلتك الحالية.

أخذت رشفة من القهوة وأشعلت سيجارتها وراحت وهي تحدق في الدخان، تحاول أن تستجمع قواها لإخباره عن فترة مراهقتها.

-9-

أرادت إيلودي تيسكيت أن تكون في مراهقتها أجمل شابة في الصف. وعلى الرغم من أنّ والديها كانا يجلبان لها ملابس تشبه ملابس الدمى، ولكنّ هذا لم يكن كافياً بالنسبة إليها، فقد كانت تتمنى أن تمتلك أجمل جسد كي تنال إعجاب الجميع. ورغبت أن تصبح شبيهة بالفتيات اللواتي يظهرن على أغلفة المجلات النسائية بقوامهنّ النحيل والممشوق وأرجلهنّ الرفيعة. ومن أجل تحقيق هذا الهدف، صارت تجبر نفسها على التقيؤ وتناول الكثير من الملينات.

صار ينقص وزنها أكثر فأكثر حتى كادت تصبح جلداً وعظماً فقط. بات

وجهها هزيلاً جداً وكان بالإمكان عندما تذهب إلى المسبح رؤية أضلاعها بوضوح.

حذّر أساتذتها أهلها الذين من جهتهم قرّعوها كثيراً ولكن دون نتيجة، فلم يستطيعوا إجبارها على تناول الطعام، إضافة إلى أنّها أصبحت ماهرة بالتقيؤ أيّ وقت تشاء. أصيب والداها بالذعر من هذا الحال الذي وصلت إليه، ولم يعرفوا ماذا يفعلون لإنقاذها.

لذا ذهبا لاستشارة اختصاصي معروف بمرض فقدان الشهية، وكان طبيباً كثير الظهور على التلفاز ومشهوراً بنجاحاته الإعجازية في هذا المجال، يدعى الطبيب ماكسيميليان تشوب. وهو رجل يتمتع بحضور بهيّ، إضافة إلى أنّه يشدّد أثناء كلامه في نطق مخارج الحروف بشكل مبالغ فيه.

– لقد عالجتُ واستطعت أن أشفي جميع النساء الشابات اللواتي راجعنني بشكوى اضطرابات غذائية سواء كانت هذه الاضطرابات ناتجة عن نقص الشهية أو الشره المرضي، هذا ما أكّده الطبيب وهو يشبك أصابع كفيه ويحرّرها أثناء حديثه معها في لقائهما الأول، وقد أضاف قائلاً: ليكن في معلومك أنّ 90 بالمائة من النساء الشابات اللواتي يأتين لزيارتي تعود أسباب مرضهنّ لتجربة مؤلمة حدثت معهنّ في طفولتهنّ. لذا عليّ أن أطرح عليكِ الأسئلة التالية: هل تعرّضت في طفولتك لتحرشات جنسية أو حركات غير لائقة من قبل أيّ أحد من أفراد أسرتك أو من أصدقاء والديك مثلاً؟

– كلا، أجابت الشابة إيلودي بشكل حاسم.

– هل من المحتمل أن تكوني قد عشت ذلك ولكنّك نسيته؟

– لا أتذكر بتاتاً أيّ شيء من هذا القبيل.

– من الممكن إذاً أن تكوني نسيت. حسناً، أغلقي عينيك الآن واسترخي قليلاً. تخيّلي غرفتك، وانظري إلى كلّ تفصيل فيها، بدءاً من السرير والجدران والدمى والألعاب، هل تتمكنين من ذلك؟

– نعم، إلى حدٍّ ما.

– حسناً، تخيلي الآن أنّك تعيشين ليلة من إحدى لياليك المعتادة، حيث

كلّ الأنوار مطفأة باستثناء ضوء خافت في الغرفة. وإذ بك تسمعين فجأة جلبة خفيفة ينفتح على إثرها الباب، هناك أحد ما يقف على العتبة. إنّه خيال أحدهم، هل ترينه؟

- كلّا.

- بلى، أنت تشاهدينه، ولكنّك ترغبين كثيراً في نسيانه لدرجة أنّ عقلك يرفض تقبّله. استرخي أكثر. دعي الحقيقة المنسية تعود إليك. دعي هذا الشخص يظهر. هيا! بجهد قليل من الذاكرة سوف تتعرفين إليه. لا تقلقي فهو مجرد خيال يقف وراء الباب نصف المفتوح، وأنا متأكد من أنكِ ترينه.

- أنا لا أرى أحداً.

- هيّا، ابذلي جهداً يا آنستي، إن كنت تريدين الشفاء يجب أن تجديه. من هو؟ والدكِ؟ والدتكِ؟ ابن عمك؟

- لا أحد.

- هذا الخيال يعود إلى أحد ما تعرفينه جيداً. شخص ما من عائلتك، أو أنّه صديق لوالديك. أحد ما أردت أن تنسيه، ولكن بسببه لا تستطيع روحك أن تجد السلام. إنّ هذا ما جرى في الواقع، توقفي عن الكذب على نفسك.

- كلا، لم يحدث أيّ شيء على الإطلاق.

- من هو؟ امتلكي الشجاعة لرؤيته وتسميته. أنا متأكد أنّك قادرة على فعل هذا يا إيلودي! إنّ شفاءك يعتمد على هذا. أعرف أنّكِ منذ هذه اللحظة، تستطيعين أن تواجهي الحقيقة المدفونة والمؤلمة جداً بحدّ ذاتها. هيّا حاولي من جديد، إنّ هذا لمصلحتك، وبعدها سوف يتحسّن كلّ شيء، أعدكِ بهذا.

بعد كلّ هذا، انتهى الحال أخيراً بإيلودي لنطق هذا الاسم:

- كريستيان.

- من هذا؟

- عمّي كريستيان.

أبدى الطبيب النفسي رضاه.

- حسناً، أنت تشاهدينه أليس كذلك؟ هل أنت مستعدة لعيش هذا المشهد من جديد؟ صفي لي ما يجري بكل تفاصيله.

قصّت عليه المراهقة حكاية تتطابق بشكل كلّي مع جميع ما لمّح إليه الطبيب.

هنّأها الطبيب تشوب عند انتهاء الجلسة لشجاعتها وبشّرها بأنّه ابتداء من هذه اللحظة ستعود الأمور إلى نصابها، لأنّها امتلكت القوة لنبش واسترجاع ما كان يؤرقها في داخلها منذ طفولتها والذي أسماه «الحقيقة المتوارية».

في الواقع، لقد استعادت إيلودي حقاً شهيتها للطعام في الأيام اللاحقة، وعادت لتناول الطعام بشكل طبيعي. فقد أسفر علاج الطبيب تشوب عن شفائها، كما أسفر أيضاً عن إدانة رسمية تمّ توجيهها إلى عمّها كريستيان.

فقد توجه والدها إليه في اليوم ذاته من «اكتشاف» الحقيقة، وأوسعه ضرباً وكان على وشك أن يقتله، قبل أن تصل الشرطة لتوقيفه بتهمة التحرّش الجنسي بقاصر. لقد كانت شهادة المراهقة حاسمة أثناء عملية التحقيق. لذا تمّ زجّه في السجن حيث لم تكن حياته سهلة مع بقية السجناء الآخرين، لأنّ تهمة التحرّش بقاصر، خصوصاً إن كان المعتدي من أفراد العائلة، تعتبر أفظع جريمة يمكن أن تُرتكب حتى في نظر السجناء أنفسهم. لذا فضّل عمّها أن ينتحر إثر ذلك في زنزانته، وكان قد ترك رسالة لإيلودي لم يكتب فيها سوى هذه الجملة: «أقسم لك بأنّني لم أتحرش بك مطلقاً».

لذا بدأ الشكّ يخامرها، فبحثت على الإنترنيت عن «ناجيات» أخريات من الطبيب تشوب المشهور، فوجدت فتاة كانت قد مرت بمثل تجربتها تماماً وبنتائج متماثلة تقريباً. واكتشفت إيلودي بتواصلها مع هذه الفتاة «نظرية الذكريات الزائفة» للطبيبة إليزابيث لوفتوس.

كان جُلّ اهتمام هذه الطبيبة هو محاربة الأطباء والمحللين النفسيين الذين يساهمون في خلق فكرة في أذهان مرضاهم تقوم على أنّهم تعرضوا خلال طفولتهم لسفاح الأقارب الكاذب أو التحرش الجنسي، بغية خلق صدمة عاطفية لديهم تشتت انتباههم عن مشكلتهم الأساسية. وبحسب الطبيبة، فإنّ

هؤلاء الأطباء كان لديهم في أغلب الأحيان حُسن نية، ولكنهم لا يتخيلون مدى قوة الإقناع لديهم. كما أنّها تقول في مقالها إنّ المريض الذي قدّم للقضاء ذكرى زائفة هو الشخص الوحيد فقط الذي يستطيع سحبها.

لذلك عادت إيلودي لرؤية الطبيب تشوب وطلبت منه التراجع عمّا فعله.

لم يشأ الطبيب في البداية الاعتراف بالتضليل الذي قام به. وإنّما بالأحرى ذكّرها كيف جاءت إليه وهي مريضة ولكنها خرجت من عنده معافاة وسليمة. لا بل إنّه قال لها أيضاً: «كلّ شفاء له ثمن، كما أنّ كلّ معجزة تتطلب تضحية»، قبل أن يضيف: «صحيح أنّني استخدمت الديناميت لإطفاء الحريق، ولكنّ الغاية تبرّر الوسيلة».

ومع ذلك لم تستطع إيلودي نسيان أنّ التضحية أودت بحياة رجل بريء. لذلك هدّدته المراهقة بفضح ما فعله على وسائل التواصل الاجتماعي، ومن ثمّ على وسائل الإعلام وقد أشارت له بخطر أن يتم اتهامه بالقتل غير المباشر. لم يكن عمرها سوى 16 عاماً، ولكن كان عليها تصحيح هذا الظلم المُرتكب بحق عمّها. نجحت باختيار الكلمات المناسبة كي تكون مقنعة، وانتهى الأمر بالطبيب تشوب بأن وافق على حذف هذه «الذكريات الزائفة» عن التحرّش الجنسي من ذاكرتها.

-10-

أخذت مدرسة العلوم تلعب بولاعتها بعصبية.

- هذه هي قصتي، صحيح أنّ اكتشاف الذكريات الزائفة لم يُرجع الحياة لعمّي المسكين كريستيان، ولكن على الأقل، نزع مني نوعاً من الإحساس بالذنب، وسمح لي على الأخص بردّ الاعتبار لذكراه. لقد كان ذلك بالنسبة لي كابوساً ولكنّه أيضاً كان بمنزلة كشف. إنّ العقل سريع التأثر، فنحن نستطيع تشكيل الدماغ كما المعجون كي نضع فيه الأكاذيب التي ينتهي بنا الأمر لتصديقها بشكل جدّي. اقترح عليّ الطبيب تشوب تخيل هذا المشهد وأنا قبلت ذلك، لا بل حتى إني تبنّيته. وبعدها تغيّر كلّ شيء، مما أدى إلى بقائي على قيد الحياة والتضحية بعمّي.

– إنّ ما قلتهِ رهيب يا إيلودي، إنّني آسف لما مررت به. ولكن أستطيع أن أفهم الآن جيداً عدّة أمور، ألهذا أنت تهتمين بالتنويم المغناطيسي؟
– بالضبط.
أنهت سيجارتها بسرعة كبيرة.
– كلّ هذا كي أقول لك إنّه فيما يخصّ «صدمتك الصغيرة» بعدما حدث البارحة مساء، أنصحك بالعودة مجدداً لرؤية هذه المنوّمة كي تنتزع منك هذه الذكرى الزائفة التي زرعتها فيك والتي تكبّلك. فجميعنا لدينا مشكلة ما في ماضينا علينا حلّها، بدءاً من مرحلة طفولتنا، ولكن إذا أضفنا إلى هذه المشاكل متاعب أخرى تأتينا من حيواتنا السابقة، فسوف نفتح على أنفسنا أبواباً لا نهاية لها...
– لم أكن أتوقع أن يكون لذلك كلّ هذا التأثير.
– عليك أن تذهب لرؤيتها ثانية كي تعيد ترتيب ما خرّبته وترجع الأمور إلى نصابها، وتنتزع من عقلك قصة هذا الجندي كي تتمكن من النوم أخيراً.

بعد الغداء قدّم رينيه توليدانو الدرس نفسه لصفين آخرين محاولاً حثّهم على البحث عن القصة الحقيقية للأحداث بعيداً عن الرواية الرسمية المتداولة.

اتجه بعد ذلك إلى غرفة المدرسين وراح يبحث على الإنترنيت عمّا يمكن أن يجده حول الذكريات الزائفة.

وقع على مقالة لعالمة النفس الأمريكية إليزابيث لوفتوس، فقرّر أن يستخلص منها مقالاً لمذكراته.

11 مذكرات. «الذكريات الزائفة».

أرادت إليزابيث لوفتوس إثبات أنّه بإمكان المرء إقناع نفسه بأشياء مزيفة وخاطئة. وكي تثبت أنّه بالإمكان خداع الذاكرة الشخصية لأحد ما، طلبت من أحد مساعديها إيجاد متطوعين لاختبار التجربة عليهم.

ومن ثمّ قابلت شخصياً هؤلاء الأشخاص وقالت لكلّ واحد منهم: «لقد

روى لي واحد من أفراد عائلتك هذه الطرفة المسلية عنك حينما كنت طفلاً».
ومن ثمّ قصّت على كلّ واحد ثلاث حكايات؛ حكايتان منها حقيقيتان والثالثة مزيفة كلياً، وقد أكدت أنّها حصلت على هذه الرواية الثالثة من عائلة الشخص، أي من مصدر موثوق.

اخترعت أحداثاً تافهة من مثل: «عندما كنتَ صغيراً، ضعت في أحد مراكز التسوق واضطرت عائلتك حينها أن تضع إعلاناً في المركز لإيجادك»، أو «قمت بسكب كأس نبيذ أحمر على فستان العروس الأبيض»، أو «عضّك الكلب أثناء محاولتك مداعبة رأسه».

عندما سئل هؤلاء الأشخاص بعد عدة أشهر إن كانوا يتذكرون هذه القصة الثالثة، كان 34% منهم مستعدين ليقسموا بأنّ هذه الواقعة حدثت بالفعل وأنّه باستطاعتهم حتى وصف أحداثها بالتفصيل.

اصطحبت الطبيبة إليزابيث لوفتوس في تجربة أخرى، مجموعة من الأشخاص المتطوعين إلى ديزني لاند. ومن ثمّ سألتهم فيما بعد عن هذه الزيارة، وخصوصاً عن اللحظات التي قضوها مع شخصية الرسوم المتحركة باغز باني. مع العلم أنّ البطل باغز باني ليس شخصية من إنتاج شركة ديزني وإنّما من تصميم استديوهات السينما المنافسة لديزني وهي وارنر برذرز، وبالتالي كان من المستحيل مصادفته في ديزني لاند. ومع ذلك فإنّ 60% من الأشخاص المُختَبرين ذكروا أنّهم رأوا وصافحوا يد باغز باني في ديزني لاند، و50% صرّحوا بأنّهم احتضنوه، وهنالك شخص ادّعى أنّه نزع من باغز باني جزرته الشهيرة من قبيل المزاح، ومن ثمّ عاد ووضعها في يده.

استخدمت أيضاً الطبيبة إليزابيث لوفتوس الذكريات الزائفة لخدمة مشاريع أخرى. فقد أخبرت طلابها أنّهم أثناء طفولتهم كانوا يحبون تناول الملفوف والهليون (هذان النوعان من الأطعمة لا يحبهما الأطفال بشكل عام، كما أنّهم يستمرون غالباً في كرههما لاحقاً عندما يكبرون). وإذ بها نرى أنّ هؤلاء الأشخاص قد بدأوا بتناول هذين النوعين من الأطعمة وتوقفوا عن كرههما.

-12-

تتوسط العين الخضراء المسرح، ويظهر خيال المنوّمة مضاء بأنوار جهاز الإسقاط.

– أنتم لستم فقط هذا الشخص الذي تظنونه، لذا سأطرح عليكم هذا السؤال: هل تستطيعون أن تتذكروا حقاً من أنتم؟

تفحّصت أوبال صالة صندوق باندورا وما إن لمحت رينيه توليدانو حتى شعرت برعشة خفيفة أصابتها، ولكنها تابعت مع ذلك خطابها:

– إنّني أحتاج متطوعاً. من يرغب منكم بخوض تجربة استثنائية سيتذكرها إلى الأبد وهي تجربة الفهم الكامل للذات؟

أسرع رينيه بالإجابة:

– أنا.

نهض رينيه حتى قبل أن تدعوه المنومة للقدوم.

– كلا ليس أنت، فأنت قد جرّبت هذا البارحة مساء.

– بالضبط. أرغب بتكرار هذه التجربة «لإصلاح» الأشياء التي قمت «بتخريبها».

لم يفهم الجمهور ما يجري ولكن أستاذ التاريخ يعي أنّ هذا الإزعاج يصبّ في مصلحته. لذا صعد على المسرح في حين أنّ المنوّمة لم تكن قد سمحت له بعد بذلك.

– لا أعتقد أنّ هذه ستكون فكرة جيدة. سأختار شخصاً آخر.

– أنا مُصرّ على هذا، وأريد أن أكون المتطوع الذي يخضع لهذه التجربة.

حاول أن يستميل الجمهور للوقوف في صفه.

– لمَ لا؟ آه نعم، أعتقد أنّني أعرف لماذا، لأنّكِ أقحمتني في ذكرى زائفة أليس كذلك؟

– كلا، بل لأنك سبق أن خضت هذه التجربة البارحة، لو سمحت يا سيد...

– توليدانو، اسمي رينيه توليدانو هل يُعقل أنّك نسيتِ بهذه السرعة؟ إنّها

مدعاة للسخرية بالنسبة لشخص مثلك، فمهتك هي العمل على ذاكرة الناس.

– كلّا لم أنسَ، ولكنني أطلب منك العودة إلى مكانك كي أستطيع إكمال عرضي.

– وإذا رفضت؟

تزعزعت أوبال قليلاً ولكنّها لم تشأ الاستسلام.

– أرجوك يا سيد توليدانو لا تعقد الأمور.

بدأ الجمهور هنا بالتدخل، فقام رجل بالتصفير لرينيه كي يعود إلى مكانه وراح الآخرون يطلقون أصوات استهجان. شعر رينيه بأنّه في حال استمرّ بتحدي هذه المنومة، فقد يخاطر بأن يطرد من قبل الجمهور الذي يبدو أنّه مستعدّ لدعم هذه الفنانة الجميلة ضدّ هذا المتطفل الذي أتى ليفسد العرض.

وقف رينيه وأوبال متحدّيين بعضهما بعضاً لبضع ثوانٍ بدت له طويلة إلى أن عاودته عرة عينه من جديد.

إنّ جسدي يخونني. ماذا عليّ أن أفعل؟

لذلك، وبعد تردّد عاد إلى مكانه غير آبهٍ بنظرات الاستهجان للحضور الجالسين جانبه.

– حسناً، كنت أقول إنّه يلزمني متطوع. من غيره يريد عيش هذه التجربة الفريدة والاستثنائية؟

رفعت يدها امرأة مميزة جداً ممّا أثار موجة من التصفيق الحار من قبل الجمهور.

– تفضلي واصعدي إلى المسرح يا سيدتي.

بدت المتطوعة الجديدة سعيدة لوجودها في هذا المكان.

– قبل أن نبدأ، أرغب بالتعرف إليك أكثر يا سيدتي. ما هو اسمك؟

– اسمي كارولين، عمري 42 عاماً، أعمل في صالون تجميل الأظافر وأنا متخصصة بتجميل أظافر القدم.

راح رينيه توليدانو يتابع العرض. أعلنت المرأة في لحظة حاسمة:

- أرى باب اللاوعي، ولكن عندما أضغط على قبضة الباب أشعر بوجود مقاومة كما لو أنّ هناك مزلاجاً مقفلاً من الجهة الأخرى.
- حاولي مرة أخرى يا سيدتي.
- إنّني أحاول ولكن هذا صعب للغاية.
- استمري في المحاولة، سوف تتمكنين من فتحه في النهاية.
- ولكنّه باب مُدرّع وثخين مع أقفال ضخمة!
- لا تستطيعين فتحه حقاً؟
- لقد حاولت بشتى الوسائل، قمت بسحبه ودفعه ولكنّه ثقيل جداً ومقفل بإحكام شديد، لا أتمكن من فتحه.
- حسناً، إذاً اصعدي من جديد. لقد حاولنا ولكن قد لا تنجح الأمور دائماً معنا يا كارولين. دعونا سيداتي وسادتي نصفّق تصفيقاً حاراً لكارولين على شجاعتها.

لم تستطع أوبال إخفاء إحباطها، ولكن بما أنّها لا تريد ختام عرضها بإخفاق، أضافت فقرة ارتجالية وتابعت بمشهد تنويم مغناطيسي تقليديّ جداً حيث طلبت من أحد المتطوعين أن يتخيل نفسه في الصحراء، في جوّ من الحرارة التي ترتفع شيئاً فشيئاً. وانتهى الأمر بالرجل أن بدأ بخلع ملابسه ونزع قميصه أمام أنظار الجمهور المستمتع بهذا المشهد.

تلقت الفنانة ذات الشعر الأحمر الطويل والعينين الخضراوين تصفيقاً حاراً، وأُتبِع بحفاوة عالية. انحنت المنوّمة انحناءة متواضعة، ثمّ أُسدلت الستائر الحمراء، وأُضيئت القاعة من جديد وبدأ الناس يخرجون بصف واحد من مسرح السفينة.

ذهبت أوبال في هذه الأثناء إلى غرفتها لتزيل مكياجها بهدوء وبعدها بدّلت ملابسها لترتدي ثياباً مريحة أكثر وحذاءً رياضياً. خرجت من صالة مَسرح صندوق باندورا بعد أن أغلقت الباب وأطفأت الضوء الموضوع على سطح القارب الذي يضيء اللافتة المكتوب عليها: «أوبال، المنوّمة المغناطيسية التي تجعلكم تكتشفون ماضيكم المنسي».

نزلت بعدها من السفينة ومشت على ضفة نهر السين كي تصل إلى

سيارتها. شعرت بعد أن قطعت حوالي مائة متر أنّ هناك أحداً ما يتبعها. وأدركت بوضوح أنّ هذه الخطوات لرجل يسير خلفها، لذا حثّت خطاها ولكنّ الرجل فعل الشيء ذاته أيضاً. شعرت أنّه يقترب منها، فأخرجت هاتفها ومن باب الاحتياط، جهزت رقم طوارئ الشرطة. استمرّ الرجل بالاقتراب منها، فأمسكت بعلبة الغاز المسيل للدموع المخبأة في حقيبتها، وبحركة سريعة استدارت نحوه ورشّت الكثير من الغاز بشكل مباشر على وجه الرجل.

تفاجأ هذا الأخير ووضع يديه على عينيه، ومن ثمّ هوى على ركبتيه وقد تعرّض لنوبة من السعال مترافقة مع جريان دموعه بشكل كثيف.

– سوف أتصل بالشرطة! هدّدته المنوّمة.

إلّا هذا.

– كلّا، لا تفعلي ذلك! أنا لا أريد أن أسبّب لكِ أيّ أذى، أنا...

عرفته.

– أنت المتطفل المزعج الذي قابلته في العرض. ولكن ما الذي تريده أيضاً؟

استغرق بعض الوقت قبل أن يتمكن من الكلام، فهو يشعر بحكة في عينيه وحرقة في حنجرته. راح يبصق وعيناه تدمعان بشكل متواصل.

– لقد زرعتِ في عقلي ذكرى زائفة، وأريد منكِ إزالتها.

– أنا لم أزرع أيّة فكرة زائفة كما تقول أنت، كلّ ما قمت به هو أنني سمحت لك بالولوج إلى ذاكرتكَ الدفينة.

– لقد أدخلتني في كابوس.

– أنتَ من اخترت فتحَ الباب الذي عشتَ فيه السلوك الأكثر بطولية، أليس صحيحاً؟ وفي الواقع، غالباً ما تنتهي حياة الأبطال بشكل سيئ. وكلّ ما في الأمر أنّه «لم يحالفك الحظّ» فقط لا غير.

استطاع أخيراً الوقوف والتحدث بشكل أفضل.

– لم يحالفني الحظّ!؟

- تماماً، «لم يحالفك الحظّ» بأن يكون هجوم معركة شومان دي دام مخططاً له بشكل سيئ من قبل قادتك، ولم يحالفك الحظّ بأن كانت الأرض موحلة بسبب الأمطار والثلوج، ولم يحالفك الحظّ بأنّ جنرالكم نيفيل كان قائداً عسكرياً سيئاً، ولم يحالفك الحظّ بمواجهتك لجندي ألمانيّ أقوى منك. أنا لا علاقة لي بشيء أبداً. وبالنسبة لك... حسناً، أنت الذي زرت الحياة التي أردت معرفتها، أي حياتك البطولية. وأنا لم أقم إلّا بعملي.

أمسكَ بمعصمها ضاغطاً عليه بقوة، وصرخ في وجهها.

- انزعي مني هذه الذكرى الزائفة!

حاولت إرغامه على ترك يدها دون جدوى.

- اتركني!

وافق على التخفيف من ضغطه على يدها.

- أنا متأسّفٌ ولكن عليّ الإصرار. فأنا أشعر كما لو أنّك جئتِ إلى منزلي، وطلبت مني فتح قبو المنزل وقمتِ بإخراج جبنة عتيقة متعفنة وذات رائحة كريهة، ومن ثمّ تركتني في وسط غرفة الاستقبال مع هذه القذارة المثيرة للاشمئزاز. كلّ ما أطلبه منك هو إزالتها من مكانها فقط.

وقف الاثنان يتحديان بنظراتهما بعضهما بعضاً من جديد، عينان بنيتان ضد عينين خضراوين.

- بسببكِ قمتُ... *(بقتل رجل)*، لم أستطع أن أنام الليل. عليك بذل ما بوسعك كي تصلحي الضرر الذي تسببت به. إنّ مهنتك في النهاية تقوم على الخوض في عقول الناس لترتيبها.

- أنا لا أدين لك بشيء. لم يكن باستطاعتي أن أعرف ما هو مخبأ في أعماقك الدفينة.

حاول البحث عن وسيلة أخرى لاستعادة السيطرة على الموقف، فتذكر حيلة إيلودي التي استمالت بها طبيبها النفسي.

- أريد أن أذكرك بأنني أتيت لحضور عرضك، وأنّني دفعت ثمن تذكرة الدخول ولم أحصل إلّا على نتيجة واحدة جعلتني أخرج من الصالة

وأنا تحت تأثير صدمة مؤلمة. هل تريدين أن أشير لهذا الحادث المؤسف عبر وسائل التواصل الاجتماعي؟ أعتقد أنّه إن أخبرت الناس عمّا عشته، فلا بدّ أنّ هذا الأمر سيهمّ الكثير من الجمهور المحتملين الذين سيفكرون ألف مرة قبل أن يدفعوا لك مبلغ 30 يورو لحضور عرضك الذي سيحرمهم من النوم.

- هل هذا تهديد؟
- طبعاً.

في هذه المرة هي من أشاحت بنظرها عنه وقامت بحركة بسيطة كي تزيح خصلة الشعر عن عينها.

- لا نستطيع أن نمحو الذكريات التي تظهر من الذاكرة العميقة. فهي تظهر ساعة تظهر، وقد فات الأوان.
- بلى، أنتِ تستطيعين، أعرف ذلك.
- أنت لا تعرف أيّ شيء أبداً، فالماضي لا يمكن تغييره مطلقاً. لا نستطيع التملّص من أيّ شيء. ولكن من جهة أخرى، يمكننا أن نجرّب شيئاً آخر.
- ها أنا أصغي إليكِ.
- الإضافة، يمكننا أن نضيف ذكرى إيجابية تحمل مشاعر موازية لتلك المشاعر السلبية فتجعلنا ننسى الذكرى السلبية أو على الأقل تقلّص من أثرها.

بدت الحيرة على رينيه، فأكملت أوبال:

- إنّ الأمر يشبه ما كان يحدث عندما كنّا أطفالاً؛ فحينما كنت تصاب بجرح ما، تأتي أمك لتواسيك بقطعة حلوى. صحيح أنّ جرح ركبتك ما يزال يؤلمك ولكن قطعة الحلوى بالشوكولا سوف تهوّن عليك هذا الحادث.
- لا تكلّميني كأنّك تتحدثين إلى طفل صغير.
- كان ذلك مجرد تشبيه مجازيّ كي تفهم كيف يمكننا أن نعمل.
- ابحثي عن الطريقة التي تناسبكِ، ولكن أصلحي لي هذا الألم الذي تسبّبتِ به.

– جيد جداً، اتبعني إذن.

عادا باتجاه مسرح السفينة. فتحت أوبال باب صالة صندوق باندورا، وشغّلت من جديد جهاز الإسقاط، وقامت بدعوته بعدها للجلوس على الكرسي المخمليّ الأحمر بمواجهة العين الخضراء الضخمة التي تعدّ جزءاً من ديكور الصالة. امتثل رينيه لطلبها في اللحظة التي رنّ فيها هاتفه المحمول. إنّها إيلودي تريد بالتأكيد معرفة مكانه.

– يجب أن تضع هاتفك بوضع الطيران. صحيح أنّه عرض، تحت طلب شخصيّ، ولكنّه يبقى عرضاً.

– عذراً منكِ.

– ما هي الحياة التي تودّ معرفتها؟

– بعد هذه الحياة «البطولية» التي متّ فيها شاباً بطريقة شنيعة دون عائلة، أريد اكتشاف العكس؛ تلك الحياة التي عشت فيها حتى عمر متقدم ومتّ فيها بطريقة طبيعية وسط عائلتي في بلدٍ آمنٍ وسالم.

– كما تشاء.

طلبت منه أن يغلق عينيه ويسترخي ويتصوّر بعدها السلّم، وبعدها باب اللاوعي ومن ثمّ الذهاب إلى الممر الذي يوجد فيه مائة وأحد عشر باباً مرقماً.

أخذ يركز على جميع النقاط التي سبق أن ذكرها؛ «عمر متقدم»، «وفاة طبيعية»، «وسط عائلة»، «في بلد آمن».

أضاء الباب رقم 95 باللون الأحمر ففتحه.

-13-

يداه نحيلتان بعروق بارزة، مليئتان بالتجاعيد والبقع الداكنة. جسده ممدّد على سرير، محاط بالعديد من الأشخاص، فعلى جانبه الأيمن يقف رجل شعره أبيض وثلاثة شبان مع زوجاتهم ومعهم ستة أطفال. ويقف على جانبه الأيسر كاهن، بالإضافة لرجل يرتدي زياً رسمياً قديماً.

أدرك رينيه توليدانو من شكل جسده أنّه كان في هذه الحياة امرأة عجوزاً.

- أوه! يا عزيزتي الغالية!

فهم رينيه توليدانو أنّ الرجل ذا الشعر الأبيض الذي نطق بهذه الكلمات وهو ممسك بيد المرأة يقبّلها، هو زوجها.

- هل تشاهدين، إنّه كاتب العدل والكاهن جاءا من أجلكِ.

أعطاها الرجل الذي قُدّم على أنّه كاتب العدل ورقة مكتوباً عليها بالخط العريض كلمة: «الوصية».

يستطيع رينيه إذاً الحصول على مزيد من المعلومات عمّن يكون أو بالأحرى عمّن «تكون» هذه الشخصية. فقد شاهد مكتوباً بأعلى الصفحة بريشة جميلة:

الكونتيسة ليونتين دي فيلامبروز

قصر فيلامبروز، 1785م

تبع هذا الاسم قائمة طويلة من المباني والأراضي والخيول والحمير والدجاج، وأيضاً العديد من الأشياء مثل عربات الخيول وآلات الحراثة والأثاث والفضيات.

راجعت المرأة قراءة القائمة بعينيها ومن ثمّ وقّعت عليها بيدٍ مرتجفةٍ، فشكرها كاتب العدل وعاد إلى الخلف.

اقترب الخوري بعد ذلك منها عارضاً عليها «تخليص روحها بالاعتراف». فوشوشته المرأة في أذنه.

- أعترف بأنّني أمضيت الكثير من الوقت في محاولة الهروب من الالتزامات التي فرضتها عليّ مكانتي الاجتماعية سواء من حضور الحفلات الراقصة، واستقبال جميع الأناس المتطفلين وكلّ ما يتعلق بهذا المجتمع المخملي... كما آسف على زوجي وأولادي الذين قضوا وقتهم باستجدائي على الالتزام بهذه الأمور!

- أنتِ بريئة من كلّ هذا.

- ليس هذا كلّ شيء. أعترف بأنّني أقمت علاقة جسدية مع البستاني لأنّ زوجي كان قد فقد قدراته منذ زمن طويل بينما أنا لطالما كنت مهووسة بكلّ ما يتعلق بالجسد.

- أوه... لقد بُرِّئتِ أيضاً من هذا.

- ولتعلم أيضاً، إن كنت تسمح، أنّ الأمر لم يقتصر على البستاني فقط وإنّما أيضاً أقمت علاقة مع عامل الإسطبل والعديد من خدمي، ولست خجلة من سؤال؛ لماذا يحقّ للرجال فقط الإعلان عن مغامراتهم، بينما نحن النساء أيضاً نشعر بمثل هذا الزخم من الرغبات تجاه الجنس الآخر؟ أتمنى من الله أن يأتي اليوم الذي تتساوى فيه حقوق المرأة مع حقوق الرجل، وأن تستطيع النساء أُسوةً بالرجال، التردّد على الرجال العواهر، منتزعة بذلك من الرجال واحدة من المزايا العديدة التي يحظون بها.

سعل الخوري متفاجئاً ومتأملاً ألّا يكون الآخرون قد سمعوا شيئاً.

- عليّ أن أقول لك أيضاً يا أبتي، بأنّني أحتقر كلّ رجال الدين المتعصبين الذين يؤمنون بجميع الخرافات التي تغذيها الكنيسة كي تزداد ثراء على حساب الأناس الأكثر سذاجة...

- حسناً، أعتقد أنّك بهذا اعترفتِ بكلّ شيء. قاطعها الخوري.

بدأ الخوري بترتيل صلاة باللغة اللاتينية التي غطت على صوت المرأة العجوز. رسم بعدها إشارة الصليب على جبهتها.

- أنت بريئة الآن يا سيدتي الكونتيسة. تستطيع روحك الآن دخول الجنة.

ما إن خرج الخوري وكاتب العدل حتى اقترب الكونت منها.

- حسناً يا حبيبتي الغالية، إنّه الوقت المناسب كي تقولي لي... أين؟

داعب جبهتها.

- أين ماذا؟

- أين دفنتِ جرة سبائك الذهب؟

- تعلم يا غونزاغو أنّني أكره هذه التعابير السوقية التي تحشرها في كلامك لتذكرني بها أنك تحبني من مثل؛ «حبيبتي الغالية»، و«عزيزتي الغالية»، نحن لسنا من عامة الناس، فتوقف عن استخدامها بحقّ الجحيم!

- جيد جداً يا ليونتين. قولي لي أين هذه الجرة؟ إن لم تكشفي الآن عن

مكانها، ستضيع على عائلتنا بأكملها هذه الأموال المتوارثة، فالطبيب لا يتوقع أن تبقي على قيد الحياة إلّا لبضع ساعات فقط.

- إنّها حصّتي من الإرث الذي تركته عائلتي لي أنا، وكما تتذكر يا غونزاغو، فقد كان والداي ساخطين عليك كثيراً في أواخر عمرهما. إن أعطيتك هذه الأموال الآن سيكون هذا بمنزلة قلّة احترام لهما.

- لا أحد معنياً بهذا إلّا أنا فقط يا حبيبتي الغالية، فما ذنب أطفالنا! تعالوا يا أطفالي، هيا، قولوا لأمكم وجدتكم إنكم تحبونها جداً.

اقترب ابنها البكر بهيئة مهدّدة.

- هيّا يا أمي تكلّمي. نعلم بأنّ الجرة مخبأة في مكان ما من الحديقة خلف القصر، ولكن أين؟ بالقرب من البحيرة؟ أم في جهة الغابة؟

أكمل الأحفاد قائلين:

- أين الذهب يا سيدتي؟ أين هي السبائك؟ نودّ أن نراها...

- إذاً اجتمعتم حولي هنا اليوم فقط من أجل الاستفسار عن الإرث. مثل النسور التي تترقب أن يتحول الحيوان إلى جيفة كي تفترسه.

- يا له من عار علينا جميعاً إن كنت تفكرين بهذه الطريقة!

- يا زوجتي الغالية على قلبي!

- أمي!

- سيدتي!

حاول الجميع أن يمسكوا يدها ولكنّها دفعتهم جميعهم.

- أنتم تشعرونني بالاشمئزاز بما تفعلونه. هذا الحبّ بالنسبة لي ليس إلّا مراءً!

حدّقت ليونتين بأفراد عائلتها الذين تظاهروا بأنّهم لم يسمعوا شيئاً، وراحوا يعيدون الخطاب السخيف ذاته.

- هيا، تكلّمي يا حبيبتي الغالية، أين هو الكنز؟

- أين الكنز يا أمي؟

- أين الكنز يا سيدتي؟

انتهت الكونتيسة بقول:

– آذاراب.

– ماذا تعني كلمة «آذاراب» ؟ هل هي البلدة التي خبأت فيها الجرة؟

– آذاراب؟ هذه كلمة عامية على ما أعتقد.

– أمّا أنا فأظنّ أنّها كلمة لاتينية، يجب أن نطلب من الخوري العودة فقد يستطيع تفسير معنى هذه الكلمة لنا.

عاودت المرأة العجوز الكلام من جديد ولكن بصعوبة.

– اطلبوا لي الخادمة، فأنا أريد التبوّل.

وصلت الخادمة وساعدت المرأة على المشي باتجاه الحجرة حيث وُضع فيها الكرسي المثقوب وتحته الحوض. أغلقت الكونتيسة الباب ومن ثمّ تبوّلت وحدها في الحجرة.

تفاجأ رينيه بقدرته على قراءة أفكار المرأة مع أنّها لم تنطق صراحة بشيء.

جميعهم أوغاد، يدّعون أنهم يحبونني ولكنّني لا أحبّهم، كما أنّي احتقرهم واكرههم.

أفضّل أن أحرمهم من المال على أن أهبهم إياه في مثل هذه الظروف.

ومن ناحية أخرى لا بأس بذلك، فأنا أضحك منذ الآن من فكرة تخيّلهم ينبشون المقاطعة رأساً على عقب بحثاً عن الجرة، في حين أنّني خبأتها تحت شجرة البلوط الكبيرة في أقصى يسار الحديقة.

ومن ثمّ صرخت من مقصورة الحمّام:

– آذاراب!

وسقطت بعدها. سُمع بعدها أصوات خطوات أقدام تركض في الممر، حينما وصل الجميع وجدوها جثة هامدة.

خرجت روح السيدة العجوز من قميصها الجسدي الميت. فتشكل خيال من الإكتوبلازم[1] يشبه تماماً ذلك القميص الجسدي.

شاهدت حينها روح ليونتين روح رينيه.

1- إكتو يعني «خارج»، وبلازما تعني «شكلاً ذا هيئة». مصطلح يستخدم في عالم الروحانيات إشارة إلى مادة أو طاقة روحانية مرتبطة بشخص ميت، لا يراها غالباً سوى الوسطاء الروحانيين. المترجمة

فتحت عينيها محدّقة ومتفاجئة.

– ولكن أيّ شيطان أنت؟

تفاجأ أستاذ التاريخ.

– أنا... أوه... أنا... ذاك الشخص الذي ستصبحين عليه في المستقبل...

– وما الذي تفعله هنا في هذه اللحظة؟ أرجو ألّا تكون أنت أيضاً قد جئت باحثاً عن سبائك الذهب.

– أوه... كلا... أنا... حسناً... أنتِ...

ولكنّ ضوءاً قادماً من بعيد جذب إليه روح ليونتين، فذهبت باتجاهه فوراً. في حين أنّ جميع أفراد عائلتها بدأوا بالصراخ والبكاء وهم يهزون قميصها الجسديّ المخلوع.

ظهر للتوّ وراء أستاذ التاريخ باب ففتحه، وإذ به يجد نفسه في الممرّ، فصعد حتى وصل إلى الباب رقم 112، ففتحه وصعد على السلّم في حين بدأ يرنّ في مسمعه بالتدريج صوت المرأة:

– ... أربعة، ثلاثة، اثنان، واحد، صفر. افتح عينيك يا سيد توليدانو.

فرقعت المنومة بأصابعها بقوة.

-14-

أخذ رينيه يرفرف بجفنيه.

– إذاً؟ سألته أوبال وقد بدا عليها الفضول والقلق في آن معاً.

راح يتنفس بسرعة، فما زال مضطرباً من المشهد الذي عاشه للتوّ. طلب كأس ماء، فذهبت أوبال لتحضر له كوب الماء من الكواليس. عاد تنفسه ليكون منتظماً، فقام بتشغيل هاتفه الجوال، وفتح ملفه «مذكرات» وسجّل سريعاً جميع تفاصيل نهاية حياة الكونتيسة ليونتين دي فيلامبروز.

– كنتُ امرأة عجوزاً. لقد استطعت الدخول إلى أفكارها! أمّا جندي الحرب العالمية الأولى فقد رأيته من الخارج كيف يتحرك كما لو أنّني أشاهد أحد الأفلام، ولكن كان بإمكاني هنا أن أسمع ما يجول في خاطر هذه المرأة العجوز كما لو أنّني كنت في رأسها.

تأثرت أوبال بما سمعته. تابع رينيه الحديث متحمساً بهذه التجربة التي خاضها.

– هذا لا يصدق، كان بإمكاني رؤيتها من الخارج وسماعها وهي تفكر في سرّها.

نهض عن الكرسيّ وتنفس بعمق كما لو أنّه غواص عائد من هبوط منهك.

– إذاً أنت بحال أفضل الآن؟ هل شُفيت؟ هل نزعت منك صدمة أول هبوط؟

لم يسمعها رينيه وتابع:

– أعتقد أنّني أعرف الآن لماذا كنت دائماً أشعر بعدم الارتياح لمفهوم الأسرة. وهذا يفسر لماذا ما زلتُ عازباً مع أنّني أصبحت في الثانية والثلاثين من عمري. ولماذا أهرب ما إن أشعر بوجود امرأة ترغب بالاستقرار معي. ولكن ما يحيّرني أنّ آخر ما قالته الكونتيسة هي كلمة «آذاراب».

– آذاراب؟

– نعم، لقد نطقتها كما لو أنّها توجه لعنة ما.

قالت أوبال بحماس.

– آذاراب؟ هل أنت متأكد من هذا؟

– أعرف أنّها ليست شتيمة ولكنها أيضاً ليست المكان الذي خبأت فيه الكنز.

– أنا أعشق الألغاز، لذا أعتقد أنّني أستطيع حلّ هذا اللغز.

– تفضلي، أنا أستمع إليك.

– الأشهر. لنقل إنّك تريد عدّ أشهر السنة على أصابعك، ستكون الإصبع الثالثة من يدك هو شهر آذار/ مارس. إذاً هذا يتوافق مع الإصبع الثالثة الوسطى من يدك اليسرى، وإذا أكملت العد فسيتوافق أيضاً شهر آب/ أغسطس، وهو الشهر الثامن، مع الإصبع الثالثة أي الوسطى من اليد اليمنى. وهكذا فإنّ آذار وآب يشيران إلى الإصبعين الوسطيين في كلتا اليدين، وهذا ما عبرت عنه ليونتين بكلمة واحدة «آذاراب». كانت

ترغب ليونتين أن ترفع إصبعيها الوسطيين في وجه عائلتها، كجوابٍ منها عن مخبأ إرثها.
أُعجب رينيه بحكمة المنومة المغناطيسية.
- تقصدين أنّها قبل موتها وجّهت لهم إهانة مزدوجة كأنّها تقول لهم فلتذهبوا إلى الجحيم؟

كانت السيدة الكونتيسة ليونتين دي فيلامبروز امرأة عجوزاً ماكرة ولعوباً ولم تكن ساذجة. ومن القدر القليل الذي عرفته عنها، أستطيع القول إنّها امرأة «ظريفة».

استرخت أوبال أيضاً. ارتدت سترتها وهمّت لإطفاء جهاز الإسقاط كي تخرج من المسرح.
- إنّ التنويم المغناطيسي مدهش بالفعل. لقد كشفتِ لي أنّ هناك آلة لعبور الزمن مخبأة في دماغي. إنّها آلة دون تقنيات وهي تعمل فقط بقوة الخيال.
- برأيي الشخصي أنّ الأمر ليس مجرد تخيلات. وإلّا لما كان بمقدورك الوصول إلى هذا الكم من التفاصيل. أضف إلى ذلك أنّك لا تستطيع الذهاب إلى كلّ مكان تريده عبر الزمن، بل تستطيع فقط استكشاف الأماكن والعصور التي سبق أن عاشتها الكارما الخاصة بك أليس صحيحاً؟
- سمّي هذا ما شئتِ، ولكنّني بدأت أجده مثيراً أكثر فأكثر. أريد خوض تجربة جديدة.
- لقد تأخر الوقت.
- لنقل إنّ هذه ستكون «خدمة ما بعد البيع» لعرضك.
- لقد استفدت لتوّك من «خدمة ما بعد البيع»، يجب علينا الخروج الآن من المسرح. هيّا انهض.
- فقط مرّة واحدة.
حدّقت به متفاجئة، ومن ثمّ نظرت إلى ساعتها:
- لديّ دعوة على العشاء و...
- اتصلي بهم وقولي إنّه استجدّ لديك أمر طارئ في آخر لحظة. أنتِ

«مدينة» لي بذلك.

- ماذا تريد مني في النهاية؟ أنا لست مسؤولة عمّا جرى معك في حيواتك السابقة.

- أنا لست أحداً أيّاً كان، أنا أوّل متطوع وزبون لكِ. وأنت لا ترغبين بالطبع أن تتركي انطباعاً لدى زبونك بأنّه تعرض لسوء معاملة. ما أطلبه منك هو أمر مشروع، أريد إيجاد سكينتي الروحية وأن أقدر على النوم هذا المساء. لقد ساعدني اكتشاف حياة ليونتين بلا شكّ وهدّأ من روعي قليلاً، ولكن ليس إلى درجة التعويض عن الضغط الذي سبّبته لي حياة هيبوليت. ففي النهاية لا هو مات سعيداً، ولا هي أيضاً. فحياة هذين الشخصين انتهت بشكل سيئ.

- سوف تهددني من جديد بكشف مغامرتك على وسائل التواصل الاجتماعي؟ انتبه، أنا من جهتي أرى أنّك تستغلّ صبري عليك. وأنا لستُ مدينة لك بشيء.

- أنتِ مدينة لي «بالسلام الروحي». هذا السلام الذي عكّرتِهِ على حسابي الشخصي لتسلية الجمهور.

تردّدت قليلاً ومن ثمّ وافقت على إرسال رسالة قصيرة للاعتذار عن دعوة العشاء.

تمدّد على الكرسي المخملي الأحمر، وأظهر تعبيراً صارماً مثل رياضي مستعد لتحطيم الرقم القياسي.

- يجب أن أكون دقيقاً في طلبي إذاً. حسناً أريد هذه المرة فتح الباب في الممر الذي يتوافق مع...

أغلق عينيه وراح يبحث عن أفضل صيغة للتعبير.

ماذا أطلب كي أكون متأكداً من عدم عيشي لتجربة مزعجة؟ يجب أن أفكر بالرضا والفرح.

- أريد الذهاب لاستكشاف الحياة التي عرفت فيها أكبر قدر من المتعة والسعادة.

طلبت منه أوبال خانعة، التنفس العميق ومن ثمّ بدأت العد التنازلي للهبوط على درجات السلّم؛ واحد، اثنان، ثلاثة...

-15-

يداه ضخمتان وخشنتان ومغطاة بالأوساخ، وأظافره مقضومة حتى قاعدة الظفر. أمّا الساعدان فيغطيهما شعر أسود كثيف ومجعد. لاحظ وجود لحية طويلة تسبب له حكة في ذقنه.

شعر بوخزة في ظهره، وبجانبه كان هناك رجال آخرون جالسون بصدور عارية على المقعد نفسه الذي يجلس عليه، وكلّهم مُقيَّدون بمجذاف خشبي عريض وضخم كما لو أنّه عارضة.

كانوا يقومون جميعهم بنفس حركة الدفع إلى الأمام والسحب إلى الخلف بشكل متزامن. أدرك أنّ رائحة اليود تغطي على روائح العفونة والعرق والبول والبراز. كان يقف في أعلى الفتحة التي تؤدي إلى ظهر القارب، رجل ذو بشرة سوداء يقوم بالطرق على الطنبور بهدوء ولكن بصورة متواترة لكي يحدّد لهم وتيرة العمل. وصل بعد برهة، رجل قصير وبطين يرتدي سترة خضراء، ويحمل وعاءً ومن ثمّ لوّح لهم بيده.

- هيّا إلى الطعام!

قدّم لكلّ واحد منهم القليل من الحساء البنيّ باستخدام مغرفة ذراعها طويلة كي يبقى على مسافة بعيدة عن وجوههم. تابع الرجل ذو السترة الخضراء سيره في الممشى إلى أن وصل أمامه.

- كلّا، ليس لكَ طعام أنت يا زينو. فأنا أعلم أنّك حرّضت زملاءك على التمرّد، وبما أنّك تبدو بطبيعتك صاحب سلطة على الآخرين، فكّرت بأنّني في حال عاقبتك سوف يفهم الآخرون ما ينتظرهم إن حاولوا فعل أيّ شيء لاحقاً.

أدرك رينيه هنا أنّ تجسّده السابق كان رجلاً مثيراً للمتاعب اسمه زينو.

- إنّني جائع. نطق هذه الجملة فم الجسد الذي وجد رينيه نفسه فيه.

- إذاً استمتع بهذا!

وضع الرجل ذو السترة الخضراء وعاءه ومغرفته، وأمسك بالسوط وأخذ يوجه له ضربات قاسية. شعرت روح رينيه الساكنة في جسد زينو بحرقة الجروح التي تسببها كل ضربة من السوط.

- هل هذا لذيذ، أمازلت جائعاً؟ أم تريد المزيد أيضاً؟ قال الجلاد ساخراً وهو مزهوّ بفعلته.

تناول من جديد وعاءه ومغرفته وأكمل جولته.

إنّ الشعور بالحاجة أمر موجع، ولكنّ زينو بدافع الكبرياء، أطبق على فكيه بقوة.

ظهر ضابط رومانيّ على ظهر السفينة، ونزل الدرجات التي تؤدي إلى قمرة التجديف. وشوش في أذن الرجل ذي السترة الخضراء شيئاً ما، ومن ثمّ صعد باتجاه ظهر السفينة العلوي.

- إنذار، انتبهوا! شُوهدت قوارب القرطاجيين تقترب، لذا استعدوا للمعركة. إن ربحنا فسيحصل كلّ واحد منكم على رغيفي خبز وقطعة لحم. أعلن الرجل الجلّاد.

سرت همسات حماسية بين المجذفين.

- بالإضافة إلى ثلاثة أيام من الراحة في أقرب مدينة وهي دريباناي. ولكن إن أمسك بنا القرطاجيون فسوف يجعلون منكم أضحية لإلههم بعل، إنّهم برابرة قُساة. أريد أن أذكركم بأنّهم يمارسون تعذيباً وحشياً لأسراهم كما أنّهم آكلو لحوم بشرية. لن تتعرضوا فقط لآلام شنيعة، بل الأكثر من ذلك أنّ جثثكم لن تلقى دفناً محترماً. لذا إن كنتم لا ترغبون بأن تصبحوا طعاماً للقرطاجيين، فأنا أنصحكم بأن تضعوا كلّ قواكم كي يكون قاربنا الأكثر سرعة وقوة.

أشار الرجل ذو السترة الخضراء للرجل الذي يحمل الطنبور أن يقوم بتسريع وتيرة الطرق كي يتسارع بالتالي عمل المجذفين.

تذكرت روح رينيه أنّه كان بإمكانها الدخول إلى أفكار ليونتين، لذا حاول رينِيه الولوج أيضاً لأفكار زينو، فنجح بالوصول إلى ذاكرته. اكتشف فيها رينيه ذكريات طفولة زينو حينما كان في صقلية محاطاً بالكثير من الأخوة والأخوات الذين يلعبون معه في وسط حقول الزيتون. بالإضافة إلى ذكريات ذاك الزمن الذي عمل فيه مع والده في مرفأ سيراكيوز. كما تذكر تلك اللحظات التي كان يبحر فيها على السفن الشراعية. ومن ثمّ في أحد

الأيام، حطّ الرومانيون رحالهم في صقلية ودون أيّ تفسير، أوقفوا جميع الرجال وكبّلوهم بالسلاسل، وأعلنوا أنّ البعض منهم سوف يُساق للعمل في مناجم الحديد، والآخرون سيصبحون عبيداً يعملون بالتجذيف داخل السفن.

وابتداءً من تلك اللحظة لا بدّ أنّ ذكريات زينو أصبحت كذكريات جميع العبيد المجذفين؛ فقد قُيّد بالسلاسل على المجذاف، وصار يأكل وجبة حساء واحدة فقط في اليوم، وينام على المقعد، ولم يعد باستطاعته التحرّك خارج جوف هذا المركب، ولا يملك سوى النظر إلى زملائه وهم يموتون من الإجهاد أو من المرض الواحد تلو الآخر، ويسمع طرقات هذا الطنبور الملعون، ويتلقى ضربات السوط. اكتشف رينيه أنّ زينو حاول الهروب بالفعل، وقد حثّ الآخرين على التمرد، ولكن قام أحد رفاقه بالتبليغ عنه مقابل قطعة خبز، لذا حُرم زينو من الطعام وتعرّض للضرب وهذا كان جزءاً من المخاطر.

ترك رينيه ذكريات زينو جانباً وعاد إلى اللحظة الحالية. كان زينو يستطيع رؤية البحر عبر الشق الصغير الذي يخرج منه المجذاف. وقد استطاع التعرف على قوارب الأعداء التي تظهر في البعيد رغم أنّ الشق صغير. فقوارب القرطاجيين تبدو من بعيد صغيرة جداً، والأمر الذي لفت نظر زينو أيضاً أنّ للقوارب أشرعة عريضة جداً، ما يعني أنّها ستكون أكثر سرعة ومرونة في الحركة. بما أنّه كان مولعاً بالملاحة قبل أن يتمّ أسره، فقد اهتمّ بمعرفة جميع القوارب التي تبحر في البحر الأبيض المتوسط. لذا فهو يعلم أنّ القرطاجيين بُناة قوارب مهرة جداً. أمّا الرومانيون فقد عوّضوا بطء وثقل قواربهم بعدد المجذفين الكثير، بالإضافة لوجود نتوء حادّ في أسفل مقدمة السفينة مغلف بالحديد الضخم الذي يستخدم سلاحاً لتحطيم قوارب العدو. إذاً في حال كانت الرياح قوية فسوف يتفوق القرطاجيون عليهم، أمّا إن كانت الرياح ضعيفة فسيثبت الرومانيون أنّهم الأكثر كفاءة.

اقتربت قوارب القرطاجيين وبدأت المعركة.

أخذ الرجل الذي يضرب على الطنبور بتسريع الطرقات تدريجياً إلى أن

أصبح من غير الممكن متابعتها. كان جميع المجذفين يصدرون همهمات متواترة لبثّ الطاقة فيما بينهم.

فجأة، حدث ارتطام وسُمعت أصوات تكسر للخشب، وطُلب منهم التوقف عن التجذيف. ارتاب زينو ممّا يجري. لقد خرق النتوء الحديدي في أسفل سفينتهم الهيكل الخشبي لقارب العدو. تعالت فوق رؤوسهم صرخات النصر للجنود الرومانيين.

اطمأنّ المجذفون بأنّهم على القارب المنتصر وسيحصلون على الخبز واللحم والراحة. ولكنّهم اشتموا فجأة رائحة زيت وخشب يحترق. هنا أيضاً عرف زينو ما الأمر، ولم يطمئنه هذا؛ لا بدّ أنّ القرطاجيين قد رموا سهاماً مغلفة بالقار المشتعل من المجانيق، تلا ذلك أصوات صرخات. لقد قفز جميع الجنود الرومانيين إلى الماء كي ينتقلوا سباحة إلى قارب آخر، تاركين المجذفين المقيدين وحدهم في السفينة المشتعلة.

تحرّك زينو على الفور. فقد رأى أنّه في أعلى الفتحة التي تؤدي إلى ظهر السفينة، قفل كبير واحد يتحكم بجميع قيود المجذفين. وقد استطاع زينو لحسن حظه، الوصول إليه بسهولة من المكان الذي قُيد فيه. اقترب منه محاولاً رفع القفل بالرمح ولكن لم ينجح، وبعدها نزع مسمارين من المقعد وحاول كسر الترباس، وفي هذا الوقت كان المجذفون الآخرون قد تسمّروا دون حركة مترقبين ما سيحدث.

نجح زينو بفتح القفل، فتعالت صيحات رفاقه مهللين بهذا الإنجاز. لقد أصبح حرّاً أخيراً، صعد إلى ظهر السفينة وشرح للآخرين كيفية إخماد النيران.

ما إن أطفأوا بصعوبة هذا الحريق، حتى توجّه المجذف الصقلي باحثاً عن الطعام، ولكنّ المؤن التي كانت في قُمرة القيادة قد تحولت إلى رماد. توجّه بعدها إلى مؤخرة السفينة وأمسك بالدفة التي لم تكن قد تحطمت على الرغم من الهجوم، بل بقيت قابلة للتحريك.

أخذ يتفحص واقع المعركة، على يمينه سفن الرومانيين، لقد عرفهم من أشرعتهم الحمراء مع شارة النسر الأسود الذي يمسك بمخالبه رسائل

الجمهورية الرومانية (SPQR)[1]. وعلى يساره سفن القرطاجيين بأشرعتهم البيضاء مع صورة الدلفين الأزرق الذي يعلو فوق الشمس الصفراء.

يجب أن يختار الانضمام إلى أحد المعسكرين.

إن اتجه يميناً، سيكافئه الرومانيون لأنّه أنقذ القارب ولكنّه سيظل مجذفاً. وإن اتجه يساراً لن يكون مجذفاً ولكنّه يخاطر بأن يصبح أضحية للإله بعل أو يكون طعاماً للقرطاجيين في أعيادهم المحلية. حتى وإن كان لا يحبّ الرومانيين ولكنّه على الأقل يعرفهم، في حين أنّه لا يعرف القرطاجيين.

أيهما أفضل إذاً، عدو معروف أم عدو مجهول؟ بما أنّه نجح في فتح القفل وإطفاء الحريق فقد كسب ثقة المجذفين الآخرين، وها هم الآن ينتظرون القرار الذي سيتخذه.

فهم رينيه أنّه قد حان الوقت الآن ليتدخل. فهمس قائلاً له:

– اذهب باتجاه القرطاجيين.

كان رينيه يرغب بمعرفة ما إذا كان التواصل يعمل في كلا الاتجاهين. لا سيّما أنّه لا يتكلم بنفس اللغة، قال هذا لنفسه قبل أن يتنبه لفكرة أنّه طالما استطاع هو ذاته أن يفهم عليه، يجب إذاً على زينو أن يتمكن من فهمه أيضاً.

– التحقْ بالقرطاجيين! كرّر رينيه بصوت مرتفع.

هزّ زينو رأسه وأخذ يضغط على صدغيه كما لو أنّه يعاني من صداع نصفي. ثمّ انتهى بالقول متذمراً:

– ولكن من هذا الذي يتحدث داخل رأسي؟

– أنا الشخص الذي ستصبح عليه في المستقبل. إنّ تفسير هذا معقد قليلاً الآن، ولكن اقبل إمكانية أن أكون روح الرجل الذي ستصبح عليه بعد...

إن قلت له بعد ألفي عام لن يصدقني أبداً.

– ... بضع سنين.

– ولكن كيف تستطيع أن تحدثني من داخل رأسي؟ هل أنت إله؟

1- هذا الشعار هو اختصار «الشعب ومجلس شيوخ روما». المترجمة

– إنّها تقنية حديثة ولكنّ شرحها الآن سيستغرق وقتاً طويلاً نوعاً ما. اعتبر ببساطة أنّني تطوّر روحك في المستقبل وفي جسد آخر، وأنّني أستطيع العودة إلى الوراء للتحدث إليك.

– إنّ رأسي يؤلمني، اذهب الآن إنّني مشغول.

– أعلم أنّه من الصعب قبول هذا الكلام من شخص لم يسبق له أن واجه كلّ هذا، ولكن أتوسل إليك استمع لنصيحتي. أعرف نتيجة هذه المعركة كما أعرف القرطاجيين، وأستطيع أن أؤكد لك أنّهم ليسوا برابرة ولا آكلي لحوم بشرية. لقد قال لكم الرومانيون هذا لإضفاء الشرعية على حروبهم، ولكنّ القرطاجيين ليسوا سوى منافسين للرومانيين على طرق التجارة البحرية. إنّهم خيّرون ومسالمون. تستطيع الذهاب إليهم دون خوف.

– ولكنّهم رغم ما تقول، خرّبوا هذه السفينة وحاولوا قتل جميع من على متنها بسهامهم المشتعلة! كنا سنموت جميعنا حرقاً!

– كانوا يستهدفون الرومانيين وليس المجذفين. تذكر ما عشته يا زينو. أعداؤك الحقيقيون هم هؤلاء الذين قيدوك بالسلاسل وحرموك من الطعام ووجهوا إليك ضربات بسياطهم.

وجّه زينو السفينة الرومانية باتجاه القرطاجيين مستجيباً لصوته الداخلي. فرُحِّب ترحيباً حاراً بالعبيد المجذفين على السفينة التي تحمل رمز الدلفين والشمس.

اتجهت امرأة قرطاجية ذات شعر طويل ومتموج وترتدي فستاناً بنفسجياً نحو زينو وراحت تنظر إليه. أشار لها بأنّه جائع. فذهبت وجاءت بالخبز وقدمته له.

قرّب رغيف الخبز من فمه وشمّ رائحته كما لو أنّه يشمّ رائحة الزهور، ومن ثمّ وضعه في فمه بيدٍ مرتجفة. هذه اللقمة التي ذابت بين أسنانه، ونكهة الطحين، وملمس الخبز كلّ هذه الأشياء منحته إحساساً استثنائياً. مدّت يدها المرأة وناولته وعاء يحوي زيت زيتون، فغمر فيه زينو الخبز وأكله. شعر أيضاً أنّ طعم هاتين المادتين الممزوجتين أكثر روعة، وتضاعف إحساسه

بالمتعة أكثر. وفي تلك اللحظة ناولته المرأة وعاءً مليئاً بسائلٍ أحمر، لم يتجرأ على التخمين ماذا يمكن أن يكون. إنّه نبيذ. هذا هو العنصر الثالث الذي دخل فمه فضاعف إحساسه بالعنصرين الأولين.

لم يشعر في حياته بمثل هذه المحفزات اللذيذة في لسانه وحلقه. كلّ فتات من الخبز وكل نقطة من زيت الزيتون أو من النبيذ كانت متعة خالصة بحدّ ذاتها. كان كلّ ما في فمه يرسل له إحساساً عميقاً بالسعادة والمتعة.

ابتسمت له المرأة القرطاجية وداعبت شعره ووشوشته في أذنه:

- على رِسلك، فأنت حرّ الآن.

وبعدها طبعت على جبهته قبلة رقيقة. بعد كلّ ما عاشه، وبعد كلّ تلك المعاناة، وبعد كلّ تلك المخاوف يأتيه هذا الخبز وهذا الزيت وهذه الجملة بالذات في هذه اللحظة، وهذه القبلة الناعمة من هذه المرأة القرطاجية الساحرة، كلّ هذه الأشياء أثارت وخزاً لذيذاً في دماغه كما في كلّ خلية من جسمه.

سرت فيه أوّل رعشة سعادة، وتلتها رعشة ثانية. حتى أطرافه ارتعشت متشنجة، ولم يعد قادراً على السيطرة طويلاً على نفسه، فراح يبكي ويضحك في الوقت عينه.

لذا انسحب رينيه بهدوء. لأنّ تجسده السابق كان لا يزال متأثراً، ومشرقاً من لحظة السعادة والنشوة هذه التي شعر بها. راقب رينيه هذا المشهد من الخارج.

دوّى صوت امرأة قريب جداً في هذه اللحظة.

خمسة، أربعة...

-16-

... ثلاثة، اثنان، واحد، صفر.

فرقعت المنومة بأصابعها، وكان حينها يرن جرس صالة المسرح.

كان رينيه ما يزال مبتهجاً بالتجربة التي عاشها للتو.

ذهبت أوبال لتعرف من الطارق من خلال عين الباب، وعادت لتقول:

- أعتقد أنّها زميلتك.

- تباً، لا بدّ أنّها قلقة عليّ. من الأفضل عدم القيام بأيّ شيء، وسبوف تذهب بعدها.

بعد أن رنّ الجرس عدة مرات أخرى، ساد صمت طويل.

استدارت بعدها أوبال باتجاهه وسألته:

- ماذا تكون بالنسبة إليك؟ هل هي زميلة فقط؟

- بل صديقة.

- يبدو أنّها مهتمة بك كثيراً.

- نحن مقربان بعضنا من بعض كثيراً، وقد رأتني هذا الصباح كيف كنت منهاراً فأثار هذا قلقها. وهي من نصحتني بالمجيء لرؤيتك.

ألقت أوبال نظرة أخرى من عين الباب ومن ثمّ قالت:

- هذا جيد، لقد رحلت.

وضعت كرسيها بمواجهته.

- كيف كانت التجربة هذه المرة؟ يبدو أنّها كانت رائعة، أليس صحيحاً؟

- رأيت هيبوليت، ورأيت ليونتين وسمعتها، أمّا زينو - اسمه زينو - فقد رأيته وسمعته وتكلمت معه. في كلّ مرة أنجح في تطوير التفاعل مع تجسداتي السابقة.

- إذاً كانت تجربة جيدة.

- كانت غنية جداً.

- عليّ الاعتراف يا رينيه أنّ تقدمك مثير للاهتمام. يمكننا القول إنّك تتمتع بموهبة في هذا النوع من التجارب الروحية.

ذهبت وأحضرت له كأس ماء منعش، ومدت يدها وأعطته إياها. حملها وقرّبها إلى شفتيه، فتذكر فوراً المشهد المشابه مع المرأة القرطاجية عندما ناولته ليشرب.

- كانت هذه هي التجربة التي تريد عيشها؟ حياتك التي عرفت فيها أعظم سعادة؟

– لقد فهمت للتو أنّ السعادة نسبية. تكمن أحياناً بمجرد التوقف عن الشعور بالألم. كلّما كان الألم قاسياً كان انتهاؤه يُحدث سعادة عميقة. والمرء حين يعيش فترة طويلة من الضيق، ويمرّ بعدها بلحظة من السعادة البسيطة، يمكن لهذه اللحظة أن تشعره بنشوة عظيمة.
– هذا بفعل التباين الحادّ؟
– تماماً.
أخذ يشرب الماء برشفات صغيرة، كما لو أنّه شهد مُصفّى.
– أستطيع الآن فهم عدد من اختياراتي. فعندما كنت تلميذاً في الثانوية، كنت أرفض دوماً القيام برياضة التجذيف الجماعي. وفي المقابل، كان لديّ شغف للمراكب الشراعية، وقد فزت في سباق القوارب الشراعية الصغيرة، مثل القوارب ذات الهيكلين الخشبيين، أو القوارب ذات الهيكل الخشبي الواحد.
قدّمت له المنومة قطعة بسكويت.
– هذا ليس كلّ شيء، فأنا أعشق النبيذ الإيطالي، كما أنّني أذهب إلى صقلية بشكل منتظم لقضاء العطلة، وخصوصاً على الساحل الجنوبي. كما أنّني شغوف بالمعارك البونيفية، وأكره كل ما يمت بصلة إلى آلة الطبل من قريب أو من بعيد.
أمسك هاتفه المحمول، ونقر على شريط البحث: «معركة بحرية روما، قرطاجة، صقلية».
– هذا بالفعل ما فكرت به، لقد كانت معركة دريباناي في صقلية عام 249 ق.م أكبر نصر بحري للقرطاجيين، حيث هزم الأميرال عزربعل القنصل بوبليوس كلوديوس بولشر. كان هناك مائة وعشرون سفينة من كلا الجانبين. تباً، كم هذا رائع، لقد حضرت هذه المعركة، لقد كنت هناك!
– يبدو أنك استمتعت حقاً بهذه التجربة الأخيرة. إذاً هل تمّ الأمر، هل تجاوزت صدمة الأمس؟
كانت قد وقفت بالفعل ووضعت سترتها وهي تستعد للخروج من المسرح.

- هل تمزحين؟ لقد كنت عبداً مجذّفاً! بصرف النظر عن هذه المتعة الأخيرة التي أحسست بها في النهاية بسبب هذا الفارق البسيط، ولكنّ حياتي التي عشتها كانت وضيعة! لم تأخذيني حتى هذه اللحظة إلا إلى أماكن وعصور كانت فيها حياتي صعبة للغاية. إن أردنا تلخيص ما سبق، ففي المرة الأولى كنت في خضم الحرب العالمية الأولى حيث شُقّت جمجمتي بخنجر. والمرة الثانية متّ محاطاً بعائلة لم تكن تريد مني سوى أموالي. والمرة الثالثة تعرّضت للجلد على مقعد المجذفين! أية رحلة سياحية قمنا بها!

ظهر على أوبال علامات نفاد الصبر.

- لا أستطيع فعل أي شيء إن كانت حياة أسلافنا قاسية لهذه الدرجة. أعتقد أنّ عدداً قليلاً منهم فقط قد أمضوا حياة من السعادة المنتظمة. فأغلب الناس عاشوا حياة الواجب والعمل والمرض والجوع وانتهى الأمر بهم بموت مؤلم.

- أريد زيارة حياة أخرى من حيواتي السابقة.

أزاحت خصل شعرها التي انسابت فوق جبهتها بحركة تدلّ على نفاد صبرها.

- وأنا أقول لك إنّك تشبه الطفل المتقلب والمزاجي الذي اكتشف لتوّه لعبة جديدة وراح يتململ مغتاظاً بعد أن صُودرت منه.

- أنا رجل مجروح بسبب خطئك. رجل يبحث عن علاج لجروحه كي يستطيع النوم.

- هذه المرة انتهى الأمر، سأعود إلى منزلي.

أمسك معصميها كي يوقفها.

- ما الذي ستفعله؟ هل ستقتلني مثلما قتلت... الألماني؟

هل تعرف؟!

بعد أن استولت عليه لحظات من القلق، انتهى به الأمر ليقول:

كلا، لا بدّ أنها تلمّح لأحد الألمان الذين قتلهم هيبوليت.

- أريد أن تصحبيني إلى حياة سابقة «جميلة» من بدايتها إلى نهايتها.

استسلمت للجلوس مجدداً.

- مفهوم «الحياة الجميلة» هو مفهوم شخصي. إنّ ما حدث هو خطؤك أنت أيضاً، لأنك لم تكن واضحاً في مطالبك السابقة.

- جيد جداً، وأنا أعترف بأنّني حتى الآن حصلت على ما طلبته، لأنّني في الواقع لم أكن دقيقاً بما يكفي في طلباتي لذا جاءت النتائج مخيبة.

- حسناً ما الذي تريده الآن يا رينيه؟

- أريد العودة إلى الحياة السابقة التي عشت فيها...

ماذا أطلب؟ ما الذي كان ينقصني بالتحديد في الحيوات الثلاث السابقة التي زرتها؟ ما هي التجربة القوية التي أفتقدها حالياً؟

- ... التي عشت فيها أروع قصة حب لي.

توقعت أوبال أنّه لم ينتهِ بعد من صياغة طلبه، وبالفعل أضاف:

- وأريد العودة إلى ما قبل أن يتمّ اللقاء تماماً، كي أعيش الشعور بعمق.

بما أنّ المنوّمة بقيت صامتة، ختم رينيه قائلاً:

- وأريد عيش هذه القصة وأنا في كامل قوتي وريعان شبابي، هادئاً وبصحة جيدة في مكان لا حرب فيه، وأفضل أن يكون الطقس معتدلاً.

نظرت أوبال إلى ساعتها، فأصرّ رينيه:

- لقد ألغيتِ موعد العشاء بكلّ الأحوال، لذا سيكون لديك متسع من الوقت.

تجاهلت ما قاله.

- ستكون هذه هي المرة الأخيرة، هل اتفقنا؟ إذا وجدت نفسك في حالة لم تعجبك، فهذه لن تكون مشكلتي.

- أعتقد أنّني حددت رغبتي جيداً.

- في هذه الحالة هيّا استرخِ وأغلق عينيك.

كُرّرت طقوس التنويم المغناطيسي ذاتها حتى الوصول إلى الباب المدرّع

للاوعي. في البداية، لم يلحظ رينيه أيّ باب مُضاء، قبل أن يدرك أنّ مصباح الباب رقم 1 يومض بالأحمر. بدا شعاع الشمس ينفذ من تحت عتبة الباب.

قال في نفسه، بما أنّ الرقم 1 يشير بالضرورة إلى عصر سابق لعصر زينو الذي عاش حوالي 200 ق.م، فإنّه يخاطر الآن بأن يجد نفسه متجسداً في رجل ما قبل التاريخ أو أسوأ من هذا، أن يجد نفسه في جسد أشباه البشر. أسِف مرة أخرى لأنّه لم يقم بصياغة رغبته بأسلوب شمولي أكثر.

بالطبع، أرغب أن أكون بصحة جيدة وأنا في كامل قوتي وريعان شبابي، وأن أشعر بسلام داخلي وأعيش في بلد مشمس لا حرب فيه، ولكن ماذا لو كنت نوعاً من أنواع القرود... وفيما يخصّ قصة الحب، مع من أخاطر بأن أكون؟ مع امرأة تعيش في الكهوف، أو امرأة شبيهة بالبشر، أو... قردة؟

طالما لم أفتح هذا الباب، فلن يكون بإمكاني معرفة ذلك.

أدار بتوجّس، قبضة الباب رقم 1 ووجد نفسه...

-17-

... على شاطئ رملي أبيض وناعم، محاط بأشجار جوز الهند، حيث بدا المحيط الفيروزي هادئاً، وسطح الأمواج شفافاً، وفي البعيد ترتفع الدلافين المرحة فوق المياه وهي تصدر صفيراً عالياً.

كانت الشمس تشرق بأشعتها الوردية، والطقس حاراً، والهواء مفعماً بعبير زهور فريدة.

نظر رينيه إلى يديه فرأى أنّ أصابعه تعود لرجل ثلاثيني. ولكن ما أثار اضطرابه أنّ لهذا الجسد نفس ساعة يده هو - رينيه توليدانو-.

نظر إلى ملابسه فإذا بها تشبه تماماً ما يرتديه. تلمس وجهه فشعر أنّ لهذا الجسد النظارات ذاتها لرجل يعيش في القرن الواحد والعشرين.

كيف يعقل هذا؟

قال لنفسه، لقد أخفقت التجربة هذه المرة. لقد ذهب إلى مكان حيث وجد روحه تسكن في جسده الحالي نفسه.

راح يمشي على الشاطئ بحذائه المدنيّ، فلاحظ في البعيد وجود خيالٍ لأحد ما. كان رجلاً يرتدي تنورة بيج ويجلس بوضعية اللوتس على صخرة مسطحة مقابل البحر.

كانت عيناه مغلقتين ولكنه فتحهما فجأة.

تبادلا النظرات.

– صباح الخير. قال الرجل المجهول.

استدار رينيه فأيقن أنّ الرجل لا يخاطب أحداً سواه.

– نعم، أنا أتحدث معك أنت.

– ولكن، أنت... أوه، حسناً... أنت تستطيع رؤيتي حقاً؟

– وأستطيع سماعك والتكلم معك أيضاً. ويفهم بعضنا بعضا لأننا نستخدم لغة الروح التي هي لغة كونية. فروحي تخاطب روحك عبر الزمان والمكان.

– وأنا «في» أيّ جسد؟

– في المظهر الذي يناسبك أكثر. أنا من رغبت في ذلك، أن أراك من الخارج كما تعيش تماماً في عصرك، وليس من الداخل. والشيء ذاته بالنسبة لي.

– هل هذا ممكن؟

– بالطبع، يكفي أن تريد ذلك.

– كنت أعتقد أنّني سوف...

– سوف تدخل إلى روحي بشكل مباشر، أليس كذلك؟

– هكذا تجري الأمور في العادة.

– في الواقع، أنا من أردت هذا، وذلك بغية أن نستطيع النقاش فيما بيننا بشكل طبيعي، وأن نكون شخصين مختلفين.

مدّ له الرجل يده.

– أُدعى جيب، وأنت؟

– أنا... اسمي رينيه.

يبدو جيب على وجه الخصوص مبتسماً ومسترخياً. كلّ شيء فيه ينبض بالصحة والسكينة. صدره عارٍ وجسده برونزي، ولديه عضلات وعيون زرقاء فاتحة، كما أنّ حواف تنورته البيج مزخرفة بأشكال زرقاء ناعمة جداً. نظر جيب إلى رينيه وأشار له بحركة ودّية، واقترب نحوه.

– أنا سعيد بلقائك يا رينيه. هل تعرف من أكون؟

– أعتقد أنني أعرف.

– أنا تجسيد لماضيك، وأنت تجسيد لمستقبلي. أنا مَن كنتَ عليه، وأنتَ مَن سأكونه في المستقبل.

– آه، أنت أيضاً على علم بهذا؟

– نعم، هذا بفضل «التأمل الاستشرافي»، الذي مكّنني من السفر إلى حيواتي المستقبلية. وفي هذا الخصوص، لم تكن رغبتي أن أدخل إلى عقلك ورؤية العصر الذي تعيش فيه، وإنّما دعوتك إلى عصري كي نستطيع النقاش هنا. وأنت، ما هي التقنية التي تستخدمها للمجيء لرؤيتي؟

– تقنية التنويم المغناطيسي التراجعي. إنّها تقنية للعودة إلى الحيوات السابقة. أتصور في ذهني ممراً فيه أبواباً مرقّمة، وكلّ باب يتوافق مع حياة سابقة.

– ما رقم الباب الذي أنت خلفه؟

– رقمه مائة واثنا عشر.

– وأنا؟

– تعيش خلف الباب رقم 1.

قال الرجل مؤكداً كلامه.

– سيكون بيننا إذاً مائة وأحد عشر تجسيداً؟

– أنا الآخر وأنت الأول، هذا على الأقل في الممر الذي أعرفه. نحن محظوظان كثيراً بلقائنا معاً.

– اعلم أيضاً أنّه بإمكانك التحكم بالكثير من الأشياء في عقلك. يكفي أن تصوغ طلبك بوضوح.

ليس الأمر بهذه البساطة طالما أننا لا نعرف نتائج خياراتنا.

بدا الرجل الواقف أمامه بالتنورة البيج سعيداً بهذه المحادثة.

- الكثير من الناس لا يفعلون شيئاً لأنهم لا يملكون أية فكرة عن قدراتهم. هذه هي المشكلة. فنحن نقول في عصرنا «ما تريده تستطيع فعله». نعتقد أنّ كلّ ما نرغب به يحدث بالفعل في الواقع. المشكلة الوحيدة، أنّه أحياناً حينما تتحقق رغبتنا، ندرك أنّها لم تكن هي ما أردناه حقاً. أو بالأحرى نتفاجأ جداً بالسهولة التي استطعنا فيها الحصول عليها لذلك نظلّ نرغب بالمزيد.

- أرغب حقاً أن يكون كلّ شيء بهذه السهولة.

- ولكنه بهذه السهولة حقاً. إنّ القيود الوحيدة التي تكبلنا هي تلك التي نفرضها نحن على أنفسنا. قال الرجل بنبرة واثقة وقد اقترح عليه، أثناء حديثه، الجلوس مقابله.

أخذا يحدقان بملابسهما ومظهرهما. يبدو جيب مفتوناً بحذاء رينيه ونظاراته وساعته ولكنّه لم يطرح أيّ سؤال بخصوص هذه الأشياء.

لا بدّ أنّني بالنسبة إليه رجل قادم من المستقبل أي أنّني تجسيد للخيال العلميّ. وأنا أيضاً، لو أنّني أستطيع رؤية واحدة من تجسداتي المستقبلية سأكون على الأرجح متفاجئاً مثله.

- يجب أن تكون يا رينيه قد تمنيت أمنية محددة كي تأتي إلى هنا. ما الذي طلبته بالضبط؟

- طلبت الوصول إلى الحياة التي عرفت فيها أروع قصة حبّ.

انفجر الآخر ضاحكاً.

- إذاً الحياة التي عشت فيها أروع قصة حب من بين جميع «حيواتنا» هي... حياتي؟

- هذا على ما يبدو، اعترف رينيه. وأنت، وفقاً لأيّ شروط رغبت بلقائي؟

- أردت أن أعرف الحياة التي كان لي فيها التأثير الأكبر على التاريخ الإنساني.

ساد الصمت من جديد.

– وهذه الحياة... هي حياتي؟

– لا أرى أحداً غيرك هنا يا رينيه.

استدار لا شعورياً، ولكنه لم يلحظ وجوداً لأيّ إنسان آخر.

– حسناً، يجب عليّ أن أعترف لك يا سيد جيب...

– نادني بجيب.

– حسناً يا جيب، إنّ مهنتي التي أزاولها لا تسمح لي بالتأثير على أكثر من أربعة صفوف يضمّ كلّ صفّ منها ثلاثين تلميذاً في كل سنة. أنا أستاذ تاريخ، أعلّم التلاميذ معرفة الماضي. ويبقى هذا عملاً محدوداً بالنسبة للعصر الذي أعيش فيه. وأنت، ماذا تعمل؟

– أنا فلكيّ، إنّ هذا ممتع، فنحن نكمّل بعضنا بعضاً. أنت تعرف ماذا يجري في الزمن، وأنا أعرف ماذا يجري في المكان. إنّ هذا يعجبني، آه أو بالأحرى أقصد أنّه يعجبني أن أصبح في يوم ما... أنت.

– وأنا يعجبني أيضاً أنني كنت في يوم ما... أنت. أجاب رينيه على نسق ما قاله جيب حرفياً.

– لماذا؟

– تبدو أنّك مرتاح للغاية! لم أرَ في حياتي أحداً بهذا الاطمئنان. كما أنّ المكان الذي تعيش فيه يبدو جذاباً والطقس جميل، ولا تبدو مهنتك متعبة وتبدو شغوفاً. ولكن أين وفي أيّ زمن تعيش أنت بالضبط؟

فجأة، بدأت الأرض تهتز. كلّ شيء صار يتحرك، فسقطت بعض الأشجار، وحدثت بعدها هزة أرضية أقصر ومن ثم توقفت. سُمع صوت بوق يأتي من البعيد.

– كنت أودّ البقاء والحديث معك مطولاً يا رينيه. فلدينا بالطبع الكثير من الأشياء لنقولها، ولكن الآن كما شعرت، لقد حصلت هزة أرضية على جزيرتنا.

– هزة أرضية!

– يحدث هذا من فترة لأخرى. ولولا ذلك كنا سنشعر بالملل. ولكن إن

فكرنا في الأمر جيداً فليس هناك أيّ شيء يدعو للقلق. طالما أنّنا على قيد الحياة، فكل شيء على ما يرام.

قال كلّ ذلك برباطة جأش، كما لو أنّ الذي حدث هو مجرد مطر بسيط.

– من جهة أخرى، ومع أنّ الأمر ليس خطيراً، ولكن يتوجّب علينا جميعنا حينما يُقرع ناقوس الخطر، الإسراع في إصلاح المنازل المتضررة. لذا أقترح أن نلتقي غداً في المكان والتوقيت نفسهما بالضبط. أوه، حسناً، دعنا نقل في نفس التوقيت الذي يتوافق مع زمان كلّ منا.

كان الرجل ذو العينين الزرقاوين الفاتحتين والتنورة البيج قد أدار ظهره وذهب عبر أحد الدروب التي تودي إلى داخل الأراضي.

بقي رينيه وحيداً على الشاطئ. استدار فرأى باباً على الرمال. عبره في الاتجاه المعاكس، فوصل إلى الممر ذي الأبواب المرقمة على ألواح نحاسية. اتجه إلى الباب رقم مائة واثني عشر الذي سمح له بالدخول إلى معبر اللاوعي.

ها هو ذا السلّم.

بدأ يصعد الدرجات.

سمع صوتاً أنثوياً يأتي من الخارج، بدأ هذا الصوت يعدّ عكسياً:

– 10، 9، 8،...

–18–

– ... 2، 1، 0.

لم يفتح عينيه

– صفر، كرّرت المنومة.

استسلم أخيراً بفتح جفنيه ببطء. نظر مباشرة إلى الساعة فكانت 23:23.

– إذاً، كيف كانت هذه المرة؟

إنّ الممر قويّ جداً، الممرّ يُصلح الكثير، الممر يضع كلّ شيء في نصابه. للممرّ أثر استثنائي.

إنّه يضع كلّ شيء في منظور أكثر شمولية، حتى جملة «أنا قاتل» تفقد خطورتها. نعم، أنا قاتل ولكنني لست هذا فقط.

أنا أيضاً جنديّ في الحرب العالمية الأولى، وأنا أيضاً كونتيسة عجوز محبطة، وأنا أيضاً عبد مجذّف صقليّ مفعم بالآمال.

أنا أيضاً المائة والإحدى عشرة حياة أخرى.

بدأت أفهم. الجملة الوحيدة التي تشغل ذهني الآن هي: أنا لست فقط أنا، بل أنا أكثر بكثير من هذا.

بدت المنومة قلقة.

- هل أنت بخير يا رينيه؟

استيقظ رينيه وحاول تذكر كل تفصيل من تفاصيل غوصه الأخير.

- كان هناك مزيد من التقدم. مع هيبوليت كان بإمكاني مشاهدة ما يراه، ومع ليونتين كان بإمكاني الرؤية بعينيها وسماع أفكارها، ومع زينو كان بإمكاني مشاهدة وسماع أفكاره والحوار معه من الخارج. أمّا مع جيب، فلم أتمكن فقط من مشاهدته وحواره، وإنّما أيضاً كنت مرئياً له، وبالتالي تحدثنا وجهاً لوجه كشخصين منفصلين.

رفعت شعرها الطويل المجعد.

- هل سمعتِ حوارنا؟ سألها رينيه.

- مثل كلّ مرة، لقد وصفتَ ما رأيتَ وما قلتَ لهُ وما أجابك به. كان ما سمعتُه مثيراً للدهشة، خصوصاً إن كان قد جرى هذا، كما سبق وقلتَ، قبل 300 ق.م.

- الأمر الذي من الممكن أنّك لم تلاحظيه هو مستوى الاسترخاء الذي يعيشه جيب. فلم أرَ في حياتي أحداً يعيش بهذا القدر من الارتياح، لقد كان مطمئناً كلياً. يجمع في شخصيته حالة من الرهافة والصلابة المذهلتين. أستطيع على الأخص قياس مدى هذا الاطمئنان كونني أقارنه بالضغط الذي عاشه الجندي هيبوليت، والاشمئزاز الذي عاشته الكونتيسة فيلامبروز، والألم الذي عاشه زينو. لقد كان جيب يعيش سكينة كلية، دون خوف ودون أيّ قلق. لم أكن أعرف أصلاً أنّه بإمكان المرء أن يصل إلى

هذه الدرجة من الاسترخاء. لقد طلبت الوصول إلى حياة هادئة، ولكن هذا يتجاوز خيالي. كيف يمكنني أن أصف لك مدى الهناء الذي يعيشه؟ كما لو أنّ جيب لم يعرف في حياته أيّ نوع من الإزعاج منذ أن ولد...

- إنّ ما أنجزته أمر رائع.

- تقارنين هذا ببقية المتطوعين؟

- قلت لك ذلك مسبقاً، إنّك كنت الأول حقاً. لقد رأيتَ بنفسك اليوم كيف أخفقت تلك المتطوعة كارولين. على الرغم من أنّها كانت متحمسة، وباعتقادي إمّا أنّها كانت متشككة للغاية، أو أنّها ليست موهوبة مثلك.

ترددت قليلاً قبل أن تفصح له:

- سأعترف لك بشيء. قبل تجربتك، لم يكن لديّ سوى معرفة نظرية بهذا البروتوكول، لقد درسته نظرياً ولكنني لم أكن قد اختبرته بعد. وما قمت به أنت هو جديد تماماً. ظننت أنّني سأنجح في هذا الأمر بمجرد قيامي به، ولكن اكتشفت معك أنّ هذا النوع من التجارب قد يسير على نحو سيئ، وقد لا يعمل على الإطلاق مثل حال المتطوعة كارولين اليوم. أليس صحيحاً؟

- إنّكِ ترسلين الناس لزيارة ذاكرتهم الدفينة، ولكنّك في الواقع لا تستطيعين معرفة ماذا سيجدون فيها. دعيني أستخدم هذه الصورة؛ أنت تشبهين أستاذ الغوص البحري الذي يرسل مبتدئين لأول مرة للغوص تحت الماء.

- لذلك وافقت على «إصلاح» ما جرى معك. لم أكن أعي أنّه باستكشاف الطبقات الأكثر عمقاً من ذاكرتنا، قد نلتقي أيضاً بوحوش شيطانية. لذا، سوف أغيّر منذ الآن اسم عرضي. سأكتفي بكلمة «التنويم المغناطيسي»، دون تعبير «التراجعي إلى حيواتكم السابقة». إنّ هذه تعتبر مجازفة، وبحكم تجربتك، قد تقود هذه التجربة إلى الألم والصدمات. لن أستطيع أن أؤمن خدمة ما بعد البيع لكلّ شخص قد يصدف أن يعيش تجارب فظيعة في حيواته السابقة.

- إذاً ماذا سيكون الاسم الجديد لعرضك؟
- «التنويم المغناطيسي وفن الخداع البصريّ». وسأضيف عرضاً سحرياً رائعاً سبق أن علمني إياه والدي، اسمه «رغماً عني». إنّ هذا سيحلّ بشكل رائع مكان التنويم المغناطيسي التراجعي. وخصوصاً أنّني أتقن هذا العرض بشكل جيد.

أيّدها رينيه، لذا تابعت المنومة.

- ومع ذلك، يجب أن أشكرك يا رينيه، فقد جعلتني أفهم أنّ استكشاف الحيوات السابقة أمر حساس لا بل خطر. بكلّ بساطة لأنّ أغلب حيوات أسلافنا السابقة كانت غير سارة. أمّا من جهتك أنت، ففي النهاية كنت محظوظاً بالوصول إلى أحد تجسداتك التي بدوت مرتاحاً فيها بالفعل.

أشار بالموافقة على ما قالته.

- هل أنتَ راضٍ؟
- الآن، نعم.
- أنا متأكدة من أنك ستنام اليوم دون صعوبة. والآن، بما أنّك فهمت كيف يجري الغوص في الذاكرة السابقة، تستطيع أن تهبط وحدك كي تتابع التواصل مع جيب.

ارتدت المنومة سترتها وأطفأت جهاز الإسقاط. ولم يمنعها رينيه هذه المرة. وفي المقابل، أعطته المنومة بطاقتها الشخصية.

فقرأ رينيه.

أوبال إيتشيجويان
عالمة نفس/ منومة مغناطيسية
06 xx xx xx xx
7, شارع دي أورفيفرس
75001 باريس

بقيت واقفة قبالته.

- أرغب أن تتصل بي لاحقاً يا سيد توليدانو.
- كي أخبرك إن كنت قد استطعت النوم؟

- كي تقول لي أين ومتى عاش هذا المدعو جيب، إنّه مجرد فضول لديّ، وسيكون من دواعي سروري معرفة ذلك بدقة. هل هذا ممكن؟

-19-

راح يمشي على ضفاف نهر السين.

في هذا المكان قتلته.

أخذ نفساً عميقاً.

هذا السكينهيد الذي جعلت مروره في هذه الحياة سريعاً، مَن كان قبل هذه الحياة؟ وماذا سيصبح في الحياة القادمة؟

راقب النهر الذي يطفو على سطحه جرذ ميت، ويحمله التيار جاعلاً إيّاه يتموج يميناً وشمالاً.

يجب أن أتوقف عن الشعور بالأسف عمّا جرى معي. فالآن أصبحت أعرف أنّه لا يوجد فقط حقيبة واحدة للذاكرة، بل لدينا حقائب متعددة. وقد كان اكتشافي لذكرياتي السابقة هو من حوّلني اليوم إلى رجل قادر على القتل.

رجع إلى منزله، وذهب إلى فراشه على أمل أنّه سيستطيع النوم هذا اليوم.

عاد للتفكير بجيب؛ الرجل الذي كان عليه سابقاً، وهو بهذه الهدأة ورباطة الجأش واللامبالاة. إنّ مجرد رؤيته، والحديث معه، وتبادل وجهات النظر معه عن العالم، فتحت عينيه على منظور جديد للحياة. بفضل هذا اللقاء البسيط، شعر بأنّه... لا شيء يدعو إلى القلق.

طالما أنّنا ما نزال على قيد الحياة، فإنّ جميع المضايقات التي نشعر بها ليست سوى تموجات في مجرى حياتنا. ومن دونها كنا سنشعر بالملل.

مع أنّ هذا اللقاء كان سريعاً فإنه غيّر رينيه كثيراً. فقد أحدث فيه أثراً مناقضاً تماماً ومعاكساً لذلك الأثر الذي تركه فتح الباب رقم مائة وتسعة حيث التقى بهيبوليت بيليسيه. باختصار، فإنّ معرفة الحيوات السابقة تثير أحياناً حالة شريرة وأحياناً أخرى حالة خيّرة.

قضيت القليل من الوقت مع جيب، ومع ذلك حصلت على هذا القدر

الكبير من المشاعر الجميلة! ولكن مع هيبوليت كان لديّ انطباع بوجود ثقل كبير على كاهلي، أمّا جيب فقد شعرت معه بالخفة.

رفع رينيه توليدانو الغطاء حتى ذقنه ونام متذكراً مشهد الشاطئ الرملي الأبيض والناعم والمحاط بأشجار جوز الهند، والمحيط الأزرق المليء بالدلافين المرحة، والهواء الذي يعبق بأريج الزهور الفريدة.

20. مذكرات، انسلاخات ضرورية.

كلّ شيء يتغير باستمرار. أجسادنا كما أفكارنا.

عند اليونانيين القدامى، كان الثعبان هو رمز نهر ليثي، نهر النسيان، لأنّ الثعبان ينسلخ جلده بشكل مرئي ومذهل. وعندما يفقد جلده القديم يظهر له جلد جديد.

أثناء عملية الانسلاخ، يكون الثعبان أعمى، وما إن ينتهي الانسلاخ يتوجّب على الثعبان التخلص من الجلد القديم الذي يعيقه.

وبنفس الطريقة، خلال نومنا، نقوم بعملية الفرز. فتنقسم ذكريات اليوم السابق إلى قسمين: تلك الذكريات التي يتوجب نسيانها، وتلك التي يجب تذكرها. ومن المفارقات أنّ ظاهرة النسيان، أيّ التخلي عن الجلد القديم، ضرورية ليعمل الدماغ بشكل جيد. فإن كنا سنتذكر كلّ ما يجري معنا في اليوم، فإنّ هذا سيعيق سريعاً عمل الدماغ لكونه ممتلئاً. سيصيبه الإنهاك إن كان عليه التحكم بكلّ هذا الكم الهائل من المعلومات، وهذا لن يسعفنا في التفكير أو تكوين ذكريات جديدة.

فيما يخصّ الأحلام، فإنّ عملها هو استعادة بعض الذكريات التي تمّ محوها عن طريق الخطأ والتي يعتبرها اللاوعي ضرورية ويجب الاحتفاظ بها رغم كلّ شيء.

-21-

أخذ يفتح جفنيه ببطء، كما تُفتح الستائر على المسرح. كانت ساعته تشير إلى السابعة والنصف صباحاً. لقد عاد له النوم إذاً، نعم، لقد استطاع النوم. أخذ يتمطّى.

شعر بأنّه في حال أفضل، ذهب إلى الحمام وشرب الماء ملء يديه. نظر إلى نفسه في المرآة وعاد إلى التفكير بأمه.

لطالما أشعرتني أمي بالذنب.

«لم يكن يتوجّب عليك».. «لقد أخطأت»، «كنت متأكدة أنك لن تنجح».

وصولاً إلى جملتها الشهيرة: «الذنب المُعترف به عقابه مخفّف».

تذكر أنّ أمّه، بطريقة مبطنة، عوّدته على الشعور بالذنب من كلّ شيء. إلى درجة أنّه لطالما تساءل فيما إذا لم يكن بطريقة غير مباشرة، هو المسبب لكلّ المساوئ التي تحدث على الأرض.

كانت تجيبه أمّه:

«إنّ قطرة خلّ واحدة كفيلة بأن تفسد الحليب. وهذا ما يعرف بتأثير الفراشة[1]؛ فخطأ صغير يتسبب بسيل من الكوارث التي لا يمكن إصلاحها. وهذا الخطأ الصغير، قد تكون أنت من فعله عن طريق الصدفة».

لم تكن أمّي تكنّ لي أدنى احترام، ولكن عليّ أنا أن أحترم نفسي. يجب أن أكون أكثر تسامحاً مع نفسي.

لقد تلقيت ما يكفيني من التعنيف والدروس الأخلاقية، وقد حان الوقت لمواساة الطفل المجروح في داخلي.

في البداية عليّ الاعتناء بنفسي، وبعدها يمكن أن أؤنبها إن اقتضى الأمر.

لقد أظهر لي جيب طريقة مختلفة في العيش، يجب أن أتوقف عن جلد الذات، والإحساس بالندم، وإيذاء نفسي، وعلى الأخص التوقف عن حمل شبح أمي المستهجن على كتفي.

حسناً، لقد قتلت هذا السكينهيد، وحدث ما حدث، لا جدوى من التفكير فقط بهذا الأمر، لن نستطيع إعادة الزمن إلى الوراء.

ارتدى ملابسه، وشغل حاسوبه ليبحث على محرك البحث عن: «جثة

1- أو نظرية الفوضى، هو مصطلح في النظريات الفيزيائية والفلسفية. يشير إلى أنّ أدنى الفروقات في نظام متحرك قد يتسبب بفروقات كبيرة في سلوكيات هذا النظام على المدى البعيد. المترجمة

متثملة من نهر السين». لا شيء، وبحث مجدداً عن «غرق سكينهيد». ليس هناك أية إشارة على موته.

شعر بالارتياح.

من الممكن أن تكون الجثة قد غاصت في القاع، وابتلعتها الأسماك، أو سحقها محرك سفينة ما. قد أستطيع الإفلات ممّا جرى دون أية مساءلة.

بينما كان يتناول طعام الفطور، شعر بأنّه عاد إلى روتينه اليومي الذي كان عليه قبل لقائه بأوبال. ولاحظ أنّه نسي حلق ذقنه، فعاد إلى الحمام.

يجب أن أغير مظهري.

شاهد وهو ينظر إلى نفسه في المرآة ملامح وجوه كلّ من هيبوليت بيليسيه وليونتين دي فيلامبروز وزينو وجيب.

أنا كلّ هؤلاء، وأنا أيضاً مكوّن من مائة وأحد عشر شخصاً، وكلّ واحد من هؤلاء لا بدّ أنه قال في نفسه إنّه لا يرغب بمواجهة الصعوبات والمتاعب ذاتها في حياته القادمة.

توجه بسيارته إلى الثانوية، وفي خضم زحمة السير راح يفكر:

إنّ الروح إذاً تشبه السائق الذي يغير كل فترة سيارته. الروح تغير الجسد الذي تسكنه، حياة بعد حياة.

بعد الحياة الشاقة التي عشتها كعبد مجذف، على الأرجح أنّ روحي تمنت عيش حياة أكثر راحة. وبعد حياة ليونتين المفتقرة للحبّ الأسريّ الصادق، أرادت روحي على الأرجح عيش حياة دون عائلة. وبعد حياة الجندي الخاضع لأوامر الحرب العالمية الأولى، تمنت روحي أن تكون في حياتها المقبلة متحكمة بزمام مصيرها.

شغّل رينيه المذياع بشكل عفوي. فإذ المذيع يعلن: «اقتحم رجل بشاحنته حشداً من الناس داخل سوبر ماركت، يُقال إنّ هناك ثلاثة قتلى على الأقل وحوالي عشرين جريحاً، على الرغم من أنّ الرجل صاح بصرخة دينية أثناء عملية الاقتحام، ولكن تمّ استبعاد أن يكون هذا العمل إرهابياً. وقد عزت الشرطة هذه الحالة المنفردة لرجل يعاني من اضطرابات نفسانية.

«حجب المجلس الدستوري قانوناً يجيز للأفراد مجهولي الهوية التعرف

على هوية آبائهم الحقيقية. ويبدو في الواقع أنّ هذا الأمر سيكشف أنّه أكثر من 30% من الآباء ليسوا آباء بيولوجيين لأبنائهم، ويخشى أعضاء المجلس الدستوري أنّ مثل هذا النوع من الكشف سيخلق مشاكل أكثر ممّا سيحلها.

«وفاة آخر الناجين من معسكرات الاعتقال النازية الذي كان يعيش في لندن. يأتي هذا الحدث في وقت دقيق، حيث تسري إشاعات بأنّ إنكلترا يمكن أن تقرّر التوقف عن الإشارة إلى وجود معسكرات اعتقال في برامج تدريس مادة التاريخ كي لا تصطدم مع قناعات بعض أهالي التلاميذ. وللذكر أنّ نظريات تنقيح التاريخ تلقى رواجاً كبيراً الآن في عدة دول، خصوصاً في المغرب العربي ودول الشرق الأوسط، حيث تدرّس النظريات المحرّفة رسمياً في المدارس. ومن جهته أشار وزير التربية الفرنسي إلى أنّهم مستمرون بتدريس حادثة محرقة اليهود على الرغم من الضغط المتزايد لبعض أهالي التلاميذ.

«متابعة لقضية فيونا حيث إنّ أمّها كما نتذكر، كانت قد طلبت في شهر أيار/ مايو أن تخضع لجلسة تنويم مغناطيسي لمحاولة تذكر المكان الذي دفنت فيه جثة ابنتها (التي قتلتها بتواطؤ مع شريكها بركان مخلوف)، لذا قررت فرنسا، بعد بلجيكا، الاعتراف بقيمة الشهادات التي تُعطى تحت التنويم المغناطيسي في التحقيقات الجنائية.

«أحوال الطقس: يستمر الطقس مشمساً مع خطر ارتفاع شديد بدرجات الحرارة».

ما إن ركن سيارته في موقف الثانوية، حتى توجه رينيه توليدانو إلى باحة المدرسة، بعد أن حيّا في الممرّ تمثال معبود الشبان.

أومأ إليه مدير المدرسة بإشارة تشجيع من باب مكتبه.

توجّه إلى الحمامات قبل أن يواجه التلاميذ. أراد أن يريح ضميره بالتصفّح عبر هاتفه المحمول، إن كان هناك أيّ ذكر لمسألة غرق أحد ما في نهر السين.

وفجأة، تجمّدت الدماء في عروقه:

«انتشال جثة من نهر السين، وتمّ التعرّف إليها وهي تعود لمتشرّد يدعى

هيلموت كرانتز، يعيش بشكل أساسي على الضفة الغربية لنهر السين. يرجى من أيّ شاهد أو شخص يملك أيّة معلومات إبلاغ مركز الشرطة فوراً».

إنّها مسألة وقت، لقد وجدوه، وسوف يتعرّفون إليّ قريباً وسيقبضون عليّ.

فكّر مجدّداً بتسليم نفسه للشرطة، ولكنّه أيضاً غيّر رأيه وبشكل أسرع من المرة السابقة.

إنّ لقائي بجيب بدأ يحدث تأثيرات عليّ. لقد خفّ شعوري بالتوتر، وهذا بفضل شعاره: «لا شيء يدعو للقلق، طالما نحن على قيد الحياة، فكل شيء على ما يرام».

إنّ جيب يحدث نوعاً من الأثر المهدئ على رينيه.

ومن ثمّ سواء ألقت الشرطة القبض عليّ أم لا، فإنّ قلقي في جميع الأحوال لن يغير شيئاً.

سحب سيفون الماء، وشعر أنّه قادر الآن على مواجهة ما يمكن أن يحدث في بقية يومه مهما كان.

دخل إلى الساحة، وراح يراقب التلاميذ واحداً تلو الآخر.

وهؤلاء، من كانوا قبل هذه الحياة؟ من المحتمل أن يكونوا هم أيضاً قد خاضوا الحروب وقُتلوا بدم بارد. ومن الممكن أن يكونوا قد تجسدوا هم أيضاً بشخصيات وحشية.

تنفس بعمق وبدأ درسه كما حضّره. ظهر العنوان على شاشة العرض: «أكاذيب التاريخ الرسمي والحقائق الواجب كشفها». ومن ثمّ بدأ درسه:

– بما أنكم طلبتم أمثلة محددة، إليكم هذا المثال: قرطاج.

ظهر على الشاشة لوحة تمثل معركة بحرية، حيث تتواجه السفن القديمة فيَما بينها.

– الحروب البونيقية: هي الحروب التي جرت بين شعب مُحرّر وشعب مستعبِد. أرسل الجنرال القرطاجي هنيبعل برقة جيشه إلى إسبانيا في عام 218 ق.م. ومن ثمّ إلى بلاد الغال، محرّراً الشعوب في طريقه.

ودفعهم إلى إقامة أنظمة حكم ديمقراطية. اجتاز جبال الألب مع فيلته أثناء الحرب البونيقية الثانية، وباعتباره قائداً استراتيجياً ذكياً، فقد هزم الجيش الروماني في شمال إيطاليا، وبالتحديد أثناء معركة كاناي الشهيرة. ومن ثمّ حرّر في طريقه شعوب شمال إيطاليا من نير الرومانيين. وأثناء حصار روما، عفا عن أعدائه عوض أن يذبحهم، مقتنعاً أنّ العنف ليس هو الحل، وكان يأمل أن يفهم الرومانيون أنّ عليهم احترام الشعوب الأخرى عوضاً عن إخضاعهم.

رفع أحد التلاميذ يده.

– ولكن يا أستاذ، لماذا نتعلم أشياء أخرى مع الأساتذة الآخرين؟

– إنّ هذا بسبب ميشليه، مؤرخ القرن التاسع عشر الذي أخذ على عاتقه تقديم كلّ تلك الترهات السابقة على أنّها حقائق لا تقبل الجدل. لقد كتب عن مجد الرومانيين، صحيح أنّه شعب غازٍ ولكنّ مؤرخيه أحياء، في حين أنّ المؤرخين القرطاجيين قد تمّت تصفيتهم.

– وماذا عن أسلافنا الغال؟ سأل بخجل تلميذ آخر.

– لا نعرف التاريخ الحقيقي لأسلافنا الغال لأنّهم لم يؤرخوا، وإنّما كان لديهم كهنة وشعراء ملحميون فقط. فمثلاً، كان التواصل الشفهي هو السائد عند السلتيين[1]. ولتكوين رأي حول غزو بلاد الغال، فليس أمامنا سوى كتاب «*حرب الغال*» الذي كتبه يوليوس قيصر، ولكن هذا الكتاب أيضاً هو ثمرة انقلاب دعائي قام به كاتبه بغية محاربة منافسه القائد بومبي وتعزيز سلطته في روما. فألّف قيصر بروايته لهذا الغزو ملحمة تابعها مئات الآلاف من الرومانيين وهذا ما جعله بالتالي شعبياً. لقد فهم قيصر أنّ الناس يشعرون بالملل، ولا شيء يعيد الشغف إليهم أكثر من قصّ رواية يكون فيها الروماني محارباً يأتي لغزو أراض لقبائل يفترض أنّها بربرية. في حين أنّ هاجس نقل الواقع كان أمراً ثانوياً بالنسبة للرغبة في توفير عناصر التشويق في القصة. حتى إنّه من

1- الغاليون Galli هو الاسم الذي أطلقه الرومان عليهم، في حين أنّهم كانوا يسمون أنفسهم سلتيين. المترجمة

الممكن ألّا يكون للقائد جتريكس[1] وجوداً من أساسه، وإنّما قام قيصر بخلق قائد منافس له على مقاسه.

- هذا يشبه إلى حد ما قصة اليونانيين مع المينيتور؟ سأل طالب يجلس في الصف الأول.
- تماماً، اختلاق أعداء زائفين للسماح بإضفاء الشرعية على أسوأ الانتهاكات.

بدت ملامح القلق على أحد التلاميذ، فطلب منه رينيه التعبير عمّا يجول في خاطره.

- لماذا أصبح جول ميشليه المرجع الوحيد الرسمي للماضي يا أستاذ؟
- لأنه يروي القصص بشغف وحماس واتقاد، وبالتالي يستطيع إثارة العواطف. إنّه يعرف كيف يعرض الأحداث الدرامية والأحداث السعيدة، بينما اكتفى المؤرخون الآخرون من هذه الأحداث، بذكر الوقائع والأسماء والتواريخ. من المؤسف أنّه لم يوظف موهبته في خدمة الحقيقة وإنّما سخّرها لتقديم تفسيرات شخصية جداً عن الواقع.

حاول رينيه إيجاد الصيغة الصحيحة:

- عند الشعوب التي تمتلك الكتّاب والمؤرخين، سيكون أولئك الذين يروون القصص بأكثر الطرق تأثيراً هم من سيحصلون على مكانة خاصة في الذاكرة الجمعية.

تابع رينيه عرضه على الشاشة.

- وهكذا فإنّ بُناة ذاكرتنا القديمة هم: تيتوس ليفيوس، سويتونيوس، تاسيتس، شيشرون، من الجانب الروماني. وثوقيديدس، وهيرودوت من الجانب اليوناني.
- إذاً كل ما نعرفه عن الرومانيين زائف؟
- كلّا، ليس جميعه، ولكن يجب ألّا ننسى أنّ هذه مجرد رؤى جزئية ومتحزبة. تمنعنا من فهم تعقيدات الواقع، كما أنّها أكثر تساهلاً تجاه الحضارات الغازية. كما الحال في جزيرة كريت، كان القرطاجيون

1- هو قائد من شعب الغال، الوحيد الذي استطاع أن يوحد قبائل الغال عندما دخل الرومان بقيادة يوليوس قيصر إلى أراضيهم. المترجمة

شعباً تجارياً، ولديهم حضارة متطورة وبارعة، مع ملاحين مهرة. وفي العودة إلى الوراء، يبدو لنا أنّ البرابرة كانوا بالأحرى هم الرومانيين الذين أمضوا وقتهم في الحلبات لحضور معارك المصارعة، وتنفيذ أبشع عمليات التعذيب لإلهاء الشعب، وقتل القادة بعضهم بعضاً. تخيلوا أنّه من بين مائة وأربعة وستين إمبراطوراً رومانياً، قد توفي منهم فقط ثمانية وأربعون وفاةً طبيعية. هذا يعني أنّ مائة وستة عشر ماتوا قتلاً. لقد كانوا شعباً دموياً وعنيفاً. لذلك قاموا بتدمير الشعوب المسالمة مثل القرطاجيين أو الغاليين، ومن ثمّ قاموا بمسح كلّ آثار جرائمهم. لم يكفهم القتل، بل لوّثوا أيضاً الذاكرة الجماعية.

رفع تلميذ يجلس في منتصف الصف يده:

– إذاً تاريخنا ليس سوى جرائم مرّت دون معاقبة؟

هل من الممكن أنّه فهم شيئاً ما؟

– إنّني على قناعة بذلك، ولكن هناك شرطاً، بما أنّنا لم نعد نستطيع محاكمة المذنبين، علينا إذاً مسامحتهم. والعفو لا يعني أنّنا نسينا. ومن هنا يأتي دور المؤرخ، ليس من أجل إصدار الأحكام ولكن ليذكرنا بالحقيقة الموضوعية للأحداث.

– إذاً هل يتوجب علينا قول هذا في امتحان الشهادة الثانوية يا أستاذ؟

حدّق رينيه في عيني التلميذ بعمق، فشاهد فيهما وميضاً وتحدّياً.

سأل رينيه نفسه عمّن تراه كان هذا التلميذ في حياته السابقة.

إنسان مزعج.

كان التلميذ من ناحيته يحدّق بالأستاذ بهيئة ساخرة.

حتى من الممكن أن يكون هذا الشخص قد سبق أن سبّب لي الإزعاج في حيوات سابقة.

لم يكلف رينيه نفسه عناء الإجابة. مع أنّه شعر فجأة ببداية ظهور نوع من العداوة في الصف، عداوة للخطاب «المختلف» الذي يطرحه، والبعيد تماماً عن الروايات الرسمية التي اعتادوا عليها. ولكنّ هذا لا يهمه. إنّه يُظهر حالة من الهدوء المهيمن الذي يشعره بالسعادة.

تمّ الأمر، بدأت أتخلص من شعوري بالذنب، وأقبل خطورة أن يتم توقيفي من قبل الشرطة وإمضاء ما تبقى من حياتي في السجن؛ هذا شيء لا يدعو للقلق، طالما أني ما زلت على قيد الحياة. شكراً على حالة الهناء المُعدية يا جيب.

سوف أستمرّ في إيقاظ الأرواح طالما أقدر على ذلك.

نظر برهة عبر النافذة إلى الغيوم العابرة.

أنا على قيد الحياة وقادر على التحرّك. وكلّ ما تبقى أمور ثانوية.

-22-

كانت إيلودي تيسكيت تدخّن في الساحة بجانب تمثال جوني هاليداي حينما لمحت رينيه، فأطفأت سيجارتها ولحقت به إلى صالة الطعام.

- تبدو بحالة أفضل بكثير عن البارحة.

- تمكنت من النوم.

تصالحتُ مع المجرم في داخلي.

- يُسعدني أن أراك بهذا الحال، تابعت إيلودي داعية إياه للجلوس على طاولتهما المعتادة في صالة الطعام.

- لقد استمعت لنصيحتك وعدت لرؤية المنومة المغناطيسية. طلبت منها إصلاح ما خرّبته، وفقاً لتوصياتك، وقد قبلت ذلك.

- لقد قلقت عليكَ البارحة، وحاولت الاتصال بك، حتى إنّني ذهبت إلى هناك على أمل أن أجدك.

- لقد كنا هناك بالفعل ولكن لم نرغب أن يزعجنا أحد خصوصاً وأنا في خضم غوصي في ذاكرتي الدفينة.

روى لها عن حيواته السابقة التي توالت أمام عينيه.

- بعد كلّ هذا، شعرتُ بأنّ معرفتي بحقيقة ماضيّ وما كنت عليه قبل هذه الحياة لم يمكنني فقط من تفسير العديد من سلوكياتي الحالية (مثل واقع أنّني لا أحبّ تكوين عائلة، وخوفي من التجذيف، وحبّي للعزلة

والسفن الشراعية والنبيذ)، بل جعلني أيضاً أكتشف في ذاتي مواهب خفية.

– هل تمزح؟ لا تقل لي إنّك تصدّق فعلياً كلّ هذا الهراء؟

– يبدو لي التنويم المغناطيسي التراجعي طريقاً للوصول إلى اللاوعي، إنّه أسلوب في التأمل الذاتي أكثر سرعة وإدهاشاً من التحليل النفسي. أتخيّل أنّه لو أنّنا نستطيع استخدام هذه الأداة بطريقة «شائعة»، سنكون قادرين على سبر أغوار الأرواح العُصابية وفكّ هذه العقد المدفونة فيها. فهذا سيمكننا من معرفة دوافعهم الخفية وراء حالتهم العصابية. من الممكن أنّ الرجل الذي يعاني من فوبيا المياه مثلاً، كان قد مات غرقاً في حياته السابقة. ومن الممكن أنّ المرأة التي تعاني من الشره الزائد قد ماتت في حياتها السابقة بسبب المجاعة.

بدا التضايق على إيلودي.

– شرحت لك ذلك مسبقاً، هذا مجرد خداع عقلي. إنّها ذكريات زائفة تمّ زرعها في ذهنك دون أن تعي ذلك. إنّ هذا هو مبدأ «قبول العرض»: اقتُرح عليك تخيل ما كنت عليه في الحياة السابقة وأنت قبلت ذلك. قمت باختلاق قصص جميلة لأنّ ذهنك أحبّ هذه اللعبة. وهذا كلّ ما في الأمر. وبما أنّك تحب السحر، ينبغي عليك أن تفهم هذا الأمر بسهولة. إنّ هذا مجرد وهم اختلقه ذهنك.

بحثت عن فكرة لتدعم وجهة نظرها.

– حسناً، سأظهر لك كيف يمكنني التأثير على فكرة كنت تعتقد أنّك حرّ في التفكير بها. أغلق عينيك.

نفّذ رينيه ما طلبته.

– تخيّل ليمونة معلقة في السماء. تصوّر أنّ هناك يداً تمسك بسكين وتقطع الليمونة نصفين، ومن ثمّ تعصر أحد الجزأين إلى أن يخرج اللب منه. الآن، افتح عينيك.

فتح عينيه.

– ألا يوجد لعاب في فمك؟

- نعم! أجاب رينيه متفاجئاً.

- هذا هو، ليس الأمر أكثر تعقيداً من هذا. لقد أخضعتك لمحفّز خارجي. وذلك بنطق كلمة «ليمون» وجعلك تتخيل شكلها، أرسلت إشارة الليمون إلى ذهنك، وبالتالي الحموضة، فقامت الغدد اللعابية بفرز سائل لتخفيف حموضة العصير المُنتظر. أرأيت، لا سحر في هذا، فقط طريقة في التأثير على ذهنك عن طريق كلمات مُحفّزة. في الواقع أنت لم تقم إلّا بالاستجابة إلى مؤثرات اللاوعي.

- معك حقّ بخصوص تجربتك فيما يتعلق بالليمون، ولكن على الرغم من ذلك، فقد كان هناك الكثير من التفاصيل عن الحرب العالمية الأولى، والسفن الحربية الرومانية، لم تكن هي من زرعتها في ذهني! أوبال هذه لا تتقن عملها لهذه الدرجة.

- لقد جرى التلاعب بخيالك لتوجيهك في اتجاه محدد. بما أنّك لا تزال غير مقتنعٍ، وبما أنّني مُصرّة على كلامي، وكما يُقال «اطرق الحديد وهو ساخن» سأخضعك لتجربة ثانية. سترى، وبعدها ستقول لي: «اللعنة، كيف كنت ساذجاً إلى هذا الدرجة يا إيلودي؟».

كتبت المرأة الشابة شيئاً ما على ورقة وطوتها ودسّتها في يده التي أغلقها من جديد.

- فكر في أداة ولون.

- انتهيت.

- بماذا فكرت؟

- مطرقة وحمراء.

طلبت منه فتح يده وقراءة ما هو مكتوب في الورقة، فوجد أنّها قد كتبت مسبقاً كلمتي: «مطرقة»، «حمراء».

- كيف فعلتِ هذا؟

- لم أفعل شيئاً على الإطلاق. إنّه اختبار يجيب عليه بشكل طبيعي ثمانون بالمائة من الناس «بمطرقة حمراء»، وعدد قليل منهم يجيبون «مفك براغ أزرق»، أو «عمود مرفقي أبيض» أو «مفتاح البراغي

البرتقالي». ولكن حين وضعت في مقدمة حديثي هذا المثل الشعبي: «اطرق الحديد وهو ساخن»، قُمت بإرسال رسائل مبطنة قامت بالتأثير عليك، وبالتالي رجّحتُ بنسبة تسعين بالمائة من احتمال أن تختار الآلة الصحيحة واللون المناسب. أترى، أنا لا أقلّ قدرة على التخاطر الروحي من المنومة المغناطيسية لمسرح صندوق باندورا التي لا تملك أيّة مقدرة سحرية. وفي المقابل، يمكن أن تكون متأثراً حتى دون أن تعي ذلك، بل تظنّ بكلّ جدية أنّ هذه خياراتك الشخصية.

دُهش رينيه بكلامها، ولكنّه لم يقتنع. أصرت المرأة الشابة:

- يجب أن تتوقف عن الخوض في هذه الأمور، سوف تدمر عقلك.

ليس الأمر هكذا فحسب يا إيلودي، ليس الأمر هكذا فحسب. آه لو تعلمين!

- تذكري أنّه أنتِ من قال لي أن أعود لمقابلتها. لقد اتبعت نصيحتك.
- حسناً إنّني نادمة على ذلك. كنت أظنّ أنّ هذا سوف يفيدك، ولكنّه في الواقع قد زاد آلامك. والآن إليكَ نصيحتي الجديدة: اقطع كلّ أشكال التواصل مع هذه المنومة. ومن ثمّ لا تعبث كثيراً بذهنك، انظر إلى والدك. أنتَ نفسك قلت لي سابقاً إنّه تلاعب كثيراً بأفكاره فتسبّب ذلك في وقوعه بالاكتئاب، ومن ثمّ فقدان الذاكرة.

نهض أستاذ التاريخ وتوجه ليقف في الدور للحصول على طعام الغداء.

- هل أزعجتكَ؟ سألت إيلودي.
- كان أبي مصدوماً ومتألماً بسبب موت أمي.
- ولكنّك اعترفت لي بأنّه كان يدخّن الماريجوانا من الصباح حتى المساء.
- أراد أن ينسى وفاة أمي، وربما أراد حتى نسيان وجودها أصلاً كي يمحو ألمه. ولكن ما إن بدأ بتشغيل آلة تدمير الذكريات، لم يعد بإمكانه إيقافها. مثل الفيروس الذي يصيب الحاسوب.

تابعت إيلودي.

- يُدعى هذا بمتلازمة اضطراب ما بعد الصدمة. بدأ الاختصاصيون

النفسيون الأمريكيون بدراسة هذه الظاهرة لدى الناجين من معسكر الاعتقالات الذين، كي ينسوا أيضاً، قاموا بتشغيل آلات تدمير الذاكرة ولم يعد بإمكانهم العودة إلى الوراء. هذا ما حصل لوالدك، ولكن انتبه، قد تثير زيارتك إلى جحيم معركة شومان دي دام المشاكل نفسها لديك.

- إنّ هذا لا يقارن بذاك.

- بلى، ففكرة بسيطة قد تتحول بلحظة إلى فكرة خيالية بحتة، ويمكن أن تصبح أيضاً مدمرة للدماغ مثل حمض الهيدروكلوريك.

ما إن حصلا على طعامهما حتى عادا إلى طاولتهما وبدآ بتناول الغداء.

سألته إيلودي بعد بُرهة من الزمن:

- هل تؤمن بهذه الأشياء حقاً يا رينيه؟

- لم تعيشي ما عشته أنا يا إيلودي، لذا لا تستطيعين فهمي.

بحثت المرأة الشابة عن حجة دامغة.

- أنت من لا يريد أن يفهم يا رينيه! إنّ هذا علميّ: بالإمكان زرع فكرة في عقول الناس دون أن يعوا ذلك.

- عذراً، فأنتِ لم تقنعيني بقصة عصير الليمون أو المطرقة الحمراء. ولكن أرغب بالفعل معرفة من أين تعلّمتِ هذه الأشياء.

- من صديق يُدعى غوتيه، كنا معاً في الجامعة وضمن شلة الأصدقاء ذاتها. لطالما حدّثني عن هذه الأمور. فهو أيضاً كان يحبّ السحر والتجارب النفسية. وما كان يثير اهتمامه أكثر هو فنّ الكذب والتلاعب. لقد أعجبني ذلك، وبعدها بدأنا بمغازلة بعضنا بعضاً ومن ثمّ مارسنا الحبّ. كانت تلك أول مرة، واعتقدت أنّها ستكون الأخيرة، فقد تخيّلت نفسي متزوجة منه، وقد أصبح لدينا أولاد، وأنّني سعيدة معه.

تابعت كلامها وعيناها تنظران إلى البعيد.

- جميع صديقاتي سبق أن قُلن لي إنّه زير نساء، ولكنّني كنت مقتنعة أنّه بعد أن قابلني سوف يتغيّر. لأنّه في الواقع هو من غيّرني. وربما كنت أظنّ أنّني قادرة على التلاعب بالمتلاعِب.

بدأت تتناول المقبلات بلقيمات كبيرة وبطريقة عصبية.

- صديقاتي كنّ على حق، فحين علمت أنّني حامل وكنت أستعدّ لإخباره، اصطحبتني صديقتي المفضلة إلى أحد البارات الليلية، وهناك رأيت غوتيه مع فتاتين تجلسان على ركبتيه وهو يقوم بتقبيلهما بشراهة الواحدة تلو الأخرى.

أطلقت تنهيدة.

- أجهضت بعدها، وقد حاول رؤيتي مجدداً بعد ذلك، مقدّماً لي هذا التبرير العظيم! فقد أقسم أنّ ذلك كان مجرد حدث عرضيّ، جرى تحت تأثير الكحول بعد أن أفرط في الشرب. كما أكّد عدم وجود أيّ رابط مع هاتين الفتاتين اللتين لا يعرفهما أصلاً. وعدني بأنّ هذا لن يتكرّر أبداً في المستقبل. ركع على ركبتيه وتوسّل إليّ أن أسامحه، ولكن لا، لم يكن هذا وارداً على الإطلاق بالنسبة لي. في كلّ مرّة أثق فيها برجل كنت أفقد شخصاً ما. لقد تلاعب بي الطبيب تشوب وتسبّب ذلك بموت عمّي. وتلاعب بي غوتيه وفقدت على إثر ذلك جنيني.

- آسف لما جرى معك. قالها رينيه كما لو أنّه أراد أن يعتذر باسم جميع الرجال.

- بعدها مرّ الوقت وسامحته وعدنا أصدقاء، بل حتى أصدقاء مقربين. وبينما كنت أستعد لأصبح معلمة علوم، أصبح هو صحفياً تلفزيونياً. وهو الآن كاتب مقالات علمية في القناة الأولى، وقد أصبح نجماً. تزوج من ممثلة وأصبح لديه طفلان، ولم نتوقف قط عن رؤية بعضنا بعضاً، ولكن أعتقد أنّه جعلني إنسانة حذرة بشكل كبير.

- «المحروق من الحليب ينفخ على اللبن» هذا ما جرى معك؟

- ربّما بعد تجربتي مع تشوب وغوتيه لم أعد أرغب بالمخاطرة، لذا فضّلت الحفاظ على الرجال كأصدقاء بدلاً من أن يكونوا أحباباً. ولهذا السبب لسنا أنا وأنت سوى صديقين.

لم يعد يجرؤ رينيه على قول أيّ شيء.

- هل تعرف ما هو الفرق بين الأصدقاء والأحباب؟

– تفضلي، أنا أسمعك.

– الأحباب يأتون ويذهبون، أمّا الأصدقاء فيبقون. وهل تعرف لمَ؟ لأنّك تستطيع أن تصارح صديقك بكلّ شيء وأن تثق بهِ، ولكن بمجرد أن تدخل الحياة الجنسية بين اثنين حتى يصبح هناك فائز وخاسر.

أمسكت يده.

– ولأنك أيضاً مهمّ جداً بالنسبة إليّ لا أتمنى أن تنقاد وراء هذه الساحرة ذات العينين الخضراوين الواسعتين التي يبدو أنّها تتلاعب بك كطفل.

قالت إيلودي لنفسها إنّه عليها التحدث إليه بلغته كي تستطيع إقناعه، فهو يحبّ الأساطير الإغريقية والماضي والتاريخ:

– هل تعلم أنّ مجرد تسمية السفينة باسم صندوق باندورا عليه أن يثير شكوكك. هل تتذكر هذه الأسطورة، أعتقد أنّها ترمز جيداً لما يحدث معك.

تذكر رينيه الأسطورة.

23. مذكرات. صندوق باندورا.

تقول الأسطورة الإغريقية أنّ بروميثيوس سرق النار من هيفاستوس، إله الحدادة، لمنحها للبشر. فأصاب إله الآلهة زيوس (كعادته) غضب عارم. كان يعتبر البشر أغبياء جداً لدرجة أنّهم لا يستحقون هدية أثيرة كهذه بإمكانها أن تجعلهم أقوياء جداً. لم يستطع استرجاع النار من البشر ولكن أراد معاقبة بروميثيوس على جراءته. فوضع خطة، وطلب من هيفاستوس أن يصمّم امرأة بشرية تكون بمنزلة فخ له. فخلق هيفاستوس جسد المرأة من طين وماء، ومنحتها أثينا الحياة والملابس وعلّمتها فنّ الحياكة، وأعطتها أفروديت الجمال والغواية، ومنحها أبولو الموهبة الموسيقية، ومنحها هيرميس القدرة على الكذب والتلاعب بالرجال. ولهذا السبب أُسميت باندورا؛ «بان» يعني الجميع، «دورون» يعني هبة، أيّ المرأة التي مُنحت كلّ شيء.

وكانت بالتالي باندورا بحسب معايير زيوس، المرأة البشرية المثالية، فهي جميلة كإلهة، كما أنّها عذراء ومشرقة وذكية وجذابة.

قدّم هيرميس باندورا إلى بروميثيوس. ولكنّ هذا الأخير (الذي يعني اسمه «ذاك الذي يفكر قبل») كان قد استشعر وجود خطر ما فرفض هذه المرأة. وحذّر أخاه أبيميثيوس برفض أيّ شيء من زيوس.

وعلى الرغم من تحذيرات أخيه، ولكن عندما التقى أبيميثيوس (الذي يعني اسمه «ذاك الذي يفكر بعد») بالمرأة الشابة، لم يستطع مقاومة سحرها وأراد الزواج منها فوراً، وبالفعل تزوجا. وقد حملت الزوجة معها صندوقاً سرياً أهداه لها زيوس وكان قد منعها من فتحه. فهذا الصندوق السحري كان يحوي كلّ شرور البشرية. وبمجرد أن أصبحت باندورا في منزل أبيميثيوس لم تتوقف عن الدوران حول الصندوق (كان في الواقع جرة من الصلصال) يعذبها فضولها الذي كان قد غرسه فيها هيرميس.

في أحد الأيام، لم تعد تطيق صبراً، فتحته لتكتشف ما هو الشيء الرهيب في داخل هذا الصندوق البسيط.

ما الذي فعلتْهُ؟ بمجرد أن فتحته، تحرّرت كلّ شرور البشرية؛ من الشيخوخة والأمراض والحروب والمجاعات والبؤس والجنون والرذيلة والخيانة.

عندما فهمت باندورا خطأها أرادت إغلاق الصندوق السحري، ولكن بعد أن فات الأوان، فكل هذه المصائب كانت قد انتشرت في العالم. والشيء الوحيد الذي بقي محجوزاً هو الأمل. ومنذ ذلك الحين، تعلّمنا أسطورة صندوق باندورا أنّ الإنسان سيعاني كثيراً ولن يكون لديه راحة سوى بالأمل.

-24-

عادت العزّة لتظهر من جديد في عين رينيه.

كان أغلب المراهقين في باحة المدرسة يلعبون الكرة أمّا بعضهم الآخر فكان يمسك بهاتفه الخلوي. انتبه أستاذ التاريخ أنّ بعض التلاميذ يحدقون به من بعيد. أمّا مدير المدرسة فأخذ يراقب الجموع بينما هو يأكل الشوكولا. إنّ صورة المدير بهذه الهيئة ذكّرت رينيه بصورة مربّي الخراف حين يقف ليخمّن قيمة قطيعه.

بداية سيتم جزّها للحصول على الصوف، وبعدها عندما لا تعود مربحة بما يكفي، تُرسل إلى محل الجزارة كي ينتهي بها المطاف على شكل شرائح وأفخاذ موضوعة على الرفوف.

ولكن من الآن حتى ذلك الحين، يجب الحفاظ على القطيع هادئاً، كي يكون لحمه جيداً وطرياً. ولا ينبغي للقطيع أن يتعب نفسه بالتفكير بالقضايا التي تتجاوزه.

إنّ جميع الثورات أياً كان نوعها، سواء موسيقى البانك والروك والثقافة القوطية والفوضوية والشيوعية وحتى ثقافة السكينهيد، تمّ استخدامها واستغلالها لغايات استهلاكية مثل بيع المنتجات سواء الموسيقية أو المتعلقة بالملابس.

قبل أن يعود رينيه إلى الصف مجدداً، قام بجولة في قاعة التوثيق والمعلومات، ليبحث عن الحضارة التي من المحتمل أن تكون قد عرفت علم الفلك قبل سنة 300 ق.م.

فكّر بداية بالسومريين، ولكنّ المشاهد التي لاحظها في حياة جيب لا تتوافق مع بيئة السومريين. هذه الحرارة والرمل الأبيض الناعم، وأشجار جوز الهند، وهذه المياه الفيروزية والدلافين، تشير بالأحرى إلى جزر الكاريبي في المحيط الهندي أو الهادئ.

أخذ يبحث عن حضارات قديمة أخرى كانت قد أحرزت تقدماً بهذا المستوى. لم يكن للمصريين ولا للعبرانيين مثل هذا الشاطئ الذي رآه. صحيح أنّ جيب كان أسمر ولكنّ عينيه زرقاوان، وهذا يستبعد احتمال أن يكون إفريقياً أو صينياً أو بولينيزياً أو من سكان أستراليا الأصليين. لقد كان بلا شك من النوع القوقازي.

بالإضافة إلى أنّه تحدّث عن «جزيرته». بينما المصريون والسومريون وسَكان يهودا والهند كانوا يعيشون في قارات.

فكّر من جديد بحواره مع إيلودي.

إذا أكملت بهذا الشكل فإنّك تخاطر أن ينتهي بك الأمر كوالدك.

بعد أن أنهى عمله في المدرسة، قرّر زيارة والده. إنّ دار المسنين حيث

يقيم والده مختصة باضطرابات الذاكرة والخرف والشيخوخة. ومع شعار عيادة الفراشات: «الذاكرة هي كلّ شيء»، والرسم المرافق للشعار الذي يمثّل جمجمة منشققة تخرج منها فراشات، شعر رينيه أنّ المعنى أصبح بديهياً أمام عينيه، لذا بدت له الصورة مخيفة.

لم يكن هذا المبنى هو الآخر ثمرة لأيّ تخطيط معماري، وإنّما مجرد جدران من الإسمنت وواجهات زجاجية وأرضية مشمعة. عندما دخل العيادة، وجد أنّ مكتب الاستقبال خالٍ بسبب نقص الموظفين. ولم يكن هناك من يراقب الداخلين والخارجين، وبالتالي توجه رينيه إلى غرفة والده دون أن يلتقي أحداً.

وصل إلى ممر فيه أبواب بيضاء ولكنّ هذه الأبواب لم تكن مرقّمة. بل تشير إلى أسماء، منها اسم «إميل توليدانو».

طرق الباب، فلم يجبه أحد، لذا فتحه ودخل.

كان والده يجلس أمام التلفاز يشاهد برنامجاً وثائقياً عن المؤامرات العالمية الكبرى الذي يعرض على واحدة من القنوات التي تبث باستمرار معلومات عن المؤامرات التي يتمّ إخفاؤها عن المواطنين حول المستنيرين والماسونيين والرأسماليين وجماعة نظام الصليب الزهري والكائنات الفضائية. يبدو إميل مستمتعاً بما يراه، ولكنّ رينيه من ناحيته قال في نفسه إنّه يجب التشكيك بجميع الحقائق التي تُبث على وسائل الإعلام الرسمية. قد يكون والده قد ذهب بعيداً في هذيانه بجنون الارتياب.

- أبي؟

أجابه حتى دون أن يلتفت إليه:

- من أنت؟ لماذا تناديني بأبي؟

- هذا أنا يا أبي، ولدكَ رينيه.

راح يفكر رينيه من جديد أنّ عدم المعرفة وعدم التذكر وعدم الاعتراف أمرٌ قد يكون أيضاً خياراً شخصياً.

دخل إلى الغرفة طبيب شاب يبدو من هيئته أنّه طالب.

- أنت ولده على ما أعتقد؟ تشرفتُ بك، أنا من يهتمّ به، قال الطبيب لرينيه بصيغة ودية.

تصافحا. ومع أنّه يعرف الإجابة مسبقاً، فإنّه لم يستطع كبح نفسه عن سؤال الطبيب:

- هل يمكن علاج مرضه؟
- من خلال الطب الحاليّ، كلا.
- هل يمكن أن تتحسّن حالته؟
- هل تعرف كيف تعمل الذاكرة؟ إنّها تحتفظ بكلّ ما يرتبط بالمشاعر. ولكنّ والدك لم يعد يشعر بالعواطف. فلم يعد هناك شيء مهمّ بالنسبة إليه. يرى الأشياء كلّها بلون رمادي باهت دون أيّ تباين. إنّ ذهنه يدور في عالم موحّد حيث كلّ شيء فيه متشابه، وبالتالي غير مهم.
- ربما باستثناء برامج المؤامرات هذه؟
- في الواقع، يبدو أنّه يجدها مثيرة.
- كان والدي أستاذ تاريخ.
- آه، لم أكن أعرف ذلك.
- وقد كان في شبابه مناصراً للهيبيز[1] في ثورتهم ضد المجتمع. وكانت ثورته تتضمن بشكل عام استهلاك الماريجوانا والاستماع إلى الروك، أكثر من القتال في الشارع ضد قوات الشرطة.
- من المهم أن تعرف أنّ الماريجوانا تسبّب تلفاً في الذاكرة.
- في أحد الأيام، وبالتحديد بعد وفاة والدتي، تناول كمية كبيرة منها، وأصيب على أثرها بحالة شديدة من الهوس المؤقت، كانت أطول وأشد من المعتاد... فراح يهذي كما لو أنّه يعيش في عالم آخر، وقد انتقل بالفعل فكرياً إلى عالم آخر. وبعد ذلك، لم يعد كما كان بتاتاً. لا بدّ أنّ شيئاً ما قد جرى في دماغه، كما لو أنّه انهيار جرفيّ حاد. لم يعد

1- Hippie: حركة شبابية ظهرت في الستينيات في أمريكا، وهي مناهضة للرأسمالية والمظاهر المادية والنفعية. عُرف عنهم بترويجهم لتعاطي المخدرات وخصوصاً الماريجوانا. المترجمة

يعرف الناس. لحسن الحظّ أنّ هذا قد حصل حينما كان على وشك التقاعد. لذا فقد أنهى عامه الدراسيّ بصعوبة بعد أن غطّى زملاؤه ورؤساؤه على غياباته المتكررة قبل أن ينتهي المطاف به هنا.

- أفهم ذلك، فقد يحصل في الواقع أن تتسبّب المخدرات بأضرار في الذاكرة.

رأى رينيه أدوية ملونة بجانب كأس ماء على طاولة السرير. فسأل الطبيب عنها:

- ما هذه؟
- إنّها حبوب منومة تساعده على النوم.
- ما هي بالتحديد؟
- إنّها أدوية من زمرة البنزوديازيبينات، تساعده أيضاً على الاسترخاء، فقد يصبح على الأرجح أكثر عصبية وعدوانية دونها. فهو أحياناً، عندما يشاهد هذا النوع من البرامج التلفزيونية، يصيبه القليل من الغضب تجاه البنوك والنخبة أي ضد المجتمع الاستهلاكي بكلّ بساطة، ولذا أثناء حضوره لهذه الحلقات، قد يكون سلوكه خطيراً على نفسه هو كما على الآخرين.

أسِف رينيه لعدم معرفته بشكل أفضل بالكيمياء كي يفهم كيف يستطيع البنزوديازيبين تحويل هذا الرجل، من كبش قتالي حقيقي، إلى خروف مهووس بالأفلام الوثائقية الجنونية. هزّ رأسه محبطاً.

- حسناً، هل بإمكاننا القيام بشيء ما كي نجعله بحالة أفضل؟
- سيكون من الأفضل تهييج مشاعره، ولكنّنا لا نعرف كيف نفعل ذلك.

لم يستطع رينيه منع نفسه من تخيّل الحلول الممكنة.

عليه أن يعيش مغامرة أو إحساساً بالخطر أو يمارس الجنس أو يستمع لموسيقى الروك آند رول. ألا يصفون هذه الأشياء في هذه العيادة؟

- حاول أن تُكثر من زياراتك إليه. أنت تعلم أنّ إميل ليس لديه الكثير من الأصدقاء هنا. فهو حينما يقدّم له أيّ أحد خدمة ما، فإنّه ينسى ذلك مباشرة. ولهذا السبب، فالناس يسأمون منه لمقابلته معروفهم بالجحود، لذلك يتوقفون عن مساعدته.

إنه بالأساس لم يتعرّف حتى إلى ولده الوحيد.

- أنا متأسف لقول هذا لك، ولكنّ والدك يزعج حتى المرضى الآخرين. لذا فإنّ مثله من الأشخاص يصبحون تدريجياً منعزلين، وإن توقفت عائلتهم عن زيارتهم فسوف تزداد الأمور خطورة. لحسن الحظّ أنّ والدك لم يصل حتى الآن إلى هذه المرحلة، ولكن دون محفزات خارجية، أخشى بالفعل أنّه سيفضل قضاء نهاره في رؤية هذه البرامج الوثائقية عن نظرية المؤامرة باستمرار دون توقف. حتى الوقت الراهن، ما زال يتوقف عن المتابعة قليلاً كي يتناول الطعام، ولكن أشكّ بأنّ الأمر سيزداد سوءاً.

تابع التلفاز بث تقريره، ووالده يجلس فاتحاً فمه ومحدّقاً بكلّ اهتمام.

استدار رينيه كي يخفي دموعه التي سالت على خديه.

-25-

تشير الساعة إلى 22:51.

شعر رينيه بالقلق. ما الذي سيحصل هذا المساء؟ هل سيكون قادراً على الغوص وحده، دون مساعدة المنومة، إلى أن يصل حتى أقصى أعماق لا وعيه، هناك حيث الممر ذو الأبواب، وخصوصاً الباب رقم 1 الذي جرى خلفه ذاك اللقاء الرائع؟

«جيب» ؟ اسم غريب.

حضّر رينيه توليدانو عشاء سريعاً مكوناً من أغذية يفترض أنّها مفيدة للذاكرة وهي؛ كأس زيت كبد الحوت الذي شربه دفعة واحدة، وطبق من سمك الإسقمري والكرنب، والقليل من المشمش والزبيب والبندق.

كان يبحث على حاسوبه أثناء تناوله الطعام، إن كان هناك أخبار جديدة حول موضوع المتشرد المُنتشل من نهر السين.

أخذ يفكر بدروسه في الثانوية والعدائية المتزايدة التي تظهر على تلاميذه. فعادت إلى ذاكرته الجملة التي كان يقولها والده: الحقيقة سوف تبدو مشبوهة بالنسبة للناس الذين اعتادوا على الأكاذيب.

تذكر رينيه الرواية التنبؤية للكاتب جورج أورويل التي تحمل اسم «*1984*»، حيث يذكر فيها أنّه في كلّ صباح، تتمّ إعادة كتابة التاريخ من قبل مختصين بالإعلام الرسمي لتتناسب مع المتطلبات السياسية المستجدة، دون أن يخشوا من التناقض في أقاويلهم، لأنّ جميع الناس تمّت برمجتهم على النسيان.

والقطيع يتبعهم حتى دون أن يكلّف نفسه عناء التساؤل حول مصداقية القصص التي تُقدم... ولا يحاول التحقق منها، لا يبحث للحصول على دليل. الجميع يريد الالتحاق بالقطيع كي يواصلوا جميعهم الثغاء على النغمة ذاتها.

تنفس رينيه بعمق.

إنّ التاريخ يصبح شيئاً فشيئاً قضية سياسية. فالمؤرخ جول ميشليه عند كتابته لتاريخ فرنسا، ألّف قصصاً من الذكريات الرسمية لكلّ أجيال فرنسا المستقبلية. هو من اختار النجوم الأبطال الذين يحق لهم أن يذكروا في التاريخ وهم: القائد جتريكس، والملك لويس الحادي عشر، والبطلة جان دارك، والملك هنري الرابع، والملك فرانسوا الأول، والملك لويس الرابع عشر، والقائد نابليون...

والحال نفسه ينطبق على بقية الدول، فقد فرضت كلّ دولة حقيقة رسمية للماضي الرسمي، تضفي الشرعية على الحكومة، كما لو أنها نتيجة حتمية للتطور الدارويني.

يتم مسح الضعفاء من الخريطة. وحدهم الأقوياء من ينجون. ولكنّ الطبيعة لا تعمل بهذه الطريقة. إنّها تضيف، ولا تُقصي أحداً. ولكنّ الإنسان هو من يقدم تفسيراته الشخصية بحسب مصالحه.

إنّ داروين نفسه أراد شرعنة الأنظمة السياسية العنيفة بحسب مبدأ: «إن فازوا فإنّهم على حق بكلّ تأكيد».

إنّ التفكير بهذا جعل رينيه بحالة غضب داخليّ، فأحكم قبضته.

ليست مصادفة أن أشعر أنّ كلّ ما سبق يمسّني. فأنا أعرف في أعماقي أنه لديّ معركة شخصية يجب أن أقوم بها. وهي واجب التذكر. تذكر

المهزومين، والضحايا المُهانين من قبل جلّاديهم لأنه لم يعد باستطاعتهم الشهادة أو لأنّ رواياتهم عن الوقائع قد دُمّرت.

صنع لنفسه قهوة مضغوطة كي تطول فترة تأثيرها قدر الإمكان، ومن ثمّ خصّص لجلسته زاوية محدّدة وجلس على أريكة في غرفة الاستقبال. رُكن «التنويم المغناطيسي الذاتي».

جهزّ وسادات بشكل دائري ووضع واحدة في الوسط، بالإضافة إلى إحضاره بعض الشموع. إنّها الساعة 23:06.

تبدو الأقنعة المعلقة على جدران غرفة الاستقبال كما لو أنّها تسخر منه. لولا «حادثة» السكينهيد، كان سيشعر بحال أفضل، ولكنّ موت هذا الرجل لا يتوقف عن ملاحقته على الرغم من الحالة المريحة التي خلفها لقاؤه مع جيب.

لقد قتلت أحدهم، كما لو أنّ ذلك كان هو الثمن المتوجّب دفعه كي أفتح صندوق باندورا لحيواتي السابقة.

بدأ يشعر بالتوتر. أشعل جميع الشموع وأطفأ المصابيح، كي لا تضايقه الأنوار الصناعية. نظر إلى ساعته إنّها 23:22.

لم يتبقَّ سوى بضع ثوانٍ قبل الجلسة. سوف أكتشف الحقيقة في النهاية.

استقرّ وجلس بوضعية اللوتس؛ بعمود فقري مستقيم وكتفين متباعدتين بشكل كافٍ، كما شاهد جيب يفعل بالضبط.

لقد اختار طريقة الجلوس هذه لأنها الأفضل. إنّها في جميع الأحوال بالتأكيد أفضل من الجلوس بتراخٍ على الكرسي، كما كان يفعل في السابق.

أخذ شهيقه بعمق وأطلق زفيره ببطء.

.23:23

أغلق ستائر جفنيه. أخذ يبطئ تنفسه، ويخفض من معدل ضربات قلبه، وأخيراً، استدعى صورة الدرج.

نزل الدرجات العشر متمهلاً. أول خطوة، الثانية، فالثالثة، وفي الخطوة العاشرة وجد نفسه أمام الباب المدرّع للاوعي. أخرج المفتاح، وأدخله في

الثقب وأداره وفتح الباب السميك، فوجد نفسه في الممرّ المفروش بالسجاد الأحمر مع الأبواب المرقّمة.

مشى بخطوة واثقة باتجاه أبعد باب أي الباب رقم 1.

تملّكه شيء من التوجّس، ومن ثمّ بدفعة واحدة، قبض على مسكة الباب وفتحه.

–26–

كان الوقت نهاراً، والشاطئ يبدو أقلّ سكوناً من المرة السابقة، وقد هبت رياح رطبة، جعلت أشجار جوز الهند تنحني، كما تسبّبت بارتفاع أمواج المحيط. لم يظهر أيّ دلفين. وفي البعيد كان جيب جالساً القرفصاء تماماً مثل الليلة السابقة، باستثناء أنّه اليوم فاتح عينيه. جلس أستاذ التاريخ أمامه.

– صباح الخير يا جيب. كيف انتهت الهزة الأرضية البارحة؟

– صباح النور يا رينيه، شكراً على اهتمامك، ولكن لم يكن هناك ما يدعو للقلق. فقد كان مجرد زلزال بسيط. وقد سبّب بالفعل كما توقعت، تشققات في جدران عدد قليل من المنازل، ولكن لا شيء يدعو للقلق.

راح الرجلان يحدّقان بعضهما ببعض من جديد بصورة مكثفة.

– كم هي الساعة عندك يا رينيه؟

– إنّه الليل.

– إذاً كان الأولى بي أن أقول لك «مساء الخير». سيكون هذا ملائماً أكثر.

– وعندك؟

– إنّه الفجر هنا.

تضاعفت سرعة الرياح، وراحت الأمواج تثبت وجودها بالتكسر على الصخور في البعيد.

– بالمناسبة، أودّ أن أعرف العصر الذي تعيش فيه يا جيب.

– أعيش في العام 2020. وأنتَ يا رينيه؟

– آه حسناً، بصراحة... أنا أيضاً، ولكن أعتقد أنّه يجب ألا يكون لدينا التقويم الزمني نفسه.

– أنا أعيش في عام 2020 بعد آتوم[1]، الإنسان الأول.
– وأنا أعيش في عام 2020 بعد يسوع الذي يفترض أن يكون المسيح.
– إن كان ما قلته صحيحاً، فنحن لا نعيش في التوقيت الزمني ذاته. الطريقة الوحيدة لمعرفة عصر كلّ منا هي أن تريني السماء التي تعيش تحتها. بما أنّني عالم فلك، أستطيع أن أعرف السنين استناداً إلى مواقع الكواكب والنجوم.
– ولكن كيف يمكنني أن أريكَ «سمائي» ؟
– افتح عينيك.
– ولكن إن فعلت هذا فسوف أفقد التواصل معك.
– لتعلم، يمكننا فعل أيّ شيء إذا قررنا أنّه ممكن. يمكنك أن تفتح عينيك وتريني عالمك، وتتواصل معي روحياً في الوقت ذاته.
– سوف نقطع الاتصال بذلك.
– ثق بي وحاول، سترى جيداً.
فتح رينيه عينيه ببطء.
– ما زلتَ هنا؟
– بالطبع، أنا أرى ما تراه أنت. كما تلاحظ، بإمكاننا مواصلة حديثنا بشكل طبيعي. والآن، هل تستطيع الذهاب إلى النافذة والنظر إلى السماء؟

لا يزال رينيه متفاجئاً لعدم فقدان التواصل مع جيب، نهض على مهل وهو يكرّر باستمرار.
– ما تزال هنا؟

فتح النافذة في غرفة الاستقبال. لحسن الحظ، كان الطقس حاراً والسماء مرصعة بالنجوم ولا يحجبها أية غيمة.

أشار له جيب بكيفية توجيه رأسه للنظر؛ باتجاه الغرب والشرق، ومن ثمّ إلى أعلى نقطة وبعدها إلى أخفض نقطة.

1- يعني «التام» أو «الكامل» هو أعظم الآلهة التي كانت تعبد في مصر، اعتبر ملك الأرباب، ونُسب إليه خلق الكون. المترجمة

- جيد، يمكنك العودة إلى وضعيتك السابقة، وأنا سأقوم بإجراء حساباتي.

عاد رينيه وأخذ وضعية اللوتس، فأغلق عينيه وألقى نفسه في عالم جيب، وراح ينتظر على الشاطئ.

- اثنا عشر ألف عامٍ تفصلنا بعضنا عن بعض، قال جيب بعد فترة من الزمن.

- تقصد أن تقول ألفي عام؟

- كلا، بل اثنا عشر ألف عام.

ولكنّ رينيه يعلم أنّ العالم المتحضر يفترض أنّه بدأ في الظهور عام خمسة آلاف قبل الميلاد، وذلك مع وجود أول مدينة سومرية وهي إريدو[1].

إن كان يدّعي أنّ هناك اثني عشر ألف عام بيننا، فيفترض أنّ جيب يعيش قبل الحضارة الأولى المعروفة رسمياً وتاريخياً بوقت طويل. إنّه يزعم أنه يعيش قبل عشرة آلاف عام من ولادة المسيح!

- هذا مستحيل، قال أستاذ التاريخ. لا بدّ أنّك ارتكبت خطأً ما، أعد حساباتك من جديد.

- ولماذا؟

- لأنّه بالنسبة لنا هذا يعني قبل اثني عشر ألف عام، وفي ذلك الوقت لم يكن هناك... *(سوى إنسان ما قبل التاريخ؟)*... عالم فلك قادر على تقديم المعلومات التي أعطيتني إياها لتوّك.

لا يبدو الرجل ذو التنورة قد فوجئ بهذه الحجة.

- أعتقد أنّ معرفتك بالتاريخ السابق فيها بعض الثغرات. ومع ذلك، فأنا أوكد لك أنّه في عصري هذا هناك العديد من علماء الفلك وأنا لست الوحيد الذي يمارس هذا الفن النبيل. كما أنّه لدينا أيضاً مؤرخون يحاولون معرفة المزيد عن تاريخنا البعيد، ويبدو أنّهم أكثر موهبة من مؤرخي عصرك!

1- تسمى اليوم «تل أبو شهرين»، تقع في العراق. المترجمة

فضّل رينيه عدم التطرق إلى هذا الموضوع.
- وأين تعيش أيّها السيد عالم الفلك؟
- اسم مدينتي ميم- سيت. وبالطبع إنّها عاصمة جزيرة ها- ميم- باث.
- لا تعني لي هذه الأسماء شيئاً.
- لم أغادر في حياتي هذه الجزيرة التي تقع في وسط البحر الذي هو نفسه يقع في وسط العالم.

ولكن عن ماذا يحدثني، «جزيرة تقع في وسط البحر الذي يقع في وسط العالم» ؟ أنا لا أفهم حتى في أيّ منطقة من الكوكب يمكن أن يكون.

ومع ذلك، فإنّ جيب قد ذكر اسم مدينة، ما يعني أنّه كان يعيش في حضارة وُجدت قبل حضارة السومريين.

فسأله:
- إن فتحتُ عينيّ هل نبقى على اتصال؟
- طبعاً.

فتح رينيه عينيه ونهض باحثاً عن الكرة الأرضية.
- هل تعرف هذا الشيء؟
- أفترض أنّه تمثيل لكوكبنا بشكل كرويّ، أريد أن أذكرك بأنّ هذا هو مجال عملي.
- إذاً في هذه الحالة أنت تعرف مواقع القارات؟
- كي أكون صادقاً معك سأقول إنّني لم أغادر هذه الجزيرة قط، لا أنا ولا أيّ أحد آخر. ولكن من خلال الإسقاط النجمي يمكن لروحي أن تحلّق فوق كلّ الأراضي التي ترغب بزيارتها.
- الإسقاط النجمي؟ أليس لديك تليسكوب أو نظارات أو أيّة آلة كانت لمراقبة النجوم؟
- إنّ الإسقاط النجمي يسمح لروحي باستكشاف جميع الأماكن والكواكب والنجوم التي أريدها. فلماذا أقيد نفسي بآلة أياً كانت؟

أمام هذه الإجابة القاطعة، لم يعد يجرؤ رينيه على طرح المزيد من الأسئلة.

– وأنت يا رينيه، دلّني أين تعيش.
وضع رينيه إصبعه على الكرة الأرضية.
– هنا، اسم مدينتي باريس، وهي عاصمة بلد يدعى فرنسا تقع في قارة نسميها أوروبا.
– آه؟ سبق لي أن حلّقت فوق هذا البلد خلال الإسقاط النجمي. نسمّيها في عصرنا «بالأراضي البرية في الشمال الشرقي». وكي أكون صريحاً معك، كنت أظنّ أنّه لا وجود بشريّاً في هذا المكان.
– وأنت، دلّني أين تعيش يا جيب. أين تقع جزيرتك؟
أخفض أستاذ التاريخ إصبعه عن باريس.
– إلى الأسفل قليلاً، إلى اليسار، إلى اليسار أيضاً، أخفض بقليل، اذهب قليلاً إلى اليسار. إنّه هنا!
نظر رينيه ماذا يوجد تحت سبابته.
– ولكن هذا في وسط المحيط الأطلسي!
– إنّ خريطتك وكلّ شيء بما فيه معرفتك عن الماضي هي غير مكتملة.
لم يستطع رينيه أن يزيح عينيه عن المكان الذي يفترض أنّ جيب يعيش فيه.
– ومع ذلك، فإنّ هذا يفاجئني كثيراً بأن تكون جزيرتك ها– ميم– باث غير مُشار إليها على خريطة العالم. إنّ أقمارنا الصناعية استطاعت اكتشاف كل أراضي اليابسة في الكرة الأرضية. إلّا إذا...
كلّا هذا غير ممكن.
– ماذا؟
بحث أستاذ التاريخ عن كلمات يصيغ بها جملته.
– في النصوص القديمة جداً، تمت الإشارة إلى جزيرة قيل إنّها كانت تقع في هذه المنطقة، منذ عهد طويل جداً. كان اسمها...
تردد في المتابعة، ولكن خرج هذا الاسم من بين شفتيه.
– ... أطلانطس.

– ما هذه؟
– جزيرة أسطورية.
– أسطورية؟ ماذا تعني هذه الكلمة بالضبط؟
– هذا يعني بالنسبة لنا في أيامنا هذه، أنّنا نعتبر وجود جزيرتكم أمراً... خيالياً.
سمح رينيه بمرور بعض الوقت وبعدها حدّد:
– في الحقيقة، أغلب الناس في عصري يعتقدون أنّكم لم تكونوا موجودين قط. وأنّ أطلانطس هي نوع من قصص الأطفال.
ساد صمت طويل من جديد.
– هل ما زلت هنا يا جيب؟
عاد رينيه وجلس بوضعيته السابقة كي يرجع من جديد إلى هناك. بدا جيب مشوشاً بسبب هذه المعلومة.
– أنا لا أفهم كيف يمكن أن يحدث هذا، أن تكون جزيرتنا بالنسبة لكم مجرد... «أسطورة» !؟
– أنا أعتذر يا جيب.
– أفضل دليل على وجودنا أنّني أكلمك الآن، على ما أعتقد؟
تضاعفت سرعة الرياح محدثة ضجيجاً عارماً. أمواج البحر كانت تلعق الصخور المحيطة.
– البعض منّا يعتقد بحقيقة وجودكم والبعض الآخر لا يعتقد ذلك. يجب أن تتفهمنا يا جيب، فوجودكم مغرق في القدم، وليس لدينا أيّ أثر عنكم، ولا بقايا لمدنكم، ولا وجود حتى لأدنى شيء من حضارتكم يجعلنا نتعرّف على هويتكم بوضوح. أنت قلت إنّ بيننا اثني عشر ألف عام... إنّ هذا بعيد جداً! عذراً، ولكن أعتقد أنّ حضارتنا قد نسيت وجود حضارتكم.
– إذاً، بحسب ما تقوله، فإنّ الناس في عصرك يعتقدون أنّنا لم نوجد في الأساس؟
– أنا أعتذر فعلاً. وأتفهّم إرباكك. ولكن لا أريد أن أكذب عليك؛ فنحن لم ننسَكم فقط، بل إن الغالبية منّا تعتقد أيضاً أنكم لم توجدوا أصلاً.

- هذا أفضل وأفضل!

راح الرجل ذو التنورة يحدّق به. وأخذت الريح تشتدّ حولهما، وتحني أشجار جوز الهند حتى إنّ بعض الثمار سقطت على الرمال. تابع جيب كلامه:

- وبالنسبة لك أنت، ما رأيك الشخصي بكلّ هذا يا رجل المستقبل؟
- حسناً، تلعثم رينيه، من الواضح أنّ عالمكم يبدو واقعياً، ولكنّ كل هذا ليس موجوداً بكلّ الأحوال، حتى هذه اللحظة إلّا في...
- في... ماذا؟
- ... في ذهني...
- ... نعم، وماذا أيضاً؟
- ... ولا أستبعد أن يكون كلّ هذا هو ثمرة خيالي. قد أكون داخل حلم، حيث بنيت فيه عالماً طوباوياً، نابعاً من كلّ تخيلاتي لعالم قديم يكون أفضل حالاً من العالم الذي أعيش فيه. قد يكون لا وعيي قد قدّم لي هذا التأمل الذي تكلمني أنت فيه.

حدّق إليه جيب مطوّلاً، ومن ثمّ وقف فجأة وذهب. بقي رينيه وحده على الشاطئ الذي تتزايد فيه سرعة الرياح أكثر فأكثر. وأمواج البحر تحدث ضجيجاً فظاً وهي تتكسر على صخور الشاطئ.

عاد رينيه واجتاز الباب يتملكه شعور بأنّه قام بخطأ ما. صعد الممر، وعبر الباب المدرّج للاوعي، صعد الدرجات. في هذه المرة لم يكن هناك أيّ أحد يعدّ له عكسياً ويستقبله عند الخروج. فتح عينيه.

لقد أزعجته، كما كانت تقول أمي: يجب عليّ دائماً أن أخرّب كلّ شيء عندما تكون الأمور على ما يرام.

تنفس بعمق.

هل من الممكن أن تكون هذه حقاً أطلانطس؟ اللعنة، ماذا لو كان هذا صحيحاً... يا له من اكتشاف!

نهض وذهب ليقف مقابل النافذة متأملاً السماء المرصعة بالنجوم التي كان جيب يراقبها. نظر من بعدها إلى الكرة الأرضية وإلى تلك النقطة التي أشار إليها جيب، بمقابل المكسيك.

تبع شعوره بالذنب شعور بالفخر.

ربّما أكون قد تحدثت فعلاً مع رجل أطلانطسيّ!

أمسك بحاسوبه وكتب بالتفصيل كلّ ما جرى معه أثناء الجلسة. وبعدها أرسل رسالة قصيرة:

مساء الخير أوبال،

كما وعدتك، هذه نتيجة تجربتي في التنويم المغناطيسي التراجعي الذاتي. عرفت الآن معلومات أكثر عن تجسّدي القديم الذي كان يعيش خلف الباب رقم 1. فعند سؤالي له عن الزمن الذي يعيش فيه؟ كان جوابه: قبل اثني عشر ألف عام. وعند سؤاله عن المكان الذي يعيش فيه؟ زعم أنّه يعيش في مدينة ميم- سيت وهي جزيرة تابعة لها- ميم- باث، والتي تقع في وسط المحيط الأطلانطسي (من الممكن أن تكون أسطورة أطلانطس). لا أخفي عنك أنّه وبصفتي مؤرخاً أجد هذه التجربة رائعة. شكراً لأنّك جعلتني أكتشف هذه الأداة البسيطة والفعالة لاستكشاف اللاوعي. حتى وإن كان كلّ هذا مجرد أوهام، فإنّها أوهام مثيرة.

إلى اللقاء. رينيه توليدانو، متطوعك الأول.

27. مذكرات. أطلانطس.

أوّل مؤلف مشهور أشار إلى وجود أطلانطس هو الفيلسوف الرياضي فيثاغورس. ففي كتابه «الأبيات الذهبية»، يزعم فيثاغورس بأنّه علم، أثناء بداياته في مصر عام 547 ق.م في معبد ممفيس، بوجود حضارة تمتعت بروحانية عالية جداً وعاشت على جزيرة قبالة شواطئ أعمدة هرقل (هذا يعني مضيق جبل طارق حالياً).

وقد سمّى هذه الجزيرة أطلانطس.

وبحسب فيثاغورس، فإنّ هذه الحضارة لم تعرف «طفولة بربرية»، على خلاف جميع الحضارات، ولم تعرف الخوف ولا العنف. فقد كانت هذه

الغرائز مجهولة لها، وبالتالي لم تجد فائدة في استخدامها، أو بالأحرى لم تقم بنشرها للآخرين.

أشار فيثاغورس إلى أنّ الأطلانطسيين كانوا يؤمنون بخلود الروح. فبالنسبة لهم، تظلّ الروح تتجسّد بعد الموت، في أجساد جديدة إلى أن تستطيع التحرر من التجربة الجسدية، وتندمج من جديد مع الطاقة الأولية التي خُلقت منها في البدء. وقد سمّى فيثاغورس هذه الظاهرة «بالتناسخ».

كتب فيثاغورس أنّ الأطلانطسيين كانوا يملكون معارف متقدمة جداً في علم الفلك، ويمارسون فنون عدة، مثل الرقص والموسيقى والغناء والرسم والشعر، ولكنهم لم يهتموا كثيراً بالتكنولوجيا والأسلحة. وفي ظلمة الأهرامات، بدأ الأطفال الأطلانطسيون يتعلمون نبذ كلّ أشكال الأنانية لمصلحة التضامن والتواصل ليس مع جميع أبناء جنسهم فقط، إنّما مع جميع أشكال الحياة الأخرى من حيوانات ونباتات أيضاً.

والمؤلف المشهور الثاني الذي كتب حول هذا الموضوع هو أفلاطون (الذي كان نفسه تلميذاً لدى فيثاغورس). فقد تحدث عن أطلانطس في كتابيه كريتياس وطيماوس اللذين كُتبا بين 360 و350 ق.م.

كانت هذه الجزيرة بحسب أفلاطون أكبر من دولة ليبيا. وقد دوّن أفلاطون في كتابه كريتياس:

«غُمرت أطلانطس بالمياه في يوم وليلة أثناء موجة مدّ هائلة تزامنت مع حدوث مجموعة من الهزات الأرضية».

ذكر أفلاطون أنّ زمن حدوث هذه الكارثة هو ما قبل عشرة آلاف عام. كما حدّد الفيلسوف اليوناني في كتابه:

«هذه ليست قصة خيالية، إنّها قصة حقيقية لها فائدة كبيرة».

وبعدها توجّب الانتظار حتى عام 480 م، كي يدّعي الروماني بروكلوس إيجاده نقشاً مصرياً يتحدث عن وجود واختفاء أطلانطس، وهذا ما يثبت تأكيدات فيثاغورس وأفلاطون.

ولن يُعاد تناول هذا الموضوع إلّا بعد ألف عام، وتحديداً في عصر

النهضة. حين كتب المؤلف الإنكليزي فرانسيس بيكون كتاب «أطلانطس الجديدة» حوالي عام 1624م، وقد تخيل فيه وجود جزيرة يعيش فيها شعب حكيم، مستوحياً كتابه هذا من كتاب أفلاطون، كريتياس.

وفي الآونة الأخيرة، كان الوسيط الروحي الأمريكي المشهور إدغار كايس هو من تطرق إلى هذا الموضوع. فحوالي عام 1900م، كتب أنّه، أثناء إحدى انخطافاته، عرف أنّه كانت في الماضي جزيرة غرب البرتغال دمّرتها كارثة هائلة، فقد غرقت كلّها قبل حوالي عشرة آلاف سنة قبل الميلاد. ومن بعدها هرب الأطلانطسيون إلى مصر ونقلوا إلى سكانها الأصليين معارفهم بالكتابة والطب والرياضيات والعمارة. وبحسب إدغار كايس، فإنّ العالم مهدد بخطر حدوث الكارثة نفسها والدمار ذاته بطريقة مفاجئة مثل ما حلّ بأطلانطس. ومن هنا تأتي ضرورة فهم ما حدث قبل اثني عشر ألف عام في أطلانطس.

ذهب إدغار كايس إلى حدّ القول إنّ أغلب الأرواح الأكثر تقدماً في عصرنا ليست سوى تقمصاً لأرواح جاءت من الحضارة الأطلانطسية القديمة التي اندثرت.

-28-

في صباح هذا الأربعاء كان رينيه توليدانو قد تغير مظهره بالكامل. كان بالأمس حزيناً أمّا اليوم فيبدو مبتهجاً، لم تعد تتشنج عينه اليمنى وبالكاد يستطيع إمساك نفسه عن الضحك في الصف.

تبدو نبرة صوته فرحة كما لو أنّ أحداً قد بشّره لتوّه بخبر سارّ. ظهر على شاشة العرض منحوتة تمثل الفيلسوف اليوناني أفلاطون.

– أرغب أن أحدثكم اليوم في درسنا الثالث هذا عن أطلانطس. هل هي أسطورة أم حقيقة؟

استحضر رينيه توليدانو نصوصاً تعود إلى ثقافات أخرى مثل، السلتية والصينية والهندية والكورية واليابانية والمايا. ووفقاً لكلامه، فقد أجمعت كلّ هذه النصوص على وجود حضارة عظيمة مندثرة كانت منهلاً لجميع الحضارات الأخرى في الماضي.

قام تلميذ يجلس في آخر الصف، وهو طويل القامة ذو هيئة ضخمة ووجهه ممتلئ بحبّ الشباب، ورفع يده.

- ولكن يا أستاذ، الجميع يعلم أنّها ليست سوى أسطورة. فأطلانطس لم يكن لها وجود قط.

توقف رينيه واقترب من المراهق.

- هل تعلم، لا شيء يثبت وجود أطلانطس ولكن في المقابل لا شيء يثبت عكس ذلك.

تابع الآخر:

- الجميع يعلم أنّ...

ما باله هذا؟ هل يريد النيل مني؟

- لا أحد متأكد من شيء. ولا أظنّ أنّه بإمكانك الوصول إلى مصدر حصري للمعلومات حول هذا الموضوع.

- في النهاية إنّ المؤرخين الجادّين يقولون إنّ...

- حتى المؤرخون «الجادّون» لا يملكون أيّة معلومة محددة عن الموضوع. فهم يأخذون مواقف ويتمسكون بها دون معرفة ودون تحقّق. وفيما يخصّ المصادر، فهم يتمسكون بطرائقهم نفسها التي تمّ تأسيسها بناءً على نصوص المؤرخين السابقين، الذين بدورهم لا يعرفون عنها الشيء الكثير. ليس بهذا الشكل سيتطور الفكر!

يقود الرعاة العميان قطيعهم في الدروب التي يعرفونها فقط، وتعتبر الخراف أنّ هذه الدروب وحدها هي الدروب الصحيحة بالضرورة.

لم يستسلم التلميذ بهذه السهولة، إنّه عنيد، لذا تابع:

- ومع ذلك... فإنّ أطلانطس ليست سوى أسطورة. مثل قصة الفأرة الصغيرة، وبابا نويل، والشيطان، وحوريات البحر... لا يمكن لأحد إثبات أنّ...

ماذا جرى له؟ هل يريد إثارة إعجاب الفتيات من خلال مواجهتي بموضوع يظنّ أنني لن أستطيع إثباته أبداً؟

- قف مكانك.

كما كان يظنّ، يبدو أنّ المراهق أطول منه بعدة سنتيمترات.

- ما هو اسمك؟

- فيليب.

أصبح الصف كلّه شديد الترقّب لما يجري. تجرّأ التلميذ وقال:

إنّ والدي يقول إنّ كل ما قلته لنا سابقاً عن الرومان والإغريق ليس إلا كلاماً فارغاً. إنّك تستغلّ منصبك كأستاذ تاريخ كي تروي لنا أشياء ليست في المقرر وليست حقيقية في الأصل.

عادت العرّة إلى عينه اليمنى فجأة.

لا تغضب، لا تسمح لهيبوليت في داخلك بالتعبير عن نفسه. إنّه مجرد تلميذ يحاول استفزازك.

- اجلس يا فيليب.

بقي الآخر واقفاً بازدراء.

- وماذا لو رفضت سماع المزيد من الأكاذيب.

أصابته العرّة من جديد.

أمسك رينيه معصم التلميذ بحركة سريعة، ولواه حتى تجهّم الآخر من الألم وأصبح مجبراً على الجلوس. بدأ الصف على الفور بالتفاعل، فتراجع رينيه فجأة وأفلته.

ما الذي جرى لي؟ هذا هيبوليت. إنّ هيبوليت الذي يقبع في داخلي قد خرج فجأة، ولم أستطع التحكم به. إنّه يتجلّى حينما أشعر بالخوف. لو أنني أترك له حرية التعبير، إلى أين سيصل؟

لا تفقد توازنك. بسرعة، أعد السيطرة على الموقف قبل أن تصبح الأمور خارج السيطرة.

- اخرسوا جميعكم!

اللعنة، لا أفهم ماذا يحصل. لا أعتقد في جميع الأحوال أنّ موضوع أطلانطس هو ما جعلهم متوترين لهذه الدرجة.

تابع التلميذ التحديق به وهو يمسّد معصمه، خائفاً وسعيداً في الوقت عينه لأنّه أخرجه عن طوره.

الطريقة الوحيدة لعدم السماح لهيبوليت بالظهور هو ترك جيب يتحدث.
لا نستطيع إزالة الوحش ولكن نستطيع لجمه بالحكمة.

قام بعدها أستاذ التاريخ بحركة غير متوقعة، ووضع يده فوق صدر فيليب وتحسّس ضربات قلبه. شعر بأنّه استطاع تلمّس روح التلميذ.

وفي لمحة واحدة راحت المعلومات تتوارد إلى ذهنه.

لقد عرفت هذا الشخص في حياة سابقة. سبق لنا أن تصادمنا من قبل، وهو يرغب الآن بأن نتعارك مرة أخرى.

إن ضربته، سأهزمه ولكن سأخسر كلّ شيء.

تراجع التلميذ فجأة بخطوة إلى الخلف، كما لو أنّه شعر بأنّ الأستاذ استطاع سبر أعماقه بوضعه يده على قلبه.

- ما الذي أصابك يا أستاذ، هل أنت شاذ أم ماذا؟

عاد رينيه توليدانو وجلس مكانه، في حين أنّ الهمسات راحت تتزايد «هل رأيت؟ لقد لمس صدره!».

- حسناً، أين كنا؟ آه نعم، هل كانت أطلانطس موجودة حقاً أم لا؟ كما تشاهدون، إنّه موضوع حساس.

وتابع درسه كما لو أنّ هذه الحادثة لم تحصل. من جهته، لم يعد يعرف فيليب ماذا يفعل، فتجاهل ورفض بشكل صريح أن يدون الملاحظات حول هذه الحضارة المزعومة والمجهولة التي يفترض أنّها وجدت قبل كلّ الحضارات الأخرى.

-29-

استُدعي رينيه توليدانو في استراحة الغداء إلى مكتب مدير المدرسة الأستاذ بينيل.

شاهد على الحائط خلف مكتبه عدّة صور يظهر فيها المدير مصافحاً عدداً من رجال السياسة، بالإضافة إلى العديد من الوزراء الذين تناوبوا على وزارة التربية.

كما كانت هناك صورة أكبر حجماً بقليل من غيرها وتحمل توقيعاً، يظهر فيها المدير مع المغني جوني هاليداي شخصياً.

قدّم له المدير قطعة شوكولا.

- كل النّاس مفتونون بالحضارات الأسطورية المندثرة. وجميع الناس كانوا أطفالاً يحبون الحكايات، ويحلمون بإحياء هذه الأساطير عندما يكبرون. لذلك يصبحون علماء آثار أو مستكشفين أو علماء أنتربولوجيا، ويخرجون إلى الميدان كي يستكشفوا الحقائق. ولكن القليل منهم، هل تسمعني يا سيد توليدانو، قلّة قليلة منهم فقط يكتفون بتخيلاتهم البسيطة. عدد قليل جداً، باستثنائك أنت. ولا يتوقف الأمر على تأكيدك لهذه التخيلات، وإنّما تتبجّح بتعليم «حدسك الشخصي» على أنّه حقيقة تاريخية دون أدنى دليل. إنّ هذا تجرؤ واضح. ولسوء حظك، فإنّ التعليم ليس مكاناً يكافأ فيه الجريء، ناهيك عندما لا تكون هذه الجرأة مرتكزة على أيّ شيء. إنّنا نفضّل هنا نقل المعارف التي تمّ التحقق منها والمقبولة من الجميع، ولا شيء آخر. ومع ذلك، بالحكم على ما حصل هذا الصباح، أرجو أن يكفيك ما جرى.

لم يظهر أستاذ التاريخ أيّ ردّة فعل.

- إنّ هذا لا يمكن أن يحصل هنا في هذه المدرسة التي لها سمعتها العريقة بالجدّية. هل تتخيل ماذا سيقال: «يعلّمونهم في ثانوية جوني- هاليداي أنّ أطلانطس وُجدت بالفعل» ؟

نظر إلى ملاحظاته وتابع المدير:

- يبدو لي أيضاً أنّك لويت معصم أحد التلاميذ؟

- لقد تحدّى سلطتي. إنّه أطول وأقوى مني. فضّلتُ التحرك قبل أن تخرج الأمور عن السيطرة. كنت أريد فقط إرغامه على الجلوس.

- وبعدها لمستَ صدره؟

- وضعت يدي على قلبه.

- لن نتلاعب بالكلمات يا سيد توليدانو. اتضح أنّ هذا التلميذ قد أبلغ والده منذ قليل عن الحادثة، وقد هاتفني والده مشيراً إلى المُشادة التي

جرت، بالإضافة أيضاً للطبيعة «غير السوية» لدروسك. يبدو أنّه بالأمس فقط قدّمت الإغريق على أنّهم مدمرون للحضارات الأكثر تطوراً مثل حضارة الكريتيين أو الطرواديين. هل هذا صحيح؟

- بالفعل.

- ليس هذا هو المقرر. إن التلاميذ هنا كي يحصلوا على الشهادة الثانوية العامة، وليس من أجل أن تُحشى رؤوسهم بنظريات مثيرة للجدل عمّا جرى قبل ألفي عام.

أعطاه المدير قطعة شوكولا مرّة أخرى، ولكنّ رينيه رفضها.

- إن كانت هناك مجموعة من الناس تؤمن بالأكذوبة نفسها، فهذا لا يجعل من الأكذوبة حقيقة.

- أنت ترى في كل الأحوال أنّ ضغط أهالي التلاميذ كافٍ لتغيير المقررات. مع العلم أنّه ليس هناك حالات كهذه حتى هذه اللحظة، ولكن هذا يظهر أنّ الحدود التي تفصل بين الصواب والخطأ ما تزال واضحة، وأنّ أهالي التلاميذ هم قبل أيّ شيء دافعو ضرائب، يعني أنّهم أرباب عملنا. لذا يجب إرضاؤهم وهذا لا يتمّ طبعاً بإخبارهم عن أطلانطس، مخاطرين بذلك بفشل أولادهم في نيل الشهادة الثانوية، ولا يتمّ أيضاً بليّ معصم أحد التلاميذ أو لمس صدره حينما يشكك بنظرياتك الضبابية.

فضّل رينيه الامتناع عن الرد والاكتفاء بهزّ رأسه، لعلمه بأنّ كلّ جملة سيقولها قد تنقلب ضده.

لا تُجبْ، أمسك بهيبوليت المدفون داخلك، دع جيب هو الذي يظهر.

- هيّا، لنكن جدّيين يا توليدانو، لقد طلبتكَ لأنّني أكنّ الاحترام لك من جهة والتقدير من جهة أخرى لذكرى والدك الذي كان، عفواً، ما يزال صديقاً عزيزاً. سيتوجّب عليّ الإبلاغ عن هذا التصرف الفظيع وهذا قد يعرّضك للفصل مؤقتاً عن العمل.

- سوف أتابع دروسي عن أطلانطس بالطريقة التي أظنّها صحيحة.

رفع المدير بينيل حاجبه الأيسر.

– لماذا يهمّك موضوع أطلانطس إلى هذه الدرجة؟
– إنّه مهمّ بالنسبة إليّ.
– ما هي المهنة التي تمارسها في الأساس يا سيد توليدانو؟
– أستاذ تاريخ، لماذا؟
– حسناً، قُم بعملك، هذا كلّ ما نطلبه منك.

–30–

وجد رينيه إيلودي في المطعم المدرسي. انتبه أنّ بقية الأساتذة يراقبونه من بعيد.

– إنّهم جميعاً على علم بما حصل صباح اليوم. أنا آسفة من أجلك. عرفوا بقصة ليّ المعصم ولمس صدر التلميذ وشكاوى التلاميذ الذين يقولون إنّك تدرّسهم الأساطير على أنّها حقائق واقعية... هناك بعض التلاميذ سجّلوا دروسك على هواتفهم الذكية، وقد أصبحت منشورة الآن على الإنترنيت وهذا ما أثار السخرية والكثير من النكات المسيئة.

هزّ رينيه رأسه.

– لقد رأيت بينيل.
– كيف جرى اللقاء؟
– بشكل سيئ.
– ولكن هل جننت حقاً! ما الذي جرى لك كي تلمس تلميذاً؟
– لقد تحدّاني.
– ومع ذلك... لا يمكنك أن تتصرف بهذا الشكل. وما قصة المواضيع التي تقدمها من خارج المقرر! منذ متى ونحن ندرّس أطلانطس في دروس التاريخ؟
– منذ فيثاغورس وأفلاطون. على الرغم وبكلّ صراحة، من أنّ أفلاطون نفسه قد تعرّض للسخرية من قبل الفلاسفة الآخرين المعاصرين له بسبب هذه النظرية.
– لم أكن أعرف هذا التفصيل.

- سخر الناس في جميع أنحاء أثينا من حضارة الحكماء «المزعومة» على جزيرة تقع ما وراء أعمدة هرقل. لقد كان موضع السخرية والتهكمات والتشويه المبالغ به.
- إذاً تعلم جيداً ما ينتظرك يا رينيه. لماذا تستمرّ بهذيانك هذا؟
- اكتشفت بجلسة تنويم مغناطيسية أنّني كنت أطلانطسياً في واحدة من تجسداتي السابقة.
- ماذا؟ هل عدت لمقابلة المنومة المغناطيسية؟ ألم تستمع لما قلته، ما زلت مستمرّاً بجعل هذه المخادعة تتلاعب بك!
- كلّا، لقد قمت بذلك وحدي في جلسة تنويم مغناطيسي ذاتي. لا أحد هذه المرة كان بإمكانه التأثير عليّ خارجياً. وقد كانت الجلسة هذه المرة أيضاً أروع من سابقتها! لقد وجدت نفسي هناك كما أنا هنا الآن بالضبط. والأمر الذي كان مثيراً للدهشة أكثر، هو حالة الاسترخاء التي يعيشها جيب.

أخفضت إيلودي رأسها تعبيراً عن سخطها.

- سوف أشرح لك بطريقة علمية ما الذي عشته. لم يكن هذا سوى حلم. لقد نمت وحلمت، وبعدها أقنعت نفسك بأنّ حلمك كان جلسة تنويم مغناطيسي. وهذا الأمر بحدّ ذاته لا تلام عليه. ولكن من جهة أخرى، إن قمت بخلط كلّ هذا بعملك، فأنت تخاطر بأن تتهم بالمغالاة والتطرف.
- هذا ما قاله لي بينيل تماماً.

نهض رينيه كي يحضر لنفسه طعام الغداء. وأمام وجبات الطعام أكمل حديثه:

- إذاً من أجل إرضاء النظام الذي وضعته غالبية الجهلة، يجب التوقف عن قول الحقائق ونشر الأكاذيب عوضاً عنها؟

أخذت إيميلي لنفسها وجبة الكسكس وقطعة كبيرة من لحم الخروف المشوي، أمّا هو فأخذ طبق العدس مع التوفو[1].

1- جبن نباتي مصنوع من فول الصويا. المترجمة

عادا للجلوس على طاولتهما.

- هل تؤمن حقاً بهذا يا رينيه؟

- الآن نعم. أقسم لكِ بأنّ هذا لا يمكن أن يكون هذياناً أو حلماً. إنّه بالفعل بالغ الدقة. والرجل الذي أتحدث معه يتمتع بشخصية مختلفة عن شخصيتي. إنّه هادئ للغاية بينما أنا قلق جداً. لا يشعر بالضغط ولا بالخوف وليس لديه أدنى شعور بالقلق. ويمكن تلخيص أعظم حكمة لدى الأطلانطسيين بالتالي: «ليس هناك ما يدعو للقلق». وحتى حينما أخبرت جيب أنّه بعد اثني عشر ألف عام، لن يكونوا سوى مجرد أسطورة، أعتقد أنّني تسببت له بأول حالة استياء عاشها في حياته.

نظرت إليه ملياً.

- أنت تقلّل من شأن قدرة التلاعب التي يمتلكها كلّ من يستطيع الوصول إلى لا وعيك ولو مرة واحدة فقط. أنا أعرفك يا رينيه، أنت تحبّ كلّ ما هو مميز ورائع لأنّك ما زلت طفلاً متعطشاً للقصص الجميلة. وهذا بالضبط ما يثير حماسك ولكن ما يجعلك ضعيفاً أيضاً. يمكن لأيّ امرأة التلاعب بك وخصوصاً إن كانت منومة مغناطيسية. وأنا وأنت نتشابه بهذه النقطة يا رينيه. فنحن ننخدع لأنّنا نرغب أن نكون موضع اهتمام لأحدهم. لذا، فإنّ أيّ شخص يقوم بأقلّ عرض مغرٍ لنا، يمكنه الحصول على أيّ شيء منّا. أنا خُدعت من قبل الرجال، وأنت خُدعت من قبل النساء.

- أنا لا أفهم الرابط بين هذه الأشياء.

- إذا لم أكن مخطئة، فكلانا أعزب. لقد سارت قصصنا العاطفية بشكل سيئ. فشركاؤنا أساؤوا كثيراً لبراءتنا...

شرع بتناول طعامه وكان هذا بمنزلة ردّ عمّا قالته. راح يتذكر رينيه شريكاته السابقات، وعليه الاعتراف بأنّه، كما قالت إيلودي، لم يلتقِ بالمرأة المناسبة حتى الآن. وبينما هو يمضغ طعامه بدأت الذكريات تخطر في باله.

لقد كان خجولاً أثناء مراهقته، وكان يعبّر عمّا يرغبه بالتلعثم أو

بالارتعاشات. وحين عاش أول تجربة جنسية له كان في الثالثة والعشرين من عمره.

ومن ثمّ التقى بجوستين. كانت طالبة مثله في قسم التاريخ، وهي جميلة جداً ووقحة أيضاً، كما أنّها مولعة بالملابس المثيرة، وكان جميع الشبان يحاولون استمالتها. وفي أحد الأيام، أثناء إحدى الحفلات الجامعية، وبسبب شربه الكثير من النبيذ، وجد الشجاعة في نفسه للذهاب إليها وتقبيلها.

عوضاً عن إبعاده، حذّرته جوستين قائلة: «أنا مدمّرة للرجال. جميع من سبقك إليّ انتحر أو انتهى الأمر به في أحد المستشفيات العقلية. هل أنت متأكد من أنّ هذا هو ما تريده؟»

فأجابها من باب التبجح والاستعراض: «إنّ إيروس[1] وثاناتوس[2] لا يمكن الفصل بينهما، لأنّهما الشعوران الأكثر قوة؛ غريزة الحياة وغريزة الموت».

قبّلته ملء شفتيها ومن ثمّ قادته إلى الحمام، وهناك اعتلته متخذة زمام المبادرة كلها.

وبدأت العلاقة بينهما. كانت علاقة غريبة، فهي دائماً ما تصل متأخرة إلى الموعد، وأحياناً تعتذر عن المجيء في آخر لحظة، ولكن في المرّات القليلة النادرة التي كانت ترضى فيها أن تقابله، يكون فيها اللقاء أسطورياً.

لقد وقع في عشقها، وكلمة «وقع» مناسبة جداً، لأنّه أدرك لاحقاً أنّ هذه العلاقة هي نوع من التدهور والسقوط. كان شغوفاً بها، مثل شغف ذكر حشرة السرعوف وهو يرى أنثاه تبتلعه شيئاً فشيئاً.

كانت جوستين تحبّ ممارسة الحبّ في الأماكن الأكثر غرابة. فقد اختارت بداية المراحيض والمصاعد والسيارات، ومن ثمّ خزائن الملابس في متاجر الأثاث، والساحات الخلفية للمباني، وفي الغابات، وحتى إنّها

1- إله الحب والرغبة والجنس في الأسطورة اليونانية. المترجمة

2- إله الموت في الأسطورة اليونانية. المترجمة

في إحدى المرات مارست الحبّ معه على سكة قطار قيد الإنشاء في أحد الأرياف.

إيروس وثاناتوس.

كانت أفضل أستاذة تعلّم الجنس. فقد كانت تحبّ لعبة تبادل الأدوار، وتحمل دائماً معها حقيبة مليئة بالألعاب الجنسية، وملابس تنكرية من جميع الأنواع. وكان يتوقع في كلّ مرة يمارس الحب فيها مع جوستين، مفاجأة ما. فقد كانت هي صاحبة المبادرة دائماً. وكثيراً ما شاهد نظرات الغيرة في عيون رفاقه الذين لم يفهموا سبب اختيارها له هو بالتحديد.

علم رينيه فيما بعد أنّها لم تكن تكتفي به فقط، وقد نامت مع رجال آخرين ولكن هذا لم يضايقه.

ومع ذلك فإنّ هذه العلاقة أثّرت على دراسته، فقد فشل في جميع امتحاناته. وكان هذا هو الثمن الذي توجّب عليه دفعه. لأنّه في الواقع كان مهووساً بجوستين، ولا شيء يشغل باله سواها، فهي الموضوع الرئيسي الذي تدور حوله جميع محادثاته.

يستطيع رينيه القول إنّه عرف قصة حبّ عظيمة، باستثناء أنّها لم تكن متبادلة! جوستين كانت تحبّ أن تكون محبوبة، ولكن من الواضح أنّها لم تكن تكِنّ له المشاعر العميقة ذاتها. أرادت أن تعرف فقط إلى أيّ مدى يمكنها أن تجعل الرجل مجنوناً بها، ولكنّها ما إن تحصل على الدليل الذي تريده حتى تضجر منه، مثل الطفل الذي يفقد الاهتمام باللعبة بعد أن يلعب دوره.

لهذا وفي أحد الأيام ودون أيّ سبب، أبلغته أنّها لم تعد ترغب بالاستمرار معه. كان يأمل أن تغير رأيها، ولكن في اليوم التالي ظهرت رسمياً مع طالب آخر من الدفعة نفسها. فشعر حينها بأنّ كلّ شيء ينهار حوله.

وحينما التقت به مصادفة، ورأته شاحباً وعيناه تحدقان بها، اكتفت بكلّ بساطة بالقول له من باب التذكير: «لا تتخذ مظهر المتفاجئ، لقد سبق أن حذرتك منذ البداية».

لقد استغرق رينيه وقتاً طويلاً حتى تعافى منها.

ومن ثمّ التقى بفتاة شابة أخرى أكثر هدوءاً من جوستين، ولكنّه شعر بالملل معها. «عندما نستلذّ بتناول الأطعمة الحارّة فإنّ كل الأطعمة الأخرى تبدو لا نكهة لها». هكذا قال له والده.

أقام بعدها عدّة علاقات متتالية إلى أن التقى بأغريبين. كانت أغريبين تعمل في السينما مصممة جرافيك لمؤثرات خاصة. ولم تكن بالتأكيد مدمّرة مثل جوستين، ولكن كان فيها عيب صغير أنّها تسرف في شرب النبيذ، وكانت تصيبها أحياناً نوبات تفقد فيها السيطرة على نفسها كلياً. أحد الأيام، وفي إحدى نوبات جنونها، قامت بغرز شوكة الطعام في يده. فأفضت هذه الحركة إلى أن يتخذ رينيه قرارين في حياته؛ الأول هو الانفصال عن أغريبين، والثاني هو التخلي عن فكرة الزواج.

لذلك كرس نفسه للتاريخ ووجد في هذا النشاط الذهني الكثير من المشاعر التي كانت بالطبع أقل قوة من تلك التي أثارها اتحاد إيروس مع ثاناتوس، ولكنها كانت كافية لإعطائه انطباعاً بأنّ حياته لها معنى. وأصبح بعد ذلك أستاذ تاريخ في الثانوية واستطاع أن ينقل معارفه إلى التلاميذ. ومن ثمّ التقى بإيلودي وتبيّن له أنّ العلاقة بين الرجل والمرأة لا تنحصر فقط بأن تكون إمّا مملّة أو مثيرة أو غرامية أو صدامية، بل يمكن أن تكون ببساطة تحالفاً مسالماً.

لذا قررا كلاهما أن يكونا شريكين تجمعهما الرغبة بعدم الانجراف وراء وهم العلاقة المثالية. كانا يتقابلان كلّ يوم لتناول الغداء معاً ومرة في الأسبوع لتناول العشاء. نعيش «جميع محاسن أن نكون في علاقة ولكن دون مساوئها»، بحسب إيلودي.

فيما يخصّ الجنس فإنّ رينيه أدرك في النهاية أنّه كلما مارسناه بشكل أقل بدا أنّه غير ضروري. لقد استبدل داخل روحه، الإحساس بالمتعة على المدى القصير بالإحساس بالسعادة على المدى الطويل، فقد أصبح مفهوم المتعة والسعادة بالنسبة إليه يبدوان متناقضين. لهذا استبدل الحبّ بالصداقة.

كانت إيلودي تراقبه بمودّة، كما لو أنّها قرأت أفكاره.

– هل انتهيت من حلمك؟ حسناً، سأتابع. إنّ نصيحتي الأخيرة ألّا تعود لمقابلة هذه المنومة أبداً. إن كانت جميع النساء ساحرات، فإنّ هذه المنومة يبدو أنّها تندرج تحت بند النساء اللواتي يقمن بالسحر الأسود وليس بالسحر الأبيض.

شعر رينيه في هذه اللحظة بهاتفه يهتزّ في جيبه، إنّها رسالة قصيرة.

رينيه،

أشكرك على رسالتك التي فاجأني محتواها كما أسعدني في آن معاً. أطلانطس! بالطبع. لقد وجدت قبل اثني عشر ألف عام... أنت تبهرني. أرغب برؤيتك الساعة الرابعة عصراً في 19 جادة فيكتوريا، 75001، بالقرب من ساحة شاتليه؟

أوبال

-31-

كان الشعار على واجهة المحل يمثل أخطبوطاً عملاقاً بعين واحدة قد دمّر مباني وهو يلوّح بكأس كوكتيل.

يدعى البار الذي اقترحت أوبال أن يلتقيا فيه، «البار الأخير قبل نهاية العالم». إنّه معقل لغريبي الأطوار، وعشاق الخيال العلمي، ومحبي لعب الأدوار وغيرهم من الشباب الباريسي.

إنّ تصميمه مستوحى من عالم الأفلام أمثال: حرب النجوم، وستار تريك، وماتريكس، وبليد رنر، وسيد الخواتم، وصراع العروش. يقوم نُدُل البار المقنعون بتقديم المشروبات الدخانية بألوان ضوئية خضراء وزرقاء وبرتقالية.

لم يأت رينيه سابقاً إلى هذا المكان قط، وقد تساءل في نفسه؛ ألا يعتبر مجرد تحديد موعد في مكان غريب إلى هذه الدرجة، أمراً مشبوهاً بحدّ ذاته؟

جلس على طاولة فوق منصة مزينة بصورة لكاتب خيال الرعب هوارد فيليبس لافكرافت بالإضافة إلى صورة تمثل زهرة معبد المايا. كما كان

في الصالة عدة زبائن متنكرين ومنهمكين في لعبة طاولة من نوع دانجنز ودراغنز.

يُعرض على الشاشة فيلم كوارث تتعرض فيه مدينة بأكملها للتدمير بسبب كويكب.

– شكراً لقدومك، جاءه الصوت من خلفه.

استدار فعرف المرأة الشابة بشعرها الأحمر الطويل وعينيها الخضراوين الواسعتين. جلست قبالته.

راقبها هذه المرة بانتباه أكثر، ووجدها مبهرة. بادرت بالحديث قائلة:

– إنّ رسالتك القصيرة قد فاجأتني بالفعل، اعترفت أوبال بذلك. هل تستطيع أن تخبرني بالتفصيل عن جلستك في التنويم المغناطيسي الذاتي؟

روى لها بأكبر قدر ممكن من التفصيل عن أول جلسة قام بها بمفرده. استمعت إليه أوبال وكانت تنظر إليه بوجه ودود أكثر من المرات السابقة.

– كم أغبطك. إذاً أنت «زبون راضٍ». سأكون صادقة معك وأقول: عندما كتبت لي في رسالتك كلمة «أطلانطس» جعلتني أرتعش. أعتقد أنّني أنا أيضاً كنت أطلانطسية.

لفظت هذه الجملة بنفس النبرة الرقيقة التي كانت ستستخدمها لتقول له مثلاً «وأنا أيضاً عسراء» أو «أنا أيضاً أحبّ طعام السوشي».

– وكيف تفاعل معك الناس عندما قلت لهم هذا؟

– لطالما كنت مفتونة بهذا الموضوع. أحياناً، حينما أسرح في خيالي، كنت أرى وجوهاً وأحداثاً في أماكن يمكن أن تكون لهؤلاء الذين أتخيل وجودهم هناك.

بدت مبتهجة فجأة.

– أريد منك أن تساعدني كما ساعدتك. أريد منك أن ترشدني للذهاب إلى هناك حيث ذهبت أنت.

اقترب نادل متنكر بزيّ دارك فادور ليأخذ الطلبية. تفحصت أوبال القائمة

سريعاً وطلبت كوكتيل بان جالاكتيك جارجل بلاستر (يتكون من الفودكا والجِن وشراب الفستق والسبرايت والسكاكر)، ونصحته أن يأخذ شراب المارتيني (يتكون من الجن وشراب البطيخ وعصير الليتشي والتفاح والخيار والحبق).

- لقد تعرّفتَ عليّ في ظروف خاصة نوعاً ما، ولكنّني لست منومة مغناطيسية فقط، بل أنا أيضاً، بطريقتي الخاصة، شخص علميّ. وبالنسبة لي فإنّ العلماء يكونون في طليعة المستكشفين. نحن هنا لتوسيع حدود المعروف. أريد معرفة ما يجهله بقية الناس حتى الآن.

تابعت حديثها وهي تشير إلى الزبائن الذين يلعبون.

- أعتقد أنّنا جميعنا نمتلك الكثير من الملكات الخاصة. نحن جميعنا موهوبون في أشياء محددة وفاشلون في أشياء أخرى. هذا يشبه تقريباً لعبة تبادل الأدوار، فقد سبق أن اخترنا مواهبنا ومعوقاتنا قبل أن نولد عن طريق زهر النرد.

أحضر لهما النادل كأساً مع مزيج أحمر يخرج منه الدخان وكأساً أخرى صفراء متوهجة. أظهر رينيه ارتيابه أمام المظهر الغريب للمشروب.

- شكراً يا جيمس. قالت المرأة.

اقتربت المرأة منه وقالت:

- إذاً، هل تقبل بأن تدلني على كيفية القيام بجلسة تنويم مغناطيسية ذاتية؟

- لا تقولي لي أيضاً إنّك لم تمارسيه بنفسك قط.

- لم أستطع أن أصل إلى أعماقي قط. إنّني أقدّم للآخرين ما أرغب أن أقدّمه لنفسي.

- منوّمة مغناطيسية مختصة بالتنويم المغناطيسي التراجعي لم تستكشف هي نفسها حيواتها السابقة، ما هذا التناقض!

- إنّها حياتي، وهذه ليست سوى مفارقة من بين المفارقات التي عانى منها آخرون غيري؛ فبيتهوفين كان أصم، ونيتشه مجنوناً، والرسام مونيه كان أعمى في أواخر حياته، والمغنية كالاس أصيبت بمرض في

حنجرتها، وبائع اللحوم في حيّ نباتيّ، وطبيبي مريض طوال الوقت. كما يقول المثل، «الإسكافي حاف والحائك عريان».

بدأ يشعر بالاسترخاء.

- حسناً ولكن قبل الذهاب بعيداً، أريد معرفة من أنتِ بالضبط يا سيدتي المنومة المغناطيسية. فبعد كلّ ما جرى، أصبحت تعرفين الكثير من الأشياء عني وأنا لا أعرف تقريباً أيّ شيء عنك.

- لم أخفِ عنك أيّ شيء.

- نعم، ولكن لم تخبريني قصتك.

- ماذا تريد أن تعرف؟

- أنتِ منوّمة مغناطيسية وتريدين أن تخضعي للتنويم المغناطيسي، وأنا أستاذ تاريخ ولهذا أريد معرفة تاريخك.

- تاريخي؟

- نحن جميعنا سجناء للأسطورة التي نرويها عن أنفسنا. أريد أن أعرف ما هي أسطورتك الخاصة.

- هكذا؟ بشكل مباشر؟

بدت شاردة الذهن بعض الشيء فوجد رينيه أنّ مظهرها ساحر، وفهم أنّها مثل جميع الناس تحبّ فكرة سرد قصة حياتها، فهذا يمنحها إحساساً بالوجود.

ذاق الأستاذ مشروبه الكحولي فوجده غريباً، ومن ثم راح يستمع لقصة حياة المرأة الشابة.

-32-

كان والد أوبال إيتشيجويان ساحراً في أحد الملاهي. ومنذ أن كانت طفلة صغيرة، كان والدها يذهلها بعروض الخفة التي يتقنها جيداً، فقد كان يُخرج لها من أكمامه زهوراً وبطاقات أو مناديل، ويخرج من فمه كرات لعبة الطاولة، ومن قبعته الأرانب. كانت الطفلة الصغيرة تصفق وتضحك في كلّ مرة وهي منبهرة تماماً.

علّمها والدها أنّ عروض السحر تقوم على النحو التالي؛ يجب بداية خلق حالة من التشويق لدى الجمهور، والإبقاء عليهم في حالة من التوتر، وما إن يصل التوتر إلى أوجه حتى نفاجئهم بشيء غير متوقع.

شرح لها بأنّ كل عرض سحري ينطوي على سرّ وعندما نعرف هذا السرّ، نشعر بأنّنا نملك كنزاً لا يعرفه الآخرون.

علّمها في البداية بعض العروض البسيطة كي تثير إعجاب زملائها في الصف. بدأت بعرض الإبهام المطوي الذي يوحي بأنّ الإصبع مبتورة، ومن ثمّ الملعقة المتوازنة على طرف الأنف، وبعدها كرات المعجون الحمراء تحت الكؤوس البلاستيكية. ومن ثمّ تبع ذلك حيل البطاقات. وقد فهمت سريعاً أنّ عليها التمرين المستمر، بالإضافة لاختيار الخدع المفضلة لها والعمل عليها بكلّ دقة كي تتقن السحر.

وبطبيعة الحال، انتهى بها المطاف على خشبة المسرح للمشاركة في أحد عروض والدها. أخذت دور الفتاة التي يتمّ تقطيعها بالسيف داخل الصندوق. وتتذكر جيداً الشعور العارم الذي تملّكها حينما صفّق لها الجمهور أول مرة وهي مرتدية ثيابها البراقة وتضع يدها في يد والدها الذي كان فخوراً بها.

أمّا أمّها فهي عالمة نفس، وإن كان والدها قد علّمها السحر فإنّ أمّها علّمتها أنّ السحر ليس سوى نشاط ترفيهي، وأنّه يتوجب عليها إيجاد مهنة جدية كي تكسب عيشها.

لذا اتبعت أوبال منهج والدتها. فقامت بدراسة الطب وعلم النفس في آنٍ معاً، ومن ثمّ أرادت أن تصبح محللة نفسية. وبالفعل قامت بفتح عيادة خاصة، ولكنّ ممارسة التحليل النفسيّ أحبطها. فقد كان يتضمن سماع المرضى وهم يروون مآسيهم اليومية البسيطة، الحقيقية منها والمتخيّلة. بدت لها هذه المهنة أنّها ليست مختلفة كثيراً عن عمل الكهنة الذين يستمعون لاعترافات الناس كي يستخلصوا في النهاية أنّ الصلاة سوف تصلح لهم كلّ شيء، كما أنّها لا تختلف أيضاً حتى عن عمل مصففي الشعر الذين هم بدورهم يحقّ لهم التدخل في الحياة الشخصية لزبائنهم الذين يغسلون لهم فروة رؤوسهم بالشامبو.

كان المرضى يأتونها كي يتحدثوا، ولا يريدون من أحد أن يحاسبهم أو يعظهم بشيء. ومع ذلك، فحتى حينما كانت تشرح لهم أخطاءهم وتعطيهم النصائح كي لا يقعوا مجدداً في المشاكل ذاتها، فإنّ القليل منهم كانوا يبدون استعداداً لتغيير سلوكهم فعلياً.

علّمها التحليل النفسيّ أنّ جميع الناس لديهم جروح مدفونة في دواخلهم، وإن لم تُداوَ هذه الجروح فلن يتمكنوا من البناء على أساس صلب. وبحسب قولها فإنّ التحليل النفسي يحفز إخراج هذه الجروح ولكنّه لا يقدم حلولاً واقعية لها.

شعرت أوبال بالإحباط نظراً لسطحية عملها. فوجدت نفسها أخيراً تطبق منهج إميل كويه[1] («إن كنت تدفع النقود وتأتي بانتظام لمدة عشر سنوات، سوف تُشفى»)، فقد كان الأكثر فعالية.

فلم تجدِ جلساتها نفعاً سوى أنّها تغطي التكاليف الشهرية لإيجارها.

وقد بحثت عن سبب عجزها وانتهت باستنتاج أنّ مرضاها ذكروا جروحاتهم السطحية وليس جروحاتهم الحقيقية والعميقة. وإن لم نتمكن من علاج هذه الجروح العميقة في البداية، فلن نتمكن من علاج الجروح الثانوية. لذا كان يجب عليها الرجوع إلى أبعد نقطة ممكنة في النفس الإنسانية.

استكشفت أوبال إذاً الماضي البعيد جداً في الطفولة المبكرة، رجوعاً إلى فترة الحمل، وحتى إلى المرحلة الأولى لتشكل الجنين.

فهمت في النهاية أنّه يجب عليها الرجوع إلى أبعد من هذا أيضاً، فجاءها هذا الحدس؛ ولماذا لا تعود إلى فترة ما قبل الحمل؟ بحسب أوبال، فإنّ مصدر المشاكل والعوائق النفسية الحقيقية يأتي منذ تكوين الروح. والتنويم المغناطيسي فقط هو الذي يملك هذه القدرة على عبور حدود اللاوعي.

ولهذا تخلّت عن مسيرتها المهنية في التحليل النفسيّ واتبعت دورة في التنويم المغناطيسي. ففي النهاية، حتى سيغموند فرويد نفسه قد بدأ

1- صيدلاني وعالم نفس فرنسي، ابتكر ما يسمى بطريقة كويه في الإيحاء الذاتي التي أصبحت مشهورة في جميع أنحاء العالم. المترجمة

حياته المهنية كتلميذ عند الأستاذ شاركوت، ومارس الفن النبيل للتنويم المغناطيسي قبل أن يتخلى عنه.

واكتشفت أوبال أنّ هناك نوعين من التنويم المغناطيسي. التنويم المغناطيسي العلاجي (الموجّه على الخصوص لعلاج حالات إدمان التبغ ومشاكل الأرق والفوبيا)، وهناك التنويم المغناطيسي المسرحي الذي هدفه الوحيد تسلية الجمهور.

قامت بدراسة النوعين بالتوازي. فالتنويم المغناطيسي العلاجي درسته كي تكون على دراية بآليات عمل الدماغ، والنوع الثاني كي تجرب العرض المباشر. وقد مارست النوع الأول في المشافي، حيث يُقترح على بعض المرضى أن يتمّ تنويمُهم مغناطيسياً كي يتفادوا تعريضهم للتخدير. وقد أتقنت النوع الثاني بحضور عروض تنويم مغناطيسي في الملاهي. وقد عرضت نفسها تلقائياً كمتطوعة للاختبار كي ترى من الداخل كيف تجري الأمور.

أدركت بهذا أنّ الطريقة البسيطة للوصول إلى الدماغ هو مبدأ 3+1. بأن نجعل الشخص يقبل ثلاثة اقتراحات مزعجة قليلاً، وهذا ما يدفع الشخص بشكل طبيعي إلى قبول الاقتراح الرابع تلقائياً. مثلاً، أنت قبلت اقتراحات بسيطة مثل «أغمض عينيك»، «تنفس ببطء»، «حاول الاسترخاء»، سيكون باستطاعتك إذاً قبول الاقتراح الرابع الأكثر صعوبة مثل «لم يعد لديك رغبة بالتدخين». سيرغب الشخص بقبول هذا المطلب لأنّه سبق أن قبل المطالب الثلاثة السابقة. ومن ثمّ تأتي الصعوبة في إدخال الاقتراح في الوقت المناسب. يمكن تحقيق ذلك بجعل المريض يشاهد صوراً تحوي شحنة عاطفية عالية مثل رؤية الرئتين وقد تحولتا إلى منفضة سجائر.

ومع ذلك فقد خيّب التنويم المغناطيسي العلاجي أملها. كما توقع فرويد، فإنّه لا ينجح بالفعل إلّا على 20% من المرضى الذين يعتبرون أصلاً «قابلي التأثير»، وهذا كلّ ما في الأمر. كما خيّب أملها أكثر التنويم المغناطيسي المسرحي. فقد كان هناك الكثير من المنومين الذين لا يرغبون بالمخاطرة لذا استخدموا ألاعيب الخفّة، وبعضهم الآخر لجأ إلى تدريب

أشخاص متواطئين يقدمون أنفسهم على أنّهم أناس عاديون وقع الاختيار عليهم مصادفة من بين الجمهور.

حينما تناقشت مع والدها بهذا الخصوص احتجّ بأنّ المنومين لا يمكنهم المخاطرة باحتمال الإخفاق أمام الجمهور، لذا فإنّهم يغشون ليتجنبوا أن يكونوا محطّ السخرية.

في نهاية تلك المناقشة مع والدها، عرضت عليه فكرتها بتقديم برنامجها الخاص عن التنويم المغناطيسي «الصادق مائة بالمائة». فكان هو من وجد سفينة المسرح وساعدها بإنشاء الديكور وببداية انطلاقتها في الإخراج المسرحي. ولكن بعد عدّة تحضيرات ومحاولات قال لها: «يجب على كلّ فنان إيجاد عرض خاص به يكون بمنزلة العلامة التجارية له. عليكِ أن تجدي تجربة تنويم مغناطيسي لم يمارسها أحد من قبلكِ، أظهِري مهارتك». ومن هنا خطرت ببالها فكرة التنويم المغناطيسي التراجعي في الحيوات السابقة. كانت تؤمن بذلك كثيراً وقالت في نفسها إنّه بتطبيقها على الآخرين سينتهي بها المطاف بالتمكّن من هذه التقنية.

ومن ثمّ وقعت حادثة «هيبوليت بيليسيه في معركة شومان دي دام».

-33-

بدأت أصوات الموسيقى في «البار الأخير قبل نهاية العالم»، تتصاعد تدريجياً فصار الجميع يتكلمون، بشكل آلي بصوت أعلى.

يبدو أنّ العيون الخضراء الواسعة تجرّ رينيه نحوها.

لم أنظر إليها جيداً. حتى إنّني لم ألاحظها حقاً. أمرّ بجانب الناس دون أن أتمعّن فيهم، دون أن أحاول فهمهم.

هذا بالفعل مربك. حياة أخرى غير حياتي، وأيّة حياة!

لفّت برشاقة شعرها الطويل، ولأول مرة، شمّ رائحة عطرها.

أوبال إيتشيجويان، ماذا أتيت لتفعلي في دروب حياتي؟ فتحتِ باباً في روحي كنت أجهل حتى وجوده. والآن تطلبين مني فتح بابك المقفل...

هذه الأيام الأخيرة جعلتني أكتشف بشكل أفضل من أكون حقاً، وأفهم الآن أنه ربما عليّ التساؤل من يكون هؤلاء الآخرون. كلّ هؤلاء الناس الذين ظهروا في حياتي، والذين جاؤوا كي يطوروني والذين أستطيع بدوري أن أطورهم أيضاً.

شربت الكوكتيل برشفات صغيرة. وعادت لتتكلم بحماس.

- ردّة فعلك أدهشتني بشدة. وجعلتني أفهم أنني ذهبت في تجربتي تلك بعيداً جداً وبسرعة هائلة، حيث إنني لم أكن مستعدة كفاية للتصرف في حال وقوع حادثة ما. حينما عدتَ في اليوم التالي شعرت بالذعر. وعندما تبعتني من أمام المسرح، اعتقدت أنك تريد الانتقام. وبعدها جاءت سلسلة جلسات التنويم المغناطيسي التراجعي... وحينها تحولت مشاعري نحوك من عدم الثقة إلى الغيرة.

نظر إليها رينيه بشكل مختلف.

- بفضلكَ استطعت حقاً أن أكوّن فكرة عن كلّ الاحتمالات التي يمكن أن تصادفنا في الدخول إلى ذاكرتنا في الحيوات السابقة. وبرأيي الشخصي أنّ هذه الطريقة أكثر ملاءمة من التحليل النفسي في إيجاد حلّ للصدمات النفسية، لأنّها لا تقتصر فقط على ذاكرة الطفولة، بل تصل أيضاً إلى ذاكرة جميع الحيوات السابقة.

إنّها تعجبني، ولكنّها لن تهتم مطلقاً بشخص مثلي. فأنا مجرد موظف حكومي صغير في وزارة التربية.

أنا قاتل، وليس أكثر.

- إنّنا جميعنا نحمل في ذاكرة حيواتنا السابقة قصص حبّ، وجرائم، ومِحن مريعة، ولحظات بطولية تؤثر جميعها على حياتنا الراهنة. مثل ضجيج يأتي من بعيد، أو موسيقى غير ملحوظة.

- إنّ تذكر كلّ هذه الأشياء بوضوح ربما يكون صادماً ومؤلماً، صدقيني.

- ولكنّ هذا قد يكون غنياً جداً أيضاً. أنا لم أصل إلى هذه المرحلة من قبل، ولكن ربما أستطيع الوصول إليها معك. بما أنّك بدأت بامتلاك خبرة كبيرة بهذا الشأن، أعتقد أنّه بإمكانك أن ترشدني أنت بدورك.

فلا شيء أجمل من تعلّم الغوص مع هؤلاء الذين سبق أن غاصوا في الأعماق.

تمعّن أستاذ التاريخ بالمرأة الشابة، وتفحّص حولهما ومن ثمّ قال:

- لماذا سأساعدك؟

- لشكري، ألم أجعلك تستكشف حيواتك السابقة؟

- وإن قلت لك إنني لا أصدقك؟ وإنّني أظنّك قمتِ بالتلاعب بي؟

- في هذه الحالة لماذا أطلب منك الآن أن تخضعني للتجربة نفسها التي أخضعتُك إليها؟ أنا لست مازوشية إلى هذه الدرجة.

راح يفكر.

- كوني صادقة، هل تلاعبتِ بعقول الناس؟

- نعم.

- وتلاعبتِ بي أيضاً؟

- ليس تماماً.

- تعترفين بأنك تلاعبت بي!

- أستطيع ذلك، ولكن في حالتك أنت، أقسم لك بأنّني لم أتلاعب قط. لقد سار ذلك بالفعل بشكل جيد.

- رائع، أرني كيف تتلاعبين بعقول الناس إذاً.

أبدت دهشتها.

- أنا لا أفهم طلبك.

- قومي بعرض سحري كي أستطيع تحديد الاختلاف بين ما عشته وبين التلاعب العقلي البسيط.

- حسناً، إذا كنت قد فهمت عليك جيداً، فأنت تريد أن أتلاعب بك كي تستطيع أن تمتلك دليلاً أنّني لم أتلاعب بك، أليس صحيحاً؟

- أريد أن أراكِ وأنتِ تغشين حتى أتمكن من المقارنة وأطمئنّ إلى أنّك لا تغشين.

رفعت كتفيها ومن ثمّ فتشت في حقيبتها.

- جيد جداً بما أنّك ترغب في ذلك، سأقوم بخدعة سحرية بسيطة علّمني

إياها والدي. ستوضح لك اللعبة كيف يمكن التأثير على العقل بسرعة وسهولة. هذا ما ترغب به أليس صحيحاً؟

أخرجت لعبة ورق ووضعتها بمستوى عينيها.

- سوف أقوم بتمرير الأوراق بسرعة وعليك أن تختار واحدة دون أن تخبرني بها.

أمسكت مجموعة الأوراق بيدها اليمنى، واستخدمت إبهام يدها اليسرى لطي الأوراق ومن ثمّ جعلتها تتتابع بعضها وراء بعض. وخلال ثلاث ثوانٍ، مرّت اثنتان وخمسون ورقة أمام عينيه.

- هل اخترت ورقة؟

- نعم.

أغلقت عينيها.

- لا تقل لي شيئاً، أظنّ أنني أستطيع أن أحزر أيّة ورقة اخترتَ.

نظرت إلى عينيه مباشرة، ومن ثمّ قالت:

- أولاً أستطيع أن أقول لك بأنّها حمراء.

- إنّه احتمال من اثنين، ولكنّها بالفعل حمراء.

- لها علاقة بالمشاعر. إنّها قلب.

- احتمال من أربعة، ولكن في الواقع إنّها بالفعل من الأوراق الحمراء.

- إنّها ليست رقماً، بل صورة.

- جيد.

كلا، هذا غير ممكن، لن تتمكن في النهاية من إيجادها.

- أنا أرى امرأة مع تاج. إنها بنت الكُبّة.

اللعنة.

- نعم، ولكن كيف فعلت هذا؟

- إنّها خدعة سحرية بسيطة.

- اشرحيها لي.

- إذا شرحتها لك، هل تقبل بأن تقودني في جلسة تنويم مغناطيسي تراجعي إلى حيواتي السابقة؟

أنهى مشروبه الذي لم يجده في النهاية سيئاً إلى هذه الدرجة، ومن ثمّ وضع الكأس.

- نعم أقبل.

- في الواقع، لقد دخلت إلى لاوعيك وسجلت فيه هذه الورقة بالتحديد. أنت ظننت أنّك اخترتها بملء إرادتك، ولكنّك في الواقع لم تخترها. هذا ما نسميه في السحر «خياراً قسرياً».

- كيف تستطيعين إرغامي على اختيار ورقة معينة في حين أنّك كنت تمررين أمام عيني في بضع ثوانٍ اثنتين وخمسين ورقة مختلفة؟

- إنّه مبدأ «تثبيت شبكية العين»، الذي هو في الأساس مستوحى من السينما. إنّ دماغنا يشاهد أربعاً وعشرين صورة في الثانية على الأكثر. إن تجاوز هذا العدد إلى خمس وعشرين فإنّ لاوعينا سيراها، وليس وعينا. وفي لعبة الأوراق ذات الاثنتين والخمسين ورقة التي مرّرتها أمام عينيك، كان هناك في الواقع ثلاث بنات كُبّة. وقد خلقت ما يشبه الفيلم القصير من خلال تمرير الصور بشكل متتالٍ بواسطة إبهام إصبعي. وبما أنّك شاهدت ثلاث مرات الصورة ذاتها (صورة بنت الكبّة)، فقد ترسخت هذه الصورة أكثر بقليل من غيرها في شبكية عينيك. لذلك اعتقد لاوعيك أنّه اختارها بحرية. ولكن أنا من سبق أن حدّد ما الذي ستختاره حتى قبل أن تبدأ الخدعة السحرية.

نظر رينيه إلى لعبة الورق ولاحظ أنّه بالفعل هناك ثلاث بنات كُبّة.

- إذاً لديك هذه القدرة. تستطيعين تحديد ماذا سأختار من أوراق اللعب، وأنا الذي كنت أظنّ أنّ هذا القرار نابع مني؟

- أتمنى أن تفهم جيداً أنّني حين شرحت لك هذه الخدعة، فمن أجل غاية واحدة هي أن أثبت لك أنّني أستطيع الغشّ؛ ولكن في حالتك أنت، لم أقم بذلك قط.

ظلّ رينيه مرتاباً، لذا بحثَت عن حجة قادرة على إقناعه.

- ومن ثمّ فأنت نجحت بالقيام بجلسة تنويم مغناطيسي ذاتي تراجعي. وبالتالي لم يستطع أيّ أحد أن يضع في رأسك صوراً أخرى غير تلك

التي جاءت من داخلك.

- ربما تكونين قد هيأتني كي أؤثر على نفسي بشكل ذاتي.

استنكرت قائلة.

- أعترف أنّني عرّضت نفسي للخطر حين قدّمت لك هذه الخدعة، ولكن فعلت هذا بالضبط كي أثبت لك أنّني لا أغشّ. أعرف كيف أؤثر، ولكن لا أقوم بذلك. أقسم لك أنّه في حالتك قد نجح الأمر بالفعل! اللعنة، أنا أؤمن بما قلته عن أطلانطس يا رينيه! وإلّا لما كنت هنا اليوم.

ارتفع صوت الموسيقى في الخلفية أكثر، وراحت بالمقابل تتصادم في روح رينيه الكثير من المشاعر؛ الانجذاب نحو هذه المرأة الجميلة حقاً، والشعور بالذنب لموت هذا السكينهيد، وخوف الذهاب إلى السجن، والدهشة المرتبطة باكتشاف جيب، والضجر من حياته كأستاذ في الثانوية، والرغبة في العودة إلى أطلانطس.

- ومتى ترغبين بإجراء جلسة التنويم المغناطيسي التراجعي؟

أزهر وجهها بابتسامة مبتهجة.

- بعد ظهر الغد عند الساعة السادسة مساء في منزلي. هل يناسبك ذلك؟ يقع منزلي في 7 شارع أورفيفرس. ورمز الدخول إلى البناية هو 1936، إنّه سهل الحفظ فهو تاريخ سنة الإعلان عن الإجازات المدفوعة. شقتي في الطابق الثالث على اليمين. لا يمكن أن تتخيل كم أتطلع لمشاركتك هذه المعرفة! اجتياز جدار الوعي كي نوغل في ذكريات حيواتنا السابقة الأشد عمقاً، إنّها التجربة الأكثر إثارة التي يمكن أن أتخيلها.

قبل أن يقوم بتغيير رأيه، نهضت والتقطت سترتها وعبرت عتبة «البار الأخير قبل نهاية العالم».

استحوذ على رينيه شعور غريب.

إن ساعدتها على فتح باب حيواتها السابقة، هل ستجد هي الأخرى في داخلها امرأة مجرمة ستعطيها الرغبة في القتل بدورها؟

استمتع بهذا الاحتمال.

في هذه الحالة سنصبح «متواطئين»... وسيخفّ شعوري بالوحدة.

-34-

تشير الساعة أخيراً إلى الوقت السحري 23:23. إنّها لحظة إغلاق الستائر عن هذا العالم للولوج إلى العالم الآخر.

بدت له الدرجات العشر لسلّمه الداخلي مألوفة جداً له أكثر من درجات سلّم مبناه.

وجد باب اللاوعي شبه مفتوح. أشعره الممرّ ذو المائة والأحد عشر باباً بالارتياح. فكّر بطبيعة الحال، فتح أحد هذه الأبواب لا على التعيين، فقط بدافع الفضول. ولكنّه يعلم أنّه يخاطر بإيجاد نفسه في إحدى الحيوات التي يمكن أن تتسبّب بصدمة مؤلمة له، في حين أنّه الآن في خضمّ اكتشاف حياته الأكثر متعة والأكثر غموضاً أيضاً. أطلانطس، كيف يمكننا زيارة مكان أكثر إثارة منه؟

وصل رينيه إلى شاطئ شجر جوز الهند. كان الطقس قد أصبح معتدلاً، ولكنّه لم يلحظ وجود أحد. لا يظهر له سوى الدلافين التي تبدو كأنّها تسخر منه وهي تطلق صرخات صغيرة حينما تقفز فوق الماء.

جيب ليس هنا. قد يكون هذا الأطلانطسي قد صُدم وتضايق لأنّني تجرأت وقلت له إنّ حضارتهم سوف تندثر.

هل سيأتي؟

انتظر صابراً ما بدا له أنّها ساعة تقريباً. ومن ثمّ شعر بالإحباط، فاتجه نحو الباب الموجود على الشاطئ. بينما كان يمسك قبضة الباب، ناداه صوت.

- انتظر!

استدار.

- صباح الخير يا جيب، أنا سعيد برؤيتك. كنت خائفاً أن تكون غاضباً وألّا تأتي إلى موعدنا الاعتيادي.

كان وجه جيب ما زال متجهماً.

- اتبعني، سأجعلك تزور ما تعتقد بأنها أسطورة.

سار رينيه إذاً وراء الرجل الذي كان عليه قبل اثني عشر ألف عام.

وصلا في آخر الطريق إلى غابة كثيفة. بعد تجاوز أشجار جوز الهند على الشاطئ، بدت جميع أشجار الغابة غريبة على رينيه. فأوراق الأشجار ولحاؤها وجذوعها لا تشبه أيّ شجرة سبق أن شاهدها.

وصل الرجلان إلى درب أوسع يفضي إلى قمة التلة. ومنها، تمكن أخيراً من رؤية «عالم» جيب. بقي للحظات مذهولاً بهذا المشهد. فقد اجتاحته عاطفة جامحة، كأنّه إحساس «بالديجا فو[1]» يخالطه شعور بالافتتان.

في البداية، نرى في الخلفية بركاناً شبيهاً إلى حدّ كبير بقمة جبل فوجي في اليابان، باستثناء أنّ قمة البركان الثلجية تنفث دخاناً لؤلؤياً متموجاً.

تتدفق من أعلى المنحدر عين ماء تتحوّل إلى جدول ومن ثمّ إلى سيل وبعدها تصبح نهراً، لتشكل بعدها بحيرة فيروزية أنشئت على ضفافها قرية صغيرة تقع على سفح التل. ليتابع النهر بعدها تموّجه حتى يصل إلى عاصمة أطلانطس.

إذاً هذه هي، ميم- سيت...

إنّ المشهد يتجاوز في الواقع كلّ ما يمكن لرينيه تخيله حتى الآن.

ميم- سيت...

كانت المدينة تتلألأ تحت أشعة شمس الصباح. والكلمة الأولى التي خطرت في باله لوصف ما يشعر به هي «الروعة». لم يرَ في حياته مدينة ممتزجة بالطبيعة المحيطة بها إلى هذا القدر. إنّها مدينة الزهور.

كما أنّ موقع مدينة ميم- سيت في وسط الغابة الكثيفة يجعلها تبدو كزهرة عبّاد شمس كبيرة ببتلات برّاقة.

وعلى عكس المدن القديمة، فهي خالية من أسوار الحماية الخارجية والحقول المزروعة والمراعي، ولكن إن دقّقنا النظر أكثر، نميز وجود بقع تتكون من بحيرات صغيرة جداً.

1- Déjà-vu ديجا فو، كلمة فرنسية تعني «سبق رؤيته»، وهي الإحساس بالألفة مع شيء يفترض أنه ليس مألوفاً. المترجمة

والكلمة الثانية التي خطرت في باله أمام هذه المشاهد هي «الانسجام».

في وسط المدينة الدائريّ ساحة واسعة في منتصفها هرم أزرق. ويتفرع عنه ستة طرق عريضة. كما أنّ ارتفاع المنازل لا يتجاوز الطابقين وجميعها لها شرفات واسعة.

سار رينيه وجيب على طول الطريق ومن ثمّ هبطا التلة التي تطلّ على المدينة ببطء.

ومع اقتراب الرجلين شيئاً فشيئاً من المدينة، أخذت تفاصيلها تبدو أكثر وضوحاً، فواجهات المنازل مغطاة بالنباتات، والشرفات مفعمة بالزهور والأشجار المثمرة التي تجذب جميعها أسراباً من الفراشات والعصافير المتعددة الألوان، وهذه أيضاً مختلفة جداً عن كلّ ما كان يعرفه رينيه.

ليس في داخل المدينة نفسها أيّ حصان أو مركبة أو عربة أو حمار أو حتى كلب.

وعلى ناصية كل طريق من الطرقات الستة جدول يغذّي البيوت ويعمل أيضاً كنظام للتخلص من الفضلات.

كما أنّ ضفاف الجداول محاطة بأشجار مُعمّرة، أغصانها مائلة شبيهة بأشجار الزيتون، بيد أنّ هذه الأشجار تعطي فاكهة حمراء.

كان السكان يتنزهون بكلّ تؤدة دون استعجال. ويتوقفون أحياناً ليتجاذبوا أطراف الحديث بمودة فيما بينهم. تفاجأ رينيه لعدم رؤيته أطفالاً أو نساء حوامل. وقد لاحظ أنّ جميع الرجال والنساء يرتدون ملابس لونها بيج بنفس لون ملابس جيب، مع حلي لونها في الغالب لازوردي. وقد سرّحت النسوة شعورهن بضفائر مجدولة ذات أطراف ملونة باللون الأزرق، والعديد منهنّ يرتدين مشدات على صدورهنّ حيث تظهر أثداؤهنّ منها بالكامل تقريباً، ما يشبه بعض الشيء نمط النقوش الحجرية الكريتية.

ما أثار دهشة رينيه هي حالة الصفاء العميقة التي تغمر هؤلاء السكان. فلا أحد يزاحم الآخر، ولا أحد يستعجل، ولا أحد يركض، جميعهم يبدون ودودين بعضهم تجاه بعض. قام الكثير منهم بإلقاء التحية على جيب مبتسمين، وكان هذا الأخير يردّ عليهم بإشارة ودية من يده.

– هل يشاهدونني؟ سأل أستاذ التاريخ.
– لا أحد غيري يدرك وجودك. وأنا بدوري «آسف لهذا»، فلن يكون بإمكانك أن تخاطب أيّ رجل أطلانطسيّ غيري.
– ما الفائدة من الهرم الأزرق القائم في وسط مدينتكم؟
– يساعدنا في السفر النجمي إلى مسافات بعيدة. هنا سأقوم عمّا قريب بملاحظاتي الفلكية؛ بأن أستخدم جسدي الأثيري كي أطوف في الكون وأتفحّص الكواكب والنجوم.

فكّر رينيه أنّنا لطالما تخيلنا أطلانطس مثل جزيرة تنضوي على حضارة متقدمة تكنولوجياً، ولكن يبدو أنّها في الواقع، أكثر براعة من ناحية التقدم الروحي.

– ليس لديكم عربات؟ سأل رينيه.
– عربة؟
– نعم، إنّها وسيلة للتنقل بمساعدة العجلات.
– ما هي العجلات؟

أدرك رينيه أنّ الفجوة التقنية في هذه الجزيرة ربما تكون أكبر ممّا كان يظنّ.

– كيف تنقلون محاصيلكم؟
– أية محاصيل؟
– لا تقل لي أنّكم لا تعملون بالزراعة؟ ماذا تفعلون كي تطعموا أنفسكم إن لم يكن لديكم حقول؟
– لدينا جميعنا حدائق خضراوات وبساتين منزلية، وبالتالي نحن نطعم أنفسنا بأنفسنا، فكلّ منزل يعتمد على نفسه في هذا الأمر.

رأى رينيه بالفعل حدائق صغيرة أسفل كل منزل.

– وماذا بخصوص تربية المواشي؟
– تربية... ماذا؟
– أوه حسناً، من أجل أن تأكلوها، لا بدّ أنّكم تربون الحيوانات في حظائر من أبقار وأغنام ودجاج وأرانب؟

توقف جيب بهيئة غاضبة.

– تأكلون الحيوانات في عالمكم؟

– وأنتم لا تأكلونها؟

– هذا مقرف. لا تقل لي إنكم بعد اثني عشر ألف عام، تأكلون الحيوانات الميتة التي قمتم بتربيتها فقط من أجل قتلها!

– إنّ طعمها لذيذ، وهي مصدر للبروتين، أقصد للطاقة، يجب عليك أن تجرب طعمها...، حاول رينيه إقناعه.

– نحن لسنا كالطيور آكلة الجيف، يستحيل علينا أن نأكل الجثث! وللإجابة على أسئلتك، أقول لك: ليس لدينا «عجلات» ولا «أحصنة»، ولا «تليسكوب»، ولا حيوانات نحبسها كي نأكلها فيما بعد، وليس لدينا «حقول» أيضاً.

– ولكن، كيف تزاولون التجارة إذاً؟

– ماذا تعني هذه الكلمة؟

– حسناً، إنّها وسيلة تبادل السلع مقابل الحصول على النقود.

– النقود؟

– هي التي تسمح لنا ببيع الفائض عن حاجتنا.

– ليس لدينا فائض، لذا ليس لدينا «نقود».

– إذاً ماذا تفعلون كي تحصلوا على ما ينقصكم؟

– ولكن نحن لا ينقصنا شيء.

– لا بدّ أنّ هناك بعض الأشياء الضرورية التي لا تستطيعون الحصول عليها بسهولة.

– عندما أحتاج فاكهة ليست في بستاني، فأنا أطلبها ممّن لديه. وعندما يحدث العكس، أعطي الشخص الآخر ما ينقصه.

– ألا يمكن أن نعتبر هذه مقايضة؟

– لا أعلم هذه الكلمة أيضاً. نحن نعطي الشخص المحتاج دون أن ننتظر منه أي مقابل. هذا طبيعي.

– ولكن أنت تعمل، سبق أن قلت لي إنّك عالم فلكي.
– عندما يريد شخص ما معرفة موقع نجم أو كوكب فإنّه يسألني وأنا أجيبه. كل واحد منا يفعل ما يحلو له وفي الوقت الذي يحلو له. لا أحد يجرؤ على القول لأحد ما يتوجب عليه فعله. بالإضافة إلى أنّني لا أعرف ماذا قصدت بكلمة «عمل».
– إذاً لا يوجد عمل، ولا نقود، ولا تجارة. ماذا لو أراد أحدهم ألّا يفعل شيئاً؟
– حسناً، هذا سيكون من سوء حظه. من المرجح جداً أنّه سيشعر بالملل. ولكن سأطمئنك على الفور، فجميع الناس هنا يمارسون نشاطاً محبباً لهم يشعرهم بالتسلية منذ طفولتهم.
بدأ رينيه يفهم لمَ يبدو سكان أطلانطس بهذا الارتياح.
– والمنازل، كيف تبنونها؟ إنّه بالتأكيد عمل شاق.
– عندما يريد أحد ما أن يتخذ لنفسه مسكناً، يجتمع أصدقاؤه المقربون ويقومون ببنائه معاً. وهذا الشخص الذي استفاد من المنزل سيفعل الشيء عينه للآخرين بالمقابل.
– وماذا عن الطبيب، عندما تمرضون ألا تذهبون إلى المعالج؟ يتوجب عليكم حينها دفع تكاليف العلاج.
– نادراً ما نمرض، ولكن هناك في الواقع رجال صحة يعتنون بمن هم بحاجة إلى ذلك. يعالجونهم لأنّهم يعرفون ذلك.
– إذاً لا وجود للخيول ولا للماشية ولا للزراعة ولا للنقود ولا للعمل، كيف تُحكم المدينة؟
– وهنا أيضاً لا أعرف عمّا تتحدث.
– كيف يتمّ اتخاذ القرارات الجماعية؟
– هناك مجلس مكون من أربعة وستين حكيماً. هؤلاء الحكماء هم الأكبر سناً وبالتالي الأكثر خبرة بيننا جميعنا. ولكنّهم لا يقدمون سوى النصائح. وبشكل عام يأخذ الجميع بنصائحهم.
– ليس هناك سلطة تنفيذية؟ ولا وجود للشرطة إذاً ولا للجيش؟

- إنّ هذه المفاهيم مجهولة بالنسبة لي.
- يجب بالتأكيد أن تؤمّنوا الحماية لأنفسكم، ماذا تفعلون إذا انقضّ عليكم الغزاة فجأة؟ أقصد اللاأطلانطيين الذين يريدون أذيتكم؟
- نحن نعيش في جزيرة معزولة وسط البحر، وليس هنالك غيرنا على هذه الجزيرة. ونحن نعرف الجميع ونتوافق فيما بيننا بشكل جيد.
- والدين؟ ألا يوجد كاهن؟ هل تؤمنون بإله واحد أو آلهة عديدة؟
- عن ماذا تتحدث أيضاً؟
- ليس لديكم أيّة عبادة؟ لا بدّ أنّ هناك قوة سحرية غير مرئية تلهمكم.
- ربما تشير إلى طاقة الحياة التي تسري في الأشجار والزهور والحيوانات والكوكب وتسري في داخلنا نحن أيضاً. هذه الطاقة نسميها «الزّوار». إنّها نفَس الحياة الخالدة التي تسري فينا وتسري فيك أنت أيضاً يا رينيه. لهذا السبب لا تخطر في بالنا فكرة قتل الحيوانات ولا حتى إجبار النباتات على النمو متراصة بعضها جنب بعض. فهذه الأشياء تعيق حركة «الزوار».

كان جيب يتحدث كما لو أنّ كلّ ما ذكره هو أمر بديهيّ، بينما أدرك رينيه فجأة غرابة مجتمعه حيث إنّ هذه المبادئ على الرغم من أنّها مبادئ طبيعية، يبدو أنّها نُسيت أو أُستبدلت من أجل تعزيز السلطات الفردية.

- لا زراعة ولا تربية مواش ولا عمل ولا سلطة تنفيذية ولا جيش ولا شرطة ولكن ألا يوجد أيّ طموح شخصيّ؟ أليس هناك رجال يريدون التحكم والسيطرة على الآخرين؟
- نرغب جميعنا بأن يعيش المجتمع بأكمله في وئام. نبحث عن ازدهار الآخرين ونحن نصبو بذلك إلى تحقيق السعادة الجماعية. مثل جماعات النمل والنحل التي وُجدت قبل عشرات ملايين السنين منا.
- كم يبلغ عددكم هنا على هذه الجزيرة؟
- بالمجمل؟ ثمانمائة ألف نسمة. ومدينة ميم- سيت هي المدينة الأكثر اكتظاظاً بالسكان، تضمّ أكثر من نصف السكان بالمجمل، أي ما يعادل

خمسمائة ألف نسمة. بينما المدن الأخرى عدد سكانها أقل بكثير. وكم عدد السكان لديك في المستقبل؟

- تتضمن باريس خمسة ملايين نسمة، ولكن عدد السكان الإجمالي للبشر ارتفع إلى ما يقارب ثمانية مليارات إنسان.

- ثمانية مليارات! أفهم أنكم بحاجة لأنظمة تشبه (بحسب ما فهمته منك) الأنظمة الطفولية للحفاظ على مثل هذا الكم من الأفراد!

لمح رينيه مجموعة من القطط الطليقة التي تسير في الشارع متسكعة بسلام رافعة ذيلها. وعندما نظر رينيه إلى الأعلى، شاهد قططاً أخرى تقفز من سطح إلى سطح.

- هل تأكلون القطط أيضاً في عصركم؟ سأل جيب الذي لاحظ أنّ الشخص الذي سيكون عليه في المستقبل يراقب القطط المتسكعة.

- كلّا، ولكنّ القطط في زمننا ليست طليقة، أو بالأحرى ليست طليقة بهذا الشكل الواضح. اعترف رينيه.

كلّ شيء يسحر رينيه؛ جمال هذه المدينة الملونة، وضخامة الهرم الأزرق الذي هو بمنزلة محور لها، وعلى الأخص حالة السلام والسكينة التي يعيشها السكان.

جزيرة الناس السعداء؟

- إذاً هل ما زلت تظنّ أنّ هذه المدينة أمامك ليست سوى ثمرة خيالك؟ أو أنّها حلم، أو «توهّم» ؟

حاول رينيه أن يفهم جيداً طريقة العيش الغريبة. كرّر في نفسه الجملة التي تجعل من هذا الشعب «مسترخياً» إلى هذه الدرجة؛ فلا نقود، ولا عمل، ولا رُتب وظيفية، ولا حكومة، ولا شرطة، ولا جيش، ولا دين.

إنّ هذا لم تختبره مجتمعاتنا قط. حتى المجتمعات القبلية البدائية التي سبقتنا كان لديها أسلحة وحكّام وأشكال مقايضة أو عملة ما. ما أراه هنا يَقلب كلّ مفاهيمي العقلية.

- إذاً ما رأيك يا رينيه بأسطورتك؟ سأله جيب كي يخرجه من أحلام اليقظة.

- هذا... إنّ هذا بالفعل مدهش. لم أكن أعلم أنّه بإمكاننا العيش هكذا، اعترف رينيه.

توصلوا إلى إيجاد طريقة ناجحة للعيش معاً. لقد اتّحدوا فيما بينهم وبين الطبيعة. لهذا السبب يبدو جيب مسترخياً إلى هذا الحدّ.

ابتسم الرجل الأطلانطسي أخيراً.

- الآن، لن يعود بإمكانك القول إنّ هذا ليس ممكناً.

أدرك رينيه أنّه لطالما شعر في قرارة نفسه بإمكانية وجود مثل هذه المجتمعات. كما أدرك أيضاً أنّ ما يراه ليس فقط اكتشافاً، وإنّما ذكرى دفينة لا بل دفينة جداً في ذهنه. كانت هذه الذكرى قد طُمست في ذاكرته من قبل الطبقات المتراكمة للحيوات المائة والإحدى عشرة التي عاشها، والتي أقنعته أنّ الإنسان لا يمكنه أن يحيا إلا في الإحباط والخوف، غارقاً في الأكاذيب باسم الذرائع الوطنية والدينية.

دعا جيب الرجل الذي سيصبح عليه في المستقبل للجلوس على صخرة تشبه المقعد. راح الرجلان يراقبان الأطلانطسيين وهم يتنزهون، والقطط وهي تطوف في الأرجاء، ويتأملان أيضاً البركان في البعيد.

- أنا مستعد الآن بدوري لسماعك تتحدث عن حياة المستقبل، أقصد حياتك يا رينيه. أريد أن أعرف كيف وصلتم بعد اثني عشر ألف عام من التطور لتأكلوا جثث الحيوانات، وتعيشوا بهذه الطريقة المضطربة إلى هذا الحدّ.

تردّد رينيه. فقد قال في نفسه إنّ جيب يخاطر بأن يصاب بصدمة إذا ما رأى المباني الرمادية التي تزيد على ستة طوابق، والازدحام المروري الخانق، والناس الذين يرتدون الأسود أو الرمادي، والتلوث الذي يشكل ضباباً كثيفاً في الأفق، ودكاكين اللحوم التي تعرض رؤوس الخنازير مع حبة طماطم موضوعة في أفواهها، وروائح فضلات الكلاب، والقمامة المليئة بالأطعمة المهدورة والأكياس البلاستيكية. وبدلاً عن العصافير الملونة أصبح لدينا حمام رمادي، وبدلاً عن الفراشات لدينا البعوض. عالمنا ليس فيه زهور ولا أشجار مثمرة ولا عابرون مبتسمون يحيون بعضهم بعضاً. إنّ مستقبله قد يخيّب أمله كثيراً.

- لاحقاً...، قال أستاذ التاريخ بعد تمحيص، هناك شيء يجب أن أخبرك

به. في الواقع، إن كان قد جرى نسيانكم، وجعل وجود حضارتكم أمراً مشكوكاً فيه، فهذا له أسبابه.

قطّب جيب حاجبيه.

حسناً، يجب أن أقول له. كلّما أسرعت في ذلك كان هذا أفضل.

- إنّ النصوص القليلة التي تحدثت عن عالمكم، أشارت أيضاً إلى أسباب اختفائكم، وهذا ما يفسّر كونكم تحوّلتم إلى أسطورة بالنسبة إلينا. هذا السبب هو...

يجب أن أنطق الكلمة.

- ... الطوفان.

- عن ماذا تتحدث؟

- إنّها كارثة طبيعية رهيبة، فقد حدث زلزال تبعته أمواج عاتية اجتاحت جزيرتكم وغمرتها بالكامل.

نظر إليه جيب وأومأ برأسه.

- الجزيرة بأكملها أم العاصمة فقط؟

- الجزيرة بأكملها، مع عاصمتها ومدنها وجميع سكانها.

بدا جيب متشككاً.

- هل أنت واثق ممّا تقوله؟

- أنا متأكد، سوف تغمر جزيرتكم مياه المحيط.

أطبق رينيه على فكيه متأسفاً لأنّه توجّب عليه إنباؤه بهذه الأخبار السيئة.

- أنا لا أصدقك.

- ومع ذلك فهذا ما يُحكى عن سبب اختفائكم.

بينما كان الرجلان يراقبان المارّة، عبر رجل يشبه جيب وألقى عليه تحية ودية. كان حفيف الأشجار يلفهما، وإذ بفراشة صفراء وسوداء بأجنحة حمراء طويلة جاءت وحطّت على يد الأطلانطسي، فقام جيب برفعها حتى مستوى فمه، ومن ثمّ نفخ عليها لحثّها على الطيران.

- إذاً بحسب ما تقول، سيكون مصيرنا جميعنا الاختفاء هكذا فجأة، على إثر كارثة طبيعية بسيطة...

بحث رينيه عن صيغة مقبولة.
- ربما ليس الجميع، لأنّ هناك أسطورة أخرى تُضاف إلى الأولى.
- تفضل، أنا أسمعك.
- تقول الأسطورة الثانية أنّ هناك رجلاً، سبق أن حذرهم من هذه الكارثة، وقد تكفّل ببناء سفينة عظيمة حمل فيها بعض الأشخاص معه وبعض الحيوانات. وربما أستطيع مساعدتك في هذا الأمر يا جيب. يجب عليك الآن أن تقوم بكلّ شيء كي تبني هذا القارب الذي سيسمح لحضارتكم والكثير من سكانها بالبقاء على قيد الحياة أثناء الطوفان.
- هكذا بهذه البساطة يمكن أن نغرق بالطوفان ونُنسى من بعدها، كرّر جيب مرتاباً.

لم يستطع تقبّل هذه المعلومة فقد كانت صادمة جداً له.

- إنّ هذا قد يحدث بين الفينة والأخرى. يجب ألّا نضيع الوقت.

بدا جيب غارقاً في أفكاره.

- ألا تصدقني؟

نهض الأطلانطسي ونظر إلى الهرم الأزرق.

- دعنا نلتقي غداً هنا في الساعة نفسها، وسوف نعمل معاً أنا وأنت على إعداد وسيلة لإنقاذ ما يمكن إنقاذه مستعينين بمعرفتك بما سوف يحصل لنا. اذهب الآن، يجب عليّ التفكير في كلّ هذا.

شعر رينيه أنّه ممزق بين روعة ما رآه لتوّه وشعوره بالذنب لأنّه أزعج من جديد هذا الرجل الذي كان عليه في الماضي. ومع ذلك، فقد قال لنفسه إنّه قام بواجبه. فهو على الأقل يقدّم لهم إمكانية عدم اختفائهم جميعهم.

استدار، وترك على مضض مدينة الزهور البهية هذه...والتي لا بدّ أنّها ستُدمّر.

-36-

حينما فتح عينيه كانت الساعة تشير إلى الثالثة وعشرين دقيقة صباحاً.

لقد بقيت فعلياً ثلاث ساعات في أطلانطس.

فتح حاسوبه وخوفاً من نسيان كلّ ما رآه، دوّن بسرعة كل تفصيل في ملف مذكراته؛ مدينة ميم- سيت، سكانها، طرقها العريضة، نهرها، هرمها الأزرق، حدائقها، منتزهاتها، بحيراتها، نساؤها بصدورهنّ المكشوفة، رجالها عراة الصدر بتنانير ببج، قططها، فراشاتها، عصافيرها. ذكر أيضاً أنّ هذا العالم كونه لا يحتاج لكلّ ما يبدو لنا أنّه ضروري وأساسيّ، فهو يجهل معنى القلق.

بعد أن قتل جنوداً ألمانيين أثناء الحرب العالمية الأولى، وقتل أيضاً متشرداً في هذا العصر، يُعرض عليه الآن إنقاذ حضارة بأكملها.

لا نستطيع إذاً، صناعة آلة لعبور الزمن، ولكن نستطيع التأثير بشكل كاف على روح إنسان من الماضي كي يتخذ قرارات صغيرة قد تكون حاسمة لجميع معاصريه.

ما زلنا كائنات بدائية عدوانية بالفطرة. ولم نقم بترقية هذا الجانب الحيواني في داخلنا، لذا نعيش في الخوف، منساقين وراء رغبة التملّك والاستحواذ، راغبين دوماً بالحصول على المزيد والمزيد من الممتلكات والأشياء التي لا نحتاجها فعلياً في الحياة.

أراد السكينهيد الحصول على نقودي. وأراد تلميذي فيليب إظهار أنه على الرغم من كونه مراهقاً فإنّه قادر على تحدي شخص بالغ يفترض أنه يمثل السلطة بالنسبة إليه. وأراد بينيل من جهته، تذكيري بأنني لست سوى واحد من الموظفين الذين يعملون تحت إمرته. تماماً كما يحدث لدى الكائنات البدائية.

نهض رينيه لينظف أسنانه وهو يستمع إلى الراديو.

أعلن المقدم أنّه لم يتم التوصل إلى أيّ اتفاق في الأمم المتحدة بشأن حظر استخدام المبيدات الحشرية التي تقتل النحل. لقد أنهت جماعة مستخدمي الكيماويات الزراعية على مصير هذه الحشرات.

حدث تفجير انتحاريّ جديد في إسبانيا داخل إحدى محطات القطار أثناء وقت الذروة. وهنا أيضاً، على الرغم من الصرخة التي أطلقها الشاب الانتحاري قبيل قيامه بالتفجير، فإنّ الشرطة كانت ميّالة أكثر لاعتباره حدثاً معزولاً قام بارتكابه شخص يعاني من اضطرابات نفسية.

ذكر المذيع بعد ذلك أنّ اضطراباً في أنظمة الذكاء الاصطناعي في البورصة سبّب انخفاضاً حاداً في الأسعار.

إنّ هذه هي قضية عصرنا؛ فنحن عالقون بين مخاطر الذكاء الاصطناعي وأضرار الغباء الطبيعي.

بعدها أعلن المذيع عن إضراب جديد، ليس للقطارات فقط وإنّما للطائرات أيضاً، بالإضافة إلى تفكيك شبكة من تجار الرقيق البيض والعبيد في ليبيا، وولادة طفل ملكيّ جديد في البلاط البريطاني، وعودة وباء الطاعون والكوليرا إلى السودان، وإعصار على جزر الكاريبي، واختبار إيران لصاروخ جديد من المحتمل أنّه يحمل شحنة نووية.

ختم المذيع في النهاية بالإشارة إلى دراسة أجراها عالمان نرويجيان حول تغيرات نسبة الذكاء في العالم. فقد انخفضت نسبة الذكاء من 102 للناس المولودين في عام 1975م، إلى 99 مقارنة بالناس الذين ولدوا عام 1991م. وقد فسّر العالمان هذا الأمر في اتجاهات مختلفة مثل التلوث، بالإضافة إلى تدهور جودة الأغذية والتعليم على حدّ سواء، فضلاً عن التعرض السلبي والمطول للشاشات الإلكترونية.

أعلنت النشرة الجوية عن عدة أيام من الطقس الجميل مع احتمال حدوث موجة حارة.

استمع رينيه إلى الأخبار حتى نهايتها، واطمأنّ إلى عدم وجود أيّة إشارة جديدة إلى جثة المتشرد التي تمّ انتشالها من نهر السين.

عاد للتفكير في الدراسة النرويجية حول نسبة الذكاء. إنّ هذين العالمين قد أظهرا أنّ الإنسانية بمجملها تصبح أكثر غباء بشكل متزايد، ولا يبدو أنّ أحداً يريد الإقرار بذلك رسمياً.

عاد لتأمل رحلته الأخيرة إلى أطلانطس.

إذا تعافى عالمنا وتطور، فسوف يعود إلى ما كان عليه قبل اثني عشر ألف عام، يزخر بأناس بارعين لدرجة أنهم لن يكونوا بحاجة إلى الدين ولا النقود ولا الحروب.

قرّر أنّه سيتوقف منذ الآن عن تناول اللحوم.

كما قرّر أيضاً ارتداء ملابس ملونة، صفراء وزرقاء وحمراء أو خضراء، أمّا اللونان الأسود والرمادي برأيه، فإنّهما يرسلان ذبذبات سلبية جداً.

أصبح يعلم الآن، أنّ كلّ لحظة من عمره تعتبر بغاية الأهمية. لقد بدأ العدّ التنازلي.

كما لو أنّه من باب التأكيد على هذه الفكرة، سطع نور باهر أضاء الغرفة بوميض فضيّ، ورصّعت بعدها قطرات المطر نافذة الغرفة.

أصابته القشعريرة، وبدأت لمحات من الذكريات التي شاهدها للتوّ تحضر إلى ذهنه وهو على وشك النوم. قال لنفسه إنّه قد وجد أخيراً المعنى لحياته.

يجب عليّ إنقاذ الأطلانطسيين.

37. مذكرات. ذاكرة جمعية.

مثلما هناك ذاكرة فردية، هناك أيضاً ذاكرة جمعية، تتكون وتتعزّز بحسب استخدامها. وتنتقل هذه الذاكرة إلى الأجيال الجديدة عبر عدّة طبقات.

الطبقة الأولى، هي تربية الوالدين. الطبقة الثانية هي التربية المدرسية. الطبقة الثالثة هي وسائل الإعلام التي تصقل وتقوي باستمرار هذه الذاكرة الجمعية. والطبقة الأخيرة هي الخبرة الشخصية التي تأتي لتوضح طبقات الذاكرة السابقة.

وإن اختفت رغم ذلك، الذاكرة الشخصية مع الفرد، فإنّ الذاكرة الجمعية من ناحيتها تبقى خالدة وتستمر في الانتشار. إنّها ذاكرة حية.

وهكذا، فإنّ الذاكرة الجمعية تعمل مثل الذاكرة الفردية، أي أنّها تمحو مع الزمن العناصر التي تعتبرها غير مهمة ولا تحتفظ إلّا باللحظات المرتبطة بالمشاعر القوية.

المشهد الثاني

إنقاذ أطلانطس

-38-

- وهكذا ظهرت في الأفق موجة عملاقة، كانت من العلو لدرجة أنّها أخفت الشمس. ابتلعت كلّ شيء، وغمرت المنازل والأجساد، كانت هذه لحظة مروعة. مات الجميع غرقاً. وبالنسبة لمدنها وحضارتها، فقد ابتلعتها الأمواج أيضاً. لم يتمكن أيّ شخص من اكتشاف موقعها.

في اللحظة التي نطق فيها رينيه هذه الكلمات، أضاء البرق من جديد القاعة. توقف أستاذ التاريخ وراقب التلاميذ أمامه. كان فليب غائباً. ومن باب متابعة درس الأمس عن أطلانطس، اختار الحديث عن الطوفان. تفاجأ التلاميذ برؤية أستاذهم يواظب على عرض هذه المواضيع المثيرة للجدل. فهموا أنّها ستكون انحرافاً يضع أستاذهم على هامش النظام المدرسي.

- تطرّق العبرانيون في نص سفر التكوين، المكتوب عام 1600 ق.م، إلى قصة نوح في الإصحاح السابع، الآيات 1- 12. قال له الله: «ادخل الفلك مع جميع أهل بيتك. [...] سوف أجعل السماء تمطر [...] إلى أن أمحو كلّ كائن صنعته عن وجه الأرض».

عرض رينيه صورة جديدة.

- في الثقافة الهندوسية نجا مانو، أول كائن أوجده الإله فيشنو، من الطوفان ببنائه قارباً. وبهذه الطريقة أنقذ الحيوانات والنباتات والإنسان.

ظهرت صورة آسيوية جديدة.

- يروي الصينيون في كتابهم هواي نان-تسي[1]، أنّ القبة السماوية تشقّقت وتسبّبت بهطول الأمطار، الأمر الذي جعل المياه تغمر العالم وتغرق كل البشر. فجاءت الآلهة نوا وسدّت السماء وأنقذت زوجاً من البشر.

وبعدها ظهرت صورة لرأس إنسان هنديّ.

- في كتاب بوبول فو، النص المقدس للمايا، بعد أن أخطأت البشرية، أصابت الناس أمطار كارثية ولم يبقَ على قيد الحياة سوى رجال الذُّرة[2].

- ولكن يا أستاذ، هل هناك آثار حقيقية للطوفان يمكن إثباتها علمياً؟ سأله أحد التلاميذ.

هل هذا صديق فيليب؟

- إنّه سؤال جيد.

العاصفة التي تقترب أصدرت أصوات رعد هادرة من جديد.

- إنّ المعلومة العلمية الوحيدة التي لا جدال فيها حتى الآن، هي أنّ جميع الكتب المقدسة لمختلف الشعوب تشير إلى قصة الطوفان في فصل نشأة الكون.

أدرك رينيه أنّه استطاع أخيراً إثارة اهتمام التلاميذ، وقال لنفسه إنّ هذه الكارثة يجب أن تُسجّل في لاوعيهم الجمعي، لأنه بمجرد استثارة بسيطة لها سوف توقظ الذكريات الدفينة حولها. كما قال لنفسه أيضاً إنّه من الواجب حقاً وضع كامل ثقلنا لكسر باب الأحكام المسبقة والشكوك حيال هذا الموضوع.

- ولكن يا أستاذ، إن كنت ستضع التاريخ كلّه موضع التساؤل والتشكيك فيه بقولك البارحة أنّ أطلانطس وُجدت بالفعل، واليوم بأنّ الطوفان قد

1- هو نص صيني قديم يتكون من مجموعة من المقالات التي دارت في بلاط الملك ليو آن قبل عام 139 ق.م. المترجمة

2- يروى في كتاب بوبول فو أنّه بعد فشل الآلهة في خلق الرجل من الطين والصلصال، خلقته من نبات الذُّرة. المترجمة

دقّر الحضارات الأولى، سنكون بذلك أمام مشكلة. فنحن لدينا مقرر يجب الالتزام به كي نستطيع النجاح في امتحان نهاية العام. وأنا لا أعرف صراحة كيف يمكننا التعامل مع هذه المواضيع يوم الامتحان.

قال التلميذ بصوت مرتفع كلّ ما كان يدور في أذهان التلاميذ بصمت، فتردّدت في القاعة أصوات مؤيدة له.

- لهذا ربّما يكون قد آن الأوان لطرح هذا السؤال الجوهريّ عليكم. ما الذي يهمكم بالدرجة الأولى؛ معرفة الحقيقة أم تكرار المقررات الرسمية مثل الببغاوات؟

نظر التلاميذ بعضهم إلى بعض دون أن يعرفوا بماذا يجيبون. فتولى الإجابة تلميذ من بينهم يتمتع بجرأة أكبر:

- أوه... نحن نرغب مع ذلك بالحصول على الشهادة الثانوية في نهاية العام.

- وتريدون أن تبقوا جاهلين؟ تفضّلون حشو رؤوسكم بالأكاذيب كي تكونوا مثل الآخرين، بدل أن تتبعوا فضولكم الذي يدفعكم إلى معرفة الوقائع كما حدثت بالفعل؟

أصبح تلاميذ الصف مشوشين بالكامل.

- حسناً، سوف أوضح لكم مشكلتكم بالاستعانة بتجربة آش.

كتب على السبورة «تجربة آش».

- اختار عالم النفس سلومون آش في القرن العشرين، مجموعة من عشرة طلاب تتراوح أعمارهم بين 17 و25 عاماً للمشاركة في تجربة وهمية لاختبار صحّة النظر لديهم. لذا عرض لهم ثلاثة خطوط بأحجام مختلفة وطلب منهم الإشارة فقط إلى الخط الأصغر حجماً. وكان من بين الطلاب العشرة، تسعة متواطئون مع عالم النفس وطالب واحد حقيقيّ تُطبّق التجربة عليه فعلياً. وقد علم هذا الأخير باختيارات التسعة الآخرين قبل أن يقدّم إجابته الخاصة، وتقصّد آش تركه حتى النهاية للإجابة على السؤال. وكان سلومون آش قد طلب مسبقاً من الطلاب التسعة المتواطئين معه، اختيار الإجابة الخاطئة أي الخط الأكبر حجماً.

وعندما رأى الطالب العاشر أنّ الجميع قد أجابوا نفس الإجابة، انتهى الأمر به أيضاً بتعيين الخط الأكبر حجماً على أنّه هو الأصغر.

بدا أنّ الكثير من التلاميذ قد استمتعوا بهذا المثال.

إنّهم يحبون الحكايات، أستطيع إقناعهم إذاً بهذه الطريقة.

– هذه هي قوّة المطابقة. هذه هي القوة التي يمكن أن تمتلكها جماعة ما حتى عندما تكون على خطأ، والتي تؤثر بها على تفكير الفرد. ولكن هل تعلمون ما هو الشيء الأكثر إثارة؟ لقد أجرى سلومون آش هذه التجربة في عدة مناسبات. وفي كلّ مرة، عندما كان يكشف فيها للمتطوعين في تجربته أنّ بقية الطلاب الآخرين كانوا شركاء معه، وأنّه هو من طلب منهم الإشارة إلى الجواب الخاطئ، كان يبقى ما يقارب 60% من المُختَبرين يزعمون أنّ الخط الأصغر هو الخط الأضخم.

«هذا ما نسميه بثقافة القطيع. إنّها إشارة إلى خراف بانورج، التي ذكرها الكاتب فرانسوا رابليه في كتابه؛ كتاب *الربع*. بما أنّ الخراف لم تكن تعرف أيّ اتجاه تسلك، لذلك تبعت القطيع دون تفكير. هذه هي الحاجة المدمرة؛ محاكاة الآخرين كي تكون من ضمنهم. ولكن ليس بهذه الطريقة نصبح سعداء. فكلّ هذا يحملنا أن نكون مدمجين داخل نظام لا يهدف إلّا لتحويلنا إلى ناخبين مستهلكين كالقطيع. أريد أن أجعل منكم أذكياء، اللعنة، هل فهم ذلك صعب إلى هذه الدرجة؟ إنّ هذا هو دوري كأستاذ، تثقيفكم وتعليمكم. بمعنى أنّني أريد رفع مستوى وعيكم وإدراككم، وليس جعلكم تحصلون على شهادات لن تفيدكم سوى بجعلكم عبيداً مطواعين.

كانت نظرات التلاميذ إليه هذه المرة مختلفة كلياً، فقال رينيه في نفسه إنّه ربما أصبح على الدرب الصحيح أخيراً.

في العالم الذي اعتاد فيه الناس على سماع الأكاذيب، تبدو الحقيقة فيه مشكوكاً في صدقها. ولكن بقوّة الإصرار، يمكن في النهاية أن يرغبوا بالتفكير. أريد أن أعلّمهم ألّا يتكاسلوا عن التفكير. وأن يتمكنوا من تكوين آرائهم بأنفسهم.

أصبح التلاميذ يولونه الكثير من الانتباه، فتملكه شعور بأنّه قد أحرز تقدماً ضئيلاً. إنّ تغيير عقلية معاصريه أمرٌ يتطلب الكثير من الوقت والصبر.

كرّر هذا الدرس لثلاثة صفوف أخرى حتى موعد الغداء. وحين كان يستعدّ للقاء إيلودي في المطعم المدرسيّ، أشار له المدير بينيل من مكتبه بالقدوم إليه.

-39-

أخذ صاحب أعلى سلطة في مدرسة جوني- هاليداي يحدّق فيه بهيئة متضايقة.

- هل الإغريق غزاة قاموا بتدمير الحضارات المجاورة والمسالمة والمتطورة؟ شكّك تلميذ بدرسك فقمت بليّ معصمه. والآن، تقدّم أطلانطس والطوفان على أنّهما معلومتان تاريخيتان؟ ألم تأخذ تحذيراتي لك بعين الاعتبار يا سيد توليدانو. ما زلت أستطيع أن أبرّر أفعالك حتى الآن، بحجة أنّك مرهق أو حتى مكتئب قليلاً، ولكن لن أستطيع الاستمرار بهذا لفترة طويلة. سأضطر في النهاية إلى الإبلاغ عن سلوكك للمسؤولين للأعلين. لذا أرجوك، توقف عن هذا.
- وإن رفضت؟
- سأحرص على توقيفك فترة عن العمل. وسيكون من الغباء حقاً الوصول إلى هذا الحدّ.

هل سبق أن عرفت هذا الرجل في إحدى حيواتي السابقة؟

- ليس لديك خيار آخر في جميع الأحوال.
- نملك دائماً الخيار.

كي يطابق فعله بقوله، أخذ رينيه ورقة من الأوراق المكدسة فوق مكتب المدير، وأخرج قلمه وكتب شيئاً ما ومن ثمّ قلب الورقة ووضعها أمام المدير.

- أنا لست تلميذاً ولا طفلاً. لا أريد من أحد أن يعلّمني كيف أقوم بمهنتي. تفضّل هذه ورقة استقالتي. يمكنك تعليم خرافك كلّ ما تريده

عن انتصارات المجرمين، وتتابع حشو رؤوسهم بمواضيع متفق عليها كي تسعد أهالي التلاميذ الجهلة والفخورين بجهلهم.

خرج أستاذ التاريخ صافعاً الباب خلفه ليتجه بعد ذلك إلى الحمامات كي يختلي بنفسه.

لقد اكتملت الدائرة. قتلت أحدهم وها أنا الآن أستقيل من عملي. انهار كلّ ما كان يربطني بالعالم «العادي». ومع ذلك، لم يسبق أن شعرت في حياتي بهذا التناغم مع ما أنا عليه حقاً. إنّه الثمن المتوجّب دفعه لكشف الحقيقة لمن لا يريدون سماعها.

كانت العاصفة في الخارج ترعد ويضيء البرق من النافذة الصغيرة للحمامات.

لم يكن من الممكن لهذا أن يحدث بشكل آخر. يبدو الأمر كما لو أنني عرفت مسبقاً بأنني سأصل إلى نقطة الانهيار هذه.

-40-

ظهر رينيه توليدانو أخيراً في المطعم المدرسيّ. كان جميع المدرسين ينظرون إليه بأطراف عيونهم، وراح يتهامس البعض منهم.

كانت إيلودي تقف في الدور للحصول على الطعام بينما توجّه إليها رينيه.

- لماذا لم تنتظريني؟

تقدّمت خطوة إلى الأمام.

- يبدو أنّك اليوم أيضاً قمت بحماقاتك في الصف. البارحة كان عن أطلانطس واليوم عن الطوفان، وغداً، عن ماذا ستتحدث؟

- لن يكون هناك «غداً»، فقد قدّمت استقالتي. سيكون هذا آخر غداء لي في المطعم المدرسي. يمكن من الآن فصاعداً أن نلتقي في الخارج، إن كنت تقبلين لقاء شخص عاطل عن العمل.

- كلّا، لم تفعل هذا؟

ابتسم مؤكداً.

– أنت مجنون! كيف ستكسب عيشك الآن؟
– لقد خرجت سمكة التيكتاليك أخيراً من الماء كي تسير على اليابسة بمساعدة زعانفها. لم تلقَ تشجيعاً من أقرانها، لقد عانت الكثير دون شك، ومع ذلك فقد فعلتها. لا بدّ أنّها قابلت المدير بينيل تحت الماء وهو الذي ألهمها الخروج من النظام كي تحاول العيش بطريقة أخرى. وبفضل ذلك، استطاعت الحياة أن تتطور على هذا المكان الجديد الذي هو أرض اليابسة.
– أوقفْ هذا الفيلم. أنت تعرف جيداً أنّك دون عمل سيكون وضعك مزرياً.
اختارت طبقاً يحتوي لحم عجل مع صلصة الخل.

شعر رينيه لأوّل مرة بالاشمئزاز الشديد تجاه هذا الطعام، كما لو أنّها أول مرة في حياته يعرف مكونات هذا الطبق. شعر برغبة في الإقياء، ولكنّه تمالك نفسه.

– البارحة ذهبت إلى هناك، ورأيت مدينتهم.
– مدينتهم؟
– ميم- سيت، عاصمة أطلانطس. إنّها بكلّ بساطة مدينة باهرة. لقد خلقوا فيها ما يشبه العالم المثالي حيث كلّ شيء جميل وهادئ ومتناغم.
رفعت إيلودي حاجبيها.
– وهذا شيء آخر...

أخذ كأس نبيذ. أكملت إيلودي سيرها إلى المكان الذي يقدم مخلل الملفوف مع نقانق كبيرة وطرية. وهنا أيضاً، لم يستطع رينيه أن ينسى أنّ هذه النقانق عبارة عن أرداف الخنازير المقطعة التي توضع في أنابيب مكونة من أمعاء الحيوان ذاتها. أخذ رينيه طبق بروكلي مطهواً على البخار.

– ألن تتناول اللحوم؟
– سأنتهز فرصة وضعي الجديد كعاطل عن العمل كي أبدأ نظاماً غذائياً نباتياً، تهرّب رينيه بقوله ذلك.

وصلا إلى اختيار التحلية، فأخذ هو الفواكه، وأخذت إيلودي كعكة الزبدة والكريما.

- ألن تطلبي المزيد من التفاصيل عن أطلانطس؟

أطلقت إيلودي تنهيدة سخط.

- كلا.

- خسارة. ولكن مع ذلك، سأحدثك عنها. إنّه مكان استثنائي، وعالم مثالي. لا حكومة فيه ولا جيش ولا عمل ولا نقود. لا زراعة ولا تربية مواشٍ ولا خيول ولا معادن ولا عجلات... ولكنّهم في المقابل، طوروا قدراتهم الروحية التي بالكاد نعرف عنها القليل. يعرفون كيف يُخرجون أرواحهم من أجسادهم كي يطوفوا من خلالها الكون بأسره. إنّهم قادرون على التواصل مع الطاقة الأولية سواء للبشر أو للحيوانات. يسمون هذه الطاقة «الزّوار». إنّهم يعالجون أنفسهم من خلال التحكم بالطاقة دون أدوية. وكما قلت لكِ، إنّهم هانئون بشكل مدهش. بالنسبة لهم، لا شيء يدعو للقلق حقاً، يقبلون العالم ويعيشون في وئام مع الطبيعة، حتى الزلازل الأرضية لا تقلقهم. إنّ شعارهم هو «لا شيء يدعو للقلق». مع العلم أنّ هناك بركاناً ينفث دخانه بشكل مستمر خلف مدينتهم. هل تستطيعين تخيل وجود عالم يعيش فيه جميع الناس بهناء ولا يريدون أن يأخذوا أيّ شيء من الآخرين، والجميع يسعى للنجاح الجماعي؟

هزّت إيلودي رأسها.

- هذا يكفي، إمّا أنّك اتبعت مذهباً دينياً قام بغسل دماغك، أو أنّك تتعاطى المخدرات، أو أنّك أصبحت أحمق تماماً. لقد فقدت عملك يا رينيه! هيّا اصحُ!

- لقد رأيت أناساً يبدون أكثر سعادة منا، مع أنّهم لا يملكون مهنة وليس هذا فحسب، بل لا يملكون نقوداً ولا حتى أيّة رُتب وظيفية.

جلسا على طاولتهما المعتادة. فأكمل رينيه قائلاً:

- أنت تحتقرين ما لا تعرفينه.

- عزيزي رينيه المسكين. أيّة فكرة دفعتني لاصطحابك إلى مسرح صندوق باندورا! هل رأيت كم أصبحت حياتك معقدة منذ يوم الأحد؟ لقد ضربت تلميذاً، وتتفوه بالترهات في دروسك، وها قد فقدت عملك للتو! ولا شيء آخر.

بل أكثر من ذلك، فأنت لا تعرفين كلّ شيء يا عزيزتي إيلودي. لقد قتلت رجلاً أيضاً، وقمت بإلقاء جثته في النهر.

بدأ كلاهما بتناول المقبلات. كانت همسات ونظرات زملائه المستهجنة تتزايد أكثر فأكثر، ولكنّ رينيه أجبر نفسه على عدم إعارتهم أدنى اهتمام.

- ماذا أصابني كي أصحبك إلى هذا العرض! أعتقد بالفعل أنّ أوبال هي باندورا بالنسبة إليك. لقد فتحت أخطر الصناديق ألا وهو صندوق اللاوعي، وحرّرت في داخلك الوحوش التي راحت تنهشك يوماً بعد يوم. والآن، أنا لا أرى سوى حلّ واحد فقط. يجب أن تستشير عالم نفس كي يغلق ما لم يتوجب فتحه بالأساس. ومن ثمّ سيتوجب عليك أن تعمل كثيراً من أجل أن تنسى، كي لا تفكر في العودة إلى هذا الوضع مجدداً.

- وإن كان العيش مع صندوق باندورا المفتوح الذي أتاح لي الدخول إلى ذكريات حيواتي المائة والإحدى عشرة السابقة يروقني؟ لقد اكتشفت أنّ هناك عدّة شخصيات في داخلي.

- يعيش داخل كلّ واحد منا ثلاث شخصيات ألا وهي الطفل والبالغ والأب. إنّها نظرية التحليل التفاعلي لعالم النفس إيريك بيرن. وأنت هنا قمت للتو بتنويم مغناطيسي تراجعي الذي قادك لتعود طفلاً من جديد. إنّ هذا هو التنويم المغناطيسي التراجعي الوحيد الذي قمت به يا رينيه.

- وفي هذه الحالة سأذكركِ بأعمال هال ستون حول علم نفس الشخصيات. إن كنت تتذكرين، فهو يعتقد أنّه داخل لا وعينا تختبئ شخصيات عديدة، وهي تظهر عندما نقوم باستدعائها أو أنّها تتكشف من تلقاء ذاتها عندما تضطرنا ظروف معينة إلى ذلك. ويعطي هال ستون

مثالاً على ذلك أنّه حين نغير أصواتنا نحو الحاد أو الغليظ بحسب الشخص الموجود أمامنا، فهذا التعديل يحدث دون حتى أن نفكر به...

لم تكن تتوقع إيلودي أن يذكر لها هذا المرجع الذي تجهله. فشعرت بالضيق وهزّت رأسها بانزعاج.

– ربما بعد كلّ ذلك أجد أنّ هذه المنومة المغناطيسية التي تدعى أوبال ساحرة حقيقية. ويمكن أن تكون قد سحرتك فعلاً، وفي هذه الحالة ستكون حالتك أخطر، لذا فأنت قد لا تحتاج إلى طبيب نفسيّ وإنّما بالأحرى إلى متخصص بطرد الأرواح الشريرة.

ابتسم ابتسامة صغيرة وساخرة.

– أنت، أستاذة العلوم الديكارتية من يحدثني عن طرد الأرواح؟

– لا أعرف، ولكن عليك أن تفعل شيئاً ما. داوِ الشرّ بالشر، واللاعقلاني باللاعقلاني. انظر كم تبدّل حالك.. أنت شاحب، يبدو كأنك لم تنم ولم تأكل منذ أيام. وعندما تتحدث، تبدو مبتهجاً طوال الوقت، كما لو أنّك تحت تأثير مادة كيميائية.

أخذت تتناول طعامها بسرعة. أمّا هو فأخذ وقته، ويبدو كأنّه يستلذّ بكلّ لقمة.

– أنا لم أشكركِ قط بما يكفي يا إيلودي على اصطحابك لي إلى صالة صندوق باندورا.

– لو تعرف فقط كم أشعر بالندم حيال هذا.

– لم أقل لكِ كلّ شيء، فأنا لم أزر فقط مدينة أطلانطس كما كانت تماماً قبل اثني عشر ألف عام، بل استطعت أيضاً تحذير جيب من الطوفان واقترحت عليه بناء سفينة لإنقاذ ما يمكن إنقاذه.

أظهر هيئة فخورة، منتظراً من زميلته أن تهنئه على هذا العمل. ومن جهتها وضعت إيلودي السكين والشوكة وقالت.

– حسناً، يبدو أنّ الوضع أسوأ بكثير ممّا تخيلته. اسمعني يا رينيه، عليك أن تقول إنّك كنت مخموراً، أو قمت بتعاطي المخدرات أو إنّك مكتئب أو تعاني من نوبة هذيان.

- هذه هي النصيحة التي أعطاني إياها المدير بينيل.

- لديّ أصدقاء أطباء يستطيعون أن يقدموا لك تقريراً طبياً. بعد ذلك، تأخذ إجازة مرضية وتسافر بعيداً كي ترتاح قليلاً، فقط إلى أن تهدأ الأجواء بعض الشيء. سنقول للتلاميذ إنّك كنت مصاباً بالحمّى أدت إلى ارتفاع حرارتك، وهذا ما سيفسر «دروسك» الجنونية وسلوكك العدواني تجاه التلاميذ. وبعدها، حينما تعود من إجازتك، تكون حدّة التوترات قد خفّت، فتعتذر وكلّ شيء يعود بعدها إلى مجراه الطبيعي. هل أنت موافق؟

بدأ بتناول طبق البروكلي.

- أنا صديقتك يا رينيه ولن أتخلى عنك، خصوصاً أنّني أحمّل نفسي المسؤولية عمّا جرى لك.

- أنت لا تفهمين يا إيلودي، لقد عرفت معنى وجودي أخيراً. منذ اثني عشر ألف عام وروحي موجودة على هذه الأرض، اثني عشر ألف عام وأنا أعود حياة بعد حياة كي أتعلم وأتطور. لطالما أحسست بذلك، ولكن الآن، أشعر بأنّني أفهم أخيراً الأمور على حقيقتها.

شعرت مدرسة العلوم بالحنق، ولكنّها امتنعت عن الردّ وتركته يكمل.

- نحن لسنا هنا إلّا كي نتذكر من نحن. قال رينيه.

- ما هذه الحماقة الأخرى التي تقولها؟

- ومن ثمّ فإنّ لديّ الآن أهدافاً في الحياة. الهدف الأول هو إنقاذ جيب قبل أن يغمر الطوفان حضارته بأكملها. والهدف الثاني هو فعل أيّ شيء كي تصل حضارتنا الحالية إلى هذا المستوى من الازدهار الروحي الذي سبق أن عرفته ولكنّها نسيته الآن.

- تقصد عالماً دون جيش أو شرطة أو سلطة؟ قالت مستهزئة.

- ودون نقود وعمل وملكيات.

- هذه اسمها فوضى وقد سبق أن رأينا إلى أين ستقودنا.

- لقد أخطأ «أتباع» الفكر الفوضوي عبر التاريخ في مجتمعاتنا. لأنّ جُلّ ما ركزوا عليه كان تدمير الأنظمة السائدة دون التركيز على بناء أنظمة جديدة، ولهذا أخفقوا. لقد نسوا تطلّعهم إلى السعادة الجمعية.

- «السعادة الجمعية» ؟ هذا المفهوم أيضاً تمّ اختباره سابقاً وقد سُمي بالشيوعية. ورأينا أيضاً إلى أين أوصلنا هذا؛ إلى ديكتاتور ذي شارب أو ديكتاتور سمين، وهو نفسه تتمّ خدمته من قبل مجموعة من الرفاق الفاسدين الذين حوّلوا الناس، بسبب الذعر، إلى عبيد.

- إنّ بعض التجارب الشيوعية التي عرفتها البشرية لم تطبق مبادئ كارل ماركس على الإطلاق. علاوة على ذلك، فإنّ كارل ماركس لطالما صرّح أنّ الشيوعية الحقيقية لا يمكن أن تظهر إلّا في ألمانيا أو إنجلترا، لأنّ طبقات العمال والطلاب في هذين البلدين مثقفة بما فيه الكفاية. وقد تبرّأ هو ذاته من البلاشفة مؤكداً أنّ درجة التطور القروسطية لروسيا تمنعها من الوصول إلى نظام متطور كالنظام الشيوعي.

- أريد تذكيرك أنّك قلت لي أيضاً إنّ مجتمع أطلانطس لم يكن يعرف الزراعة ولا تربية المواشي. فكيف يفعل إذاً لإطعام الناس؟

- يطعمون أنفسهم بأنفسهم. إنّهم مكتفون ذاتياً، بوجود حديقة خضراوات صغيرة لكلّ منزل. إنّهم مستقلون ذاتياً دون عمل ودون نقود.

- دون نقود؟

- لقد سبق أن رأيت ذلك في التعاونيات الزراعية في إسرائيل وقد كانت ناجحة، فلا يوجد نقود وجميع الناس يفعلون ما هو نافع للمجموعة.

- إنّ هذا لا يخصّ سوى مجموعة من الأفراد. وبحسب ما أذكر، فإنّهم فقط بضع مئات في كلّ تعاونية. وانظر إلى جماعة الهيبيز في عام 1960م، كيف تفرّق أغلبهم بعضهم عن بعض تحت ضغط الخلافات الداخلية.

- أنا متأكد أنّه بإمكاننا إلهام الناس ذوي النوايا الحسنة بنسيان مصالحهم الشخصية لخدمة مشروع أكثر طموحاً يتجاوز فرديتهم.

- إنّها العودة إذاً إلى عصور ما قبل التاريخ. علاوة على ذلك، وهذا ما اكتشفته بنفسك؛ إنّ أطلانطس مجتمع قديم من الطراز القبلي. قلت لي ليس لديهم عجلات ولا معادن ولا أحصنة. وهذا فقط لأنّه لم يكن قد

اخترعت بعد. إنّك تجعل من العودة إلى حالة الصيد وجمع الثمار شكلاً من التطور! وإذا أكملنا معك على هذا المنوال، فإنّ الإنسان البدائي سيصبح الشكل الأكثر تقدماً للحضارة. وبهذا نكون عدنا من حيث بدأنا. لا أستطيع أن أصدق أنك أستاذ تاريخ! فأنت لم تفهم شيئاً من فكرة التطور. لا بل إنّك تبدي إعجابك حتى بقبائل الإنسان ما قبل التاريخ لأنّها كانت تأكل الجذور ولأنّها لم تكن منظمة من قبل الحكومة!

– إنّهم لا يعيشون في قبيلة، وإنّما في مدينة كبيرة ذات هندسة معمارية ناجحة وآثار مدهشة. إن كانوا لا يملكون العجلات والمعادن والأحصنة، فلأنّهم لا يحتاجون إليها.

نهض ليحضر القهوة، وفي طريقه، فكّر في أحسن طريقة لإقناع إيلودي. وحين عودته إلى الطاولة أكمل.

– ما لا تأخذينه بالحسبان، هو الطريقة التي طوروا فيها قدراتهم الروحية.

شربت رشفة من قهوتها الحلوة. كانت العاصفة في الخارج تصدر أنواراً باهرة. ومن ثمّ رفعت خصلة شعرها الأشقر.

– إذاً، فهم يمارسون الشامانية[1]. لذلك اعذرني، فأنا لست مهتمة بهذه الأمور. فهذه تبقى سمة تطبع الشعوب البدائية.

– يجب تغيير النمط المتبع في مجتمعنا بشكل كامل. أنا أكلمك عن قفزة في الوعي تؤدي إلى حالة عليا من الرفاهية.

– دون نقود ودون عمل ودون عجلات...؟

– مع مكاسب أخرى تبدو لي أكثر أهمية؛ مثل الصحة والرفاه وسكينة الروح وفرح كوننا معاً والتناغم مع الطبيعة.

– هذا طوباوي...

– لقد شاهدتها.

– بعيني عقلك أثناء التنويم المغناطيسي التراجعي؟

1- دين بدائي يتميز بالاعتقاد بوجود عالم محجوب هو عالم الآلهة والشياطين وأرواح السلف. وهم يستخدمون السحر لمعالجة المرضى ولكشف المخبأ والسيطرة على الأحداث. المترجمة

- أنا متأكد أنّه بإمكاننا المساعدة في تحقيق ذلك يوماً ما. إنّ نظامنا وصل إلى مرحلة الإنهاك. وسيتوجب إيجاد شيء آخر. انظري إلى الناس من حولك؛ إنّهم جميعهم متوترون، ومرضى ومحبطون. إنّهم غير راضين عن عملهم، غير راضين عن علاقتهم، غير راضين عن جسدهم. يطمئنون أنفسهم بحشو أجسادهم بالمهدئات والمنومات ومضادات الاكتئاب، ويقضون المزيد والمزيد من الوقت على شاشاتهم التي استحوذت عليهم وهي تقوم ببث المعلومات الأربع: «استهلكوا»، «انتخبوا»، ومن ثمّ «شيخوا»، و«موتوا». إذا لم نفعل شيئاً لمنع التاريخ من المضي في الاتجاه الخاطئ، فسيصبح الناس... حمقى أكثر فأكثر.

نظرت حولهما وأدركت أنّ بعض زملائهما يستمعون لحديثهما. لذا تحدثت بصوت أكثر هدوءاً.

- رينيه! أنت الذي لطالما تشبثت بالحقيقة، لقد وقعت الآن في غرام الوهم. أنا شخصياً أفضل عالمنا بما فيه من أخطاء على عالم أطلانطس المثالي وغير الحقيقيّ. إنّه ليس سوى حلم طفوليّ. هيّا، عد إلى رشدك. أطلانطس ليست حقيقة، إنّها مسرحية خيالية سحرتك مثل الفراشة التي تنجذب إلى اللهب الذي قد يحرق أجنحتها.
- لم يكن باستطاعتي اختلاق ما رأيته. إنّ هذا يأتي بالتأكيد من مكان ما.
- من لا وعيك. إنّها رؤيتك أنت عن أفضل العوالم الممكنة. المشكلة هي أنّك تريد عرضها الآن على تلاميذك كأنّها حقيقة.
- إنّ هذا قد وُجد بالفعل. أنا أعرف ذلك.
- أنت لا تملك أيّ دليل.
- سأمتلكه.

في هذه اللحظة سمعا ضجة في الجزء الخلفي من المطعم. فقد دخل رجَلان يرتديان سترات جلدية، وراحا يستجوبان الأساتذة الجالسين على الطاولة والذين انتهى حديثهم بالإشارة إلى أستاذ التاريخ.

توجّه الرجلان إلى طاولته. قام الرجل الأطول بإخراج بطاقة ثلاثية الألوان مكتوب عليها اسم «الشرطة».

- سيد توليدانو؟ تفضل واتبعنا لو سمحت.

وهكذا، انتهى الأمر. كنت أتمنى أن أنجو من ذلك، ولكن لم تكن تلك سوى مسألة وقت.

تدخلت إيلودي.

- ماذا أصابكم؟ لا يمكنكم إيقاف أحد هنا، إنّ هذا حرم مدرسيّ.

- السيد توليدانو يعرف بالتأكيد سبب وجودنا هنا.

- دعكِ من ذلك يا إيلودي. هل تتذكرين ما قلتِه لي حول صندوق باندورا؟ حسناً، لقد كنتِ محقة، هنالك أحياناً وحوش تخرج من الصندوق ولا نعود نستطيع إرجاعها إلى الداخل... حدّثتكِ عن الشخصيات المتعددة، ولم يكن ذلك مصادفة؛ أنا لست هذا الرجل اللطيف الذي تعرفينه فقط. أنا أيضاً... عدة شخصيات أخرى.

ترك الشرطة تقوده دون دفاع، وتحت الأنظار الماكرة للأساتذة الآخرين.

-41-

- يدعى هيلموت كرانتز.

تعرّف رينيه إلى السكينهيد. بعد أن عرض عليه الشرطيّ صورة الجسد المتورم والوجه الأبيض المنتفخ للشخص الذي اعتدى على رينيه قبل عدّة أيام.

- يبدو أنّه كان رجلاً طيباً وكريم النفس يتمتع بحسّ الدعابة. وقد تمّ العثور عليه من قبل صيّاد بعد أن علقت الجثة بخيط صنارته. وفي المشرحة، اكتشفنا وجود طعنة بسلاح أبيض من أنواع الخناجر، وهي التي تسبّبت بمقتله وليس الغرق.

كان الشرطيّ ذا مظهر لطيف ولكنّه صارم. لديه شارب رفيع يشبه كثيراً شوارب جنود الحرب العالمية الأولى الذين كانوا يرافقون هيبوليت.

- أنا الملازم رازييل من الشرطة الجنائية. استطعنا تحديد هويتك بعد نشر صورة القتيل. فقد كان متشرد آخر يختبئ بعيداً شاهداً عمّا حصل، وقد رأى رجلاً يهرب بسيارته. استغرق هذا المتشرد وقتاً للمجيء إلينا

ولكنّه جاء وأدلى بشهادته أخيراً. لقد حدّد لنا وقت وقوع الحادثة ووصف سيارة المعتدي. وبفضل كاميرات المراقبة، استطعنا التعرف على لوحة السيارة واكتشفنا أنّها تعود لحضرتكَ. ما هي أقوالك عن الحادثة، أخبرنا ماذا جرى بالضبط؟

– لقد هدّدني بسلاحه، كان يريد نقوداً. لذا تعاركنا وسقط في النهاية على خنجره.

حدّق به الشرطيّ طويلاً.

– هذا كلّ شيء؟

– إنّها الحقيقة، والحقيقة تكون دائماً قصيرة.

أعاد الملازم رازييل قراءة الملف وهو يمسّد شاربه الرفيع.

– في جميع الأحوال فإنّ «حقيقتك» هذه لم تقنعني كثيراً. فقد قال المتشرد الذي كان يراقب المشهد من بعيد، إنّه أنت من اعتدى عليه وكان يبدو أنّك تستمتع بذلك. إنّ كلامه عكس كلامك.

– بالطبع سيكون عكسه.

– لا تظنّ أنّنا سنصغي إلى كلامك أكثر من كلام المتشرد فقط لأنّك تبدو مثقفاً.

– أنا لم أزعم هذا مطلقاً.

أصبح الملازم رازييل مُصرّاً أكثر.

– ما الذي تظنّه يا سيد توليدانو؟ هل تعتقد أنّه في هذه الأيام في فرنسا، نستطيع أن نصبّ جام غضبنا على رجل مسكين فقط لأنّه متشرد؟

– لقد كنت في حالة الدفاع الشرعيّ عن النفس، لقد كان سكينهيداً يحمل إشارات نازية.

– لقد كان رجلاً يعيش على الغالب حياة أكثر صعوبة من حياتك يا سيد توليدانو.

– لقد قلت لك إنّني كنت في حالة الدفاع عن النفس.

– سنكمل التحقيق في الأمر، ولكنّك ستبقى حالياً في الحجز. وسنبحث عن شهود آخرين وعن دلائل أخرى. وإنّه في الحقيقة لمفاجئ برودك

ولا مبالاتك رغم هول الحدث وهو قتلك إنساناً! أرجو أن تكون مدركاً أنّ قيامك بإلقاء الجثة في النهر لا يصبّ في مصلحتك. ومع ذلك فقد قمت عمداً بالتخلّص من الجثة، أليس صحيحاً؟

ذكرته جملة «أليس صحيحاً؟» بالمنومة المغناطيسية. هذه الصيغة التي تجبر الطرف الآخر على قبول ما يُقال، إنّها صيغة تلاعب. قال رينيه لنفسه لماذا لا يجرب هو أيضاً التلاعب بمحاوره.

ماذا لو حاولت تطبيق تقنية 3+1؟

– هل توافقني الرأي بأنّ جماعة السكينهيد قد يُظهرون أحياناً هيئة عدوانية؟

– نعم.

– هل توافقني بأنّهم غالباً ما يكونون مسلحين؟

– بالطبع.

– هل تعترف بأنّه قد يحصل أحياناً أن يقوموا بتهديد المارة بأسلحتهم كي يتشلوا منهم النقود؟

– نعم ولكن...

– حسناً، إن حصل أن اعترضك في يوم ما سكينهيد حاملاً سكيناً، سيتوجب عليك...

– ... الدفاع عن نفسي بالطبع، وأن أقتله إن لم يكن لديّ خيار آخر، ولكن إخفاء الجثة هذا ما لا يمكن فعله تحت أيّ ظرف من الظروف!

اللعنة، إنّ تقنية 3+1 لا تنفع دائماً. لنجرّب شيئاً آخر وهو التخيّل.

– تخيل أنّ أحدهم اعترض طريقك ومعه سكين وقام بتهديدك طالباً المال. وحتى قبل أن تجيبه، أظهر لكَ أنّه يريد غرز السكين في جسدك، ماذا ستفعل حينها؟

– سوف أهرب.

– لم أستطع ذلك، لم يكن ورائي سوى النهر.

– سوف أصرخ.

- كنّا وحدنا. وبما أنّك تتقن بالطبع العراك الجسدي، أعتقد بالأحرى أنّك كنت ستفعل مثلي تماماً، أي أنّك ستحاول إبعاده.

- ولكن لن أقتله.

- الآن، تخيل أنّه أخرج سكيناً أخرى أكبر من تلك وتقدّم نحوك، ماذا ستفعل؟

- سأراوغه.

- وإذا فشلت، ستكون بالضرورة مجبراً على قتاله. وتخيل أنّه أثناء العراك غرز بنفسه سلاحه بجسده.

- سوف أطلب النجدة.

- في حالة الذعر التي تلي العراك الجسدي، هل سيكون لديك سرعة البديهة للاتصال بالنجدة؟

- بالطبع.

- ربّما لأنّك شرطي ولديك أعصاب باردة. ولكن أنا أصبت بالذعر واعتقدت...

- ... من الأفضل التخلص من الجثة برميها في النهر، آملاً ألّا يجدها أحد، أليس صحيحاً؟

- إنّ هذه ردّة فعل طبيعيّة.

عاين الملازم ملفه.

- إذاً هل تعتبر نفسك شخصاً «طبيعياً» يا سيد توليدانو؟

- بالتأكيد.

- اسمح لي أن أشكّك بذلك. ففي أيامنا هذه وبوجود الإنترنيت، كلّ شيء ينتشر بسرعة ونعرف الكثير من الأشياء عن كل العالم بوقت قصير. وقد انتشر لك هذا الفيديو على الإنترنيت وأنت تحاول بكلّ صراحة، إقناع تلاميذك بأنّ أطلانطس ومن ثمّ الطوفان قد حدثا بالفعل. هل تعتقد أنّ هذا سلوكاً يبدو طبيعياً من أستاذ تاريخ سليم العقل موكل إليه تربية الشباب؟

- ما علاقة هذا بالتحقيق عن «غريفك» ؟
- أعتقد أنّك تعاني من حالة مرضية تسمى بالشخصيات المتعددة. لقد تمّت الإشارة إلى مثل هذه الحالة من قبل الكاتب ستيفنسون في روايته (قضية الدكتور جيكل والسيد هايد الغريبة). أي أنك في النّهار تكون أستاذ تاريخ، وفي الليل تتحول إلى قاتل للمتشردين. ومن يعلم، ربّما نكتشف خلال التحقيقات أنّ هذه ليست جريمتك الأولى.

كان بجانبهما متهم بدأ بالصراخ، ومن ثمّ قلب مكتب الشرطي بجانبه قبل أن يتمّ إخضاعه من قبل عدد من عناصر الشرطة.

يبدو أنهم هنا قد اعتادوا التعامل مع الأشخاص غير المرغوبين الذين لا يسيرون مع بقية القطيع.

- ماذا سيحصل معي؟
- بالنسبة لهذا النوع من الجرائم، فقد تتعرّض للسجن من سبعة إلى عشرين عاماً. هذا يعتمد كثيراً على مدى اكتظاظ السجون، وعلى مزاج القاضي بالدرجة الأولى وعلى مهارة المحامي بالدرجة الثانية.

عادت العزّة إلى عينه.

وهكذا، لقد تمّ الأمر، ووصلتُ إلى ما أنا عليه. توقفت حريتي، وسأكفّر عن الموت الذي تسبّبت به. سينتهي على الأقل إحساسي بالذنب والخوف من توقيفي. كلّ شيء الآن يسير في وضعه الطبيعي. لقد قتلتُ أحدهم وبالتالي ها أنا الآن أدفع الثمن.

- يبدو أنّك تتعامل مع هذه الحالة بكثير من الارتياح يا سيد توليدانو.

قال رينيه لنفسه إنّه تعلّم من جيب الكفّ عن التوتر والقلق حيال أحداث لا يمكنه السيطرة عليها. شعر أنّ قبول الأمر هو شكل من أشكال الحرية.

قال رينيه غير مبالٍ.

- ماذا سيتغير إن غضبت؟

مسّد الشرطيّ شاربه.

- إنّ الناس بشكل عام في مثل حالتك يبدؤون بالصراخ بأنّهم أبرياء،

ويعبرون عن غضبهم وإحساسهم بالظلم. حتى إنّ بعضهم يبدأ بالعراك أو يلقون اللوم عليّ شخصياً. وهذه التصرفات غالباً ما تشير إلى براءتهم. أمّا المذنبون فهم الأكثر أناة.

ابتسم أستاذ التاريخ ابتسامة حزينة.

- لماذا سألقي اللوم عليك؟ لا علاقة لك بشيء أبداً، أنت تقوم بعملك فقط. وأنا أتبع قدري بكلّ بساطة.

- يمكننا القول إنّك شخص قَدريّ. لم يسبق لي أن التقيت بشخص قلت له إنّه من الممكن أن يُزجّ به في السجن لعدّة سنوات، ويأخذ الأمر بهذا الشكل الجيد.

يجب القول أيضاً إنّ دماغي مشغول بإنقاذ ثمانمائة ألف شخص.

صافحه الملازم منهياً هذه المقابلة. ومن ثمّ أشار إلى شرطيين باصطحابه إلى الزنزانة. كان بداخل الزنزانة رجل سكير نائم يشخر بقوة، وفتاة مومس تبدو مستغرقة بمهمة مضغ علكتها، بالإضافة إلى شاب يبدو شاحباً وعيناه غائرتين مرتجفتين. كما رأى على الزجاج بقايا دماء عالقة.

- صباح الخير، قالها رينيه للجميع.

نظر إليه الشاب والمرأة بفظاظة ولم يردّا التحية. جلس رينيه وراح ينتظر.

فجأة، استيقظ السكير على إثر حازوقة وتقيأ بعدها سائلاً أصفر وأحمر ذا رائحة كريهة ومثيرة للاشمئزاز. نادت المومس كي نتحرك لتنظيف هذه الإفرازات. فسخر منها الشاب الشاحب.

نظر رينيه عبر النافذة إلى الغيوم التي لا تتوقف عن نشر ظلالها العاتمة.

كلّ شيء رمادي هنا. ليس في هذا المكان عصافير ولا فراشات ولا زهور متعددة الألوان.

لقد بدأ يشعر بالحنين إلى ما رآه في أطلانطس.

-42-

فُتحت الزنزانة، وقدّموا لهم السندويش. كزّ الشاب الشاحب على أسنانه

ومن ثمّ فجأة، نهض وضرب رأسه بعنف بزجاج النافذة البلاستيكي تاركاً أثراً عليه.

- أنا لست جائعاً. أعطوني جرعة! لن أستطيع الصمود أكثر!

بما أنّ أحداً لم يستجب له، أخذ يضرب رأسه بقوة أكثر فأكثر على النافذة إلى أن ملأها ببقعة دم حمراء كبيرة.

تجشأ السكير وأطلقت المومس ضحكة رنّانة.

إنّني مع حثالة المجتمع.

السجون لهؤلاء الذين يعتبرونهم منبوذين. إنّها مأوى من أجل المُنهكين.

تذكر من جديد أنّ المجتمع الأطلانطسي نجح في الحفاظ على وحدة المجتمع الإنساني، ولا وجود فيه لأيّ إنسان منبوذ ولا مُهمش ولا غزاة ولا ثوار.

إنّ الضربات المستمرة لرأس متعاطي المخدرات على الجدار الشفاف تتزامن تماماً مع ضربات عقارب الساعة. دخل شرطيّ وطلب منه التوقف عن ضرب رأسه بالجدار، ممّا جعل الشاب يجيب من جديد:

- أنا بحاجة لجرعة!

تجاهل الشرطي كلامه وفضل الذهاب. بينما واصل الآخر حيلته.

الوعي ثم اللاوعي وأخيراً العقل الباطن. ما إن نجتاز حاجز اللاوعي، حتى نجد أنفسنا في العقل الباطني حيث تختبئ كل الوجوه الأخرى من الشخصيات.

وراء هذا السكير وهذه المومس وذاك المدمن دوافع كانت قد خُلقت في حيواتهم السابقة.

لا بدّ أنّ هذه المومس كانت «أختاً» صالحة. ولكنّها شعرت بالملل من هذا الحال. وربّما كان السكير محروماً من الكحول في حياته السابقة. والمدمن... لا أعرف، هل من الممكن أن يكون شخصاً أراد الابتعاد عن عالم ديكارتي مفرط بالعقلانية بالنسبة له؟

لا ينتظر رينيه توليدانو سوى شيء واحد، أن تصبح الساعة 23:23،

الساعة السحرية للقاء جيب. عدا عن اللقاء به، شعر رينيه أنّه بحاجة ماسّة للتواصل مع هذا العالم المتناغم. يريد رؤية مدينة ميم- سيت من جديد، مدينة الزهور التي تقع على سفح البركان. ويريد أيضاً رؤية ابتسامة جيب الهانئة.

قرّر رينيه حين أصبحت الساعة 23:15 الوقوف ومناداة الحارس.

- عفواً، هل يمكنني الذهاب إلى الحمام؟

رافقه الحارس إلى هناك. لاحظ رينيه أنّه لا يوجد مزلاج على باب الحمّام.

أخيراً وصلت إلى الحمام، لا يوجد مكان هادئ سوى هنا.

لقد سبق أن تنبأت ليونتين بذلك. فهذا المكان يمكنه بسهولة أن يصبح مقصورة السفر في حيواتي السابقة. وما يجعله عملياً أنه يوجد في كلّ مكان ولا يحتاج لأية معدات.

جلس رينيه متربعاً حينما حلّت الساعة 23:21، دون أن يعير انتباهاً للكتابات والبقع القذرة الموجودة في المكان. كان ظهره مستقيماً بوضعية اللوتس وعيناه مغلقتين. شاهد السلم، ونزل الدرجات بشعور من الارتياح. فتح الباب رقم 1، ولكنّه لم يجد نفسه هذه المرة على شاطئ أشجار جوز الهند.

-43-

كانت القطة تنظر إليه على بعد بضعة سنتيميترات من وجهه. ففهم أنّه في المكان الذي يعيش فيه جيب. الغرفة ذات لون رملي، وفيها فتحة كبيرة يمكن من خلالها تمييز وجود مجموعة كبيرة من النباتات التي نرى من ورائها الهرم الأزرق. ليس في الغرفة زجاج ولا أبواب، وفي وسطها سرير دائري محاط بالزهور وبوسائد صفراء ووردية وحمراء. وليس فيها أيضاً زوايا، وإنّما خطوط مائلة فقط، وكلّ شيء مفتوح. عُلّقت على الجدران والسقف المنحني خرائط للسماء على لفائف من ورق البرشمان النباتي. حيث تمثل النقط مواقع النجوم والكواكب.

كان الأطلانطسي يجلس على مقعد حجري.

- أعرف أنّك هنا، مرحباً يا رينيه. قلت لنفسي إنّه في هذه الجلسة الجديدة، عوضاً عن الالتقاء على الشاطئ، سيكون من الحميمي أكثر المجيء مباشرة إلى منزلي.
- شكراً لك، أقدّر هذا كثيراً.

نهض الأطلانطسي ودعاه إلى شرفته حيث توجد أشجار مثمرة ونباتات تحمل ثماراً من الخضار. بعض القطط قد اختارت من هذه الحديقة مسكناً لها، ولكنّها لم تبدِ تضايقها من وجودهما. يمكن للباريسي من هنا، أن يتأمل روعة مدينة ميم- سيت.

بقدر ما كان الجو منعشاً داخل الغرفة، كان الجو حاراً في الخارج في مثل هذه الساعة من الصباح.

لم يستطع رينيه أن يشيح بناظريه عن المدينة ذات آلاف الشرفات والحدائق. تأمل الطرقات الست مع ينابيعها الرئيسية.

إنّ إحساسه الأول بالإعجاب تبعه قلق من فكرة أنّ هذه المدينة سوف تهلك. فاجتاحته لوهلة قصيرة رغبة أن يبقى هنا معهم كي يساعدهم في التعامل مع هذا الطوفان.

- سوف يتوجب عليك في يوم ما أن تأخذني لزيارة مدينتك باريس، قاله له جيب. أنا أيضاً أرغب برؤية عالم المستقبل.

بعد أطول مدة ممكنة.

- بالطبع.

أشار جيب من أقصى شرفته إلى مبنى كروي تماماً، وحجمه أصغر بكثير من حجم الهرم الأزرق.

- هناك مجلس الأربعة والستين حكيماً. لقد ذهبت لرؤيتهم البارحة مساءً وحدثتهم عنك.
- عني أنا؟

صعدت قطة على السياج ومشت عليه بتوازن. أدرك رينيه أنّ القطط على عكس الأطلانطسيين الآخرين، تستطيع تمييز وجوده تماماً.

- لقد قلت لهم إنّ طوفاناً سوف يغمر جزيرتنا وسيُغرق ويُخفي كلّ ما فيها. وقلت لهم إنّه في المستقبل، لن نكون سوى مجرد أسطورة، وإنّ غالبية الناس سيعتقدون أنّنا لم نكن موجودين أصلاً.
- كيف تلقوا هذه الأخبار؟
- بعد تشاور طويل فيما بينهم، انتهوا باستنتاج أنّه ليس هناك ما يدعو للقلق.
- عفواً؟
- تذكر أنّه إن كنت تجدنا هادئين إلى هذه الدرجة، فلأنّ الأفكار التي تحرّكنا هي من مثل: «لا شيء يدعو للقلق»، و«الخوف هو المصدر الوحيد للخطر»، و«كلّ ما يحصل معنا هو لمصلحتنا».

شاهد رينيه من مكانه المرتفع، امرأتين قد توقّفتا للجلوس على مقعد ومن ثمّ تبادلتا القبل.

- إذاً، استمع إليك الحكماء الأربعة والستون، وصدقوا كلامك ومع ذلك قرروا أنّه لا داعي للقلق؟
- برأي الحكيم الأكبر سناً الذي يدعى «شو»، أنّه إن كان هذا ما سيحدث فلأنّه يجب عليه أن يحدث، وبالتالي لن نستفيد شيئاً من معارضة الطبيعة. يجب أن نقبل بأنّ العالم يتغيّر. وكما قال: «كلّ من يولد سوف يموت، وكلّ من يموت سوف يخلق من جديد». وقال أيضاً: «تسقط أوراق الأشجار في فصل الخريف كي تستطيع البراعم الجديدة النمو في فصل الربيع».
- ومع ذلك، أخشى أن يكون هذا الدمار أكثر كارثية ووحشية من مجرد شتاء بسيط! وبالنسبة للبراعم، فأنا لست متأكداً من أنّها ستستطيع النمو من جديد إن غرق كلّ شيء فعلاً.
- أعرف، لقد قلت لهم كلاماً مماثلاً. ورغم ذلك فقد اعتبروا هذا جزءاً من المخاطر المقبولة بالنسبة لهم.
- حتى فكرة الفيضان والغرق؟
- أجاب شو على هذا بأنّ الطبيعة التي تتجلى أحياناً بهذه الصور تريد

تذكرتنا بمكانتنا ككائنات زائلة. حتى إنّه علّق مازحاً بأنّنا في حال غرقنا سنستطيع توطيد علاقتنا مع الدلافين.

سمع رينيه أناساً يغنون في جوقة واحدة، وتبدو أصواتهم آتية من منزل مجاور.

- وأنت، ما رأيك يا جيب؟

- بقدر ما أتقبّل بسلاسة فكرة موتي الشخصي، أنا قلق عمّا سبق أن ذكرته من دمار جماعي، وعلى الأخص، نسيان حضارتنا وروحانياتها وهذا ما أجده الأسوأ في ذلك. أعتقد أنّه إن كان هناك إمكانية لإنقاذ ذاكرة شعبنا، فيجب القيام بها.

- إذاً أنت لا تقبل رأي شو ومجلس الأربعة والستين حكيماً؟

- أعتقد أنّ نظام «لا شيء يدعو للقلق» وصل إلى حده بعد لقائي معك تماماً. فبعد أن أخبرتني سابقاً أنّ هناك شيئاً رهيباً سوف يحصل لنا، أصبح علينا الآن أن نقلق بالضرورة.

- ماذا يغيّر فعلياً أن يصدّقك مجلس الأربعة والستين حكيماً دون فعل شيء حقيقيّ؟

- يُستمع لهم عندما يقدمون نصيحة بحكم خبرتهم وحكمتهم. وبالتالي إن رفضوا أخذ تحذيرك بعين الاعتبار، فسيكون هناك احتمال ضئيل أن يساعدني أحد ما ببناء القارب الذي من المفترض أن ينقذنا.

لمح رينيه لأول مرة مجموعة من الأطفال الذين بدت أعمارهم لا تتجاوز العشر سنوات على الأكثر. كانوا يلعبون معاً بألعاب المهارة والكرات دون وجود أيّ بالغ ليراقبهم أثناء لعبهم.

- يجب عليك بناء القارب بسرعة. فالطوفان قد يحدث في أيّ وقت.

- الخوف ضروري في الوقت الحالي. ما كان يمثل دائماً مصدر قوة لنا أصبح في هذه الحالة الخاصة نقطة ضعفنا.

- ربما هذا هو الوقت للعودة إلى المنعكسات البدائية للخوف.

- لا يمكننا تغيير عقلية شعب بأكمله بهذه السرعة. فكي نخاف من الطبيعة، يجب اعتبار أنّها قد تكون عدوّاً. ولكن بالنسبة لنا، فإنّ

المحيط والأرض والحيوانات والنباتات كلها عناصر مفيدة بالضرورة.

اقتربت القطة من جيب الذي راح يداعبها. أجاب رينيه:

- مع ذلك، يجب القيام بشيء ما. إنّ وجودي هنا ليس على سبيل المصادفة.

- أوافقك الرأي بشأن هذا يا رينيه.

- أنا مقتنع تماماً بأنّ رجلاً واحداً يستطيع أن يغيّر مسار التاريخ، خصوصاً في حالتك أنت، اقبلْ نصيحتي. لا تنسَ أنّك اخترتني لأنّك أردت معرفة الفرد الذي سيكون له الأثر الأكبر على تاريخ معاصريه من بين جميع تجسداتك المستقبلية.

- فكرت في ذلك أيضاً. وبما أنّك اقترحت لي وسيلة لإنقاذ ذاكرة حضارتي، فلهذا ربّما يجب عليّ الإصغاء إليك. فأنا أردت في النهاية، من خلال رغبتي بلقاء تجسّدي الأكثر تأثيراً، أن أتعلّم منه كيف أتصرّف في زمني هذا.

بقي أستاذ التاريخ مفتوناً بمشهد هذه المدينة التي تعود إلى ما قبل التاريخ القديم. لم يستطع منع نفسه من الإعجاب بملابس النسوة وضفائرهنّ المجدولة. ما يثير اهتمامه، هو هذا الجمال الطبيعي المميز الذي يعلو وجوههنّ الوادعة.

تبدو هيئة كلّ هؤلاء الناس مسالمة وسعيدة جداً. عالم كامل دون أدنى شعور بالخوف. يبدو أنّ جلّ اهتمامهم يتجه إلى اللباقة والاستمتاع بالملذات.

- لقد أقنعتني فكرتك بوجوب بناء قارب كبير يا رينيه. لذلك ذهبت لرؤية الشخص الذي يعرف الكثير عن المراكب البحرية.

- هل هو مهندس مختص في بناء السفن البحرية؟

- إنّها امرأة تدعى نوت. سألتها كيف نبني سفينة كبيرة لمحاولة استيعاب أكبر عدد ممكن من الناس. وقد قالت لي إنّه حتى اللحظة، ما من مركب قادر على حمل أكثر من شخصين والأخطر من ذلك، أنّه لا يمكننا الإبحار بعيداً فيه.

- كيف هي قواربكم؟

- إنّها مراكب دائرية ذات قاع خشبيّ مسطح.
- مراكب دائرية مسطحة؟ ولكن كيف يتمّ دفعها؟
- يتمّ دفعها من قبل الدلافين. عندما يريد أحدهم التحرّك في المحيط، يأخذ المركب، ومن ثمّ ينادي الدلافين عبر التخاطر الروحي ويرمي الحبال لها في البحر، فتلتقطها بأفواهها وتسحبها. ولكنّ الدلافين ليست في خدمتنا دائماً، وقد يحدث أن يتشتت انتباهها من حين إلى آخر، عدا أنّ لها حياتها الخاصة. والشيء ذاته قد يحدث إن طلب منّا دلفين أن نتزهه على أرض اليابسة، فإنّ هذا سيكون مسليّاً لبضع دقائق، ولكنّنا سنملّ سريعاً.
- ألا تستخدمون الأشرعة؟
- لا أعرف حتى عمّا تتحدث.
- كيف تستطيعون الذهاب بعيداً في البحر؟
- الذهاب بعيداً؟ ما الفائدة من ذلك؟ بالإضافة إلى أنّ هذا قد يكون خطيراً. فحينما يكون هناك أمواج عالية تنقلب مراكبنا باستمرار. وبالعودة إلى موضوع السباحة، فإن لم يكن هناك أيّ دلفين جاهز للعب، فعندها سيصبح الأمر معقداً.
- أمر لا يصدق أن تكونوا متطورين إلى هذه الدرجة في الفنون الروحية ومتواضعين تكنولوجياً. إذاً ليس في مراكبكم عارضة، ولا دفة قيادة ولا مجذاف أيضاً؟
هزّ الأطلانطسي رأسه نافياً.

بما أنهم لا يأكلون الأسماك فهم لم يطوروا الصيد. وبما أنهم ليسوا بحاجة إلى ترك جزيرتهم لاكتشاف الجزر الأخرى أو القارات الأخرى، فليس هناك أيّ سبب لتطوير مراكبهم البسيطة.

- حسناً، إذا أردت النجاة من الطوفان، سيتوجب عليك تطوير الملاحة بالسرعة القصوى. سيكون الهدف هو بناء سفينة كبيرة بأسرع وقت ممكن، بشكلها الطولي مع عارضة موازنة لإبقاء القارب في وضع مستقيم رغم الأمواج، مع سارية بأشرعة كي يُدفع المركب بعيداً عن

الشواطئ، ودفة من أجل التوجيه. لحسن الحظ، أنّني أبحرت على القوارب حوالي سنة 200 ق.م، كما أنّني حينما كنت طفلاً، في حياتي الحالية، قمت ببناء تصاميم للسفن، ومن ثمّ حين أصبحت بالغاً مارست رياضة الإبحار على قوارب شراعية صغيرة.

- لم أفهم شيئاً من كلّ المفردات التي قلتها، ولكن سأكون تلميذك النبيه يا رينيه. وأعتقد أنّ نوت ستكون سعيدة باكتشاف تقنيات الإبحار المستقبلية. إنّها فضولية جداً لمعرفة كلّ ما هو جديد، وحينما حدّثتها عنك قالت إنّها تتمنى التعرف عليك.

- هل صدقتكَ حينما حدّثتها عن قصة الفيضان؟

- لقد سبق لها أن شاهدتْ أحلاماً تنبئية. وهذه المعلومة تتطابق مع واحد من أحلامها المتكررة. صحيح أنّها شابة لكنْ لديها حدس قوي.

- كم عمرها؟

- عمرها مئتان وخمس وأربعون سنة.

- عفواً؟

- نعم، أعلم بما تفكر؛ أنت تتساءل فيما إذا كانت هذه هي المرأة التي من المفترض أن أعيش معها أروع قصة حب عظيمة.

- كلّا، لم أفكر في هذا، ولكن أبعدْ عني شكوكي وقل لي كم هو عمرك أنت يا جيب؟

- عمري ثمانمائة وواحد وعشرون عاماً.

تبع هذا صمت طويل.

هل سمعتُ جيداً؟

- هل تمزح؟

- كلّا، وأنت كم هو عمرك؟

- عمري اثنان وثلاثون عاماً.

- آه؟ إذاً أنت طفل.

راقب رينيه وجه جيب الذي بالكاد تبدو عليه بعض التجاعيد، وجسده الذي يبدو كجسد رجل عمره أربعون عاماً على الأكثر.

- كيف يمكن أن تعيشوا مدة طويلة هكذا؟

- متوسّط أعمارنا في هذا العالم هو تسعمائة عام، وأنتم؟

- ... تسعون عاماً.

تفاجأ الاثنان بإجابة كلّ منهما.

- وحكماؤكم الأربعة والستون ما هي أعمارهم؟

- عمر شو ألف وواحد وثلاثون عاماً. والآخرون تتجاوز أعمارهم الألف عام.

حاول رينيه استيعاب هذه المعلومة.

تباً، إنّ الأشخاص الذين ذكروا في الكتاب المقدس كانت لهم أعمار مماثلة. يفترض أنّ آدم قد عاش تسعمائة وثلاثين عاماً، ومتوشلح عاش تسعمائة وتسع وستين عاماً، ونوح تسعمائة وخمسين عاماً. إنّ هذه الأعمار متوافقة مع ما يقوله جيب. ربّما تكون الحكمة والسكينة لدى الأطلانطسيين مرتبطة تماماً بطول أعمارهم. بالتأكيد، بعد مئتي عام يصبح كلّ شيء نسبياً، فنعتبر أنّ لا شيء يدعو للقلق، ونتعامل مع كلّ شيء بقليل من الجدية، بما في ذلك الطوفان.

انتبه رينيه أنّ جيب يحدّق فيه بفضول مماثل.

لا بدّ أنّه يفكر بأنّني إذا بدوت متوتراً وقليل الحكمة فهذا لأنّني ما زلت طفلاً لم أفهم بعد أي شيء في الحياة. إنّه يتعامل معي كإنسان غير ناضج. أو أنّه يفكر بأنّه في المستقبل إذا كان جميع البشر سيعيشون فترة حياة قصيرة بحسب معاييرهم، سيكون الجميع في هذه الحالة «أطفالاً». مستقبل يتكون من بشر- أطفال.

- ومع ذلك، ثمانمائة وواحد وعشرين عاماً...، كرّر رينيه غير مصدق ما يسمع.

- وأنت، هل حقاً عمرك اثنان وثلاثون عاماً فقط؟ أجاب الأطلانطسي.

فهم وقتها رينيه سبب رؤيته لعدد قليل فقط من الأطفال أثناء مراقبته للمارّة. ذلك لأنّ عدد «المسنين» أكبر نسبياً من عدد الشبان وبالتالي فإنّ الصغار نادرون.

ما يربك في هذا الموضوع ليس فقط أنّهم مسنون، بل إنّهم يتمتعون بصحة جيدة بشكل يفوق الوصف، حتى إن هيئتهم تبدو بحالة ممتازة بالنسبة لكونهم مسنين.

ماذا كنت سأفعل لو أنه بقي لي سبعمائة وتسعة وثمانون عاماً لأعيشها؟ هل كنت سأشاهد جميع الأفلام، وأقرأ كلّ الكتب، وأستمع إلى كلّ أنواع الموسيقى، وأمارس الحبّ مع مئات النساء، وأسافر إلى جميع دول العالم؟

- أعتقد أنّه لدينا الكثير أيضاً من الأشياء ليكتشفها كلّ منّا عن الآخر، قال جيب بتواضع. في جميع الأحوال، أحتاج أنا ونوت في الوقت الراهن، إلى معارفك حول كيفية بناء سفن كبيرة لإنقاذ ما يمكن إنقاذه من عالمنا.

- تستطيع الاعتماد عليّ. سوف أعلّمك كلّ ما أعرفه عن الإبحار، وعن التقنيات عموماً التي من الممكن أن تساعدك في النجاة من هذه الكارثة.

- حسناً وفي المقابل سأعلمك أنا كيف تستخدم روحك على نطاق واسع كي تتجاوز مخاوفك وتعتني بنفسك وتسافر عبر الفضاء، أو تتواصل مع أشكال أخرى من الحيوات كحيوات الحيوان والنبات، وكلّ هذا عن طريق قوة وحيدة وهي الروح. فأنا أفهم الآن أنّه مع هذا الوقت القصير لك في هذا الوجود، لن تمتلك الوسائل لتطوير التحكم بالدماغ.

تأمل رينيه المدينة وسكانها، ووجدهم أكثر إثارة للإعجاب خصوصاً بعد معرفته أنّ غالبية الناس تفوق أعمارهم الخمسمائة عام.

- وتلك التي تدعى نوت، هل تعجبك؟

- نعم، إنّها مميزة حقاً.

- هل أحببتها؟

- بالطبع. وأنت يا رينيه، أين أنت الآن في حياتك؟

- حسناً، أنا حالياً على وسائل الإعلام، لقد دخلت السجن بتهمة القتل، ولكن بعيداً عن هذا التفصيل الصغير فأنا بخير.

- السجن؟

– إنّه مكان يوضع فيه الناس الذين تتوجب معاقبتهم لأنّهم قاموا بجرائم أو اعتداءات.

– جريمة؟

– مثلاً، عندما يقتل أحدهم شخصاً ما.

– ما هذه الفكرة المضحكة، لماذا يقوم بهذا؟

– كي يأخذ ماله على سبيل المثال. آه نعم، نسيت أنّكم لا تملكون المال. حسناً، كي يأخذ ما يملك.

– نحن لا نملك شيئاً.

– أنا أعي أنّني واقع في شراك الغرائز الأولية لعصري حيث كلّ شيء يكون إمّا عقاباً، أو مكافأة، أو نقوداً، ونعيش في رغبة دائمة لامتلاك ما لا نملكه والخوف من خسارة ما نملك.

– هذه الملكية التي تتحدث عنها، تبدو لي فكرة وهمية لطفل خائف يخشى فقدان الأمان والتقبّل والعاطفة. إنّها وجهة نظر الناس الذين يعيشون «فقط» تسعين عاماً. إن كنت قد بدأت تفهم ذلك، فإذاً أنت أصبحت على الطريق الصحيح.

– عليّ أن أعترف لك أنّني متفاجئ بنفسي كوني لست يائساً كثيراً، علماً أنّ الوضع الذي أنا فيه حالياً ليس مريحاً.

علّم رينيه جيب مبادئ الإبحار بالسفن الشراعية وكيفية بناء سطح السفينة المتطاول، والعارضة، والدفة والسارية والشراع، وكيفية استخدام الحبال واتباع الرياح.

كان يقود يد جيب التي راحت ترسم مخطط السفينة المثالية لاحتواء أكبر عدد ممكن من الناس. عملا طويلاً، إلى أن صدح صوت بشكل مفاجئ.

«... هل أنت بخير؟»

اندفع رينيه إلى الباب خلفه، وصعد السلم بسرعة و...

–44–

... فتح ستارة جفنيه بينما كان يحاول استعادة الزمان والمكان اللذين

هو فيهما. توجه أحدهم نحوه من الجهة المقابلة لباب الحمام. سحب رينيه السيفون بسرعة.

- عذراً، قال رينيه للحارس، لقد نمت على المقعد.

راح رينيه يفرك عينيه ويتثاءب.

- كم الساعة الآن؟

- إنّها الثانية عشرة والنصف بعد منتصف الليل. بما أنّ أغلبنا في إجازة، فقد كانت الفتاة في الزنزانة هي من أبلغتنا أنّه مضى وقت طويل على وجودك في الحمام.

عاد رينيه إلى الزنزانة، ووجه إشارة شكر للمرأة المومس.

- هل سقطت في حفرة الحمام؟ سألته المرأة.

- لقد نمت على كرسي الحمام، كرّر رينيه.

- بالمناسبة، بما أنّك تبدو مثقفاً، قل لي ما هي التهمة التي جاءت بك إلى هنا؟ المخدرات؟

- القتل.

- وجهك لا يدلّ على أنّك قاتل. قالت المومس.

- شكراً، ما عدا ذلك فأنا أستاذ تاريخ، وأنتِ؟

- فشلت في نيل الشهادة الثانوية العامة. تهرّبت بهذه الإجابة. ولكن لم أرسب بسبب التاريخ وإنّما بسبب الفلسفة. فقد كان موضوع الفلسفة في الامتحان هو: «هل يمكن أن يكون الإنسان سعيداً؟»، فكان جوابي شيئاً ما من قبيل: «يعتمد هذا الأمر على زوجته». إنّ الفكاهة لا تعتبر شكلاً من أشكال الفلسفة، وأجد هذا مؤسفاً. ولكنّ ذلك على كلّ حال أرشدني إلى مهنتي التي سأقوم بها في الحياة: وحتى دون شهادة، سوف أجعل الرجال بالذات سعداء، وعلى عكس المصححين في الشهادة الثانوية، فإنّ هؤلاء الرجال قاموا بشكري وتهنئتي. بالإضافة إلى أنّه من بين زبائني كان هناك أساتذة فلسفة، وقد بدا عليهم أنّهم يجدونني تلميذة جيدة.

انفجرت ضاحكة على نكتتها قبل أن تستأنف.

- مشكلة الرجال أنّهم لا يعرفون حقاً ما يريدون. ما إن يمتلكوا شيئاً ما، زوجة مثلاً، حتى يبحثوا عن أخرى تكون على نقيض كامل لهذه المرأة.

ذكّر هذا الكلام رينيه بخطاب أوبال حول مهنتها في التحليل النفسي.

- في النهاية، هل تعلم أنّ العدد الأكبر من زبائني لم يكونوا راغبين حتى بالجنس. ما أرادوه حقاً هو الحديث معي.

ضحكت المرأة.

- وجلّ ما كانوا ينتظرونه مني هو أن أكون ببساطة امرأة تصغي إليهم، ولا تقوم بلومهم مثلما تفعل أمهاتهم أو زوجاتهم. حدث مرة أن بقيت ساعة مع زبون راح يحدثني عن صفعة تلقاها على مؤخرته من أمّه، وسببت له صدمة نفسية حينما كان عمره خمس سنوات! إنّني أرخص من الطبيبة النفسية.

- لماذا لا تنامين؟

- أنا مصابة بالأرق. ربما بسبب عملي في الليل تعطّل لديّ نظام النوم والاستيقاظ.

تناولت علكة من جديد وراحت تمضغها بصوت مرتفع. تمدّد رينيه كي يسترخي، فاقتربت منه المومس.

- أرأيت هؤلاء البائسين؟ كم كان سيؤلمني ويقرفني حقاً لو أنّني كنت سكيرة أو مدمنة. فهؤلاء الناس ليس لديهم أدنى احترام لأنفسهم.

أشار لها رينيه بأنّه يريد النوم.

- لماذا قتلت ذاك الشخص؟

- دفاعاً عن النفس، أجاب رينيه متملصاً.

- وأنا أيضاً في بعض الأحيان تتملكني الرغبة في القتل، من منطلق الدفاع عن النفس أيضاً، ولكنّني لم أصل قط إلى مرحلة التنفيذ. لطالما كان هناك شيء ما يوقفني.

سوف تحرمني من النوم.

أخذت تعلك بصوت مرتفع أكثر.

– وأنت يا أستاذ التاريخ، ألم يوقفك أيّ شيء؟

– لقد كان سكينهيداً وأراد أن يأخذ نقودي، ومن ثمّ حاول طعني. ولكن كلّ هذا لم يعد مهماً، سوف أقبل حكم القضاء. كلّ ما يجري معنا هو لمصلحتنا. فجميعنا نعيش الحياة التي اخترناها. وعلينا أن نخوض اللعبة مع الأوراق التي بحوزتنا.

– بالنسبة لي، هناك شيء لا يجري على ما يرام وهو النوم. أودّ فعلاً أن أستطيع النوم، ألا تستطيع مساعدتي؟

ماذا لو حاولت أن أخضعها لجلسة تنويم مغناطيسي؟

– أستطيع المحاولة، سأجرب تنويمكِ مغناطيسياً، إن قبلتِ ذلك طبعاً.

– أنا جاهزة.

يجب أن أعطي غيري ما قُدّم اليّ.

قرّر من جديد تطبيق تقنية 3+1 والتي أصبح يدرك بأنّها تشبه ما يقوم به مندوبو المبيعات الخارجية كي يمنعوا زبونهم المحتمل من طردهم خارجاً.

– أغلقي عينيك.

أخفضت المرأة الشابة جفنيها قليلاً، ومن ثمّ فتحتهما فجأة.

– بالمناسبة، صحيح أنّك لم تسألني، ولكنّني أدعى سيسيليا.

عادت بعدها لوضعية الاستلقاء.

– الآن، أنا أصغي إليك.

– أغلقي عينيكِ وتنفسي ببطء.

نفذت ذلك.

– حسناً، والآن استرخي. ستشعرين مع كلّ نفس بأنّك مسترخية أكثر فأكثر.

تباطأت حركات صدر المرأة.

لقد تمّ بالفعل قبول أوّل ثلاثة طلبات. حان دور الطلب الرابع.

– استعدي للنوم. سيكون نومك طويلاً ومريحاً، نوماً مثاليّاً مليئاً

بالأحلام الجميلة. تصوري مكاناً تشعرين فيه بالراحة ويعطيك رغبة بالنوم. اختاري المنظر المفضل لديكِ، مثل شاطئ أو جبل أو حديقة.

تجهّم وجهها، ومن ثمّ فتحت عينيها فجأة.

- إنّ هذا لا يجدي نفعاً، تعلم، لقد ظهر لي وجه صديقي السابق الذي كان يضربني.
- أنا آسف.
- لا بأس، أشكرك في جميع الأحوال. استريحي الآن جيداً، فلن أزعجك بعد الآن. تصبح على خير.

على الأقل حاولت ذلك. من الواضح أنّ التنويم المغناطيسي ليس علماً عالمياً.

45. مذكرات. تاريخ التنويم المغناطيسي.

تمّ العثور على أقدم الآثار عن استخدام التنويم المغناطيسي في الحضارة السومرية منذ أكثر من 3500 عام.

أشار السومريون إلى هذه الممارسة بأنّها «شفاء بالكلمات». تحدثوا عن ثلاثة مستويات لحالات الوعي تزداد عمقاً واحداً تلو الآخر، ويمكن الغوص فيها كي نجعل المريض يسترخي ومن ثمّ يُشفى.

كما وجد عند المصريين ما يسمى «بمعابد النوم» حيث كان الكهنة يهمسون باقتراحاتهم في آذان المرضى النائمين.

وفي وقت لاحق، كان سقراط الذي كنّى نفسه «منوّم الأرواح»، يرافق تلاميذه بالكلمات كي يجعلهم يهبطون إلى الطبقات الأكثر عمقاً في أرواحهم.

في عهد الملك لويس السادس عشر، كان الطبيب النمساوي فرانز-أنطون ميسمر يعالج مرضاه أثناء جلسات تنويم جماعية لاقت نجاحاً باهراً في الصالونات الباريسية. كان يعتقد هذا الطبيب بوجود سائل كوني حيواني يقوم بخلق تفاعل ما بين البشر، بالإضافة أيضاً إلى خلقه تفاعلاً

بين البشر وبقية الكائنات الحية. ووفقاً له، فإنّ المرض يسببه ضعف دوران هذا السائل. وقد عالج بهذه الطريقة الموسيقي موزارت وهايدن وجلوك وماركيز لافاييت. وفي عام1784م، عيّن الملك لويس السادس عشر لجنتين من الأكاديمية الملكية للعلوم لدراسة أعمال ميسمر. وقد انتهت اللجنتان إلى القول إنّ الطبيب دجال استغل سذاجة مرضاه.

وتوجّب الانتظار حتى عام 1870م، كي نرى الطبيب جان- مارتن شاركو، رئيس قسم في مستشفى سالبترير في باريس وهو يستخدم هذه التقنية من منظور علمي، خصوصاً لمحاولة علاج الصرع والهستيريا. وقد تعرضت أعمال الطبيب شاركو إلى كثير من الانتقادات من قبل زملائه. وكان سيغموند فرويد من بين تلاميذه الذين فهموا أنّه حتى وإن كانت هذه التقنية لا تشفي بالضرورة المرضى، فإن التنويم المغناطيسي يمكن أن يستخدم وسيلةً للاستقصاء.

اكتشف الروسي إيفان بافلوف عام 1890م مبدأ المنعكس الشرطي الذي يربط الحدث العضوي بالمحفزات الخارجية. وكانت التجربة الأكثر شهرة هي تلك التي أجريت على كلاب حيث كان لعابهم يسيل عندما يسمعون الجرس، لأنهم ربطوا هذا الصوت بالطعام؛ إنّ هذا هو منعكس بافلوف الشهير.

بعد عشرين عاماً، اقترح الطبيب ميلتون إيريكسون في الولايات المتحدة الأمريكية، شكلاً من التنويم المغناطيسي أكثر سلاسة وركّز على التنويم المغناطيسي الذاتي للمريض. إنّ المريض مع الطبيب إيريكسون مدعو لمعالجة نفسه بنفسه. حيث ينوّم المريض نفسه بنفسه والمنوم المغناطيسي ليس سوى مرشد مسؤول عن مرافقة المريض.

-46-

مضت أول ليلة لرينيه في الحجز داخل مركز الشرطة بأفضل ممّا كان يتخيله. عندما استيقظ، وجد سيسيليا تشخر بصوت أقوى من صوت شخير السكير. فتح الحارس باب الزنزانة.

- رينيه توليدانو؟ هناك زيارة لك.

نهض وتبع الرجل ذا الزي الرسمي الذي قاده إلى مكتب الملازم رازييل حيث كانت هناك امرأة جالسة.

- إيلودي! ماذا تفعلين هنا!

تعانق الاثنان.

- لقد سبق لي أن قلت لكَ إنّني صديقتك ولن أتخلى عنك أبداً يا رينيه.

- هل أتيتِ كي تطلقي سراحي؟

- كلا، بل كي أحوّلك إلى مستشفى للأمراض النفسية. لقد انتهيت من القيام بجميع الإجراءات الضرورية وجئت من أجل هذا.

عبّر لها عن عدم فهمه. فأشارت له إيلودي بحركة، بأنّها تسيطر على الوضع وأنّه يتوجب عليه الوثوق بها. ومن ثمّ خرجا تحت حراسة الشرطة، ووقفوا في المدخل بانتظار وصول الحافلة التي ستقلّ رينيه.

شرحت إيلودي.

- لديّ صديقة من أيام الطفولة تعمل في المحاماة. لقد اتصلت بها، وشرحت لها وضعك؛ بأنّك لم تكن «مسؤولاً» عن فعلتك لأنّك تعرضت لصدمة نفسية إثر تجربة تنويم مغناطيسي غير ناجحة. وقد بحثت معها عن حلّ. وقامت بالاتصال ومناقشة وضعك مع القاضية التي وافقت على سماع حججها. وبدلاً من السجن، اقترحت أن تخضع للمراقبة داخل المستشفى.

- وهل وافقت القاضية؟

- لقد استجوبتني مسبقاً، وشرحت لها بالتفصيل كيف جرى ذلك في صالة صندوق باندورا. وقد طالبت بمزيد من التحقيقات. ولكنّ المحامية كانت قد أرسلت لها مسبقاً بعض الأدلّة، وهي تسجيل كاميرا فيديو المسرح التي وثقت مشهد جلسة التنويم المغناطيسي التي خضعتَ لها. وقد شاهدوك وأنت تتصرف بهستيريا عالية وتصرخ وتقفز للخروج من مسرح السفينة. لذا اعتبرت المحامية أنّك كنت «تحت تأثير الجلسة». وقد تمّ أخذ فرضية الصدمة النفسية بعين

الاعتبار. سيكون هناك محاكمة، ولكن بالطبع، سيصبح من السهل الترافع بعدم المسؤولية. ولهذا السبب سوف يتواصل احتجازك حتى موعد المحاكمة في مستشفى حقيقي للأمراض النفسية الذي سيقوم بكلّ شيء لشفائك.

– في أيّ مستشفى؟ سانت آن؟

– مارسيل بروست، إنّه مستشفى جديد عصري للغاية ومتخصص باضطرابات الذاكرة. ستكون في قسم مغلق بالطبع، ولكن لديّ صديقاً آخر هناك في الداخل سيوفر لك معاملة خاصة.

– وهناك، ماذا سيفعلون بي؟ سيجرون اختبارات نفسية لمعرفة إن كنت مسؤولاً عن أفعالي؟

تحدثت إيلودي بنبرة صوت أكثر طمأنينة:

– هناك، سوف يصلحون الحادث الذي أصاب عقلك. سيقومون بإزالة هذه «الذكريات المزيفة عن الحرب» التي قلبت كيانك بالإضافة إلى كلّ ما تبعها من هذيان وأوهام. وبعد ذلك، ستعود كما كنت في السابق. أي أنّك سوف «تُشفى».

لم تعجبه الفكرة بالقدر الذي كانت تأمله إيلودي. ومع ذلك، وافق معها، وترك الشرطة تقوده إلى السيارة حيث وجد فيها رجلين بلباسهما الرسمي. أطلقت الحافلة صفارة الإنذار وسارت وسط الزحام الباريسي.

كان المطر حولهم يرغم المارة على السير ببطء، حيث انتشرت مظلاتهم كزهور سوداء في خضمّ هذا المشهد الرمادي.

ما هي الجملة التي كان يكررها جيب؟ آه نعم، «كلّ ما يحصل لنا هو لمصلحتنا بالطبع». ما يزال التحقق من هذه الجملة جارياً.

–47–

– سوف أروي لك هذه النكتة الجميلة.

هذا النوع من الجمل يجعلنا نتوقع الأسوأ.

– أنا متأكد أنّها ستعجبك.

أشكّ في ذلك.

- تقول القصة إنّ هناك رجلاً طلبت منه زوجته في المساء أن يُخرج القمامة من المنزل ليرميها في الحاوية. وحين وصل الزوج إلى الطابق الأرضي، لمح جارته الفاتنة جداً، من باب بيتها المفتوح قليلاً، بثوب الحمام حافية القدمين وهي تخاطبه: «لديّ مشكلة مع مصباح الحمام، هل تستطيع مساعدتي؟». فتبعها الرجل وبدّل لها المصباح. ومن باب شكره، قدّمت له كأس نبيذ ومن ثمّ فجأة، خلعت ثوب الحمام ووقفت عارية تماماً أمامه. دعته بعدها ليتبعها إلى غرفة النوم، وهناك مارسا الحب طويلاً حتى أُنهك من التعب، فنام بعد ذلك. حينما استيقظ بعد مرور ساعتين، طلب من جارته مذعوراً أن تعطيه ظلّ عيون أزرق، وقام بدهن أصابعه به. وعندما صعد إلى منزله، كانت زوجته بانتظاره أمام الباب قائلة: «هل تسخر مني! تحتاج إلى ساعتين كي ترمي القمامة في الحاوية؟ ماذا فعلت خلال كلّ هذا الوقت!» فأجاب الرجل: «حسناً، عندما نزلت إلى الطابق الأرضي كانت جارتنا بلباس الحمام، وطلبت منّي مساعدتها في تغيير المصباح، ومن ثمّ قدّمت لي كأس نبيذ، وبعدها خلعت ثوبها أمامي ومارسنا الحبّ مراراً وقد أنهكتني حقاً وبعدها على ما يبدو غرقت في النوم». فأمسكته المرأة بيده وصرخت به: «هل تريدني أن أصدق هذا؟ تظنّ أنني لم أرَ شيئاً! إنّ أصابعك مغطاة بالطباشير الزرقاء. هل ذهبت مجدداً للعب البلياردو مع أصدقائك!»

ضحك الرجل الذي يرتدي القميص الأبيض على نكتته.

القواعد الذهبية الثلاث لقول النكتة: 1) لا تعلن أنّ هذه النكتة مضحكة. 2) لا تضحك في النهاية. 3) لا تشر بأنّ النكتة كانت مضحكة. إنّ هذا الطبيب النفسي يحتاج إلى العلاج النفسي.

لم يستطع رينيه أن يبعد ناظريه عن الاسم المكتوب في البطاقة المعلّقة على قميصه الأبيض: «الطبيب ماكسيميليان تشوب».

لقد سبق أن سمعت بهذا الاسم من قبل.

لاحظ رينيه أنّ خلف الطبيب جداراً ملأى بأدمغة بشرية تسبح في سائل

أصفر. كما لاحظ أنّه عندما كان في مركز الشرطة وحتى داخل زنزانته، لم يكن هناك قضبان على النوافذ، أمّا هنا فقد جُهّزت النوافذ بسياج سميك.

- قلت هذه النكتة كي أخبرك أنّ مشكلة الحقيقة هي أنّه لا يتمّ الوثوق بها في أغلب الأحيان، وأنّ هؤلاء الذين يقولونها يقضون معظم وقتهم باختلاق الأكاذيب.

لمن تقول هذا...

- أنا متأكد مثلاً أنّك حينما عرضت للشرطة روايتك «الحقيقية» عمّا جرى، لم يصدقوك. لأنّ الواقع غريب بالفعل لدرجة لا يمكن تصديقه. ففي الواقع كلّ شيء متناقض؛ فالأهل لا يحبون أطفالهم، والجنود لا يحبون الحروب، والشرطة لا تحب العصابات، والأساتذة جاهلون، والسياسيون لا يفكرون إلّا بجمع الأموال، والمحللون النفسيون عُصابيون والأطباء النفسيون مجانين! ولن يصدقنا أحد إذا قلنا هذا.

والذين يعملون في التنويم المغناطيسي التراجعي لم ينجحوا في حياتهم كلّها بالوصول إلى واحدة من حيواتهم السابقة، قال رينيه في نفسه كي يكمل قائمة التناقضات التي بدأها الطبيب.

- لذا بالنسبة لنا، أقصد الأطباء النفسيين «الجادين»، فإنّ قضيتنا هي الغوص في غابة العقل البشري لنميز فيه الحقيقة من الأكذوبة. صدقني، كثيراً ما أكون حاضراً مع الشرطة أثناء الاستجواب. والأمر المفاجئ هو أنّه في بعض الأحيان ينجح المتهمون كثيراً في إقناع أنفسهم بأكاذيبهم الخاصة حتى إنّ أجهزة الكشف عن الكذب لا تجدي نفعاً معهم.

لاحظ رينيه وجود ملصقات على الجرار الملأى بالأدمغة، تحمل هذه الملصقات أسماء وتواريخ يبدو بعضها حديثاً.

- إذاً كيف نصل إلى الحقيقة؟ وكيف نعرف من الكاذب؟ حسناً، دون التفاخر بنفسي، لديّ انطباع بأنّني أستطيع النجاح في معرفة هذا بشكل جيد. نسبة نجاحي هي ثمانون بالمائة، وهل تعرف لماذا؟ لأنّني أبقى في مواكبة دائمة لكلّ الاكتشافات الحديثة حول الدماغ وبالتحديد عن الذاكرة. قلت كلّ هذا لأخبرك أنّك بين أيدٍ أمينة وأنّني سأفعل كلّ شيء

لشفائك. وأنه إذا أردت ذلك أم لم ترد، صدقني، بفضلي سوف تتحسن بشكل ملحوظ.

بدا وجه الرجل ذي القميص الأبيض لطيفاً ومطمئناً.

إنها مجرد دعاية بسيطة، يريد إقناعي بالنصر قبل المعركة. أنا لا أحبّ هذا الرجل.

– قالت لي إيلودي إنّ مشكلتك بدأت بعد أن زرعت منومة مغناطيسية فكرة في ذهنك أدّت إلى إصابتك بصدمة في البداية، ومن ثمّ أدخلتك في حالة هذيان قادتك إلى درجة قتلك لرجل. كان متشرداً على ما أعتقد. ومن ثمّ اعتديت على تلميذ. كلّ هذا بسبب فكرة طفيلية. ذكرى مزيفة – وهذا ما أثار اهتمامي – وهي ظهور... «حياة سابقة» !

نطق هذا التعبير بلذة كبيرة.

– أعشق هذا. أنت محظوظ لأنّك أتيت إلى المكان المناسب، فأنا لست مختصاً بالذكريات فحسب، بل قادر أيضاً على محو الذكريات المزيفة. صدقني، إنّنا نفعل المعجزات هنا.

أضاء البرق الغرفة والجرار الملأى بالأدمغة. والرعد الذي أثارته العاصفة تبعه ضحكة مجنونة ورنّانة قادمة من بعيد لنزيل مصاب بالهذيان. أصابت رينيه رعشة برد لم يستطع ضبطها.

مع أنهم أعلنوا في الأخبار أنّ الطقس سيكون جميلاً...

تذكر الآن أين سمع باسم ماكسيميليان تشوب.

إنّه الطبيب النفسي لإيلودي، ذاك الذي عالجها من فقدان الشهية بزرع ذكرى تخيلية عن تحرّش جنسي.

استراح الطبيب أكثر على كرسيّه، وأمسك بيده ملفاً مكتوباً عليه «رينيه توليدانو». قرأه وهو يهزّ رأسه بهيئة ملهمة.

– إن كنت ستعتمد مبدأ زرع الأكاذيب في عقلي بغية علاجي، فلتعلم أنّني على دراية بأساليبك.

– تعلمُها من إيلودي؟

لم يفقد الطبيب تشوب روح الدعابة وقام بوضع إصبعه الأوسط فوق السبابة[1].

– صحيح أنّني أنا والآنسة إيلودي تيسكيت قد مررنا بمرحلة دعني أسميها «الاكتشاف المتبادل». ولكن مع ذلك، صدقني، لقد استطعت شفاءها. لو أنّني لم أتدخل في حينها، لكانت على الأرجح مدفونة اليوم تحت ستة أقدام من سطح الأرض. هل تعلم أنّها حاولت الانتحار ثلاث مرات قبل أن تأتي لرؤيتي؟ كان والداها يائسين، والتضحية بعمها العجوز كانت ثمن إنقاذ حياتها. وأنا من جهتي، لا أشعر بالمسؤولية على اعتبار أنّهم لم يحذروني مسبقاً من أنّ الرجل المتهم كان لديه تاريخ من الاكتئاب الهوسي. لا أستطيع معالجة الجميع في الوقت نفسه.

عاد للضحك من جديد.

نهض أستاذ التاريخ وتوجه نحن باب الخروج، ولكن عندما حاول فتحه أجبره ممرّض أشبه بالمصارع يقف عند المدخل على الجلوس من جديد.

– أريد أن أرى المحامي، قال رينيه.

– أفهم شكوكك يا سيد توليدانو، فالمرضى يخافون دوماً من العلاج لأنّه ينتهي بهم المطاف إلى محبة مرضهم. مثل بعض الناس الذين يعتادون على العرج، ويفقدون رغبتهم بالمشي بشكل طبيعي. في النهاية، أنا أفهمك، فلا بدّ أنّ ظهور قصة مفترضة لحياة سابقة لأمر يثير الحماس.

«الحماس» ليس هو التعبير المناسب.

صدحت من جديد في الممر ضحكة المجنون الرنانة، وسرعان ما غطاها صوت الرعد. لذا ضحك أيضاً ماكسيميليان تشوب بصوت أعلى.

– من منّا لم يتخيل عيشه حيوات سابقة؟ أنا مثلاً، كما تشاهدني الآن، أعتقد أنّني كنت في إحدى حيواتي السابقة رياضياً مهماً، وعلى الأرجح لاعب تنس. وربّما كنت أيضاً محارباً، أو مستكشفاً.

1- إشارة يقوم بها الفرنسيون تعبّر عن الرغبة في درء الشرور وتمني الحظ السعيد. المترجمة

لا بدّ أنك كنت مهرجاً.

- لا أريد البقاء هنا. أعلن رينيه.

- هل تفضل السجن؟ هيا يا سيد توليدانو، صدقني بعد تدخّلي الشخصيّ سوف تتصلح جميع الأمور.

إنّها طريقة كويه للمبتدئين[1]. بعد اللازمة اللغوية التي كانت تستخدمها أوبال؛ «أليس صحيحاً»، تأتي لازمة هذا الطبيب «صدقني!». إنّ الغاية من هذه الصيغ هي إجبارنا بشكل لا واعٍ على قبول ما يُقترح. تماماً مثل بنت الكبّة التي وُضعت ثلاث مرات في لعبة الورق، فجميع هذه الطرق تنتهي بالتأثير على العقل.

- أتمنى حتى أن تخرج من جلساتنا وأنت مفعم بالنشاط، فهذا سيسمح لك بالتغلب على فقدان شغف الحياة الذي غالباً ما يرتبط بعملك كأستاذ. صدقني، أصبح يتردّد عليّ المزيد والمزيد من الأشخاص الذين يمارسون مهنتك نفسها. هؤلاء المساكين، يبدو أنّهم يعانون الكثير. يجب القول إنّها مهنة ليست مفرحة حقاً، يمكن تصنيفها حتى بأنّها مهنة جاحدة. لا بدّ أنّ تحمّل الأطفال أمر منهك جداً. أنا شخصياً لا أستطيع ذلك ولا أتحمله.

أنا أعشق مهنتي، وفي المقابل لا أحبّ هذا الرجل أبداً.

- ضع في اعتبارك أنّنا سنعمل معاً لمصلحتك لتقديم الحجج للمحامي الذي بدوره سيساعدك على استعادة حريتك.

أظهر رينيه هيئة صارمة.

- ما زلت أرى نوعاً من الممانعة في سلوكك يا سيد توليدانو، هل أنا مخطئ؟

نهض الطبيب تشوب وتجول في الغرفة، ومن ثمّ راح يمسّد غرّته الطويلة الشقراء التي نزلت على جبهته.

1- كتاب صدر عام 2013م، يشرح طريقة عالم النفس إميل كويه في الإيحاء الذاتي الإيجابي للمبتدئين. المترجمة

- أعتقد أنّه يحقّ لك معرفة بعض الشروحات. هل تريد ذلك؟

- هل لديّ خيار آخر؟

إنّ هذا هو حظي أن ألتقي برجل ثرثار ليس له مستمعون...

أخرج الرجل ذو القميص الأبيض من خزانته دماغاً من الصمغ بحجم بطيخة ضخمة.

- سوف أشرح لك كيف تعمل الذاكرة.

داعب السطح الوردي.

- إنّ حواسنا الخمس، الرؤية والسمع واللمس والشم والتذوق، تزود الدماغ بمعلومات على شكل نبضات كهربائية صغيرة.

قبل أن يكمل حديثه، تأكد المتحدث أنّ مستمعه متنبه بما فيه الكفاية.

- بعدها يُعاد توجيه هذه المنبهات. فتذهب الصور إلى الفص القفوي من الدماغ، وتُعالج الأصوات واللغة في الفص الصدغي الذي، كما يشير اسمه، يقع على الصدغين، كما تُعالج الحركات واللمس في الفص الجبهوي على مستوى الجبهة.

بدأ رينيه يشعر بالاهتمام بما يقوله الطبيب رغماً عنه. وقد لاحظ تشوب هذا التغير في حال رينيه، فتشجع أكثر.

- كنا نعتقد في السابق أنّ هناك منطقة محددة في الدماغ تجتمع فيها كلّ هذه المعلومات. أي ما يشبه القرص الصلب حيث يتمّ فيه تسجيل البيانات الواجب حفظها. أمّا اليوم فنحن نعرف أنّ المعلومات تنتشر وتخزن تقريباً في كلّ مكان من الدماغ، وحين يتعرض جزء ما من الدماغ إلى التلف، تتولى منطقة أخرى العمل مكانه.

لاحظ رينيه تفصيلاً لم ينتبه إليه حتى تلك اللحظة وهو وجود كرات سوداء ضخمة على الرف تبين أنّها رؤوس مجفّفة لشعب جيفاروس[1].

إنّ الرجل لطيف ويبدو أنّه يستمتع بشرح القليل عن مهنته.

- بماذا نستطيع أن نقارن هذا؟ إنّ دماغنا يشبه الغابة. عندما نضع فيه

1- هو اسم أطلقه الغزاة الإسبان على قبيلة الشاوار في أمريكا الجنوبية، كانوا يقومون بطقوس تقليص الرؤوس أي تقطيع الرؤوس وتجفيفها حتى تتقلص. المترجمة

معلومة، فإنّنا نزرع شجرة تنمو وتتزايد كتلها النباتية. هذه الأشجار هي خلايا عصبية مشبعة بالمعلومات. مثلاً، اسم إيلودي ووجهها ورقم هاتفها تشكل بمجموعها شجرة. وهناك عدة دروب للوصول إلى هذه الشجرة، وأحد هذه الدروب ربّما يكون عطرها أو صوتها أو حتى مشهداً ما مرتبطاً بها.

إنّ هذا من الممكن أن أكتبه كمذكرات.

- إذاً جودة الدروب هي التي ستحدّد لك إمكانية الوصول إلى الأشجار العصبية أم لا... إنّها دروب متفاوتة العمق والعرض تمكنك من إيجاد المعلومة في الغابة. عندما تكون المعلومات غير ضرورية، يختفي الدرب الذي يوصل إليها، وتتوقف بالتالي الشجرة عن النمو وتذبل في النهاية. ولا نقدر بعدها على إصلاح هذه الذكرى.

مرّر يده على الدماغ البلاستيكي كما لو أنّه كوكب مغطى بالطحالب.

- صدقني، لا تختفي أيّة معلومة من دماغنا بشكل كلّي. من المحتمل ألّا تنبت بعض البذور المزروعة، وقد تتوقف بعض الأشجار عن النمو، ولكنّ كلّ شيء يبقى مكانه. أي ببساطة، إنّ الدرب الذي يؤدي إلى هناك إن لم يُستخدم، يصبح السير فيه أكثر صعوبة.

مرّر ظفره في الأخاديد غير المنتظمة لنصفي الدماغ.

- وهناك أيضاً الذاكرة الطويلة الأمد. الجادات العريضة التي تقود إلى الأشجار العالية ذات الجذوع العريضة، والجذور العميقة. وما يحدد طول الطريق وصلابة الشجرة هو عنصر بسيط.

- هل هي العواطف؟ سأل رينيه.

هزّ الرجل رأسه مندهشاً ومعجباً.

- تماماً! إنّ العواطف ترتبط بالطريق أو بالشجرة، وتعطيها أهمية مختلفة. إن كان هذا المستشفى يدعى مارسيل بروست، فلأنّ هذا الكاتب كان أفضل من أوضح هذه الفكرة العلمية؛ بأنّ الذاكرة هي عاطفة. فحينما تناول الكاتب بروست حلوى المادلين، أثارت فيه عاطفة، واستحضرت أمام عينيه صوراً وأصواتاً وروائح وطعمات.

جيد، بدأ هذا يأخذ وقتاً طويلاً. لقد فهمت.

أطلق رينيه تنهيدة كي يظهر أنّه اكتفى من هذا الدرس الذي لم يطلبه أساساً.

- ما سأقترحه عليك كعلاج هو تنظيف غابة عقلك من الأعشاب الضارة والأشواك ونبات القرّاص الذي يسدّ الطرقات التي تؤدي إلى الأشجار. سأضع مبيداً للأعشاب الضارة كي تتحول غابتك إلى حديقة، بطرقات واضحة، وأشجار عالية مزهرة وخلايا عصبية كبيرة وصلبة ستوفر لك وصولاً سريعاً إلى جميع المعلومات المخزنة. إذا نجح علاجي، سوف تنسى كلّ الأكاذيب والأوهام عن حيواتك السابقة.

ليس هذا ما أرغب به. بل عكس ذلك.

- من ناحية أخرى، ستعيش كلياً في الزمن الراهن. كلّ ما ستزرعه سينمو بشكل أفضل. سيكون لديك ذاكرة رائعة. سوف تتذكر أصغر ملذات الوجود، ووجوه جميع الناس الذين تصادفهم، والعطور والمذاقات، والأصوات والموسيقى، والنصوص التي تقرأها، والأفلام التي تشاهدها، حتى أرقام هواتف خمسين شخصاً من أصدقائك.

إنّ ما يقترحه عليّ في الواقع هو إعادة تهيئة دماغي كأنه قرص صلب كي يثبّت عليه برامج جديدة. سبق أن فعلت هذا لحاسوبي، ولكن لا أرغب بالقيام بمثل هذا الأمر لذهني. فهنالك عدة ملفات قديمة تهمني كثيراً.

لم يعد رينيه يستمع إليه.

كلما تحدّث أكثر، قلت لنفسي إنّه لا أحد يعرف أين تتخزن المعلومات حقاً. فنحن نجهل في الواقع، لماذا تبقى أو لماذا تختفي. وكلّ هذه النظريات حول منطقة الحُصين[1]، والعواطف، والمناطق الصدغية ليست سوى هراء لإلهاء الجهلة. مثل التاريخ؛ هناك علماء رسميون يفرضونه لأنهم يبدون متأكدين من أنفسهم. وهناك الكثير من أمثال «الدكتور تشوب» الذين يريدون إثارة إعجاب الفضوليين بأيّ ثمن. ولكنّ العقل البشري أكثر تعقيداً

1- جزء من الدماغ مسؤول عن الذاكرة وعمليات أخرى، سُمي بحصان البحر لأنّه يشبهه، يسمى أيضاً الحُصين. المترجمة

ممّا يقوله. إن كان كالغابة، فهناك أسباب لذلك. فالغابة تجعل جميع النباتات تتفاعل بعضها مع بعض، بينما تسعى الحديقة للفصل بينها. الوضوح والنظافة ليسا من خيارات الطبيعة. أمّا بالنسبة لتجربتي في التنويم المغناطيسي، فهي تثبت بالطبع وجود طبقة في الأسفل، لنقل إنّها غابة لا بل عدّة غابات تحت السطح. فأنا «مثل طبق اللزانيا، مكون من مائة وإحدى عشرة ذاكرة».

نظر رينيه توليدانو إلى الدكتور تشوب وبما أنّه لا يستمع لكلامه، أخذ يتابع فقط حركاته ونظراته دون أن يركز على ما يقوله.

جميعنا لدينا سرّ. ترى ما هو سرّك يا دكتور تشوب؟ ما هي قطعة الجبن المتعفنة التي تخفيها في كهفك؟ هذا هو، مجرد طرح السؤال يأتيني الجواب حالاً. أنت رجل قصير، لذلك تريد السيطرة على من هم أطول منك. هذا هو سرّك. لا بدّ أنّك في طفولتك كنت عرضة لسخرية الأطفال الأطول منك، وكنت تمنّي نفسك قائلاً: «سأنتقم لنفسي في يوم ما». أصبحت طبيباً نفسياً كي تكون على تواصل مع كائنات ضعيفة وسهلة الخداع، كالنساء المصابات بنقص الشهية أو الشره المرضي. إنّ هذا يعوض عقدة النقص لديك. أنت تعمل في هذا المستشفى كي تسيطر على «من هم أطول منك» باسم العلم.

هامت أنظار رينيه توليدانو خلف كتف الطبيب إلى ما بعد السياج الواقي.

ما زال المطر يهطل في الخارج.

ما هذا الحظّ أن تستطيع الوصول إلى طبقات الغابة الموجودة تحت السطح!

أخفض جفنيه بينما كان صوت الطبيب يحتكر المساحة الصوتية، استطاع أن يلمح مدينة الزهور الوردية، مدينة ميم- سيت. هذه المدينة ذات الطرق الست العريضة حيث تسير النساء الجميلات هانئات ومبتسمات ومسالمات، وتسير معهنّ القطط الرشيقة. رأى من جديد المدينة المدهشة بحدائقها المعلقة ومنازلها ذات الشرفات العريضة المليئة بالزهور والفواكه والفراشات والعصافير. رأى من جديد وجه جيب الذي يردّد له: «لا شيء يدعو للقلق» و«كلّ ما يحصل معنا يكون لمصلحتنا». عاد ورأى يد جيب التي كانت وفقاً لإرشاداته، تتبع مخطط بناء الفُلك الذي سينقذه من الطوفان.

- ... هل تسمعني يا سيد توليدانو؟ يبدو أنّك في مكان آخر.

تنفّس رينيه الصعداء ومن ثمّ عاد من جديد لمتابعة المعلومات السمعية والبصرية التي تأتيه مباشرة.

- حسناً، كما أخبرتك، من حسن الحظ أنّنا هنا، قد بدأنا بتطوير علاج جديد سيصنع المعجزات، وسيزيل الأفكار الطفيلية والأشواك ونبات القراص الذي ينمو على دروب غابة جمجمتك. نستطيع البدء بالعلاج هذا المساء إذا أردت. هيّا صدقني، كلّ شيء سيتحسّن، وسوف تشكرني على ذلك.

لا أعتقد هذا.

- أخبرتني إيلودي أنّك تعتبر نفسك أطلانطسياً. هذا جيد، فأنت محظوظ بوجود الكثير من الأطلانطسيين في هذا المبنى، تستطيع أن تتناول العشاء معهم. سوف أطلب من جميع الأطلانطسيين أن يجلسوا على طاولة واحدة، وبهذا تستطيعون تناول... السمك مثلاً!

ضحك على نكتته الخاصة به.

لا أجدها مضحكة أبداً.

- فلتعلم أنّه في جميع الأحوال، كونك صديق صديقتي إيلودي فإنّك ستحظى بعلاج رفيع المستوى، سيكون لديك غرفة فاخرة لك وحدك، وبالطبع ستحظى بعنايتي. ومن ثمّ عندما تُزال جميع الأعشاب الضارة، سيصبح دماغك أصفى وأوضح.

-48-

يشبه مستشفى مارسيل بروست مدرسة جوني- هاليداي. فالجدران إسمنتية، والأرضية مشمعة والواجهات الزجاجية كبيرة وسميكة، والرسوم على الجدران تنادي بالعنف، والموت، وتهديم المجتمع. جميع الناس الذين يمرون يدخنون السجائر بمن فيهم الممرضون كما لو أنّ منع التدخين في الأماكن العامة لا يُطبق هنا.

ربما الفرق بين المستشفى والثانوية هو التمثال على المدخل. فعوضاً عن تمثال مغني الروك مع غيتاره الكهربائي، وُضع تمثال الكاتب مارسيل

بروست بشاربه الرقيق المنحني، وهو حامل بيده قطعة حلوى المادلين. ونُقش على كعب التمثال، بدلاً عن كلمات أغنية «اقرأ»، اقتباس للكاتب بروست يقول فيه: «جميعنا مجبرون أن نحتفظ ببعض حماقاتنا الصغيرة كي نتحمل الواقع».

دخل رينيه إلى مطعم المستشفى البرتقالي والأبيض. ومن بعد أن أخطأ وجلس على طاولة المرضى الذين يعتبرون أنفسهم نابليون، ومن بعدهم طاولة المرضى الذين يظنون أنفسهم عيسى المسيح، حاول رينيه الجلوس على طاولة منعزلة بعيداً عن المرضى الآخرين، ولكن توجه نحوه ممرض وقال له:

- أنت تجلس على طاولة عبدة الشيطان الذين سيصلون قريباً. وفي مرحلة اكتمال القمر يمكن أن يصبح سلوكهم عدوانياً تجاه كلّ من لا يؤدي فروض الطاعة للشيطان. وأظنّ أنك لست بهذا الوارد، لذا أنصحك بعدم البقاء هنا.

حمل أستاذ التاريخ السابق طبقه.

- إذاً أين سأجلس؟

- ما اسمك؟

- توليدانو. أعتقد أنّ الدكتور تشوب كان قد سجّل اسمي على إحدى الطاولات.

بحث الممرض في قائمته.

- آه! أنت الأطلانطسي. لماذا لم تقل لي ذلك منذ البداية؟ تفضل، أطلانطس من هنا. من الطبيعي ألّا تجدهم فهم يجلسون بعيداً.

هناك على الطاولة ثلاثة أشخاص، رجلان وامرأة. جلس رينيه بعد أن حيّاهم بهدوء.

- من أيّ مدينة في أطلانطس أتيت؟ سألته مباشرة المرأة السمينة قليلاً.

سأتفاجأ إن كانوا يعرفون ميم- سيت.

فضّل رينيه الامتناع عن الإجابة، لذا سارع الرجل ذو الشعر الطويل إلى استئناف الحديث بدلاً عن مواطنته:

- إن كانوا قد طلبوا منك الجلوس معنا، فهذا لأنك بالطبع قادم أيضاً من أطلانطس.

قدّم له الرجل الآخر النحيل جداً، كأس نبيذ.

- لا تكن خجولاً، فهنا قد يكون المكان الوحيد الذي تستطيع فيه أن تمارس «أطلانطسيتك» دون تعقيد.

تابع رينيه طعامه بصمت.

- ما زلت لا تريد إخبارنا من أيّة مدينة أتيت؟

- من العاصمة، أعلن متململاً.

- العاصمة أتلانتيس؟

- العاصمة ليس اسمها أتلانتيس، وافق رينيه أخيراً على الحديث، بل اسمها ميم- سيت.

- آه؟ وماذا تعرف عنها أنت يا أيّها السيد العارف بكلّ شيء؟

بالأمس فقط كنت هناك.

- إنّ فيثاغورس هو من أوجد هذه الكلمة، ومن ثمّ أخذها عنه تلميذه كريتياس، الذي بدوره أيضاً نقلها إلى أفلاطون، إنّها كلمة يونانية. ومع ذلك لا سبب يجعل سكان هذه الجزيرة يتكلمون اللغة اليونانية، لا بدّ أنّهم كانوا يتحدثون بلغتهم الخاصة.

عادت المرأة لتقحم نفسها بالحديث مجدداً.

- أنا أعرف الاسم الحقيقي لعاصمة أطلانطس، إنّه كرابوغنياك. حتى إنّه كان هناك مدينة كرابوغنياك وشاطئ كرابوغنياك. ويمكن العبور بينهما عبر الطريق الذي غالباً ما يكون مزدحماً.

أطلق رينيه تنهيدة ومن ثمّ أكمل طعامه.

- وأنت، أيّها القادم الجديد، متى كنت أطلانطسياً، وماذا كنت تعمل؟ سألته المرأة.

أكمل رينيه الاستمتاع بتناول طعامه. فأجاب عنه الرجل ذو الشعر الطويل.

- أنا شخصياً، كنت مسؤولاً عن الأسفار؛ حيث نسافر بلمح البصر هكذا، فرقع أصابعه، فنجد أنفسنا أينما نريد، عن طريق التخاطر. وكان يقع على عاتقي تنظيم رحلات للأطفال، حيث كان يتوجب عليّ أن أعدّهم بانتباه شديد قبل وبعد التخاطر. فإن كان هناك طفل ناقص فسوف أتعرّض لأقصى الإهانات.

- أمّا أنا فكنت أنجح في علاج الناس باستخدام عصا، ما إن ألمس الناس بها حتى يشفوا.

- وأنا كنت أهتمّ بشعاع الليزر، فقد كان هناك برج فيه شعاع ليزر عظيم، وبه كنّا نحمي أنفسنا من هجوم الأعداء.

هل أنا مجنون؟ يجب منذ الآن أن آخذ هذه النظرية بعين الاعتبار. من كثرة ما تعلّمت أن أحبّ نفسي، ربّما قد أصبحت متصالحاً أكثر من اللازم مع «غرائبي».

أغلق عينيه ورأى من جديد تلك الشرفة حيث جرت آخر مقابلة مع جيب. إنّ صور المدينة تلاحقه.

إذا تخيلنا أنّ كلّ هذا ليس سوى ثمرة تخيلاتي، من أين حصلت على هذه التصورات الواضحة عن أطلانطس وسكانها؟ كيف أمكنني معرفة تفاصيل عنهم مثل أغذيتهم وملابسهم وطريقة عيشهم ومتوسط أعمارهم، والزمن الذي عاشوا فيه؟

إنّ جيب لديه شخصية منفصلة عن شخصيتي، وهو «أفضل» مني بكثير. فأنا لم أعش أية مرحلة في حياتي كان فيها هذا القدر من الحكمة.

- كلّا، لم يكن هناك حروب ولا أعداء. قال رينيه.

أثار كلامه توتر المرضى الثلاثة الآخرين.

- ما الذي تعرفه أنت عن أطلانطس؟ سأل الرجل الأكثر نحافة، الذي أصابته فجأة عرّة في فمه.

- لم يحدث فيها حروب لأنّ الجزيرة كانت معزولة تماماً.

سحقاً، هل أحاول التفاهم منطقياً مع مجانين في مستشفى للأمراض النفسية. ماذا دهاني؟

- لم يكن هناك أيضاً شعاع ليزري، لأنّ الأطلانطسيين لم يكونوا أصلاً بحاجة إلى كلّ هذه التقنيات المتقدمة. وبالنسبة للعلاج الطبي، لم يكن هناك أية عصا سحرية لأنّ غذاءهم وطريقة معيشتهم كانا صحّيين بالكامل، وهذا ما جعلهم يتمتعون دائماً بصحة جيدة.

- أظنّ أنّنا لم نكن نسكن في المدن ذاتها، قالت المرأة كأنها خبيرة بذلك.

- العاصمة اسمها ميم- سيت والجزيرة يسميها سكانها ها- ميم- باث.

- من يظنّ نفسه هذا الرجل؟ قالت المرأة.

أظنّ نفسي شخصاً كان بالفعل هناك، وهو يتحدث الآن مع مجانين يظنون أنفسهم كانوا هناك.

فجأة سمعوا صوت صرخة متألمة. استدار رينيه ولكنّ الأطلانطسي الآخر على يمينه وشوشه في أذنه:

- إنّها جان دارك، وهي تفعل هذا كلّ ليلة. تحرق نفسها بالحساء وبعدها تتهم الآخرين.

لذا نهض أستاذ التاريخ قبل أن ينهي عشاءه، حيّا بلطف الأطلانطسيين الآخرين وذهب إلى غرفته حيث، لم يلحظ ذلك من قبل، وجد اقتباساً آخر معلّقاً لمارسيل بروست: «الإنسان هو الكائن الذي لا يستطيع الخروج من نفسه، ولا يستطيع معرفة الآخرين إلا عبر نفسه، وكلّ من يقول عكس ذلك فهو كاذب».

-49-

على الأخص، لا تنسَ.

استخدم رينيه توليدانو عوضاً عن هاتفه المحمول ورقة وقلماً، وكتب ذكرياته عن زيارته الأخيرة لمدينة ميم- سيت ومحاوراته مع جيب بأكبر قدر من التفاصيل.

عليّ أن أكتب من أجل تعزيز ذاكرتي وعدم تركها تتشوه بأوهام زملائي في المستشفى. عليّ أن أكتب كي لا أصبح مجنوناً كلياً.

إنّها الساعة 20:20، بقي أكثر من ثلاث ساعات قبل موعده مع جيب.

بدأ يحضر نفسه لجلسته. أشعل التلفاز في غرفته الواسعة داخل مستشفى الأمراض النفسية. أعلنت المذيعة أنّ المطر الذي لم يتوقف عن الهطول، قد

تسبّب في ارتفاع مستوى منسوب نهر السين بطريقة مقلقة. كما ذكرت أنّه في العام السابق غطى فيضان النهر أقدام تمثال زواف[1] المنصوب تحت جسر ألما. وأشارت أنّ هذه العتبة تمّ الوصول إليها بالفعل؛ فقد غمرت المياه الضفاف التي أصبحت خارج الخدمة لعدة كيلومترات، كما أنّ عدة مبانٍ على طول النهر قد وصلت إليها المياه فعلياً. ختمت المذيعة قائلة: «هل ستكون هذه السنة هي سنة الطوفان؟»

أطفأ التلفاز وأصبح قلقاً أكثر فأكثر. وفجأة، سمع صوت صرخة ليست صرخة هذيان، وإنّما صرخة مرعبة، آتية من شخص يعاني ألماً حاداً. لم يكن باب غرفته مغلقاً، لذا أخرج رأسه من شق الباب فسمع مرّة ثانية صيحة مرعبة بالقدر ذاته، تختلف عن صراخ بقية المرضى.

لا أعرف كيف، ولكنّني أستطيع التميز بين الأنواع المختلفة للأنين. وهذا الأنين، يعبر عن معاناة إنسانية حقيقية.

لذا، تقدّم في الممرّ مستغلاً أنّ الجميع ما يزالون يتناولون طعام العشاء، واتجه بحذر حتى وصل إلى مصدر الصرخات التي أصبحت منتظمة أكثر فأكثر. وصل إلى أعلى الدرج الذي أوصله إلى ممرّ تحت الأرض. وفي نهاية هذا الممر الضخم، رأى وميض ضوء أصفر يخرج من أحد الأبواب. ومع اقترابه كانت حدّة الصرخات تتزايد أكثر.

فتح الباب قليلاً فشاهد أمام عينيه هذا المشهد: كان الطبيب ماكسيميليان تشوب على اليمين يعتلي كرسياً مرتفعاً، وفي مواجهته امرأة ترتدي سترة المرضى التي تحمل شعار «مستشفى مارسيل بروست». وقد قُيّدت من معصميها وكاحليها، وهي تجلس على كرسي يشبه كرسي طبيب الأسنان. وعلى اليسار ممرض ذو كتفين عريضتين يقوم بضبط الكاميرات متبعاً تعليمات الطبيب بدقة.

إنّ الطبيب تشوب من يمسك شخصياً بالقبضتين اللتين تنتهيان بالزر الأحمر الذي يقوم بإرسال الصدمات الكهربائية. وفي كلّ مرّة يضغط بهما، كانت المرأة تنتفض تحت القيود وهي تتلوى وتصرخ من شدة الألم.

1- Zouave، يستخدم لقياس مستوى ارتفاع منسوب نهر السين. المترجمة

كلّا، هذا غير ممكن.

بقي رينيه واقفاً لبرهة وهو يحدّق في المشهد، ولكن يجب عليه أن يواجه هذه الحقيقة؛ إنّه يحضر جلسة تعذيب يجريها الطبيب النفسي على واحدة من مرضاه. حتى إنّ هذه الجلسة يتمّ تصويرها وبثها بشكل مباشر لرجال آخرين يرتدون قمصاناً بيضاء ويظهرون على الشاشة الكبيرة.

هل يقوم تشوب بتعليم طلابه عن بعد القيام بمثل ما يقوم به هو؟

كان رينيه يراقب مذهولاً المرأة التي تكافح وهي مقيدة.

أو أنّ هؤلاء متلصصون يدفعون النقود ليحضروا جلسة تعذيب مريضة؟

نظر بتمعّن أكثر إلى الطبيب النفسي.

إنّه يستمتع بتعذيب الناس.

فجأة، وبين الصرخة والصرخة للمريضة، أصدر الباب الذي يثبته رينيه بقدمه صريراً، فاستدار مباشرة على إثر ذلك الطبيب والممرض ونظرا باتجاهه.

أوه كلّا!

جرى أستاذ التاريخ بأقصى سرعته، وصعد السلم وركض متعرجاً بين المرضى والممرضين. تمّ إيقافه على مدخل الباب الزجاجي السميك الذي يتمّ التحكم بفتحه وإغلاقه من قبل امرأة عجوز تقوم بالحياكة وهي تتابع في الوقت نفسه مسلسلاً على التلفاز. ألقت عليه هذه المرأة نظرة ساخرة وأطلقت تنهيدة ازدراء. أخذ رينيه بالمقابل يضرب بقبضته على الزجاج.

لقد فات الأوان، فقد وصل العديد من الممرضين، وأحكموا السيطرة عليه بحزم. قادوه عبر ممرّ تحت الأرض، وألقوه دون أيّ تقدير في زنزانة ضيقة ذات جدران مبطنة بالإسفنج، وليس فيها سوى سرير ومرحاض.

لم ينتظر طويلاً، فقد ظهر ماكسيميليان تشوب وهو يمسح العرق عن جبهته. ويرافقه ممرضه الذي يشبه المصارع.

– للأسف، قال الطبيب، كنت آمل أن نصبح أصدقاء، ولكنّ حدسي أخبرني بأنّ هذا سيكون صعباً. ولتعلم أنّ الشيء المفيد ممّا جرى، هو أنّ ما رأيته لن يؤدي إلّا لتسريع قدوم اللحظة التي سأمنحك فيها علاجي الخاص. إنّ هذا اسمه العلاج الكهربائي. أستخدمه للتأثير

على منطقة الحصين التي هي كما تعرف، مركز الذاكرة الطويلة الأمد. كان يُعتقد حتى القرن السابع عشر أنّ مركز الذاكرة يقع في القلب، لأنّه هناك بالتحديد نشعر بالأحاسيس. ولكن كلّا، ففي هذين الفصين الصغيرين للحصين الواقع في مركز دماغنا يجري كلّ شيء. وهذا هو المكان الذي سأتدخل فيه كي أعالجك.

– في النهاية لقد فكرت جيداً، وأنا أفضّل العودة إلى السجن.

انفجر الطبيب ضاحكاً.

– آه، أجد أنّك أنت أيضاً صاحب حسّ فكاهة. ولكنّ هذا لا يغير شيئاً، واجبي هو الاعتناء بك وأنا أنوي بالفعل القيام بذلك، حتى لو كان هذا رغماً عن إرادتك. إذا أردنا تشبيه علاجي بعمل أكثر دونية، سيكون مثل «إعادة التشغيل». هل تعرفه؟ عندما نطفئ آلة ونعيد تشغيلها كي يعود كلّ شيء إلى مكانه. كما يقول اختصاصي تكنولوجيا المعلومات في الخدمة التقنية: «عندما يكون هناك شك ما، فإنّنا نقوم بإعادة التشغيل».

50 مذكرات. الحصين.

لدينا زوج من الحصين يقع كل واحد منهما في مركز كلا نصفي الدماغ.

نستطيع مقارنتهما بالقرص الصلب للحاسوب؛ فهما يخزنان البيانات على مدى طويل.

ومن ثمّ فإنّ الخلايا العصبية للقشرة الدماغية هي التي تسمح بالوصول إلى المعلومات التي يحتويها الحصين.

يعود فقدان الذاكرة المؤقت إلى مشاكل في الوصول إلى المعلومات التي يحتويها الحصين. حيث تكون المعلومات، ولكنّ الدماغ لا يعرف كيف يسترجعها.

يدمّر الإجهاد والصدمات النفسية الخلايا العصبية للحصين إلى درجة تشكل بعض الثقوب الصغيرة فيه.

باختصار، كلّما كنّا متوترين دمرنا الحصين في دماغنا وتراجعت قدرتنا على التذكر. وبالتالي تتزايد فرصة الإصابة بفقدان ذاكرة مؤقت أو مرض ألزهايمر.

أخذ يتخبط تحت القيود الجلدية التي تحكم معصميه وكاحليه.

- بما أنّك تبدو لطيفاً يا سيد توليدانو، فسوف أفتتح هذه الجلسة الأولى بنكتة صغيرة. إن كنت تتوقع قصة مجنونة فأنت مخطئ تماماً؛ فأنا سأروي لك نكتة في علم النفس. إنّها أكثر أصالة، لا بدّ أنّها ستعجبك، صدقني.

هل أملك حقاً خياراً آخر؟

- كان هناك طبيبان نفسيان يتناقشان حول طريقة التأثير على العقول الضعيفة. فقال أحدهما للآخر: «أنت تعتقد نفسك قوياً، ولكنّني أستطيع التلاعب بعقلك بسهولة. مثلاً، هل تراهن على أنّني أستطيع أن أجعلك تقول كلمة «أحمر». – فقال الآخر؛ حسناً، قبلت التحدي. – رائع، ما هو لون السماء؟ – لونها أزرق. – عظيم، لقد نجحت في جعلك تقول كلمة «أزرق». – «ولكن كنت أظنّ أنّ الرهان على نطق كلمة «أحمر». – رائع، ها قد قلتها، لقد نطقت كلمة «أحمر».

ضحك من جديد على نكتته الشخصية.

النجدة!

- إنّني أشكّ فيما إذا كنت تحبّ نكتي. اسمع، على الرغم من السياق العلاجي لهذه المحادثة، أودّ، طالما أنّنا سنرى بعضنا مجدداً، أن تكون صادقاً دوماً معي. ومن هذا المنطلق، أرجو منك أن تخبرني بالنكات التي لا تضحكك، لن أتضايق من ذلك.

إذا قمت بالضغط بقوة كبيرة على الأربطة، لا بدّ أنّني سأتمكن من الحصول على ما يكفي من المساحة لتحرير معصمي الأيسر.

واصل الطبيب النفسي.

- إنّ حسّ الفكاهة هو أمر ذاتيّ تماماً. فالأمر الذي يضحك أحدهم قد لا يثير الضحك عند شخص آخر. صدقني إنّ إيجاد نكتة تعجب الجميع، هو عمل شاقّ. وبالنسبة لطبيب نفسي، يعدّ هذا تحدياً.

أخرج جهازه ذا المقبض والزر الأحمر.

- حسناً، كي نقوم بنقلة كوميدية، أنا أراهن على أنّك... لن تنطق كلمة «أحمر» على الإطلاق.

انفجر ضاحكاً، بتشجيع من ممرضه.

- حسناً، بعد هذا الفاصل القصير المهدئ، دعنا ننتقل إلى أشياء أكثر جديّة. لنبدأ قبل كلّ شيء بالتشخيص. بكلّ أسف يجب أن أخبرك بأنّك مصاب بانفصام الشخصية. هذا يعني أنّ ذهنك «منفصل» عن الواقع، ليس بشكل مستمر وإنّما على فترات متقطعة طبعاً، ولكنّها كافية كي تجعلك خطيراً بالنسبة لباقي المجتمع. لذا يجب علاجك. ليس كي نحمي الآخرين فقط، ولكن لحمايتك أنت من نفسك أيضاً. إنّك محظوظ لأنّ 95% من المصابين بانفصام الشخصية الذين عالجتهم تمّ شفاؤهم بالكامل.

ماذا ينتظر مني أن أقول؟ «هذا مذهل، لقد اطمأننت الآن» ؟

الممرض فقط من أظهر تعبيراً يدلّ على الإعجاب، كما لو أنّه اكتشف هذا الرقم الرائع.

- أشعر بأنّك متشكك. حسناً سوف أعطيك معلومة إضافية. هل تعرف، فيما يخصّ إحساسك بأنّك عشت في أطلانطس، أنت تعتقد أنّ هذا صحيح، ولا بدّ أنّك شعرت أنّ الأطلانطسيين الآخرين الذين تناولت معهم العشاء كانوا مجانين، هل أنا مخطئ؟

لستَ مخطئاً.

- هذه الظاهرة معروفة باسم «اختلال الذاكرة». هذا يعني «ذاكرة شبه واقعية». تترافق بشعور انفصال عن الشخصية. حيث يتولد انطباع بامتلاك القدرة على نقل نفسك خارج جسدك كي تكون شخصاً آخر في مكان آخر. وهذا ما تشعر به، اعترف بذلك.

إلى أين سيصل بهذا؟

- إنّ هذه الحالة تترافق مع «تبدّد الحقيقة» حيث تتساءل إن كان ما تعيشه حقيقياً فعلاً. فالشكّ لم يعد يتوقف على هويتك أنت، كما هو الحال

في الانفصال عن الشخصية، بل يشمل العالم الذي يحيط بك. يجب أن تكون قد طرحت على نفسك سابقاً السؤال الآتي: ما الذي يؤكد لي أنّ كلّ ما يحيط بي ليس مجرد وهم؟ ألست داخل لعبة فيديو حيث نستطيع فيها العودة إلى الخلف، للبدء من جديد، أو تغيير المشاهد أو الشخصيات؟

إنّه محقّ، فهذا تماماً ما أشعر به. كم هو أمر مزعج أن ترى الرجل الأكثر فظاظة في العالم يعلمك أشياء مثيرة في أسوأ لحظة ممكنة.

- وفي النهاية يأتي هذا السؤال: ما الذي أنا متأكد منه حقاً؟

أنا متأكد من آنك وغد.

- يقول كاتب الخيال العلمي فيليب كيندر ديك: «الواقع هو ما يستمر بالوجود حتى عندما نتوقف عن تصديقه». هذا يعني أنّنا لا نفعل سوى العيش في عالم نعتقد أنّنا موجودون فيه ونلعب دور شخصية نعتقد أنّنا هي، ونحن محاطون بأناس نظنّ أنّنا نتحدث معهم. هويتنا ليست سوى سلسلة من الذكريات التي يمكن تعديلها. ولتعلم أنّه كلما تكررت استعادتك لذكرى ما، قمت بتشويهها أكثر.

كلّا، كنت أجهل ذلك.

- إنّ الذكريات تُبلى مثل أسطوانة الفونوغراف التي تخدش أكثر فأكثر. لذا سأطرح عليك هذا السؤال: ما الذي يؤكد لك وجودي في هذه اللحظة، والألم الذي سأسببه لك، إلخ. أليست مجرد اعتقادات بسيطة؟

رائحة عرقك الحادة، ورأسك الذي يشبه رأس ابن عرس، والأحزمة التي تشدّ على معصمي والتي آمل أن أتحرّر منها. بالإضافة إلى خوفي.

- تمّ تشخيص حالة الكاتب فيليب كيندر ديك بأنّها انفصام شخصية، مثل حالتك. كان يعيش مع إمكانية أن ينتقل في كلّ لحظة للعيش في وقائع مُتخيلة. وحقيقة أنّه كان يتعاطى عقار LSD[1] ممزوجاً مع المنشطات

1- ثنائي إيثيل أميد حمض الليسرجيك، من المهلوسات القوية المؤثرة على العقل جرعة صغيرة جداً تكفي لإحداث اضطرابات في الرؤية، والمزاج والفكر. المترجمة

لم تؤدِّ إلّا إلى مفاقمة هذا الخطر. مات الكاتب فيليك ديك على الأرجح بسبب جرعة زائدة. لم ننقذه في الوقت المناسب. ولكن أنت سوف أنقذك، سواء شئت أم أبيت.

أخذ رينيه يقوم بالشهيق والزفير ببطء أكثر فأكثر.

- حقاً إنّها خسارة ألّا تقدر هذه اللحظة. صدقني، إنّ الكثير من المصابين بانفصام الشخصية يحلمون أن يكونوا هنا في مكانك كي يعود السلام أخيراً ليستقرّ في رؤوسهم.

بصق رينيه في وجهه، ولكنّ الآخر مسحها برويّة بالمنديل ذاته الذي يستخدمه لمسح عرقه.

- أعرف، أنت تتساءل كيف يمكن للعلاج بالصدمات الكهربائية أن يحقق هذا المستوى من النجاح.

هذا السؤال يؤرقني...

- حسناً، لن أجعلك تتشوق طويلاً لمعرفة الإجابة، سوف أقول لك.

أشار إلى الأجهزة المختلفة الموضوعة على الطاولة.

- كما أشرت لك بالضبط، نستطيع أن نقارن دماغك بالغابة، حيث إنّ الخلايا العصبية هي أشجارها.

قام الممرض بدهن القطبين بسائل أزرق، ومن ثمّ وضعهما على صدغي رينيه.

- سوف نقوم، بفضل تيار كهربائي مكثف، بحرق الشجيرات الشوكية التي تتراكم في المسارات وتشوه الأشجار. ولكن هذا ليس كلّ شيء؛ فسوف نقوم، ضمن إطار تنظيف الغابة، بمحاولة تدمير المناطق المسؤولة عن هلوساتك بخصوص أطلانطس. إنّ «الأعشاب الضارة» أصبحت ضخمة جداً وقوية وعالية إلى درجة يمكن أن نخلط بينها وبين الأشجار الحقيقية.

أخذ يلعب بالمقبض ذي الزر الأحمر.

لا تلمس هذا.

- كي تكون الصدمات الكهربائية فعالة حقاً، فأنا أقوم بها دون تخدير.

إنّها مؤلمة ولكنها فعّالة أكثر. في الواقع، إنّها فعّالة لأنّها مؤلمة على وجه التحديد. صدقني، يجب أن يكون هذا مكثفاً.

مسّ بإبهامه الزر الأحمر برفق.

لا تضغط!!!

- ومن ثمّ سوف تتوقف عن أوهامك. لن ترى بعد الآن العالم بطريقة مشوّهة، سوف تستمتع بجمال الحديقة «النظيفة» بكلّ معنى الكلمة، من كلّ الأعشاب الضارة والأشجار الملتوية.

حسناً، يجب أن أجد طريقة للهروب، وبسرعة!

لا يزال أستاذ التاريخ يقاوم تحت هذه الأربطة ولكنّها محكمة جداً.

- يجب أن تتلقى صدمة أقوى من أوهامك. إنّ هذا هو سرّ طريقتي هذه. فنحن لا نتذكر سوى ما يكون قوياً عاطفياً. إذاً علينا استثارة عاطفة قوية لتدمير العواطف الطفيلية.

طلب من الممرض تركيب المعدات.

- إنّ الخوف والغضب والألم، جميعها عواطف قوية. لا بل إنّها العواطف الثلاث الأكثر قوة. عندما نتألم فإنّنا نتجاوز حدود المجال العقلي كي ندخل في المجال الحسي. أنا أؤمن بفضائل الألم كوسيلة للتأثير على العقل.

قام الممرض بشدّ أربطته أكثر بقليل.

- افتح فمك لو سمحت، تذكر أنّ هذا لمصلحتك، وأنّك ذات يوم سوف تشكرني على هذا.

أنا أشكّ في ذلك.

أرغمه الممرض بيديه الكبيرتين والمكسوتين بالشعر على فتح فكيه عندما أغلق فتحتي أنفه. بعدها وضع داخل فمه كرة بلاستيكية.

- بما أنّ صراخ المرأة التي سبقتك قام بتنبيهك، فأنا أفضل أن آخذ احتياطاتي، لأنّني أنسى أحياناً أنّ هناك أناساً قد يسمعون هذا. في الواقع، كنت أفضّل ألّا تكون قد جئت إلى هنا في حينها. ولكن الآن، سوف أقوم بكلّ شيء كي أجعلك تنسى ذلك.

قام الممرض بضبط مختلف الأجهزة.

- كي أعترف لك بكلّ شيء، إنّ متعتي الكبيرة في هذه الحياة هي «تنظيف» الذاكرة. لحسن الحظّ أنّ هذه المستشفى مكان عصريّ جداً، ومثالي لمثل هذه النشاطات. إنّنا هنا نقوم بتطوير العلم. وبعد علاجنا، يصبح المرضى الذين تمّ شفاؤهم منغمسين أكثر في الحاضر.

هل هذا لأنك قمت بتدمير ماضيهم؟

- إنّ الماضي هو مصدر الندم، والمستقبل مصدر القلق. أحلم بخلق رجل يكون مثل الحيوانات، يعيش فقط في اللحظة الراهنة.

أبلغه الممرض أنّ كلّ شيء جاهز.

- أراهنك على أنّك ستفكر بكلمة «أحمر»، قال ذلك بابتسامة صغيرة.

وضغط على الزر. عبرت رينيه صعقة كهربائية جعلته يهتزّ داخل الأربطة، وقد تشنج جسده بالكامل. شعر بأنّهم حقنوه مباشرة ببرق الصاعقة التي دخلت مباشرة إلى دماغه. إنّ جمجمته على وشك الانفجار.

قام رينيه قبل الصعقة الكهربائية الثانية، كردة فعل منه بالنزول كلّ أربع درجات معاً على سلّم عقله، وفتح باب اللاوعي المدرع، ودخل إلى الممرّ حيث المائة والأحد عشر باباً، واتجه نحو الباب الأول الذي فتحه بسرعة.

ووجد نفسه على الفور فوق سرير جيب.

-52-

كان الأطلانطسي مستلقياً على ظهره وهو عارٍ، ولكنّه لم يكن نائماً.

كانت هناك امرأة تعتليه مباعدة ساقيها.

إنّها امرأة سمراء قصيرة، شعرها طويل وخصلاته مجدّلة وتنتهي كلّ خصلة بأحجار زرقاء وسوداء مطعّمة. هي أيضاً كانت عارية تماماً.

كانت تهزّ رأسها، فتدور ضفائرها مصدرة صوتاً يشبه الخشخشة. كما راحت تحرّك وركها باهتزازات متتالية.

بدأ جيب يداعب فخذيها كما لو أنّه يريد إبطاء حركاتها. ولكنّها لم تدع نفسها تتأثر ويبدو أنّها تستمتع، مثل خيّالة تريد ترويض حصانها. أخذ

شعرها الطويل يخفق في الهواء، وثدياها الصغيران يصعدان وينزلان حسب الإيقاع. كانت أنفاسهما متناغمة مع حركات جسديهما، وقد تعرّقا كلاهما من حرارة الغرفة.

فجأة توقفت المرأة ومن ثمّ استأنفت الحركات ذاتها ولكن ببطء، الأمر الذي فاجأ شريكها وزاد من متعته. بقيت أنفاسهما متناسقة ولكنّ جسديهما أصبحا ساخنين. أخذت تراقبه، كما لو أنّها تنتظر أن يصل إلى درجة معينة كي تغير من جديد من إيقاع حركاتها.

في اللحظة التي يختبر فيها رينيه أقسى ألم في حياته، يبدو أنّ جيب يعيش أعظم متعة له. إنّ التناقض بين هاتين الحالتين هو الأكثر إثارة للدهشة لدرجة أنّ رجل المستقبل يدرك جيداً أنّه يزعج رجل الماضي الذي لم يستغرق وقتاً طويلاً حتى أدرك وجوده.

– ما الذي تفعله هنا يا رينيه؟ إنّ هذا ليس بالوقت المناسب أبداً، فأنا مشغول الآن إن كنت لم تلاحظ ذلك.

– أنا بحاجة إليك يا جيب.

– في هذه اللحظة بالتحديد؟ ألا يمكنك الانتظار إلى حين موعد لقائنا المعتاد؟

شعرت المرأة أنّ جيب أصبح مشتت الذهن.

– لم تعد هنا يا جيب؟ ماذا يجري؟

– لا شيء.

– يبدو أنّك تفكر في شيء آخر. هل كلّ شيء على ما يرام؟

في النهاية، وبعد قليل من التردد، أشار الأطلانطسي إلى المرأة أنّه يجب عليهما التوقف الآن. فاستأنفت المرأة قائلة بقلق:

– هل لديك مشكلة ما؟

– كلّا، ليس أنا، بل رجل المستقبل الذي سأصبح عليه.

أظهرت المرأة عدم فهمها، فقال جيب محدّداً:

– أتذكرين ذاك الرجل الذي يعيش بعد اثني عشر ألف عام، والذي حذرني بأنّه سيأتي يوم وتغرق فيه جزيرتنا بالكامل تحت المياه؟

- ذاك الشاب الصغير ذو الاثنين والثلاثين عاماً؟ لا تقل لي إنّه يتحدث إليك الآن! في هذه اللحظة بالذات التي نمارس فيها الحبّ لأول مرة؟

أصيبت بالإحباط وابتعدت عنه محاولة الاسترخاء. انتهز الأطلانطسي الفرصة كي يعاود التواصل مع نفسه المستقبلية.

- ماذا أصابك كي تزعجني هكذا يا رينيه؟ هذا ليس موعد لقائنا.

- أعتذر منك، ولكن يتمّ تعذيبي الآن في هذه الأثناء.

- «تعذيب»، لا أعرف هذه الكلمة. ماذا تعني بالضبط؟

- لنقل إنّ هناك أناساً يجعلونني أتألّم بكامل إرادتهم كي يدمّروا دماغي. هدفهم جعل دماغي بحسب قولهم «أملس» وألّا أقدر على التواصل معك من جديد. إن نجحوا في ذلك، فسوف نفقد التواصل. أنا أحتاج مساعدتك فوراً. قل لي كيف يمكنني التحكم بعقلي كي أستطيع تحمل هذا الألم.

- أنا بدوري أعتذر منك يا رينيه. لا أعتقد أنّه بإمكاني تلبية طلبك لأنّني ببساطة ليس لديّ أيّة معرفة عملية بمشكلتك. لم أعانِ في حياتي قط، لذا لا أستطيع أن أتخيّل ما هو التعذيب، وبالتالي لا يمكنني مساعدتك.

- أصبح عمرك ثمانمائة وواحداً وعشرين عاماً ولم تعانِ مطلقاً في حياتك؟

- مطلقاً.

- لم تعانِ من التهاب الزائدة الدودية؟ ولا من قرحة في المعدة؟ ولا من مغص كلوي؟ ولا نخر أسنان؟

- إنّ صحتنا جيدة جداً، باختصار، بما أنّني لم أعرف أيّ ألم في حياتي، فلا أعرف ماذا يمكنني أن أفعل.

- إذاً ماذا أفعل أنا الآن؟

- قد تجد ربّما من بين المائة والأحد عشر باباً، تجسّداً آخر يعرف الألم ووسائل السيطرة عليه. حسناً في النهاية، ألا يوجد غيري في كلّ حيواتك السابقة!...

للوهلة الأولى، قال رينيه في نفسه إنّ صديقه الأطلانطسي لا يحبّه بقدر

ما كان يعتقد، وأنّه لا يسعى إلّا للتخلص منه كي يتابع جلسته مع المرأة الشابة.

لذا، دون أن يضيع المزيد من الوقت في المماطلة، وحتى دون أن يحيّيه أو يحدد موعداً لاحقاً معه، اتجه رينيه إلى الباب الذي يسمح له بالعودة إلى الممرّ.

لم يقترب بتاتاً من الباب رقم المائة والاثني عشر الذي يجعله يخاطر بالعودة إلى غرفة العلاج بالصدمات الكهربائية في المستشفى. بقي يتجوّل في ممرّ حيواته المائة والإحدى عشرة السابقة وصاغ بسرعة أمنيته، محاولاً أن يكون دقيقاً جداً في طلبه: «أريد زيارة حياتي التي عرفت فيها أفضل مقاومة نفسية للتعذيب بالصدمات الكهربائية».

أضاء مصباح أحمر فوق أحد الأبواب.

إنّه الباب رقم مائة وأحد عشر. أي حياته السابقة، تلك التي عاشها تماماً قبل أن يصبح رينيه.

-53-

جلد يديه ناعم وذو لون نحاسيّ، وساعداه عاريان وخاليان من الشعر ومغطيان بوشوم لنمر محاط برموز. يرتدي الرجل ثوباً بلون الزعفران.

إنّ المشهد الذي يحيط به يذكره بصفوف المدرسة التي كان يعمل بها. فعلى الجدران خرائط للعالم وصور لسياسيين وضباط يرتدون الزي العسكري، وقد كُتبت أسماؤهم بلغة ليست من اللغات الأوروبية.

بجانبه رجل مكبّل بالقيود على السرير دون حراك، وفمه المفتوح يُظهر تكشيرة ألم كبير. كما يوجد شخص ذو بطن كبير وعينين آسيويتين لوزيتين، يرتدي زيّاً أنيقاً ويدخن سيجاراً كبيراً، ويتأرجح على كرسيّ هزاز. وهناك بقربه جنديان وضابط رفيع المستوى يضع شارات حمراء مع نجوم خماسية بيضاء.

– إنّه لشرف عظيم لنا أن يكون معنا محامٍ فرنسيّ ومفكر ثوريّ عظيم، قال الضابط الذي يضع الميداليات. أعتقد أنّنا كلانا نتشارك شغف تذوق

شعر رامبو، ولكن دعنا نعمل أولاً. أحضروا هذا الجديد.

قام جندي بفكّ قيود الرجل المكبّل، وبعد تأكده أنّه لم يعد يتنفس، أمسكه بشعره وسحبه خارج الغرفة. الرجل الذي وجد رينيه نفسه فيه يرتدي سروالاً داخلياً فقط. إنّه مكبّل في المكان عينه الذي تمّ إجلاء الرجل منه إلى الخارج. لاحظ أن هناك دلو ماء بارد وأسلاكاً كهربائية تنتهي بمشابك كهربائية ضخمة.

- ما اسمك؟

أطبق على فكيه بقوة.

- لا تريد الإجابة؟ إنّها بداية سيئة. ولكن لحسن حظّك أنّنا نعرف اسمك مسبقاً.

قرأ الضابط ورقة.

- اسمك فيرون. تعمل طبيباً حكومياً فاسداً تحت إمرة الاحتلال الأمريكي. وقد أصبحت راهباً بوذياً في دير ترام-كاك، الممتلئ بالحشرات الرجعية، بغية أن تتخفى هناك. ولكنّنا استطعنا انتزاعك مثل جرذ رأسمالي دنيء حليف للديكتاتور الخسيس لون نول الذي أرجو أن يتغطى اسمه الملعون بألف بصقة!

أشار إلى الجندي، فقام بوضع المقابض على معصمي المدعو فيرون.

- أنت هنا في المكتب الأمني للمعتقل 21S، قال الضابط.

لم يستطع الراهب أن يكبح رعشة الرعب التي اجتاحته عند سماعه اسم هذا المكان.

- أعتقد أنّه فهم أين هو الآن، قال المحامي الفرنسي بشيء من السخرية.

تذكر رينيه الآن أنّ هذا الضابط الذي يحبّ الشعر هو دوش، الضابط المشؤوم لحزب الخمير[1] مؤسس ومدير معتقل إعادة التأهيل 21S. يعرف رينيه أنّه تمّ تعذيب أكثر من خمسة عشر ألف شخص في هذه الثانوية القديمة التي تقع في قلب عاصمة كمبوديا بنوم بنه.

1- تولى حزب الخمير (الفلاح) الشيوعي الحكم في كمبوديا منذ عام 1975م إلى 1979م. المترجمة

بالنسبة للمحامي الفرنسي، يعتقد رينيه توليدانو أنه يتذكر من قد يكون. فهذا المفكر اليساري الذي نصّب نفسه مدافعاً عن الشعوب المضطهدة، كانت تحوم حوله شكوك بتورّطه في الفظائع التي ارتكبها حزب الخمير الحمر. ولكنّ رينيه أصبح يعرف حقيقته الآن.

تكلّم دوش بصوت رقيق.

- سوف نقوم بتعذيبك كلّ يوم وعلى مدى طويل. ولن نكتفي بهذا فقط، بل سنقوم بأسوأ من ذلك. إن لم تعطِنا أسماء الرهبان الآخرين المعادين للثورة الذين هربوا قبل دخولنا المعبد، سوف نمحيك من الوجود على هذه الأرض. هل تعرف كيف سنفعل ذلك؟ سوف نزيل هويتك، سنمحو من الوجود كلّ ملف يخصّك، وكلّ صورة تظهر فيها، وكلّ الأماكن التي عشت فيها، ومن ثمّ سوف نقتل كلّ أفراد عائلتك، وكلّ شخص سبق أن عرفك، حتى لا يبقى هناك أدنى أثر لوجودك، ولا أيّة إمكانية لأن يشهد أيّ شخص بأنّك ولدت وكنت حيّاً في يوم من الأيام.

- هل تعرف ما هو التعبير اللاتيني الذي يطلق على هذه العملية؟ دامناتيو ميموريا[1]، قال المحامي الفرنسي بلهجة العارف.

ابتلع فيرون ريقه. قال رينيه لنفسه إنّ هذا الراهب، أي الرجل الأخير الذي كان عليه قبل هذه الحياة مباشرة، يبدو أنّه بالفعل يمتلك أكبر خبرة بطريقة التعامل مع هذا النوع من المحن العنيفة.

- لنبدأ، قال الجندي.

ضغط على الزر الذي يؤدي إلى حدوث الصدمة الكهربائية، ولكنّ الراهب كان قد أغمض عينيه أصلاً وخرجت روحه من جسده قبل أن يسري مفعول التفريغ الكهربائي عليه.

- ما الذي تفعله هنا؟ دُهش الراهب.

- أعتذر عن إزعاجك في هذه اللحظة الحساسة جداً، قال رينيه متجرّئاً.

1- لعن الذاكرة، عقوبة رومانية قديمة تقوم على محو ذكر الشخص من كل الوثائق الرسمية لطمس وجود الشخص نهائياً. المترجمة

تذكر جلسته السابقة مع جيب، لذا حاول كسب الوقت ليدخل إلى صلب الموضوع.

– أنا تجسّدك الجديد في حياتك القادمة، اسمي رينيه. وأعاني حالياً من مشكلتك ذاتها، إنّني أتعرض للتعذيب. أريد أن أعرف إن كان لديك طريقة لتحمّل هذه الألم المبرح.

حدّقت به روح الراهب الكمبودي متشككاً.

– أنا لا أفهم سؤالك. لأنّك حسب ما يبدو، قد وجدت الإجابة؛ يكفي أن تخرج من جسدك كي تتخلّص من الألم.

عليّ إيجاد الكلمات المناسبة كي أقنعه بمساعدتي.

– بالطبع، ولكن أشعر أنّني لن أستطيع الصمود طويلاً.

– أنت لست معتاداً على هذه الطرق بالخروج من الجسد؟

– أنا لست صوفياً. حتى إنّني لست مؤمناً في الأساس. أنا مجرد أستاذ تاريخ، ولم أكتشف التنويم المغناطيسي إلّا منذ عدّة أيام. كلّ هذا جديد عليّ جداً. والآن، بسبب العذاب الذي أعيشه حالياً، فأنا بحاجة إلى معرفة حقيقية وعملية بالتحكم بالجسد والعقل.

– إذاً تستطيع العودة إلى حياتك السابقة ولكنّك لا تعرف كيف تبقى فيها إن كان جسدك يتعرّض للتعذيب، هكذا هو الأمر؟

– بالضبط، في هذه الدقيقة تماماً التي أتحدث فيها معك، بدأت أشعر بألم في دماغي يمنعني من الحفاظ على عقلي حاضراً معك. ومع كلّ صدمة كهربائية، أشعر بجسدي يشدّني إليه.

– أرى ذلك، سوف أعلّمك التقنية التي وضعناها نحن رهبان معبد ترام–كاك للخروج من الظروف غير المريحة. دعني أسألك في البداية، إذا أردت أن تتخيل دماغك، في أيّة صورة تراه؟

– حسناً، الآن، وبهذا الوضع، دعني أقول غابة.

– وإذا أردت أن تتصور ألمك، في أيّ صورة تراه؟

– أراه على شكل برق يضرب ويشعل الشجيرات بالإضافة لجذور الأشجار.

- في هذه الحالة، عليك أن تتخيل وجود كهف ينبثق في وسط غابتك، هل نجحت في تصوره؟

أوجد رينيه في وسط فسحة الغابة نتوءاً صخرياً ضخماً كأنّه قبّة حجرية تحتوي مدخلاً.

- ربّما يحرق البرق الأشجار، ولكنّ الجدران لن تحترق، هل توافقني الرأي؟ حسناً ادخل في كهفك، وستكون هناك بمأمن من البرق والنيران.

- أستطيع القيام بذلك وأنا أواصل الحديث معك؟

- حاول، سترى ذلك بنفسك.

التجأ رينيه إلى كهفه وسط الغابة.

- ألا ترى أنّ هذه المنطقة في عقلك كأنّها معزولة عن جميع المؤثرات الخارجية؟ إنّ برق العاصفة ورعدها يصبحان أقل وضوحاً، هل تشعر بذلك؟ إذاً، قم بدحرجة صخرة كبيرة لسدّ مدخل الكهف.

اتبع رينيه تعليماته، ومن ثمّ جلس في منتصف الكهف متربعاً.

- سوف أنضم إليك، قال الكمبودي.

ظهرت روح الراهب البوذي فيرون أمامه. أمسك شمعة كبيرة وأشعلها كي تضيء داخل الكهف.

- ليس أمامنا الآن سوى انتظار أن يتعب معذبونا، أو نفقد الوعي، أو نصبح مجانين، أو نموت. سنقبل بشكل تام مصيرنا وقدرنا.

- آه؟ ألا يوجد خيار آخر؟

- إن كانت لديك أفكار أخرى، لا تتأخر بعرضها عليّ.

- أوه... كلا، أعتذر.

- حسناً، بغية «قتل» وقت الفراغ هذا، أرغب بالحديث معك يا... رينيه. إنّ ما قلته لي عن الحيوات السابقة أثار اهتمامي. في البداية، كيف أتيت إلى هنا يا «تجسّدي المستقبليّ» ؟

- استخدمت تقنية التنويم المغناطيسي التراجعي الذاتي. أقوم بتصور

ممرّ فيه أبواب مرقّمة بحيث يتوافق كلّ باب مع حياة سابقة.

- هذا مثير! كنت أجهل أنّنا نستطيع ممارسة هذا النوع من التمارين، اعترف الراهب الكمبودي.

- يكفي أن تصدق ذلك، قال أستاذ التاريخ ساخراً.

- أرأيت، إنّه أنت من يعلّمني تقنيات روحية. كيف تعرف ماذا يوجد خلف الأبواب؟

- أنا لا أعرف. قبل أن أفتح الباب، أصوغ رغبة بأكبر قدر من الوضوح والدقة الممكنين. مثلاً، كي آتي لأراك، كنت قد طلبت الوصول إلى حياتي التي عرفت فيها أفضل طريقة للسيطرة على التعذيب بالصدمات الكهربائية، فأضاء الباب رقم مائة وأحد عشر. إنّني مقتنع الآن أنّنا، أو بالأحرى جميع تجسدات روحي السابقة، نستطيع أن نساعد بعضنا بعضاً من خلال نقل معارفنا وخبراتنا بعضنا إلى بعض.

- كنت أجهل هذه الطريقة وهذا التصوّر. ما هو رقم الباب الذي تعيش خلفه أنت وإلى أيّ زمن ينتمي وفي أيّ بلد تعيش؟

- أنا الباب رقم مائة واثني عشر. أعيش في فرنسا وبالتحديد في باريس، عام 2020م. عدا عن هذا، فإنّني قبل أن أتعرض للتعذيب في مستشفى الأمراض النفسية، كنت رجلاً عادياً.

- إذاً نحن مائة وإحدى عشرة حياة عاشت قبلك؟

- أشعر أنّني أتواصل مع حيواتي المائة والإحدى عشرة السابقة، كي أحلّ مشاكلي أو لأهدئ نفسي.

- أنا أتبع في البوذية طريق تيرافادا، (هينايانا[1])، أي المذهب المسمّى «العربة الصغيرة»، ونحن نؤمن بالتقمص الذي يتابع في دورة متكررة من الحياة والموت التي نسميها سامسارا (الحركة المستمرّة). وسلوكنا في الكارما الحالية التي نعيشها سواء كان خيراً أم شراً هو الذي يحدّد إن كنّا سنصعد أو نهبط في الكارما التالية. ومع ذلك، فنحن لا نتعلّم

1- في البوذية مذهبان رئيسيان هما: تيرافادا أو هينايانا وتعني العربة الصغيرة، وماهايانا وتعني العربة الكبيرة. المترجمة

الذهاب لزيارة حيواتنا السابقة بهذا الشكل المنظّم، ناهيك عن القدرة على الحوار مع حيواتنا المستقبلية.

– فيما يخصّ الحيوات المستقبلية، أعتقد أنّه سيتوجب عليّ الانتظار إلى أن يزورني أحد ما. فأنا لم أرَ في ممرّي هذا، الباب رقم مائة وثلاثة عشر.

– إلّا إذا كنت قد اقتربت من الكمال. وفي هذه الحالة، ستكون قريباً من النيرفانا.

– ماذا كانت النيرفانا، ذكرني؟

– الحرية المطلقة للروح، حيث تخرج الكارما من دورة التقمصات ويصل الكائن إلى الفراغ الأسمى. فلا يعود من الضرورة وقتئذ أن تولد من جديد في الجسد المادي، تصبح روحاً نقية ومستقلة عن المادة. وتلتحق إذاً بأصل الكون في جوهره الأكثر نقاءً، كي تصبح نوراً وطاقة. ربّما لأنّك آخر تجسيد لي كما لجميع التجسدات قبلك، أعتقد أنّك سوف...

توقف فيرون فجأة، معجباً بما يقوله.

– ... سوف تنجح بتخليص نفسك من واجب الولادة من جديد في جسد مادي. وبالتالي إذاً من العذاب.

– أشكّ في ذلك، فأنا بعيد عن الكمال، حتّى إنّني تسبّبت بمقتل أحدهم. من المؤكد أنّني لست قديساً.

بدا أنّ الراهب أصيب بالإحباط.

– آه، في هذه الحالة لا أعتقد أنّك ستستطيع التحرر من واجب الولادة من جديد. خسارة، هناك احتمال إذاً لوجود باب رقم مائة وثلاثة عشر في ذاك الممر بعد وفاتك.

تغير مظهر فيرون، بدا وجهه عبوساً وقلقاً.

– ألا تسير الأمور على ما يرام؟ سأل رينيه، محتاراً. هل توفيت؟

– لقد تعطل دماغي للتو عن العمل. وأُغمي عليّ.

- سوف يوقظونك على الأرجح بالصفعات أو بالماء البارد، أليس كذلك؟

- هذه المرة أغمي عليّ بشكل عميق، وربما قد أكون دخلت في الكوما. أنا أعتذر.

أوه، إنّه يشبهني بكثرة استخدامه لمصطلحات الاعتذار.

- لن أستطيع إكمال هذه المحادثة الشيقة يا رينيه. يجب عليّ أن أعود، وإلّا فهناك خطورة بألّا أستطيع الولوج من جديد في جسدي.

- أنا أفهمك، أشكرك في جميع الأحوال على هذا الكهف الواقي في غابة ذهني.

- خلاف ذلك، كيف تسير الأمور من ناحيتك؟

- ربّما أقلّ ألماً مما تعانيه أنت، لأنّه يفترض في النهاية، أنّ ما أخضع له هو علاج، الهدف المعلن عنه هو تدمير ذاكرتي وليس تعذيبي.

- إنّك محظوظ.

- بما أنّ الصدمات الكهربائية التي أتعرّض لها أقلّ شدّة من الصدمات التي تتعرض لها أنت، يمكن أن يطول الأمر عندي كثيراً. أعتقد أنّني سأبقى بعض الوقت مختبئاً هنا، بانتظار أن يتوقف كلّ هذا. لا أعرف كيف أشكرك على هذه الحيلة.

- أفضل طريقة كي تشكرني فيها، هي أن تفعل كلّ ما بوسعك كي يتذكر الناس أنني كنت موجوداً. ففي النهاية، إن نفّذ دوش تهديده بتنفيذ حكم دامناتيو ميموريا، يمكنك أن تكون أنت الشاهد على من أكون وماذا عشت وما هي حقيقة الخمير الحمر.

- تستطيع الاعتماد عليّ.

- إن استطعت ذلك، اروِ بالتفصيل ما يجري هنا. أخبرهم ما عاشه رهبان الدير الآخرون، كي تعرف الأجيال القادمة بهم. أخبرهم أنّ الشمولية يمكن أن تتخذ جميع الأشكال والمظاهر كي تبدو جذّابة؛ كالفاشية السوداء، والشيوعية الحمراء، والتعصب الديني الأخضر، ولكن جميعها في النهاية هي ذاتها. وأنّ المافيات البغيضة تقوم تحت غطاء

الدفاع عن مبادئ الكرم والإيثار المفترضة، بالبحث فقط عن الثراء. وأنّ هناك صراعاً بين المستعبدين والمحرّرين؛ فهم يتخفون وراء خطاباتهم وبدلاتهم الرسمية، ويجب محاكمتهم ليس على ما يقولونه ولكن على ما يفعلون. وهنا في مثل حالة بلدي، فإنّ المستعبدين يقدمون أنفسهم على أنّهم محرِّرو الشعب. والأسوأ من هذا أنّهم مقتنعون بأنّهم يفعلون كلّ هذا من أجل مصلحة الإنسانية!

– وكيف يمكن النضال ضدهم؟

ابتسم الراهب، ومن ثمّ استخدم الصيغة التي بدت له الأفضل لوصف أفكاره.

– «كي نخيف الوحوش يكفي أن نضع أمامها مرآة».

أعجب رينيه بقوّة هذه الجملة. أكمل فيرون محدّداً:

– أنا لا أكرههم. لقد جعلوني أتعرّف بشكل أفضل على قدراتي في المقاومة، كما تعرّفت على نفسي أكثر بوقت قصير، وبفضل هذه الجلسة أيضاً استطعت التعرّف إليك. لقد كان التقمص بالنسبة لي سابقاً مفهوماً غامضاً، ولكن الآن أصبحت أعرف أنّك أنت من سيخلفني.

– ولكنّك تخاطر بالموت!

راح فيرون يبحث عن صيغة تمكّنه من التعبير عمّا يشعر به، ومن ثمّ قال:

– «ما نعتبره نهاية حياة اليرقة ليس في الواقع سوى بداية حياتها كفراشة».

أعشق تعابير هذا الراهب. من المؤسف أنّه لم يكتب كتاباً كي تكون هاتان الجملتان مقروءتين ومعروفتين للعالم بأسره. إن نسيناه ولم أنجح في نقل أفكاره، سيذهب وجوده سدى. في جميع الأحوال، ربّما كان بالفعل يرقة وربّما أكون أنا الفراشة، لذا فإنّ من واجبي إذاً الطيران.

لم يعد يعرف كيف يعبر بأفضل ممّا قاله تجسّده السابق. لذا كان فيرون من قام بإنهاء المحادثة.

– أتمنى لك نهاية تعذيب جيدة يا رينيه، قال الراهب ذلك كما لو أنّه يقول: «نهاية سهرة سعيدة».

– نهاية تعذيب جيدة لك يا فيرون، وشكراً على مساعدتك.

راح رينيه توليدانو ينتظر محدّقاً بالشمعة التي تركها الراهب. وكانت العاصفة في الخارج تهدر بشكل متقطع. عندما لم يعد يشعر بأيّة اهتزازات خلف جدار الكهف، قام بدحرجة الصخرة التي وضعها على المدخل.

ظهر أمامه منظر جديد. كانت الغابة مشتعلة، والأشجار تستمر بالاحتراق، وقد تحوّل بعضها إلى أكوام من الرماد.

لم يكتفِ ماكسيميليان تشوب بتدمير الأعشاب الضارة المتراكمة على الطرقات، بل دمّر أيضاً بشكل عشوائيّ الكثير من الأشجار ذات الأهمية الكبيرة بالنسبة لي وتتعلق بأجمل وأفضل ذكرياتي.

دخل رينيه توليدانو الباب من جديد، عائداً بحذر عبر الممر ذي المائة والأحد عشر باباً، تقدّم باتجاه الباب رقم مائة واثني عشر. عبر عتبة اللاوعي ورأى السّلم. أغلق عينيه وصعد ببطء، درجة درجة.

الدرجة العاشرة، التاسعة، الثامنة... إنّه يقترب من السطح، ولكنّه لا يتجرّأ على فتح عينيه.

الدرجة السابعة، السادسة، الخامسة.

أنا لا أسمع شيئاً، يجب أن يكون الطريق سالكاً.

الدرجة الثالثة، الثانية، الأولى.

أعاد التواصل مع الحاضر. وكانت حاسة اللمس من استجابت وليست حاسة الرؤية.

شعر بأنّه غير مقيّد وأنّه حُمل على نقّالة، ومن ثمّ تمّ وضعه على سرير.

يكفي ما عشته اليوم من مشاعر. ربّما يكون الدكتور تشوب محقاً في النهاية: «عندما نشكّ، نقوم بإعادة التشغيل».

عوض أن يفتح عينيه من جديد، قرر الذهاب مباشرة ليغطّ في النوم.

54. مذكرات دامناتيو ميموريا.

يعود تعبير دامناتيو ميموريا إلى روما القديمة ويعني: «إدانة الذاكرة»،

أو ببساطة أكثر، حقيقة أن يُحكم على المرء بالنسيان، ويعاقب على الخيانة العظمى، بأن يُنسى الشخص بعد موته.

نعتبر هذه العقوبة أسوأ شيء يمكن أن يحصل للكائن البشري لأنّها تلاحقه إلى ما بعد الموت. إنّها على العكس تماماً من مفهوم *التخليد* الذي يقوم على تقديس الشخص ممّا ينقذه من النسيان كلياً.

كان الرومان يهدّدون بعقوبة الدامناتيو ميموريا لحثّ الأباطرة على عدم ارتكاب الأعمال الشنيعة. وقد اعتبر العديد منهم جديرين بهذه العقوبة.

نذكر من بين هؤلاء الذين أدينو بالدامناتيو ميموريا ماركوس أنطونيوس (حليف قيصر وعشيق كليوباترا، الذي كان معارضاً للإمبراطور الأول أوكتافيان أوغسطس)، وكاليغولا، ونيرون وكومودوس (هؤلاء الثلاثة كانوا قد أصبحوا مجانين وعدوانيين وساديين)، بالإضافة للإمبراطور غيتا (الذي ولأسباب وجيهة، لا نعرف عنه سوى القليل من الأشياء، باستثناء أنه تمّ اغتياله من قبل أخيه كركلا حتى يتمكّن هذا الأخير من الوصول إلى الحكم).

عند إصدار الحكم بالدامناتيو ميموريا على شخصية ما فإنّ جميع منحوتاته تُدمّر، ويُمحى اسمه من جميع النقوش، ويتمّ صهر القطع المعدنية التي تُظهر صوره، ويُمنع منعاً باتاً تحت طائلة الموت، أن يلفظ اسمه.

وإن كان وجود هؤلاء الناس ما يزال معروفاً بالنسبة لنا، فهذا بفضل الوثائق التي تمّ الاحتفاظ بها على الرغم من كلّ ذلك، لأنّ هذه الوثائق كان محتفظاً بها في المناطق النائية التي لم يكن قد وصلها بعد قرار الحكم بالنسيان.

وفي السابق، مارس المصريون قبل الرومانيين، عقوبة مماثلة: فقد حُكِم على الفرعون أخناتون بالنسيان. بعد أن اعتُبر زنديقاً لأنّه أراد إصلاح وتحديث بلده قبل أن يتمّ الانقلاب عليه بمؤامرة من الكهنة.

كان الفرعون رامسيس نشيطاً خصوصاً في هذا العمل لمحو الذاكرة، فقد قام بشطب العديد من أسلافه الذين لم يكن يحبهم. قام لذلك بإزالة جميع الرموز التي تشير إلى الفراعنة الذين تعاقبوا بين أمنحوتب الثالث

وحورمحب (وهنا أيضاً، تمّ اكتشاف آثار على وجودهم بفضل نصوص وجدت في مناطق نائية).

عند الإغريق، تعرّض هيروستراتوس إلى الحكم ذاته لأنّه أضرم النيران في معبد أرتميس. من عجيب المفارقات، أنّه اعترف بقيامه بفعلته هذه على وجه التحديد بغية أن يصبح مشهوراً...

طبّق النازيون هذه العقوبة على الأب اليسوعي ألويس غريم الذي تجرأ على معارضة هتلر. وبالمثل، لجأ ستالين إلى هذه الطريقة كي يتمّ نسيان جميع الثوريين التاريخيين القدامى، وعلى وجه التحديد رفاق لينين (على الأخص مؤسس الجيش الأحمر ليون تروتسكي). تمّ محو صورهم بشكل منهجيّ، وكان ممنوع حتى نطق أسمائهم.

ولكنّ الديكتاتور الشيوعي الكمبودي بول بوت الذي حكم البلاد بين عام 1975م، و1979م، كان قد أسّس أكبر نظام عرفه البشر حتى الآن يقوم على محو وجود شخص ما، وصل به الأمر حتى لقتل كلّ أفراد عائلة الشخص وأصدقائه وجيرانه- باختصار، كلّ أولئك الذين كان من المحتمل أن يشهدوا على مرور ذاك الشخص على وجه الأرض. وبذلك قام بقتل 1،7 مليون شخص وتمّ نسيانهم رسمياً، أي ما يعادل 20% من الشعب الكمبودي في ذلك الحين.

-55-

عندما استيقظ لم يعرف أين هو بالضبط، ولا من يكون.

كان يجلس أمامه رجل مبتسم يرتدي قميصاً أبيض، ويبدو لطيفاً.

- هل أنت على ما يرام؟

استند رينيه إلى كوع يده، وكان ذهنه مشوشاً. يبدو الرجل قصير القامة وهناك خصلة شعر شقراء طويلة على جبهته.

أنا أعرفه، ولكن من هو؟ وأنا، ماذا كان اسمي؟

تباً، من أنا؟ اسمي، يجب أن أتذكر ما هو اسمي أنا.

يبدأ بحرف الراء، هل هو رونو؟ رومالد؟ كلّا، إنّه أقصر، راؤول؟ يذكرني هذا الاسم بالضفدع. رينيت، آه ها هو، لقد وجدته. رينيه.

رينيه ماذا؟ سوف أتذكر هذا.

وهذا الرجل الذي يبدو لطيفاً جداً من هو؟ أعرفه، أنا متأكد من ذلك. يجب أن يكون أحد الأصدقاء. أو أنه نظراً لارتدائه قميصاً أبيض، أحد الأشخاص الذين يهتمون بصحتي. ولكن ممّ يعالجني أساساً؟

- أعتقد أنّ حالتك تتحسّن. لديّ انطباع بأنك تشعر بأنك بحال أفضل في غرفتك الآمنة الجديدة.

يعتقد؟

تفحّص رينيه الغرفة البيضاء المصفحة. ومن ثمّ عاد لذاكرته كلّ شيء.

أنا في مستشفى للأمراض النفسية. وهذا هو تشوب، الطبيب ماكسيميليان تشوب. هو الذي يصنع «الذكريات المزيفة».

لقد فعل شيئاً ما في دماغي لتدمير عقلي. لقد أضرم النار في الأشجار العصبية داخل غابة ذهني. وقد تحوّلت إلى جذوع وأكوام من الرماد. هذا ما أصبحت عليه الغابة المحروقة لفكري.

لقد كنتُ محمياً داخل غارٍ مع رجل كمبودي، انتهى الأمر به إلى كره الشاعر رامبو.

تعود لي ذاكرتي على شكل موجات.

لديّ مهمة بغاية الأهمية عليّ إنجازها بغية إنقاذ الناس. لم أعد أتذكر من هم.

- صدقني، سوف تبدأ بالشعور بالتحسن منذ الآن أكثر فأكثر يا سيد توليدانو.

هذا هو، لقد كان اسمي، بل ما يزال اسمي رينيه... توليدانو.

هيّا، استعد وعيك. أعِد إحياء أشجار الخلايا العصبية المحترقة.

إنّ هذا الرجل ليس بهذا اللطف الذي ظننته عليه منذ قليل، إنّ ابتسامته تَخيفني.

- ليس من حقك أن تخضعني لما فعلته بي منذ قليل. أريد التحدث مع المحامي.

- أنت لم تخضع، أنت تتعالج. لا يوجد محامٍ يساعد أناساً مرضى.

إنّ أفضل محامٍ لك في نهاية المطاف، هو أنا. ولم نستطع سوى بفضل جهود إيلودي تيسكيت أن نجيء بك إلى هنا. تذكر هذا: أنا من يعالجك.

صدح مجدّداً صوت ضحكة لمريض في غرفة مجاورة، بدت كأنّها جواب قادم من بعيد لهذه الجملة الأخيرة التي قالها تشوب.

- أريد العودة إلى منزلي.

- إنّ حالتك تهمني. أعتقد أنّك ستبقى فترة طويلة جداً في هذا المستشفى، وسوف تشكرني لأنّني أنقذتك من السجن ولأنّني أقوم الآن بتنظيف ذهنك.

- أريد العودة إلى منزلي.

يتوجب عليّ إيجاد مذكراتي، هذا الملف الذي دوّنت فيه كلّ ما يخصني كي لا أنسى. ولكنّ مذكراتي في منزلي.

أين كان منزلي أصلاً؟ يجب أن أتذكر هذا، وما إن أجد مذكراتي حتى أتذكر تماماً من أكون على الرغم من كلّ ما يجري معي حالياً.

- هل ترى، هذه واحدة من مشاكل فقدان الذاكرة: نقص المفردات. أي أن ينتهي الحال بك لترديد الكلمات نفسها.

حاول رينيه الجلوس بشكل مستقيم أكثر، ولكنّه شعر بدوارٍ وصداع رهيب.

إنّ الحريق في رأسي لم ينطفئ تماماً.

سمع صوت المطر يهطل في الخارج، فتخيل أنّ كلّ هذه القطرات الفضية تطفئ اللهب الذي يستمر بإحراق خلاياه العصبية.

- أعطيناك دواء مهدئاً ونمت فترة طويلة. إنّها الساعة الحادية عشرة صباحاً. لقد فاتك الفطور، ولكنّنا سنحضر إليك طعام الغداء قريباً، فأنت بحاجة إلى بعض القوة. أعتقد أنّه في قائمة الطعام لهذا اليوم لدينا دماغ خروف. إنّه مليء بالفوسفور الذي يفيد الذاكرة. سترى، الطعام هنا لذيذ جداً. لدينا طاهٍ يحب العمل على طهو أحشاء الحيوانات، وهذا للأسف ليس شائعاً. سأحكي لك هذه القصة، لا أعرف إن كنت

مهتماً بالأطعمة، ولكنّ جدّتي كانت تقول إنّ تناول كلى الحيوانات جيد لكلى الإنسان، وإنّ بنكرياس العجل يفيد الغدة الدرقية والجهاز المناعي، والأمعاء تفيد في عملية الهضم. إذاً فلا بدّ أنّ دماغ الحيوانات مفيد للصحة العقلية للإنسان أيضاً، ألا تعتقد ذلك؟

رفع الطبيب النفسي خصلة شعره الشقراء.

– يجب أن تتمالك قواك يا سيد توليدانو، فلديك جلسة ثانية «لتنظيف الحُصين» من المقرّر إجراؤها اليوم عند الساعة الرابعة عصراً. برأيي، من الآن حتى مضي شهر، وبمعدل جلسة صدمات كهربائية واحدة في اليوم، لا بدّ أنّ غابتك الداخلية ستتحوّل إلى حديقة فرنسية.

لا تزال النار مشتعلة في رأسي. لم يعد هناك الآن سوى الجمر الذي ما زال حاراً وصوت حسيسه مسموع.

تركه تشوب وحيداً في الزنزانة ذات الجدران البيضاء.

يجب أن أتذكر شيئاً آخر مهماً، ولكن ما هو؟ شيء يرتبط بالشاطئ والرمل الأبيض، وأشجار جوز الهند ورجل يرتدي تنورة.

عضّ لسانه.

أيّ شاطئ؟ أيّ رجل يرتدي تنورة؟ هل هو رجل إسكوتلندي في إجازة؟ لماذا من المهمّ جداً تذكره؟

قرص نفسه وضرب رأسه بالحائط محاولاً إحداث صدمة تجعل ذاكرته تستيقظ من جديد. ولكن على إثر ما فعله، دخل ممرّض ومنعه من تكرار ذلك.

– إنّنا نراقبك من خلال ثقب الباب. إذا استمررت بإيذاء نفسك سوف نقيّدك بسترة المجانين!

وافق رينيه بالجلوس على سريره.

– هل تستطيع فقط أن تذكرني لماذا أنا هنا؟

نظر الممرض إلى البطاقة على الباب.

– لقد قتلت شخصاً ما مستخدماً خنجراً، قال ذلك بكلّ لا مبالاة، وبعدها أصبحت تهذي حول أطلانطس.

لقد قال ذلك بنبرة الصوت ذاتها كما لو أنّه يقول على سبيل المثال: «لديك التهاب زائدة دودية وورم سرطاني صغير». مسح الممرض بعد ذلك الدم الذي لطخ المكان حيث ضرب رينيه رأسه فيه، وذهب بعد أن أحكم إقفال الزنزانة.

وجد رينيه نفسه وحيداً.

أطلانطس؟ سحقاً، إنّها هي...

هزّ رأسه فعادت إليه صورة أخرى؛ قلادة مع دلفين أزرق. وتذكر رقبة ووجه المرأة ذات الشعر الأحمر والعيون الخضراء، وخلفها عين ضخمة.

أوبال، كان اسمها أوبال. صندوق باندورا.

قامت بتنويمي مغناطيسياً وحدث بعدها شيء ما. تعرّضت لصدمة، فقد أردت تذكر حياتي حينما كنت بطلاً، فالتقيت بهيبوليت الذي خاض الحرب العالمية الأولى.

ذاك المطر الذي كان يهطل في اللحظة التي كان يعلو فيها صوت صفارة الرقيب. والنفق الذي كان يخرج منه الألمان من وراء خطوطنا.

وأخيراً تعود ذاكرته للتشكل تدريجياً.

كان لدي عدّة حيوات قبل حياتي الحالية.

تلك الحياة التي رغبت فيها أن أموت عجوزاً ومحاطاً بعائلتي. وكنت الكونتيسة ليونتين.

والحياة التي عشت فيها أعظم متعة كانت مع المجذف زينو.

والحياة التي عشت فيها أعظم شعور بالسكينة كانت مع هذا الرجل ذي التنورة.

يجب أن أتذكر اسم هذا الرجل. إنّه اسم قصير؛ ميل، بيل، ريب، فيب... جيب! اسمه جيب ويعيش في أطلانطس.

كانت العاصفة تهدر خلف الجدار. عادت إلى ذهنه مباشرة ذكرى أخرى.

الطوفان!

إنّه في خطر. يجب أن أساعد جيب على النجاة من هذه الكارثة الطبيعية.

وضع أذنه على الحائط المبطن وشعر بالأسف لأنّه لا يستطيع أن يدرك ماذا يحدث في العالم الخارجي بشكل جيد.

قال الطبيب تشوب إنّه سينظف ذاكرتي، وقد يجعلني هذا أنسى جيب وبالتالي لن أستطيع مساعدته. المسكين، لا يعرف كيف يبني القوارب؛ فقد طوّر الأطلانطسيون مواهبهم الروحية ولكن ليس مواهبهم التقنية. إنّ قواربهم مسطحة ومستديرة تسحبها الدلافين. لا يعرفون العجلة ولا الشراع ولا العارضة ولا الدفة.

الأطلانطسيون بحاجة إليّ. أنا الوحيد القادر على إنقاذهم.

يجب أن أخرج من هنا بأيّ ثمن. عليّ الهروب من هذا المصحّ. ولكن كيف ذلك؟

جاءته الإجابة أخيراً.

إنّ هيبوليت كان واحداً من قوات النخبة، يعرف كيف يقاتل وكيف يتسلل إلى منطقة العدو.

لذا بصعوبة، جلس القرفصاء محاولاً أن يتخذ وضعية اللوتس، ولكنّه لم ينجح في ذلك فتراجع عن القيام بهذه الوضعية، فأغلق عينيه وحاول تذكر طقوس التنويم المغناطيسي التراجعي.

أعتقد أنّ هناك شيئاً يشبه الدرج المتحرك، لا، بل المصعد الكهربائي، لا بل مجرد سلّم بسيط.

في اللحظة التي كان يفكر في ذلك، استطاع تصوّره. نزل الدرجات وهو يعدّها.

وجد نفسه أمام باب اللاوعي. كان الباب سميكاً ومدرعاً ومدعّماً بحديد معدنيّ ضخم مشابه لأبواب البنوك المصفّحة.

لا أتذكر أنّ الباب كان بهذه السماكة.

أدار قبضة الباب وقاسى الكثير لفتحه. إنّه يصدر صريراً ويبدو ثقيلاً، ولكنّه تمكّن أخيراً من فتحه.

خلف الباب ممر حيث تصطف الأبواب الخشبية بشكل متتالٍ، والأرقام التي على لوحاتها تكاد تكون غير ظاهرة بسبب آثار الرماد.

يبدو أنّ نتائج الصدمات الكهربائية قد وصلت حتى ممرّي هذا.

مسح الرماد كي يرى الأرقام على اللوحات.

ماذا كان رقم الباب الذي يصحبني إلى الحرب العالمية الأولى؟ الباب رقم 105، أم 106، أم 107؟

اسم الباب جعل اللون الأحمر اللامع يضيء فوق أحد الأبواب. عاد له الأمل، إنّه الباب رقم 109!

قرّب يده إلى الباب الذي يلي الرقم 108. مسح الرماد الأسود كي يظهر الرقم 109. لاحظ تصاعد الأبخرة تحت الخشب الأسود. تذكر أنّ آخر مرة أتى فيها إلى هذه الحياة كانت تماماً قبل هجوم معركة شومان دي دام.

ليست هذه هي اللحظة المناسبة لعيش المعركة من جديد.

لذا ركّز قليلاً وحاول أن يحدّد رغبته بالضبط.

أريد الوصول إلى الليلة التي سبقت الهجوم تماماً.

فتح الباب، فوجد هيبوليت مستغرقاً في نومه. فراح يبحث عن طريقة ليتحدث معه. وعلى عكس المرة الأولى اختار رينيه ألّا يرى العالم من خلال عينيّ هيبوليت من الداخل. بل فضّل استخدام تقنية جيب، بإخراج روحه من جسده. وهكذا يستطيع الظهور والتحدث إلى تجسّده السابق كما لو أنّهما شخصان منفصلان.

– هيبوليت؟

قفز الجندي من نومه مرتعباً.

– من أنت؟

أدرك رينيه من خلال صوت الشاب القلق الكبير الذي يشعر به. فقرّر أن يستغلّ هذا التشويش الناتج عن النوم كي يجعل لقاءهما يسير بسهولة أكثر.

– أنا... شخصية من أحلامك. ولكن لست أيّاً يكن. اعتبرني مثلاً صديقاً يحتاج إلى مواهبك.

شعر أنّ ذهن الجندي أصبح على علم بوجوده دون أن يتمكن من التعرف إليه بشكل واضح.

- شخصية من أحلامي؟ وماذا تتوقع مني؟
- أعرف أنّ هذا قد يبدو مفاجئاً نوعاً ما، ولكن يجب أن تدخل فيّ وتعيشني من الداخل.
- هل هذا ممكن؟
- في عالم الأحلام كلّ شيء ممكن. هذه ليست سوى لعبة ذهنية.
- ومن أنت لتبدو تعرفني بهذا الشكل الجيد؟
- أنا تجسّدك المستقبلي.
- إذاً هل أنا أهذي في أحلامي؟
- تماماً، ولكن أنا بحاجة أن تعطيني في هذا الحلم موافقتك المبدئية لمتابعة هذه التجربة.
- ما اسمك؟
- رينيه توليدانو.
- وأنت تقول إنّك قادم من مستقبلي؟
- سأولد بعد حوالي خمسين سنة.

وبيننا نحن الاثنين حياة راهب كمبودي، ولكنّ هذا ليس هو الوقت المناسب لتعقيد الأشياء.

- وماذا تفعل هنا يا رينيه؟
- أنا في العام 2020م، مسجون داخل مستشفى للأمراض النفسية، لأنّ الناس على وجه التحديد، يعتقدون أنّني مجنون.
- آه حسناً، أفترض أنّني شربت الكثير من النبيذ قبل نومي.
- أطلب منك فقط الوثوق بي. أن تشعر بي وتدركني ومن ثمّ تدخل إلى داخلي. هذا مهمّ حقاً. أنا بحاجة إليك لأنقذ نفسي. إنّ الأمر يتعلق بالحفاظ على روحي... أوه! بالأحرى دعني أقول، الحفاظ على «روحنا».

بدا هيبوليت غير مهتمّ بكلام محاوره.

- أنت لست في جميع الأحوال سوى شخصية من الأحلام. لماذا يجب

عليّ أن أوليك ثقتي؟

كيف أقنعه؟ حسناً، سأستخدم تقنية 3+1!

- أجب فقط بنعم أو لا يا هيبوليت. هل توافق على الاعتراف بأنّه، إن كان كلّ هذا يحدث في المنام، فإنّ أيّ خيار تختاره، لن يكون له أيّة عواقب؟

- نعم.

- وأنّه إذا رفضت مساعدتي فإنّ أحلامك سوف يسكنها شخص محبط؟

- لنفترض ذلك.

- من جهة أخرى، إذا قبلت مساعدتي، فإنّ الشخصية التي ستسكن أحلامك ستكون مشرقة وسعيدة؟

- نعم.

- إذاً فأنت مهتمّ أن تكون شخصية أحلامك سعيدة ومبتهجة، أكثر من أن تكون محبطة. خاصة أنّ ذلك لن يكلّفك شيئاً ولن يجعلك تخسر أيّ شيء. إذاً، هل تقبل يا هيبوليت؟

- أووه... حسناً، في جميع الأحوال ليس لديّ شيء آخر لأقوم به... لمَ لا يا سيد توليدانو.

- نادني برينيه.

- حسناً يا رينيه.

جيد، لم يكن من السهل إقناع هذه الشخصية الداخلية.

- كيف تريد أن نمضي قدماً يا رينيه؟ سأل الجندي.

- ادخل في جسدي. خذ يديّ، أمسك بذهني وتصرف بردود أفعالك أنت، بسرعتك وموهبتك كرجل يعرف التعامل مع الحدث والمواقف العنيفة. يجب فقط أن تخرجني سريعاً من هنا. وإلّا فإنّ عقلي سوف يتضرر نهائياً ولن نستطيع التواصل بعضنا مع بعض لاحقاً.

إذاً فإنّ هيبوليت بيليسيه الذي كان يحسب نفسه يحلم وهو نائم في خندقه أثناء الحرب العالمية الأولى، أخذ زمام المبادرة للخوض في عالم مجهول، حيث يعتقد نفسه رجل المستقبل المسجون في مصحة للأمراض النفسية.

-56-

عندما جلب له الممرض طعام الغداء، أمسكه من حلقه وأفقده توازنه، وقبل أن يتمكّن الممرض من التحرك، ثبّته على الأرض وأفقده وعيه بضربة محدّدة خلف رقبته نفّذها بحافة يده. وبعد أن تفحّص الوضع، قام رينيه-هيبوليت بربط الرجل أرضاً، ومن ثمّ اندفع إلى الممرّ.

كانت جميع المخارج في هذا القسم تحت مرمى كاميرات المراقبة. سار متخفياً بحذر شديد، فوصل إلى باب مقفل من الخارج. فهم أنّه يتوجب عليه إيجاد معبر آخر.

سار في ممرات مظلمة وخالية أوصلته إلى ممرات أخرى مشابهة. هذه المتاهة ذكّرت رينيه-هيبوليت بتلك الأنفاق التي اجتازها أثناء مهمات التسلّل خلف خطوط الألمانيين.

شعر رينيه بأنّ جسده يشبه سيارة وقد أعطى مهمة قيادتها لشخص غريب.

أعيش تجربة انفصام شخصية، فهناك روحان في الجسد نفسه. هذه الوسيلة الوحيدة لمنع تشوب من تدمير ذهني بالكامل.

إن كان فيرون يعرف كيفية التعامل مع الألم، فإنّ هيبوليت يعرف كيفية التعامل في المعركة.

إنّ جنديّ الحرب العالمية الأولى سريع جداً وفعّال للغاية. يعرف كيف يسير بصمت، وكيف يُقيّم مخاطر أرض المعركة، ويتقدم سريعاً متفحّصاً كلّ ما يراه من الأرض حتى السقف. سمع رينيه أصوات صرخات.

إنّ الجلاد قد بدأ عمله.

تقدّم باتجاه المنطقة التي تأتي منها الصرخات. شاهد من خلال نافذة الباب امرأة تمّ ربطها بالأحزمة على الكرسيّ وبدأوا يعرّضونها للصدمات الكهربائية، تماماً مثلما فعلوا به هو في الليلة السابقة.

تبدي المرأة كلّ علامات الألم. ويجلس بجوارها الطبيب تشوب قرب الشاشات، ويرافقه اثنان من الممرضين. وبينما يقوم بإعطاء تعليمات تقنية إلى الممرضين، كان يداعب شعر المريضة وجهها، ثم ينتقل إلى صدرها

وهي تتلوّى من الألم مع كلّ صدمة كهربائية، وتشوب ينظر إليها كما لو أنّه ينظر إلى حيوان يتألم. والكاميرات تنقل الصور إلى زملاء تشوب الآخرين والساديين هم أيضاً.

- ماذا يفعلون هؤلاء هنا؟ سأل هيبوليت.

ليس لدى رينيه وقت للشرح.

- لنتحرك، اقترحت روح أستاذ التاريخ على روح الجندي.

فتح رينيه- هيبوليت الباب شيئاً قليلاً ومدّ يده من الشقّ وأطفأ النور. اندفع إليه الممرض مباشرة، ولكنّه استطاع أن يتجنّب ضربته ولم يجد أيّة صعوبة في طرحه أرضاً. كان التفوق هنا لرينيه- هيبوليت وذلك بفضل الإضاءة الخافتة وتأثير عنصر المفاجأة.

حاول الممرض الآخر أن يطوّقه، ولكنّ المتسلّل استبق الأمر عليه وضربه بكوع يده على ناحية كبده، فأجبر بذلك عدوّه على الانحناء متألماً.

ولكنّه ما إن استطاع الهروب من هذين الممرضين حتى شعر بألمٍ حارق قرب سرّته. فهم بعد فوات الأوان أنّ الطبيب تشوب كان قد وصل من خلفه وطعنه بمشرطٍ في بطنه. إنّه مؤلم، ولكنّه شعر مباشرة أنّ الدهون والعضلات هي فقط التي تتألم وليس هو.

انتزع رينيه - هيبوليت المشرط واستدار ممسكاً به ومن ثمّ وجّهه بدوره إلى الأمام. تراجع تشوب إلى الخلف وبحركة واحدة أطلق صفارة الإنذار التي تصمّ الآذان. أصبحت الغرفة المظلمة فجأة مضاءة بوميض أحمر متقطع لمصباح الإنذار.

أراد الطبيب النفسي ذو الغرة الشقراء الاستفادة من هذا التشويش كي يهرب، ولكنّ المهاجم منعه من المرور، فأمسك بمشرط ثانٍ ووجهه إلى الأمام مهدّداً. تواجه الرجلان وهما مستعدان للانخراط في مبارزة مسلحة بسيوفهما الصغيرة.

عادة، وبالنظر إلى اختلاف الأحجام، فإنّ المعركة يجب أن تحسم لمصلحة المقاتل الأكثر طولاً، ولكنّ واحداً من الممرضَين اللذين أغميَ عليهما، كان قد استعاد وعيه وجاء لمدّ يد المساعدة لرئيسه. إنّ العدد في

هذه المرحلة يلعب ضد رينيه. قام رينيه – هيبوليت بحركة واحدة، بقطع الأربطة وتحرير المرأة الشابة المقيدة على الكرسيّ التي قامت من فورها ببصق الكرة من فمها، ورمت بنفسها فوراً فوق الطبيب تشوب وهي تطلق صرخات غضب حانقة. إنّه تحول ناجح.

اندفع الممرض باتجاهه، فانخفض رينيه – هيبوليت وأمسك قدمه اليمنى، وأقحم رأسه في صدره وطرحه أرضاً. ومن ثمّ ضربه على حلقه، مدركاً أنّ عليه القيام بالأمر سريعاً لأنّ الممرّض الثاني كان قد وقف وقفز فوقه.

وجدا أنفسهما في قتالٍ جسداً لجسد مماثل لذلك الذي عاشه رينيه أثناء أول جلسة تنويم مغناطيسي تراجعي له مع الجندي الألماني في معركة شومان دي دام. فقد جلس الممرض الأضخم فوقه حاملاً مشرطاً قريباً من وجهه. أوقف هيبوليت بيده تقدّم يد الممرض، وحاول باليد الأخرى خنقه ولكنّ عنقه عريض جداً ولم ينجح بالضغط بشكل قوي ليخنقه. لذا، وبعد أن تذكر بالتحديد معركة شومان دي دام، استعاد رينيه زمام السيطرة كي يجرب استراتيجية أخرى.

الذكاء هو عدم تكرار الخطأ نفسه مرتين.

وجه بركبته ضربة عنيفة إلى أسفل بطن الممرّض. فخفّف هذا الأخير فوراً الضغط عليه. وهذا ما سمح له بلطم جبهته بضربة قوية.

تذكر هذا يا هيبوليت غداً في معركة شومان دي دام لأنه قد يخدمك.

ساهم الظلام المتقطع بومضات الضوء الأحمر في غرفة العلاج بالصدمات الكهربائية، بالإضافة إلى ضجيج صفارة الإنذار بزيادة الفوضى. نجحت المريضة المحررة بتكبيل ماكسيميليان تشوب، وقامت بعد تجهيز الأسلاك الكهربائية بإحداث صدمة كهربائية في أذنه جعلته يصرخ موجوعاً.

آه، إنّه حساس علاوة على ذلك!

أطلقت المريضة ضحكة فرحة وقامت من جديد بتفريغ صدمة كهربائية في فمه جعلته يجفل ويقفز من مكانه.

لم يعد يملك رينيه – هيبوليت وقتاً ليضيعه. يتوجب عليه الهروب قبل وصول الممرضين الآخرين. لذا، نزع القميص الأبيض لأحد الممرضين

على الأرض، ومن ثمّ استغل صراع تشوب مع مريضته ليأخذ منه بطاقته المغناطيسية.

راح رينيه يركض في متاهات الممرات تحت الأرض، متغلباً على الألم الذي سبّبته ضربة المشرط في بطنه. وحينما وصل إلى غرفة المختبر، قام من باب التضليل باختلاق مسار خاطئ كي يحوّل الأنظار عن مكان الحدث الرئيسيّ. لذلك أمسك بموقد بنزِن وافتعل حريقاً في الغرفة الذي أحدث على الفور دخاناً كثيفاً. انتشر الدخان الرمادي والكثيف في الممرات. بلّل رينيه - هيبوليت قطعة قماش كي يجعلها قناعاً واقياً، فهذه تقنية سبق أن جربها ضد غاز الخردل. ولاحظ عبر حجب الدخان خيالات الممرضين.

زاد فوق ارتباكهم ارتباكاً.

عبر أول باب بواسطة بطاقة الطبيب، وصعد السّلم حتى وصل إلى الباب الرئيسي، واستخدم البطاقة الممغنطة لتشوب كي يفتح الواجهة الزجاجية. سمح له لباسه كممرض بعبور الساحة دون مشاكل. وفي موقف السيارات، جلس وراء مقود سيارة الإسعاف التي كانت مفاتيحها موضوعة على لوحة القيادة. أدار السيارة، وشغّل صفارة الإنذار التي اختلط صوتها المدويّ مع الجلبة العامة. ارتفع الحاجز كي يسمح له بالعبور.

نظر من المرآة العاكسة، فلم يجد أحداً يتبعه. توقف بعيداً في شارع خالٍ. أغلق عينيه واستأنف الحوار مع نفسه السابقة:

- من الأفضل لنا الآن أن نفترق يا هيبوليت. سوف تنهي هذا الحلم وتستيقظ هادئاً في الغد كي تعيش مغامرات أخرى.
- قل لي يا رينيه، أنت شخصية من الأحلام يفترض أنّها تعيش في مستقبلي، أليس كذلك؟
- نعم، أنا شخصية من الأحلام. لذا ما يمكن أن أقوله لك ليس سوى جزء من الأحلام.
- إذاً هل بإمكانك جعلي أرى حلماً تنبئياً؟
- هذا يعني...
- أنا لم أخذلك، لذا لا تحاول التملّص الآن.

اللعنة، لم أتوقع هذا.

- إن كنت قد فهمت عليك جيداً، فإنّ حاضري بالنسبة لك... هو ماضي. لذا قل لي ماذا سيجري معي. إنّ الوضع فظيع هنا على الجبهة، هل سأنجو؟
- عليك أن تعيش حياتك لا أريد التدخل، لا أعرف ما هي العواقب التي قد تحدث إن أخبرتك ما الذي سيجري معك.
- أريد أن أعرف.
- في جميع الأحوال، هذا ليس سوى حلم.
- إذاً في هذه الحالة، لن يتغير شيء إذا قلت لي ما الذي تعرف عن مستقبلي يا رينيه. طالما أنّه حلم فإنّني حينما سأستيقظ صباحاً سأكون قد نسيت كلّ شيء.

إنّه ماكر، يريد الإيقاع بي.

- وربّما قد تتذكر أيضاً. وفي هذه الحالة قد يؤثر ما أقوله لك على مسار التاريخ. أيّاً يكن، إنّ مساعدتك لي كانت حاسمة لحاضري يا هيبوليت. شكراً لك، وأنا أعتذر عن عدم مقدرتي على مساعدتك أكثر.
- كلّا، لا تذهب الآن.
- بلى، يجب ذلك.
- هل ستعود من جديد؟

اللعنة، لا أعرف ما أقول.

- أنا... نعم... سأحاول.

فضّل رينيه خوفاً من أن تتشوش أفكاره أكثر أن يضع حدّاً لهذه المناقشة. افترقت روح رينيه عن روح هيبوليت مع شعورهما بأنّهما عاشا تجربة مهمة.

أعاد تشغيل السيارة من جديد وسار بأقصى سرعة على الطريق، مستفيداً من ميزة صفارة الإنذار كي يسلك طريق الباصات.

أعتقد أنّ وضعي يزداد سوءاً. البارحة فقط قتلت رجلاً، واليوم قمت بجرح ممرضين اثنين وأضرمت النار في المستشفى.

وأخيراً أصبح وحيداً مع نفسه، تابع السير وهو لا ينفكّ ينظر عبر المرآة العاكسة. إنّه ممزق بين شعوره بالقلق بسبب ما حدث في المستشفى، وبين شعوره بالرضا كونه أصبح حرّاً، وبين معرفته بأنّه يستطيع منذ الآن الاعتماد على مساعدة تجسّداته السابقة في التعامل مع الأزمات، والشعور بالذنب لعدم تقديمه المساعدة لهيوليت.

إنّني أترك في هذا الكون أثر الدم والرماد. هنا حيث أعبر تتفاقم الفوضى ويزداد الدمار.

كلّ هذا لأنّ العلاج بالتنويم المغناطيسي قد فتح صندوق باندورا روحي كي تخرج منها جميع شياطين حيواتي السابقة. إنّ اليرقة لم تتحوّل إلى فراشة، بل تحولت إلى دبور. لقد قتلت وأحرقت وجرّحت. لقد تخلّيت عن هيوليت وتركته لمصيره.

إنّ هذه الفكرة تستحوذ عليه. تجاوز الإشارة الحمراء.

اعرف أنّني سأدفع ثمن كلّ هذا. أقبل ذلك، ولكن يجب أن أكون مرتاحاً بما يكفي وفي مكان هادئ لمساعدة جيب في النجاة من الطوفان.

توقفت بجانبه عند الإشارة الحمراء، سيارة شرطة. وراح أحد الشرطيين يحدّق به.

يجب أن أحافظ على رباطة جاشي، فأنا سائق سيارة أرتدي قميص الممرض، لذا يجب أن يؤثر هذا على اللاوعي مثل بنت الكُبة. فيجب ألّا يقول ذهن الشرطي غير هذه الأشياء: «إنّه رجل ينقذ أرواح الناس، لذا لا يجب إزعاجه».

تبادلا النظرات.

ابتسمْ كي تبدو طبيعياً. كما كان يقول والدي: «عندما لا تعرف ماذا تفعل ابتسم، سيشعر الناس أنّك فهمت شيئاً يجهلونه هم».

تابعت سيارة الشرطة طريقها دون أن تعيره الانتباه أكثر. قال الهارب في نفسه إنّه قد حان الوقت لاستعادة حاجياته وخصوصاً حاسوبه كي يسجل كلّ ما حدث معه على ملف مذكراته.

كما قال فيرون: «أسوأ شيء قد يحصل هو ألّا يتذكر أحد وجودك».
على الأخص ألّا أنسى أيّ تفصيل ممّا جرى.

-57-

ركن رينيه سيارة الإسعاف، ومن ثمّ تخلّص من قميص الممرض برميه في القمامة قبل أن يدخل إلى منزله.

من المستحيل أن أتذكر رمز الدخول إلى المبنى. بلى، إنّه تاريخ عيد ميلادي، اختاره حارس البناية تضامناً معي بعد أن أخبرته بأنّني أخشى الإصابة بنفس اضطرابات مرض ألزهايمر الذي يعاني منه والدي... بقي سؤال صغير، في أيّ يوم ولدت؟ لا بدّ أنّ تشوب قد أحرق هذه المناطق في مُحصين دماغي.

جرّب عدّة تواريخ ومن ثمّ تذكر أخيراً. إنّ عيد ميلاده يتوافق مع أيام الربيع أو الصيف. آه إنّه في الصيف. نعم، في شهر حزيران/ يونيو.

إذاً يوجد رقم 06. وماذا كان الرقم الذي قبله... مثل عدد الساعات في اليوم. إنّه 24.

أدخل الرقم 2406. فانفتح باب البناية. اندفع مسرعاً ووصل إلى طابقه.

المفتاح؟ أين كنت قد خبأته؟ لا بدّ أنّه في مكان ما قرب الباب. ها هو تحت ممسحة الأرجل.

دخل وأغلق الباب خلفه وأدار القفل مرتين.

بدت جميع الأقنعة سعيدة لرؤيته من جديد، باستثناء الأقنعة اليابانية التي استقبلته بتكشيرة مخيفة.

أخذ حمّاماً ساخناً وعقّم جرحه، لحسن حظّه أنّ الجرح سطحيّ. أمسك حاسوبه وهو ما يزال يرتدي ثوب الحمام، وكتب بسرعة في مذكراته كلّ ما جرى معه للتوّ وجميع الأفكار التي ألهمته إياها هذه الأحداث.

الأمر المدهش أنّه على الرغم من أنّني ما زلت أجد صعوبة في الوصول إلى ماضيّ القريب، ولكنّني بالمقابل أستطيع الوصول إلى ماضي العديد من

حيواتي السابقة التي عاشت في أماكن وعصور وظروف مختلفة جداً. إنّها جميعها شخصياتي.

إنّني الآن أكثر بكثير من مجرد «رينيه إميل توليدانو، الرجل الأعزب ذي الاثنين والثلاثين عاماً، الذي يعمل أستاذاً لمادة التاريخ في مدرسة جوني- هاليداي».

أملك مائة وإحدى عشرة حياة. ولكنّ الحياتين الأكثر أهمية بلا شكّ هما الحياتان الأولى والأخيرة.

عندما كنت هيوليت، وليونتين وزينو وفيرون، لم تكن حياتي شاقة فقط، بل غير مرضية وغير مثمرة كثيراً.

هذه الملاحظة بدت له اعترافاً قاسياً.

باستثناء جيب، عاشت تجسداتي حيوات بائسة.

إنّ الحيوات المائة والعشر بين حياة جيب وحياتي هذه كانت محدودة بشكلٍ جليّ وغير مريحة. في النهاية، إنّ حياتي باسم رينيه توليدانو هي الحياة التي تتيح أكبر قدر من الإمكانيات والقدرات.

فمنذ أن أصبحت قادراً على إدراك حيواتي السابقة، اتخذت حياتي منحى جديداً. كما أصبحت أعرف الآن جزءاً من السر القابع في أعماق روحي. إنّه ممتلئ بالكنوز والأفخاخ.

أشعل التلفاز ليرى إن كانوا يتحدثون عنه.

افتُتحت نشرة الأخبار بالحديث عن الأمطار التي تهطل باستمرار دون انقطاع. أُغلقت جميع الطرق على ضفاف النهر بعد أن غُمرت بالمياه. فقد وصل منسوب مياه نهر السين إلى أسفل سروال تمثال زواف على جسر ألما، أيّ ما يعادل 5،20م. ولم تصل المياه إلى مثل هذا الارتفاع إلّا أثناء فيضانات عام 2001م.

هذا الخبر ذكّر رينيه أنّ عليه إيجاد وسيلة لإنقاذ أطلانطس من الطوفان الذي ينتظرها والذي قد لا يحدث بهذا البطء. ومع ذلك، خشية أن يزعج شريكه الذي قد يكون مشغولاً بممارسة الحب، راح رينيه ينتظر بصبر أن تصبح الساعة 23:23.

فجأة رنّ جرس بيته. ومن خلال ثقب الباب تعرّف إلى تشوب واثنين من الممرضين.

اللعنة، لقد ركنت سيارة الإسعاف أمام المنزل. لا بدّ أنّ فيها جهاز تتبع إلكترونياً. كم أنا أحمق! كان يجب أن أتعلّم كيف أكون هارباً أكثر تيقظاً.

رنّ الجرس من جديد. حاول أحد الممرضين اقتحام المنزل دافعاً الباب بكتفه.

أمسك أستاذ التاريخ بحقيبة ظهره ووضع فيها حاسوبه وملابس للتبديل وكلّ ما يحتاجه من عدّة النظافة الشخصية، كما التقط بضع بطاقات للمواصلات كانت على مكتبه، ومن ثمّ ذهب عبر الشرفة ليصل إلى المبنى الملاصق، ونجح بالوصول إلى الشقة المجاورة. ولحسن حظه، كانت النافذة مفتوحة بسبب حرارة الجو، ولكنّه وجد نفسه وجهاً لوجه أمام رجل قام بالصراخ على الفور:

- ولكن ما الذي تفعله في منزلي؟ من أنت؟
- أنا جارك في الشقة المجاورة. لقد أضعت مفاتيحي لذا أنا مضطر للمرور من هنا، هكذا ارتجل رينيه.

لم يفهم الرجل جيداً العلاقة بين هذين الأمرين، ولكنّ نبرة صوت رينيه كانت واثقة بما يكفي كي تمنع الرجل من الصراخ أو الدخول في عراك معه. وبينما هو يعبر الغرفة حاول رينيه استخدام تقنية 3+1.

- هل تتذكر فترة تجديد واجهة المبنى منذ بضعة أشهر؟
- آه... نعم.
- هل تتذكر كيف ملأ الغبار كلّ شيء بسبب السقالات التي علّقت على الواجهة؟
- بالفعل.
- هل تتذكر أنّه كان علينا أن نكون يقظين طوال الوقت خوفاً من خطر التعرض للسرقة؟
- أوووه...
- حسناً، لهذا السبب أنا هنا الآن، خلُص رينيه لقول ذلك كما لو كان

الأمر بديهياً.

فكّر الرجل محاولاً إيجاد رابط بين هذه الأسئلة الثلاثة. ولكنّه لم يجد شيئاً، فانتهى الأمر ليقول في نفسه إنّه هو بالتأكيد ليس ذكياً بما يكفي ليفهم ما قاله. لذا ترك رينيه يجتاز شقته الكبيرة ويخرج من الباب الخلفي دون أيّ ردّة فعل. نزل رينيه السلّم الصغير.

وصل إلى الأسفل، واجتاز عتبة المبنى. حاول أن يستقلّ سيارته.

إن كان تشوب قد أبلغ الشرطة، فلن يجدوا أدنى صعوبة في العثور على رقم لوحة سيارتي.

ومن باب الحيطة والحذر، أوقف سيارة أجرة.

– أين تريد الذهاب يا سيدي؟

– إلى أبعد مكان ممكن، إلى الأمام مباشرة.

تفاجأ السائق ولكنّه امتثل مع ذلك لمطلبه.

كم مرة في حيواتي السابقة وجدت الخلاص بهروبي بعيداً؟ وكم مرة في حيواتي السابقة وجدت ملجأ أو حليفاً أنقذ حياتي؟

سأل نفسه من يستطيع إنقاذه. ليس عائلته بالطبع.

أمي متوفاة وأبي على وشك أن يفقد عقله.

استخدم حاسوبه المحمول، وقام بوصله بشبكة إنترنيت التكسي فاستطاع بذلك الاتصال بأحد الأرقام.

– إيلودي؟ هذا أنا... أنا بحاجة إليكِ. لم أعد أستطيع العودة إلى منزلي. هل تستطيعين استضافتي في منزلك لو سمحتِ؟

– رينيه! ما الذي فعلته؟ لقد علمت بأنّك هربت من المستشفى.

– لم تعجبني وجبة العشاء لديهم. قال مازحاً ليطمئنها.

– يجب عليك أن تعود!

– هل تستطيعين أن تخبئيني عندك فقط ليوم واحد؟

– هذا لن يفيدك شيئاً. أنت مريض يا رينيه، يجب أن تعتني بنفسك. ما الذي جرى لك كي تقوم بتخريب المستشفى، هل كان ذلك بسبب

تلك الشخصيات المتعددة المدفونة فيك، والتي ظهرت من جديد ولم تستطع التحكم بها.

– تخريب المستشفى؟ عن ماذا تتحدثين؟

– أتحدث عن الحريق الذي افتعلته! اتصل بي تشوب وأخبرني بأنّك تحولت إلى مجنون هائج لأنّك لم تستطع تحمّل علاجه.

– ساعديني يا إيلودي لو سمحتِ، ليس لديّ أحد سواكِ.

– لن يعود بإمكانك الهروب مجدداً يا رينيه. سلّم نفسك إلى أقرب مركز شرطة. أنا أقول هذا لمصلحتك. كلّ شيء يمكن إصلاحه حتى الآن. ولكن إذا أكملت بهذا الشكل، فإنّ مرضك العقليّ سيزداد سوءاً، وأوهامك عن أطلانطس سوف تظلّ تطاردك إلى أن تصل فعلياً إلى حدّ عدم القدرة على السيطرة عليها. إنّ سلامة ذاكرتنا ورفض العوالم الوهمية هي التي تبقينا عاقلين يا رينيه. ولكن أنت مريض.

– لقد تمكنت من الوصول إلى ذكريات مخبّأة في داخلي، وهذا ليس مرضاً.

– بلى، إنّه مرض انفصام الشخصية.

– أعتقد أنّه بالأحرى توسيع نطاق الوعي. لقد قمت بفتح باب جديد للإدراك، مثل تلك التي تحدّث عنها الكاتب ألدوس هكسلي والتي ألهمت الموسيقي جيم موريسون لتسمية فرقته باسم ذي دورز.

– هل تمزح؟ تعتبر تجربتك في صندوق باندورا فتحاً لباب الإدراك؟ أعتقد أنّك فقدت توازنك.

– عرفتُ من كنت قبل أن أولد.

– نعم، إنّها شخصيات خبيثة يجب إسكاتها. لقد فُطرنا على امتلاكنا فقط حياة واحدة وذاكرة واحدة وعقلاً واحداً كاملاً وفعّالاً في زمان واحد ومكان واحد وملموس وقابل للتحقق. وبعدها صرخت إيلودي قائلة: عشْ في الواقع يا رينيه! توقف عن أوهامك! أنت رينيه توليدانو، وأنت هذا الشخص «فقط لا غير» !

إنّها لا تستطيع أن تفهم. ولن أستطيع بالتالي إقناعها بالعقل. لأجرب إذاً المشاعر.

- أنا بحاجة إليكِ يا إيلودي، أرجوكِ. ساعديني بدلاً من الحكم عليّ.
- أفضل وسيلة لمساعدتك هي أن تقنع نفسك بضرورة العلاج.
- فقط أجيبيني على هذا السؤال: هل أستطيع المجيء إليكِ الآن حالاً؟

بدل أن تجيبه تابعت بالزخم ذاته.

- سوف أشهد بأنّك تعرّضت لصدمة على إثر جلسة تنويم مغناطيسي فاشلة. سأقول إنّ كلّ هذا كان خطأي، لأنّني أنا من اصطحبتك إلى مسرح السفينة دون التفكير بأنّ العواقب قد تكون سيئة.
- ألا تستطيعين فقط الوثوق بي؟
- لقد قتلت شخصاً، وأضرمت النار في المستشفى. وقد يكون هناك جرحى آخرون أيضاً. إنّ هذا تُقاضى عليه، ولكنّ صديقتي المحامية سوف تساعدك، ولكن أرجوك سلّم نفسك، لأنّ هروبك سوف يؤكد الاتهامات الموجهة ضدك.

تردّد رينيه للحظة.

إنّ طريق الاستسلام يبقى دائماً متاحاً للعبور. تنازلْ، استسلم، أخفضْ ذراعيك، توقف عن العراك. هذا الطريق أيضاً سبق أن سلكته في كثير من حيواتي السابقة، ولم تبدُ لي النتيجة مقنعة.

- هكذا إذاً، أنت من اعتبرتكِ صديقتي، ترفضين مساعدتي؟
- نعم، بالضبط هذا بدافع صداقتي لك.

أغلق الخطّ ومن ثمّ أشار للسائق بالذهاب إلى عيادة الفراشات.

-58-

«الذاكرة هي كلّ شيء».

وصل حوالي الساعة العاشرة مساء إلى أمام المركز الصحي. اجتاز المدخل ووصل إلى غرف المرضى دون أن يراه أحد. طلب منه بعض العجزة التائهين في الممرات مساعدته في إيجاد غرفهم ولكنّه تابع سيره دون تباطؤ.

حين فتح باب الغرفة، شاهد والده كعادته، يتابع على التلفاز برنامجاً حول نظريات المؤامرة. إنّه برنامج وثائقي يزعم أنّ الإنسان لم يخطُ خطوة واحدة على القمر. والحجج التي قُدّمت على ذلك هي أنّ ظلّ العلم لا يتوافق مع ظلّ رجل الفضاء، كما تمّ الحصول على شهادات لمقربين من المخرج ستانلي كوبريك، وقد استخدمت كلّ هذه الحجج للتشكيك في عملية الهبوط على سطح القمر عام 1969م.

من جهة، هناك الأخبار الزائفة الصغيرة للسياسيين، ومن جهة أخرى هناك الأخبار الزائفة الكبيرة التي تمّ اختلاقها من العدم من قبل أفراد يبحثون هم أيضاً عن تضليل الجماهير.

لم يسمعه إميل عندما دخل.

– مساء الخير.

– هل حان وقت الطعام؟ سأل الرجل العجوز دون أن يستدير.

– هذا أنا. أجاب رينيه.

أغلق رينيه باب الغرفة وراءه.

– أنت؟ من أنت؟ هل نعرف بعضنا بعضاً؟ سأل العجوز مشكّكاً.

شعر رينيه بأنّه يتوجب عليه أن يجد فكرة بسرعة. تذكر أنّ الطبيب قال له إنّه يتوجب عليه إثارة عواطفه لتحريض ذاكرته على العمل.

ما هي العاطفة الأكثر قوة التي يمكن أن تثير والدي، علماً أنّه نسي كلّ شيء؟

– أنا هنا من أجل المؤامرة. قال رينيه مرتجلاً.

استدار والده هذه المرة، وراح يراقبه.

– من أنت؟

– أنا عميل سرّي من مركز الاستخبارات الفرنسية، اكتشفنا وجود جواسيس أجانب مختبئين في عيادة الفراشات، وهم قادمون من أجل...

حسناً، يجب بسرعة إيجاد شيء ما منطقيّ.

- ... كي يضعوا في المياه الرئيسية إكسير النسيان. إنّه GHB حمض جاما هيدروكسي بيوتيريت.

قطّب إميل حاجبيه.

- أرني بطاقتك!

حسناً! لنجرب أيضاً تقنية 3+1 التي كانت ناجحة نوعاً ما.

- هل توافق على أنّ العملاء السريين ليس من مصلحتهم الحصول على أوراق رسمية تخصهم، خوفاً من أن يفضح أمرهم إن تمّ القبض عليهم؟

- أوه، بالفعل.

- وهل توافق على أنّه من المهم لديهم أن يكون تحرّكهم غير ملحوظ لأقصى درجة ممكنة؟

- نعم.

- هل توافق أنّه إذا كانت المؤامرة التي حدثتك عنها للتوّ بالفعل حقيقية، فلن يكون أحد على علم بما يحصل؟

- بالطبع.

- وأنّه لن يتوقع أحد أن يكون معقل المؤامرة يقبع في عيادة مثل هذه؟

- آه! هذا أمر لن يشكّ به أحد، إنّه بالفعل المكان الممتاز الذي لن يشتبه به أحد. اعترف إميل.

تبدلت ملامح وجه إميل توليدانو وصافح بشدّة يد ابنه.

- كنت أعرف ذلك! فأنا نفسي أشعر للحظات بأنّه لديّ هفوات في الذاكرة، يجب أن يكون هذا بسبب الماء القادم من الصنبور! إنّه يحتوي على إكسير النسيان، هذا GBH.

- GHB، صحّح له رينيه.

- والمجرمون قادمون من أيّ بلد؟

- إنّهم من...

بسرعة، جدِ المذنبين.

- ... من تركيا!
- العثمانيون!
- إنّهم هنا، في الخارج. يريدون قتلنا لأنّنا نحاول منعهم من سكب عقارهم GHB في جميع خزانات المياه الرئيسية، لجعل أكبر عدد ممكن من الناس يعانون من فقدان الذاكرة.
- عقار GHB! طبعاً، أكيد، أممم... ماذا كان بالضبط؟
- إكسير النسيان.
- آه نعم!
- هل تعلم لماذا يفعلون هذا؟
مال باتجاهه ووشوشه في أذنه:
- كي ننسى الإبادة الجماعية للأرمن.
- بالطبع، هذا بديهي.
- لطالما أحيت فرنسا ذكرى هذه الإبادة. إنّ الأتراك يأخذون علينا هذا الأمر.
- نعم، بالطبع هذا هو.
- والآن، يريدون أن نتناول عقار GHB، ولكنّنا لن ننسى. طالما أنّنا لم ننسَ المحرقة، ومذبحة التوتسي في رواندا، والتطهير العرقي في ناميبيا.
- لقد بدأوا بالفعل بسكب هذا السّمّ اللعين الذي يصيب الذاكرة. فأنا أشعر أنّني أنسى أحياناً بعض الأشياء. لا أعود أتذكر جيداً إن كنت قد أخبرتك بذلك؟
قاطع رينيه والده:
- هذه ليست سوى البداية، ولكنّنا نستطيع مواجهتهم. نحن بحاجة إليك يا سيد توليدانو، وفي المناسبة، سوف أكشف لك اسمك المستعار كعميل سرّي.
- آه؟ ماذا ينبغي أن يكون اسمي؟ سيكون أحرفاً؟ أو أرقاماً؟ أو اسماً مستعاراً يشير إلى شخصية تاريخية؟

- «بابا».

كرّر الاسم كي يتشرّب والده الكلمة جيداً.

- إنّ هذا يبدو طفولياً، ولكن يمكن لهذا السبب بالتحديد تضليل أعدائنا في حال اعترضوا رسائلنا. سيعتقدون أنّني والدك، وأنت، من تكون؟

- أنا؟ «كولد[1]».

- بالطبع، إنّه اسم ذكي ووقعه جميل. إذاً كيف أستطيع أن أكون مفيداً في النضال ضدّ أعدائنا يا أيها العميل كولد؟

- سأطلب منك في الوقت الراهن أيّها العميل بابا، أن تخبئني عندك. فمنذ أن اكتشفت مؤامرتهم وهم يتبعونني كي يسكتوني. يمكنهم أن يظهروا بأيّ شكل من الأشكال، يمكنهم حتى التنكر بزي الشرطة أو الممرضين.

- آه، إنّهم مخادعون...

- بقدر لا تستطيع تخيّله! أنا أعتمد عليك أيها العميل بابا.

- تعتمد عليّ للقيام بماذا، هلّا ذكرتني؟

أوه لا، ليس هذا. إنّه لا يحتفظ بالمعلومات.

- أعتمد عليك لتخبئني.

- أين؟

- هنا...، أيها العميل بابا.

- حسناً، وبالمناسبة من أنت؟

أدرك رينيه أنّ هذه هي نهاية خطته.

العاطفة ليست قوية بما يكفي للتأثير على دماغه.

استسلم وكان على وشك مغادرة الغرفة.

- أيها العميل كولد...

وقف مكانه وشعر بأنّه ما يزال هناك أمل.

1- يقصد: ولدك، قام بعكس الحروف. المترجمة

- أيها العميل كولد، أنا لم أعد أتذكر من أنت، ولكن أرغب في طلب شيء ما منك، هل أستطيع ذلك؟

- بالطبع.

- قل... أوه، حسناً، قل للطبيب، مع أنّني لم أعد أتذكر أين سمعت هذا، ولكن يبدو أنّ ماء الصنبور يمكن أن يكون له تأثيرات على العقل... لم أعد أذكر ما هي، ولكن هذا مهم. أعتقد حتى أنّ هذه التأثيرات قد تكون خطيرة. يجب أن تحذره من ذلك. إنّ هذا له علاقة بحروف G وB.

للحظة، تصوّر رينيه أنّ عقل والده يشبه السهل الذي لا تنبت فيه الأشجار، وهو مغطى هنا وهناك بقليل من الشجيرات التي تتدحرج مدفوعة بسبب الرياح.

- لن أتوانى عن إخباره بهذا.

كان والده قد عاد ليتمركز أمام الشاشة. حيث تمّ الكشف عن جملة من الأخبار التي تزعم؛ أنّ الأميرة ديانا قد اغتيلت بأمر من إليزابيث ملكة بريطانيا، وأنّ المغني إلتون جون لديه ميول جنسية طبيعية، وأنّ مارلين مونرو لها طفل من روبرت كينيدي، وأنّ اعتداء 11 من أيلول/ سبتمبر نفذته المخابرات السرية الأمريكية لإضفاء الشرعية على حرب العراق، وأنّ هناك مخبأ للكائنات الفضائية تحت البيت الأبيض، وأنّ المتنورين مسيطرين على العالم، وأنّ الأرض مسطحة.

كلّ هذه الأخبار الملفّقة يبدو أنّها تثير اهتمام إميل.

خرج رينيه بسرية من عيادة الفراشات وهو ككلّ مرة يمسح دموعه التي لا يستطيع كبتها.

لقد كان عليّ المحاولة في جميع الأحوال.

لا يعرف إن كان بكاؤه بدافع الشفقة على والده أم بدافع الشفقة على نفسه، فهو قد يواجه خطر أن يتلقى المصير ذاته المشابه لوالده، بسبب طبيعة المرض الوراثية.

إنّ الوقت يمضي، وهو يعرف أنّه يجب على الأخص ألّا يفوّت موعده عند الساعة 23:23، ولكن من أجل هذه الموعد يجب أن يكون في مكان لا يأتي إليه أحد ليزعجه.

إن كنت لم أعد أستطيع العودة إلى منزلي، وإن كانت الشرطة تبحث عني، وإن كانت إيلودي لا تريد مساعدتي، وإن كان والدي لا يستطيع مساعدتي، إلى أين يمكنني الذهاب؟

كالعادة، مجرد طرحه لصيغة سؤال واضحة، تجعل الجواب يأتيه على طبق من فضة.

-59-

استقبله دراكولا وأشار له بالجلوس على طاولة فارغة.

كان «البار الأخير قبل نهاية العالم» يقيم حفلة لمصاصي الدماء انضمّ إليها بعض المستذئبين الذين كانوا يلعبون لعبة تبادل الأدوار. يبدو أنّهم يعيشون الحكاية تماماً من خلال شخصياتهم التخيّلية.

سأله دراكولا الذي كان يجد صعوبة في حمل أسنانه الطويلة، إن كان يريد تناول الطعام أم الشراب. ونصحه بشرب كوكتيل اليوم وهو بلودي ماري الذي لن يقدّم مع شريحة الليمون وإنّما مع قطعة لحم شبه نيئة. وافق رينيه على هذا الاقتراح وهو شارد الذهن.

إنّ الناس يحتاجون إلى الأقنعة.

تناول رينيه المشروب دون تلذّذ بعد أن أزال قطعة من جثة عجل كانت تطفو على السطح. بما أنّه لم يعد يملك بطاقة العمل التي أعطته إياها أوبال، فكّر أنّه قد يجدها هنا. حاول التعرّف على النادل الذي اهتمّ بهما آخر مرة. لقد عرفه على الرغم من تنكره بزيّ جاك السفاح.

- لا أعرف إن كنت تتذكرني، لقد أتيت إلى هنا مع أوبال إينشيجويان.

- أوبال، نعم، إنّها صديقتي!

أشار رينيه إلى حقيبة ظهره.

- لقد نسيت حقيبتها في منزلي، هل تستطيع أن تعطيني عنوانها لو سمحت كي أعيدها لها؟

- تستطيع تركها هنا. سأعطيها إياها حينما تأتي إلى هنا.

- الأمر وما فيه أنّ الحقيبة تتضمن أشياء ذات قيمة خصوصاً الحاسوب المحمول. إنّ الأمر مستعجل.

أظهر له جهاز الحاسوب فقبل جاك السفاح أن يعطيه عنوانها، ولكنّه أخبره أنّه لا يعرف في أيّ طابق. لاحظ رينيه في هذه اللحظة أنّ وجهه يظهر على شاشة التلفاز خلف النادل، وقد كُتبت تحت صورته هذه الجملة:

«مطلوب لجريمة قتل»

ومن ثمّ عرضوا صورة السكينهيد وفيديو يظهر رجال الإطفاء في مستشفى مارسيل بروست.

دفع أستاذ التاريخ ثمن مشروبه والتقط بهدوء قناعاً لأليس في بلاد العجائب الذي كان قريباً منه ومن ثمّ خرج.

لحسن الحظّ أنّ البار في تلك الساعة كان ممتلئاً بما فيه الكفاية بالناس المقنعين، ممّا مكّن رينيه من المرور دون أن يلحظه أحد. ذهب باتجاه عنوان المنومة المغناطيسية. 7 شارع دي أورفيفرس.

من جديد، عليه تجاوز العقبات.

أولاً رمز دخول المبنى.

*كان رقماً سهل الحفظ. رقماً يدلّ على تاريخ مهمّ يبدأ ب **1900** ولكن ما هو؟*

جرّب 1914، 1918، 1969، سنة أول هبوط على سطح القمر.

ومن ثمّ تذكره أخيراً.

*السنة التي أقروا فيها قانون الإجازات المدفوعة: **1936**.*

دخل المبنى.

في أيّ طابق؟

صادف أحد الجيران الذي بدا متفاجئاً نوعاً ما برؤيته يضع قناعاً، ومن ثم صعد الدرج.

لقد سبق أن قالت لي ذلك، إذاً تمّ تخزين المعلومة في شجرة صغيرة في مكان ما من غابة عقلي. أرجو ألّا يكون تشوب قد أحرقها.

أغلق عينيه وتصوّر غابة عقله الداخلية.

أيّة شجرة يمكن أن تكون؟

من المؤكد أنّه يرى بعض الشجيرات الناجية من الحريق، ولكنّه لا يعرف باتجاه أيّ شجرة يذهب. إنّ الشجيرات كثيرة، لذا صعد إلى الطوابق العليا، ولحسن الحظ، لمح اسم أوبال على لوحة نحاسية في الطابق الثالث.

رنّ الجرس، ولكن لم يجِبه أحد. وبما أنّه شعر بنفسه منهكاً فجأة بسبب كلّ هذه المغامرات، قرّر الانتظار هناك إلى حين عودة المنومة المغناطيسية. غلبهُ النعاس، وغفا على ممسحة الأرجل وقناع أليس فوق وجهه. وفي الحلم عاد وشاهد من جديد جميع الأحداث التي جرت في يومه، فبدت له أنّها غير واقعية. لم يعرف كم كان قد مضى على نومه حين أيقظته يدٌ كانت تزيل عن وجهه القناع.

وجد عينين خضراوين كبيرتين فوق وجهه.

– لقد تأخرت حوالي ثمان وأربعين ساعة يا سيد توليدانو.

نهض، وأزال القناع وفرك جفنيه. فتابعت المرأة.

– من الطبيعي أن أكون متضايقة، فقد حطّمت للتو الرقم القياسي في التأخر عن المواعيد. أرجو ألّا يكون هذا حال دروسك في المدرسة أيضاً.

– أعتذر، قال رينيه، لقد حدثت معي بعض الأمور الطارئة.

– ما الذي تفعله هنا في هذا الوقت غير العادي؟

– أحتاج أن تستقبليني في منزلك، هل هذا ممكن؟

وافقت على دخوله معها إلى شقتها. فحمل حقيبة ظهره.

– لماذا لم تأتِ البارحة إذاً؟

«جاءت الشرطة واعتقلتني لأنني قتلت متشرداً» ؟ كلا، لن ينجح هذا. لأنه يشبه نكتة تشوب عن الرجل الذي خرج لرمي القمامة فصادف جارته؛ إنّ الحقيقة لا تتسم بالمصداقية بالنسبة للناس. في بعض الأحيان يكون من الأفضل اختلاق كذبة على أمل تصديقها، أو على الأقل تبقى نوعاً من التملّص.

– استجدّ معي أمر طارئ في اللحظة الأخيرة.

– لماذا لم تخبرني؟ فهذا ما نفعله عادة حين يكون لدينا أدنى قدر من التهذيب.

تفحّص المكان الذي تعيش فيه أوبال. إنّها شقة صغيرة ذات سقف عال وعوارض خشبية ظاهرة. لاحظ في المدخل ملصق عرض التنويم المغناطيسي لمسرح صندوق باندورا، وصوراً لأوبال حين كانت طفلة تقضي العطلة مع والديها.

لا بأس، سوف أحاول إخبارها الحقيقة، وسنرى ردة فعلها. فلا بدّ أنها على علم مسبق.

– إنّ الشرطة تبحث عني. لقد تحدثوا عن هذا في التلفاز.

– آه؟ ليس لديّ تلفاز، ولم أكن أعرف هذا.

أغلقت الباب خلفه ودعته للجلوس على كرسي في غرفة الاستقبال. وهنا أيضاً صور لها عندما كانت طفلة؛ فهذه في أثناء عيد ميلادها، وتلك في العطلة، وتلك في إحدى الأعراس. وفي وسط الشقة أريكة حمراء تعلوها عين خضراء كبيرة ذكّرته بديكور مسرح السفينة. دون أن ينتظر إذنها، جلس رينيه على الأريكة وخلع سترته.

يجب أن أتكلم بأسلوبها.

– ليس هناك أحد غيرك يستطيع فهمي، أليس صحيحاً؟ أنا أحتاج إلى ملاذ آمن كي أساعد الأطلانطسي على النجاة من الطوفان الذي يبدو حدوثه وشيكاً.

– إن كانت الأمواج ستصل متأخرة كتأخرك أنت، فليس هناك داعٍ للخوف.

لم يكترث لقولها.

– لن أساعدك إلّا إذا أخبرتني الحقيقة. هذا شرطي الذي لا أساوم عليه.

شعر بأنّه لن يستطيع المراوغة هذه المرة. فقرّر أن يوليها ثقته، فحكى لها رينيه بالتفصيل كلّ ما عاشه منذ لقائهما الأخير.

– لهذا السبب لم أستطع أن أتشرف بلقائك. خلُص رينيه بقول هذا.

- إنّ الوقت متأخر، هل ترغب بتناول العشاء؟ سألته أوبال ولم تعلّق قط على ما سبق.

أخرجت له وجبة بيتزا مجلّدة ووضعتها في الميكروويف، وقدّمت معها النبيذ. أدرك حينها أنّه جائع جداً وأنّ هذا بالضبط ما كان يرغب بتناوله في تلك اللحظة.

كبُر في قلبه شعور عارم بالعرفان لهذه المرأة التي بالكاد يعرفها، ولكنّها استقبلته في الوقت الذي تخلّت عنه صديقته التي كان يعتبرها مقربة جداً، وبعد أن ثبُت عجز آخر شخص من عائلته عن مساندته.

- لم أقل لك كلّ شيء عني آخر مرة، أعلنت المرأة بشيء من الغموض.
شرب النبيذ برشفات صغيرة.

- إن كنت تخشى أن تفقد ذاكرتك، فأنا أعاني من مشكلة مناقضة تماماً. إنّ مرضي يسمى فرط الاستذكار؛ أي أنّني أتذكر كلّ شيء بكلّ تفاصيله الدقيقة.

- ربما لأنّك قضيتِ طفولة رائعة، قال رينيه بكل ثقة.

- أنت محق. حتى في مراهقتي لم تحدث معي سوى الأشياء الجميلة، لذلك اعتدت على تذكرها كلها. ومن بعدها، استمررت كنوع من العادة بتخزين وحفظ كلّ شيء.

- إلى أيّ درجة تعانين من فرط الاستذكار؟

قامت بدورها بتناول قطعة من البيتزا، وراحت تأكلها بلقيمات صغيرة جداً.

- أتذكر غيباً جميع أرقام الهواتف وأعياد ميلاد أصدقائي. أتذكر جميع الوجوه التي أصادفها. أستطيع حتى التعرف إلى وجوه سبق أن لمحتها مرة وسط مجموعة من الناس.

- لا بدّ أنّ هذا الأمر سهّل عليك حياتك المدرسية. فقدرتك على تذكر جميع المحفوظات غيباً، كانت ميزة لك بالتأكيد.

- كما أنّ الغناء حول النار متذكرة كلمات كلّ المقاطع كان جميلاً أيضاً. بالإضافة إلى تميّزي بالعديد من الألعاب مثل لعبة البريدج التي كنت أتفوق فيها دائماً لأنّني أتذكر كل الأوراق التي تمرّ أمامي.

ملأ لها رينيه كأس نبيذ أحمر.

– كم أحسدك على هذا، قال متنهداً.

– أنت مخطئ. فلهذا الأمر محاسن ومساوئ. وفي الواقع فإنّ مساوئه أكثر من محاسنه. فمثلاً، في إحدى المرات قام زوجي السابق بإبداء إعجابه الشديد بطبق العجة بالكمأة، قائلاً إنّها المرة الأولى التي يتناول فيها هذا الطبق، وإنّه يجده لذيذاً بالفعل. وقد أحزنني هذا حقاً. لأنّني سبق أن سحرته بتحضير هذا الطبق له بالذات. وعلى صعيد أوسع، كان ينسى لحظاتنا الجميلة والسيئة، لقد كان يعيش في ردود الأفعال المباشرة للمحفزات الخارجية. لم يكن يتذكر طعام الغداء الذي تناولناه في يوم لقائنا الأول ولا طعام العشاء لذاك اليوم نفسه. أمّا أنا، فقد كنت أذكر الأطباق التي تناولناها لا بل كل الحوارات التي دارت بيننا أثناء تناولنا الطعام أيضاً.

– لقد كان رجلاً طبيعياً، على كلّ حال.

– كان عادياً أكثر من اللازم بالنسبة لي. ومع أنّني أحببته كثيراً، ولكن كان لديّ إحساس بأنّني أعيش مع عقل شبيه بالجبنة السويسرية المليئة بالثقوب؛ فهو ينسى كلّ شيء. وكان عليّ أن أغفر له دائماً إهماله هذا. حتى عندما يكذب عليّ، لم يكن يتذكر أكاذيبه، مع أنّه وإن كان هناك شيء مشترك وأساسيّ لدى جميع الكاذبين فهذا الشيء هو الذاكرة الجيدة. وقد ضايقني هذا الأمر بما يكفي كي أتطلق وألّا أرغب بالزواج من جديد.

– أعتقد أنّك ستواجهين المزيد من المصاعب في تحمّلي، بما أنّني لا أتذكر أحياناً حتى بماذا بدأت الحديث. فستجدينني أسألك بشكل متكرر: «ماذا كنت أقول في البداية؟»، أو مثلاً... عن ماذا كنا نتحدث فعلاً؟

أطلقت ضحكة عالية وبدت أنّها مرتاحة.

– ولكن أنت على الأقل، يفترض أنّك تبذل مجهوداً كي لا ينتهي الحال بك مثل والدك. بينما زوجي حينما نسي تاريخ عيد ميلادي وأتبعه بنسيان عيد زواجنا، اعتبر ذلك عادياً وأنّني أنا من يغالي كثيراً في هذا.

أطلقت تنهيدة.

- في جميع الأحوال، لم تكن هذه مشكلتنا الوحيدة. صدقني، أستطيع أن أذكر لك جميع المضايقات والتصرفات الخرقاء التي قام بها الواحد تلو الآخر منذ قبلتنا الجياشة الأولى التي كان عليه أن ينساها أيضاً. هذه إذاً إحدى مساوئ الذاكرة القوية... إنّنا مجبرون على مسامحة من لا يملكونها.

تابع الاثنان طعامهما وشرابهما وهما يراقبان بعضهما بعضاً.

- إنّني أتذكر كل الناس الذين أسعدوني في طفولتي كما أتذكر أيضاً كلّ من آذاني. إنّ عقلي يشبه حقيبة ظهر مطاطية عملاقة فيها كلّ شيء. ولا شيء يختفي فيها أبداً.

- إنّ هذا شيء عمليّ.

- إنّه ثقيل.

ملأ لها كأس النبيذ.

- إنّنا نكمّل بعضنا...

- لا تستطيع أن تتصور إلى أيّة درجة. أنت تعرف الوصول إلى ذاكرتك التي تقع خلف اللاوعي، وهذا ما يعطيك حقيبتين أو من الممكن ثلاث حقائب للذاكرة، بينما أنا لا أقوم إلّا بمراكمة ذاكرتي الوحيدة لهذه الحياة بشكل مستمر.

- ماذا لو كان هذا هو الثمن؟ فإن كان بإمكاني الوصول إلى ذكريات حيواتي السابقة، فهذا بالضبط لأنّ ذاكرتي قصيرة المدى تتدهور باستمرار.

- ومع ذلك، وبفضلك، أصبحت أتطلع أكثر فأكثر للوصول إلى «ذكرياتي» في حيواتي الأخرى.

حدّقت فيه بعينيها الخضراوين الكبيرتين، فسأل نفسه فيما إذا كانت هذه تعتبر دعوة. لم يستطع أن يتحمّل نظرتها، لذا ركّز على صحنه وابتلع القليل من البيتزا والنبيذ.

- أرغب بالفعل أن تقيم في منزلي حتى تتمالك قواك وتنقذ أطلانطس، ولكن بشرط واحد.

- ما هو؟

- تعرفه مسبقاً. أن تساعدني في الوصول إلى حيواتي السابقة.

قدّمت له فنجان قهوة، ومن ثمّ ذهبت إلى الحمام.

- انتظرني في غرفة الاستقبال، سأعود.

رأى على الحائط لوحة للرسام دالي عنوانها «إصرار الذاكرة». تظهر في هذه اللوحة ساعة مائعة، وفي البعيد شاطئ يلتصق به جرف صخري، وسماء تبدو وقت الشفق، وساعة أخرى تذوب، ونمل يأكل الساعة الثالثة التي تبدو صلبة. وفي وسط اللوحة عين مغلقة ذات رموش طويلة، وفوقها أيضاً ساعة رابعة مائعة.

أتت أوبال وهي ترتدي ثياباً رياضية.

- آه، هل تعجبك هذه اللوحة؟ لقد خطرت فكرة هذه اللوحة في بال الرسّام دالي حينما رأى قطعة جبن تذوب تحت أشعة الشمس. وهذا ما دفعه للتفكير بالزمن الذي يمضي على صورة هذه الساعات الأربع التي تتدرج من الساعة الصلبة، إلى القليلة الميوعة، ومن ثمّ شديدة الميوعة، وأخيراً الساعة السائلة. لقد سمّاها «إصرار الذاكرة»، لأنه اعتبر الذكريات مثل هذه الساعات؛ إمّا صلبة، مرنة، مائعة، أو سائلة. والساعة الصلبة التي يهاجمها النمل، قد تكون استعارة للجثة التي تآكلت ذاكرتها مع مرور الوقت.

أشعلت أوبال إيتشيجويان الشموع، وأطفأت الأنوار، ومن ثمّ استلقت على الأريكة.

- تتذكر كيف تفعل ذلك، أليس صحيحاً؟

لذا بشكل بديهيّ أغلقت عينيها، وأرخت حزامها والزر الأول من بنطالها، وبدأت تتنفس بشكل متقطع كما لو أنّها تستعد للولادة. تباطأ تنفسها، أصبح أكثر عمقاً، وبعدها أشارت له بأنّها أصبحت جاهزة. فبدأ وهو متأثر بشكل واضح:

- هل استطعت أن تتصوري السّلّم؟

هزّت رأسها.

- جيد، إذاً اهبطي على الدرجات. الأولى، الثانية، الثالثة، حتى الثامنة. هل قمت بذلك؟

- نعم.

- يجب أن تشاهدي باب اللاوعي. هل تشاهدينه؟

عبّرت المنومة المغناطيسية بحركة صغيرة من رأسها.

- جيد، والآن سوف أعطيك مفتاحاً ذهبياً كبيراً وستضعينه في القفل. دوّري المفتاح وستسمعين حينها صوت طقطقة كبيرة، وبعدها سوف تستطيعين فتح الباب.

أصابت المنومة المغناطيسية تشنجات صغيرة، قطبت حاجبيها، ومن ثمّ تشنج فمها قليلاً وقالت وعيناها مغمضتان:

- إنّه يقاوم.

- حاولي مجدداً، اسحبي بقوة.

بدت عيناها تتحركان تحت جفنيها بسرعة أكثر فأكثر.

- لا يمكن تحريكه، إنّه عالق.

لماذا لا تسير الأمور بشكل جيد؟ يجب أن ترى مثلي الأشياء ذاتها.

- حاولي ربّما دفعه بقوة عوضاً عن سحبه؟

- أنا أدفعه، ولكنّه لا يتحرك.

- في هذه الحالة، فلتحاولي أن تزلقيه جانباً. اقترح رينيه.

بعد أن جرب كلّ الطرق الممكنة لفتح باب اللاوعي الذي لا يخصّه، استسلم رينيه وطلب منها العودة والصعود. بدأ بالعدّ التنازلي وفرقع أخيراً بأصابعه.

فتحت عينيها.

- إنّه مقفل بشكل كامل، كنت أعرف ذلك.

- ربما يكون هناك شيء مرعب لذلك يرفض ذهنك السماح لكِ بالدخول.

في اللحظة التي نطق بها هذه الكلمات، لاحظ أنّها تحكّ بقعة وردية على معصمها.

– أعتقد في الواقع أنّ هناك سبباً ليكون الباب موصداً إلى هذه الدرجة، ولكن أشعر أنني مستعدة لرؤية وسماع كلّ شيء. الأسوأ هو عدم المعرفة. فأنا أتخيل بالطبع وجود آلاف الأسرار المزعجة المدفونة.

رفعت كمّها أكثر بقليل فلاحظ رينيه توليدانو بقعاً وردية على ساعدها التي لم تستطع أن تحكّها بأظافرها.

– لا أريد التوقف عند هذا الإخفاق. أرغب بالبدء من جديد فوراً، صارحته بهذا، وهي تكمل حكّ البقع الوردية على ساعدها وأسفل رقبتها.

إنّ هذه البقع تدل على مرض الصدفية.

حسب ذاكرتها فإنّ أمها أيضاً كانت مصابة بالصدفية وقد قالت لها إنّ هذا مرض نفسي– جسدي ليس له علاج. أصبحت البقع الوردية حمراء ومرئية أكثر.

سبّبت لها جلسة التنويم المغناطيسي التراجعي نوبة حكّ.

– هيّا بنا، لنبدأ من جديد! أصرّت بعصبية لم تستطع ضبطها.

– أنا أعتذر، أنا متعب جداً.

تردّدت في الموقف الذي ينبغي أن تأخذه، ثمّ تنهدت قائلة:

– حسناً، ليس عليك إذاً سوى النوم على الأريكة. سنكمل غداً.

–60–

رنّ الجرس في اللحظة التي كانا يتناولان فيها وجبة الفطور.

– هل تنتظرين أحداً ما؟

– كلا.

– الشرطة! افتحوا الباب!

لقد تعرّف على وجه الملازم رازييل من خلال ثقب الباب.

– أعرف أنّك هنا يا سيد توليدانو! افتح الباب وإلّا سنقوم بخلعه.

– كيف عرفوا بوجودك هنا؟ سألت المرأة الشابة.

بلحظة واحدة، راجع رينيه كلّ الأسباب التي يمكن أن تفسر ذلك.

- إنّه جاك السفاح!
- عفواً؟
- النادل الذي اهتمّ بنا آخر مرة، لقد استعنت به لإيجاد عنوانك الذي كنت قد نسيته. وكان متنكراً بزيّ جاك السفاح، لا بدّ أنّه تعرّف على وجهي الذي عُرض على التلفاز.
- افتحوا فوراً! سوف نخلع الباب. صرخ الملازم رازييل بصوت عالٍ.
- لا تقلق، هناك سلّم خلفي. سوف نذهب من خلاله.
- «نذهب» ؟
- هل تظنّ بعد كلّ ما جرى أنّني سأستسلم عن عبور باب اللاوعي بهذه السرعة؟

بعد أن ملآ سريعاً حقيبة سفر، دلّته على السلّم الخلفي الذي في المطبخ.

نزلا السلّم مندفعين في حين كانت الشرطة قد بدأت بخلع قفل الباب بالمطرقة.

هبط رينيه وأوبال الدرجات سريعاً جداً، ووصلا إلى الشارع مباشرة، وانطلقا راكضين.

- إنّ صورتي على التلفاز، أخشى أن يتمّ التعرف عليّ.
- لديّ حلّ في هذه الحالة.

قادته المنومة المغناطيسية باتجاه دكان يبيع البراقع والشادور والحجاب والبوركيني. اختارا بسرعة لباس البرقع الأسود الأكثر تستراً، غير تاركين أي شيء مكشوفاً من جسديهما سوى شقّ العينين. إنّ هذا اللباس الفضفاض سمح لهما بإخفاء حقيبتيهما فوق بطنهما، فظهرا كأنهما امرأتان حاملان.

وهكذا، لم يعد يخشى الهاربان من التعرض لأيّ تفتيش، فهما يعرفان أنّه في حال حاولت الشرطة إيقافهما، فقد يتسبّب ذلك بأحداث شغب وتمرّد في الشارع. دخلا مثل شبحين إلى أقرب مدخل مترو، وهو مترو شاتليه.

كي يشوشا مسارهما بشكل أفضل، اختلطا بمجموعة من النساء دخلن عربة قطار المترو مرتديات البرقع الأسود.

– تستطيعين العودة الآن إلى منزلك. قال رينيه.
– كلّا، سأبقى معك.
– هذا عمل أحمق. إنّ الشرطة تلاحقني، وليس لديك أيّ شيء تربحينه من هذا الموقف. أنت لست مدينة لي بأيّ شيء. كنت أبحث فقط عن ملجأ مؤقت كي أرتاح فيه لذلك جئت إليك، وليس هناك أيّ شيء آخر. أرجو ألّا يكون شعورك بالذنب بسبب أول جلسة تنويم مغناطيسية هو ما يدفعك للقيام بهذا.
– قلت لك سابقاً، أنا أحتاج إليك كي أنجح بالغوص في اللاوعي. إنّني عاشقة للغطس وأريد القيام بتجربة الغوص مع بطل للغطس الحر.
– أنا لست الوحيد الذي يستطيع أن يجري لك جلسات تنويم مغناطيسية تراجعية.
– لقد وجدت مرشدي، ولديّ ثقة بك. لن أدع أحداً أياً كان يلعب بعقلي.
– لقد سبق لنا أن أخفقنا في جلستنا.
– ومع ذلك، لديّ حدس بأنّك سوف تجعلني أنجح.
لماذا هي غاضبة؟
– ولكن في النهاية، أنت لا تدركين خطورة الموقف. قد يعتقدون أنّني اختطفتك رهينة.
– لقد قلت لك سابقاً، أنت شخص بارع في ولوج اللاوعي. أعتقد أنّك الوحيد القادر على «فتحه».

عندما تتحدث يتحرك اللباس الذي يغطي وجهها، أدرك رينيه كم يمنع البرقع من رؤية تعابير وجه المرأة الشابة. فهو لا يرى سوى عينين خضراوين كبيرتين تحت اللباس الأسود. أصبحت ضربات رموشها شكلاً من أشكال التواصل التي صار يوليها اهتماماً جديداً.

لن ينفع إصراري بشيء، فهي عنيدة جداً.

راح يراقب من خلال فتحة العينين لردائه الأسود، الإعلانات عن أدوية طبية تزعم أنّها تنشط الذاكرة لمساعدة طلاب الشهادة الثانوية العامة على التركيز والنجاح في امتحاناتهم.

– هيّا، كوني منطقية يا أوبال. عودي إلى منزلك، وإلّا فإنّ الشرطة ستجلب لك المتاعب أيضاً.

استدار رينيه فرأى أنّه أخطأ الشخص، فعندما تحرّك المترو غيّرت النساء أماكنهنّ، وفي وسط كلّ هذه العيون التي تبدو من الشقوق السوداء، وجّه رينيه كلامه إلى عينين عسليتين بدل العينين الخضراوين.

– اعذريني يا سيدتي. لم أكن أوجه الحديث إليك.

صارت جفون العينين العسليتين ترفان بسرعة.

بحث قليلاً وانتهى أخيراً بالتعرف إلى زوج العينين الخضراوين المنشودتين.

– عودي إلى منزلك يا أوبال. كرّر ذلك رينيه.

– فهمت، إنّك تريد الاحتفاظ بأطلانطس لك وحدك. في الواقع، أنت مثل جميع الرجال؛ أنانيّ عظيم لا تفكر إلّا بمتعتك الخاصة ولا تأبه لما تريده المرأة.

بما أنّ ضجيج المترو كان قد توقف، فقد سمع جميع الراكبين الحاضرين آخر جملة. فأجابها هامساً.

– إنّ هذا بغاية الخطورة. هيا، عودي إلى منزلك.

– ليس قبل أن تجعلني أخوض تجربة التنويم المغناطيسي التراجعي.

– إن بقيتِ معي، فأنت تخاطرين بأن تتهمك الشرطة بالتواطؤ.

– أريد حقاً التواطؤ معك إن جعلتني أجتاز باب اللاوعي. ومن ثمّ، أنا أصدّق قصصك. إنقاذ أطلانطس يستحق حقاً أن نخاطر قليلاً من أجله. إنّه خياري، يحقّ لي أن أفضّل الهروب معك على عيش حياة أكثر عقلانية وبالتالي أكثر تفاهة بالتأكيد. لنقل إنّه نداء المغامرة، أليس صحيحاً؟

أخذت تنظر إليهما العيون خلف البراقع بشيء من الريبة. راح رينيه من جهته يتذكر أصل هذا اللباس. فقد ذكر المؤرخ والجغرافي اليوناني هيرودوت (الذي اعتُبر أول مؤرخ في التاريخ) أنّ لبس الجلباب كان مرتبطاً بعبادة عشتار في بلاد ما بين النهرين عام 2000 ق.م. في ذلك

الحين، كان ممارسو هذه العبادة، ومن باب تكريم إلهة الحبّ التي اتحدت جسدياً مع راعٍ بشريّ، يتوجب عليهم ممارسة البغاء مرة في السنة في الغابة الخلفية لمعبد ميليتا. فاعتادت النساء كي لا يعرفن، أن يتخفين وراء حجب تغطيهنّ بالكامل. وقد استخدم الأفغانيون هذه الملابس بعد 4000 سنة، ومن بعدهم السلفيون بغية حماية النساء من رغبات الرجال، وبالتالي مخالفة ما يعتبرونه العري الفاحش لجسد ووجوه النساء في المجتمعات الغربية المنحلة.

- لقد جعلتني أفهم شيئاً ما يا رينيه، قالت أوبال. نحن لم نأتِ إلى هذه الحياة فقط كي نشاهد حياتنا وهي تمرّ أمامنا مثل الأطفال الذين يصعدون إلى عربة قطار الملاهي، ويبقون منتظرين مكتوفي الأيدي، أن يعبر كلّ شيء أمام أعينهم. لدى كلّ واحد منّا موهبة خاصة تدفعه ليقوم بخيارات محددة، وينصرف ويكون مسؤولاً عن أفعاله. إنّ قدرتك في الوصول إلى ذكريات حيواتك السابقة هي موهبة لم تأتك على الأرجح مصادفة. أنت لديك مهمة وهي إنقاذ ما يمكن إنقاذه من أطلانطس. أنا أحسدك على هذا، ولكن موهبتي أنا هي شيء آخر ولا أعرف بعد ما هي مهمتي.
- إنّ موهبتك كانت في الكشف عن موهبتي.
- لا أريد الموت دون أن أجد مهمتي في هذه الحياة.
- إن ذهبنا كلانا إلى السجن، سنكون أخفقنا وخسرنا كلّ شيء. وسألوم نفسي لأنّني سبّبت لك المتاعب من أجل نزوة. أرجوك يا أوبال، عودي إلى منزلك.
- لا أعرف كيف عليّ التعامل مع هذه الجملة. أنت أول رجل يتوجه إليّ بهذا الخطاب. لن تستطيع التخلص مني بهذه السهولة.

ضحكت النسوة الأخريات خلف برقعهنّ الأسود. لاحظ رينيه إعلاناً آخر على جدار نفق المترو. يظهر في الإعلان شاب وفتاة يرتديان ثياب البحر على سطح مركب شراعي في وقت الغروب وتبدو الأهرامات من خلفهما.

«ماذا لو قضيت العطلة مع صديقتك في بلد مغرق في القدم؟»

إنّه إعلان لوكالة سفر سياحية في مصر، ولكنّه اعتبره رسالة شخصية موجهة إليه بالتحديد.

- هل تريدين حقاً البقاء معي؟ هل تصدقين بالفعل أنّني الوحيد الذي يستطيع مساعدتك في فتح باب اللاوعي لديك؟
- لا أتخيل شخصاً آخر غيرك قادراً على ذلك.
- إذاً قد يكون لديّ اقتراح لك. هل يعنيك أن تتحققي إن كانت ذكرياتي عن الحيوات السابقة حقيقة أم لا؟

61. مذكرات. السفسطائية.

السفسطائية هي مذهب منطقي يعتمد المنطق المخادع، هذا يعني أنّ له مظاهر المنطق، ولكنّه منطق غير صحيح. وغايته تضليل المستمع.

يمكن شرح هذا المنطق بهذه النكتة: صادف رجل أحد أصدقائه في الشارع.

- مرحباً، ماذا أصبحت في الحياة؟
- أنا أستاذ رياضيات وأنت؟
- أوه، أنا أستاذ منطق.
- ما هو المنطق؟
- هل لديك حوض مائي؟
- نعم.
- إذاً أنت تحب الأسماك.
- نعم.
- إذاً فأنت تحبّ كلّ ما هو جميل.
- نعم.
- إذاً أنت تحبّ النساء.
- نعم.
- إذاً، هذا هو المنطق.

ذهب أستاذ الرياضيات وصادف صديق طفولة آخر. أخبره بلقائه السابق مع أستاذ المنطق. فسأله هذا الرجل:

- هل تستطيع أن تشرح لي ماذا يعمل بالضبط صديقك كونه أستاذ منطق؟

- بالطبع، هل لديك حوض مائي؟

- كلّا.

- إذاً أنت مثلي الجنس.

-62-

إنّ قصر فيلامبروز هو جوهرة معمارية خالصة تعود إلى القرن الثامن عشر. تمتدّ خلف البوابة الحديديّة حديقة كبيرة بأعشاب خضراء رائعة لا عيب فيها. يخترقها ممشى مزروع على جانبيه صفان من أشجار السرو يصلان حتى المبنى الأبيض الذي يحيط به برجان بسقفين من الأردواز.

راقب رينيه توليدانو وأوبال إيتشيجويان القصر من الخارج. فبعد أن خرجا من المترو، خلع الهاربان برقعيهما واستأجرا سيارة باسم المرأة الشابة، وذهبا إلى متجر للمعدّات وقاما بشراء مجرفة، وفأس، وحبل، وكماشات، ومصباح كهربائي، وقفازات. وانطلقا باتجاه منزل ليونتين دي فيلامبروز.

استغلا ظلام الليل كي يجلسا على سطح السيارة ويتفحّصا القصر من فوق الجدار العالي المسيّج للقصر. حيث كانت جميع نوافذ المبنى مضاءة.

أعرف هذا المكان. لقد كان منزلي.

- هناك أناس يعيشون فيه، قال رينيه بنبرة الصوت ذاتها التي كان سيستخدمها ليقول: «هناك محتلون عشوائيون للمكان».

- لا أعتقد أنك تظنّ في جميع الأحوال أنه منذ حياة ليونتين، التي حسب ما أذكر أنها عاشت عام 1780م، قد بقيَ هذا القصر غير مأهول بالسكان، أليس صحيحاً؟

- أرجو على الأقل أن يكون سكانه غير حاضرين، لذا يجب أن نكون حذرين.

انتبهت أوبال إلى اللوحة الخشبية الموجودة بجانب البوابة والمكتوب عليها بخطّ واضح.

احذروا الكلاب الشرسة.

إن أردتم معرفة إن كان هناك حياة بعد الموت،

لا تترددوا باجتياز هذا الحائط.

كان الجدار مسيّجاً بأسلاك شائكة.

- إنّ المالكين الجدد يتمتعون بروح الدعابة، اعترفت المنومة المغناطيسية.

- كان يجب أن نحضر معنا سلاحاً ما، على الأقل سكيناً.

- وماذا ستفعل به؟ هل ستتعارك به مع الكلاب؟ لا بدّ أنها في الداخل مع أصحابها. فالحديقة تبدو خالية.

تذكّر رينيه جميع الصعاب التي تغلب عليها بالفعل. لذا لم يكترث وقبل مساعدة المرأة الشابة التي شبكت يديها كي يقف عليهما رينيه ويصعد الجدار.

- انتظريني هنا، سوف أذهب وحدي، قال رينيه.

حين وصل إلى أعلى الجدار، استخدم الكماشة لقطع الأسلاك الشائكة.

كما في معركة شومان دي دام.

قفز على الأعشاب بعملية هبوط مثالية.

تفحّص المشهد حوله. وتقدّم مسترشداً فقط بضوء القمر.

حاول في طريقه أن يتذكر المكان الذي فكرت به ليونتين.

شجرة، منطقة.

نظراً لأنّ تشوب لم يخرب أيضاً هذه الخلايا التي تتوافق مع هذه الذكرى.

حاول التركيز. تصوّر ذهنه مثل غابة ووجد نفسه يبحث متصيّداً شجرة الذكرى هذه التي لا غنى عنها. تقدّم وسط الأحراش الشائكة التي نمت بالفعل وازدحمت في المسارات التي تؤدي إلى أشجار- الذكريات الثمينة.

يا روح ليونتين، ليس لديّ الوقت للقيام بجلسة تنويم مغناطيسية تراجعية، ولكنّك بالتأكيد في مكان ما من ذهني، ساعديني إن استطعت ذلك.

لذا تهيّأ له أنّه تذكر ما فكّرت به الكونتيسة في عشية يوم وفاتها.

تحت شجرة البلوط الكبيرة أسفل يسار الحديقة.

مشى باتجاه اليسار قبل أن يعي أنّها تقصد جهة اليسار بالنسبة لمدخل القصر، إذاً على يمينه. وجّه الضوء إلى الأشجار بغية التعرف إلى شجرة البلوط. لقد كان موهوباً في المدرسة بمادة التاريخ، ولكن للأسف لم يكن جيداً بمادة علوم الحياة والأرض.

كيف تبدو شجرة البلوط أصلاً؟

توجّه في النهاية، باتجاه الشجرة التي بدت له أنّها ذات الجذع الأكبر والمعمرة أكثر. وبدأ بالحفر تحت الشجرة. انتهى به الأمر بالعثور على صندوق خشبي كبير، راح يزيح التراب عنه.

لن أستطيع أبداً حمل هذا الثقل وصعود الجدار. هل أطلب من أوبال مساعدتي؟ كلّا يجب أن أقوم بذلك وحدي.

حاول سحب الصندوق، ولكنّه بالكاد استطاع تحريكه قليلاً من مكانه. لذا، قرّر التصرف بطريقة أخرى.

تخلّى عن فكرة تحريكه، وتفحص القفل الكبير الذي يغلق الغطاء. استخدم الفأس الذي استطاع تمريره في الحلقة المعدنية وحينما ضغط بكامل ثقله استطاع رفع وانتزاع القفل من داعمه الخشبي.

اكتشف بداخل الصندوق سبائك الذهب. وقد انعكس ضوء القمر على المعادن الثمينة المخزنة بدقة.

شكراً يا ليونتين.

أخذ خمس قطع من السبائك وعاد إلى الحائط. أطلق صفيراً يشبه زقزقة العصافير، فردّت المنومة عليه بصفير مشابه.

– هذه ليست قطعاً نقدية بل سبائك ذهبية، همس لها بذلك، سوف أرميها لكِ، هل أنتِ جاهزة لالتقاطها؟

قام بكلّ قواه برمي السبيكة التي أحدث سقوطها ضجيجاً جعله يفهم أنّ أوبال لم تنجح في التقاطها. أثار رمي السبيكة الثانية صرخة صغيرة ما

يعني أنّها سقطت على كتف أوبال، ولكن على الأقل، قال لنفسه، سقطت في المكان الصحيح. وهكذا قام رينيه عدّة مرات بالذهاب إلى شجرة البلوط والعودة إلى الجدار ليقوم برمي السبائك وتلتقطها أوبال دون مشاكل.

حينما كاد ينتهي من نقل السبائك، سمع خلفه صوتاً يهدر ممّا جعله يجفل. بدأت تعمل في ذهنه آلية تعود إلى عصور ما قبل التاريخ؛ لقد بدأ تشغيل اللوزة الدماغية، وهي عبارة عن فصين صغيرين يقعان في مركز نصفي الدماغ وهما اللذان يستشعران الخطر. تدفّق الأدرينالين في دمه. تسارعت ضربات قلبه استعداداً للقتال أو للهرب. ارتفعت درجة حرارة جسمه كي تجعل العضلات مهيأة وأكثر فعالية للعمل. انتصب شعر بدنه، بغريزة موروثة من زمن أشباه البشر، غايتها جعل الحيوان يبدو أكبر حجماً كي يخيف أعداءه. تمّ تحرير الكورتيزول الطبيعي الذي ينتجه الدماغ كي يساعده على عدم الشعور بالألم. وأخيراً توقف عمل قشرته المخية المسؤولة عن التفكير.

هنالك لحظات يمنعني فيها التفكير من العمل. لذا عليّ في البداية التصرف؛ وفقط بعدما ينتهي كلّ شيء، سوف أتساءل إن كنت قد أحسنت الاختيار أم لا.

لذا تخلّى رينيه عن أخذ السبائك الثلاث المتبقية وقفز هارباً، يتبعه كلبان ألمانيان مسعوران ينبحان بصوت يرتفع أكثر فأكثر ولعابهما يسيل من فمهما.

ركض رينيه مسرعاً ولكنّ الكلبين استطاعا اللحاق به. استدار رينيه وهو يتابع العدو وألقى باتجاه الكلب الأقرب سبيكة ذهب، موجهاً إياها على وجهه. فنجح بهذا في إيقاف الكلب المسعور، فتباطأ الكلب الثاني خائفاً. وهذا كان كافياً لمنح رينيه فرصة لالتقاط أنفاسه.

ليس لديّ وقت لأضيعه. هذا ليس وقت التفكير.

مستفيداً من الزخم الذي استحوذ عليه نتيجة ركضه، استطاع القفز على الحائط مستعيناً بالنباتات المتسلقة، فنجح بإبعاد نفسه عن أنياب الكلب الثاني. وفي هذه الأثناء كان الزوجان المالكان للقصر قد وجّها الأضواء باتجاه نباح الكلبين.

ساعده الأدرينالين على رفع نفسه أكثر، وتسلّق بقوّة ذراعيه حتى أعلى الجدار. ومن ثمّ انتقل إلى الجانب الآخر.

بينما كانت الأصوات بجوار المنزل قد بدأت تتعالى: «إنّه لصّ! أسرعي يا فابيان واتصلي بالشرطة!». كانت أوبال خلف الجدار، قد كدّست السبائك بعناية في صندوق سيارة الأجرة.

اندفع رينيه وجلس في المقعد فأدارت أوبال السيارة وانطلقا. ما إن ابتعدا مسافة كافية حتى استطاع رينيه أن يتنفس الصعداء أخيراً. قام فصّا الحُصين، اللذان لا ينشطان فقط فيما يتعلق بالذاكرة وإنّما أيضاً فيما يخصّ العواطف، بتهدئة اللوزتين الدماغيتين. توقف ضخ الأدرينالين في الدم. تباطأت ضربات القلب وانخفضت درجة الحرارة، وعاد شعر جسمه إلى طبيعته.

- كنت على وشك البقاء عالقاً هناك. قال ذلك رينيه وهو يمسح جبهته.

- لقد كنت بطلاً.

مثل هيبوليت؟

- في جميع الأحوال، إنّه دليل قطعيّ على نجاعة التنويم المغناطيسي التراجعي. فأنا لم أكن لأجد أبداً اسم قصر فيلامبروز، والمكان المحدد للصندوق لو لم يكن لديّ إمكانية الوصول إلى المعلومات الحصرية من شخص كان قد عاش قبل أكثر من مئتي عام.

- هل ما زلت تشكّ في ذلك؟

- إنّ مهنتي تستوجب منّي أن أتوخى الحذر من أيّة معلومة وخصوصاً إن كانت تاريخية. كما كان يقول والدي: «هناك دائماً ثلاث وجهات نظر لجميع الأحداث: وجه نظري، ووجهة نظرك، والحقيقة». والآن أنا أعرف أنّ وجهة نظري والحقيقة في هذه الحالة بالذات، قد توافقتا بعضهما مع بعض.

- هل كان يستدعي ذلك كلّ هذا الوقت! أنتم الرجال تستغرقون دائماً وقتاً طويلاً لتسترخوا.

- للأسف أنّنا لا نستطيع نشر هذه المعلومات للناس.

- ما الذي يمنعك من فعل ذلك؟

- في الوقت الحالي، إنّ مستوى مصداقيتي يقارب الصفر.
- بالنسبة لي، أنا فخورة بك عزيزي المتطوع الأول.

غمزته بعينها غمزة تشجيعية. شعر بأنّ هذه المرأة الشابة تكنّ له احتراماً حقيقياً. لذا رغب بأن يأخدها في أحضانه، ولكنّه تراجع واسترخى أكثر على مقعده، ومن شدّة ما كان مُنهكاً نام بعد ثوانٍ.

قامت أوبال بتشغيل الراديو.

وضعته على محطة الروك التي كانت تبث أغنية «فورلز أوفيرتوري»، أي «افتتاحية الأحمق»، لفرقة سوبر ترامب التي أسست عام 1980م.

قادت السيارة فترة طويلة إلى أن شعرت أنّها متعبة جداً وغير قادرة على الاستمرار في القيادة باطمئنان، لذا ركنت السيارة في موقف فندق صغير يقع على جانب الطريق السريع.

وضعت غطاء فوق السبائك الذهبية التي في صندوق السيارة، ومن ثمّ أيقظت رينيه. قام هذا الأخير باللحاق بها وهو بغاية النعاس، فتولت أوبال القيام بجميع الإجراءات. وبعد أن حجزت غرفة بسريرين، جعلت رينيه يستلقي على واحد منهما وإذ به يغطّ فوراً في نوم عميق. أخذت تنظر إليه نائماً وهو يشخر، فهمست له في أذنه:

- من المؤسف أن تكون خارج الخدمة هكذا، لقد كنت أرغب بالفعل بالقيام مجدداً بجلسة تنويم مغناطيسية تراجعية قبل أن أنام.

قامت بتغطيته بحركة أمومية فاجأتها هي نفسها.

بعد كلّ هذه العواطف والإنهاك الكبير لعينيها بسبب القيادة، أنعشت نفسها بشرب الماء البارد، وخلعت ملابسها ومن ثم استلقت على فراشها وهي تحكّ بقع الصدفية الأكثر تهيجاً ونامت من فورها هي الأخرى.

—63—

أضاء شعاع الشمس الغرفة. فاستيقظ رينيه أولاً.

جيد، ما زلت حياً هنا والآن.

أخذ يرمش بعينيه ويحرّك لسانه داخل فمه.

في أيّ جسد من أجسادي أسكن؟ في جسد الجندي، أو الأرستقراطية، أو العبد المجذف، أو الراهب البوذي؟

نظر إلى يديه وساعديه وملابسه.

أنا أستاذ التاريخ الهارب الذي قتل السكينهيد والذي يملك حالياً كنزاً من السبائك الذهبية في صندوق السيارة.

تملكه شعور بالغرابة.

كتب اسمه بذهنه.

رينيه توليدانو.

في اللحظة التي كتب فيها اسمه، شعر بأنّه خارج نفسه تماماً وأنّه يشاهد هذا الاسم لأول مرة في حياته.

مرّر يده على وجهه وتحسّس ذقنه وشفتيه وأنفه وعظام خديه وجبهته، محاولاً تذكر الشكل الدقيق لوجهه. واشتمّ بعدها رائحة إبطيه.

إنّها رائحة هذا الجسد.

نهض وفتح النافذة ليستمتع بضوء الشمس والهواء المنعش. توقف المطر والسماء أصبحت صافية. جلس بقرب سرير أوبال وراح يراقبها وهي نائمة.

هذه هي أوبال. أوبال إينشيجويان.

أشعر كما لو أنني أعرفها منذ زمن طويل. من أين يأتيني هذا الشعور بالديجافو؟ لم تسنح لي فرصة لقائها من قبل قط. ربّما كنت أعرفها في حياة سابقة.

هل من الممكن أننا نستطيع تذكر أيضاً الوجوه التي كنّا نعرفها «سابقاً»، كما جرى مع ذاك التلميذ الذي أغاظني؟ هذا يعني في هذه الحالة، أنه بإمكاننا التعرف من جديد على روح عادت وتجسدت في جسد آخر؟

بدا له هذا السؤال جوهرياً وتحديداً في هذه اللحظة، ولكن أكثر ما كان يتوق إليه حالياً هو إفطار شهي. كي يستطيع هضم كلّ عواطف اليوم السابق ويستجمع قواه للمعارك القادمة.

وقف أمام المرآة.

كلّ حياة هي نتيجة لرغبة طلبناها كردة فعل على تجربة سلبية عشناها في حياة سابقة. فنقوم بتعويض ما افتقدناه في حياتنا السابقة ونحاول تحسين مسار حياتنا الحالية.

إنّ هذا يشبه لعبة، «ماستر مايند»، التي تقوم على رمز سري يتكون من مجموعة من القطع الملونة التي يتمّ وضعها بترتيب محدد. حيث يتوجب علينا أن نخمن المكان الصحيح للقطع الملونة كما وضعت تماماً في ذاك الرمز؛ مع كلّ مرحلة جديدة نقوم بها، نستنتج لون القطعة الناقصة مستفيدين من الخطأ الذي وقعنا به في المرحلة السابقة. ويحدث أحياناً أن ننجح في اختيار الألوان الصحيحة ولكن لا يكون ترتيبها صحيحاً، لذا يتوجب علينا إعادة ترتيبها بطريقة مختلفة.

قال في نفسه إنّه في حياته رقم مائة وعشرة، التي جاءت قبل أن يكون فيرون في كمبوديا، لا بدّ أنّه فكّر في نفسه أنّ المذهب الروحاني الغامض للرهبان سيكون الحياة التي تمنحه الفرصة الأكبر للتطور. وفي حياته رقم مائة وثمانية، التي عاشها قبل أن يكون هيبوليت الجندي، لا بدّ أنّه فكر بأنّ أكثر ما يرغب به هو أن يكون جميلاً وقوياً.

وقبل أن يكون الكونتيسة ليونتين، فكّر على الأرجح أنّ المرء إذا عاش حياة امرأة نبيلة في أحد القصور مع عائلة كبيرة ستكون هي الوسيلة ليكون سعيداً.

قبل أن يكون زينو، ربّما قال لنفسه إنّ العيش في الهواء الطلق وعلى ضفاف البحر سيكون هو الحلّ.

في كلّ مرة، تمنى الخروج منتصراً مع مجموعة من المواهب الخاصة. وعند عيشه فقط للحياة اللاحقة يكتشف من خلال التجربة المباشرة، حدود تلك الرغبات.

وبالطبع، قبل أن يولد هو، كرينيه في الحياة رقم مائة واثني عشر، لا بدّ أنّ فيرون كان يرغب في الحياة رقم مائة وأحد عشر بإتقان التاريخ كي يعرف الحقيقة خلف الروايات الرسمية والأساطير. رغب بعيش حياة رجل «يكشف الزيف»، ويولد في بلد ديمقراطي لا حرب فيه، كي لا يعيش من جديد مشاهد مماثلة لتلك التي عاشها لتوّه في كمبوديا.

فيما يخصّ القدرة على العودة إلى حيواته السابقة...

ربّما يكون فيرون أيضاً قد طلب هذا في قائمة رغباته لحياته التالية. كي يعيد إنشاء ذاكرته الشخصية في حال تمّ تنفيذ الحكم عليه بالدامناتيو ميموريا... نعم، لا بدّ أنّ هناك شيئاً ما دفعه للنضال ضد نسيان الحقيقة. وهكذا أصبحت الدائرة مكتملة؛ أنقذ فيرون ذاكرته من خلال منحي الفضول لحبّ التاريخ والقدرة على العودة إلى حيواتي السابقة.

اتصل رينيه توليدانو بموظف الاستقبال وطلب إحضار أكبر وجبة فطور ممكنة. مع البيض المسلوق وعصير البرتقال والمعجنات والزبدة والمربى والكريب والفطائر وحتى لحم الخنزير المقدد المقلي.

تبّاً، لقد فاتني موعد الساعة 23:23 بسبب كلّ ما جرى البارحة مساء.

تنفس الصعداء.

في جميع الأحوال لا بدّ أنّ جيب الآن في طور بناء المركب ومواصلة ممارسة الحبّ مع نوت. ربّما يكون من الأفضل أن أدعه بسلام حتى المساء.

تحرّكت أوبال تحت الغطاء قبل أن ترفعه قليلاً، فاكتشف رينيه أنّها لا ترتدي سوى سروالها الداخلي وقميص عاديّ. لم يستطع منع نفسه من النظر إليها. بدا جسدها أبيض دون مكياج وملابس، وعليه بقع نمش شديدة الوضوح.

كلّما عرفت هذه المرأة أكثر، وجدتها مدهشة أكثر. إنّها تملك جميع المواصفات؛ فهي ذكية، وذات إرادة صلبة، ومستقلة، كما أنّها جميلة بالفعل. لقد اتخذت قرارات سريعة وحاسمة في حياتها. أوقفت دراستها، وصعدت على المسرح وحدها، وتخلّت الآن عن كلّ شيء كي تتبعني. وهذا الأمر بالطبع هو الذي يحدّد البطل في القصة؛ إنّه الشخص الذي يختار ما يريد. أمّا أنا، ففي النهاية لم أختر الصعود على المسرح، وإنّما وقع الاختيار عليّ. لم أختر العراك مع ذاك السكينهيد، بل دافعت عن نفسي فقط ضد هجومه، لم أختر الذهاب إلى مستشفى الأمراض النفسية، ولم أختر أن أكون ملاحقاً من قبل الشرطة. أنا مثل راكب في عربة القطار الأفعواني؛ أطلق صرخات وأتعرق وأخاف ولكن لا أملك عجلة القيادة كي أتحكم بهذه العربة.

إنّ العاطفة التي أثارت في نفسه الإعجاب بأوبال، تبعتها الفكرة التالية.

من غير الممكن أن تهتمّ امرأة رائعة مثلها بشخص مثلي.

في هذه اللحظة، بدأت تشخر أوبال، وحتى هذا الصوت بدا له رخيماً. لذا، ظلّ ينظر إليها مفتوناً وقد اجتاحه في الوقت ذاته يقين داخليّ بأنّ أوبال هي جزء من عائلته الروحية. عاد إلى خاطره كلام والده.

«إنّ أسلوبنا بالتواصل مع الآخرين توضحه الشاكرات المعروفة في الثقافة البوذية.

إنّنا نملك سبع شاكرات.

تقع الشاكرا رقم 1 أسفل العمود الفقري، وهي ترتبط بالكوكب. وتقع الشاكرا رقم 2 على مستوى العضو الجنسيّ وهي ترتبط بالرغبة الجسدية والتكاثر. وتقع الشاكرا رقم 3 على مستوى السّرّة وهي ترتبط بالعائلة والأشياء. وتقع الشاكرا رقم 4 على مستوى القلب وهي ترتبط بالمشاعر. وتقع الشاكرا رقم 5 على مستوى الرقبة وهي ترتبط بالتواصل مع الآخرين. وتقع الشاكرا رقم 6 بين العينين وتسمّى أيضاً بالعين الثالثة وهي ترتبط بالثقافة والجمال. وتقع الشاكرا رقم 7 في أعلى الرأس وهي ترتبط بالروحانية كما ترتبط بمكانتها الخاصة في الكون وفي زمانها المحدد».

وقد أوضح والده محدّداً: «عندما تفكر في شخص ما وتتذبذب الشاكرا رقم 4، فهذا يعني أنّ روحك تشعر بأنّ هذا الشخص هو جزء من عائلتك الروحية».

تذكر رينيه الآن، منذ أن رأى أوبال تظهر على المسرح في بداية عرضها، شعر بضغط على مستوى صدره. لم يُعر لهذا الأمر اهتماماً وقتها، واعتبر ذلك ردة فعل طبيعية لظهورها المفاجئ وسط غيمة من الدخان والأضواء. وحينما صعد على المسرح ونظر كلّ منهما في عينيّ الآخر شعر بأنّ قلبه يخفق بشدة وأنّ شاكراه الرابعة تهتزّ ككرة من الحمم. وقد اعتبر ذلك حينها مجرد ارتباك بسيط...

ولكن لا، كان ذاك شيئاً آخر؛ فقد شعر بأنّه يلتقي بشخص سبق أن عرفه منذ زمن طويل جداً.

اقترب من أوبال كي يشمّ رائحة عطرها، وإذ بها فجأة تفتح عينيها الخضراوين الكبيرتين. وأخذت تومض بجفنيها عدة مرات، مدركة أنّه كان يراقبها، تثاءبت وتمطّت قليلاً، ومن ثمّ لفّت نفسها بالغطاء وذهبت إلى الحمام.

طُرق الباب في هذه اللحظة.

– خدمة الغرف.

انتهز رينيه الفرصة كي يضع طاولة الفطور بالقرب من النافذة المشمسة. وحينما انتهت أوبال من الاستحمام وجاءت مرتدية ثوب الحمام، وهي تضع منشفة حول رأسها، أخذ رينيه يبحث عن جملة يبدأ بها الحوار.

– توقف المطر أخيراً.

نظرت إليه مستمتعة وجلست قبالته.

– صباح الخير، كانت فكرة جيدة أن تطلب هذا الفطور، فأنا جائعة جداً.

ملأت لنفسها كوباً من القهوة.

– كان يوم أمس، كيف أعبّر عن ذلك... «مليئاً بالمغامرات»، أليس صحيحاً؟

تناولت قطعة من الكرواسان ودهنتها بالزبدة والمربى البرتقاليّ، قبل أن تأكلها بشهية كبيرة.

– ما هي اللحظة التي أعجبتك أكثر؟

تفاجأت بسؤاله. فأجابت ضاحكة:

– أحببت كثيراً عندما رميتني بسبائك الذهب من وراء الجدار المسور. لقد ذكّرني هذا بطفولتي حين كنت ألعب مع والدي.

نهضت وذهبت لتتأكد أنّ السيارة ما تزال في مكانها.

– من يصدق أنّ صندوق السيارة ممتلئ بالذهب وأنّ قفل السيارة العادي فقط من يحمي كنزنا هذا.

نظرت إليه مبتسمة.

– ما هي خطتنا لهذا اليوم؟

– دعينا نلخص ما جرى أولاً، لقد حصلنا على قسط من الراحة في هذا

الفندق الذي يقع... أين يقع بالضبط؟ سأل رينيه.

- في ليون، لقد قمت بقيادة السيارة طوال الليل على الطريق السريع.

- جيد. نحن إذاً مطاردون من قبل الشرطة...

- لدينا جميعنا بعض المتاعب الصغيرة التي لولاها لكانت حياتنا سهلة للغاية ومملّة للغاية. قالت ساخرة.

- لا أظنّ أنّ مالكي قصر فيلامبروز يبحثون عنّا. لأنّهم في النهاية، سوف يستعيدون سبيكة الذهب التي ضربت بها الكلب الألماني على وجهه. إنّ هذه السبيكة بمنزلة هدية منحتهم إياها في النهاية. كما أنّني لم أسبّب الأذية لذاك الكلب.

- يتوجب علينا الآن إيجاد أحد ما يشتري هذه السبائك حتى تتحول إلى أوراق نقدية.

- باختصار، عكس عمل الكيميائي.

- وبعدها، كيف تريدنا أن نتصرف؟

- حسناً، إنّ فكرتي ستكون بالذهاب إلى ساحل الجنوب، وشراء قارب شراعي ومن ثمّ اجتياز البحر المتوسط.

- سوف نغادر فرنسا؟

- كان والدي يقول إنّه بإمكاننا حلّ جميع مشاكلنا بتغيير مكان إقامتنا.

- ولكن إلى أين سنذهب؟

بعد قليل من الصمت، قال معلناً:

- إلى مصر.

تناولت البيض المسلوق ووضعت عليه الكثير من الفلفل، ومن ثمّ أكلته بلذة وشهية.

- لماذا مصر؟

- أعتقد أنّ الأطلانطسيين هربوا إلى هناك في الماضي.

- تريد إذاً عيش حدث سبق أن حصل بالفعل مسبقاً، أليس صحيحاً؟

- إنّه مفتاح كلّ شيء: فهناك سوف أعرف ما إذا كنت الآن، بإرادتي الحرة،

في طور إعادة كتابة التاريخ من جديد أو أنّني لا أقوم سوى بإعادة إنتاج الفعل ذاته كما حصل في السابق تماماً؟ بما أنّنا لا نعرف عملياً أي شيء عن تلك الحقبة، لن أستطيع الإجابة عن هذا السؤال إلّا بالتحرك فعلياً. والسؤال بالمختصر هو: هل نملك الخيار حقاً، أو أنّه ليس بإمكاننا سوى أن نكون جزءاً من السيناريو المكتوب مسبقاً وغير القابل للتغيير؟

راحت تفكر.

– في هذه الحالة فإنّ مصير أطلانطس وصاحبك جيب سيكون مُحدّداً مسبقاً، أليس صحيحاً؟

– أرغب كثيراً في معرفة الجواب عن هذا السؤال.

أضاء وجهها بابتسامة صغيرة.

– قد تكون لديّ خدعة سحرية تستطيع الإجابة عن «سؤالك».

اتصلت بموظف الاستقبال في الفندق.

– هل بإمكانك أن تحضر لي لعبة الورق لو سمحت؟

قطّب حاجبيه. فأشارت له أنّ عليه الوثوق بها.

جاء النادل بعد بضع لحظات وأعطاهما اللعبة المطلوبة.

– كما رأيت، فإنّ الورق هذه المرّة جديد كلياً، وبالتالي لم يتلاعب به أحد. ومن غير المحتمل نظراً لمستوى الإنهاك والتعب الذي كنّا عليه في الليلة السابقة، أن أكون قد خطّطت لخداعك مع موظف متواطئ معي في الفندق...

شرحت له اللعبة:

– كان أبي يطلق على هذه اللعبة اسم «رغماً عني». سوف ترى، إنّها محيّرة جداً.

نظراً للوضع الذي هما عليه، وجد رينيه أنّه من الغرابة الخوض في خدعة سحرية، ولكنّه وثق بالمرأة الشابة التي تبدو أنّها تولي هذه اللعبة أهمية عالية.

– انظر جيداً، إنّها بغاية البساطة. سأضع هنا ورقة حمراء وهناك ورقة سوداء.

ومن ثمّ وضعت البطاقة الحمراء، وعلى مسافة بضعة سنتيمترات منها وضعت البطاقة السوداء.

- سوف تقوم بإنشاء عمودين واضعاً الأوراق التي تشعر بأنّها حمراء تحت العمود الأحمر والبطاقات التي تشعر بأنّها سوداء تحت العمود الأسود، وعليك أن تضعها بشكل مقلوب بالطبع.
- هذا كلّ شيء؟
- أنا سأبقى بعيدة، ولن ألمس شيئاً. وأنت عليك وضع الأوراق كما يقول لك حدسك، أي حسب ما تشعر.

استعد رينيه للعبة.

بعد أن انتهى، كان قد شكّل عمودين من الأوراق.

- هل تريد التراجع عن شيء ما؟ سألته أوبال.

تردّد قليلاً ومن ثمّ أعلن:

- نعم.
- إذاً هيا، تستطيع تغيير مكان الأوراق في العمودين بحسب حدسك.

أخذ أستاذ التاريخ ورقتين موضوعتين تحت الورقة الحمراء ووضعهما في العمود الآخر تحت الورقة السوداء. وقام بالشيء ذاته مع أربعة أوراق ووضعها تحت العمود الأحمر.

- هل ما زلت تريد التراجع عن حركة ما؟

عكس أماكن ثلاثة أوراق أخرى.

- هل انتهيت؟
- نعم، لم يعد هناك شيء يحتاج أن أغيره.
- برأيك كم عدد الأوراق التي تعتقد أنها متوافقة اللون؟
- حسناً، حسب الاحتمالات، أعتقد أنّه النصف، 50% صحيحة و50% خاطئة.

بدا مظهرها غامضاً.

- أنا أعتقد أنّك فعلت أفضل من هذا بكثير، قالت وهي تغمزه.

- طالما أنّنا لم نكشف الأوراق بعد، سيكون الأمر مثل قطة شرودنغر، أي أنّ كلّ الاحتمالات ممكنة. هناك احتمال كبير أن أكون مخطئة من أن أكون صائبة.

- هيا بنا يا رينيه، اكشف الورقة الأولى من العمود الأسود.

كشف الورقة وكانت بالفعل سوداء.

- لقد كان احتمالاً واحداً من احتمالين، وكانت صحيحة هذه المرة. قال متمتماً.

- التالية.

التالية سوداء أيضاً.

- هل هذا أيضاً محض صدفة؟

كلّا، هذا ليس ممكناً.

قام بكشف الواحدة تلو الأخرى، وكان يزداد حيرة أكثر فأكثر، فخلف الورقة السوداء كانت جميع الأوراق سوداء، ولم يكن هناك أية ورقة خاطئة.

تفحّص بعدها العمود الآخر وتبيّن أنّه هنا أيضاً جميع الأوراق حمراء.

كيف استطاعت أن تجعلني أنجح مهما كانت خياراتي؟

- ما هي هذه الخدعة؟

- كان حدسك قوياً. تهربت منه رافضة الإفصاح.

- حتى الأوراق التي أعدت ترتيبها كانت صحيحة. هذا مستحيل!

- لقد نجحت، هذا هو المهم.

- أنت قلتِ بأنّها خدعة سحرية، إذاً ليس لهذا علاقة بموهبتي أبداً.

- بدأت تفهم إلى أين أريد الوصول. ولهذا أطلق والدي عليها اسم «رغماً عني». إنّها تسمح بالتساؤل عمّا كنت تتحدث عنه: هل نحن من يختار أم نحن مجرد بيادق مُقحمين فيما يشبه الخطة العالمية ممّا يعني أنّه مهما كانت خياراتنا، سنصل إلى النتيجة ذاتها؟

لم يستطع أن يشيح بناظريه عن العمودين اللذين توافقت فيهما الألوان كلياً.

- هل تستطيعين أن تفعلي ذلك من جديد لأجلي؟
- نقوم بالخدعة مرة واحدة، أو على الأقل مرّة واحدة في اليوم.
- ولكن كيف فعلت ذلك؟ لم تؤثري على ذهني مثلما حدث في خدعة بنت الكبة، ولم تقومي بشيء من ألعاب الخفة لأنك كنت بعيدة عن الأوراق.
- في جميع الأحوال، فإنّ لهذا ميزة وهي إظهار أنّ البديل حقيقيّ للغاية؛ نحن نعتقد أنّنا نختار، ولكن أحد ما أو شيء ما يتدخل ليجعلنا نختار الخيارات الصحيحة... «رغماً عنّا». إذاً، قد تكون فكرتك بالذهاب إلى مصر وإسداء النصيحة للأطلانطسيين تعدّ جزءاً من السيناريو المكتوب مسبقاً.

أخذ بدوره يأكل البيض المسلوق.

- كما لو كنّا نعيش في فيلم نهايته معروفة سلفاً.
- كما لو أنّنا شخصيات في رواية ما. نعتقد أنّنا نتفاعل بكامل روحنا ووعينا، ونقوم بخياراتنا كل ثانية وفق إرادتنا الحرة، ومع ذلك...
- ... ومع ذلك فهناك كاتب فوقنا يقرّر ما سنفعله رغماً عنا.

حاول أستاذ التاريخ فهم جميع تداعيات هذه الجملة.

- من جهة أخرى، هنالك خدعة سحرية قمتَ بها أنت بينما أنا لم أفعلها بعد، أجابت أوبال. إنّه التنويم المغناطيسي التراجعي. وهنا، يعود لك الأمر في مساعدتي على الفهم أكثر.
- هل ستشرحين لي يوماً ما خدعة «رغماً عنّي» ؟
- ربّما، إن نجحت في جعلي أعبر باب اللاوعي. سيكون ذلك دافعاً لي.

نهضت أوبال وأغلقت باب الغرفة وأدارت القفل مرتين، بعد أن علّقت على قبضة الباب لوحة «يُرجى عدم الإزعاج». قامت بإغلاق الستائر لخلق جوّ شبه مظلم ومن ثمّ تمدّدت على سريرها. وجلس رينيه إلى جانبها.

- أغلقي عينيكِ وتصوّري السّلّم. ومع كلّ خطوة تخطينها نزولاً، سوف تشعرين شيئاً فشيئاً أنّك تغوصين عميقاً باتجاه اللاوعي، حتى تصلي إلى الباب. هل تشاهدينه الآن؟

- نعم.
- كيف يبدو؟
- مدرّعاً مع قفلٍ ضخم.
- خذي المفتاح وأدخليه في القفل.
- تمّ ذلك.
- قومي ببرم المفتاح الآن.
- قمتُ بذلك.
- والآن، أمسكي المقبض وافتحي الباب.
قطّبت حاجبيها عابسة.
- إنّه يقاوم.
- حاولي مجدّداً.
تبع عبوس وجهها صرخة ألم.
فتحت عينيها، وأمسكت يدها.
- نيران! هناك نيران خلف هذا الباب! لقد احترقت بالفعل!
أظهرت يدها التي تبدو عليها تقرحات في طور التشكل.
- إنّها آثار قوة التفكير على الجسد.
في البداية كانت عبارة عن بقع صدفية وردية، ومن ثم تحولت إلى تقرّحات حقيقية!
ذهبت لتضع يدها تحت الماء البارد.
- كنت... كنت قد أصررت على فتح الباب وإذ بالقبضة قد أصبحت حارة. ولكنّني أصررت رغم ذلك. وعندها، رأيت ألسنة اللهب تخرج من شقوق الباب. ومن ثمّ تغير لون القبضة. أصبحت صفراء ومن ثمّ برتقالية ومن ثمّ حمراء. واستمرّت الحرارة بالارتفاع، ولكن لم أشأ التراجع. لذا بقيت واقفة حتى أصبح الألم لا يطاق.
- هنالك شيء ما مخبأ خلف لاوعيكِ يمنعك من الوصول إلى هناك.

شيء ما لا تريدين رؤيته أو على الأقل، هناك جزء من ذهنك يعرفه ولا يرغب في تذكره أبداً.

– هذا يعطيني رغبة أكبر في العودة من جديد.

– ماذا قلتِ منذ قليل؟ آه نعم: «نقوم بالسحر مرة واحدة في اليوم». في جميع الأحوال، يبدو لي أنّ القيام بجلسة تنويم مغناطيسية واحدة في اليوم، هو أمر أكثر أماناً، وإلّا سيكون هذا نوعاً من تعذيب النفس.

ضغطت على معصمها موافقة. خرجا بعدها من الفندق واستقلا سيارتهما ذات الصندوق الممتلئ بالذهب.

قادا السيارة حتى وصلا إلى مركز مدينة ليون، وتوصّلا أخيراً إلى مشترٍ للذهب، لم يأبه كثيراً بغياب شهادة مصدر للسبائك الذهبية، بل قال إنّه قادر على تلبية طلبهما مقابل عمولة كبيرة. وفي الواقع، بعد ساعة من الانتظار، عاد الرجل ومعه حقيبتان تحتويان ما يعادل خمسة ملايين يورو بفئات كبيرة ومتوسطة الحجم.

– شكراً لك يا ليونتين، تمتم رينيه وهو يوجه نظره إلى الغيوم.

ومن ثمّ توجها نحو الجنوب. وبعد عدّة ساعات من السفر. وصلا أخيراً إلى مقابل البحر وتحديداً إلى مدينة هييريس.

مصادفة لغوية – صوتية غريبة؛ ما سيحدث في هييريس[1] يعتمد عما سيجري غداً.

قرّرا الاستعانة بوكالة تأجير القوارب. وبناء على نصائح رينيه، الذي لم يستطع الذهاب بنفسه إلى هناك خوفاً من أن يتم التعرف عليه، قامت أوبال بتفحص قارب شراعي طوله ثمانية عشر متراً، اسم القارب «*السمكة الطائرة*». إنّه قارب حديث ذو لون أسود لامع، ومجهز بأحدث المعدات الآلية والإلكترونية. شراعه أبيض ومثبت على وسطه نقش لسمكة زرقاء طائرة.

1- Hyères، لها اللفظ ذاته لكلمة hier، والتي تعني الأمس أو البارحة. المترجمة

ملأت أوبال الأوراق الرسمية باسمها وهي بغاية السرور. وعندما صعد رينيه في وقت لاحق على القارب الشراعيّ، شعر تلقائياً بشعور جميل.

ماذا سيكون رأي زينو إن رأى مدى تطور القوارب الشراعية؟

شعر أستاذ التاريخ بحماس كبير وهو يلمس الزخرفات الخشبية والدهان والصارية. بدا له هذا القارب ملاذاً آمناً ووسيلة للحرية في الوقت ذاته.

كم مرة خلال وجودي كله توجّب عليّ الفرار على متن قارب؟

– هل أنت بخير يا رينيه؟

– لديّ إحساس بأنّني أخيراً استعدت زمام السيطرة على حياتي، وبدأت أقوم بالخيارات الصحيحة. قال رينيه.

– أشاركك بشكل غريب، الشعور نفسه، هكذا أجابت أوبال وهي تحكّ رقبتها بسبب بقع الصدفية.

في آخر النهار قاما بشراء خزنة ووضعاها في قارب *السمكة الطائرة*، ومن ثمّ وضعا فيها الحقيبتين المملوءتين بالأموال. وفي إشارة إلى المرأة التي أعطتهما هذا الكنز، اختارا كرمز للخزنة، كلمة «آذاراب» التي كانت آخر كلمة نطقتها المرأة قبل موتها.

حتى وهما مشغولان بمهام عملية، كانا من حين إلى آخر يتبادلان نظرات تشجيعية.

أشعر بأننا أخيراً في طور إنجاز ما ولدنا من أجله. هذا الشعور لذيذ حقاً.

كانت الأمور تسير بوتيرة سريعة ومنظمة. قاما بشراء مخزون من الأغذية والمشروبات لتكفيهما خلال مدة اجتياز البحر المتوسط. في اللحظة التي أعادا فيها السيارة واستقرّا على المركب، شعرا بأنّه منذ الآن لم يعد هناك أيّ شيء يستطيع إيقافهما.

توجّهت المنومة المغناطيسية إلى مؤخرة المركب وجلست في قمرة القيادة. داعبت العجلة التي مهمتها توجيه حركة المركب.

– هل تعرفين القليل عن الإبحار؟ سألها رينيه.

– كنت أمارس الإبحار مع والدي أيام العطلة. وأنت؟

– وأنا أيضاً. حتى إنّني شاركت بمسابقات وحصلت على جوائز. وبقدر ما أكره كلّ ما يمتّ بصلة للتجذيف، أجد كلّ ما يتعلق بالقوارب الشراعية أليفاً ومحبّباً إلى قلبي.
– هل نسيت أنّني أعرف زينو...
– عذراً، هذا صحيح، إنّها الهفوات الملعونة لذاكرتي. طبعاً فلا أحد غيرك يعرف لماذا لا أحبّ التجذيف...
– في هذه الحالة، سنستطيع أن نتناوب على توجيه الدفة؟
– لا تنسَ أنّه لدينا أحدث جيل من القيادة الأوتوماتيكية؛ يبدو أنّه فعّال بشكل كبير.

مشت على أطراف القارب وهي ممسكة بالحبال المسيجة للقارب، وعبرت سطح السفينة إلى أن وصلت إلى رأس القارب المثلثي.

– تريد الذهاب فعلاً إلى مصر؟
– يستغرق الطريق في العادة عشرة أيام، ولكن قد يستغرق خمسة عشر يوماً في حال لم تكن هناك رياح. إنّ الخطة التي وضعتها في رأسي أصبحت الآن واضحة جداً. سأنهيها عندما أعاود الاتصال مع جيب.

أخذا وقتهما في التعرف على الحجرات الثلاث، والصالون الملاصق للمطبخ الصغير حيث وضعت طاولة بين المقاعد، وبعد ذلك خرجا كي يقفا في مقدمة قوس قارب *السمكة الطائرة*.

– خطرت في بالي للتو هذه الفكرة. قال لي جيب إنّ العقل يستطيع القيام بالكثير من الأشياء إن طلبنا منه ذلك. إنّ علاقاتي مع جيب حتى الآن، تنسجم دائماً مع الجدول الزمني المماثل لنا.
– تقصد أنّ مرور يوم هنا يقابله مرور يوم هناك، أليس صحيحاً؟
– بالضبط. نحن نعيش في زمان ومكان بعيدين حوالي اثني عشر ألف سنة، ولكن مع الروتين اليومي ذاته. بيد أنّ خدعتك السحرية جعلتني أفكر. بما أنّ ما جرى هناك قد جرى وانتهى، فبقدر ما أنّ الوقت أمامي مجهول، كذلك الوقت أمامه...
– ... غير معروف أيضاً؟

– بالتأكيد غير معروف، ولكنّه مجسّد في مكان ما.

عبرت سفينة فاخرة لنقل الركاب المرفأ الكبير لهيريس، وهي تطلق صافراتها القوية. كان آلاف الركاب ذوي الشعر الأبيض، الذين هم زبائن الرحلات المخصصة للمتقاعدين، يحيونهما من بعيد.

تابعت أوبال:

– ومع ذلك، لا نعرف ماذا جرى في أطلانطس أو للأطلانطسيين.

– إنّ هذا مدوّن بالتأكيد. ولكن عندما أصوغ أمنية محددة، أعرف أنّني أستطيع الذهاب في حيواتي السابقة إلى لحظة سبق أن اخترتها. لذلك أفكر لماذا لا أستخدم أمنيتي وأنتقل مباشرة إلى لحظات أكثر تحديداً في عالم جيب؟

– ألا تريد اتباع الجدول الزمني بطريقة متزامنة بين هنا وهناك؟

– لماذا ألتزم بوقت بداية زيارتي الأولى؟ كنت أريد الوصول إلى ما قبل قصة الحبّ وهذا ما حصل فعلاً؛ لقد التقيت بجيب قبل أن يتعرف على نوت. والآن، لست ملزماً بالاستمرار في الوقت ذاته.

– ما هي اللحظة التي ترغب في الذهاب إليها بالضبط؟

– أرغب في الوصول مباشرة إلى اللحظة المصيرية في حياة جيب.

فهمت إلى ماذا يرمي.

– ترغب بالذهاب إلى...

– اللحظات الأخيرة التي تسبق الطوفان.

غطت الغيوم الداكنة والكبيرة السماء فوقهما. لاحظ رينيه هذا الخطر فأكمل:

– ومساعدة جيب في إدارة هذه الأزمة.

– أنت تدرك أنّه في حال إخفاقك، سوف تشعر بالمسؤولية، أليس صحيحاً؟

– إن لم أفعل شيئاً، فإنّ فرص الفشل مؤكدة. فلم يسبق لجيب أن أبحر قط، ولكن من المفترض أن ينقذ شعبه ويعبر المحيط. حتى وإن كان مسناً جداً وهادئاً كثيراً، ولكن أعتقد أنّ الخبرة تنقصه في مثل هذا النوع من التجارب.

تلاشى الضوء حولهما فجأة.

- أعتقد أنّها ستمطر من جديد. مع أنّهم توقعوا ارتفاعاً كبيراً في درجات الحرارة...

- يجب مع ذلك مغادرة مرفأ هيريس بأسرع وقت ممكن. عند الساعة 23:23 سوف أغوص في ذاكرتي وأتمنى أن أصل مباشرة إلى ربع الساعة الأخير قبل الطوفان: سنرى ماذا سيحدث.

لم تتوقف أوبال عن مراقبة السماء الرمادية التي عبرها برق العاصفة الفضي يرافقه هدير الرعد.

- ما الذي يضايقك يا أوبال؟ هل هو حال الطقس؟ أنا متأكد أنّه بعد بضع دقائق سوف يمضي هذا.

- هنالك قصة حزينة مخبأة في ذاكرتي. لقد نسيتها عن قصد وجميع محاولاتي في التنويم المغناطيسي التراجعي تخفق بسبب هذه الحادثة.

لمست مكان الحرق على يدها اليمنى وشعرت بالقشعريرة تسري في جسدها.

64. مذكرات. هذه اللحظات التي فضّلنا نسيانها.

إنّ تاريخ فرنسا ممتلئ بالثغرات؛ فهناك الكثير من اللحظات التي يجري التطرق إليها سريعاً في كتب التاريخ المدرسية، أو التي يجري تجاهلها أحياناً بشكل كامل.

سنذكر منها الآتي:

معركة أزينكورت عام 1415 م التي وقعت أثناء حرب المائة عام. حيث نزل ملك إنكلترا هنري الخامس في منطقة النورماندي، وتوجه إلى الشمال كي يطالب بالعرش. وبما أنّ ملك فرنسا في ذلك الحين، شارل السادس كان مصاباً بمرض عقلي، قام وزيره بقيادة المعركة التي جرت في فسحة غابة أزينكورت. حيث بلغ عدد الجنود الفرنسيين عشرين ألفاً بمواجهة عشرة آلاف جندي إنكليزي.

راهن الفرنسيون بشدة على الفرسان، بينما عوّل الإنكليز على الرماة.

ولكن ما حدث أنّ الأرض كانت مبللة، لذا تساقطت سهام الإنكليز على الفرنسيين كالمطر، ولم يتمكن الفرسان بعد ذلك من متابعة تقدمهم، فوجدوا أنفسهم عالقين في الوحل وسط آلاف الجثث. والحصيلة النهائية كانت 6000 قتيل و2000 سجين من الجانب الفرنسيّ، بمقابل 600 قتيل من الجانب الإنكليزي.

الأسوأ من ذلك أنّ الترتيب ذاته سبق أن جرى على المنوال ذاته قبل ستين عاماً من هذه الحادثة. حيث تواجه كلّ من الملك الفرنسي يوحنا الثاني (المعروف بجان الطيب) وإدوارد دي وودستوك (المعروف بالأمير الأسود) في معركة بواتيه عام 1356م. فالفرنسيون المتفوقون عدداً، كانوا في كلّ مرة ينقضّون فيها ببطولة وبسالة على الإنكليز، توقفهم أمطار السهام القادمة من الأقواس البعيدة المدى للرماة الأعداء. وقد انتهت هذه المعركة بالقبض على جان الطيب ودفع فدية كبيرة للأمير الأسود.

ومع ذلك، فإنّ كتب التاريخ لا تذكر من حرب المائة عام إلّا شخصية... جان دارك، التي سُلط الضوء عليها حوالي عام 1870م للقول إنّه طالما استطعنا طرد الإنكليز، فإننا نستطيع طرد الألمان.

بإمكاننا أيضاً ذكر كومونة باريس التي وقعت عام 1871م، على إثر الهزيمة في معركة سيدان أمام ألمانيا، حيث توجب على فرنسا دفع تعويضات. فثار الباريسيون ضد حكومة أدولف ثيرز التي أرادت، إرضاء للألمان، نزع سلاح الحرس الوطني. فأنشأ الفرنسيون حكومة ذاتية؛ كومونة باريس. وما كان من الألمانيين إلّا أن طلبوا من حكومة ثيرز المتمركزة في قصر فيرساي، «تنظيف باريس». فأرسلت الحكومة الفرنسية أول فرقة من الجيش، ولكنّ هذه الفرقة رفضت إطلاق النار على مواطنيها. وقامت بعقد تحالف مع أولئك الذين توجب عليها قتالهم، قبل أن ينضم أفراد هذه الفرقة أنفسهم إلى المتمردين. والفرقة الثانية من الجيش التي أرسلت على عجل للغرض نفسه، فعلت أيضاً الشيء ذاته. فهم أدولف ثيرز أنّه ينبغي عليه إيجاد استراتيجية جديدة؛ لذا قام بتجنيد قوات استقدمها من الأرياف الأكثر بعداً عن باريس. وبغرض تجييشهم وإثارتهم، قام بتذكيرهم بجميع الإهانات والإساءات التي عاشوها، وخصوصاً الحروب التي سبق أن خاضتها مثل

معركة فونديه، والحملة الصليبية الأليجينية... إلخ. وفي الواقع أنّ ما حدث على إثر ذلك، كان شكلاً من أشكال الحرب الأهلية بين سكان الأرياف والباريسيين، أي بين الفرنسيين والفرنسيين لإرضاء الألمان الذين كانوا يراقبون الوضع من بعيد. رفع الكومونيون المتاريس وجرت مواجهات في الشوارع. وفي غضون شهرين من حرب العصابات التي بلغت ذروتها خلال أسبوع من المجازر وإطلاق النيران المنتظمة، استعاد حاكم قصر فيرساي السيطرة على المدينة. تبع ذلك محاكمات سريعة أفضت إلى تنفيذ إعدامات دون محاكمات، ونفي أعضاء الكومونة إلى كاليدونيا الجديدة. وقد بلغ عدد القتلى بين عشرين وثلاثين ألفاً.

وهذه الأحداث تمّ نسيانها، أو لنقل إنّه لم يتمّ التوسع بها في كتب التاريخ الرسمية.

-65-

تشبه الأمواج أيادي عملاقة بأظافر مدببة من زبد البحر المتلألئ. حلّ المساء، وهما يبحران تحت الأمطار والعاصفة والرياح. أخذت الأمواج تضربهما والرياح تنفخ الشراع الأكبر والشراع الأمامي. ولكنّ رينيه كان يشعر بمتعة كبيرة وراء دفة القيادة. فالمطر والرياح أشعراه بالاطمئنان عوضاً عن القلق.

أغادر عالمي القديم الذي لم يعد لي مكان فيه.

صفعته موجة قوية وأسقطته أرضاً. فنهض ورفع قبضته باتجاه السماء وصرخ:

– ورغم ذلك لم أخف! يتوجب أن تكون أقوى من هذا كي توقفني!

عصف الرعد من جديد.

سأذهب وراء قدري. لأنّ هذا ما أردته دائماً.

أن أجد طريقي الحقيقيّ، وتغيير ما يمكن تغييره. والتعبير عمّن أكون حقاً بعيداً عن نظرات ومحاكمات الآخرين. أنا أخيراً في مكاني وأعشق هذا بالفعل.

صرخت أوبال كي تستطيع أن تغطي على ضجيج العواصف:

- قد يتوجب علينا اللجوء إلى الشواطئ الإيطالية. لأنّهم أعلنوا على المذياع أنّ الهواء سيزداد قوة، وقد تصل شدة الرياح إلى 7 عقدات.

- كلّا، سيسير الأمر على ما يرام، يجب فقط الحفاظ على مسارنا. أنت بخير؟ هل تشعرين بدوار البحر؟

على الرغم من شحوبها، فإنّها أومأت برأسها.

- سيسير الأمر على أحسن ما يرام.

- ما إن تهدأ أحوال الطقس قليلاً، سوف أترك لك قيادة المركب وسأذهب للقاء جيب، هل أنت موافقة؟

أكدت ذلك.

ومع ذلك راحت الرياح الهوجاء تتزايد باستمرار، والأمواج تصبح أكثر علوّاً و*السمكة الطائرة* تترنّح في جميع الاتجاهات. وعلى الرغم من عتمة الليل والأمطار التي تهطل، لم ينفكّ رينيه عن النظر إلى الساعة. وحينما أصبحت 23:10، أشار إلى أوبال بأنّه سوف يختلي بنفسه داخل المقصورة.

- لا تقاطعيني تحت أيّ ظرف مهما كان.

- حسناً سوف تقوم بـ...

غطّ ضجيج العاصفة بقية الجملة.

- سأذهب لأوقف الطوفان الذي دمّر أطلانطس. أعتقد أنّ الجوّ العام سيكون أكثر صخباً من هنا.

- بالتوفيق. أنا متأكدة من أنّك ستنجح في إنقاذهم.

- عادة في الأفلام عندما تنطق إحدى الشخصيات بهذه الجملة، غالباً ما يفشل الآخر في عمله.

- أنت لا تؤمن بهذه الخرافات، أليس صحيحاً؟

- نظراً للظروف التي مررت بها، أعترف لك أنّني بدأت أؤمن بها قليلاً.

غمزته بعينها كنوع من التشجيع، فردّ عليها بعرّة عينه اليمنى التي تشير إلى أنّه بدأ بالتوتر. ذهب وتمدّد على فراشه. وفضّل أخيراً الاستلقاء على

السرير المعلّق على الممر الرئيسي، كي يتعادل ميلان السرير مع اهتزاز القارب فيحصل على نوع من التوازن.

أغلق عينيه متأرجحاً على هذا السرير المعلق. تصوّر السلّم، وفتح باب اللاوعي. مشى في الممرّ ذي المائة والأحد عشر باباً حتى وصل إلى الباب الأول، وقبل أن يدير قبضة الباب، صاغ أمنيته:

أريد العودة في حياة جيب إلى اللحظات التي سبقت مواجهته للطوفان تماماً.

-66-

تحت أشعة شمس الظهيرة المشعة في مدينة ميم- سيت المزهرة يتنزه الجميع بسلام. كان جيب ونوت يستعدان لتناول طعام الغداء، وهما على شرفة منزلهما وسط الأشجار المثمرة.

نادت نوت بصوت مرتفع وهي تصفق بيديها:

- أوزيريس، إيزيس، سيت، نفتيس، هيّا يا أطفالي لتناول الطعام، فكلّ شيء جاهز.

ظهر فجأة صبيان وفتاتان يرتدي كلّ واحد منهم لباساً فضفاضاً مريحاً لونه بيج. جلس الجميع حول طاولة مستديرة بينما راح جيب يقوم بتقديم الوجبة لهم، التي بدت لرينيه أنّها عبارة عن سلطة من جذور وأعشاب وفطر. بدأ الجميع يأكل، وراحت القطط تتجول حولهم.

بقي رينيه بعيداً يراقب المشهد.

اقتربت القطط منه، وغمره من جديد شعور بمدى الانسجام والجمال المرتبطين بهذا المكان وهؤلاء الناس. وفجأة، رفعت القطط آذانها في وقت واحد وركضت كي تختبئ.

وبعد لحظات قصيرة، بدأت الأرض بالاهتزاز فجأة.

ها قد جاءت اللحظة التي كنت أنتظرها. سوف أرى أخيراً ما الذي حصل بالفعل.

بداية نفث البركان زوبعة من الدخان الرمادي ومن ثمّ بدأ بالثوران. وكمرجل مشتعلٍ، أطلق حمماً برتقالية ارتفعت عالياً في السماء، قبل أن تسقط على منحدرات الجبل كقطع هلامية برتقالية متوهجة، وتتدحرج حتى وصلت إلى الغابات القريبة التي بدأت بالاشتعال على الفور.

اهتزت الأرض من جديد بزلزال أقوى من المرة السابقة، وانهارت المساكن المجاورة ببطء. وتشقق جدار شرفة جيب إلى قسمين محدثاً ضجيجاً كبيراً. اختلطت أرضية المنازل مع الجدران والأشجار بعد أن سقطت منهارةً دون أن يستطيع أحد القيام بشيء، أو يتمكن من الهرب. سقط الأطلانطسي وعائلته وسط غبار وأنقاض منزلهم. ولحسن الحظّ أنّهم لم يصابوا بأية جراح.

بدأ كلّ شيء ينهار من حولهم، سقطت الأبنية والأشجار، وتصدّعت الطرقات قبل أن تنفتح وتكشف عن هوّة حمراء عميقة جداً. لم يعد يُسمع سوى أصوات الصرخات تأتي من كلّ مكان، بينما استمرّ البوق في دقّ ناقوس الخطر.

قرّر رينيه أنّ هذه هي اللحظة المناسبة ليتواصل مع نفسه القديمة.

– جيب! أنا هنا.

– رينيه!

– هل انتهيت من بناء القارب؟

– نعم.

– إذاً هيّا، انطلق إليه.

قاد جيب زوجته وأطفاله الأربعة، الذين كان أكبرهم سناً بالكاد يبلغ العاشرة، باتجاه الشاطئ حيث التقى برينيه أول مرة.

كانت أشجار جوز الهند تنهار من حولهم، وقد تغيّر المحيط، فراحت أمواجه تضرب الشاطئ بعنف. سار جيب ونوت وأطفالهما وتبعهم ما يقارب خمسين شخصاً آخرين إلى مكان السفينة. وقد أصابت الأطلانطسيين الآخرين من حولهم حالة من الرعب المطلق، وأخذوا يتخبطون كعشِ نمل تدمّر بعد أن أصابته عصا طفلٍ أخرق. وبدأت الرمال تتطاير بزوابع قوية.

- يجب على الفور وضع القارب في المياه! قال رجل القرن الواحد والعشرين.
- إنّه ثقيل! لا أعتقد أنّنا سنتمكن من إيصاله إلى البحر في الوقت المناسب!
- هل صنعت عربة النقل كما أخبرتك تماماً؟
أزاح جيب قطعة قماش القنب وكشف عن العربة.
لقد فعلوها ونجحوا في بناء الفُلك! يبدو أنّ جيب قد اتبع جميع النصائح التي أعطيته إياها.

قام جيب بمساعدة مجموعة من الأطلانطسيين بتحريك القارب المثبت على عربة ضخمة تحت دعم وتشجيع أستاذ التاريخ. حلّل رينيه سريعاً هذا الموقف واستنتج قائلاً لجيب:

- أقترح عليك أن تسمح لي بالدخول في جسدك كي نتمكن من التحرك بأسرع ما يمكن. وسوف أقود حركة يديك وقدميك من الداخل بشكل مباشر. وهكذا، سنستطيع تجاوز هذه المحنة بشكل جيد.
- أنا أثق بك يا رينيه. ادخل في جسدي وأنقذنا جميعاً.

استحوذ إذاً أستاذ التاريخ على جسد عالم الفلك الأطلانطسي الذي يعود على الأقل إلى عشرة آلاف سنة قبل المسيح. وشرع مباشرة في العمل.

كانت العربة عالقة في الرمال، ومع أنّ عدد الذين يسحبونها كبير فإنها تتقدم ببطء شديد. صعد رينيه، وهو في جسد جيب، على سطح السفينة وفتح الشراع وشدّ حبالها. فاندفعت الرياح مباشرة في الشراع وراحت العربة تتحرك بسرعة أكبر. أخذت السفينة تتقدم ببطء نحو الماء، وقبل أن تغوص أكثر في المحيط، قامت نوت برمي الحبال لمساعدة الناس الذين يدفعون السفينة على الصعود في اللحظات الأخيرة من الجهة الخلفية للمركب.

على الرغم من تدافع الناس فقد تمكن حوالي مائة شخص من تسلّق السفينة بينما كان القارب يستمر في الغوص بلا هوادة في المياه.

قال رينيه لنوت، عبر فم جيب، إنّه يجب تخفيف الضغط قليلاً عن الشراع كي يتمكن بضعة أشخاص ممن يحاولون اللحاق بهم سباحة من صعود

المركب. ولكنّ قوة الدفع لهذا القارب الكبير جعلته يواصل طريقه بالاندفاع ذاته. وأشار إلى أنّه يجب تحريك المقود الذي سيعمل بمنزلة الدفة. لذا وقف في مؤخرة القارب وأمسك مباشرة بالمقود الخشبي الضخم الذي يسمح بتوجيه السفينة. حينما استدار خلفه، شاهد في البعيد أمواجاً هائلة الحجم وأكبر من كلّ الأمواج التي سبق أن رآها من قبل، وهي تتقدم ببطء كجدار أخضر داكن بارتفاع حوالي خمسين متراً وقد تغطت قمّتها بزبدٍ فضيّ.

فكّر، لا تدع نفسك تنساق وراء العواطف. ليس هذا هو الوقت المناسب كي يجتاحك الخوف. هيّا ابحث عن شجاعة هيبوليت، وسكينة فيرون في محنته.

يعرف أنّه حين سيضرب هذا الوحش الجزيرة، سيتعرض كلّ شيء للغرق بسبب التيار الجارف. لم يعد من المجدي انتظار هؤلاء الذين يتبعون القاربَ سباحة. يجب على رينيه التخلي عن فكرة إنقاذ جميع الناس. الأولوية الآن هي إبعاد القارب عن الشاطئ.

زأر البركان من جديد بينما غطت الأمواج التي هيجتها حركة الصفائح تحت البحر، الهضاب بشكل مخيف. امتدّ الشراع واتسع فازدادت سرعة القارب أكثر.

ابقَ هادئاً، لا تدع الخوف ينال منك.

شاهد رينيه من المكان الذي يقف فيه، آخر الأطلانطسيين الذين كانوا معلقين بالحبال، وقد استطاعوا رفع أنفسهم إلى سطح السفينة.

إنّ الأطلانطسيين بعد مئات السنين من الطمأنينة يكتشفون الآن معنى الخوف والقلق وخشية الموت في آن معاً. إنّهم في طور اكتشاف أنّ هذه المشاعر موجودة، ليس لجعل الناس تعساء فقط، بل على العكس، فهذه المشاعر في عدة ظروف يمكن أن تنقذ حياتهم. لم يُخلق القلق عن عبث، إنّه يؤدي وظيفة الحفاظ على الحياة.

وضعت نوت أطفالها الأربعة بالقرب من الصاري. فالقارب الذي تتلقفه الأمواج يجد صعوبة في الحفاظ على ميلان متوازن للقارب.

– ثبّتوا العارضة! صرخ رينيه – جيب.

بدأت في الحال مجموعة من الأطلانطسيين بالعمل ونجحوا في إدخال العارضة الثقيلة في الكوة الخشبية المصنوعة خصيصاً لهذا الأمر. وعلى الرغم من الأمواج، فإن القارب بفضل العارضة استطاع أن يخفّف من تأرجحه وميلانه، وعاد مجدداً ليتابع إبحاره بسرعة أكبر مبتعداً عن موجة كبيرة عابرة كانت تقترب منهم بشكل خطير.

كان البركان يطلق حمماً حمراء، ناثراً أمطاراً من القذائف الدخانية بصفير كبير مسبباً انهيار المنحدرات. وفي حينها، وصلت الموجة الخضراء الداكنة التي يبلغ ارتفاعها خمسين متراً إلى الجزيرة، وراحت تتقدم تدريجياً، مثل فم يبتلع كلّ شيء في طريقه. أما الأطلانطسيون الذين ظلوا على الشاطئ فقد تلقفهم هذا الجبل السائل وابتلعهم جميعاً. وسرعان ما وصلت الموجة إلى مدينة الزهور أيضاً. والمنازل التي لم تتهدم بسبب الزلازل الأرضية ها قد اختفت تحت مياه البحر. والهرم الأزرق غمرته الموجة التي لا يبدو أنّ هناك شيئاً يمكنه إبطاؤها أو إيقافها.

كان رينيه – جيب يتقطع ألماً وهو يمسك بالدفة محافظاً على مسار المركب كي يبعده عن الخطر. فراح القارب يواصل إبحاره بينما كان جميع الركاب يتأملون مشدوهين، دمار كلّ شيء عزيز على قلوبهم.

لم تعد مدينة ميم – سيت مرئية على الإطلاق.

لم يتوقف البركان عن نفث حممه الحمراء التي أصبحت الآن تسقط حولهم بصوتها القوي. وقد خرقت واحدة منها الشراع الأكبر فكاد يشتعل، ولكنّ نوت استوعبت الخطر في الحال، وقامت على الفور، بإلقاء دلو ماء عليه فنجحت بمنع اندلاع النيران.

تابعت الموجة الخضراء القاتمة تقدّمها، لتصل إلى منحدر الغابة وتصعد بعدها إلى البركان. عندما غمر الماء كلّ شيء بدت الجزيرة منقسمة إلى جزأين كما لو أنّها لوح طينيّ هشّ.

أشار رينيه إلى ضرورة عدم التراخي في الجهد لأنّه يتوقع أن يتعرضوا لتهديد جديد. فهو يعلم أنّ غرق الجزيرة في المحيط سوف يحدث دوامة بحرية شديدة القوة.

يجب الخروج من المنطقة التي ستحدث فيها قوة الجذب المركزية.

أطلق البركان قبل أن تغمره المياه، غيمة أخرى من الدخان الأسود، وأدرك رينيه أنّ تقدّم القارب باتجاه عمق المحيط أصبح بطيئاً بسبب تيارات البحر المتعاظمة قوتها أكثر فأكثر.

– شدّوا الحبال أكثر، يجب أن يأخذ الشراع أكبر قدر من الرياح.

إنّ خطر الانجراف في داخل الدوامة يزداد في كلّ لحظة. يجب التحرك بسرعة.

– ارفعوا العارضة! لا بأس سوف نتحمل ميلان القارب الشديد، ولكنّ هذا سيمنحنا سرعة أكبر، قال رينيه – جيب.

سحب الأطلانطسيون العارضة تنفيذاً لإرشاداته، فمال القارب باتجاه الجهة اليمنى. وصار يصدر أصوات طقطقة تحت ضغط كلّ من الرياح والتيار والأمواج والشراع والدفة. نفّذ المسافرون تعليمات نوت بالجلوس في الجهة المعاكسة لميلان القارب كي يحققوا شيئاً من التوازن.

وبعدها، تباطأ مسار الأحداث. فالقارب كان ثابتاً في مكانه عملياً، لأنّه أصبح عالقاً بين قوة الدوامة الجاذبة وقوة الرياح الدافعة للأشرعة.

قوة الهواء تعارض قوة الماء.

إنّ الألواح الخشبية التي تشكل هيكل السفينة هي التي يقع عليها هذا الضغط، ولذلك تصدر هذا الضجيج المخيف.

أغلقت نوت عينيها. رمى أوزوريس الحبال في البحر أمام السفينة. فأُمسك بها من قبل كائنات لم يعرفها في البداية. ولم تبدُ منها سوى الزعانف العلوية.

جاءت الدلافين لمساعدتنا!

تواصل أطلانطس الاختفاء تحت الماء، ووحدها فقاعات الدخان السوداء المنبعثة من البركان هي التي أصبحت تدلّهم على مكان إقامتهم السابقة.

كانت الحبال في مقدمة السفينة المشدودة حتى أقصاها تجعلنا نتخيل

الجهد الذي تبذله الدلافين وهي تسحب بكلّ قوة الأنشوطة الموضوعة على زعانفها.

وقفت نوت بجانب رينيه - جيب. وتعانق الركاب ليشدّوا بعضهم من أزر بعض.

يا للهول...

ارتعاشات وصرير أسنان وحدقات متسعة وحمم بركانية وحبال مشدودة وغيوم سوداء ورياح وصراخ وبرق وأمواج تتكسر على بدن السفينة، وعشرات من زعانف الدلافين، والقلوب تخفق بشدة. الطبيعة غاضبة، السماء ثائرة والماء يغلي.

عسى أن ينجح الأمر.

كانت النوارس تحوم حولهم وهي تطلق صرخات حادة، كما لو أنّها تسخر من هؤلاء الذين يعتمدون على الأرض والماء في حياتهم، بينما هي في مأمن في الهواء.

كانت الوجوه تعبر عن القلق. فليس حولهم سوى الغضب والموت والضجيج والبرق والصدمات والزبد والحمم.

الثواني تمرّ ببطء في حين أنّ غضب الطبيعة يبدو أنّه لا يريد أن يهدأ.

يجب أن يسير الأمر جيداً.

شعر الأطلانطيون بأنّ هذا المشهد المروع أبديّ لا نهاية له.

وفي النهاية نجحت الدلافين التي تسحب الحبال من مقدمة القارب في التغلب على قوة التيار الجاذب.

لا بدّ أنّ هناك عدداً هائلاً من الدلافين التي أتت للمساعدة.

تحرّر القارب أخيراً من القوة الجاذبة التي كانت تسحب القارب إلى الخلف. أخذ يسير بسرعة أكبر وراح يتقدم بأناة.

هل نجحنا؟

نظر الأحياء بعضهم إلى بعض، مندهشين من كونهم ما يزالون على قيد الحياة. كانت الريح ما تزال تهدر في الأشرعة وعلى الرغم من أنّ الظلام بدأ يجتاح السماء، فإنّ القارب ما يزال يتابع سيره.

- كم يبلغ عددنا؟ سأل رينيه - جيب.

- هناك مائة وثمانية وستون شخصاً بالإضافة إلينا نحن وأطفالنا. ما يعني مائة وأربعة وسبعين ناجياً، أجابت نوت.

مائة وأربعة وسبعون. لقد أنقذت مائة وأربعة وسبعين أطلانطسياً من أصل ثمانمائة ألف!

- إلى أين سنذهب الآن؟ سألت المرأة الشابة ذات المئتين والخمسة والأربعين عاماً بصوت مختلط بنحيب لم تستطع إخفاءه.

هذه المرة أجابت روح رينيه مستخدمة فم جيب لتقول:

- باتجاه الشرق، يجب الإكمال في هذا الاتجاه. سوف نصل عمّا قريب إلى قبالة الشواطئ وسنقوم بالإبحار على طولها بعض الوقت قبل أن نصل إلى أرض سوف تدعى يوماً ما مصر.

استدارت نظرات الركاب إلى الخلف. لم يبقَ من أطلانطس سوى غيمة دخان فوق سطح المحيط.

جاءت نوت واحتضنت بين ذراعيها جيب الذي لم يترك الدفة. سمحت لنفسها أخيراً بالبكاء. أدرك هذا الأطلانطسي أنّ جسده قد اجتاحته عاطفة كبيرة لم يستطع السيطرة عليها، ولكنّ روح رينيه تعرّفت عليها بسهولة.

إنّه حزن لا نهاية له.

جميعهم ممزقون بين شعورهم باليأس بعد خراب كلّ ما هو غالٍ وعزيز عليهم، وبين شعورهم بالارتياح لنجاحهم في الفرار.

الحزن والأمل.

انطلق القارب مسرعاً باتجاه الشرق، وعلى متنه المائة والأربعة والسبعون أطلانطسياً المذعورون والمضطربون. انفصلت روح أستاذ التاريخ عن جَسد عالم الفلك كي يعيد التفكير بكلّ ما جرى.

وهكذا، لم يعد هذا من المستقبل أو من الحاضر، إنّه من الماضي. لقد عشت الطوفان واندثار الحضارة الأطلانطسية.

لقد تمّ تخزين هذه اللحظة التاريخية الفريدة في ذكرياتي.

عندما عاد رينيه من التنويم التراجعي وجد أنّ *السمكة الطائرة* ما تزال وسط العاصفة، مع أنّ هذه العاصفة أقلّ عنفاً بكثير من تلك التي واجهها لتوّه، فإنّها مع ذلك تجعل الرحلة مضنية جداً.

أدرك أستاذ التاريخ أنّه أمضى أكثر من ثلاث ساعات بمساعدة الأطلانطسيين على النجاة من الطوفان.

ذهب وشرب كوباً من القهوة، ولفّ نفسه بسترة واقية وذهب ليرى أوبال التي ما تزال متشبثة بالدفة، بينما كان الشراع مأخوذاً في هذا القطار الأفعواني للبحر الأبيض المتوسط الهائج.

- إنّهم مائة وأربعة وسبعون شخصاً، هذا هو عدد الناجين من الطوفان. قال رينيه.

هنّأته بإشارة منها.

- إذاً ربما تكون قد غيّرت مجرى التاريخ بطريقة حاسمة، صرخت أوبال كي تغطي بصوتها على هدير الرياح.

- سنكون مطمئنين عندما ينجحون في إعادة إحياء حضارتهم. لدينا موعد الآن معهم هناك في مصر، حيث يتوجب على جيب ونوت وأطفالهما الأربعة والأطلانطسيين الآخرين أن يصلوا إليها.

راح المركب الشراعي يبحر فوق الأمواج. كان هيكل المركب يعلو ويتهادى على سطح البحر، لقد أخذ اسم «*السمكة الطائرة*» معناه الحرفي.

توجّب على رينيه وأوبال في أول يوم إبحار لهما أن يواجها أيضاً رياحاً بقوة 6 عقد، ولكنّ مركبهم كان يسير بالاتجاه الصحيح، ويحافظ على زاوية ميلان مناسبة باتجاه الريح، ويواجه الأمواج شاقاً طريقه نحو الجنوب الشرقي.

في المساء، بعد أن هدأت سرعة الريح أخيراً، ولأنّهما كانا منهكين من التعب، قرّرا ترك مهمة الإبحار للقيادة الأوتوماتيكية.

ذهبا لتناول العشاء في قمرة القيادة.

- اروِ لي أحداث الطوفان. قالت أوبال.

- إنّه لمحبط حقاً. كلّ هذا الجمال والانسجام تلاشى إلى العدم فقط لأنّ شيئاً ما أو شخصاً ما لم يعد يرغب بوجوده. كان لديّ انطباع بأنّني أناضل ضد غضب بوسيدون إله البحر والعواصف.

- ربما لولاك لما كان لينجو أحد.

- ومع ذلك، فهذه واقعة مكتوبة في جميع الأساطير التي تطرقت إلى موضوع الطوفان.

- لنعد إلى إشكاليتنا: هل كان ما فعلته مكتوباً ومقرّراً مسبقاً؟

- تماماً، هل كانت اختياراتي هي التي قررت ما جرى؟

- أم مشاعرك؟

بقي متشككاً ومن ثمّ غيّر مجرى الحديث.

- أعرف الآن على الأقل أنّني أستطيع العودة إلى أيّة فترة زمنية أريدها في الماضي.

- في هذه الحالة، تستطيع الذهاب إلى آخر الكتاب وقراءة مرحلة الانهيار. وبذلك تستطيع معرفة كيف سينتهي بهم المطاف!

- كلّا. هناك شيء ما لا يعجبني في هذا الاقتراح. فأنا ما زلت أعتقد أنّه من الأفضل السير خطوة خطوة والقيام باتخاذ الإجراءات اللازمة تبعاً للظروف التي تستجد. ما زلت مقتنعاً أنّ الإرادة الحرة أكثر قوة من القدر المحتوم. سأتابع شيئاً فشيئاً تطور المغامرات التي ستواجه جيب. إنّ هذا يشبه قراءة الرواية، فلن يكون هناك أيّة متعة إن تجاوزت الأحداث، وذهبت مباشرة إلى النهاية كي أعرف من هو القاتل، أو ما إذا كان البطل سينجح في النهاية أم لا.

وافقته أوبال الرأي.

- بالطبع، أكمل رينيه، أرغب بشدة معرفة ما الذي ستؤول إليه الأمور، ولكن أستطيع الصبر.

- أفهم ما تقوله، فأنا عندما كنت طفلة، شاهدت فيلم «إي تي» وحين

جاء ذاك المشهد الرهيب الذي يموت فيه الكائن الفضائي، لاحظت أمّي أنّني لم أبكِ عندما شاهدته، فسألتني لماذا بقيت غير مكترثة هكذا، فأجبتها: «لقد سبق أن شاهدت الفيلم ثلاث مرات وأعرف أنّ «الإي تي» يعود في النهاية إلى الحياة، لذا لا أجد مبرّراً كي أشعر بالقلق عليه».

في هذه اللحظة سمعا صوت صافرة لسفينة ضخمة. صعدا إلى سطح القارب فشاهدا ناقلة نفط ضخمة تمرّ على مسافة بضع مئات من الأمتار عنهما. ففكّر كلاهما بالشيء نفسه.

كان يكفي أن تكون بطارية قاربنا فارغة كي لا ترانا هذه الباخرة العملاقة. وبالتالي كنا على وشك التحطم تحت هذه الباخرة كما يحطّم فيل فأرة، حتى دون أن يلحظ وجودها.

عادا إلى المقصورة. وأكمل رينيه:

– ومع ذلك بقي لديّ سؤال: هل نهاية قصتهم ونهاية قصتنا ثابتة لا تتغير؟ هل هناك حلول أخرى محتملة؟

– ما رأيك أنت؟

– هناك ما يسمى بتأثير الفراشة؛ يعني أنّ حصول أدنى تفصيل صغير يمكن أن يغير مساراً بأكمله.

– إذاً؟

– لن نعرف ذلك إلّا من خلال عيش الأحداث مرحلة بعد مرحلة دون استعجال الأشياء أو معرفة مسبقة بالمراحل القادمة.

– أعتقد أنّ هذا منطقيّ أكثر.

– بقيت نظرية «رغماً عني» التي تناقض نظرية تأثير الفراشة. ففي هذه الخدعة لا شيء يسمح للاعب أن يخطئ أبداً، هذا إن كنت قد فهمت الخدعة جيداً.

– في الواقع، إنّها خدعة لا يمكنك أن تخسر فيها. فكلّ شيء محسوم مسبقاً من قبل الساحر.

– هل تستطيعين أن تعيديها لي لأحاول فهم الموضوع؟

– نعم، إذا أردت ذلك.

- ولديّ طلب في هذه المرة، وهو أن تكون جميع اختياراتي خاطئة، هل هذا ممكن أيضاً؟

أومأت أوبال برأسها وأخرجت الأوراق التي اشترتها قبل صعودهما المركب، ووضعت ورقة حمراء وورقة سوداء ومن ثمّ ناولته الخمسين ورقة المتبقية. وقام بتصنيفها حسب الألوان المفترضة. ومن جديد سُمح له بالتراجع عن بعض الحركات.

في هذه المرة، لم يكن تحت الورقة الحمراء سوى الأوراق السوداء، وتحت الورقة السوداء لم يكن سوى الأوراق الحمراء.

هنا في هذه الخدعة ولسبب غامض، لم يعمل تأثير الفراشة. كان السيناريو قد كتب مسبقاً، جيداً كان أم سيئاً، وجرى كلّ شيء كما يجب عليه أن يجري.

- حان دورك الآن يا رينيه لتطبق خدعتك السحرية عليّ. باستثناء أنّه من جهتي لا أريد الإخفاق، بل أريد النجاح في فتح هذا الباب المدرّع اللعين على الرغم من قبضته الحارقة!

لم يجعلها أستاذ التاريخ تتوسّله. قادها من جديد باتجاه باب لاوعيها. اعتقد أنّه في هذه المرة سوف تستطيع التقدم بسهولة أكثر إن تصورت نفسها ترتدي زي رجال الإطفاء الواقي من الحريق. فأدخلت المفتاح وأمسكت بالمقبض وهي تضغط عليه بقفازها الضخم المُتخيّل، ولكنّها وجدته ما يزال موصداً بقوة. فقامت من شدة غضبها، بتوجيه ركلة قوية إليه دون أن تستطيع الحصول على أيّة نتيجة تذكر. أصيبت بخيبة أمل، وصعدت من جديد درجات السلّم والتقت رينيه من جديد.

- أنا آسف، قال رينيه.

- ليست مشكلة، سوف ننجح في المرة القادمة، قالت أوبال بطريقة حاسمة.

تناولا العشاء ومن ثمّ ذهبا للنوم في مقصورتيهما.

كلانا يعلم شيئاً ما يجهله الآخر. ولهذا كلّ واحد منّا يحتاج إلى الآخر.

وما يزال يتعيّن علينا إيجاد أفضل طريقة لنتساعد معاً. كم من الحيوات مرّت ونحن معتادان على الالتقاء كي ننجز إبداعاتنا معاً؟

راحت أوبال تحكّ بقعة صدفية جديدة ظهرت على مستوى الكاحل.

-68-

مازالوا تحت صدمة فقد عائلاتهم وعاصمتهم وحضارتهم.

– هناك الكثير ممّا نستطيع فعله، قال جيب. فهناك ما هو أسوأ من الموت؛ وهو أن نُنسى، ورينيه فقط من يستطيع أن يجنّبنا ذلك.

– نحن مائة وأربعة وسبعون شخصاً نحمل ذاكرة لعالم اندثر غرقاً، سوف نعمل على ألّا تندثر أيضاً هذه الذاكرة. وسوف يكمل أطفالنا هذا العمل من بعدنا، أجابت نوت.

– أنا جائعة، قالت نفتيس.

بطبيعة الحال، لم يفكروا بإحضار الطعام. لذا لم يكن أمامهم سوى مأكول واحد متاح، ألا وهو جثث الأسماك. وقد كانت الدلافين هي التي تصطادها من أجلهم، ومن ثمّ تلقيها من فمها إلى ظهر القارب. تفحّص الركاب أجسام سمك السردين التي تتألم متعذّبة، وقد وجدوا أنّ تناولها أمر بغيض.

كان يتقاسمهم الشعور بالاشمئزاز والشعور بالجوع، ومع ذلك فقد خلُص بعضهم إلى التغلب على النفور، وقرّبوا الأجسام الحمراء من شفاههم. العديد من الأطلانطيين الذين ابتلعوا السردين النيء تقيّأوا بعد ذلك. بينما فضّل البعض الآخر الصيام.

لقد اكتشفوا في يوم واحد، مشاعر جديدة كانت مجهولة بالنسبة إليهم حتى ذلك الوقت؛ وهي الخوف والحزن والغضب والندم.

كما بدا لهم أنّ تناول جثث الحيوانات قد ضاعف أيضاً من حدّة هذه المشاعر السلبية الأربعة.

كان جيب يركز على عمله كقبطان للمركب ويريد إتقان فن الملاحة الخاصّ به. شعر بأنّ هناك شيئاً ما قد اختفى إلى الأبد، ولكن، تبعاً للمبادئ

الأطلانطسية، كرّر في نفسه قائلاً: «ليس هذا بالأمر الخطير، كلّ ما يحصل لنا هو لخيرنا».

حاول التركيز على المستقبل أكثر من عيشه الحنين إلى الماضي الذي لا يمكن استعادته. إنّه يرى الآن في أطفاله ما يشبه الربيع المنتظر للحضارة الأطلانطسية التي عرفت لتوّها أسوأ وأقسى شتاء في تاريخها.

ارتجلت نوت من جهتها أغنية شعرية راح الجميع يرنّمها بصوت واحد كي تتآلف أرواحهم من جديد علّهم يجدون في ذلك بعض العزاء.

«وهكذا دُمّر كل ما هو عزيز علينا.
وهكذا مضى كلّ غالٍ علينا
ولكنّ روح الروار ما تزال تجري في العروق
هي طاقة الحياة تصرع الموت بنبض العروق
حبّ ميم- سيت ينبض في صدورنا وفي القلوبِ
أرواح إخواننا وأخواتنا مَن رحلوا ستبقى منيرة في القلوبِ
طالما واحدنا يجري فيه نفس.
سيخلدُ ذكر ها- ميم- باث مع كلّ نفس».

-69-

تدفع الرياح *السمكة الطائرة* فوق قمم الأمواج. ومع بزوغ فجر يوم جديد، أمسك رينيه بالدفة محافظاً على توجه القارب نحو الجنوب الشرقي. عندما شعر بالتعب الشديد، أخذت عنه أوبال مهمة القيادة تاركة إياه يستريح.

وفي المساء، جلس رينيه وأوبال وتحدثا عن كلّ ما جرى معهما. حاولت أوبال مجدداً هبوط الدرجات العشر ولكنّ الباب المحترق لا يزال يقاوم.

- قبل أن ينام، التحق رينيه بجيب كي يعلّمه الطريقة المثلى للإبحار. فعلّمه كيف يبقى محافظاً على وجهة سير المركب في الاتجاه الصحيح، حتى عندما تكون الوجهة عكس اتجاه الرياح.

أحياناً كان رينيه وأوبال يقومان بالخدعة السحرية «رغماً عني» التي تغيد

تذكيرهما مراراً وتكراراً بالسؤال ذاته الذي يستحوذ عليهما: «هل كلّ ما يجري لنا مكتوب مسبقاً في قدر لا يمكن تغييره؟».

70. مذكرات. أنانكي.

أنانكي في الأساطير الإغريقية هي آلهة القدر الحتمي.

إنّها تجسّد الضرورة الحتمية التي تتجاوز الإنسان. وهي ضرورة طبيعية وجسدية ومنطقية وإلهية. وسواء جرى تقديسها أو توجيه الاتهام إليها أو محاولة استثارة عطفها، فلن يغير هذا أيّ شيء، فهي تجسيد لعبارة «يجب أن».

ومع ذلك لا تعني أنانكي أنّ على الإنسان قبول كلّ شيء بإذعان. بل يتوجب عليه على العكس أن يتلاءم مع مجريات مصيره والمصير الجماعي للناس بطريقة متناغمة، دون أن يرغب في السباحة عكس التيار ودون أن يشتكي ويتذمر ممّا يحدث.

لم تكن هذه الإلهة قط موضع تقدير عند الإغريق، بل اعتبروها مصدر المشاكل. وعلاوة على ذلك، فإنّ أنانكي هي أمّ الأخوات مويراي الثلاث المشؤومات، فالأخوات الثلاث يقرّرن مصير الإنسان. وهنّ كلوثو التي تنسج خيط الوجود الإنسانيّ، والثانية لاشيس التي تصلح الخيوط المعطوبة بسبب العقد، والثالثة أتروبوس التي لا تسامح أبداً ونقطع الخيوط بالمقص، أي أنّها هي من يميت.

ومع ذلك، ابتداءً من عام 560 ق.م، بدأ هؤلاء الذين كانوا يعبدون أورفيوس بعبادة أنانكي باعتبارها إلهة في حدّ ذاتها.

إنّ كلمة «أنانكي» منقوشة على أحد الحجارة الأكثر وضوحاً في كاتدرائية نوتر دام في باريس، في إشارة إلى المبدأ الأساسي الذي يحكم العالم.

-71-

طالبَ العديد من الركاب في اليوم الثالث من الإبحار، بالاستدارة والعودة.

- من المحتمل أن تكون الجزيرة قد ظهرت من جديد، قال أحد الأطلانطسيين المتفائلين.

– ربّما لا تزال قمة البركان ظاهرة فوق المياه، اقترح رجل آخر.
– ربّما يكون هناك ناجون آخرون يطفون فوق ألواح خشبية.
– قد يكون هناك شاطئ أقرب باتجاه الغرب.

وهكذا، بعد الخوف والغضب والحزن، يكتشف الأطلانطسيون الآن الخلافات الداخلية. ولكن، بما أنّه لا يوجد سوى مركب واحد، لذا فهم لا يستطيعون الانفصال. احتدم الجدال أكثر فأكثر بين أولئك الذين يريدون المضي قدماً باتجاه الشرق، وأولئك الذين يريدون العودة إلى الغرب.

كلّ واحد فيهم مقتنع بأنّ رأيه هو الصائب، فارتفعت حدة النقاش أكثر، وحصل صخب ومن ثمّ تلته صفعة.

وبدأ العراك بالأيدي إلى أن أتى جيب الذي يحظى بنوع من السلطة كونه المنقذ وقائد السفينة، ونجح في تهدئتهم بتذكيرهم أنّه يجب عليهم قبل كلّ شيء البقاء على قيد الحياة كي يؤسسوا مستوطنة جديدة ويحافظوا على ذاكرة حضارتهم.

هدّأت نوت الركاب بترنيم الأغاني التي لم تكتفِ هذه المرة بتمجيد حضارتهم المندثرة، بل بإعلان ولادتها الجديدة على أرض جديدة. غالبية الأطلانطسيين شاركوها الغناء، وهذا ما زرع الطمأنينة قليلاً في قلوبهم.

فهم جيب أنّه ينبغي عليه تزويد مواطنيه بضمانات أخرى، لذا أدلى ببيان حدّثهم فيه عن رينيه. أعلمهم أنّ رجل المستقبل الذي جاء لزيارته قد أخبره مسبقاً بمكان محدّد حيث يستطيعون الاستقرار فيه بسلام.

ذكّرهم أنّ رينيه هو أول من بادر بمشروع الحفاظ على حضارتهم، وتخليداً لذكره، قرّروا تسمية هذا المركب *الرينيه*، ويقابلها في لغتهم لفظ شبيه بهذا «را– نيهي».

–72–

هدأت الريح في اليوم الثالث. فتمكن رينيه وأوبال أخيراً من قضاء بعض الوقت معاً. لذا أمضيا اليوم وهما يتناقشان عن التنويم المغناطيسي، والتقمص وعن حتمية التاريخ.

وبعدها خاضا في أحاديث أكثر حميمية، فتحدّثا عن خيبات أملهما في الحبّ، وعن مدى صعوبة تكوين علاقة متناغمة ومنسجمة.

-73-

كان جيب يحافظ على المسار الصحيح موجهاً قوس المركب باتجاه الشمس المشرقة، عندما اندلع فجأة، تمرّد على القارب. فقد تمكّن اثنان من مواطنيه من الإمساك به، بينما راح ثلاثة آخرون يديرون الدفة للانعطاف رجوعاً. فاستدار قوس المركب حتى أصبح باتجاه مغيب الشمس.

وقعت معركة بين هؤلاء الذين يريدون المضي قدماً وهؤلاء الذين يريدون العودة إلى الوراء. استمرّ القتال طويلاً. فقُتل واحد منهم.

فجّر هذا الحدث مشاعر جديدة بالنسبة إليهم، ممّا وضع حداً لهذه المشاجرات.

أُنزلت جثة الميت إلى الماء. فحملتها الدلافين قليلاً، قبل أن تتركها.

تراجع المتمردون عن مشروعهم خائفين.

وبعد هذا التمرّد، توجّب على الناجين المائة والثلاثة والسبعين الباقين أن يواجهوا داء الأسقربوط. وعانى العديد من الركاب من حمى جعلتهم لا يستطيعون الوقوف على أقدامهم. ولم تعد علاجاتهم التقليدية فعّالة.

وفي نهاية اليوم، حصد التمرّد والمرض أرواح ثمانية أشخاص، وأصبح بالتالي عددهم مائة وستة وستين أطلانطسياً.

-74-

وفي اليوم الرابع حاولت أوبال مجدداً الوصول إلى باب اللاوعي، ولكنّها أخفقت وحرقت نفسها من جديد. وعادت لتعاني من بقع الصدفية، ولكنّها مع ذلك، رفضت الاستسلام.

-75-

تتوالى المصاعب.

توجّب على جيب أن يواجه عاصفة جديدة، والمشكلة هي أنّ الشراع الذي ثُقب سابقاً بفعل الحمم البركانية قد تمزق الآن كليّاً. بادرت نوت

إلى التسلق حتى أعلى الصاري لخياطة القماش. وخلال قيامها بهذا العمل سقطت في الماء. ولحسن الحظّ فقد أنقذتها الدلافين التي نجحت في جعلها تصعد المركب من جديد.

ومن الغريب أنّ هذه الحادثة قد ألّفت بين قلوب الركاب الذين فهموا أنّ جيب ونوت هما الشخصان الأكثر شرعية في اتخاذ القرارات. لذا عادت الرحلة لتصبح أكثر استقراراً.

وهكذا، بعد اكتشاف الملاحة في عرض البحر، وتناول الأسماك، والمشاعر السلبية، والصراعات، والمرض، اكتشف الأطلانطيون مبدأ الثقة بقائد واحد. وأصبح من الواضح أنّه في وضعهم هذا، وكي يسير كلّ شيء على ما يرام، لم يعد لديهم الخيار. فقد فهموا أنّه يتوجب عليهم تفويض سلطة اتخاذ القرارات إلى شخص أو شخصين ممّن يبادرون إلى التحرك سريعاً ويمتلكون رؤية حكيمة عند وقوع أيّ حادثة أو طارئ.

-76-

وفي صباح اليوم الخامس للإبحار انتهز رينيه وأوبال فرصة توقف الرياح كلياً كي يرميا المرساة ويسبحا في مياه البحر الأبيض المتوسط.

وبعدها تناولا الغداء وأخذا حمام شمس على سطح القارب. إنّهما يستمتعان تماماً بلحظات الراحة هذه التي حظيا بها قبل أن يواصلا التوجه نحو الجنوب الشرقي.

أصبح رينيه وأوبال متآلفين بعضهما مع بعض أكثر فأكثر. ولتمضية الوقت، كانا يلعبان الشطرنج، ويستمعان لمقطوعة *الفصول الأربعة* لأنطونيو فيفالدي على جهاز الهاي فاي للمركب الشراعي حيث تُطلّ مكبرات الصوت فيه على قمرة القيادة.

أخذت رحلتهما تسير بروتين معين. ففي النهار يبحران ويلعبان ويأكلان، وفي المساء يتناقشان وعند الساعة 23:23 يلتقي رينيه بجيب. وقد قرّر جعل الأطلانطيين يبحرون في الاتجاه ذاته الذي يبحران فيه، وإسداء النصائح لهم لمساعدتهم.

-77-

اصطدمت سفينة «*را-نيهي*» بصخرة، فثُقب هيكل السفينة ممّا أثار الذعر بين الجموع.

حاول جيب ونوت السيطرة قدر الإمكان على ممر الماء الداخل الذي غمر قعر المركب. ولكنّ القارب بدأ بالغوص في الماء. فهبّ جميع الركاب يتناوبون على إفراغ الماء، بينما غاص جيب كي يسدّ الحفرة. وقد نجح في جعل هيكل المركب محكم الإغلاق من جديد.

وفيما بعد لم يعودوا يطلقون كلمة مركب على هذا المكان الذي يعيشون عليه، وإنّما فُلك، لأنّ هذه الكلمة تعني في لغتهم «مكاناً محمياً وتجب حمايته». ولم يعودوا يتحدثون عن مركب را- نيهي، وإنّما عن فُلك را- نيهي، ولاحقاً من باب الاختصار أسموه فُلك ني- هي.

-78-

اليوم السادس.

تتوالى الأيام وتتشابه. وبما أنّه ما يزال أمامهما وقت طويل للوصول إلى المرفأ المنشود، وبما أنّهما كليهما محبوسان وجهاً لوجه في هذا المكان المحدد داخل القارب، اقترحت أوبال على رينيه أن يتشاركا معارفهما.

علّمته التنويم المغناطيسي؛ كيف يجعل الآخر يركّز انتباهه، ومن ثمّ يتحكم به، وأخيراً يستخدمه لتمرير الأفكار.

شرحت له كيفية اكتشاف إن كان المتطوع متجاوباً. كما أخبرته أنّ المنوم المغناطيسي لا يفعل شيئاً، وإنّما الشخص المُنوَّم هو من يقوم بكلّ شيء. ولكن من أجل هذا، يجب أن يعرف كيف يحفزه كي تتكون لديه رغبة كافية بأن ينجح الأمر ويسير على أكمل وجه.

حدّثته أوبال عن أساتذتها في هذا المجال؛ فراز ميسمر، وجان مارتن شاركو، وسيغموند فرويد، وإريك إريكسون. شرحت له كيف طوّر هؤلاء العلماء فنّ التنويم المغناطيسي.

وعلّمها رينيه من جهته التاريخ، وكان سعيداً بمشاركتها رؤيته الشخصية

عن الماضي. روى لها عن بعض «الأخطاء التاريخية» التي تستحق بنظره التصحيح والتي قام بتدوينها في مذكراته.

79. مذكرات. الأخطاء التاريخية.

هناك العديد من المعلومات التي تستحق أن نذكرها:

في الحقيقة، لم يكتب هوميروس الأوديسة مطلقاً لسبب واحد وحجة مقنعة أنّه كان أعمى منذ الولادة. لقد كان شاعراً ملحمياً أي أنّه شاعر شفهيّ. من المرجح أن يكون معجبوه من كتبوا هذا النص.

لم يكن الفيلسوف ديوجانس الكلبي يعيش داخل برميل، لأنّ البراميل في أثينا ذلك الحين لم تكن قد وجدت بعد. ومع ذلك، من الممكن أن تكون جرة طينية ولكن ليس برميلاً.

لم تكن كليوباترا مصرية، وإنّما إغريقية. إنّها ابنة بطليموس، جنرال ألكسندر الأكبر. وكانت ترتدي دوماً اللباس الإغريقي ولا تتحدث إلّا الإغريقية.

ليس هناك أيّ دليل يثبت وجود القائد فرسن جتريكس. ونحن لا نعرفه إلّا من خلال قصة ألدّ أعدائه يوليوس قيصر. ففي الواقع، من المحتمل جداً أن يكون هذا الأخير قد اخترعه بمزج صفات عدّة قادة من زعماء الغال كي يمجّد نفسه. ولم يكن عليه بعدها سوى أن يحضر رجلاً ما من بلاد الغال ويقتله، ويطلق عليه بعدها اسم فرسن جتريكس، كي يعرض رفاته خلال استعراض نصره في روما.

كما أنّ الملك أتيلا الهوني لم يكن شخصية وحشية غير مثقف. بل كان يتحدث عشر لغات من بينها الإغريقية واللاتينية، ويمارس جميع الفنون في عَصره من الموسيقى والرقص والشعر.

لم يكن الملك شارلمان من أوجد المدرسة. فهو لم يعرف القراءة والكتابة وكان قائداً عسكرياً عنيفاً. وقد خُلقت هذه الأسطورة بجميع تفاصيلها لشرعنة المدارس للجميع.

لقد اغتسلنا في فرنسا عام 1200م، أكثر ممّا اغتسلنا في عام 1600م، ببساطة بسبب وجود الحمامات العمومية، أو ما يسمى بالحمامات الساخنة. وقد أغلقت هذه الحمامات وحظرت في نهاية العصور الوسطى، لأنّ البابا آنذاك كان يعتقد أنّ كون جميع المستحمين عراة، فهذا قد يثير إغراءات جنسية.

لم يستوحِ إسحاق نيوتن قانون الجاذبية الكونية على إثر سقوط التفاحة على رأسه، وإنّما بسبب سقوط قطته على وجهه. وكان فولتير هو من اخترع قصة التفاحة ليوضح للناس بطريقة يجدها هو سهلة التذكر، مبدأ سقوط الأجسام.

لم يخترع جوزيف جيلوتين المقصلة، بل اخترعها الطبيب أنطوان لويس. كان جيلوتين نائباً يرغب بتخفيف آلام المحكومين بالإعدام، فناشد المجلس من أجل استخدام طريقة إعدام أكثر «إنسانية» من الشنق أو قطع الرأس. وحينما تمّ استخدام المقصلة لأول مرة تحت اسم «لويزيت»، تنهدت الحشود شاعرة بخيبة أمل لأنّ مشهد الإعدام كان مقتضباً وليس ممتعاً كثيراً. هذا ما دفع الملك لويس السادس عشر الذي كان شغوفاً بالميكانيك، لتحسين هذه الفكرة مستخدماً شفرة بحدّ مائل. وهي التي أعدم بها لاحقاً هو نفسه.

لم تكن لحظة الاستيلاء على سجن الباستيل هي اللحظة الحاسمة في سقوط النظام الملكي في فرنسا. ففي الرابع عشر من شهر تموز/ يوليو عام 1789م، لم يكن في السجن سوى سبعة سجناء عاديين. وقد مات أغلب المتظاهرين الذين اقتحموا المبنى، إمّا بسبب الاقتتال الذي جرى فيما بينهم للحصول على البنادق، أو أثناء استخدامهم لهذه البنادق التي لم يكن لديهم الخبرة في استعمالها، فأصابتهم الطلقات في وجوههم.

إنّ جزءاً من مجد نابليون بونابرت يرجع في حقيقة الأمر إلى منعه للصحافة الحرة، فقد كان هو من يكتب بنفسه أو يُملي على الصحفيين المقالات التي لها صلة بالمعارك. كما أنّه كان هو صاحب هذه الجملة: «التاريخ هو سلسلة من الأكاذيب المتّفق عليها من قبل الجميع».

وقد عانى من جهة أخرى نابليون الثالث من سمعة سيئة بسبب حملات التشهير المنهجية التي أطلقها الكاتب النجم آنذاك فيكتور هيغو. وفي الواقع كان نابليون الثالث أول رئيس دولة فرنسي ينتخب بالاقتراع العام. وهو الذي طوّر شبكة واسعة من الطرقات والسكك الحديدية، وساهم في إطلاق الاقتصاد الحديث بتشجيع إنشاء البنوك ودمج الاقتصاد بنظام مالي مبتكر.

لم يقطع الرسام فينسنت فان كوخ أذنه بنفسه. فبحسب الشهود، فقد فان كوخ أذنه أثناء عراك مع صديقه غوغان وقد كانا كلاهما مخمورين.

تقول الأسطورة إنّه لا توجد جائزة نوبل في الرياضيات لأنّ زوجة ألفريد نوبل خانته مع رجل رياضيّ. ولكن في الحقيقة أنّ ألفريد نوبل لم يتزوج على الإطلاق. وكان يعتبر هذا الأخير أنّ الرياضيات ببساطة هي علم شديد التجريد لدرجة العبثية.

لم يخترع والت ديزني شخصية ميكي ماوس من أجل تسلية ابنته على الإطلاق. لقد قام فقط باستعادة عمل رسام مغمور اسمه آب أيوركس سبق أن وظفه عنده.

المشهد الثالث

مصر

-80-

أخيراً.

بعد خمسة عشر يوماً من الإبحار من ميناء هييريس، وصلت *السمكة الطائرة* إلى قبالة الشواطئ المصرية.

بما أنّ رينيه لا يعلم إن كانت هناك مذكرة توقيف دولية قد صدرت ضده، فقد فكّر أنه من الأفضل له البقاء حذراً، لذا عوضاً عن الذهاب إلى مدينة كبيرة، اقترح الرسوّ في محطة منتجع مرسى مطروح التي تبعد حوالي 300 كم غرب الإسكندرية.

اقتربا من الشواطئ ودخلا المرفأ الصغير وربطا مركبهما على رصيف الميناء. عندما جاء مسؤول مصلحة الجمارك لاستلام جوازات سفرهما والقيام بتفتيش المركب، عرضت عليه أوبال إعطاءه ورقة من فئة المائة يورو. فتضايق المصري.

– هل تحاولين رشوتي بالنقود؟ واجهها المصريّ بلغة إنكليزية متمكنة.

اقترح عليه رينيه أربعة أوراق إضافية.

– لقد جعلت الوضع أسوأ، أعتقد أنّي سأذهب لإحضار زملائي وسوف نفتش هذا القارب الذي يبدو لي أن أمره مريب جداً. ماذا فيه مخدرات؟ أم كحول؟ أم سجائر؟ هل أنتم مجرمون؟

ولكنّ أوبال وبردة فعل منها، وضعت يدها على كتفه.

- كلا، لن تفعل ذلك، قالت هذا وهي تنظر مباشرة في عينيّ الرجل المسؤول.

- ولمَ لا؟

- لأنّك متعب، لا بل متعب جداً.

- كلّا، أنا بخير.

- بلى، أنت تشعر بأنك منهك، فعملك مضن على الأرجح، ويتطلب منك القوة، وأنا سوف أساعدك. انظر إلى قلادتي فهي تمتلك قدرة سحرية تجعل الناس يسترخون.

تردّد في اتباع أسلوبها الغريب، ومن ثمّ وبدافع الفضول، ألقى نظرة على القلادة المتدلية على رقبتها.

- لا تصرف نظرك عنها، سوف تشعرك بالراحة.

خلعت قلادتها ذات الدلفين اللازوردي واستخدمتها كبندول.

- اتبعِ السمكة، لا تُشح بناظريك عنها. سوف تبهرك وتمنحك الطاقة. اسمح لهذه الطاقة بالعبور إليك. سوف تشعر بالتعب يزداد أكثر فأكثر، ولكنّك ستواصل التحديق في هذا الدلفين. والآن، أسمح لك بالقيام بأكثر شيء ترغب به في هذه اللحظة وهو أن تغمض عينيك.

استجاب مطيعاً.

- اسمعني جيداً، إنّ صوتي هو الصوت الوحيد الذي تسمعه وهو الذي سيقودك. لذا دعه يرشدك إلى ما ينبغي عليك فعله. سوف تذهب لتقول لزملائك إنّ كلّ شيء على ما يرام على هذا القارب، أليس صحيحاً؟

- نعم.

- إن فعلت ما طلبته منك، ستكون سعيداً. ولكن في البداية عليك أن تجري لنا جميع الأوراق الرسمية.

أومأ الرجل برأسه موافقاً.

- ولأنّك ستفعل ذلك سوف يتصلح كلّ شيء في حياتك. ولكن إذا

قمت بخيانتنا، لن تأتيك سوى المصائب. سوف تصاب بمرض خطير، وسيتخلى عنك الحظ، ولن يعد يحبّك أحد. أترغب بذلك؟

- كلا، لا أرغب بهذا.

- إذاً فالخيار لك. افعل ما يبدو أنّه الأفضل بالنسبة إليك. وعندما أعدّ حتى الثلاثة سوف تفتح عينيك وتشعر بأنّك في حالة مثالية. وستكون رغبتك الوحيدة هي تسهيل الحياة علينا نحن أيضاً. واحد... اثنان... ثلاثة.

فرقعت بأصابعها. بدا شكل رجل الجمارك كأنه فهم لتوه أمراً مهماً.

ما إن ذهب حتى سألها رينيه وهو ما زال مشدوهاً.

- إنّ هذا مثير حقاً، هلّا شرحتِ لي كيف نجح هذا؟

أكملت أوبال تعليمها له.

- يشبه هذا وجود قائد أوركسترا في ذهننا. والتنويم المغناطيسي يسمح لنا أن نقترح على قائد الأوركسترا أن يستريح لنأخذ مكانه بعض الوقت. ويكفي أن نطلب منه هذا بطريقة لطيفة وفي سياق حديث يقبله الآخر دون أن يشعر بأنّه يتعرض للخداع. أي أنّ عليه أن يشعر بالثقة. لذا، نحن نأخذ مكان قائد الأوركسترا في ذهنه ونقود الموسيقيين بشكل مختلف. وهنا أيضاً أستخدم مبدأ الاقتراح- القبول. وبمجرد أن يعود قائد الأوركسترا إلى مكانه، نستطيع الاقتراح على الموسيقيين عزف نغمة أخرى غير تلك التي اعتادوا عزفها.

- وهل نستطيع أن نعارض القناعات والإرادة الحرة للشخص؟

- كلا، يجب على الشخص أن يقبل أو على الأقل ألّا يكون لديه اعتراض على أن يُنوّم. بعدها، يجب تقديم اقتراحات تكون مقبولة له. فمثلاً، لا أعتقد أنّه كان باستطاعتي أن أطلب من رجل الجمارك هذا أن يتعرّى أمامي. فهذا الأمر سيتصارع بشدة مع فكرة الحياء والحشمة التي غرسها والداه في ذهنه. يجب على الأخص ألّا تتعارض الأوامر مع قيم ومبادئ الشخص. وعلى العكس، يجب مرافقته في الاتجاه الذي يرغب بالذهاب فيه مسبقاً دون أن يعلم ذلك. هيّا، لنخرج من

هنا، بدأت أسأم من البحر، أريد السير على أرض اليابسة.

وصل الاثنان مرتديين ملابسهما السياحية الأوروبية الغريبة إلى هذه المدينة الصغيرة التي لا تصنف من بين أفضل المناطق السياحية في مصر، والتي يبدو أنّ لها شعبية أكبر لدى المصريين منها لدى الغربيين.

ركض الأطفال من فورهم حينما شاهدوهما وقدّموا لهما، بدافع التسول، أدلة سياحية كما حاولوا بيعهما أهرامات صغيرة مصنوعة من حديد مذهّب. وأخذ الجميع يصرخون بالكلمة ذاتها: «يورو، يورو».

قام الفرنسيان بإعطائهم بعض المال، الأمر الذي أدّى إلى مضاعفة أعداد الأطفال حولهما. قاما بشراء دليل سياحي ومن ثمّ ذهبا إلى فندق «بوسيت»، وهو مبنى حديث يقع على الواجهة البحرية. ويحرس محيط هذا الفندق جنود مسلحون وعربة مصفحة. كما هناك نقطة تفتيش قبل الدخول إلى المنطقة السياحية، ولكن في هذه النقطة لم يطلب منهما أوراقهما الرسمية، فلباسهما السياحي ومظهرهما الغريب كانا كافيين للتعرف عليهما كسيّاح.

خطّطا لقضاء ليلة مريحة في هذا الفندق. فهو مبنى ضخم على شكل حرف U ويطلّ مباشرة على شاطئ خاص، حيث توجد في وسطه أيضاً حديقة من أشجار النخيل.

وضع الفرنسيان حقائبهما، واستحمّا ووضّبا أغراضهما ومن ثم ذهبا لتناول العشاء في مطعم «البانوراما»، الذي يواجه البحر. بعد أن طلبا وجبتي كسكس مع الخضار، شعرا بالارتياح حين عرفا أنّ المطعم يقدّم النبيذ. راح رينيه يقلّب الدليل السياحي.

وجد الصفحة التي تروي تاريخ المكان.

– لقد كان لمرسى مطروح وجود في مصر القديمة. فقد أطلق عليها ألكسندر الأكبر اسم أمونيا، ومن ثمّ أطلق عليها الرومانيون اسم بارايتونيوم. وفي هذا المكان التقى مارك أنطوان بكليوباترا وهنا بدأت قصة حبّهما.

وهنا أرغب بشدة أن تبدأ قصتي معك.

– كفى حديثاً عن التاريخ! ما هي خطتك فعلياً الآن؟ سألته أوبال.

- سوف أرشد جيب للقدوم إلى هنا. وبعدها سوف أشجعهم على بناء مستوطنة أطلانطسية.
- وماذا سيغير واقع وجودنا هنا؟ لقد كنت تستطيع أن تنجز هذه المهمة من أيّ مكان آخر.
- أريد أن أقترح على جيب أن يترك في مكان ما هنا دليلاً حسّياً غير قابل للدحض يثبت حقيقة وجودهم. ولو أنّني حدّدت المكان ببساطة على خريطة أو بمساعدة الإنترنيت، لن يكون بإمكاننا تعقبه على أرض الواقع ولا استعادة هذا «الدليل الحسّي».
- ولكنّ هذا الدليل غير موجود في الوقت الحالي، أليس صحيحاً؟
- يجب على جيب صنعه. سوف أحدّثه بالأمر هذا المساء.
- كانت هذه هي خطتك منذ البداية؟
- في جميع الأحوال، لم يكن بإمكاني البقاء في فرنسا خشية أن ينتهي بي المطاف في السجن أو الأسوأ من ذلك... العودة إلى تشوب.

شعر بالقشعريرة عند تذكره العلاج الذي أخضعه له الطبيب النفسي الجلّاد. شرع يأكل طبق الكسكس محاولاً إخراج هذه الصور من ذهنه.

- ما لا أفهمه هو أنتِ يا أوبال. لقد تخليتِ عن كلّ شيء كي تتبعيني وحتى إنّك خاطرت بأن تتهمي بالتواطؤ معي. سوف تخسرين كلّ شيء ببقائك معي.
- حسناً، سوف أقول لك الحقيقة؛ بداية، كما قلت لك سابقاً، أنا مقتنعة أيضاً بأنّني كنت أطلانطسية. ثانياً، أعتقد أنّنا سبق أن التقينا أنا وأنت في حياة سابقة، وأنّه لديّ أشياء مهمة عليّ إنجازها معك. وثالثاً، أعرف في قرارة نفسي أنّه لا أحد سواك قادر على تدمير باب اللاوعي اللعين ذاك.

بينما كان يقدّم النادل لهما زجاجة نبيذ «كروم النيل» محلية الصنع، خطرت هذه الفكرة ببال رينيه:

- «برأيي أنّك لست» سوى «هذا الشخص الذي تظنّين نفسك عليه، إذاً هل تتذكرين من كنتِ حقاً؟»
- ما الذي تريد قوله؟

– بهذه الجملة كنت تفتتحين عرضك يومياً، أليس كذلك؟ حسناً، قد تكون هذه الجملة هي مفتاح قفل الباب لديك.

– لم أفهم.

– ربّما لم تحكِ لي القصة الحقيقية لماضيكِ.

– لقد أخبرتك بها سابقاً؛ إنّني أعاني من فرط الاستذكار، أتذكر كلّ شيء بكلّ تفاصيله.

– على الرغم من ذلك، يمكن أن تكوني قد نسيتِ أو خبأتِ أشياء دون أن تعي ذلك أصلاً. نحن جميعاً سجناء لقصة نرويها عن أنفسنا حتى وإن كانت خاطئة.

– الماضي الذي حدثتك عنه هو الحقيقة.

– هي «الحقيقة» من وجهة نظرك، مثلاً: قلتِ لي إنّ طفولتك كانت رائعة، مع والدين مدهشين كانا يحبانك. ولكن لديّ شكّ. ماذا لو كانت هناك كذبة تحيط بماضيك الذي تزعمين بأنّه سعيد جداً، والذي قمت «بتذكره» جيداً؟

ملأ لها كأس نبيذ، ولكنّها أومأت إليه بأنّها لا تشعر بالعطش.

– اشربي.

– لا أرغب بهذا.

– إنّه مع ذلك الدواء لمشكلتكِ. قال رينيه باللاتينية: (In vino veritas)، «الحقيقة في الخمر». أعتقد أنّك تراقبين نفسك كثيراً ومنذ أن تعرفت عليكِ، لم أرَكِ تشربين قط إلى حدّ السّكر. كما لو أنّك تخافين حقاً من الاسترخاء.

نظرت إليه بشكل مختلف، ومن ثمّ تنهدت ببطء.

– لا أحبّ شرب الكحول كثيراً، هذا كلّ ما في الأمر.

– تخافين من فقدان السيطرة على نفسك؟ إذاً سأطرح عليك هذا السؤال: ما الذي يخيفك يا أوبال؟ لقد قلتِ لي بنفسك إنّك تعتقدين أنّني الوحيد القادر على مساعدتك في فتح باب اللاوعي. ثقي بي، فهذا ليس أكثر من مساعدة كيميائية صغيرة، أليس صحيحاً؟

ترتكز تقنية البرمجة اللغوية العصبية على استخدام اللازمات اللغوية عينها التي يستخدمها الشخص المقابل لإقناعه لا شعورياً بأنّنا متشابهان.

قبلت أوبال أن تشرب القليل.

– اشربي أيضاً. أريد أن أراك في حالة سكر تام.

– وأنت، ألا تريد أن تشرب؟

– لا يحتاج الطبيب أن يتناول الدواء الذي يصفه للناس، تهرب رينيه بهذه الطريقة.

شربت أوبال أيضاً بضع رشفات. وحينما شربت الكمية التي قدّر رينيه بأنها كافية، أصبح بصعوبة يمكن إيقافها عن الضحك.

– أعتقد أنّني ثملة، قالت أوبال. هذا ما تريده، أليس صحيحاً؟

– عظيم. حسناً، سأطرح عليك بعض الأسئلة وعليك الإجابة عليها دون تفكير.

أمسك بيديها وشدّ عليهما بقوة.

– أغلقي عينيكِ.

أطلقت ضحكة صغيرة لم تستطع كبتها، قبل أن تنفذ طلبه.

– ما هي أول ذكرى سيئة تخطر في بالك عن طفولتك؟

فتحت عينيها فجأة. فقال رينيه بلهجة قاسية:

– هل تريدين حلّ مشكلتكِ أم لا؟

أغلقت عينيها من جديد.

– أوه حسناً... في ذاك اليوم حيث...

قطّبت حاجبيها.

– كنت في ساحة المدرسة خلال الاستراحة... لا بدّ أنّ عمري كان ثمانية أعوام... وصلت فتاة إلى جانبي، واقتربت مني كما لو أنّها كانت تخشى من ردّة فعلي، ومن ثمّ وجّهت إليّ صفعة وصرخت...

توقفت أوبال عن الحديث.

– ماذا بعد؟ سأل رينيه.

- صرخت... «القذرة صاحبة الشعر الأحمر والرائحة النتنة» !
عبس وجهها كما لو أنّ هذه الشتيمة قد أُطلِقت الآن من جديد في وجهها.
- الفتيات جميعهنّ سخرن منّي ورحن يصفقن. لا بدّ أنّها كانت قد اعتبرت قيامها بهذا الأمر تحدّياً لها. «أنا أراهن أنّني قادرة على صفع أوبال وشتمها».
- وأنتِ كيف تفاعلت مع هذا؟
- لحقت بها كي أردّ لها الصفعة. كنت غاضبة والدموع تنهمر من عينيّ، ولكن لم أكن أركض بالسرعة الكافية. كان جميع التلاميذ ينظرون إليّ وأنا أتبعها دون جدوى فسخروا مني أكثر. ومن ثمّ...
توقفت عن الكلام، وبقيت الجملة معلقة.
- ومن ثمّ؟
كونها لم تعد تستطيع التحدث، ملأ لها كأس نبيذ آخر. وبما أنّ عينيها كانتا مغلقتين، وضع برفق حافة الكأس بين شفتيها وسكب لها النبيذ برويّة في فمها حتى تستمر في الشرب دون انقطاع.
راح زبائن المطعم يراقبونهما من بعيد.
- احكي لي يا أوبال ما الذي جرى بعد ذلك.
- بعدها رنّ الجرس ودخلنا جميعنا إلى الصف. ولكنّني كنت لا أزال غاضبة من الصفعة والشتيمة. وكنت أشعر أنّ جميع نظرات التلاميذ موجهة نحوي، نظرات رضا كما لو أنّ تلك الفتاة كان لديها الشجاعة لتقول بصوت مرتفع ما كان الجميع يفكر فيه في سرّهم. رحت أبكي وأشهق بقوة، لذا سألني الأستاذ لماذا أنا على هذه الحال. ولم أجبه بشيء. تولى زميلي في المقعد الكلام قائلاً: «إنّها فيولين يا أستاذ من وصفت أوبال بالقذرة ذات الشعر الأحمر والرائحة الكريهة». وانفجر الجميع ضاحكاً من جديد. وقفت فيولين وقامت بإشارة نصر كي تظهر أنّها تتبنى كلياً ما فعلته، مثل مصارع ثيران قد غرس لتوّه أوّل سهم في جسد الثور، وهذا الثور هو أنا. قال الأستاذ: «جيد، اهدأوا جميعكم، وأنت يا أوبال إن لم تتوقفي عن البكاء فسأطردك خارجاً!» قال لي

ذلك كما لو أنّني كنت أنا المخطئة. ومع ذلك، لم أستطع التوقف عن البكاء، لذا كرّر الأستاذ: «إن لم تهدئي يا أوبال فسوف أطردكِ خارجاً». وبما أنّني رغم ذلك لم أكن قادرة على ضبط نفسي، فقد أمرني الأستاذ بالخروج من القاعة، وعاد الجميع ليضحكوا عليّ من جديد. كما أضاف: «سأدعك تعودين إلى الصف حينما تهدئين»، وبما أنّني لم أهدأ، لم أشأ الانتظار وراء باب الصف، فعدت إلى المنزل. ولم أجرؤ على إخبار والديّ بما جرى.

توقفت أوبال.

- وبعدها؟

- في الأيام التالية، شعرت أنّ عيون التلاميذ أصبحت منذ ذلك الحين تنظر إليّ على أنّني «الفتاة القذرة ذات الشعر الأحمر والرائحة الكريهة»، التي علاوة على ذلك لم تكن قادرة على الانتقام لنفسها. وفكرت في نفسي أنّه لن يستطيع أيّ أحد مساعدتي، لا الأساتذة ولا التلاميذ الآخرون ولا عائلتي. لذا أدركت شيئاً فشيئاً أنّني وحيدة في عالم عدواني وسيبقى حالي هكذا إلى أن أموت.

أمسك رينيه يدها مظهراً دعمه ومساندته لها.

- هذا ليس كلّ شيء، فقد عادت إلى ذهني ذكرى سيئة أخرى عشتها أثناء مراهقتي، اعترفت أوبال.

- هيّا، أنا أسمعكِ.

- بعد هذه القصة بوقت طويل. كنت أجلس في الصف الأول من المسرح، وأنا أتابع بكلّ إعجاب أحد عروض والدي. وفجأة، ظهرت أمي، وصعدت مباشرة إلى المسرح في منتصف عرض خدعة الفتاة التي يتمّ تقطيعها بالسيف داخل الصندوق، ووجهت كلامها للمرأة قائلة: «هل تعتقدين أنّني لا أعرف أنّ زوجي يخونني معك أيتها العاهرة!» وقامت بالتزامن مع كلامها بكشف قاع الصندوق المزدوج ممّا سبب لأبي الإحراج الشديد أمام جميع المشاهدين.

- لهذا السبب توليت منصب مساعدته على ما أفترض.

- أصبح والداي بعد هذا يتشاجران طوال الوقت، كانت أمي تتهم أبي أنّه يصعد على المسرح لغاية واحدة وهي غواية النساء، وقد أرادت منه أن يتوقف عن العمل. وكان أبي يرفض ذلك قائلاً إنّ السحر هو حياته. بدأت أمي تشرب الخمر، وقد أصبحت عنيفة وعدوانية، حتى معي أنا. في أحد الأيام رأيتها مستلقية ونظرها يهيم في البعيد وهي تكرّر قائلة إنّها خسرت حياتها، وإنّها فاشلة. كانت تتعالج بأدوية مضادة للاكتئاب، وهذه الأدوية كانت تريحها ولكنّها لم تعد تقوى على فعل شيء سوى النوم، وعندما تستيقظ تبدو خائرة القوى كلياً. وكانت مع ذلك، تصرّ على متابعة عملها كطبيبة نفسية، ولم يكن مرضاها يعرفون أنّ صحتها النفسية أسوأ من صحتهم، ولم يكن شكلها مقبولاً إلّا بوضع مستحضرات التجميل التي تخفي وجهها الحقيقي.

صمتت أوبال بعض الوقت وهي تتخيل من جديد هذه الصور أمامها، ومن ثمّ ختمت قصتها.

- قلت لنفسي: «لن أصبح مثلها أبداً». مع ذلك، لا أعرف لماذا انتهى بي الأمر بأن أدرس دراستها نفسها، لقد خضت تلك «التجربة» حتى النهاية، وانتهى الأمر بي أخيراً إلى ممارسة مهنة والدي.

أجهشت بالبكاء بين ذراعي رينيه الذي راح يهدئها. فتحت عينيها وإذ بجميع الزبائن الآخرين يراقبونها من بعيد وقد ازداد عددهم.

- ستسير الأمور على ما يرام، لا تقلقي. إنّها حياة طبيعية، قال رينيه. جميع الناس يعيشون أشياء مشابهة، والأمر وما فيه أنّك كنت تخفين هذه الأشياء داخلك. والآن، أنت تواجهين الواقع وربّما يكون بمقدورك هذا المساء أن تحاولي فتح باب اللاوعي، فبعد أن فتحت باب ذكريات طفولتك، سيأتي دور باب اللاوعي.

- ليس هذا كلّ شيء، قالت أوبال. فبعد ذلك ازداد الوضع سوءاً، ولكن لم يشأ والداي أن يتطلقا قط. وأكملت والدتي بالتشهير وإساءة سمعة عمل والدي أكثر فأكثر. كما صارت تشتمه، أمّا والدي فكان يصفها من

جهته بالمجنونة. وازدادت شراهة أمي للتدخين كثيراً إلى أنّ توفيت بسرطان الرئة.

حاولت أوبال الابتسام رغم عيونها الدامعة.

- لدينا جميعنا جثة أو عدّة جثث مخبأة في الخزانة.

- كان لهاتين القصتين تأثيرٌ حاسمٌ على حياتي كلها. فأصابني وسواس أن أكون «ذات الشعر الأحمر والرائحة الكريهة»، لذا صرت أدهن نفسي بالعطر، وأعتقد أنّني كنت أضع الكثير منه، لا بدّ أنّني كنت أشعر بأنّ رائحتي غير جميلة.

- أنا أجد أنّ رائحتكِ جميلة، حتى دون عطر.

- لقد صبغت شعري باللون الأشقر، وبعدها بالبني. وبالنسبة لوالديّ فقد اخترت أخيراً معسكري، يعني أنّني ذهبت إلى خطّ والدي، فقد تخلّيت عن مهنة أمّي من أجل العروض السحرية ومن بعدها التنويم المغناطيسي.

ناولها محرمة مسحت بها دموعها وأنفها وبعدها شربت كأس النبيذ الأحمر دفعة واحدة.

- اعذرني، إنّ هذا كما لو أنّك فتحت صمّام ماء دون أن يستطيع أحد إيقاف جريانه.

- الماء يطفئ النار.

نظرت إلى رينيه بجدية.

- هل تظنّ أنّ هذه التجربة قد تساعدني في فتح باب ذكريات حيواتي السابقة؟

- لقد جعلتِ المرحلة التي تمتدّ منذ ولادتك إلى الآن تجري بسلاسة، ونأمل أن يكون ذلك قد فتح الباب أيضاً على حيواتك السابقة.

- ولكن لا يزال هناك سؤال في ذهني، تلك الفتاة التي شتمتني، فيولين... لماذا فعلت هذا؟

- من المرجح أنّ لها أيضاً مشاكلها الخاصة التي جعلتها تفكر أنّها إذا سبّبت الألم لفتاة أخرى فهذا سوف يريحها.

- هل تعتقد أنّ هناك أناساً أشراراً بطبعهم؟

- لا بدّ أنّ لهم أسباباً محددة لطبيعتهم الشريرة هذه. رأيت ذلك مع

الطبيب تشوب الذي كان على ما يبدو طبيباً نفسياً يستمتع بتعذيب مرضاه كي يشعر بقدرته على السيطرة وامتلاكه السلطة الكلية. كان دافعه الأساسي برأيي هو عقدة النقص التي يشعر بها.

- عذر سهل.

- أنت محقة، يجب عدم البحث دائماً عن أعذار واقعية للناس الذين يسعون لجعل الآخرين تعساء. ولكن بحسب ما سمعته عن مسيرة حياتك، فأنت قد عشت فترة المراهقة بميزات وعقبات متوازنة.

قاطعهما ضجيج خارجي، فقد أشغل النادل التلفاز الكبير، فتجمع العديد من الزبائن حوله لمتابعة مباراة لكرة القدم.

شعر رينيه وأوبال بأنّ هذه بالنسبة إليهم إشارة بأنّ عليهما الخروج.

- أنا مستعدة، قالت أوبال. لنرجع إلى غرفتنا ونقوم بجلسة تنويم مغناطيسية قبل أن يحين موعدك عند الساعة 23:23.

شعر من جديد أنّه يرغب بعناقها، ولكنّه عدل عن ذلك.

-81-

حرقت المياه المالحة جلده، ولكنّ جيب ما يزال ممسكاً بدفة فُلك ني-هي.

بعد الأضرار المتعددة التي تعرضوا لها من حالات التمرد والعواصف، وصلوا إلى سواحل القارة التي حدثهم عنها رينيه قائلاً إنّها ستسمّى ذات يوم بأفريقيا. توقفت الدلافين عن مرافقتهم.

تبعاً لنصائح الرجل «الذي سيكون عليه في المستقبل»، اجتاز الأطلانطسي مضيق جبل طارق كي يغوص في البحر الأبيض المتوسط. سار على محاذاة شواطئ شمال أفريقيا ماراً قرب المناطق التي ستسمى لاحقاً بالمغرب والجزائر وتونس وليبيا، بغية الوصول إلى شواطئ مصر.

ولكن حين اقترب فلك ني- هي أخيراً من تحقيق هدفه، أصبحت الأمواج أكثر علواً، وهبّت الريح من جديد، وبدأ هيكل السفينة الخشبي يتعرض لضربات من الريح الهوجاء أشدّ من سابقتها.

أشار صوت تمزّق إلى أنّ الشراع الكبير قد تشقّق طولياً بكامله. أمّا في الداخل، فقد تمسّك من كان على القارب بكل قواهم بأي شيء يرتبط بهيكل السفينة. أخذ فلك ني- هي يصعد ويهبط ويتمايل يميناً وشمالاً. وبعدها سمعوا صوت انكسار آخر فعرفوا أنّ العارضة قد تحطمت للتو بعد اصطدامها بالصخور الظاهرة فوق البحر.

قامت موجة أشدّ علوّاً من بقية الأمواج برمي هذا الصحن الخشبي نحو الشعب المرجانية. فتحطّم القارب بعد أن تكسّرت ألواحه الخشبية.

وجد جميع الركاب أنفسهم في البحر.

قبل أن يتمكن جيب من القيام بأيّ شيء، فقد الناجون الأطلانطسيون المائة والستة والستون كلّ مرتكز لهم، وراحوا يتخبطون في الماء مثل سُدادات الفلين الطافية. كانوا يصعدون ويهبطون فوق الأمواج المزبدة، يتقاذفهم غضب عناصر الطبيعة، فالرياح والمياه تحاوطهم.

ما إن اطمأنّ جيب على زوجته وأولاده الأربعة، حتى ارتجل خطة لمحاولة إنقاذ المجموعة. فاقترح على جميع الغرقى الإمساك بعضهم بأيدي بعض مشكلين حلقة دائرية، وحذّرهم من إفلات أياديهم، وبهذه الطريقة يكون لكلّ شخص اثنان يساندانه. اقترحت نوت ترنيم أغنية لتزرع في نفوسهم القوة والشجاعة.

وفي هذه اللحظة بدأت العاصفة. أضاءت أنوار البرق هذا المشهد لنهاية العالم، وهذه الوجوه البشرية الطافية على سطح البحر التي لا تتوقف مع ذلك عن الغناء.

قذف الموج بعض الأطلانطسيين خارج الدائرة، دون أن يستطيع أحد إنقاذهم. والأيدي التي كانت تمسك بهم تفرقت، فراحت تبحث عن أيدٍ أخرى كي تغلق الدائرة من جديد.

وهكذا وصل ركاب فلك ني- هي إلى الشاطئ حيث رقدوا بعض الوقت على الرمال.

نزعت أوبال برفق سترتها وحذاءها، ومن ثمّ تمدّدت على السرير وأغلقت عينيها. استأنف مرشدها في جلسة التنويم المغناطيسي التراجعي طقوسه.

- هل أنتِ جاهزة؟ حسناً، اهبطي الدرجات العشر للسلّم. تشاهدين الباب، أليس صحيحاً؟

اللعنة، لقد استخدمت هذه المرة أيضاً اللازمة اللغوية ذاتها التي تستخدمها هي.

- نعم، أراه.
- الآن، تخيلي أنّ جميع الدموع التي ذرفتها في مراهقتك قد تجمعت بشكل من الأشكال داخل صهريج، وسوف تقومين بإفراغه كله على باب اللاوعي.

عبس وجهها وراحت عيناها تتحركان تحت جفنيها.

- تمّ الأمر، لقد صببت الماء على الباب.
- إذاً افتحي قبضة الباب.

قطبت حاجبيها ومن ثم استرخت فجأة.

- تمّ الأمر! لقد نجحت في فتحه!
- ماذا تشاهدين الآن؟
- أشاهد الممرّ. أقصد الممر ذا الأبواب المرقمة.
- استديري خلفك وانظري ما هو رقم بابك هذا.
- رقمه مائة وثمانية وعشرون.
- إذاً هذه حياتك رقم مائة وثمانية وعشرين، وأمامك مائة وسبعة وعشرون باباً لحيواتك السابقة، هل هذا صحيح؟
- نعم، ولكن هناك مشكلة. صحيح أنني أطفأت باب اللاوعي بدموع طفولتي وتوقف عن الاحتراق، ولكن ما تزال هناك نيران مشتعلة في الممر.

- أرسلي مياه دموعك أيضاً لإطفائها.
- أتقدم في الممر. أر...
توقفت أوبال عن الكلام.
- أرى الباب الذي تأتي منه النيران. إنّه باب حديدي أحمر. إنّ النار تحيط بالباب.
- ما هو رقم هذا الباب؟
- ثلاثة وسبعون.
- كان لديك مشكلة في طفولتك، ولكن يبدو أنّ هناك أيضاً صدمة مرتبطة بالنار في حيواتك السابقة، هناك شيء ما يمنعك من التقدم في هذا الممر. هيّا، اسكبي الماء على هذا الباب وافتحيه.
عاودت التركيز من جديد.
- حسناً، لقد فتحته.
انقبض وجهها كلّه بتعبير يدلّ على الألم.
- ماذا تشاهدين؟
حرّكت عينيها تحت جفنيها بسرعة جداً وحاولت أن تظهر ابتسامة متكلفة.
- كلّا، ليس هذا! تمتمت أوبال.
- قولي لي ماذا تشاهدين!
- نحن... نحن مجموعة من النساء. أعرف أنّ هؤلاء النسوة هنّ صديقاتي، نساء رائعات، ربما يبلغ عددنا مائة، كلّا، بل عدّة مئات. و...
- ماذا؟
- نحن مقيدات بالسلاسل. نمشي على طريق طويل، وفي طريقنا يصرخ الناس: «الموت للساحرات» وهناك القليل منهم يصرخ: «هذا ظلم! هذا ظلم!»، وأمامنا أعمدة في وسطها حزم من الخشب... إنّها محرقة. أعتقد أنّ غالبية هؤلاء الناس يتهموننا بممارسة السحر، والجنود يقودوننا لإحراقنا أحياء في هذه المحرقة.

- أكملي.

- وصلنا إلى أمام هذه الأعمدة. جعلونا نصعد إلى المنصة. ربطوا كلّ واحدة منّا على عمود. وصل بعدها رجل يرتدي ملابس أنيقة، فعمّ الصمت. فتح لفافة من الورق.

صمتت، يبدو كأنّها تستمع لشخص يكلمها.

- إليك ما يقوله: «أنا القاضي بيير دي لانكر المكلف من قبل الملك والبابا للتحقيق حول قضية ما يسمى «ساحرات زوغاراموردي»، بعد استجوابي وسماعي لشهادات متطابقة حول السلوكيات الشنيعة التي تؤكد تجارتهنّ مع الشيطان والأبالسة، أصدر أمراً بتطهير هؤلاء النساء. يطبّق قرار هيئة المحكمة في سان جان دو لوز في شهر تشرين الثاني/ نوفمبر من عام 1609م».

أصاب أوبال بعض التشنجات.

- ماذا يجري؟

- قرّب الرجل الشعلة مني، وبدأت أعاني وأنا مقيدة. رأيت صديقاتي النساء الأخريات اللواتي بدورهنّ رُبطن على الأعمدة. أعلم لمَ يقتلوننا، لأنّنا أردنا أن نكون أحراراً، وهذا ما أثار حفيظة المتدينين والأرستقراطيين في المنطقة. أحقد على هؤلاء الذين سيقتلونني، وأشعر بعاطفة هائلة تجاه صديقاتي. كنت أرغب في إنقاذهنّ بشدة. ولكنّ النيران بدأت تشتعل في حزمة الخشب تحتي. أصبحت محاطة بالدخان. أسمع صراخ بقية النساء، وأنا أيضاً أشعر بالنيران بدأت تلامس أطراف أصابع قدميّ. إنّه شعور مرعب، لقد بدأت بالاحتراق، فالنيران التهمت قدميّ حتى وصلت إلى شعري. وبدوري رحت...

أخذت أوبال تصرخ بقوة، ولم يكن بوسع رينيه سوى أن يضع يده على فمها كي يتجنب لفت انتباه الزبائن في الغرف المجاورة. صرخ هو أيضاً بدوره:

- هيّا بسرعة! اصعدي! اخرجي من المحرقة! اعبري الباب! عودي إلى

الممر... افتحي الباب رقم مائة وثمانية وعشرين، واصعدي الدرجات. عندما أصل إلى الرقم ثلاثة افتحي عينيك! 1، 2، 3.

فرقع بأصابعه. فتحت جفنيها لتكشف عن عينيها اللتين ما تزال حدقتاهما متسعتين.

بقيت مستلقية، وتنفسها متقطع ونظرها هائم، كانت منهكة بسبب شدّة وقوة هذه التجربة.

رن جرس باب الغرفة، ففتح رينيه الباب. إنّه نادل الغرف.

- سمعت صوت صراخ، قال قلقاً باللغة الإنكليزية.

- إنّها صديقتي، لقد رأت كابوساً في نومها.

تقدّم الرجل في الغرفة مرتاباً ورأى المرأة الشابة ذات الشعر الأحمر تبدو حقيقة بغاية الانفعال والضيق.

- هل أنت بخير يا سيدتي؟

- نعم، اعذرني. إنّ صديقي محق، لقد رأيت كابوساً، ولكنّني الآن بحال أفضل.

سكبت لنفسها كأس ماء أمامه وأشارت له بأنّ الماء أشعرها بالراحة.

- إنّك حمراء بالكامل، هل أنت متأكدة أنك بخير؟ سأل الرجل بشيء من القلق؟

- إنّها الشمس. أنا حمراء الشعر وبشرتي بيضاء رقيقة وهذا ما يجعلني أعاني كثيراً بسبب الشمس.

بدا مقتنعاً بهذا الشرح.

- إذا احتجتِ إلى أيّ شيء لا تترددي بالاتصال بي، قال الرجل.

- سيكون ذلك، شكراً.

أغلق رينيه باب الغرفة خلف النادل. وأصبح بإمكان أوبال أخيراً أن تعبّر عن مكنوناتها. فبدأت بالنحيب.

- كان ذلك فظيعاً.

أصبح جسدها الآن مغطى كلّه ببقع وردية اللون راحت تحكّها باهتياج.

- كان ذلك فظيعاً! كرّرت أوبال.

أخذت مرهماً من حقيبة التجميل خاصتها. وخلعت ملابسها وإذ جسدها كله عملياً مغطى ببقع الصدفية التي راحت تدهنها بالمرهم.

- كنت محقاً، فقد كانت هذه هي مشكلتي!

استطاعت السيطرة أكثر على تنفسها بشكل منتظم.

أخذها في أحضانه.

- والأخريات... كلّ النساء كنّ رائعات، وصديقات مقربات. أعرف أنّهنّ لم يقمن بغير العناية بالناس ومساعدتهم. ولكنّ هذا القاضي بيير دي لانكر كان رجلاً وضيعاً جداً! لقد عذبنا جميعنا كي يجعلنا نعترف بالأكاذيب التي وجهت ضدنا، كما جعلنا أيضاً نوجّه التهم بعضنا لبعض.

- أنت على الأقل تعرفين ذلك.

- باب اللاوعي كان يحميني من تذكر هذه الحياة المأساوية. وهذه النار كانت تبعدني كي لا أستعيد هذه الكارثة. ولكن أريد معرفة ما الذي جرى بالفعل... أريد أن أعرف ماذا جرى لي في حياتي السابقة التي عانيت فيها الكثير. عندها فقط يمكنني التوقف عن الشعور بأنّني ضحية.

- أعتقد أنّني أعرف. فالملك الذي ذُكر هو الملك هنري الرابع، والبابا هو بول الخامس. لقد مرت معي سابقاً قضية محاكمة ساحرات الباسك هذه.

- إذاً هل حدث ذلك بالفعل!

- في الحقيقة، إنّ المؤرخ جول ميشليه قرر أنّه يجب ألّا يذكر التاريخ من عهد الملك هنري الرابع سوى أمرين، أوّلهما؛ رغبة الملك بجعل الدجاج طبقاً وطنياً فرنسياً (وقد ظلّت هذه مجرد أمنية)، وثانيهما هو اغتياله من قبل رافاياك، أمّا بقية الأحداث فقد تمّ تناسيها. وفي الواقع كان هنري الرابع ملكاً عدوانياً راح يخوض الحروب منذ توليه الحكم. وكثيراً ما نتجاهل هذا الأمر، كما أنّه أمر بإجراء محاكمات للساحرات بغرض تهدئة النوايا الانفصالية في إقليم الباسك. أعتقد أنّه قد مرّ معي

أنّ المؤرخ ميشليه قد خصص فصلاً معيناً لهذا الموضوع في كتابه «السحر» الذي صدر عام 1862م، حيث كُرّس فيه القاضي بيير دي لانكر على أنّه بطل مناضل ضد الأخلاق الفاسدة وعبدة الشيطان.

شعر رينيه بعد عرضه لهذه المعلومات، أنّه من الأفضل ترك المنومة المغناطيسية وحيدة كي تستوعب هذه المأساة، فذهب وجلس على الشرفة. نظر إلى ساعته وقال لنفسه إنّه سيتواصل مع جيب كي يعرف إلى أين وصل. ولكن، قبل هذا يريد أن يتعمّق أكثر بالمأساة التي عاشتها أوبال. أخرج حاسوبه المحمول، وبحث على الإنترنيت عن ملفات وثائقية وكتب مذكرات خاصة عن هذه الحادثة القادمة من جهنّم الماضي.

83. مذكرات. ساحرات زوغاراموردي.

بدأت القضية بتنافس رجلين أرستقراطيين على أرض محددة. ولم يجد السيد آمو والسيد أورتوبيا حجة للاستيلاء على هذه الأرض المجاورة لهما سوى باتهام صاحبها أنّه يمارس السحر. كان يمكن للقضية أن تتوقف عند هذا الحد، ولكنّ الملك هنري الرابع أرسل القاضي بيير دي لانكر لتهدئة الأوضاع. وقد أبدى هذا الأخير حماسه للموضوع، وللعلم فإنّ هذا القاضي كان يوصف من قبل زملائه بأنّه «كاشف الخرافات».

وقام القاضي بإعطاء هذا الخلاف الصغير بين الجيران بعداً دينياً، لذا اتّهم جميع النساء غير المتزوجات في منطقة الباسك بأنّهنّ ساحرات. ولم يجدِ نفعاً واقع أنّ المجتمعات في الباسك بدأت تتمتع بالحكم الذاتي وترفض سلطة الأرستقراطيين ورجال الدين على حدّ سواء.

وقد اتضح من قبيل المصادفة المحضة، أنّ المنطقة تأثرت في الوقت عينه بوباء عُرف باسم «مرض ليرا». وكان بالفعل مرضاً حقيقياً يتسبب بنوبات وسلوكيات غريبة، مثل النباح. وبالطبع، فإنّ هذا الأمر لم يقم سوى بالتأكيد على ضرورة التحرك ضد الساحرات، بحسب القاضي دي لانكر.

ابتداءً من 2 تموز/ يوليو من عام 1609م، أخذت تتنقّل المحكمة المتجولة للقاضي بيير دي لانكر بالتوالي إلى سان جان دي لوز، وبابون،

وساري، وكامبو. وكان القضاة يقومون بتوقيف المشتبهين الذين يتمّ التبليغ عنهم أو الاشتباه بهم ولو قليلاً، وخصوصاً إن كانوا من النساء العازبات.

تمّت الإجراءات وفق طقوس محاكم التفتيش؛ البحث عن علامات الشيطان، التحقيق تحت التعذيب، وإصدار الحكم، والإعدام الفوري حتى لا تزدحم السجون المكتظة أساساً.

اتسعت رقعة التحقيقات إلى أن وصلت إلى منطقة الباسك الإسبانية على الرغم من عدة محاولات شعبية للتمرد ضد هؤلاء المحققين وإنقاذ هؤلاء النساء البريئات.

استمرّت التحقيقات حتى شهر تشرين الثاني/ نوفمبر من عام 1610م. حيث وصل عددهنّ في النهاية إلى أكثر من ستمائة امرأة متهمة بأعمال سحر، قاموا بإحراقهنّ أحياء في محارق أنجزت خصيصاً لهذا الأمر.

-84-

رفعت شعرها الأسود الطويل الذي ما زال مبلّلاً بمياه البحر بينما كانت الشمس تشرق.

بدأت نوت من فورها بالتحقق من وجود أطفالها الأربعة، وراحت بعدها الأجساد تقف من حولهم الواحد تلو الآخر.

لقد تكبّدوا الكثير من الخسائر. فبعد الأمراض والتمرد والعاصفة الأخيرة، جاءت الأمواج العالية والشعب المرجانية كي تشتّت صفوفهم. راحوا يعدون أنفسهم؛ لقد فقدوا أيضاً اثنين وعشرين شخصاً، فأصبح بذلك عددهم مائة وأربعة وأربعين ناجياً من أصل مائة وأربعة وسبعين ناجياً خرجوا من مدينة ميم- سيت.

هدأ الطقس بينما كانت الشمس تشرق والظلام ينقشع، واستطاعوا تمييز الشاطئ. لا توجد هنا أشجار جوز الهند، ولا رمال بيضاء وإنّما بالأحرى حدائق صخرية ممتدة بمنحدرات شديدة القسوة.

رأى جيب خيالاً بدا له للوهلة الأولى أنّه قرد صغير يراقبه. كان هناك واحد، ومن ثمّ عشرات، ومن ثمّ مئات تجلس على الأغصان وتراقبهم من بعيد. كانت القردة ترتدي جلود الحيوانات وتمسك أشياء بأيديها.

قال في نفسه إنّ هذه القردة البدائية لا بدّ أنّها تسكن في هذه المنطقة البرية، وسيتوجب عليهم الانتباه كي لا تهاجمهم. فقد تذكر أنّ رينيه سبق أن أخبره أنّه خارج جزيرة ها- ميم- باث تكون الحيوانات، حتى أكثرها تطوراً، ميالة للدفاع عن أراضيها وبالتالي يمكن أن تصبح عدوانية ضد أيّ وجود خارجي.

أشار الأطلانطسي إلى جميع الناجين بالتجمع لإشعال نار كبيرة. فجففوا أنفسهم وتدفأوا أخيراً.

خاطبهم جيب قائلاً:

- لم يبقَ أمامنا الآن سوى أن نبني من جديد هنا ما فقدناه هناك، محاولين التكيف مع الظروف الجديدة لهذا المكان.

وقفوا جميعهم وأمسكوا بعضهم بأيدي بعض بقوة، معيدين تشكيل دائرة شبيهة بتلك التي أنشأوها وهم في المياه.

- رأيت قروداً صغيرة جداً على الأشجار، قال رجل أطلانطسي.

- رأيتها أنا أيضاً، ولكن يبدو شكلها مختلفاً جداً عن القرود التي كانت في بلدنا. فهذه القرود ترتدي جلود الحيوانات وتمسك بالعصي. وبعضها أظهر أسنانه بطريقة بدت لي عدوانية. انتبهوا، قد تكون هذه الحيوانات خطيرة.

بينما كان يتحدث جيب، شعر بأنّ رينيه يحاول التواصل معه.

-85-

ابتعد جيب عن المجموعة وبدأ بالتواصل مع رينيه، وهو جالس على نتوء صخري بجانب البحر.

نظر أستاذ التاريخ نظرة رضا إلى الأطلانطسيين المجتمعين حول النار الكبيرة.

- لقد ارتحت الآن كثيراً بعد أن عرفت بأنّكم نجحتم يا جيب، لقد أصبح كلّ شيء ممكناً الآن.

- هذا بفضلك يا رينيه، فالناجون المائة والأربعة والأربعون يدينون لك

بالكثير. لقد أسميناك ني- هي وهو المقابل الصوتي الذي يتوافق مع الأسماء في حضارتنا. يمكننا القول إنّ فكرتك ببناء هذا المركب الكبير قد غيّرت مجرى تاريخنا. لذا أطلقنا على القارب اسم ني- هي تخليداً لذكراك.

- أنا لا أستحق هذا الشرف العظيم.

راح الرجلان يحدقان بمحيط هذا المخيم المؤقت.

- إنّ الحيوانات البرية والنباتات تختلف عن تلك التي عرفناها في بلدنا ها- ميم- باث.

- هذا ما كنت أقوله لك؛ إن اتبعتم إرشاداتي سوف تصلون إلى بلد في شمال أفريقيا نسميه نحن مصر في أيامنا هذه. ولن تجدوا بالطبع الحيوانات البرية والنباتات ذاتها التي عرفتموها في أطلانطس.

رأى رينيه في هذه اللحظة شيئاً مفاجئاً؛ فقد اقتربت منهما قطة متناهية الصغر وراحت تشتمّ آثار الناجين.

ما هذا الحيوان؟

أخذ رينيه يراقب محيط المكان جيداً، فوجد أمام عينيه المذهولتين نظاماً بيئياً مصغراً؛ هذه أشجار متناهية الصغر تشبه أشجار النخيل والتين، وقطط صغيرة، وكذلك حمير وجمال وغزلان وأسود جميعها صغيرة.

كلّ شيء مُصغّر.

- كما أن هناك أيضاً «هؤلاء»، أشار الأطلانطسي.

لاحظ رينيه وجود رجال صغيري الحجم يرتدون ملابس مصنوعة من الجلود، يراقبونهم من بعيد، وهم يلوحون بالرماح والأقواس.

- لقد بدأت أشكّ في أمر ما، قال رينيه. ما هو حجمكم يا جيب؟

- ماذا تقصد بالحجم؟

- كم يبلغ طولكم؟

- أعتقد أنّه ليس لدينا التقويم الزمني نفسه، ولا وحدة قياس الارتفاع ذاتها. لذا يجب أن نجد وسيلة موضوعية...

بحث الرجلان في الأمر، فوجد رينيه الحل.

- الدلافين. هناك دلافين في كلّ مكان، في أطلانطس وفي مصر أيضاً. قلت لي إنّ الدلافين كانت تسحب القارب.

- نعم، لقد اجتمعت عدة دلافين كي تستطيع سحبه.

- كم عددها؟

- كان عددها كبيراً.

- وهل جميعها ذات الشيء؟ أقصد، هل تملك جميعها الحجم نفسه الذي كانت عليه الدلافين في ها-ميم- باث؟

- تلك الدلافين التي تبعتنا من أطلانطس، تركتنا عند اقترابنا من أفريقيا، ولم أرَ حتى الآن أيّة دلافين أخرى. ولكن أتوقع أنّها ستكون ذات الشيء.

- عظيم، أستطيع القول إنّنا نحن البشر في عصرنا الحالي الذي نعيش فيه، وفي البلد الذي نقيم فيه، يبلغ طولنا تقريباً كطول الدلفين. مثلاً، يبلغ طولي أنا 1,75 متر، وهذا ما يعادل تقريباً طول واحد من هذه الدلافين. حسناً وأنتم، كم يبلغ طولكم... بالنسبة للدلافين؟

ذُهل جيب.

- لا يبلغ طولك «سوى» طول دلفين! إذاً أنت أيضاً رجل ذو حجم صغير جداً!

- نحن ثمانية مليار إنسان يبلغ طول الواحد ما يعادل طول دلفين. وهذا هو الطول الطبيعي بالنسبة إلينا. إذاً وأنتم أيها الأطلانطسيون، كم يبلغ طولكم؟

- أوه... يبلغ طولي تقريباً كطول عشرة دلافين.

ساد الصمت بينهما.

- لا بدّ أنّني سمعت بشكل خاطئ.

- عشرة دلافين، يبلغ طولي على الأقل عشرة دلافين.

- إذاً، طولك هو سبعة عشر متراً.

- نعم، أعتقد أيضاً أنّ نسبة العشرة هي التي تفرّق فيما بيننا. يبدو أنّه في عصرك يا رينيه أي بعد اثني عشر ألف عام، قد صغّرتم كلّ شيء؛ مدة حياتكم الافتراضية كما طولكم أيضاً. إنّك في الواقع صغير جداً.

لا يزال أستاذ التاريخ غير مصدق لما سمعه.

- طولك سبعة عشر متراً! ردّد رينيه متفاجئاً.

فهم رينيه لِمَ كان يرى القطط والجمال والحمير صغيرة جداً؛ فقد كان ينظر إليها بعيون جيب، أدرك أنّه يشاهد الأشياء مثله. ما يعني أنّه في أطلانطس سابقاً، كانت أشجار جوز الهند، وكذلك القطط أيضاً أكبر بعشرة أضعاف. كلّ شيء هناك كان عملاقاً.

فهم أيضاً لِمَ الأطلانطسيون يعيشون مدة أطول بعشرة أضعاف؛ فالكائنات الضخمة، مثل الحيتان، تحطم الأرقام القياسية في طول عمرها. فلديها قلب ودماغ كبيران يسمحان لها بامتلاك حياة أطول.

- عليّ أن أعترف لك يا جيب فقد ظننت أنّني فهمت كلّ ما يخصّ عالمكم. ولكن يبدو أنّه لم يكن لديّ سوى تصوّر بسيط. وهذا يحفزّني أكثر كي أعيد إحياء حضارتكم من جديد.

- سأكون بحاجة إليك يا رينيه للتكيف مع هذا الوضع الجديد.

- بالضبط، بعد أسطورة أطلانطس وفُلك نوح، عفواً ني- هي، أعتقد أنّه لدينا الآن أسطورة ثالثة يجب نقلها كمعلومة تاريخية وهي: العمالقة.

- ماذا؟

- العمالقة. إنّنا نجد عملياً في جميع الأساطير تقريباً، قصة تتحدث عن زمن سابق كان العمالقة يعيشون فيه، قبل ظهورنا نحن البشر. أطلق عليهم في الأساطير اليونانية اسم التيتان. وعُرفوا في الكتاب المقدس باسم عمالقة شعب النفيليم. ويسمون في الأساطير الهندوسية بالأسورا. وعند الشعوب الإسكندنافية بعمالقة جوتنار.

- أنا لا أفهم شيئاً ممّا تقوله يا رجل المستقبل.

- تكشّف لي أمر للتوّ؛ لقد قدّمنا القصص الواقعية في التاريخ على أنّها أساطير وخرافات مثل؛ أطلانطس، والطوفان، والعمالقة. لا تستطيع

أن تتصور يا جيب كم أنّ هذه المعلومة مدهشة وفريدة بالنسبة لأستاذ تاريخ. ولا تتخيل كم أرغب في عرض هذا الاكتشاف للثمانية مليار إنسان من جنسي.

- حسناً، هيّا قم بهذا، اعرضه، ما الذي يمنعك؟

- الأدلة الحسية، لا يوجد سوى شهادتي الشخصية كدليل على ذلك. إن حاولت نشر ما أخبرتني به، سيقولون إنّني أهذي، أو إنّني أصبت بالجنون، أو إنّني أحلم، أو أهلوس. يلزمني دليل قاطع غير قابل للدحض على وجودكم، أحتاج دليلاً مادياً.

عاد الرجلان للجلوس على النتوء الصخري. ونظرا من هناك إلى أسفل مخيم الأطلانطسيين الذين تمركزوا حول النار. لقد بدأوا من فورهم ببناء الأكواخ.

- أعطني مثالاً.

- يلزمني... شيء. شيء ما يقاوم الزمن، يكون قاطعاً لا جدال فيه.

- مثل ماذا؟

حسناً، لقد وجدتها.

- عليك أن تكتب من جديد مخطوطة البحر الميت.

- تذكر أنّك عندما تتحدث عن أشياء معروفة في عصركم، قد لا يكون لها أيّ معنى بالنسبة إليّ.

- اعذرني. الفكرة تتضمن أن تكتب على مخطوطات كلّ ما يتعلق بتاريخ الشعب الأطلانطسي بأدق التفاصيل، كي يصبح هذا دليلاً قاطعاً. عليك كتابة أسماء الأشخاص والأماكن والتواريخ بحسب تقويمكم. وتضيف عليها الرسوم والخرائط والمخططات. عليك تسجيل كلّ شيء؛ وصفات الطعام، كيفية السفر عبر الإسقاط النجمي، والطريقة التي بنيتم فيها الأهرامات، وشرح نظام الأربعة والستين حكيماً مع ذكر أسمائهم، وعليك رسم خريطة مدينة ميم- سيت. احكِ أيضاً قصة الطوفان وهربكم من أطلانطس. كلّما كانت هناك تفاصيل أكثر، زادت مصداقيتها. ومن ثمّ قُم بخياطة هذه الصفحات كي تصنع

منها لفائف تضعها في جرار وتخبئها في أحد الكهوف. وحين سنعثر على هذه الوثائق بعد اثني عشر ألف عام، سنستطيع تقييمها. وسيؤكد التأريخ بالكربون المشع تاريخ هذه المخطوطات.

– إذاً علينا كتابة نصوص ومن ثمّ جمعها في لفافة ووضعها في جرار... ولكن كيف نجد الكهف المناسب؟

– يجب اختيار كهف لا يمكن الوصول إليه من غير قصد. أيّ كهف يصعب الوصول إليه على مدار اثني عشر ألف سنة لاحقة. والحلّ الأمثل هو أن تقوموا بإغلاقه بصخرة كبيرة كي تخفوه عن أعين الفضوليين.

– وهل تعتقد أنّك ستستطيع إيجاد هذا الكهف في عصركم؟

– سوف أهتمّ بهذه المسألة اعتباراً من الغد. عليكم في الوقت الراهن بناء المدينة فقط. وما إن تستطيعوا إيجاد حلول لجميع مشاكل المتطلبات الأساسية للبقاء على قيد الحياة، سيكون من الضروري البدء بكتابة هذه النصوص عن حضارتكم، ووضعها في كهف سأدلّكم عليه لاحقاً.

لاحظ جيب حماس الرجل الذي سيكونه في المستقبل.

– سأفعل ما قلته. وسأضع على الجرار الرمز الذي نحمله أنا ونوت في قلادة حول عنقينا ألا وهو الدلفين. وفيما يخص مدينتنا الجديدة فسوف نسميها ميم– سيت، على اسم مدينتنا السابقة.

– ألا تعتقد أنّه سيكون من الأفضل إيجاد اسم جديد؟

– بلى، أنت محق. ميم– سيت تعني في لغتنا «القلب الأول». لذا سنسمي مدينتنا هنا... ميم– فيس، أي «القلب الثاني».

–86–

فتح عينيه بسرعة.

– عمالقة! صرخ رينيه. الأطلانطسيون عمالقة! لم أنتبه في البداية إلى حجمهم! ولكنّهم عمالقة بطول سبعة عشر متراً!

قطّبت أوبال حاجبيها، وكانت بالكاد قد تعافت نوعاً ما من صدمة جلسة

التنويم المغناطيسي التراجعي. نهض رينيه ليسجل في مذكراته ما اكتشفه للتو وأفصح لها قائلاً:

- العلاقة بين الزمان والمكان هنا وهناك هي عشرة. كلّ شيء مرتبط بهذا الرقم. يعيشون أكثر منّا بعشرة أضعاف، وهم أطول منّا بعشرة أضعاف. عمالقة! إنّهم عمالقة! الأطلانطسيون هم عمالقة! ردّد رينيه كما لو أنّه لا يستطيع أن يصدق نفسه.

- ولم تنتبه لهذا من قبل؟ سألته المرأة الشابة مندهشة.

- كلّا، لأنّ كلّ شيء كان متناسباً. لا بدّ أنّ شواطئهم كانت ضخمة، وقططهم وعصافيرهم وفراشاتهم كلّها كانت على مقاييسهم هم. ونحن بالنسبة إليهم...

قردة صغيرة الحجم.

- ... أناس صغيرو الحجم بحيواتٍ بالغة الصغر.

راحت أوبال تحكّ بقع الصدفية وتنظر إليه بريبة.

- ألا تصدقينني؟

- بالنسبة لي... لقد سبق أن تقبّلت فكرة أنّهم يعيشون ما يقارب الألف عام، وأنّهم يستخدمون السفر النجمي بالبساطة التي نستقلّ فيها نحن الطائرة، لذا، أن تكون أحجامهم عملاقة، نعم، أستطيع تصور ذلك.

اشتعل رينيه حماساً.

عمالقة. لقد تحدثت مع عملاق، إنّه يمثل زمن العمالقة الذين وجدوا قبل زمننا هذا.

- إذاً، لقد نجحوا في الوصول إلى مصر؟

- نعم، تماماً. وقد وضعنا خطة للحفاظ على حضارتهم؛ سوف يكتبون في زمانهم ذاك رسائل ونصوصاً بحيث نستطيع نحن إيجادها في زماننا هذا. يجب فقط العثور على مغارة مثالية كي يضعوا فيها الأدلة على وجودهم. وبعد ذلك يمكننا استعادة هذه الوثائق وتأريخها.

نفثت من سيجارتها غيمة من الدخان.

- إنّ تمّ الأمر كما تقول، فإنّك الآن في طور كتابة التاريخ.
- ما الذي تريدين قوله؟
- حسناً، لو أنّك لم ترجع إلى حياتك السابقة، ولم تحذّر جيب من الطوفان، ولم توحِ إليه بفكرة بناء مركب ضخم، ومن ثمّ إعطائه الإرشادات للمجيء إلى مصر، ما كانوا ربّما ليخرجوا من هناك قط.
- إذاً؟
- قد يكونون هم منبع الحضارة المصرية. فالمصريون حسب ما أظن كانوا عمالقة في بدايات وجودهم، أليس صحيحاً؟
- ومع ذلك، فأنا لم أقم إلّا بالتفاعل مع كلّ حدث بالطريقة التي بدت لي أنّها الأفضل لبقاء الأطلانطسيين على قيد الحياة...
- ربّما تكون قد أنجزت ما كان يتوجب عليك إنجازه - أقصد ما كان مكتوباً. وربّما لم أتعلّم أنا التنويم المغناطيسي إلّا كي ألتقي بك. نحن مجرد بيادق في مخطط أكبر منا ويتجاوزنا جميعنا.
- هل أصبحت متصوفة أيّتها الآنسة أوبال إيتشيجويان؟
- كلّا، أنا فقط أدرك أنّني في لعبة لا أعرف ما هي قواعدها. وبدلاً من اللجوء إلى مفهوم «القدر» أو «الله»، أقول لنفسي ببساطة إنّنا في خضمّ قصة قد تكون أحداثها مكتوبة من قبل. فجميع الأوراق موجودة بالفعل، وقد أنقذنا حياة مائة وأربعة وأربعين أطلانطسياً عملاقاً هم حالياً في طور التمركز في مصر.

قامت أوبال بتشغيل الراديو، كما لو أنّها خشيت أن يسمعها أحد. وصدحت أصوات الموسيقى المحلية في أرجاء الغرفة، وغطت على ضجيج زمامير السيارات القادمة من الخارج.

- ولكن، إن كان كلّ شيء مكتوباً مسبقاً، فأنا لا أملك أيّة سلطة لاتخاذ القرارات...
- هذا ما أحاول فهمه. يبدو لي على الرغم من كلّ شيء أنّنا نحن من يقرر على أيّة حال وأنّ كلّ شيء يتغير تبعاً لخياراتنا.

أمالت نفسها من النافذة وراقبت الشاطئ الذي لا يزال مضاءً ببعض

مصابيح الشوارع. هناك دبابة تقف أمام مدخل الشاطئ الخاص بالفندق، وثلاثة جنود مصريين يلهون بورق اللعب.

– لقد قمت باكتشافات حاسمة في جميع الأحوال، وهذا بالأساس شيء لا يمكن إنكاره. فبفضلك أصبحنا نعرف أنا وأنت أنّه كان يوجد عمالقة قبل اثني عشر ألف سنة وأنّهم سكنوا جزيرة في منتصف المحيط الأطلسي، وأنّهم كانوا يعيشون ما يقارب الألف عام ويبلغ طولهم سبعة عشر متراً. وهذه المعارف الجديدة نحن مدينون لك بها.

– أنت تصدقينني إذاً.

– بالطبع، وإلّا لما كنت هنا الآن. ولكنّ هذا لا يغير شيئاً؛ فأنت أقنعتني، ولكنّك لم تقنع الآخرين. طالما أنّ هذه المعلومات دون دليل، إذاً فكلّ هذا ليس له وجود.

اجتاحته رغبة بأن يضمّها بين ذراعيه ويقبّلها، ولكنّه خشي أن تصدّه لذا تراجع عن ذلك. اكتفى بالتعبير بعرّة عينه التي أجابت عليها أوبال بغمزتها المعتادة التي توحي بالتآزر معه.

أتمنى لو أنني أستطيع قراءة القصة المكتوبة مسبقاً عن حياتي لأعرف إن كان بالإمكان أن يحدث شيء ما بيننا. كم أرغب بتقبيلها، وكم أتمنّى أن أضمّها إلى صدري. ولكنّها تبدو لي صعبة المنال.

ناما كلاهما في الغرفة ذاتها، ولكن كلّ منهما على سرير منفصل.

– تصبح على خير يا رينيه.

– تصبحين على خير يا أوبال.

بيد أنّ حماس رينيه لما اكتشفه للتوّ عن الأطلانطسيين، ورغبته بممارسة الحب مع أوبال جعلاه يبقى مستيقظاً.

بما أنّ النوم لم يزر جفنيه، فقد فكّر بالعودة لرؤية أين أصبح الأطلانطسيون في عملهم، ولكن قال في نفسه إنّ إزعاج جيب الآن لن يجدي نفعاً، وخصوصاً أنّه سيكون الآن في طور بناء عاصمتهم الجديدة ميم– فيس. لذا خطرت بباله فكرة فتح باب آخر.

نزل الخطوات العشر للسلّم، وعبر باب اللاوعي، ووصل إلى الممر ذي المائة والأحد عشر باباً.

صاغ أمنيته قائلاً: «أريد اكتشاف الحياة التي كنت فيها أكثر قدرة على إغواء النساء».

أضاء المصباح فوق الباب رقم اثنين وسبعين باللون الأحمر.

-87-

نظر إلى يديه، إنّهما نحيلتان بأظافر طويلة، وهناك الكثير من الأساور الملونة على المعصمين، والأصابع مليئة بحوالي عشرين خاتماً مرصعاً بأحجار كريمة متعددة الألوان. إنّه مغطى في الواقع بمجوهرات أنثوية.

إمّا أنّني امرأة، أو أنّني مزدوج التوجه الجنسي...

في خضمّ هذه الشكوك، ركز انتباهه إلى أحاسيسه الجسدية فلاحظ أنّ ثدييه مطوقين بمشدّ للصدر.

يبدو أنّني أخطأت التعبير. لقد رغبت أن أرى الحياة التي كنت فيها أغوي النساء، وليس تلك الحياة التي كنت فيها امرأة.

كان حوله نساء أخريات ينظرن جميعهنّ إليه بترحيب وإعجاب. ووصل بعد حين رجل يرتدي ملابس هندية حريرية ويضع على رأسه عمامة، وله شارب نحيل وذو بشرة نحاسيّة. أحاط به جمع من الناس بملابسهم الهندية وراحوا يرمونه ببتلات الزهور.

دقّق في المشهد جيداً.

أنا في الهند، وأعتقد أنّني على وشك الزواج.

أجلسوا الرّجل على الكرسي المخصص للعريس وملأوا رقبته بقلائد من الزهور. أبدى العريس مظهراً رسمياً، لرجل جادّ يعيش لحظة حاسمة.

بجانب الجسد الذي وجد نفسه فيه امرأة أخرى، إنّها امرأة هندية جميلة جداً، أشارت له بنظرة تآمر، وفجأة، فهم رينيه لماذا وصل إلى هذا الجسد المَحدد.

إنّ المرأة التي أنا عليها والتي هي في طور الزواج من هذا الرجل، تعاشر في الحقيقة هذه المرأة الشابة التي تجلس بجانبها. لقد كنت في هذه الحياة السابقة مزدوج الميول الجنسية، ولهذا السبب كنت موهوباً في إغواء النساء.

بدأ الموسيقيون في مقابلهما يعزفون بفرح على آلاتهم المعقدة؛ كآلة السيتار، والعود، والمزمار، والدف.

يبدو أنّ شخصيتي السابقة تشعر بالملل. سوف أستغل هذه اللحظة كي أعرّفها بنفسي.

- هيه، مرحباً يا آنستي.

جفلت المرأة.

- من يحدثني؟

- اسمي رينيه توليدانو وأنا واحد من الشخصيات التي ستكونين عليها في المستقبل. لقد عدت إلى هذه الحياة السابقة لأنّني أحتاج لخبرتك في إغواء النساء. هل بإمكاني أن آخذ من وقتك بضع لحظات؟

وافقت وهي جالسة بكامل رزانتها دون أن تبدي أية حركة، وعيناها هائمتان في البعيد.

لذا خرجت روح رينيه من جسد المرأة وجلس أمامها. نظر إليها الآن من الخارج، فرآها بثوب زفافها الزاهي بالألوان. بدت سعيدة بتلك العين الثالثة ذات اللون الأحمر الساطع المرسومة في منتصف جبهتها، وهذه الأقراط في أذنيها وأنفها، وشعرها المسرّح بطريقة معقدة والمزين بمجوهرات وخيوط ذهبية.

ارتعشت المرأة الهندية قليلاً حينما رأته، ولكن بسبب الظرف الذي كانت فيه، لم تجرؤ على الحركة ولا الكلام.

- ما هو اسمكِ؟ سألها رينيه.

- شانتي، ولكن... من أنت حقاً؟ إن كنت واحداً من تجسداتي فأين تعيش؟

- أعيش في فرنسا، وعلى الأرجح بعد أكثر من ثلاثمئة عام. وأنتِ يا شانتي، في أيّ مدينة تسكنين؟ وفي أيّ عام؟

- أعيش في مدينة بيناريس. أعرف التقويم الغربي المستخدم عند الفرنسيين؛ فبحسب هذا التقويم أستطيع القول إنّني أعيش في... في العام 1661 بعد ميلاد يسوعكم.

- حسناً، سوف أدخل في صلب الموضوع مباشرة؛ لقد أتيت لرؤيتك كي أطلب منك بعض النصائح. يبدو لي أنّك أفضل شخص يستطيع مساعدتي.

- إن كان بإمكاني مساعدة تجسّدي المستقبلي، فلن أفوّت هذه الفرصة.

قال رينيه في نفسه إنّ ميزة المناقشة بين روحين مع امرأة هندية هي أنّ مفهوم التقمص بالنسبة إليها ليس فرضية مجنونة.

استغل رينيه فرصة أنّ مشهد الرقص والموسيقى ما يزال مستمراً، وراح يشرح لها حالته العاطفية بطريقة محددة جداً ومختصرة قدر الإمكان. حدّثها عن أوبال، المرأة التي يشتهي والتي لا يجرؤ على إعلان حبه لها.

- قبل كلّ شيء، قالت شانتي، أشعر أنّك تخاف من النساء... أعتقد أنّ هناك شيئاً ما عليك التغلب عليه بخصوص هذه النقطة. لا بدّ أنّ هذا مرتبط بوالدتك أو بتجارب فاشلة عشتها في شبابك.

قال رينيه في نفسه ربما تشير هذه المرأة إلى الخيبات العاطفية التي جعلته خائفاً. ففي النهاية، وبحسب ما عرفه عن حيواته السابقة، فإنه لم يعش فيرون ولا هيبوليت قصص حب متماسكة ومرضية. حتى زينو كان مسحوراً بالحضور الأنثوي، ولكنه لم يذهب بعيداً في هذا الاتجاه.

وبعدها راحت روح شانتي تشرح بهدوء لروح رينيه أسس العلاقات العاطفية. كما فسرت له كيف تفكر النساء، وماذا برأيها، تنتظر المرأة من الرجل. حدّثته عن الرغبة والأوهام والخيال الأنثوي.

ومن ثمّ، تطرقت إلى الحديث عن طاقة الكونداليني الأنثوية التي تصعد في العمود الفقري مثلما تصعد الحمم البركانية في جسم البركان. وحدثته أيضاً عن كتاب كاماسوترا[1]، وشرحت له كيف تتمّ إثارة العينين والأذنين والأنف والفم والجلد، ومن ثمّ كيف يلمس الشفاه واللسان وأخيراً كيف تتواصل الأرواح بعضها مع بعض.

شعر رينيه كأنّه في المدرسة.

1- أو علم الحب، كتاب هندي قديم يتناول السلوك الجنسي للإنسان. المترجمة

كلّ تجسّد من تجسداته السابقة لديه خبرة في مجال معين. إنّني أشفق على هؤلاء الذين يكتفون بمعارف وخبرات حياة واحدة.

قال لنفسه أيضاً إنّه من المؤسف ألّا يتمّ تعليم كلّ ما شرحته له شانتي كمعلومات عن العلاقة بين الرجل والمرأة وعن الجنس عموماً.

لم يدرك فقط أنّه لم يكن يعرف أيّ شيء عن علاقات الحب، وإنّما أدرك أيضاً أنّ جميع علاقاته السابقة لم تكن مُرضية بالأساس لأنّها كانت ملأى بالعوائق والمخاوف. لم يسبق في الواقع قط أن تساءل عمّا يخطر في بال شريكته. كما أنّه لم يكن مهتماً حتى بمشاعره الشخصية أثناء ممارسة الحب. بالنسبة إليه، ما إن تقبل المرأة ممارسة الحب معه حتى يكون الأمر قد أُنجز، ولم يكن يأخذ بحسبانه سوى الإشباع الجسدي فقط.

ولكن، وفق تعاليم شانتي، فإنّه في هذه اللحظة بالذات يبدأ كلّ شيء.

وبهذه الطريقة استطاعت شانتي خلال عشرين دقيقة مساعدته وهي جالسة دون حراك أثناء حفل زواجها، وزرعت في ذهنه عن طريق الحوار الروحي ثقافة عاطفية وجنسية.

وبعدها توجّب عليهما التوقف عن هذا الحوار بسبب وصول والد شانتي كي يصحبها إلى زوجها المستقبلي.

– لم أفكر في سؤالك كيف سيكون العالم بعد ثلاثمئة عام، اعتذرت الأميرة الهندوسية الشابة. إنّ قلة فضولي أمر لا يغتفر.

– ستتمتعين بامتلاك ثقافة قديمة عتيقة وفي الوقت ذاته متطورة لدرجة أنّك ستستوعبين كلّ من يحاول تعديلها. استمتعي جيداً بزواجك و... بالملذات الأخرى التي تعرفينها جيداً.

صعد من جديد الدرجات. ونظر بعدها إلى الساعة وفهم أنّه بقي فترة أطول بكثير ممّا كان يعتقد أثناء زواج شانتي في مدينة بيناريس.

إنّه مبتهج للغاية بما اكتشفه للتو عن العلاقة بين الرجل والمرأة. استطاع أن يقيّم بفضل شانتي، مدى جهله كرجل يبلغ اثنين وثلاثين عاماً، ويظنّ نفسه أنه يعرف كلّ شيء.

نظر إلى أوبال وهي نائمة. ووجدها ما تزال مثيرة، وفكّر بأنّه أخيراً فهم كيف ينشئ علاقة عاطفية بينهما. تذكر جملة قالتها شانتي.

افعل كل شيء كي تعطيها الانطباع بأنها هي من اختارتك وليس العكس. دعها تأتيك. انظر إلى نفسك كشخص مرغوب به ويصعب الوصول إليه. انظر إلى نفسك كما تنظر أنت إليها. انظر إلى نفسك كأنك امرأة بعيدة المنال...

قال رينيه لنفسه إنّ هذا الأمر سهل جداً على امرأة جميلة مثل شانتي، ولكنّه ليس كذلك بالنسبة له خصوصاً أنّه يعتبر نفسه رجلاً خجولاً وأخرق. ظلّ يراقب المنومة المغناطيسية وهي نائمة بعمق.

لم يستطع النوم بعد كلّ ما عرفه لتوّه، لذا قام بتشغيل حاسوبه الشخصي وبحث على الإنترنيت عن مغارة يكون علوّ مدخلها أكثر من سبعة عشر متراً في محيط مدينة مرسى مطروح.

سوف يلاقي غداً الأطلانطسيين في الوقت الذي يكونون فيه قد بدأوا بناء مدينتهم ميم- فيس. وسيخبرهم عن المكان الذي يمكن أن توضع فيه الأدلة.

88. مذكرات. مخطوطات البحر الميت.

اكتشفت مغارة في عام 1947م في الأردن بالقرب من قرية اسمها قُمران، على بعد كيلومترين شمال غرب البحر الميت، من قبل راعٍ شاب اسمه محمد الديب كان يبحث عن عنزته التي شذت عن القطيع.

وجدوا داخل المغارة جراراً من الفخار تضمّ لفائف من المخطوطات المحمية بقطعة قماش من الكتان يعود تاريخها إلى ما قبل ألفي عام.

كان مجموع المخطوطات حوالي 970 مخطوطة كُتب أغلبها باللغة العبرية، وعدد قليل منها باللغة الآرامية والإغريقية. كشفت هذه المخطوطات عن مجتمع لليهود، والإسينيين، والنباتيين، والعازبين وأنصار البيئة الذين طوروا روحانياتهم الخاصة على هامش الديانة اليهودية الرسمية في ذلك الحين.

ومن بين المخطوطات التي وجدت في قُمران كان «كتاب العمالقة».

بحسب هذا الكتاب، كان على العمالقة مواجهة دمار المدينة التي كانوا يعيشون فيها بأسرع ما يمكن. وقد نجا من هذا الدمار قلّة قليلة منهم فقط. وقد ذُكر من بين الناجين أخنوخ الذي ألّف «كتاب أخنوخ»، والذي نقتطف منه هذا المقطع:

«علّم العملاق أخنوخ البشر الكتابة
والمعرفة والحكمة. علّمهم القراءة
وعلامات السماء حسب ترتيب أشهرهم كي
يعرف الناس فصول السنة. كان أول مَن
كتب شهادة نصيّة موجهة لبني البشر».

-89-

- أعتقد أنّني وجدتها، قالت أوبال.

كان الفرنسيان مع شروق الشمس قد جلسا على شرفة غرفتهما المطلة على البحر، وشرعا بدراسة خرائط المنطقة كي يجدا المكان الأمثل. استخدم رينيه حاسوبه المحمول، واستطاعت أوبال أن تستعمل الحاسوب الموضوع لخدمة الزبائن في الفندق بفضل شريط توصيل طويل.

أشارت أوبال على الشاشة إلى مغارة تستخدم حالياً كمتحف تاريخي، مغارة روميل التي اختبأ فيها الألمان ليخططوا لمعركة العلمين خلال الحرب العالمية الثانية. ولكنّ رينيه خيّب أملها قائلاً:

- لن يكون هذا هو المكان المنشود لسببين. أولاً، لأنه متحف، وبالتالي هناك الكثير من العابرين. وثانياً، لأنّ الأطلانطسيين يتوجب عليهم أن يتمكنوا من الدخول إليه. إذن لا ينبغي أن يقلّ ارتفاعه عن العشرين متراً.

تابعت البحث من جديد، ولكن لم تجد ما يتطابق مع هذه المعايير في منطقة مرسى مطروح. لذا وسّعت نطاق بحثها إلى 20 كم، ومن ثمّ إلى 100 كم، وأخيراً إلى 300 كم.

- هذه المرة قد يكون هذا ملائماً أكثر، قالت المرأة أخيراً. إنّها واحة تقع في الجنوب بالقرب من ليبيا. والمكان محاط بالجبال المكونة من الحجر الجيري الغني بالكهوف؛ إنّها واحة سيوة.

جاء رينيه ليتفحص المكان من أعلى كتف أوبال.

- يبدو هذا المكان مثالياً، كم تبعد هذه الواحة بالضبط عن هنا؟

- 307 كم. ولكن هناك طريق أنشئت حديثاً تصل مباشرة بين مرسى مطروح وسيوة.

راجع صفحة الإنترنيت على جهازه. تقع هذه الواحة بالفعل في منخفض صخري وسط الصحراء، في منطقة تابعة للبربر. أخبرته أوبال:

- إنّها واحة معزولة وسط الصحراء، ولكن يبدو أنّها عرفت النشاط البشري منذ فجر التاريخ. فمن المرجح أن يكون قد اختفى في هذه الواحة عام 500 ق.م جيش الملك الفارسي قمبيز الثاني الذي كان قد دمّر الشمال المصري كلّه. وقد بُني فيها أيضاً معبد آمون، وهو واحد من الأماكن المختصة بتقديم النبوءات. وقد أكّدت نبوءة آمون في عام 331 ق.م، أنّ الإسكندر الأكبر ينحدر من سلالة الإله آمون، وهذا ما سمح للإسكندر بتنصيب نفسه فرعوناً جديداً. وسكن البربر لاحقاً هذا المكان، وأصبحت الواحة ملتقى الشعوب، ومفترق الطرق لتجارة العاج والبخور والذهب والحيوانات الغريبة. واستطاع البربر عام 708م احتواء الغزو العربي-الإسلامي وحماية المكان الذي ظلّ بمنزلة جيب المقاومة حتى القرن الثاني عشر. أول رجل أوروبي دخل إلى هذا المكان كان مستكشفاً بريطانياً عام 1792م. إنّ التطور السياحي لهذه المنطقة يعتبر حديثاً ولم يتمّ توصيل الكهرباء إلى واحة سيوة إلّا عام 1987م.

- وهل رأيت جبلاً معيناً يصلح أكثر من غيره ليكون مخبأً للجرار؟

- نعم، هناك جبل يبدو لي مرتفعاً بما يكفي وفيه شبكة من المغارات التي تؤدي بعضها إلى بعض. وله اسم غريب، يجب ألّا تكون من الأشخاص الذين يؤمنون بالخرافات لأنّ اسمه «جبل الموت».

- رائع، تستطيعين إعطائي موقعه بالضبط؟

أظهرت له صفحة الإنترنيت.

- أوه كلّا، هذا ليس مناسباً. فهو موقع سياحي بامتياز، وقد وُجدت فيه مقابر مصرية. ليس بالفعل هو المكان المحمي من الزيارات البشرية غير المتوقعة.

راح يفكر أستاذ التاريخ.

- هل هناك جبال أخرى؟

بحثت قليلاً ثمّ قالت:

- هذا هو، لقد وجدت جبلاً يتناسب كثيراً مع معاييرك ويسمى «الجبل الأبيض». إنّه أكثر علواً وأكبر حجماً وأكثر عمقاً من جبل الموت، وفيه ثلاث مغارات. إنّه غير مثير للاهتمام حسب ما يقول الأدلة السياحيون؛ فهو جبل صخريّ ممتلئ بالعقارب والثعابين.

- ممتاز، لن نضيع الوقت، هيّا بنا إلى هناك. سننزل هذا المساء في فندق في سيوة، وغداً سوف نتحقق من المكان. وبعدها سوف أقوم بجلسة تنويم مغناطيسية تراجعية كي ألتقي بجيب وأدلّه على المكان الذي يستطيع فيه تخبئة لفائف المخطوطات.

وضّبا أغراضهما بسرعة ودفعا الفاتورة وغادرا الفندق. وجدا في مرسى مطروح وكالة تأجير للسيارات، واختارا سيارة جيب للطرق الوعرة، وبعد أن قاما بتخزين ما يلزمهما من المياه، قاما بشراء ما يكفي من البنزين وعدة للحفر، ومن ثمّ خرجا من المدينة.

قادا السيارة باتجاه الجنوب.

كانا كلّما تقدّما شيئاً فشيئاً تختفي مشاهد الأبنية الحضرية، وتحلّ محلها المزارع والحقول، وبعدها بعض الأشجار المتفرقة، ومن ثمّ الصحراء.

لم يعودا يشاهدان الآن سوى الكثبان الرملية التي تمتدّ حتى الأفق. كلّ شيء أصبح منبسطاً كالكفّ ولونه بيج. لم يكن هناك شيء يدلّ على الوجود البشري سوى الطريق الدولي المعبّد بالإسفلت. كما أنّ عدداً قليلاً فقط من السيارات تعبر هذا الطريق. ولم يصادفا في طريقهما سوى حافلة سياحية، وعربة لبيع البطيخ، وشاحنة عسكرية. تتناوب اللافتات باللغة العربية مع

اللوحات الطرقية التي تحذّر من خطر عبور الجمال لهذا الطريق. وخوفاً من أن يناما على الطريق، شغّلا مكيف التبريد ووضعا موسيقى الفصول الأربعة لفيفالدي وتحديداً مقطوعة «الصيف». إنّ الطقس يزداد حرارة أكثر فأكثر ويبدأ الطريق يصبح حارقاً.

كان الأفق يمتدّ في هالة ضبابية تبدو كأنّها تريد ابتلاعهما.

-90-

يعمل الأطلانطسيون على بناء مدينتهم الجديدة.

أنشأوا سريعاً بيوتاً خشبية مؤقتة بانتظار أن يشيدوا بيوتهم الحجرية الدائمة. تقع قريتهم ميم- فيس في أقصى الشمال الغربي من المدينة التي ستحمل نفس هذا الاسم (ممفيس) التي ستبنى بعد عشرة آلاف سنة.

بدأ الناجون المائة والأربعة والأربعون يعتادون رويداً رويداً على هذه القارة المجهولة. وعلى الرغم من شعورهم بفقد أغلى ما كانوا يملكونه، فإنّهم في الوقت نفسه يشعرون بأنّهم محظوظون لتمكنهم من النجاة بعد غرق جزيرتهم.

كانت تندلع في بعض الأحيان مشاحنات فيما بينهم لأسباب تافهة. ففي أحد الأيام، وبينما كان جيب قد وضع لتوّه دعامة لتثبيت سطح أحد المنازل، استوقفه سماعه مصادفة لحديث بين اثنين من الأطلانطسيين كانا يهدّدان بعضهما بعضاً. فتوجه إلى نوت التي لم تعد تتباهى بتسريحة شعرها المعقدة، ولا بثوبها الذي يكشف عن نهديها كما كان حالها في أطلانطس. بل أصبحت ترتدي فستاناً طويلاً وبسيطاً يسمح لها بالحركة دون أن تجرح نفسها كي تستطيع المشاركة في بناء المنازل مع أقرانها.

- لقد عدنا لنتصرف ونتخاصم من أجل أشياء تافهة مثلما فعلنا على فلك ني- هي. قال جيب متحسّراً.

- إنّ الخير يأتي مع الشر. فالمركب الشراعي أتى مع فقدنا جزيرتنا. وعبور البحر مع استهلاك اللحوم البحرية. واكتشاف العجلات مع العمل. والتقنية مع الشعور بالملكية.

- وما الذي سيأتي بعد ذلك؟ النقود، والزواج، والقادة، والشرطة، والعدالة، والسجن، والتعذيب؟ كلّ هذه المفاهيم الغريبة التي تحدث عنها ني- هي.
- كانت ها- ميم- باث ملاذاً آمناً من جميع هذه الشرور، ولكن من الطبيعي هنا في هذا المكان أن نفقد سكينتنا.
- يجب أن نبقى يقظين لروح الروار التي تجري فينا.
مسحت المرأة جبينها الذي يقطر عرقاً ونظرت حولها.
- هل رأيتهم؟ سألته نوت.
- من هم؟
- هؤلاء القردة الصغار الذين يرتدون جلود الحيوانات. ما يزالون هنا ويبدو لي أنّ عددهم يزداد أكثر فأكثر.
- كلّا، لم أرهم اليوم.
- إذاً، انظر بطرف عينك إلى اليمين؛ هناك مجموعة تتسلق المنحدرات.
أدار جيب رأسه بهدوء فرأى فعلاً ظلال قردة بثياب رمادية وبنية تختبئ خلف أشجار النخيل، ويبدو أنّها تتجسس عليهم.
- أعتقد أنّ هؤلاء ليسوا قردة، بل أشباه البشر. إنّهم أسلاف لبشر صغيري الحجم سوف يعيشون في المستقبل. وهم أسلاف ني- هي.
- ما الذي جعلك تقول هذا؟
- إنّهم يرتدون الملابس، وإذا نظرت جيداً سوف تلمحين أنّهم يحملون الرماح وكل أنواع الأدوات الحادة التي تصلح أن تكون أسلحة. سبق أن أخبرني ني- هي عن ذلك، قال لي إنّه في عصرهم الذي يعيشون فيه تجري الحروب، حيث تقتتل مجموعات من الناس فيما بينها من أجل الحصول على أراض أو لسرقة ثروات جيرانهم.
- إنّها سلالة بشرية موازية لنا! ولكن كيف إذاً يمكن أن تكون أنت سلفاً لني- هي؟
- إنّ الروح تعبر بحرية في الأجساد، وهي ليست بحاجة إلى أجساد بأطوال مماثلة، ولا حتى إلى أجساد من السلالة البشرية ذاتها. وربّما

تكون الروح قد سكنت في أجساد حيوانية قبل أن تُخلق أجساد أشباه البشر. فأنا نفسي أشعر في بعض الأحيان أنّني كنت دلفيناً.

أشارت إلى واحد من هؤلاء البشر الصغيري الحجم راح يقترب منهما محاولاً إخفاء نفسه بالأعشاب الطويلة.

– ولماذا هؤلاء هنا؟

– أعتقد أنّ بيوتنا قد أثارت فضولهم. فهم يعيشون بالتأكيد على الأشجار أو في الكهوف.

– لماذا لا يحاولون التواصل معنا؟

– لا بدّ أننا سببنا لهم الخوف. ألن تخافي أنتِ إن رأيت أناساً يشبهونك ولكنّهم أطول منك بكثير؟

– في الواقع، هم من يسببون لي القلق، اعترفت نوت.

– هذا لأنّنا بدأنا نكتشف منذ أن دُمّرت مدينتنا مشاعر سلبية لم نكن نعرفها. ولكن في جميع الأحوال يجب ألّا نسمح لهم بغزونا، وإلّا فإنّنا سنبدأ بخوض الحروب باستمرار، وسنصبح قلقين دائماً. حافظي على سكينتكِ، إنّها قوتنا الرئيسية. لا شيء يدعو للقلق. كلّ ما يحدث لنا هو لمصلحتنا.

هزّت نوت برأسها راضية بغير اقتناع.

– وماذا لو قاموا بمهاجمتنا؟

–91–

كانت السماء ما تزال مضيئة حينما وصلا عند الساعة السابعة مساءً إلى واحة سيوة. لم يشاهدا سوى أشجار النخيل وعدداً قليلاً من أعمدة الإنارة وبِضع سيارات في حالة سيئة، ودراجات هوائية وعربات تجرّها البغال، وعدداً قليلاً من الناس الذين يعبرون.

وكان المكان مدجّجاً من جهة أخرى، بمدرعات الجيش. وقد أشار لهما رجل عسكريّ بإيماءة ودودة يقصد بها إخبارهما أنّ السياح يجب ألّا يشعروا بالقلق بوجود رجال الجيش.

ركن الفرنسيان السيارة، وعبرا بعدها من بين جموع البائعين المتجولين والمتسولين الذين راحوا ينادونهما استعطافاً، ومن ثمّ وصلا بعدها إلى الفندق الذي بدا لهما راقياً نوعاً ما واسمه، «سيوة لودج». استقرّا في غرفة جدرانها بيج مصنوعة من حجر الكرشيف، وهو حجر محلي مكون من الملح المتحجر والطين. وفي هذا الفندق أيضاً شرفة واسعة تطلّ على بستان من أشجار النخيل. استقبلهما سرب من الناموس، ولحسن الحظ لاحظا أنّ الأسرّة مجهّزة بستارة شبكية ومروحة تقضي فعلياً على الناموس.

استقلا سيارتهما من جديد وتوجها إلى الجبل الأبيض. ذكّرتهما النتوءات الصخرية للجبل التي بدت لهما من البعيد، بالهضاب التي تخترقها الأخاديد كما في مشاهد أفلام الغرب الأمريكي. فالتلال شديدة الانحدار وممتلئة بالتجاويف الصغيرة المحفورة بسبب الرياح والأمطار. تمكنا من إيجاد درب للوصول إلى وسط الجبل. بعد أن تفحّصا طويلاً جميع المغارات بواسطة المصباح اليدوي، لاحظا أخيراً مغارة محصورة بين مغارتين ومغلقة أساساً بصخرة كبيرة مغطاة بالنباتات.

إنّها هنا.

- قصة البيضة والدجاجة، قالت أوبال بنفَس فلسفيّ، متأملة بهذا الجوف الذي يبدو مغلقاً بسدادة معدنية. يا ترى من وصل إلى هنا أولاً؟ هل فعلاً نحن وراء إغلاق هذا الكهف العملاق، أم لأنّ هذا الكهف مغلق مسبقاً لهذا سوف نختاره من أجل جيب؟
- في جميع الأحوال، يبدو أنّ هذا الكهف يتناسب تماماً مع الذي نبحث عنه.

التقطا بعض الصور وسجّلا إحداثيات المكان بالضبط على خط الطول والعرض كما بين لهما جهاز جي بي إس.

وعند حلول الظلام، استقلّا سيارتهما وعادا إلى الفندق. تناولا في غرفتهما طعام العشاء الذي يتضمّن؛ طبق الكشري بالأرز والمعكرونة والعدس وفوقها صلصة حارة لذيذة، وبعدها، جلس رينيه كعادته منتظراً موعد الساعة 23:23.

- مساء الخير يا ني- هي.
- صباح الخير يا جيب. كيف تجري عملية الاستقرار في مستوطنتكم؟
أخذه الأطلانطسي بجولة على عشرات المنازل التي أنشأوها بشكل دائري ووضعوا في وسطها هرماً خشبياً صغيراً.
- لقد وجدت المكان الذي تستطيعون فيه إخفاء الجرار. إنّها مغارة في جبل يسمى بالجبل الأبيض. والمشكلة الوحيدة أنّه بعيد عن ميم- فيس.
- كم يبعد؟
- لنقل على بعد عدة آلاف من الدلافين. إنّ المسافة التي تفصلكم عن هذا المكان متصحّرة الآن في وقتنا الراهن، ولكن في عصركم قد يكون هناك غطاء نباتي.
- حسناً، سوف نقوم بما يجب علينا القيام به، فالقضية تستحق بذل هذا المجهود. في النهاية، أليس كلّ ما أعيشه الآن رغم كلّ شيء، هو بمنزلة هدية لي، فقد كان من المفترض أن أكون ميتاً الآن بسبب الطوفان؟
اقترح رينيه على جيب أن يأخذه في رحلة إسقاط نجمي كي يدلّه على المكان بالضبط.

93. مذكرات. صندوق باندورا (متابعة واختتام).

لم تتوقف قصة صندوق باندورا في الأسطورة الإغريقية عند هذا الحدّ.

عندما فتحت باندورا بدافع فضولها، جرّة الطين هذه المعروفة باسم «صندوق باندورا»، وحرّرت جميع الشرور البشرية مثل الحرب والشيخوخة والمرض... إلخ. تابعت حياتها مع زوجها أبيميثيوس، وأنجبت منه طفلة أطلقا عليها اسم بيرها.

والجدير بالذكر أنّ أبيميثيوس وبروميثيوس كانا أخوين عملاقين (وهما أبناء العملاقين إيابيتوس وكلايمني)، وأيضاً باندورا كانت عملاقة، وابنتها بيرها عملاقة مثلها.

تزوجت بيرها بدورها من عملاق اسمه ديوكاليون، وهو ابن بروميثيوس وبرونويا.

ولكنّ زيوس كان قد تملكه الغضب مجدداً ضد البشر الفانين، لذا طلب من بوسيدون أن يُحدث طوفاناً ويبتلع البشرية كلّها مرة واحدة وإلى الأبد.

ولم ينجُ من هذه الكارثة إلا اثنان وهما بيرها وديوكاليون. لأنّه تمّ تحذيرهما من الطوفان مسبقاً، فنجحا في الواقع، بالجلوس على قمة جبل بارناسوس قبل أن يفيض المحيط بمائه ويغرق سطح الأرض بأكمله.

عاد كلّ من ديوكاليون وبيرها وملآ الأرض بالبشر باستخدام طريقة فريدة؛ قاما بجمع الحصى ورميها وراء ظهريهما. فتحولت الأحجار التي رمتها بيرها إلى نساء، والأحجار التي رماها ديوكاليون تحولت إلى رجال.

إنّ كلمة لاوس، في اللغة اليونانية تعني «حجراً» و«شعباً» على حدّ سواء.

يمكننا القول إنّ هذا تعبير مجازي، وإنّ بيرها ابنة باندورا، وديوكاليون ابن بروميثيوس، قد سافرا وأنشآ مستوطنات أتاحت للبشرية التوالد من جديد على سطح هذا الكوكب.

-94-

فتح جيب عينيه وتنفس بعمق. يشعر بعد كلّ جلسة تأمل يقوم بها بأنّه كان يحلم وأنّه بحاجة إلى لمس محيط جسده كي يستعيد إحساسه «بقميصه» الجسدي. وتكون نوت كعادتها في كلّ مرة، تتوق لسماع ما سيحدّثها عنه.

– لقد دلّني ني– هي على المكان الذي نستطيع إخفاء الجرار فيه. إنّه على بعد عدّة أيام سيراً باتجاه الجنوب.

– سيتوجب علينا اجتياز منطقة صحراوية ونحن نحمل هذه الجرار؟

– لذلك علينا أن نجهّز جرتين فقط. واحدة لك والأخرى لي. وهكذا، يستطيع كل منا حملها على ظهره بعد ربطها بالحبال.

– هل بدأت بكتابة المخطوطات؟

– بالطبع، ولكن يلزمني بعض الوقت أيضاً.

جاءت نوت واحتضنته بحنان بين ذراعيها وهمست له:

– أستطيع أيضاً الكتابة إن كان هذا سوف يسرّع العملية.
– نعم، إذا أردت ذلك.
نظر إلى الأفق ولمح أيضاً خيالات لبشر أقزام.
– إنّ عددهم يزداد أكثر فأكثر.

شعر الأطلانطسي في هذه اللحظة بالذات، بعاطفة تجتاحه من أعماق قلبه لم يكتشفها إلّا مؤخراً: القلق من خطر مجهول. يعرف أنّ الخوف قد خذلهم في اللحظة التي كان حضوره ضرورياً جداً. ولكنّه الآن لم يعد يفارقهم قط. وليس لديه شيء يسانده ويدعمه سوى هذا التواصل مع روح المستقبل التي تقوم بتوجيههم.

راقب جيب من خلال نافذة منزله الخشبي رفاقه الأطلانطسيين الذين بدورهم لاحظوا التهديد الذي يشكله هؤلاء السكان المحليون الذين يتوافدون ويطوقونهم بالتدريج.

-95-

بعد ليلة نوم هانئ، لم يعكر صفوها سوى لدغات حشرات الناموس، استيقظ رينيه أولاً. وراح يراقب أوبال من جديد وهي نائمة.

ما الذي تفعله في حياتي؟ من تكون؟ إنّنا نعيش معاً منذ مدّة لا بأس بها، وعلى الرغم من أنها أخبرتني عن مراهقتها، وأسرّت لي عن جراح طفولتها، واكتشفنا معاً إحدى حيواتها السابقة الأكثر ألماً، ولكن في النهاية أنا لا أعرفها. إنّها نوع من التسوية الغريبة بين خيال والدها وصرامة والدتها. ولأنها عاشت دائماً مشتتة بين طاقتي والديها، أصبحت مثلي تتوخى الحذر من فكرة الارتباط، صحيح أنّه مصدر جميع الآمال ولكنّه أيضاً مصدر جميع الخيبات. ورغم ذلك، يجب الاستمرار بالإيمان به. ومن جهتي، أنا أؤمن بها. إنّها تبثّ طاقة جميلة جداً.

استيقظت أوبال أخيراً وأخذت تتمطى. إنّه يجدها في كلّ حالاتها، وبكلّ ما تفعله أخّاذة دائماً. فتحت عينيها ونهضت. ألقت نظرة سريعة على ساعتها.

– لا وقت لدينا لنضيّعه. يجب الذهاب إلى هناك قبل أن يصبح الطقس حاراً جداً. قالت ذلك بمنزلة صباح الخير.

لم يتناولا فطورهما بل استحمّا وارتديا ملابسهما ومن ثمّ استقلّا السيارة باتجاه الجبل الأبيض. بدت الكتل الصخرية بلونها البيج الفاتح في ضوء النهار، كأنّها طاولة مستطيلة ضخمة موضوعة في وسط الصحراء.

وصلا أمام الكهف المسدود. كان الهواء الساخن حولهما يجعل الرؤية غير واضحة.

سيتقرر الآن كلّ شيء. سأعرف الآن إن كان بإمكاني التأثير على الماضي.

إنّ درجات الحرارة ترتفع بسرعة في هذه المنطقة. وقد شعرا بأنّ الهواء الجاف يحرق رئتيهما، على الرغم من جرعات الماء الصغيرة التي يبتلعانها بشكل منتظم.

– هيّا لنسرع، استعجلته أوبال.

أخرج رينيه أصابع الديناميت ووضعها تحت الصخرة الدائرية التي تسدّ مدخل الكهف. ومن ثمّ قام بمدّ الفتيل الطويل المتصل بالمفجر الآلي. ومن ثمّ انبطحا أرضاً خلف أحد المنحدرات ووضعا أيديهما على آذانهما، وبعدها ضغط رينيه على المفجر الآلي بقدمه.

تطايرت القطع الصخرية فوقهما بسبب الانفجار الذي سبّب أيضاً هزّة أرضية. لقد خلفت الصخرة الكبيرة الدائرية مكانها ركاماً من الأنقاض.

أخرج رينيه مصباحه الكهربائي وأضاء التجويف الذي تكشّف بعد انهيار الصخرة. إنّه عبارة عن أخدود صخري يمتدّ تحت سطح الأرض. نزلا في هذا النفق الطبيعي الذي يبلغ ارتفاعه عشرات الأمتار.

كان على الأطلانطسيين الانحناء للمرور هنا.

إنّ النزول في هذا الدهليز صعب. فقد تسبّب تسرب المياه المالحة بتكوّن رواسب كلسية متدلية وصواعد مدببة حادة، يزداد عددها وحدتها أكثر فأكثر. تابعا تقدمهما متجاوزَين هذه الصواعد.

من المحتمل أنه قبل اثني عشر ألف عام لم تكن هذه الصواعد والنوازل موجودة. أو على الأقل لم تكن بهذا الطول في ذاك الزمن.

كلّما توغلا عميقاً في النفق يصبح الهواء منعشاً ورطباً أكثر.

إنّ هذا الفم الحجري المظلم يبتلعنا.

يواصل النفق انحداره إلى الأسفل، ليكشف عن وجود كهف أعمق ممّا كانا يتوقعانه.

نحن الآن في المريء.

وأخيراً، وصلا إلى كهف واسع في وسطه حوض فيروزي مشبع بطبقات من الملح بانعكاسات بلورية.

هي ذي معدة الجبل مع عصارتها المعوية.

إنّ المكان مرتفع وواسع. لذا أضاء المستكشفان الجدران، فشاهدا في أسفل هذه الكاتدرائية المكونة من الأملاح المعدنية، نتوءات صغيرة ونافرة. كانا مسحورين بما اعتقداه صواعد كلسية؛ فقد شاهدا نتوءات حادة، ورقيقة ومنحنية.

هل هذه أضلاع!

قاما بتسليط الضوء على امتداد النتوءات، فشاهدا الفقرات البشرية التي تنتهي بالأحواض.

إنّها هياكل عظمية عملاقة.

إنّ شكل الحوضين المختلف جعلهما يميزان الهيكل العظمي للرجل عن الهيكل العظمي للمرأة. كما شاهدا فوق هذه الفقرات مثلثات الترقوة المسطحة، وفوقهما أيضاً جمجمتين شبيهتين بجمجمة الإنسان بقطر يساوي عدة أمتار.

دخل رينيه إلى المحيط الذي يشكل الرأس الأكبر والذي هو على الأرجح جمجمة الرجل.

هل أنا داخل جيب؟ إن كان الأمر كذلك، فأنا الآن أقف بالتحديد حيث كَان دماغه. ومن الممكن حتى أن أكون واقفاً فوق منطقة الحُصين على وجه الدقة.

أضاء رينيه داخل الجمجمة، جاعلاً الشعاع يخترق تجويف العين الفارغة.

دخلت أوبال من جهتها إلى الجمجمة الأنثوية التي حجمها أقل بقليل من جمجمة الرجل. تخطّت حاجز الفكّ السفلي وأضاءت عظام الأنف. يمتد العمود الفقري لهذا الهيكل العظمي حوالي عشرين متراً. راحت أوبال تمشي بمحاذاة عظام الذراع الطويلة من العضد والساعد.

تتبّع كلّ من رينيه وأوبال مساره، فوجدا أنفسهما في المكان الذي يتشابك فيه مشطا وسلاميات كلا الهيكلين العظميين بعضهما مع بعض.

– لقد كانا يمسكان أحدهما بيد الآخر لحظة موتهما، قالت المنومة متأثرة بما رأته.

وجّهت مصباحها الكشّاف إلى صدر الهيكل العظمي الأنثوي. فلمع شيء ما على صدر الهيكل؛ إنّها قلادة تنتهي بدلفين. كما أنّ الهيكل العظمي للرجل يحمل نفس القلادة.

لا يمكن أن يكون هذان الهيكلان إلّا لهما.

اضطربت أنفاس رينيه وأوبال.

لقد نجحا، لقد نجحنا.

– لم أكن أرغب قط في تصديق ذلك كليّاً، إلى أن جاءت هذه اللحظة. قالت معترفة.

وجها مصباحيهما وأضاءا الهيكلين العظميين المحفوظين بشكل مثاليّ. إنّ الهيكلين كاملان تماماً. تابع رينيه البحث في الكهف متفحصاً الجدران بمصباحه المضيء. لقد أضاء الكهف من جميع الزوايا المحتملة، وأخيراً توقف عند أحد التجاويف.

– هنا!

أشار إلى جرتين كبيرتين بارتفاع عشرة أمتار.

– سنكسرهما كي نتحقق من وجود اللفائف، أليس صحيحاً؟

رفعت أوبال فأسها، ولكنّ رينيه أمسك معصمها.

– حتى مخطوطات البحر الميت أصابها الضرر بعد تعرضها للضوء والهواء. فبمجرد تحطيم الجرار، انهارت المخطوطات وتحوّل

معظمها إلى وريقات صغيرة وغبار. وتوجّب بعدها على علماء الآثار العمل بدقة بالغة جداً لمدة أعوام كي يعيدوا تركيب النصوص التي تحولت إلى قطع من الألغاز.

- ماذا تقترح؟

- لقد انتظرا اثني عشر ألف عام، يستطيعان أن ينتظرا أيضاً بضع ساعات.

أضاء رينيه على رمز الدلفين المحفور على كلا الجرتين.

- إنّها علامة على الاعتراف بالجميل كما اقترحها عليّ جيب. لا شكّ في أنّ هاتين هما الجرتان اللتان تحتويان على النصوص الثمينة والهشة أيضاً.

- علينا أن نؤرّخ هذه اللحظة.

قاما بإخراج آلات التصوير والتقطا صوراً من جميع الزوايا.

- سيكون بإمكاننا الآن الكشف للعالم بأسره عن اكتشافنا هذا، وعن وجود أطلانطس، وحقيقة ما جرى قبل اثني عشر ألف عام. قالت أوبال.

بقي رينيه متلبّكاً.

- حتى بوجود هذه الصور لن يصدقنا أحد. سيكون هناك دائماً متشككون يدّعون بأنّها صور مزوّرة. ومن جهة أخرى، فالإنترنيت يغصّ بالصور التي تمّ التلاعب بها والتي تجعلنا نعتقد بوجود هياكل عظمية للعمالقة. وسوف يعتبرون هذه الصور مثلها مثل تلك المزيفة.

- إذاً ماذا سنفعل؟

- يلزمنا شهود حياديون وموضوعيون بعيدون عن أيّة شبهة. والأمثل أن يكون هذا صحفياً مشهوراً أو رجل علم معروفاً بجدّيته. لذا، لن نلمس أيّ شيء الآن، وسوف نجلب وسائل الإعلام وعلماء الآثار إلى هنا. وحينها، سيكون لدينا أخيراً أدلة دامغة وسيعرف وقتها العالم بأكمله حقيقة ما جرى.

راقبت أوبال بحنان هذين الهيكلين العظميين العملاقين.

- أن يموتا وهما ممسكان أحدهما بيد الآخر هنا بعد أن أكملا مهمتهما، فلا بدّ أنّ هذين الأطلانطسيين كانا يحبان بعضهما بعضاً حباً جمّاً.

ابتسم رينيه وفكّر؛ *هذه أجمل قصة حبّ عشتها من بين المائة والإحدى عشرة حياة السابقة، وتعود إلى اثني عشر ألف عام.*

-96-

بدأ جيب التوثيق على مخطوط ورق البردي باستخدام غصن رقيق ينقع رأسه المنحوت بالحبر ويكتب.

«أُدعى جيب وهذه شهادتي عن كلّ ما رأيته وعشته:

«ولدت في جزيرة ها- ميم- باث. وقد وُجد على هذه الجزيرة عالم، عالمنا. كان عددنا على هذه الجزيرة ثمانمائة ألف نسمة وكنّا نعيش فيها بسعادة.

«لقد اضطررنا إلى مغادرة الجزيرة بسبب كارثة طبيعية حلّت بنا. فقد توالت علينا في يوم واحد، سلسلة من الهزات الأرضية، والانفجارات البركانية كما ظهرت موجة عالية جداً هدمت كلّ ما كنّا بنيناه.

«وهكذا اندثرت حضارتنا كلها».

«ولكن استطاعت مجموعة منّا الهروب في الوقت المناسب ونجحنا في الوصول إلى هنا، على هذه الأرض التي تزيد مساحتها على مساحة الجزيرة. يبدو كلّ شيء هنا مختلفاً وغريباً. فالنباتات والحيوانات جميعها صغيرة جداً..».

كانت نوت تقرأ ما يكتب من فوق كتفه.

- كيف سينجح في قراءة لغتنا؟ سألته نوت.
- أنوي تعليم رينيه أبجديتنا ومفرداتنا. بما أنّنا نتواصل بسهولة عبر العقل، لن يكون من الصعب شرح أساسيات لغتنا له بهذه الطريقة.
- إنّها رسالة تتوجه بها إلى رجل في المستقبل، فلا تنسَ أنّه سيكون لديهم بالضرورة مراجع ومستندات أخرى.
- سوف أشرح له كلّ كلمة. ولكنّ الأهم هو أن يُكتب هذا النص أولاً، وثانياً أن يكون بالمستطاع العثور عليهما.

قُرع بوق الإنذار من بعيد، فخرج جيب ونوت بسرعة من منزلهما

الخشبي، وشاهدا منظراً تقشعرّ له الأبدان. لقد ظهر من التلال التي تحيط بهم آلاف الناس الأقزام وهم مسلحون بالعصي والرماح. وقد بدأوا يضربون السهام باتجاههما.

- ما هذا؟

- أعتقد أنّ هذا ما يطلق عليه ني- هي مفهوم «الحرب». إنّ أشباه البشر يحاولون قتلنا.

اندفع في الواقع، الأقزام البشريون بأعداد كبيرة ضد هؤلاء الغرباء العمالقة الذين أتوا لبناء مدينة فوق أراضيهم.

كانت رؤوس السهام مصنوعة من حجر الصوان المدبب، وتمّ شحذ رؤوس الرماح بالنار، ولكنّها لم تستطع خرق بشرة الأطلانطسيين، بل كانت تعلق عليهم كالإبر الصغيرة.

لقد تمّ استهداف الوافدين الجدد من قبل السكان المحليين. وقام المئات من الأقزام البشرية الذين يرتدون جلود الحيوانات بالتسلّق على بعض العمالقة وقد بدا عليهم أنّهم غاضبون ويريدون إيذاءهم. وكانت النسوة القزمات يطلقن صرخات عدوانية ويلوحن بما يشبه السكاكين المصنوعة من حجر الصوان، ويقمن بغرزها في أقدام العمالقة.

لحسن الحظ، لم يجد العمالقة أيّة صعوبة في صدّ الهجوم الأول وبثّ الذعر في هؤلاء الأعداء الضعفاء.

وبإشارة واحدة من أحد الأقزام، تراجع المهاجمون جميعهم ورحلوا مثل سرب من طيور الزرزور.

- أعتقد أنّنا سنواجه بعض المتاعب مع السكان الأصليين، قالت هذا نوت وهي تنزع برفق بضع سهام استقرت في فخذها.

-97-

- هل تمزح؟ هل قلت أطلانطسيين حقاً؟ في كهف يقع قرب واحة في الصحراء المصرية؟ عفواً، ليس لدينا الوقت لنضيّعه بهذا النوع من الهراء.

أغلقوا الهاتف في وجهه. فعاد رينيه وأوبال إلى غرفتهما في الفندق. حاولا التواصل عبر الهاتف بجميع رؤساء مكاتب التحرير لجميع القنوات التلفزيونية، وجميع الصحف اليومية.

لم يتعامل معهما أيّ أحد بجدية، رغم محاولاتهما الشرح. فكانا في كلّ مرة يحصلان على إجابة واحدة هي السخرية والاستهزاء والتهكم. وفي أغلب الأحيان كانا يتصلان بأشخاص يغلقون الخط فجأة دون أن يتكلفوا عناء إنهاء المحادثة بطريقة لطيفة.

- سوف نواجه صعوبات في نشر اكتشافنا، أليس صحيحاً؟

- كلّ ما هو جديد يبدو في البداية سخيفاً، ومن ثمّ يُعتبر شيئاً خطيراً، وفي النهاية يصبح أمراً بديهياً. مثل برج إيفل.

- إنّ حق التصويت للمرأة قد مرّ أيضاً بهذه المراحل الثلاث...

حاول رينيه بعدها التواصل مع محررين في الأعمدة الصحفية التي تعنى بالتاريخ أو بالآثار. ولكنّه تلقّى أيضاً رفضاً مهذباً، فوجد نفسه يقلّل تدريجياً من سقف شروطه. ومع ذلك لم يلقَ عرضه صدى إلّا من قبل بعض مواقع الإنترنيت مثل مواقع العصر الجديد، والسحر، والمؤامرات، وقد أعلنت هذه المواقع عن اهتمامها وجهوزيتها بنقل هذه المعلومة، ولكنّ رينيه نصح أوبال بعدم الاستمرار بالتواصل مع هذه الصفحات:

- إنّ دعمها لن يقوم إلّا بتشويه ما اكتشفناه.

- إذاً ليس لدينا رسمياً في هذه الحالة أيّ مهتمّ، وقد قمنا بهذا العمل واكتشفنا كلّ هذا عبثاً.

قام رينيه مستسلماً، بمحاولته الأخيرة. فطلب رقماً وانتظر.

- مرحباً إيلودي، يجب أن تساعديني.

- رينيه! أين أنت؟ الجميع يبحث عنك!

- أعرف، إنّهم لا يبحثون عنّي بالطبع لمصلحتي، بل لأجل قضية السكينهيد وحريق المستشفى أليس كذلك؟

- أوه كلّا! فيما يخصّ قضية السكينهيد، فإنّ الشرطة وجدت أخيراً فيديو

يظهر فيه جلياً أنّ السكينهيد كان معتدياً وأنّه في النهاية، هو من قام بغرز السكين في جسده.

تباً، هل من الممكن أن يأتي الشرّ ويذهب أيضاً بهذه السهولة؟ هذا يعني أنني لو لم أتصل بها، ما كنت لأعلم قط أنّ كلّ شيء قد تمّ حلّه دون قيامي بأيّ شيء.

- من الممكن فقط أن تتعرض لبعض المتاعب بسبب «التمنّع عن مساعدة شخص بوضع خطر»، فربما كان بالإمكان إنقاذ حياته. ولكن لن توجّه إليك من جديد تهمة قتله. ولن يُدّعى عليك إلّا بتهمة إلقاء الجثة في النهر. ومن الواضح أنّها تهمة أقلّ خطورة بكثير.
- وماذا بشأن المستشفى؟
- لقد تمّ استجواب إحدى النساء المريضات وقد أكّدت أنّها كانت شاهدة عمّا حدث. لقد قالت إنّ تشوب كان يقوم بتعذيبها وإنّك أنت من قدّم لها المساعدة. هناك ما يكفي من الأدلّة المثيرة للشكوك كي تقوم الشرطة بفتح تحقيق مع الطبيب. وفي النهاية، هو الآن من يخشى توجيه الاتهامات ضده!

تستطيع العودة وسيكون بإمكانك حتى الإدلاء بشهادتك عن الوقائع التي جرت، لم تعد أنت معرّضاً للاستجواب. وأستطيع أن أؤكد لك أنّ تشوب نفسه قلق من شهادتك أنت بالذات.

وهكذا دارت العجلة. يكفي في بعض الأحيان الانتظار ريثما تتبدل الظروف وحدها. من كان في الأسفل يصعد، ومن كان في الأعلى يسقط.

- لديّ في الوقت الحالي أمرٌ طارئ هنا حيث أنا. وأنت وحدك من يستطيع مساعدتي، ولهذا أتصل بك، فأنا بحاجة حقاً إلى مساعدتك.
- أين أنت؟
- أنا في واحة سيوة في وسط الصحراء جنوبيّ مصر بالقرب من الحدود الليبية.
- ماذا تفعل في الصحراء؟ هل ذهبت إلى هناك هرباً من الشرطة؟
- سوف أشرح لك. ولكن قبل هذا، يجب بأيّ ثمن أن تفعلي شيئاً ما من أجلي ومن أجل الحقيقة أيضاً.

سمعها تطلق تنهيدة يائسة.

- أوه لا، لا تقل لي إنّك ما زلت تذهب بعيداً في أوهامك حول أطلانطس؟

- في الواقع، إنّهم عمالقة. وهذا الأمر يتجاوز ذواتنا الشخصية الصغيرة. إنّها معلومة يجب على العالم بأسره معرفتها. إنّها حقيقة تاريخية يجب الأخذ بها.

- جيد، حسناً، أنا أسمعك.

شرح رينيه توليدانو بأدق التفاصيل كلّ ما جرى له منذ آخر مرة رآها فيها. وعندما انتهى من قول ما في جعبته، أجابت مدرسة العلوم بعد صمت طويل.

- هل تقول إنّ هناك جراراً تؤكد كلّ ما قلته؟

- إنّهما جرتان وهيكلان عظميان. وليس عليك سوى القدوم إلى الموقع لتوثيق هذه القطع وتأريخ النصوص بواسطة الكربون المشع. وبالتالي لن يتبقّى هناك أدنى شك حول ذلك.

- إنّ هذا يبدو في جميع الأحوال إشكالياً نوعاً ما. ما هو دليلك الحاليّ على هذا؟

- لديّ صور، لقد التقطتها منذ بضع ساعات فقط.

- هل تستطيع إرسالها لي عبر البريد الإلكتروني؟

اختار أستاذ التاريخ أفضل الصور وأرسلها من فوره.

تفحّصت إيلودي الصور.

- عليّ الاعتراف بأنّ الصور لا تبدو مزوّرة، حتّى وإن كانت صوراً مركبة فهي أيضاً منجزة بطريقة رائعة.

- أقسم لك بأنّها ليست مركبة.

- وأنت تؤكد أنّك قمت باستخدام الديناميت لتفجير الصخرة التي كانت تسدّ مدخل الكهف حتى استطعت الوصول إلى هذا الاكتشاف. كيف كان بإمكانك معرفة أنّه كان هناك شيء ما خلف هذه الصخرة؟

- إن كلّفت نفسك عناء المجيء إلى هنا لملاقاتي، سوف أجعلك تشاهدينه وسأشرح لك كلّ شيء.

- لا تقل لي إنّ هذا بفعل التنويم المغناطيسي التراجعي؟
- أيّاً كانت الوسيلة، فالنتيجة هي المهمة. لقد شاهدتِ الصور وإن أتيت إلى هنا سوف تشاهدين كلّ شيء وستفهمين حينها كلّ شيء. نحن أمام اكتشاف أثريّ وتاريخيّ جوهري، يمكن أن يقلب جذرياً معرفتنا بالماضي.

ترددت إيلودي تيسكيت.

- اسمعني، لديّ رغبة بالوثوق بك لهذه المرة فقط. سوف أرى ما يمكنني فعله لمساعدتك. ماذا تحتاج بالضبط؟
- يلزمني عالم معروف بمصداقيته وصحفي مشهور كي ينشر هذه المعلومات ويُعرّف الناس بها.

أغلق رينيه الخط.

- ليس علينا الآن سوى الانتظار، قالت أوبال.

أعادا عرض الصور التي التقطاها على شاشة تلفازهما الكبير. توقفا عند تلك الصورة التي تعرض بشكل واضح، الهيكلين العظميين العملاقين وهما ممدّدان في الكهف. إنّ رؤية عظام يديهما المتشابكتين تجعلهما يشعران بغصة صغيرة في القلب.

98. مذكرات. خطأ الحنين إلى الماضي.

إنّ جملة «الماضي كان أجمل»، كانت لفترة طويلة بمنزلة لازمة لأولئك الذين يحنّون دوماً إلى الماضي الذي ينظرون إليه بمثالية.

هذه بضع معلومات موضوعية تقوّض هذا الشعور بالحنين:

أول مرة تمّ فيها حساب متوسط عمر الإنسان يعود لتاريخ 1740م.

وكان متوسط عمر الإنسان في فرنسا في ذلك العام خمسة وعشرين عاماً، وَأصبح في عام 1900م، خمسين عاماً، وارتفع في عام 2000م، إلى ثمانين عاماً.

إذاً في أقلّ من ثلاثة قرون، تزايدت أعمارنا أكثر من ثلاثة أضعاف.

كما كان معدل وفيات الأطفال مرتفعاً جداً أيضاً. ففي فرنسا عام

1740م، كان يموت ربع الأطفال خلال السنة الأولى من حياتهم. ويموت ثلث الأطفال قبل بلوغهم سنّ الخامسة عشرة. ونتيجة لهذا، لم يكن يعرف الوالدان أيّاً من أولادهما سيبقى على قيد الحياة، لذا لم يكونا يغدقان الكثير من العواطف تجاه أولادهما، وكان يُعهد بالأطفال إلى المربيات.

حتى بالنسبة لأولئك الذين كانوا يبقون على قيد الحياة، لم تكن تجاربهم مع الأمراض سهلة، فقد كان الطب في حينها لا يزال بدائياً، والعمليات الجراحية البسيطة يقوم بها الحلاقون حتى عام 1900م لأنهم يمتلكون المقصات والأمواس الجيدة. ولسوء الحظّ، نادراً ما كانت هذه الأدوات نظيفة ومعقمة. وعند حدوث أدنى التهاب، يقومون بالبتر فوراً تجنباً لحدوث الغرغرينا. وبالنسبة لعمليات البتر، لم يكن الحلاقون من يقومون بها وإنّما الجزّارون والحطابون لأنّهم يملكون الأدوات اللازمة ويتقنون استخدامها جيداً. والحال نفسه بالنسبة لطب الأسنان؛ فكانوا يقتلعون الأسنان التالفة بواسطة الملقط. وهنا أيضاً تتمّ العملية دون تخدير، وتجري في السوق الشعبي، فيتجمع الكثير من الناس لحضور العملية كما لو أنّهم يشاهدون عرضاً مسرحياً.

بما أنّ المياه لم تكن مؤمّنة إلى المنازل، فقد كان الناس نادراً ما يغتسلون وبعضهم لا يغتسل أبداً.

بما أنّه لم يكن هناك سوى القليل من أعمدة الإنارة في الشوارع، فإنّ أيّ نزهة ليلية كانت تجري في ظلام دامس وغالباً ما يكون الشخص معرّضاً للسرقة. لذا نادراً ما كان الناس يخرجون من منازلهم بعد حلول الظلام.

كما كانت الرحلات الطويلة خطيرة جداً بسبب وجود الكثير من العصابات على الطرقات (أغلبهم جنود عاطلون عن العمل).

والأغذية أقلّ تنوّعاً وأقلّ رقابة. ولم يعرف الناس قبل اختراع الثلاجات، كيفية الحفاظ على اللحوم سوى باستخدام الملح الذي كان تناوله الزائد يضرّ بالجهاز الهضمي.

كما أنّ الأمراض التي تنتقل بالاتصال الجنسيّ كانت تفتك بالناس مثل مرض الجدري الصغير والزهري.

على الرغم من أنّ الأخبار اليومية مقلقة بشكل عام في أيامنا الحالية، ولكن من الواضح أنه في وقتنا هذا تضاءلت كثيراً أعداد الوفيات التي تحدث بسبب المجاعة أو الحروب. كما قلّت الأوبئة أيضاً، وانخفض بشكل ملحوظ خطر التعرض للقتل، وقلّ العنف بشكل عام. ففي فرنسا مثلاً، انخفض معدّل جرائم القتل إلى النصف خلال العشرين سنة الأخيرة. ولكن نظراً إلى أنه يتمّ بالتوازي تسليط الضوء بشكل أكبر على حالات العنف، فلهذا السبب فقط نشعر أنها تتصاعد.

إنّ الرغبة بمعرفة عالمنا من خلال رؤية الأخبار اليومية تشبه الرغبة بمعرفة مدينة باريس من خلال زيارة قسم الإسعاف في أحد مستشفياتها.

-99-

لم تدم الهدنة طويلاً. فقد أشارت نوت إلى التلال المحيطة بهم والتي تغطت بخيالات الأقزام. إنّ أشباه البشر لم يعودوا بالآلاف، بل أصبحوا الآن عشرات الآلاف.

شعر جيب بالقلق.

- خذي الأطفال إلى مكان آمن، أسرّ جيب إلى نوت بذلك.

-100-

من نافذة الفندق، وخلف أشجار نخيل الواحة، راحا يتأملان البحيرتين المالحتين بضفافهما المغطاة ببقايا الأملاح المتلألئة، والقلعتين المبنيتين على سفح الجبل اللتين تشهدان على المعارك التي جرت قديماً وسط هذه الصحراء.

وأخيراً رنّ الهاتف.

- لديّ خبر جميل وخبر سيئ، قالت إيلودي.

- أخبريني أولاً الخبر الجيد.

وضع رينيه الهاتف بوضع مكبر الصوت كي تستطيع أوبال سماع الحديث أيضاً.

- لقد قمت بحلّ مشكلتك، هل تذكر عندما سبق أن حدثتك عن صديق الجامعة الذي كان مغرماً بي والذي أصبح فيما بعد نجماً تلفزيونياً؟ كان اسمه غوتيه، هل تتذكره؟ حسناً، لقد تواصلت معه، وحدثته عن قصتك، وعرضت عليه الصور التي أرسلتها لي. إنّه جاهز للقدوم وإجراء تقرير صحفي في المكان.

أخيراً.

- غوتيه كارلسون؟
- هو ذاته!
- هذا سيكون مثالياً.
- اسمع، ليكن هذا سرّاً بيننا، أعتقد أنّه ما زال مغرماً بي وهو يعوّل على هذه القصة كي يجرّب حظّه معي من جديد.

الفرق الشاسع بين أهمية هذا الاكتشاف، والسبب الذي يدفع الصحفي للقدوم إلى هنا، قد أدهش رينيه.

تقول لي ببساطة إنّ إمكانية اكتشاف وجود أطلانطس تتوقف على أنّ الشاب الذي كان يغازلها في شبابها ما يزال يرغب بمواعدتها ويستغلّ هذه الفرصة لهذه الغاية.

ابتلع ريقه، محاولاً عدم إظهار استيائه.

- وما هو الخبر السيئ؟
- لم أجد عالماً «جاداً» وفقاً لشروطك. لذا سيتوجب عليك الاكتفاء بي. فأنا لديّ شهادة في علم الحفريات وقد درست هذا الفرع بدافع الرغبة المحضة.
- أعتقد أنّه بوجود صديقك الصحفي وشهادتك أنتِ في هذا المجال، سيكون هذا كافياً.
- ونحن لن نكون وحدنا، لأنّ غوتيه يريد القدوم مع طاقم تصوير كامل.
- متى ذلك؟
- غداً، عليّ الاعتراف بأنّك أقنعتني هذه المرة.

– إنّ هذه القصة بدأت تثيرني. أريد أن أرى هذا الكهف. وقال لي غوتيه إنّه سيبذل قصارى جهده للحصول على عدّة التأريخ بالكربون المشع.

– أنت مذهلة يا إيلودي.

– هناك فقط تفصيل صغير؛ بما أنّ غوتيه يريد المجيء لتوثيق هذا الحدث بطريقة رسمية، سوف نكون بحاجة أيضاً لتصريح رسمي من وزارة الثقافة المصرية يسمح لنا بالتصوير. لذا يجب عليك أن ترسل لي إحداثيات الجي بي إس الدقيقة لمغارتك، كي نستطيع التواصل مع السلطات والحصول على هذا التصريح.

– ليست مشكلة، ولكن عندما تتحدثين عن وزارة الثقافة، تريدين القول إنّنا قد نحصل على اعتراف رسمي من الحكومة المصرية؟

– بالطبع، سيكون هذا بمنزلة مصدر قوة إضافيّ لاكتشافك هذا على ما أظن.

– نعم، بالطبع، ولكن...

– ولكن ماذا؟

– قد نكون متسرعين قليلاً بهذا الإجراء في العمل. يبدو لي أنّه في البداية يجب الحصول على تأكيد علمي، ومن ثم يأتي الدعم الإعلامي، وهذا كلّه يأتي قبل التفكير في إضفاء الطابع الرسمي.

– تعرف يا رينيه، إنّ كلّ شيء يمضي بسرعة في هذه الأيام. كما كنت تقول أنت دائماً: «التاريخ يمضي سريعاً». لقد سبق لغوتيه أن أخبر السلطات المحلية وهي بغاية الحماس؛ إنّك على الأرجح قمت باكتشاف موقع أثري جديد يمكن أن يتحوّل فيما بعد إلى متحف، وبالتالي إلى منطقة جذب سياحية، وهذا ما يمكن أن يكون فرصة لا مثيل لها لهذه المنطقة غير المعروفة. تستطيع أن تتخيل إذاً أنّ هذا الأمر سوف يثير اهتمام وزارة الثقافة المصرية بالطبع. سيأتي في الغد على الأرجح بعض المسؤولين المصريين، والمختصون من الوزارة، وربّما قد يحضر وزير الثقافة شخصياً... كنت تبحث عن الاعتراف الرسميّ،

ولا أعتقد أنك سوف تشتكي الآن من كثرته؟

- عذراً، لقد شعرت بقليل من الإرهاق فجأة. إنّ ما أعيشه يشبه من يقوم بالطرق مراراً وتكراراً على الباب وفجأة يُفتح له بعد أن يكون قد فقد الأمل بذلك.
- أنت تشعر بالزخم كثيراً؟
- القضية بغاية الأهمية وأنا مستعدّ لكلّ شيء كي يصل هذا الاكتشاف إلى أوسع جمهور ممكن، وأن يحظى بالاعتراف الرسمي. والأولوية طبعاً لوسائل الإعلام والحكومات.
- في هذه الحالة، أعتقد أنّك ستكون راضياً لأنّ غوتيه قوي جداً في مجاله وهو بالفعل متحمس حقاً. هل تعلم أنّه هو أيضاً تفحّص الصور مليّاً بوجود متخصص من القناة التي يعمل بها. وقد توصّلا إلى أنّه من المستحيل القدرة على تزوير صور بهذه الدقة العالية دون أن تنكشف. وسأقول هذا الكلام فقط بيني وبينك، إنّ غوتيه يعوّل على هذا الحدث لتعزيز مسيرته المهنية التي كانت راكدة منذ فترة من الوقت.
- لا أعرف ماذا أقول يا إيلودي.
- إذاً لا تقل شيئاً. سوف تكون مشهوراً. والآن حينما سنشاهد صورتك على التلفاز، لن تكون مصحوبة بجملة «مطلوب لجريمة قتل»، وإنّما بالأحرى ستكون مع جملة «اكتشاف علمي».
- نعم، إنّ هذا يبدو غريباً جداً، لأنّه حدث بسرعة.
- أنت شخص رائع ومصدر للإلهام. هل أستطيع أن أسميك «شامبليون[1]»؟

مازحته بمودة.

- تستطيعين تسميتي ما شئتِ! سأكون سعيداً في اللحظة التي تتكشف فيها الحقيقة للناس جميعاً. فالقضية بغاية الأهمية. وإن تطلب الأمر بعض الاستعراض من أجل جذب الانتباه، أو مصافحة المسؤولين المصريين، فأنا مستعدّ لجميع الترتيبات.

1- جان فرنسوا شامبليون عالم فرنسي كان أول من فكّ رموز اللغة الهيروغليفية القديمة. المترجمة

فجأة دوت صرخة، وهبط السكان الأصليون التلة في حشد متماسك، وهم يصرخون ويلوحون بعصيّهم وحرابهم ورماحهم وفؤوسهم الحجرية.

إنّها المواجهة من جديد بين العمالقة والأقزام.

– لماذا هم عنيفون بهذا الشكل؟ صرخت نوت.

– الخوف يولّد الخوف. بحسب ما فهمته عن عالم ني– هي، فإنّ الجميع يعيش في حالة من الهلع طوال الوقت، وكلّ ما هو جديد يقلقهم. لذلك فهم يقاتلون خوفاً من أن يُقتلوا.

– وهذا الخوف معدٍ لأنهم ينقلونه إلينا. وما أراه مفاجئاً هو أنّهم لا يحاولون حتى التواصل معنا.

فقدت امرأة أطلانطسية توازنها بسبب العشرات من الأقزام الذين قاموا بوضع حبل حول قدميها كي يجعلوها تسقط.

– ها قد بدأوا بوضع الخطط لهزيمتنا. لذا سيتوجب علينا الدفاع عن أنفسنا بطريقة حازمة أكثر.

أبعد جيب بطرف يده مجموعة من السكان المحليين، وصرخ بالمائة والثلاثة والأربعين أطلانطسياً:

– دافعوا عن أنفسكم!

صدّ الأطلانطسيون جيداً بعصيّهم الأقزام المهاجمين، محاولين رغم كلّ شيء عدم إلحاق ضرر كبير بهم. ولكنّ هؤلاء الأقزام لم يستسلموا، وقد زادت مقاومة العمالقة لهم من إصرارهم. فأحرقت السهام المشتعلة منزلاً أطلانطسياً وتعالت صرخات النصر من أفواه البشر الأقزام.

استمرت المواجهة الثانية مدة أطول من الأولى. فقد كانت السهام المشتعلة والفؤوس والرماح والحراب وسكاكين السكان الأصليين تواجه عصيّ وركلات ولكمات أيدي العمالقة.

اشتعل منزل أطلانطسيّ آخر، وهذا ما شجّع البشر الأقزام على الاستمرار بهجماتهم.

- والآن، كيف يمكننا معالجة هذا الوضع؟ سألت نوت وهي تبعد بعصاها مجموعة من المهاجمين.
- إنّ هذا الوضع يفوق تصوري، أعتقد أنّنا بخطر مرّة أخرى. يجب أن أتحدث فوراً إلى ني- هي.
في اللحظة التي نطق فيها بهذه الجملة أصابه سهم مشتعل في خده.

-102-

- يجب الاحتفال بهذا الخبر.
فتحت أوبال الثلاجة الصغيرة في غرفتهما وأخرجت منها زجاجة شامبانيا.

هل إحساسي بها هو الذي تغيّر بعد أن تواصلت مع شانتي، أم أنها هي التي تغيرت؟

وضعت موسيقى أغنية «في عينيك» لبيتر غابرييل. سكبت المشروب الذهبي في كأسين من الكريستال.
- أنا لم أشكرك على كلّ ما قمت به من أجلي، قالت أوبال. لقد جعلتني أفهم أنّني كنت أكذب على نفسي فيما يخصّ طفولتي. وقمتَ بفتح باب اللاوعي لديّ، وبفضلك أعرف الآن العوائق الحقيقية سواء الظاهرة أم الباطنة لتطوّري الروحي.
- هذا طبيعي جداً. لقد جعلتني أتمكن من الوصول إلى ذكرياتي المخبأة، وفعلتُ الشيء ذاته معك. لدينا جميعنا جثة مخبأة في خزانة أنفسنا، ونجد صعوبة في فتح بابها لأنّ مفاصله تتفاوت في درجة صدئها بالنسبة لكلّ واحد فينا.
أخذت نفساً عميقاً.
- لقد كان لقاؤنا أمراً حسناً يا رينيه. لو أنّني لم أعرفك كانت حياتي ستبقى غير مكتملة.
- ولو أنّني لم ألتقِ بك، لكنت الآن ما أزال في الصف أشرح درس التاريخ ذاته الذي شرحته العام الماضي والذي سبقه أيضاً. ومن ثمّ

كنت سأذهب لتناول الغداء في مطعم المدرسة الثانوية مع إيلودي، لأعود بعدها إلى منزلي لقراءة كتب التاريخ. بفضلك انتقلت من دور المتفرج إلى دور الفاعل.

كانت أوبال في هذه الأثناء تمسك بالدلفين اللازوردي وتقوم بأرجحته كما تفعل عادة لجذب الأنظار أثناء جلسات التنويم المغناطيسية، عدا أنّها هي نفسها في هذه اللحظة، راحت تراقب الدلفين كما لو أنّها تبحث عن معلومة ما في هذه القلادة.

دعته لإكمال محادثتهما على الشرفة، فراحا يتأملان القبة السماوية التي يضيئها البدر، وقد تحولت الكثبان الرملية الصحراوية إلى مفرش أبيض متموج.

- أجبني بصراحة يا رينيه، هل تعتقد أنّني كنت... نوت؟

- لا أعرف حقيقة... سوف يتوجّب عليك العودة إلى باب حياتك الأولى كي تعرفي ذلك.

شربت قليلاً من الشامبانيا ومن ثمّ اقتربت كثيراً من وجهه.

- من جهتي، أعتقد أنّ هذين الهيكلين العظميين العملاقين... كانا لنا نحن الاثنين قبل اثني عشر ألف عام.

لم يجب رينيه.

- أعتقد على أية حال، أنّه أنا وأنت ننتمي إلى العائلة الروحية ذاتها. إنّه مفهوم مرتبط بالتقمص، وهو يعني أنّنا سبق أن تعارفنا من قبل في إحدى الحيوات السابقة، وأنّنا قررنا في تلك الحياة أن نعود ونلتقي من جديد في حياة لاحقة.

إنّ الكحول يعمل لمصلحته. فهو يجعلها تسترخي، ويزيل كلّ ما يعيقها، كما أنّه يحفّز من قدراتها الإدراكية.

اقتربت منه أكثر، أصبح الآن يستطيع شمّ رائحة نفَسها المعطر بالشامبانيا.

وبدوره، شرب جرعة من كأسه ومن ثمّ وضعها على حافة الشرفة وقال:

- حدّثني والدي عن العائلة الروحية، وقال إنّه بفضل الشاكرا الرابعة، سوف نستطيع التعرّف على الناس الذين يعتبرون جزءاً من عائلتنا الروحية.

- ربّما لم يكن اختياري لك في مسرح صندوق باندورا من قبيل المصادفة، أعتقد أنّني تعرّفت عليك حينها.

لا تنسَ نصائح شانتي؛ دعها تأتي إليك كي تشعرها بأنّها هي من يملك زمام المبادرة. قم بخلق مساحة فارغة كي تملأها هي.

- هل تعتقد حقاً أنّ كلّ ما جرى معنا هو مجرد محض صدفة، وأنّ وجودي معك الآن في وسط الصحراء، ليس سوى ثمرة لسلسلة من الخيارات الصغيرة التي قادتنا «من باب المصادفة» إلى هذه اللحظة؟ سألته أوبال.

- هل ما زلت تفكرين بخدعة «رغماً عني». وفقاً لكلامك، إنّنا هنا الآن رغماً عنا لأنّ هذا ما هو مكتوب لنا مسبقاً، أهذا ما تعتقدينه؟

لمع في هذه اللحظة شهاب في السماء.

- في الواقع، لا أعتقد أنّنا هنا على سبيل المصادفة، ولا أنّ ما قمتَ به قد حدث اعتباطياً، ولا أنّنا نعيش بالصدفة هذه اللحظة. قالت أوبال.

يبدو أنّها تريد إفهامي شيئاً ما، ولكن لا أعرف ما هو.

ملأت لنفسها كأس شامبانيا أخرى، ومن ثمّ أمسكت بيده ودعته للجلوس على السرير.

- تمدّد وأغلق عينيك.

أطاعها رينيه.

- تريدين تنويمي مغناطيسياً؟

بقي منتظراً وعيناه مغمضتان. شعر أنّها تقترب منه ومن ثمّ أحسّ بوجهها يقترب من وجهه. ومع ذلك لم يفتح عينيه. نزلت ستارة شعرها فوق خديه، فشم عطرها وأنفاسها التي ما تزال تفوح منها رائحة الشامبانيا، ولكنّه حافظ على عينيه مغلقتين، وظلّ مترقباً ومنتظراً لأيّ محفّز خارجي. وبعد فترة قصيرة لم يعد قادراً على تمالك نفسه ففتح عينيه قليلاً. كانت الدائرتان الخضراوان بثقبهما الأسود تنظران إليه بكلّ شغف.

بقيت موسيقى أغنية بيتر غابرييل تتردد في أرجاء الغرفة، ويتخلّلها في

الوقت المناسب أصوات تغريد العصافير القادم من أشجار النخيل. فراح يردّد كلمات الأغنية في ذهنه.

في عينيك

الضوء والدفء

في عينيك

أشعر بالراحة

في عينيك

أجدُ كلّ ما فتشت عنهَ ولم أجده سابقاً.

ارتفع من الجامع البعيد صوت المؤذّن وهو يدعو المؤمنين للصلاة. أخذت يده ووضعتها على صدرها.

- هل تشعر بالشاكرا الرابعة؟

شعر بنبضات سريعة تحت راحة كفه، فتساءل إن لم يكن ما يشعر به هو نبضات قلبه.

ومن ثمّ وضعت المرأة الشابة يدها على صدره.

- كان الناس يظنّون في السابق أنّ القلب هو مركز الذاكرة، قال رينيه.

- إنّ قلبك يخفق بقوة، قالت أوبال. هل تشعر كم تتدفق الطاقة بيننا بشكل جيد؟ أغلق عينيك. ماذا أسميت هذه الطاقة، ذكرني؟

انتظر، ولكن لم يعد يجرؤ على فتح جفنيه.

شعر بأنّها تقترب أكثر. وأحسّ بأنفاس المرأة على بعد بضعة سنتيميترات مِن وجهه، ومن ثمّ تلامست شفاههما.

يجب ألّا أفتح عيني، بل من الضروريّ ألّا أفتحهما الآن، وإلّا فأنا أخاطر بأن أجد كلّ هذا مجرد حلم... أو أخاف أن يحدث معي كما حدث في أسطورة أورفيوس، ما إن أفتح عيني حتى يختفي كلّ شيء على الفور.

اتحدت شفاههما كلياً، كانت شفتاها عذبتين وناعمتين وطريتين كالحرير.

لطالما انتظرت هذه اللحظة.

شعر كلّ واحد منهما بقلب الآخر يتسارع أكثر فأكثر، والشاكرا الرابعة تزداد حرارتها.

أنا أعيش حالياً أجمل لحظة في حياتي، خصوصاً أنّ جميع حواسي تستمتع في هذه اللحظة.

فتح فمه قليلاً فأدخلت المرأة الشابة لسانها بهدأة. همّ ليمدّ يديه كي يضمّها إليه، فأخذت زمام المبادرة وقامت بفكّ حمّالة صدرها، وحلّت أزرار قميصه كي يستطيع أن يتحسّس ثدييها فوق صدره.

- أحبّ أن يجري هذا ببطء شديد وبشكل تدريجي، همست له أوبال في أذنه.

راحت المرأة تقبله على ذقنه ورقبته وقلبه. شعر رينيه بأصابع أوبال النحيلة تداعب جسده، كما تملّكه إحساس بأنّ هناك عدة أفواه تقبله وعشرات الأصابع تلامس جسده.

شرعت أوبال تقبّل صدره وتتابع نزولاً ببطء شديد.

سمع في هذه اللحظة صوتاً في داخل جمجمته:

- اعذرني على إزعاجك يا ني- هي، ولكن هناك أمر مهم.

- كلّا، ليس الآن.

- بلى. يجب عليك مساعدتي حالاً يا ني- هي.

- **هذا ليس هو الوقت المناسب حقاً.**

- إنّه أمر طارئ. هل تستطيع أن تعطيني القليل فقط من وقتك؟

أطلق رينيه تنهيدة ومن ثمّ قاطع زخم شريكته.

- عذراً، قال رينيه.

- ماذا؟

- يريد جيب محادثتي.

أظهرت المرأة الشابة ذات العينين الخضراوين الواسعتين دهشتها.

قبلت المرأة بانزعاج قليل أن تنفصل عن شريكها وذهبت وأغلقت على نفسها باب الحمام.

عضّ رينيه على شفتيه، ومن ثمّ جلس في وضعية اللوتس. وأغلق عينيه وذهب حيث يناديه الواجب.

-103-

فهم رينيه الوضع مباشرة.

اجتمعت الأقزام البشرية حولهم بالآلاف محاولة قتلهم. وقد تعرّضت عدة منازل للحرق.

- صدقني يا ني- هي لولا هذا الحادث غير المتوقع، لم أكن لأجرؤ على إزعاجك خارج موعد لقائنا المعتاد.

تفحّص أستاذ التاريخ الوضع جيداً، وأخذ يبحث سريعاً في كيفية تقديم المساعدة لتجسّده القديم.

- كان باستطاعتنا ردعهم، ولكن ليس من عاداتنا الأطلانطسية إنهاء حياة الآخرين. قال جيب شارحاً.
- لقد أصبح بقاؤكم الآن على المحك. عليكم إبعادهم مهما كلّف الثمن. سوف نفكر لاحقاً بطريقة أكثر ديمومة. ولكن في الوقت الراهن، عليكم الدفاع عن أنفسكم. وهذا ما نسميه «حقّ الدفاع المشروع عن النفس».
- تنصحنا بقتلهم؟
- أخشى ألّا يكون أمامكم خيار آخر. قل للأطلانطسيين الآخرين الضرب بقوة لإخافتهم. ففي النهاية أنتم بالنسبة لهم عمالقة. أعتقد أنّه ما إن تحصل وفيات في صفوفهم حتى يهدؤوا. يؤسفني قول ذلك، ولكنّ أسلافي يشبهون الحيوانات، فهم لا يفهمون إلّا بتوازن القوى. كلّ شيء يتلخص في هذين الخيارين: إمّا أن تقتل أو أن تُقتل.
- هل تعطينا حقاً الإذن بإنهاء حياة هؤلاء الذين هم على الأرجح أسلافك؟
- ربّما يكون هؤلاء أسلافي الجينيين، ولكنّك أنت سلفي الروحي. كما أنّني أولي أهمية للروح أكثر من المادة.

بعد أن حصل على الإذن من تجسّده المستقبلي، أشار جيب إلى الأطلانطسيين الآخرين بأنهم يستطيعون التعامل مع الأقزام «بجديّة أكبر». لذا، تبعاً لنصائح هذا القبطان السابق الذي سبق أن أنقذ حياتهم من الطوفان، اجتمع المائة والأربعة والأربعون أطلانطسياً ووجهوا ضربات منظمة إلى أسراب الأقزام البشرية الذين كانوا يندفعون نحوهم ويصرخون. قاموا بصدّ عدة مجموعات منهم، وأخذوا في بعض الأحيان يركلونهم بأقدامهم، ومن ثمّ بدأوا يستخدمون العصيّ.

جاء تأثير ذلك سريعاً؛ فقد تغير سلوك الأقزام البشرية بعد أن شاهدوا سقوط قتلى في صفوفهم، فتحولت تهديداتهم القتالية إلى صرخات تهدف إلى إثارة الشفقة.

كانت الجولة الثانية من المعركة أسرع بكثير من الأولى. عندما تحوّل القتال بشكل واضح إلى مصلحة العمالقة، انطلقت صرخة جديدة مصدرها واحد من هؤلاء الأقزام، إنّه بالتأكيد قائدهم، وتراجع بعدها السكان الأصليون بشكل موجات متالية ودخلوا الغابة.

قام الأطلانطسيون بعد أن اطمأنوا لسير المعركة، بتشكيل سلسلة لنقل الماء ورشّه على المنازل المحترقة.

- سوف يعودون، قال رينيه. ذهبوا ليحضروا تعزيزات، فقد رأوا أنهم استطاعوا إشعال النيران في منازلكم، لذا سيحاولون استخدام هذا السلاح كي يعوضوا هزيمتهم.
- إذاً ماذا نفعل؟ يجب علينا قتالهم بشكل دائم؟
- ربّما يكون لدي حل يا جيب.
- أنا أسمعك.
- أنشئ... ديانة.
- أنا لا أعلم حتى ما تعنيه هذه الكلمة.
- أنتم عمالقة، وقد ظهرتم من العدم، وتمتلكون معارف تقنية وروحية يفتقر إليها هؤلاء السكان الأصليون. لماذا لا تقدمون أنفسكم على أنكم آلهة؟

- ماذا يعني إله؟

شرح له رينيه أساسيات الديانة المحتملة التي تقوم على تبجيل الآلهة العمالقة الذين يظهرون من المياه.

بدا جيب متشكّكاً بالأمر.

- وهل هذه الفكرة الطفولية يمكنها أن تجنبنا وقوع الحرب؟ قال الأطلانطسي مندهشاً. هل البشر الأقزام ساذجون إلى هذه الدرجة؟

- إنّ خيالهم سوف يخدمهم بهذا.

- لم أفهم.

- إنّ كلّ ما يتعلق بالمعتقدات الدينية بالنسبة لغالبية البشر، يعتبر أكثر أهمية من كلّ ما يمتّ إلى الحقيقة بصلة.

لا يزال الشكّ يخامر الأطلانطسي.

- سوف تقدم لهم نظرية عن نشأة الكون والتي ستصبح نقطة مرجعية بالنسبة إليهم.

- نشأة الكون؟

- إنّها طريقة لشرح كيف خُلق الكون ولماذا هو على هذا النحو وليس غير ذلك، ولماذا خُلقوا ولماذا سيموتون.

- ولكن...

- ليس لديهم شيء مماثل حتى هذه اللحظة، كلّ ما يملكونه هو بعض القصص حول الصيد التي تتكرر ذاتها، ويعود منشأها إلى ما قبل ثلاثة أجيال كحدّ أقصى. وليس لديهم أدنى فكرة عمّا جرى قبل ذلك. فأصل هؤلاء السكان الأصليين ووجودهم هما لغز لهم.

- آه، لقد بدأت أفهم...

- ومن خلال خلق الدين، لن تزوّدهم فقط بمجموعة من القراءات عن كلّ ما جرى قبلهم، ولكن ستقدم لهم أيضاً تصوّراً عن كلّ ما يُخشى حدوثه لاحقاً.

- هذا مثير.

- سوف تقدم لهم إجابات عن أسئلتهم.

- إجابات خاطئة.
- لا يهتمون لذلك! كلّ ما يريدونه هو قصة قابلة للتصديق تجعلهم يحلمون. كُن مبدعاً وخيالياً وفكر في بناء صور قوية. مثلاً؛ تستطيع أن تفتتح روايتك بهذا: «في البدء كان النور» أو «في البدء كانت نفخة الحياة» أو «في البدء كانت هناك طاقتان، طاقة ذكورية وطاقة أنثوية». أشياء من هذا القبيل.
- بدأ هذا الأمر يشعرني بالمتعة، اعترف الأطلانطسي، خصوصاً إن كان يسمح لنا بتهدئة هؤلاء الوحوش.
- عليك أن تشرح من بعدها أنّ النور أو الطاقتين الذكرية والأنثوية قد خلقا العمالقة الأوائل الذين بدورهم مثلاً قاموا بخلق الأقزام البشر.
- وهل سيصدقون هذا؟
- بالطبع، فليس لديهم طريقة أخرى لتفسير وجودهم. من هنا تأتي سلطة الدين؛ يشغل الفراغ الذي يصنعه الجهل.
- هذا مدهش.
- ستضيف إلى ذلك أنّه تمّ طردكم من الجنة.
- تقصد ها- ميم- باث؟
- أطلقْ عليها اسم «الجنة». ومن ثمّ تشرح لهم أنّ الروح والجسد منفصلان وأنّ الروح تبقى حية بعد الموت.
- وهل سيصدقون هذا؟
- إن قمت باختلاق قصة جميلة، فلا شكّ في ذلك. يجب أن تجعل القصة شاعرية نوعاً ما، وجميلة ومذهلة، وعليك أن تضع فيها بعض العاطفة. يجب أن تكون القصة نفسها مليئة بالصخب والخوف والرؤى المدهشة.
- هل أستطيع أن أحدثهم عن الزوار.
- حدثهم عن النور والحياة، سيكون فهم هذا أسهل بالنسبة إليهم.
- وماذا لو لم يصدقونا؟ ماذا لو روى لهم أحد آخر قصة مختلفة؟
- إنّ قدرتك كقاصٍ هي ما سيحدث الفرق. فصاحب القصة الأجمل هو من سيربح.

بدا تجسّد رينيه السابق قلقاً من فكرة إنشاء دين، لذا قرّر رينيه أن يمدّه بالإلهام ممّا يتذكره عن العبادات المصرية الأكثر قدماً. فحدّثه بأدق التفاصيل عن نشأة الكون التي توحي بها النصوص الأولى التي وجدت على أوراق البردي المصرية. حفظ جيب دون صعوبة الآلية التي سيتم بها ربط العمالقة بالآلهة التي جاءت لإنقاذهم.

- إنّني أتطلّع لمعرفة كيف ستكون ردة فعلهم على هذا الدين الذي ستكشفونه لهم. ولا تنسَ على وجه الخصوص أن تدوّن كلّ ذلك على لفائف المخطوطات.

- تستطيع الاعتماد عليّ، أجاب الأطلانطسي.

انفصلت روحا هذين الرجلين. وعندما فتح رينيه عينيه، وجد أوبال قد ارتدت ملابسها من جديد وغطّت في نوم عميق. فشعر بأنّه ممزق بين الشعور بالفرح والرضا والإحباط والقلق.

إنّه فرح لإيجاده المغارة وفيها الهيكلان العظميان العملاقان مع جرّتي الطين. ويشعر بالرضا لأنّ رفيقة سفره أبدت اهتمامها أخيراً به. ويشعر بالإحباط لأنّه توجب عليه إنهاء تواصلهما الجسدي. ويشعر بالقلق على المائة والأربعة والأربعين أطلانطسياً الذين يتعرضون لخطر الموت بسبب الأقزام البشرية.

يا له من يوم مدهش، يبدو كلّ شيء فيه قد سار رغماً عني بالطريقة المثلى. يجب أن أتخلى عن الرغبة في السيطرة على كلّ شيء وأتقبل فكرة أنّ القدر يسير كما يجب أن يسير. يجب أن أدع الأمور تجري على سجيتها.

إذاً، سأحلم بالملذات التي تنتظرني؛ وهي الكشف للرأي العام عن حقيقة وجود أطلانطس، وربّما قد أتابع ما بدأته مع أوبال. إنّه يغفو شيئاً فشيئاً.

إن جرى كلّ شيء بشكل جيد، غداً، سيعرف العالم القديم السلام أخيراً بفضل اختلاق قصة الدين. وغداً أيضاً، سيعرف العالم الجديد السلام أخيراً بفضل الكشف عن أصوله.

104. مذكرات. الأسطورة المصرية.

تقول الأسطورة المصرية، في البدء كان جيب ونوت.

كان جيب إله الأرض والثمار والأشجار والمعادن. ونوت إلهة السماء والمطر والغيوم والنجوم.

لم يكن من الممكن الفصل بين الإله جيب والإلهة نوت فقد كانا ملتصقين بعضهما ببعض.

اخترع جيب حكومة الرجال ونصّب نفسه أول ملك لمصر. إنّ كلمة «فرعون» تعني «عرش جيب».

قُدّم جيب في نصوص البردي على أنّه عملاق لديه لحية ويضع تاجاً أحمر بثلاثة أجزاء. وغالباً ما يتم تصويره وهو يحمل في يده اليمنى رمز التقمص أي العنخ (مفتاح الحياة)، ويحمل في يده اليسرى إوزة، التي هي رمز الرخاء.

وقد تمّ تكريس جيب أيضاً إلهاً للذاكرة. فهو الذي كان يُرشد النّساخ أثناء تدوينهم المخطوطات التي تروي تاريخ البشر.

-105-

هبطت الهيلوكوبتر عند الساعة الخامسة عصراً في مهبط قريب من فندق سيوة لودج. ونزلت منها إيلودي ومعها ثلاثة أشخاص.

- كم يسعدني أن أراك مجدداً يا رينيه.

- وأنا أيضاً!

ما إن تلاشى ضجيج مراوح الطائرة وغادرت المكان حتى عرّفت إيلودي بالأشخاص الذين يرافقونها.

- هذا غوتيه كارلسون.

يرتدي الصحفي لباس المستكشف الاستعماري.

- أنا رينيه توليدانو. أتشرف جداً بلقائك. قال رينيه وهو يصافح النجم التلفزيوني بحرارة.

- لقد أتيت مع فريقي.

صافحه رجل أصلع وامرأة سمراء. وبدوره قدّم أستاذ التاريخ المنومة المغناطيسية لهم.

- وهذه أوبال التي اكتشفت الكهف معي.

تبادل الجميع التحية فيما بينهم.

دعاهم رينيه للنقاش في فناء مدخل الفندق.

- أنا سعيد جداً لقدومكم بهذه السرعة، قال أستاذ التاريخ.

- دعونا لا نضيع الوقت بالمجاملات العابرة! منذ أن أخبرتني إيلودي بقصتك ورأيت الصور، وأنا مذهول يا رينيه، هل تسمعني؟ مذهووول!

تفاجأ رينيه بأنّ الصحفي يحدّثه دون كلفة وقد أزال الألقاب بينهما.

- لا أعرف كيف قمتَ بهذا السبق، ولكن أؤكد لك يا رينيه بأنّنا ستفاهم بعضنا مع بعض كثيراً. إنّني أتطلع لإحداث ضربة إعلامية كبيرة بقصتك هذه التي ستكون حديث الإعلام لعدة أيام، ألا تعتقد ذلك؟

- بلى، بلى، أعتقد هذا.

استدار رينيه إلى الشخصين اللذين يرافقان الصحفيّ.

- إنّها المصوّرة، تدعى سيريز.

قامت الفتاة الشابة السمراء بانحناءة بسيطة كنوع من التحية.

- أنا سعيدة بكوني جزءاً من هذا التقرير. لقد تذكرت حينما حدثني غوتيه عن المشروع، جميع الأفلام التي كنت أشاهدها في طفولتي. كم هذا جميل!

- وهذا نيكولاس الذي سيهتم بالتسجيل الصوتي.

إنّه رجل بدين وأشقر، ذو لحية ناعمة، يرتدي قميصاً مكتوباً عليه «أيرون ميدن»، وهي فرقة هارد روك بريطانية.

كان الصحفي يقف أمام مرافقيه.

- لقد قمت باصطحاب الأفضل معي كي نحصل على صور بجودة سينمائية عالية. صحيح أنّ الكادر والإضاءة والصوت مكلف جداً، ولكن بالمقابل قد يعود علينا هذا التقرير بالربح الوفير.

- وأنا من جهتي وضعت في هذا الصندوق الكبير كلّ المعدات اللازمة لإجراء التقييم اللازم، ثمّ أضافت إيلودي بتواضع أكبر، من أجل اتخاذ التدابير العلمية.
- شكراً لاستجابتكم السريعة، قال رينيه. إن أردتم نستطيع الذهاب ما إن ترتاحوا قليلاً وتكونوا مستعدين.
- لا أعرف إن كانت إيلودي قد أخبرتك يا رينيه، ولكنّني حصلت على موافقة بالبث المباشر هذا المساء ضمن نشرة الأخبار المحلية عند الساعة الثامنة مساء. هذه أكبر تغطية إعلامية يمكن الحصول عليها.
- رائع!
- أعتقد أنّ الأمثل هو أن نقوم بالتصوير فور وصولنا إلى هناك بهذه الكاميرا المحمولة. سوف نستكشف الموقع معك يا رينيه وستكون دليلنا، هذا ممكن ها؟ وهكذا، سوف ندعو جميع مشاهدينا ببث حيّ ومباشر إلى عيش مغامرة مدهشة.
ربّت الصحفي بقوة على ظهر رينيه.
- إنّ الناس في أيامنا هذه يشعرون بالضجر، وإن لم نسكب لهم القليل من صلصة الأخبار الحديثة، سيجدون كلّ شيء رتيباً ومملاً. إنّنا نحارب يا رينيه اللامبالاة والنسيان. كيف نستطيع جذب انتباه المشاهدين بعد أن يكونوا قد شاهدوا لتوّهم أجساداً مهشمة على إثر انفجار قنبلة، أو سمعوا خطاب كراهية لديكتاتور يدعو إلى الدمار الشامل، أو عرفوا نتيجة مباراة في كرة القدم، أو سمعوا بإضراب مفاجئ سوف يشلّ الحركة في كامل البلاد؟ كيف يمكننا تقديم أفضل من هذا كله؟ أنا أطرح عليك هذا السؤال يا رينيه.
- أوه.. أنا لا أعرف.
- بلى، أنت تعرف يا رينيه. يجب أن نقدّم لهم شيئاً مثيراً واستثنائياً ومدهشاً لم يسبق أن شاهدوا مثيلاً له يجبرهم على قول؛ «هل أنا أحلم، أيقظني»، «هذا جنون محض»، «إن أخبرت جيراني عنه، فسوف تأكلهم الغيرة على تفويته». هل فهمت عليّ يا رينيه؟

ما أفهمه على وجه الخصوص أنّ عملهُ كصحفيّ تلفزيونيّ لا يختلف عن عمل المنومين المغناطيسيين؛ فهو يسترعي الانتباه والإصغاء ومن ثمّ يتلاعب بعقل الشخص. واللازمة التي يستخدمها من جهته، هي تكرار لفظ اسمي باستمرار كي أشعر بأنني معنيّ بكلامه جداً.

- هذا هو التحدي يا رينيه. أريد أن أحقق نسبة مشاهدة تحطم جميع الأرقام القياسية. أريد عشرين مليون مشاهد، وأفواهاً مشدوهة، وأن يتوقف الناس عن الكلام وتناول الطعام وعن العلاقات الجنسية والنميمة على جيرانهم. أريد أن تصاب فرنسا كلّها بالخَدر، تماماً كما حدث بعد اغتيال الرئيس كينيدي، وبعد هبوط أول إنسان على سطح القمر، وبعد أحداث مركز التجارة العالمي في أمريكا، وبعد المباراة النهائية بين فرنسا وألمانيا.

اختصاصه أيضاً هو التخدير بالكلمات الساحرة.

- لا تنسَ يا رينيه، إنّ عدونا هو اللامبالاة. والحل هو بالإخراج المسرحي الذي يحدث صدمة. ولهذا السبب قمت باختيار نيكولاس وسيريز. فقد كانت سيريز مديرة التصوير في فيلم «جثث الصحراء»، لذا فهي ماهرة جداً بالتصوير في هذا النوع من الأماكن. كما أنّها تعرف كيف تبطئ سرعة اللقطة على منزل يتهدّم، وتعرف كيف تقرب اللقطة على صورة أمّ تجهش بالبكاء وجسد ابنها بين ذراعيها. ونيكولاس أيضاً حصل على جائزة أفضل تسجيل صوتي لفيلم الرعب «صراخ في القصر»، لا بدّ أنّك شاهدته يا رينيه. كما أنّه سبق أن عمل داخل كهف، لذا فهو على دراية بكيفية حل مشاكل صدى الأصوات في هذه الأماكن. يعرف كيف يلتقط اللحظة التي يجب أن يكون فيها صوت التنفس الخائف يصمّ الآذان.
- عفواً؟ ولكنّ اكتشافنا لا يندرج تحت قائمة أفلام الرعب، بل قائمة التاريخ والعلم.
- بالضبط يا رينيه، وهنا تكمن المشكلة. هل تعلم، عندما بدأت مسيرتي في مهنة الصحافة، كنت أسأل نفسي على الدوام لماذا لا ننشر سوى

الفظائع في الصحف؟ وأنا بدوري أطرح عليك السؤال التالي: لماذا تُعرض مشاهد الجثث والمجازر وحوادث السيارات والأعمال الإرهابية؟ آه، لماذا؟

– آه، حسناً لنقل...

– بالطبع لأنّ هذه المشاهد تثير أقصى المشاعر لدى الناس! لن تحقق أعلى نسبة مشاهدة عند عرض أخبار سارّة. هل تعتقد أنّ الناس تهتمّ لمعرفة أنّ أعداد الوفيات بسبب المجاعات تقلّ تدريجياً في جميع أنحاء العالم؟ أو أنّ ثقب طبقة الأوزون سوف ينحسر بشكل طبيعي؟ أو أنّ التلوث ينخفض في باريس بفضل استخدام السيارات الكهربائية؟ كلّا، ما يهمّ الناس هو الخوف. الخوف من التلوث، والخوف من الإرهاب، والخوف من الحرب، والخوف من الفاشية، والخوف من الروبوتات التي سوف تسرق وظائفهم، والخوف من الذكاء الاصطناعي الذي سوف يحكم العالم. وبهذه الطريقة نقوم...

– ... بقيادة قطيع الخراف؟

– آه، أنت ظريف يا رينيه! مع أنّه من النادر أن نجد أستاذاً ظريفاً، ولكنّك تعجبني. حسناً سوف أعطيك الإجابة الصحيحة. إنّنا بهذه الطريقة نستحوذ على أكبر قدر ممكن من المشاعر، وهذه المشاعر هي التي تجعل الناس يتابعون القناة التلفزيونية ولا ينتقلون إلى متابعة قناة أخرى، ويشاهدون بالتالي الإعلانات التي تعطيهم الرغبة بشراء أشياء حتى وإن لم يكونوا بحاجة إليها، ولكنهم سيشعرون بالراحة لمجرد شرائها. إنّ الاستهلاك هو نتيجة للخوف.

– عفواً؟...

– وهذه الأموال التي تأتينا من الإعلانات هي التي تدفع لنا رواتبنا. كلّما كان هناك خوف أكثر، ومشاعر قصوى، وجذب انتباه أكثر، وإعلانات أكثر، وأموال أكثر... فهذا يعني بيعاً لمعجون الأسنان، ومسحوق الغسيل، وحفاضات الأطفال، والبسكويت بالشوكولا، والسيارات، وتذاكر العطل الرسمية، واللحوم المدخنة واللبن.

- كنت أعتقد مع ذلك أنّ...
- إنّه عالمنا. المشكلة الوحيدة هي أنّنا دخلنا في مرحلة المزايدات. ففي السابق، كان مجرد حدث بسيط كقتل طفل ورميه في النهر كافياً لجعل البلاد بأكملها في حالة من الذهول، والآن، إن لم يسمع الناس أنّه، على الأقل، تمّ الكشف عن شبكة من مغتصبي الأطفال يقودها أحد الوزراء، فإنّ هذا لن يلقى آذاناً صاغية لدى المشاهدين. إنّهم يحتاجون دوماً إلى مزيد من الإثارة. لذا نضيف الموسيقى وبعض الدموع في عيون المقدّم، ونعرض أجسام الجرحى والضحايا، ونقرّب اللقطات على أرامل يبكين. وفي الاستديو، يسأل المقدّم الضحايا بشكل مباشر: «هل هذا مخيف بالفعل إلى هذه الدرجة كما يبدو لنا؟» ماذا يريد الشعب؟ يريد الخبز واللعب، كما كان مكتوباً على الأقواس في الساحات الرومانية قديماً.
- أوه... كلا، ليس تماماً. إنّ هذه الجملة بالأحرى كانت تعبيراً قد استخدم من قِبل...
- حسناً، لا بدّ أنّك قد فهمت بالتأكيد ما أريد قوله. هيّا لا تلاحقني وتتصيّد كلامي حرفاً بحرف، ولا تحاول أن تبهرني بدروسك في التاريخ. فأولاً، أنا لا آبه بها على الإطلاق. ثانياً ليس المهم أن تكون دقيقاً في كلامك ولكن المهمّ، ثالثاً، هو أن يتوقف الجمهور عن الطعام عندما نخبرهم بهذه المعلومات.

إنّ هذا الرجل لمجنون.

- إنّ المشاعر السلبية تتفوق دوماً على المشاعر الإيجابية، لأنك حينما تقف بين شخصين الأول يريد أن يوجه لك صفعة والآخر يريد إهداءك قالب حلوى، سوف تولي الاهتمام بالطبع إلى الشخص الأول. هذا أمر إنسانيّ وحيوانيّ على حدّ سواء. هل ترى يا رينيه، إنّنا مفطورون على هذا منذ عصور ما قبل التاريخ. وربما كانت رؤية الأسد يقترب من الإنسان في ذلك الزمن، أمراً مثيراً أكثر بكثير من اكتشاف خلية نحل. إنّ السلبي أقوى بكثير، وبالتالي هو الأفضل لاستقطاب الجمهور.

ربّت من جديد على ظهره بقوة.

- حسناً، لنتوقف عن التفلسف. نحن الآن أمام تحدّ كبير، بحسب ما فهمت، ألا وهو: إثارة اهتمام الناس رغم عدم وجود وفيات...
- إنّ هناك بالأحرى هيكلين عظميين لشخصين قد توفيا بالفعل ولكن قبل اثني عشر ألف عام. وجدت أوبال أنّه من الجيد توضيح هذه النقطة.

لم يُعرها الصحفي أدنى اهتمام.

- ليس هناك أطفال يبكون، ولا حتى سيارة إسعاف مع أناس يتدافعون وصراخ مذعور يملأ الأجواء، إنّ جذب انتباه المشاهدين سيكون صعباً للغاية. خصوصاً أنّ القناة المنافسة لنا سوف تفتتح نشرتها بخبر مغني الراب الذي قام كلبه البيتبول بقطع يده أثناء تصويره مشاهد الفيديو كليب لأغنيته الجديدة. لقد استطاعت القناة الحصول على الصور التي يظهر فيها الكلب وهو يلعب باليد كما لو أنّها كرة قبل أن يقوم مغني الراب بإطلاق النار عليه من مسافة قريبة بيده الأخرى. في هذا الخبر دماء وصرخات ومشاهير وكلب وموسيقى الراب، لن أخفي عليك أنّ هذا موضوع مثالي، خاصة أنّ هؤلاء الأوغاد قد حصلوا على حقوق النشر الحصرية. لا أعرف حتى اسم المغني، ولا أحد يعلمه والجميع يريد معرفة التفاصيل. وسيكون من الصعب جداً التنافس معهم.

ينبغي عليّ الاستمرار بالابتسام والتظاهر بأنّني مهتمّ بما يقوله هذا الرجل. وذلك في سبيل القضية.

- على الرغم من كلّ شيء، تمكنت من إقناع رئيس التحرير في القناة بأنّنا أمام خبر من العيار الثقيل، وهذا الخبر هو أنت يا رينيه. ولكن لن تسير الأمور بشكل جيد إلّا إذا أضفنا إلى هذا الخبر بعض «الجمال»، على نمط القناة الثقافية ولكن بشيء من الإثارة على الرغم من كلّ شيء. بالنسبة للإضاءة، أقترح خلق أجواء تشبه أجواء الاستكشاف القديم مع مشاعل براقة. وسيكون الأمثل بالطبع أن نضع في مقدمة التقرير صور أفاعٍ، ولكن نظراً لضيق الوقت، لا يجب أن نحلم بتحقيق هذا. لقد خطّطت أيضاً لأزياء لكليكما على نموذج شخصية عالم الآثار إنديانا جونز في سلسلة الأفلام التي تحمل اسمه.

نحن نعيش في مجتمع الاستعراض كما وصفه الكاتب والسينمائي الفرنسي غي ديبورد. لقد أصبح التاريخ منتجاً استهلاكياً، مثل الأطعمة، والوجبات السريعة يجب إشباعه بالصلصة المحلاة أو الحارة لجعل مذاقه أفضل.

- ولكن لا تقلق يا رينيه. كما سبق أن قلت لك، أنت مع أفضل طاقم عمل. فقد سبق لي أن قمت بسبق صحفي مماثل تماماً لهذا السبق عند اكتشافي للمقصورة السرية في هرم خوفو قبل ستة أشهر. هل تذكر ذلك يا رينيه؟
- آه كلّا، عذراً.
- لا بأس، هل ستصدقني يا رينيه إذا أخبرتك أنّنا حققنا بهذا السبق نسبة مشاهدة أعلى من القناة المنافسة مع أنّها حينها كانت قد افتتحت نشرتها بخبر عن نجم تلفزيون الواقع الذي قام بطعن زميله عدة طعنات بالسكين. هؤلاء الملاعين، لقد أرفقوا تقريرهم بموسيقى فيلم الإثارة والرعب «سايكو». لذلك يمكن القول إنّ لديّ خبرة لا بأس بها في مثل هذا النوع من التقارير. كما أنّ نيكولاس وسيريز كانا معي وقتها، وقد وضعنا في الخلفية موسيقى فيلم الرعب «المومياء»، وأستطيع أن أقول لك إنّ معدلات المشاهدة قد قفزت بشكل ملحوظ، حتّى إنّني حصلت على مكافأة مالية. وفي الحقيقة، إنّ الفضل يعود نوعاً ما، إلى خوفو في موافقة القناة على تمويل واحة سيوة. إنّ مصر هي ملعبي. وقد وضعت عنواناً مسبقاً لهذا السبق الصحفي وهو: «*كنز يعود لآلاف السنين تمّ العثور عليه في صحراء مصر*»، والعنوان الفرعي سيكون: «*المخطوطات المُكتشفة عن أطلانطس*».

أشارت المرأة السمراء بإيماءة متواضعة، وقالت.

- سوف يضيفون في باريس التسجيل الصوتي الأصلي لفيلم إنديانا جونز. كي يقوم هذا بالتأثير على العقل الباطن للمشاهدين.

هكذا إذاً... الآن فقط أصبح هذا واضحاً، وبتّ أفهم الدافع الرئيسي الذي يحرّك غوتيه.

- وليس هذا فقط، أشارت الصحفية بكلّ فخر، لقد حصلت على إذنٍ بالبث المباشر عبر الإنترنيت. فقد سبق أن نبّهت جميع متابعيّ: «احدث عالمي في بثّ مباشر».

قدّم لهم رينيه كؤوس الماء مع شرائح الليمون.

- هل ترى يا رينيه، نحن نرغب بالوصول إلى أكبر عدد ممكن من الناس لأنّها الفرصة المناسبة لإعادة الاعتبار لجميع الذين اعتقدوا بوجود أطلانطس منذ فجر التاريخ.

- بالفعل، فقد تناول فيثاغورس في عام 500 ق.م موضوع أطلانطس ولم يصدق أحد ذلك، وبعده بحوالي 150 سنة عندما أعاد أفلاطون الحديث عن أطلانطس في كتابه حوار كريتياس، أصبح شخصياً موضوع سخرية وتهكم من قبل جميع فلاسفة عصره.

- كلا، لم أفكر في فيثاغورس وأفلاطون. بل فكرت بالأحرى بالرسوم المتحركة لإدغار بيير جاكوبس وبلاك ومورتيمر وبألبوم لغز أطلانطس.

- آه، نعم بالطبع، عذراً. فأنا وأنت لا نعتمد المرجعيات ذاتها.

- عليك يا نيكولاس أن تركّز الكاميرا إلى الأسفل قليلاً، لنعطي انطباعاً أنّ أستاذ التاريخ يشرح لنا درساً. ومن جهة أخرى، يجب عليك يا رينيه أن تهتمّ بخطابك أكثر. الفظ الكلمات بشكل أفضل، ومن ثمّ انتبه إلى اللازمة التي ترددها باستمرار، فأنت تردد طوال الوقت كلمة «عذراً»، هل تفهمني يا رينيه؟

- آه، عذراً. أوه أقصد، متأسف.

كم أتطلع لقدوم هذا المساء.

- لا تتردد في استخدام صيغ التفضيل. فعليك القول مثلاً إنّ بعد هذا الاكتشاف سوف يصبح كلّ شيء مختلفاً. كما سيتوجب علينا إعادة النظر في كتب التاريخ، لأنّ وجود شعب من العمالقة القادمين من أطلانطس واستيطانهم في مصر وتثقيفهم للسكان الأصليين المتوحشين، من شأن ذلك أن يفسر أصل وجود جميع الحضارات.

كما أنّ هذا يفسّر أيضاً بناء الأهرامات، فأنا أعترف لك بأنّه عند زيارتي لهرم خوفو ورؤية هذه الحجارة الضخمة والثقيلة التي تزن عدة أطنان، قلت لنفسي إنّه لا يمكن لأي بشر وحتى لآلاف العبيد أن يستطيعوا التعامل مع هكذا كتل ضخمة.

– إنّها الحلقة المفقودة في تاريخنا، أكدت ذلك أوبال التي لم تشأ أن تبقى على هامش الحديث.

– إذاً أنت هي المنومة المغناطيسية؟ سيتوجب عليك أن تجري لي جلسة تنويم مغناطيسية بعد الانتهاء من هذا كله؛ فأنا لا أستطيع التوقف عن التدخين. كما أنّني عصبيّ المزاج جداً، وعليّ الاهتمام بنفسي أكثر.

– إذاً في هذه الحالة لن يُفلح الأمر. فمن شروط نجاح التنويم المغناطيسي أن يكون الشخص مسترخياً.

– بحسب ما أشاهده في البرامج التلفزيونية حول هذا الموضوع، فإنّ جميع الناس يمكن تنويمهم.

– إنّ هؤلاء المتطوعين غالباً ما يتمّ اختيارهم وتحضيرهم قبل العرض. لا أستطيع إجبارك على الاسترخاء. إنّه عمل عليك إنجازه بمفردك وبعدها فقط يمكنني مساعدتك على الذهاب بعيداً في استرخائك.

نظر إليها ومن ثمّ انفجر ضاحكاً.

– أعشق روح الدعابة عندك يا أوبال، أيّاً يكن، ففي هذا المساء لن أكون بحاجة للاسترخاء وإنّما بالأحرى سأحتاج للتوتر بأقصى درجاته. يجب أن أكون بكامل تركيزي كي أبقي الناس في حالة ترقب أثناء قيامنا بالكشف تدريجياً عن هذا الأثر العظيم.

– إنّ هذا الأثر العظيم هو «جرار تحوي مخطوطات»، قالت المرأة الشابة محددة.

– وكيف حال الهيكلين العظميين؟ هل هما لرجلين؟

– كلّا، إنّما لزوجين. يتضح الفرق بين الجنسين من خلال الاختلاف الواضح بين حوضي الهيكلين العظميين. سوف ترى ذلك، حوض الرجل أكبر بقليل. كما أنّهما يمسكان الواحد منهما بيد الآخر أو

بالأحرى، تتشابك سلاميات اليد اليمنى للمرأة مع سلاميات اليد اليسرى للرجل.

- إنّها نسخة روميو وجوليت قبل اثني عشر ألف عام، هذا رائع.

- انتظر! ربما لديّ اقتراح أفضل لعنوان التقرير، قالت سيريز. نستطيع أن نكتب «كهف الهيكلين العظميين العملاقين»، سيكون هذا أفضل من أجل المبيعات.

- أنتِ محقة. فلم يعد أحد يعرف ما معنى أطلانطس. لذا سيكون الهيكلان العظميان العملاقان أفضل. أنتِ بالفعل رائعة يا سيريز.

نظر الصحفي إلى ساعته.

- إنّنا نثرثر ونثرثر والوقت يسبقنا. هيّا، حضروا أنفسكم جميعاً، أعتقد أنّه من الأفضل أن ننطلق فوراً ونأخذ طريقنا إلى الموقع.

- هل هناك وقت كي أحلق ذقني؟ سأل رينيه.

- كلا، يجب عليك ألّا تقوم بهذا مطلقاً! عليك أن تبدو بمظهر المستكشفين. فأنت المؤرخ الذي ذهب إلى الميدان للتحقق من المعلومة. تقمّص دورك جيداً لو سمحت. وأنت يا أوبال، أرغب أن تظهري أيضاً على الشاشة، فأنت تملكين وجهاً إعلامياً جميلاً، على الأخص إن قمت بالكشف قليلاً عن صدرك. جيد، سوف نضع لك بعض المكياج. وأنت أيضاً يجب أن تتقمصي دورك جيداً. فأنت ستكونين مثل الممثلة الأولى في سلسلة أفلام إنديانا جونز. ماذا كان اسمها يا نيكولاس؟

- لا أتذكر ذلك.

- وأنتِ يا سيريز هل تتذكرين اسمها؟

- كلّا.

- حسناً، هذا غير مهم، فليس هذا ما يجب أن نتذكره... إذاً، ستكونين الممثلة السمراء التي ترافقه.

أمام هذه المسؤولية، اكتفت أوبال بأن تبتلع ريقها. وجّه لها رينيه إشارة تعني: «أعرف، فأنا أفكر تماماً في الشيء ذاته».

- أنت يا إيلودي، سوف تلعبين دور العالم المشكك الذي يضطر لمواجهة الحقائق أمام الأدلة الدامغة. هل تستطيع أن تضع لها الميكروفون بالقرب من عنقها يا نيكولاس؟

إنّه يغير نبرة صوته عندما يخاطب أحداً ما طالباً منه أمراً معيناً. ربما تكون هذه الأصوات متبقية من حيواته السابقة. صوت القائد، والصوت المعسول لموظف يطلب علاوة على الراتب، وصوت الرجل الجذاب، وصوت الرجل المخيف.

- هل حفظ كلّ شخص دوره؟ سوف تقومين يا سيريز بالتناوب بين اللقطات العريضة للكهف واللقطات القريبة على الوجوه من أجل جذب الأنظار. تأخذين لقطة له ومن ثمّ تتبعينها بلقطة على المرأتين لإضفاء القليل من النضارة على الصورة. ولا تنسي على الأخص المشاعر، أريد التركيز على المشاعر.

أكّد الجميع على كلامه. صعد بعدها رينيه إلى غرفته كي يحضر نفسه. وراح ينظر إلى نفسه في المرآة.

إنّه اليوم العظيم. أخيراً، سيعرف العالم بأسره.

وجّهت له أوبال التي تقف خلفه، نظرة تشجيع تعني «ليسوا جزءاً من عائلتنا الروحية، ولكن بفضلهم يمكننا النجاح».

أعتقد أنّنا بدأنا نفهم بعضنا على بعض أنا وأوبال حتى دون كلام.

-106-

تقّدم جيب نحو جموع الآلاف من الأقزام البشرية التي تهددهم بالحراب والرماح والأقواس. ومشت خلفه نوت ووراءهما عشرات الأطلانطسيين في موكب بطيء.

يبدو أنّ السكان الأصليين الأقزام قلقون، ولكنّ فضولهم يتفوق على خوفهم. وقد أطلقوا عدة مرات صرخات حادة لإخافة من يواجهونهم.

تقدّم قزم من بين السكان المحليين الأقزام يبدو أنّه قائدهم ووقف في مواجهة جيب. يرتدي تنورة من جلد الحيوانات وقلادة مصنوعة من العظام، ويضع على أنفه عظمة أكثر عرضاً تخترق الحاجز الأنفي.

جلس على قمة تلة حتى تكون عيناه على مستوى عيني محدّثه تماماً. مدّ له جيب إصبع سبابته، فكشّر القائد حتى بانت أسنانه، ولكن بعد أن أيقن أنّ هذه الحركة ليست عدوانية، انتهى به الأمر بأن مدّ بدوره سبابته الصغيرة. لقد تمّ الاتصال.

يعلم جيب أنّه سيستخدم قدراته على التخاطر لبدء الحوار. أغلق القائد عينيه واستقبل الرسالة من العملاق.

دع طاقة الحياة تتدفق بيننا. افهم أنّها الطاقة ذاتها التي تسري في كلا جسدينا. افهم أنني أستطيع مساعدتك على التطور.

أستطيع أن أعلمك الانتصار على الخوف. أستطيع أن أعلمك كيف تجعل روحك خالدة. أستطيع أن أعلمك الحب.

ولكن من أجل هذا، يجب أن تكون متيقظاً، وأن تسممني وأن تتوقف عن الرغبة في تدمير ما لا تفهمه.

فتح المواطن القزم عينيه على اتساعهما وبعدها خرّ ساجداً. ومن ثمّ طالب جيب باتصال جديد بينهما عبر سبابتيهما.

استمرّ التبادل التخاطري بينهما عدة دقائق، الوقت الكافي لجيب كي يُظهر لهذا الكائن البسيط لمحة عن رغبته في رفع مستوى وعيه. وفي النهاية استدار القائد القزم تجاه شعبه وراح يخاطبهم. وكان صوته الحاد جداً، قد أعاد إلى أذهان الأطلانطسيين صوت زقزقة العصافير.

بعد أن أنهى خطابه، ساد صمت بين الجموع التي بدا عليها التردد. وفي النهاية، وضع الرجال الأقزام أسلحتهم وسجدوا هم أيضاً تحت أرجل الأطلانطسيين وراحوا يرددون المقطع الصوتي ذاته:

«جيب!» «جيب!» «جيب!»

اطمأنّ العمالقة القادمون من البحر.

همست نوت في أذن جيب:

– يجب أن تسجل غداً هذه الحادثة أيضاً في المخطوطات.

التجأ عنكبوت مشعر إلى إحدى الحفر وهو خائف، بعد أن اقتربت المجموعة الصاخبة من المستكشفين والصحفيين من الكهف.

أعلن غوتيه كارلسون أنّهم سيكونون خلال لحظات في بث مباشر على القناة الوطنية. قام نيكولاس بمدّ ذراع الميكروفون بينما راحت تضبط سيريز وهي تحمل الكاميرا على كتفها، توازن الألوان، ومن ثمّ قامت بتركيز الصورة بشكل دقيق. وأخيراً عندما أضاء الزر الصغير باللون الأحمر، عرفوا أنّهم أصبحوا الآن على الهواء. شرع غوتيه بالحديث:

- أعزائي المشاهدين، سوف تحضرون حدثاً تاريخياً ببثّ مباشر؛ سنكشف لكم عن موقع أثري جديد سوف يقلب على الأرجح جذرياً كلّ ما نعرفه عن أصل البشرية. في الواقع، هذا الجبل الذي ترونه في وسط الصحراء والذي يتمّ فيه التصوير من قبل فريقنا، هو المكان الذي اكتشف فيه البارحة فقط أستاذ التاريخ رينيه توليدانو ومساعدته اكتشافاً استثنائياً. نحن هنا الآن في قلب الجبل الأبيض وسط الصحراء، في واحة سيوة غرب مصر، في منطقة ليست بعيدة عن الحدود الليبية.

ساروا باتجاه الكهف. كان غوتيه في المقدمة ويتبعه رينيه ومن ثمّ أوبال وإيلودي اللتان تحملان، حسب الاتفاق، مشاعلهما لإضاءة الجدران.

- هلّا تحدّثت لنا يا أستاذ توليدانو عن اكتشافك. كان ذلك في الأمس، أليس كذلك؟ فقد دخلت لأول مرة إلى هذا المعبد الصخري عن طريق تفجير الصخرة الضخمة التي كانت تسدّ المدخل. يحضرني أولاً هذا السؤال: كيف عرفت أنّك سوف تكتشف شيئاً ما في هذا المكان بالتحديد يا أستاذ؟

- حسناً، لقد حدث هذا بفضل التنويم المغناطيسي. فقد كنت في جلسة تنويم مغناطيسية بإشراف المنومة أوبال إيتشيجويان- وهكذا التقينا في الواقع و...

توقف رينيه لبرهة، بعد أن شاهد في منطقة رملية آثار أقدام ليست له ولا تعود أيضاً لأوبال.

هناك الكثير من آثار الأقدام، بل حتى الكثير جداً. هناك أناس عددهم ثلاثة على الأقل، جاؤوا إلى هنا من بعدنا. كما يوجد أيضاً آثار عجلات. كان لديهم إذاً إمّا عربة، أو رافعة. ماذا عليّ أن أفعل؟ يجب أن نوقف كلّ شيء.

قطب غوتيه حاجبيه، وراح يتحدث في الميكروفون بهيئة جادّة.

– إذاً، نحن هنا نتقدم داخل النفق الصخري، سوف نكتشف مثلما فعلتم البارحة هذا المكان حيث لجأ إليه... الأطلانطسيون، أو لنقل بدقة أكثر رجل وامرأة أطلانطسيان. نعم، لقد سمعتم جيداً، سيداتي وسادتي، إنّهم أطلانطسيون! هذا هو الاكتشاف الضخم الذي حققه البارحة رينيه توليدانو، أليس كذلك يا رينيه؟

– إيه، نعم، في الواقع، تلعثم رينيه فجأة وبدا على غير هداه.

حاول الصحفي بعد أن رأى ارتباك رينيه أن يعدّل الموقف.

– لقد التجآ إلى هنا كي يموتا في هذا المكان، وكي يضعا أيضاً في جرار كبيرة لفائف من المخطوطات التي تتحدث عن حضارتهما قبل أن تبتلعها المياه، أليس الأمر كذلك يا أستاذ توليدانو؟

توقّف رينيه عن الكلام، وأخذ يتقدم بسرعة أكبر وأكبر، لم يعد يستخدم مشعله، وإنما مصباحه الكهربائي ذي الاستطاعة الأكبر. وجد على طريقه الصواعد الكلسية مكسرة، كما لو أنّ دبابة مرت من هنا وطحنت كلّ شيء. كان الحطام الصخري يملأ المكان كله. تجاوز رينيه كادر الكاميرا وهناك رأى كلّ شيء.

أوه! كلا ليس هذا! ليس هذا!!!!!

لحقته سيريز وهي تكمل التصوير ونيكولاس حاملاً عصا الصوت. كان باستطاعة الجميع مشاهدة الموقف: الكهف فارغ بالكامل. لا وجود فيه إلا لآثار أقدام وآثار عجلات عربة تبدو واضحة في المناطق الرملية، التي تشهد أنّ الكهف قد تمت زيارته منذ فترة قريبة.

هذا ليس ممكناً! ليس هذا!!!!!

جثا رينيه على ركبتيه.

- أوه، كلااااااااا! ليس هذا! ليس الآن!

أصيب الجميع بالذعر، وكان غوتيه كارلسون الأكثر سرعة في ردة الفعل. فقد شغل كامل المساحة المرئية بمواجهة الكاميرا وأعلن بأقصى سرعة:

- عذراً، هناك مشكلة تقنية صغيرة، وسيتوجب علينا قطع البث، سوف نبقيكم على تواصل بمستجدات الأحداث هنا في سيوة في صحراء مصر، نعود إليكم في باريس لمتابعة نشرة الأخبار.

ارتعد رينيه غضباً. وأوبال كانت مصدومة بالكامل وقد اقتربت منه. صرخ غوتيه بملء الصوت:

- عملية احتيال! كانت هذه عملية احتيال! لقد سخرتم مني أمام ملايين المشاهدين! وأنا الذي وثقت بكم! سوف تدفعون ثمن هذا!

تجهّم وجه إيلودي، وأخفضت سيريز كاميرتها محبطة، وأطلق نيكولاس تنهيدة خيبة. ولكنّ غضب غوتيه لم يخفت بعد. وجّه إصبع الاتهام إلى أستاذ التاريخ.

- محتال! لقد سخرت مني أمام ملايين المشاهدين. ولن أسامحك على هذا، هل تسمعني، لن أسامحك أبداً!

أشار بعدها للآخرين بالخروج. فخرجت إيلودي بعد قليل من التردد هي والصحفيون الثلاثة، تاركين رينيه وأوبال وحيدين.

ترك رينيه نفسه يسقط أرضاً ومن ثمّ تمدد على ظهره في وضعية تشبه كثيراً الوضعية التي كان عليها الهيكل العظمي. وجاءت أوبال بشكل غريزي وتمددت تماماً في وضعية الهيكل العظمي الأنثوي نفسها. تلاقت يداهما ومن ثم تشابكتا.

فجأة، انفجرت أوبال ضاحكة، وسريعاً تبعها رينيه.

ضحكا طويلاً، وكانت ضحكاتهما تتردد أصداؤها في الكهف. ومن ثمّ تباطأت شيئاً فشيئاً إلى أن توقفت. وظلّا صامتين مدة طويلة.

- لقد كان ذلك جميلاً جداً... كالحلم.

بقيا هناك، ويداهما متشابكتان. فجأة، وجدا أمامهما ظلالاً لأشخاص

يرتدون الزيّ العسكري. استلّ الرجل الذي وصل في المقدمة سلاحه وقال بلغة إنكليزية وبلكنة قوية:

– الشرطة! أنتما رهن الاعتقال.

-108-

تم وضع القرابين تحت أقدامهما. وقام طبّال بالعزف على آلته بغية أن يشعروا بالاسترخاء. وراح الراقصون يتمايلون ويرسلون إليهم ابتسامات احترام وتوقير.

جلست نوت على عرشها وهي تتأمل السكان الأقزام الذين يأتون بمواكب طويلة لوضع الهدايا والطعام لإرضائهما. كان لديها انطباع أنّ كلّ شيء سهل جداً؛ منذ أن ابتكر جيب فكرة الدين، وهؤلاء الأقزام يسارعون من كلّ مكان لخدمتهم بورع وتفانٍ. فإنّ هذه التصرفات بدت لها غير سليمة نوعاً ما.

التفتت إلى شريكها الذي كان بدوره جالساً على عرشه، ويقوم بهزّ رأسه معبراً عن قبوله لكلّ شيء جديد يوضع عند قدميه.

– لا أستطيع أن أفهم كيف يمكنهم الانتقال بهذه السرعة من الرغبة في القتل إلى هذا القدر من التبجيل والاحترام.

– إنّ رينيه هو من جعلني أفهمهم؛ فقوة التخيل لدى البشر تصبح عالية جداً طالما أنّهم لا يستطيعون التحقق من الأمر. إنّهم يخضعون تماماً لمعتقداتهم، لذا فهم لا يفكرون، ويحبون طاعة الأسياد الذين يعزون إليهم امتلاك قوى سحرية.

– ومع ذلك، هل رأيت السرعة التي انتقلوا فيها من الإحساس بالكراهية إلى الإحساس بالعشق والعبودية!

– يبدون سعداء في خدمتنا. سوف نزودهم بكثير من المعارف التي ستطورهم بشكل كبير. هل تتخيلين كم من آلاف السنين التي كان من الممكن أن يستغرقوها للوصول إلى هذه المعارف لو أنّهم لم يحظوا بفرصة التعرف إلينا؟

– ربّما كانوا سيحصلون عليها من دوننا.

- لا أعتقد ذلك. سوف نعلّمهم الكتابة والطب ومفهوم التقمص وفن العمارة.

- لقد قمت بخلق دين ذكي جداً، قالت نوت. أنا معجبة بإبداعك.

- لقد أعطاني ني- هي الخطوط العريضة لهذا الدين، ومن ثمّ كان إكماله سهلاً بعد ذلك. لم أفعل سوى اتباع إرشاداته.

شاهدت نوت امرأة قزمة تلوح أمامها بتمثال خشبي يمثلها. فأمسكته بيدها وأطلقت تنهيدة، ومن ثمّ بدورها أومأت برأسها شاكرة.

- ومع ذلك، فلدي انطباع بأننا نسيء استخدام نفوذنا عليهم...

- المهم هو كتابة مخطوطاتنا. وفي هذا السياق، فقد طلب مني ني- هي آخر مرة تحدثنا معاً أن نقوم أنا وأنت بشكل دائم بوضع قلادة تحمل دلفيناً أزرق.

صفّقت نوت بيديها. فسارع إليها مباشرة رجلان قزمان.

أشارت لهما بأنّها تريد أن تأكل، وما هي إلا بضع ثوانٍ حتى تكدست أمامها الكثير من الفواكه المحلية الصغيرة.

- يفاجئني أنّهم فرحون بطاعتهم لنا إلى هذه الدرجة.

- ولماذا ستكون لديهم رغبة مستميتة بالحرية والاستقلال؟

- مع ذلك يجب ألا يكونوا سعداء بخضوعهم هذا.

- ولمَ لا؟

أشار جيب بإيماءة أنّه يجب على جميع الأقزام إخلاء المكان لأنّ الإلهين يرغبان بالحديث بهدوء فيما بينهما. دعا نوت إلى اللحاق به وذهب باتجاه طاولة، وكشف لها مخطوطاً كان قد كتب عليه مسبقاً عدّة أسطر.

- بفضل هذه المخطوطات، لم يعد هناك خطورة الآن في أن تتعرض حضارتنا للنسيان. وبهذا سيعرف كلّ الناس في المستقبل بالتفصيل كيف كانت حياتنا على الجزيرة قبل الطوفان.

تناول جيب ريشة القصب ذات الرأس المنحوت ليتابع كتابة تاريخ ها- ميم- باث، منذ تدميرها إلى استقرارهم بعد ذلك في مصر.

- ركّز جيداً، فبحسب ما فهمت أنّه بعد اثني عشر ألف عام سيكون تعداد الناس ثمانية مليارات نسمة. هذا يعني أنّ ثمانية مليارات نسمة يمكن أن يقرؤوا ما تكتبه الآن.

وافقها جيب على كلامها.

- وبهذا سيكون النصر لني- هي، الرجل الذي كشف وجودنا لهؤلاء الذين كانوا يعتقدون أنّ وجودنا كان مجرد أسطورة.

-109-

إنّ الجوّ خانق، والرجل الدبلوماسي يتصبّب عرقاً. أمسك منديله الذي كتب عليه أحرف اسمه الأولى (ج، ش، د، ف) ومسح جبهته.

جلس رينيه أمامه بملابسه الحمراء ومظهره اللامبالي. قدّم الرجل الشاب بطاقة عمله لرينيه التي قرأ منها: «جان شارل دي فيلامبروز، مساعد ثقافي في السفارة الفرنسية في القاهرة».

- هل تعلم أين أنت؟

- كلا.

- في سجن «طرة» الشديد الحراسة، الذي يسمى أيضاً بسجن العقرب. منذ أن علمت باعتقالك يا سيد توليدانو، أردت أن أعرف لماذا تمّ توقيفك في مثل هذا المكان المخصص أساساً للمعارضين السياسيين، كما رغبت باللقاء بك. أعلن الرجل الشاب الذي بالكاد يبدو في العشرينات من عمره.

اسمه جان شارل... دي فيلامبرز؟ هل يعقل أن يكون من السلالة «الجينية» للبونتين؟

شعر أستاذ التاريخ منذ أن ألقوا القبض عليه في كهف سيوة، أنّ ردة فعل الشرطة كانت جائرة بعض الشيء. فقد تعاملوا معه على أنّه مجرم خطير. ونقلوه مع أوبال تحت حراسة معززة إلى هذا السجن ذي الإجراءات الأمنية المشددة. ومنذ وصولهما، جرى فصله عن المنومة المغناطيسية التي قادوها في ممر مجاور.

صادروا جميع ممتلكاته الشخصية، ومن ثمّ فتّشوا جسده وأُمر بعدها بارتداء لباس يشبه البيجاما الحمراء. كانت مساحة زنزانته بارتفاع ثلاثة أمتار وعرض ثلاثة أمتار، فيها مغسلة وحفرة في الأرض تستخدم كمرحاض، والنافذة عبارة عن شق بعشرة سنتيمترات.

لقد وضعوني في «ديماس» مظلم تحت الأرض.

تذكر رينيه أنّ هذه العقوبة كانت تجري داخل القلاع المحصنة في فرنسا أثناء العصور الوسطى. وقد قال في نفسه حينما علم بها لأول مرة، إنّ على المرء أن يكون قاسي القلب كلياً كي يستطيع أن يحبس أحداً في مكان كهذا. وها هو الآن يختبر بنفسه هذه التجربة.

إنني أعيش فيما يشبه حاوية القمامة بالنسبة للبشر.

حتّى زنزانته المبطنة في مستشفى مارسيل- بروست أصبح يراها قصراً بجانب حفرة الفئران القذرة هذه.

ربّما تكون معاملة أوبال سيئة أيضاً.

وضع له الحارس طبق الطعام، وكان عبارة عن قطعة عظم بدا كأنّ كلباً سبق أن قضمها قبله، ومعها فتات خبز يابس. وبعد ذلك، راح رينيه ينتظر. ليس هناك أدنى تواصل بشري ولا تلفاز ولا محام، لا وجود إلا للزمن الذي يمضي والتوتر الذي يتصاعد.

كان مشتتاً بين مشاعر الخيبة بما حدث في الجبل الأبيض، والإحساس بالذنب لأنه أقحم معه في هذا الكابوس أناساً كانوا يثقون به (*عزيزتي أوبال المسكينة، لم يكن يتوجب عليك اختياري في مسرح صندوق باندورا!*)، بالإضافة إلى الشعور بالخوف ممّا قد يحدث له (*أن يتعفن ببطء داخل هذا الديماس*)، لم يعد يستطيع التفكير بسكينة وسلام ولم يعد قادراً على تنويم نفسه مغناطيسياً. وفي المرات القليلة التي نجح في نزول درجات سلّم اللاوعي، وجد نفسه أمام الباب المغلق بشدة.

وبعدها جاؤوا لإحضاره وقادوه إلى غرفة الزائرين حيث كان بانتظاره هذا الشاب الذي يظهر من ملامحه أنّه من طبقة رفيعة المستوى، يرتدي ملابس رسمية مع ربطة عنق يبدو فيها كأنّه ذاهب لحضور حفل اجتماعي.

- هل أستطيع أن أعرف ماذا حلّ بالآنسة إيتشيجويان؟ سأله رينيه.
- إنّ الآنسة إيتشيجويان وأصدقاؤك الأربعة هم أيضاً في السجن.
- وما هو سبب اعتقالنا؟
أخفض جان شارل فيلامبروز عينيه.
- أخشى أنّني لا أحمل لك أخباراً سارة يا سيد توليدانو. لقد تمّ توقيفكم رسمياً بتهمة تخريب قطع أثرية.
- عفواً!؟
- إنّ وزير الثقافة المصري هو من رفع دعوى ضدكم. يدّعي بأنّ ذلك المكان كان يضمّ بقايا من العصر الفرعوني. وقمتم أنتم بحسب أقواله، بتخريب كلّ شيء بشكل مدروس.
- ولكنّ الحقيقة عكس ذلك، أنا من...
- لا تقلق يا سيد توليدانو، أنا أعرف الحقيقة لأنّني قمت بتحقيق شخصي واستطعت من خلال دفع بعض الأموال لأشخاص في وزارة الثقافة، أن أكتشف القصة بأكملها.
- إنّني أستمع، قال رينيه.
- إنّ الصحفي غوتيه كارلسون هو من تسبّب بكلّ شيء. فهو من كشف الموقع وأرسل الصور إلى وزارة الثقافة المصرية، وبالتحديد إلى قسم الشؤون الأثرية، للحصول على إذن بالتصوير.
كنت متأكداً أنّ ذلك سوف يجلب الكثير من المشاكل.
- إنّ الصحفيّ يجهل التحديات السياسية التي تحيط بقطاع المتاحف والآثار.
- أيّة تحديات؟
- أصبح حالياً مجلس الشعب المصري يضمّ بغالبيته ممثلين عن حزب الحرية والعدالة، أي الإخوان المسلمين. صحيح أنّهم ليسوا تماماً كما كانوا في عهد الرئيس السابق محمد مرسي، ولكنّهم يدافعون عن المبادئ ذاتها. ومنذ أن أصبحوا في المجلس توجّب على الرئيس السيسي، الذي هو أكثر علمانية وحداثة، أن يقدّم لهم بعض التنازلات؛

فقام بمنح منصب وزير الثقافة، معتبراً إياه منصباً ثانوياً، إلى علي عبد العال الذي كان رفيقاً للرئيس مرسي في أسفاره والذي انتقل إلى معسكر اللواء السيسي بدافع الانتهازية. ادّعى علي عبد العال أنّه من المعتدلين، ولكن ما إن وصل إلى السلطة حتى أكمل بهدوء ما كان قد بدأه في عهد الرئيس مرسي سواء بسعيه لطرد الفنانين العلمانيين، وإقصاء علماء الآثار الغربيين الذين حسب زعمه، يفسدون ويسرقون ثروات البلاد. لقد قام بكلّ شيء للحدّ من السياحة المرتبطة بمصر القديمة التي، برأيه، لا تعدو أن تكون مجرد حالة انبهار وإعجاب غير سليم بديانات وثنية وجدت قبل الإسلام.

– هل علي عبد العال هو نفسه الذي سبق أن طالب بدراسة مقترح لتفجير هرم خوفو بالديناميت؟

– آه، تتذكر هذه الحادثة؟ إنّه هو بالفعل. لقد شعر الجهاديون في ذلك الحين، أنّهم يستطيعون تدمير جميع المواقع الأثرية التي يعود تاريخها إلى ما قبل ولادة الرسول محمد. لقد سبق أن قاموا بتدمير أبواب معبد نمرود في العراق بالجرافات الآلية. ودمروا في عام 2001م تماثيل بوذا العملاقة في باميان في أفغانستان، كما دمّروا أيضاً المواقع الأثرية الفينيقية في لبنان تحت ذريعة أنّها كانت مليئة بالنقوش العبرية.

كان جان شارل دي فيلامبروز يعبر بفصاحة تامة، دون إظهار للمشاعر. يقف منتصباً ونظره ثابت وعيناه لا ترمشان.

– إذاً وزير الثقافة هذا المدعوّ علي عبد العال، هو المسؤول عن المتاعب التي نحن فيها؟

– عندما تمّ إخطاره بمشروع التصوير في الجبل الأبيض تحرّك مباشرة. فقد أدرك خطورة العثور هناك على موقع تنقيب أثري من شأنه أن يؤدي إلى زيادة في السياحة الوثنية. فقال في نفسه إنّه من الأفضل القضاء على المشروع في مهده قبل أن يصل الخبر إلى المسؤولين الآخرين ويقوموا بالتدخل. وبما أنّه كان يملك الإحداثيات الدقيقة للموقع، أسرع بإرسال فريق من الفنيين إلى المكان. وقد عثروا على القطع الأثرية التي سبق أن كشفتها أنت، وصادروها جميعها.

إذاً ربما تكون المخطوطات الأثرية ما تزال سليمة.

- وأين هي الآن؟

- وفقاً لمصادري في وزارة الثقافة، فقد أخذ الفريق المكلّف «بالتنظيف» جميع الأدلة الثبوتية إلى الصحراء حيث حرصوا على تدمير كل قطعة منها بعناية فائقة حتى لم يبقَ منها سوى الغبار.

كم كنت ساذجاً بإعطائي هذه المعلومات الجغرافية دون أيّ تردد. لقد دمّرت كلّ شيء.

- يبدو أنّهم وجدوا مخطوطات من ورق البردي التي قاموا بإحراقها بالإضافة للهيكلين العظميين. كان الأصعب هو إتلاف أسنان الهيكلين، لذا استخدموا مادة الأسيد لهذه الغاية كي لا يُبقوا منهما أيّ أثر.

وهكذا انتهى كلّ شيء. لن يعود باستطاعتي أبداً إثبات ما جرى حقاً. كلّ ما أنجزناه لم ينفع بأيّ شيء، وقد ذهب هباءً. كما أنّ أوبال وإيلودي والصحفيين سوف يتعفنون هنا إلى أن يتمّ نسيانهم هم أيضاً.

- وكيف تفاعل الناس الذين سمعوا بما جرى؟

- بما أنّ التقرير كان يُبث على الهواء مباشرة على القناة الوطنية الفرنسية، فإنّ قضية كهف سيوة قد أصبحت «كهف علي بابا روم[1]». كما أنّ الضجة التي حدثت على الإنترنيت حول الموضوع لم تقم سوى بزيادة حالة السخرية العامة على غوتيه كارلسون بالطبع، وما أسموه بإنديانا جونز في الكهف الفارغ.

إذاً نحن.

- بما أنّ كارلسون كان قد ذهب إلى حدّ الإعلان عن اكتشافات ساحقة لهياكل عظمية تعود للعمالقة وجرار في داخلها مخطوطات تروي تاريخ أطلانطس، فقد سارت النكت على قدم وساق حول هذين الموضوعين. وعاد الناس ليعيشوا ما يشابه قضية روزويل[2] حين

1- بابا روم: حلوى فرنسية معروفة. المترجمة

2- حادثة مدينة روزويل وقعت في أميركا عام 1947م، بعد تحطّم بالون مراقبة عسكري، زعمت بعض الادعاءات أنّها سفينة فضائية تحمل كائنات فضائية. المترجمة

زعموا زوراً بوجود كائنات فضائية مصنوعة من المطاط. أعتقد بعد ما جرى، فإنّ أي كائن يريد التطرق إلى هذه المواضيع المثيرة للجدل سيفقد مصداقيته لدى الجميع.

ما الذي فعلته كي أستحق هذا؟ سيتوجب عليّ إذاً أن أتحمل العذاب والإهانة حتى النهاية.

أدرك الدبلوماسي مدى الأسى والشقاء اللذين يشعر بهما محاوره ولكنّه تابع مع ذلك قائلاً:

– لقد راهن السيد كارلسون كثيراً، لذا فمن المنطقي أن يخسر الكثير. كلّ هؤلاء الذين حاولوا الدفاع عنك أصبحوا موضع سخرية للجميع. حتى بالنسبة للسيدة تيسكيت التي هي حسب ما أعلم مدرسة علوم في الثانوية، سيكون من الصعب أن تتهرب من سخرية واستهزاء طلابها. أمّا بالنسبة للآنسة إيتشيجويان فلا أعتقد أنّها سوف تصعد قريباً على خشبة المسرح، إلّا إذا كان ذلك من أجل تقديم العروض الفكاهية. أعتقد أنّه من مصلحتها في هذه المرحلة أن تجعل الناس ينسونها. وينطبق الشيء ذاته بالنسبة للصحفيين الفنيين.

شعر رينيه أنّه ممزق بين الشعور بالارتياح لمعرفته ما حدث أخيراً، وشعوره بالأسى بسبب الانهيار الكاسح لمشروعه.

والآن كلّ هذا لم يعد سوى ذكرى راسخة في دماغين اثنين، دماغ أوبال ودماغه هو. وعند موتهما سوف تختفي هذه الذكرى إلى الأبد.

– أنا أعتذر لعدم قدرتي على مساعدتك أكثر. ولكن أنا هنا كي أعلمك بأنّ الحكومة الفرنسية لن تترك مواطنيها في السجون الأجنبية بهذه البساطة.

أنا أحبّ هذا الرجل.

– على الأخص في هذا السجن بالتحديد، سجن العقرب الذي يحظى بإجراءات أمنية عالية ومعدل وفيات مرتفع بشكل غير طبيعي.

إنّه بالفعل يوم «الأخبار السارة».

سمعوا صوت صراخ عالٍ.

- لقد قمت ببعض التحريات، ووجدت أنّ هناك الكثير من حالات العنف هنا؛ سواء من اعتداءات جنسية، أو من سادية تظهر لدى الحراس... وقد صرّح المدير السابق لهذا السجن في لقاء مع منظمة العفو الدولية أنّ هذا السجن صُمّم لهذا الهدف «من يدخله لا يخرج منه أبداً إلّا محمولاً إلى المقبرة».

لماذا يقول لي هذا؟ إنّه يريد بالتأكيد أن يفسد يومي.

- طالما أنّك في زنزانة منفردة، ليس هناك ما تخشى منه. لأنّه إن أزعجت أو أقلقت موظفي السجن، فسوف يكتفون بوضعك في زنزانة مع متهمين آخرين، وحينها لن يعود بإمكاننا حمايتك...

يقول لي هذا كي أبقى مطيعاً وألّا أحاول الهرب من هنا.

- ومع ذلك، يجب أن تتذكر دائماً أنّني أبذل مجهوداً كبيراً لإطلاق سراحك. أعتقد أنّه من الآن حتى بضعة أشهر، سوف أنجح في ذلك. لديّ زميل دبلوماسي موظف هنا كاد ينقذ حياة رجل وضعه مماثل لوضعك وكان في السجن نفسه.

- «كاد ينقذه» ؟

- عندما نجح في ذلك، توفي المتهم بسبب سوء المعاملة. لم يكن هذا الرجل محظوظاً.

أعتقد أنّني فهمت هذه الرسالة المموهة. لم يقل لي ألّا أجرب شيئاً، بل يقول لي على العكس تماماً أن أجرب أيّ شيء كي لا أبقى هنا، ولكن عليّ فعله بطريقة فعّالة.

تصافح الرجلان بحرارة، واقتيد رينيه بعدها إلى زنزانته المظلمة والدافئة والخالية من الهواء.

110. مذكرات. الدياميس.

كثيراً ما كانت تجهز القلاع الفرنسية المحصنة في العصور الوسطى، بعدّة غرف خاصة ألا وهي الدياميس. والدياميس عبارة عن حفر تُحفر في الجزء السفلي من القلعة. كان يتمّ الوصول إليها عبر كوّة صغيرة ولم يكن

من الممكن نزولها إلّا عبر سلّم أو حبل يتمّ رفعه بعد أن يُوضع المتهم في الأسفل.

كانت الداميس تستخدم كسجون خالية من النوافذ والأبواب وبالتالي خالية من الضوء.

وُجدت الداميس في قلعة الباستيل، وفي قلعة بيير فوند.

إنّ وجود الرسومات والنقوش على الجدران هي التي جعلتنا نفهم أنّها لم تكن مجرد كهوف أو أقبية بسيطة، بل سجوناً فعلياً.

-111-

جلس رينيه توليدانو بوضعية اللوتس، مغلقاً عينيه، ومتنفساً ببطء.

يجب عليّ النجاح في الوصول. يجب عليّ النجاح في الوصول. ليس من أجلي فقط، وإنّما من أجل أوبال أيضاً. كي يكون هناك فرصة لإمكانية نقل هذه المعلومات في يوم ما وفي مكان ما، دون أن يكون كلّ ما أنجزناه منسيّاً. ودون أن أكون أنا أيضاً منسيّاً.

أغلق عينيه، وببطء نزل الدرجات التي تقود إلى باب اللاوعي. ولكنّ قبضة الباب تقاوم.

عليّ أن أسترخي، وأسلّم نفسي للتنويم المغناطيسي.

أخذ شهيقاً وأطلق الزفير بكلّ تروٍّ، وبعدها قام بإصبعيه الاثنين بخفض قبضة الباب الذي فتح أخيراً. وجد نفسه في الممر.

جيد. والآن عليّ إيجاد هيبوليت.

الباب رقم 109.

فتح الباب ووجد الجندي الذي خاض الحرب العالمية الأولى نائماً في الخندق.

– مرحباً يا هيبوليت، هل عرفتني؟

استيقظت روح الرجل الشاب بينما جسده ظلّ نائماً. لقد عرفه.

– مرحباً يا رينيه، لم أكن أعتقد أنّك ستعود.

- إنّني بحاجة إلى خدماتك مجدداً.
- ما الذي أصابك؟
- كالعادة، أنا بحاجة للهروب من جديد. وبما أنّك أظهرت قدرات كبيرة في المرة السابقة وبما أنّني أخضع لظرف مشابه الآن، لذا ألجأ إليك من جديد. ولكنّني أخشى أنّ الخروج من هذا السجن المصري سيكون أصعب من الخروج من مستشفى الأمراض النفسية في باريس.
- صفْ لي الوضع.
- أنا محتجز في «سجن العقرب»، إنّه سجن ذو إجراءات أمنية عالية. هناك عدّة مبانٍ مراقبة بالكاميرات، وأريد أيضاً تحرير أصدقائي الآخرين الذين يحتجزون في زنازين أخرى، ولكنّني أجهل موقعهم بالضبط.
- كم عدد الحراس؟
- أعتقد أنّ عددهم أكبر من عدد الحراس في السجون العادية. كما أنّ الجدران هنا أكثر علوّاً وأنظمة المراقبة أكثر تطوراً.
فكّر الجندي قبل أن يخبره:
- عذراً، هذه المرة لا أعتقد أنّني سأكون مفيداً.
- أنت ترفض مساعدتي يا هيبوليت؟
- أرغب بمساعدتك ولكنّني لست الشخص المناسب يا رينيه. إنّ تدخلي لن ينفعك بشيء.
- هل تستسلم؟
- أنا متأكد من أنك تستطيع أن تجد حالِماً آخر أكثر براعة مني ليخرجك ممّا أنت فيه.
- أنت متواضع جداً، إنّك جندي حربيّ متمرّس سبق أن أثبت جدارتك في ظروف صعبة جداً.
- ها أنت تحاول تمجيدي، ولكنّني أعرف من أكون، فأنا مجرّد مُجند بسيط تعلّم القتال كي يطيع أوامر قادته وينقذ نفسه، ولكنّني في الوقت ذاته ما زلت شاباً ولست مؤهلاً فعلاً لهذا.

- هل هذا هو وقت التنصّل بدافع التواضع؟ لقد تمّ تكريمك على أنّك بطل، وأنت *بطل* حقيقي!
- أنا «بطل» ؟ كلا! لا يسعدني هذا الأمر أبداً. فأنا لا أحلم إلّا بالسلام والهدوء والسكينة.
- أنت كابوس بالنسبة للألمانيين!
- أنا شاب كنت قد خطّطت لأخذ دروس في الرسم بعد انتهاء الحرب كي أصبح رسّاماً. هذه هي موهبتي وهذا ما أرغب أن أوصف به. أنا فنان.

يجب عليّ ألّا أكشف له الواقع المحزن لمستقبله.

- إذاً أنت ترفض؟
- نعم أرفض.
- سوف أعيد وأصرّ عليك.
- جوابي هو لا.
- أرجوك.
- قلت لا.

اللعنة، يبدو أنني بالغت قليلاً في فرض نفوذي على أسلافي. وهذا قد يجعلهم يرفضون مساعدتي، لذا يجب أن أنتبه إلى هذه النقطة.

- عذراً يا رينيه، صدقني أنّ هذا هو الأفضل، فأنا أعرف حدود مقدرتي، خصوصاً أنّني أدركت خطورة المهمة. عليّ مواجهة سجن بأكمله في بلد أجنبي، كما عليّ تحرير رفاقك في زنازين أخرى لا تعرف أنت موقعها بالضبط، أليس هذا هو الوضع؟ لذا أعتذر منك، فأنت يلزمك محارب أكثر شراسة وأكثر خبرة. قاتل حقيقي وليس مجنداً عادياً. رجل بارع يستمتع باستخدام السلاح، ويحب الحروب ويحب العنف. رجل أكبر سناً وأكثر حكمة وفي الوقت عينه أكثر عزماً وتصميماً.

إنّه محق. فهيبوليت سوف يُقتل على أيّ حال على يد جندي ألماني بسيط. لا أستطيع أن أسمح لنفسي بالمخاطرة بالفشل. خصوصاً هنا في هذا

المكان البعيد جداً عن فرنسا، ومع هذه المسؤولية التي أحملها تجاه أولئك الذين وثقوا بي.

لذا استسلم رينيه، وعبر الباب وعاد ليجد نفسه في الممر، وهناك عبّر عن أمنية جديدة: «أريد العودة إلى تجسّد سابق كنت فيه أكثر سرعة، وقوة، وأكثر قدرة على السيطرة على نفسي. أريد الشخص الأكثر مهارة في إخراجي من هذا السجن ومساعدتي في إنقاذ أصدقائي المسجونين. أريد مقابلة القاتل الأسوأ في حيواتي كلّها».

ردّد طلبه أكثر من مرة، وأخيراً أضاء أحد الأبواب.

الباب رقم 71.

هو ذا. إنّه الباب الذي يسبق شانتي تماماً.

اقترب من قبضة الباب بتوجّس بسيط.

أيّ وحش سوف أقابل؟

-112-

تحتوي ذراعاه بقعاً سوداء سميكة وناعمة ولامعة ذات أطراف مدببة.

تباً، إنّ تجسّدي الأقوى من بين جميع تجسداتي السابقة هو حيوان. هل يمكن أن يكون عقرباً أسود؟ إنّه أمر ملائم نوعاً ما... عقرب من أجل الخروج من سجن العقرب.

ولكن عند تفحّص البقع أكثر، ميّز أنّ في نهاية ذراعه قفازاً وقد نقش عليه رمز العقرب. استشعر وجود أصابع تحت الجلد.

أنا إنسان.

في يده مقبض طويل ينتهي بدائرة معدنية يخرج منها نصل مسنّن الطرف. وحوله غيوم من الغبار الأصفر.

بعد رؤيته الصورة، جاء دور الصوت. أخذ يسمع أصوات صرخات غاضبة أو متألمة، وقرع سيوف حديدية، وصفير رماح.

اللعنة، إنّها الحرب مجدداً.

كانت آلاف الأجساد تتحرّك وسط أشكال حلزونية معتمة ناتجة عن ضرب أقدامهم على الأرض بغضب وعصبية.

ينتعل حذاء تبدو منه إصبعاه الكبيرتان، ويشعر على جمجمته بثقل الخوذة مع قناعها الواقي الذي يغطي نصف رأسه مع شريط يشدّ على ذقنه. إنّه قناع يخفي كامل وجهه.

كان يقف بمواجهته رجل بملابس الساموراي يلوح بسيفه باتجاهه، ويضع خوذة ذات قرون، ويرتدي درعاً حديدياً للصدر وآخر واقياً للقدمين.

كان الرجلان يتبارزان في منطقة محايدة وأبعد بقليل عن الاشتباكات.

إنّ رينيه يحسّ كثيراً بالرجل الذي وجد نفسه متجسّداً به، فهو يتمتع بشخصية قوية جداً وتركيز مطلق وتصميم وإرادة بالغين. لم يختر رمز العقرب عبثاً. يبدو أنّه لا يمتلك أيّ إحساس، كما لو أنّ الدم الذي يجري في عروقه هو دم العقارب الباردة.

يطوّق عنق عدوه شيء مروّع؛ إنّها قلادة عُلّق عليها الكثير من الأنوف، وهي كلّ ما تبقى من الرجال الذين قتلهم في معاركه. وعندما أخفض رأسه لاحظ رينيه أنّ لديه قلادة مشابهة لقلادة خصمه، ولكنّه يضع تسعة أنوف، بينما عدوّه يضع ستة فقط.

قال رينيه في نفسه إنّه ليس الوقت المناسب لتشتيت انتباه تجسّده السابق بفتح محادثة معه. يجب أن ينتظر انتهاء المبارزة.

بدأ القتال، فاستلّ كل منهما سيفه، وأخذا يدوران ببطء متفحّصين كل واحد منهما الآخر.

استفاد رينيه من هذه المهلة للتعرف بشكل أفضل على مضيفه. فوصل دون أيّة صعوبة، إلى منطقة ذكرياته السابقة، ورأى من يكون وما هو ماضيه.

يدعى شيرو ياماموتو. كان فلاحاً قبل أن يتمّ تجنيده قسراً، ومن ثمّ انخرط في الجيش بصفته أشيغارو، أي رجل مشاة مسلح بحربة. وقد سبق أن شارك في معركة كانت فرصته الوحيدة للارتقاء في سلسلة الرتب العسكرية، لذا فقد سعى كأولوية له لقتل محارب ساموراي عتيد.

وفي أثناء هرج ومرج تلك المعركة، وجد ياماموتو نفسه أمام اثنين من الساموراي القدماء يتبارزان فيما بينهما. وفي اللحظة التي قام أحدهما بتوجيه الضربة القاضية لخصمه، خرج ياماموتو من الأجمة وغرز رمحه في ظهر الساموراي مخترقاً صدره في الجهة المقابلة. لم تكن هذه طريقة قتل مشرفة، ولكنّها كانت فعّالة. ومن ثمّ استغل فوضى المعركة لجرّ الجثة إلى الغابة، وهناك استخدم سيف ضحيته لقطع رأسه وتعليقه من شعره على حزامه كما لو أنّها غنيمة أو جائزة.

إنّ القاعدة بسيطة وتقول؛ إن كنت أشيغارو واستطعت قتل محارب ساموراي، تستطيع أن تصبح بدورك ساموراي، والشرط الوحيد هو أن تكون قادراً على إظهار دليل على عملك الرائع.

ومع ذلك فقد واجه بعض الصعوبات في تنفيذ خطته؛ فما إن نجح في هذا العمل الفذّ حتى بدأ رفاقه الأشيغارو يطاردونه كي يسرقوا منه هذه الغنيمة. وكان عليه القتال باستخدام سيف ضحيته لإبعادهم عنه.

ومن ثمّ وصل بعدها إلى مرحلة التتويج. فبعد المعركة، يجب على كلّ واحد منهم إظهار غنيمته إلى سيد الحرب الذي يُدعى الدايميو. ويقوم في العادة محارب مأسور من جهة الخصوم بالتعريف بأسماء ورتب الموتى.

عرض ياماموتو الرأس الذي قتله، ولحسن حظه كان يعود لمحارب رفيع المستوى. لذلك كافأه الدايميو بمنحه لقب الساموراي المرموق مع زي محارب كامل، بالإضافة إلى حق الاحتفاظ بسيف الرجل المقتول.

تعني كلمة ساموراي «الخادم لسيده»، وهذا ما فعله. لقد تعلّم البوشيدو التي هي قانون لقواعد سلوك المحارب. وتخلى عن امتلاك منزل مع أراضي زراعية، وتخلى عن الحصول على خدم وزوجة وفضّل أن يكون ببساطة القاتل المفضل للدايميو.

لأنّ نصره الأول أعطاه الرغبة في القتل مرة أخرى.

تعلّم الإيايدو، وهو فن قتالي خاصّ يقوم المقاتل فيه بالجثو أمام الخصم، وبحركة مثالية يجرّد سيفه بأسرع ما يمكن ويشقّ جمجمة المنافس قبل إرجاع السيف إلى غمده.

إنّ هذا الفن لا يستخدم كثيراً بسبب خطورته الجمة، ولكنّ ياماموتو أثبت براعته في هذا القتال بالتحديد.

كانت لديه فكرة تساعده على الفوز: «يكفي أن تدرك أنّ هناك وقتاً بالغ القصر بين اللحظة التي يقرر فيها الخصم تسديد الضربة، واللحظة التي تأتي فيها تلك الضربة».

هنا تكمن قوة ياماموتو: كان يستطيع، بعملية ذهنية، الانغماس في عالم متباطئ، في حين أنّه يتابع التفكير والحركة والتفاعل بشكل متسارع. إنّ مجرد اقتناعه بذلك يعطيه فعالية لا تُجارى.

لقد أحبه الدايميو جداً، وأطلق عليه لقب العقرب الأسود، لأنّه يلدغ بسرعة وبشكل نهائي.

عاش ياماموتو إذاً مع سيده الدايميو في قصره وكان يكتفي بطاعته. ويستمتع لأنّه بشكل خاص غير مضطر لاتخاذ أي قرار بنفسه. كانت سعادته في الطاعة. عندما يقول له الدايميو أن يقتل، فهو يقتل دون أن يطرح أيّ سؤال، دون ألم اتخاذ القرار، وبالتالي دون المخاطرة بارتكاب أيّ خطأ.

لقد كان ياماموتو يقتل بسرعة وفعاليّة، وبحركات سلسة ورشيقة. كما كان يستلذّ فعليّاً بالقتل، وبفرح يشرع بتجهيز نفسه بأنسب الأسلحة لكلّ حالة قتالية. فقد كانت متاجر المدينة تقدّم سيوفاً يمكن اختبارها على المحكومين بالإعدام المقيدين بالسلاسل خلف المحال.

كان ياماموتو يقضي أيامه بين مهمتين أساسيتين، التدرب على السيف، بالإضافة إلى الكيودو، فن الرماية، والتمرين أيضاً على القتال بأسلحته الأربعين الأخرى كالسكاكين والمسامير وحتى التمرين على مسحوق كيميائي يتمّ إلقاؤه على وجه الخصم لتهييج عينيه. كما مارس أيضاً الكوبودو، وهي فن قتالي فلاحيّ يقوم على تحويل الأدوات والأشياء اليومية إلى أسلحة.

لم يعرف ياماموتو إلّا عدداً قليلاً من النساء (كانت بشكل رئيسي عمليات اغتصاب يأمره بها الدايميو من أجل إذلال خصومه أو أتباعه العصاة)، ولكن بالنسبة له، كان يعتبر الملذات الجسدية من الطعام والجنس والضحك

والراحة، ملذات دنيئة. وجُلّ اهتمامه وما يجذبه منصبّ فقط على الحرب وقتل خصوم أقوى فأقوى.

لم يخشَ في حياته الخسارة أو الوقوع في الأسر أو التعذيب أو الموت. بل كان يتفاخر بأنّه لا يشعر بالألم ولا بالبرد ولا بالتعب. فلديه القدرة على السباحة في المياه الصقيعية للسيول، ويستطيع البقاء عدة أيام دون طعام أو نوم.

ومع ذلك كان هناك شيء ما يخشاه وهي أشباح ضحاياه. وبغية إبعادها عنه، كان دائماً يقتل خصمه بطريقة محترمة. ولم يتوانَ قط عن شكر ضحيته بعد موتها، على متعة القتال التي منحته إياها، ومن ثمّ يؤدي صلاة سريعة كي تصعد روح خصمه إلى النور عوضاً عن الركود.

وبغض النظر عن الساموراي العجوز الأول الذي اخترق رمحه ظهره حتى وصل إلى صدره، لم يفعل قط أيّ شيء آخر يمكن أن يكون خجلاً منه. وكان من وقت إلى آخر بدافع الحماية والأمان، يقدّم أضحيات كي يرضي أشباح الأعداء المهزومة كالظباء أو حتى السجناء.

كان كلّ شيء في عالم الساموراي مرتّباً ومنظّماً للغاية، ولكنّهم قاموا بتغييرات ملحوظة؛ فمثلاً انتقلوا من مجموعة الرؤوس المعلقة على الحزام إلى مجموعة الأنوف المعلقة على الرقبة. صحيح أنّ رائحتها كريهة ولكنّ حجمها أقل إزعاجاً من الرؤوس.

وحدثت بعد ذلك بعض التجاوزات. فقد قام بعض محاربي الساموراي الفاسدين بقطع أنوف المراهقين والنساء وقاموا بعرضها على أنّها أنوف لمقاتلين قتلوهم بأنفسهم! لذا أصبح الدايميو يطالب بالإضافة إلى الأنف، قطعة الجلد والشفة العليا للميت التي تظهر وجود القليل من الشعر الذي يدلّ أنّها تعود لرجل بالغ.

كم عدد الرؤوس والأنوف التي سبق لياماموتو أن عرضها على أنّها غنائم حرب؟ بالتأكيد ما لا يقلّ عن عدة مئات.

والآن، يتوجب عليه أن يقتل هذا الرجل بالدرع الأحمر القوي صاحب الرسوم المعقدة والخوذة ذات القرون. العقرب الأسود ضد الثور الأحمر.

استأنف رينيه توليدانو رؤيته المباشرة للحظة الحاسمة التي يهجم فيها

الطرف الآخر. كلّ شيء يحدث بسرعة كبيرة. السيوف تصطكّ. تراوغ. تموّه. تصطدم النصال. تحدث مراوغة جديدة. حركة أفقية. ضربة عمودية للنصال. ضربة أفقية. وتلتها حركة جانبية. كانت السيوف تتضارب بحركة شبه دائرية، وتبدو الأقدام كأنّها ترقص. ومع كلّ ضربة يطلق كلّ واحد منهما صراخاً مزلزلاً لإخافة الخصم، كحيوانين يتقاتلان في وقت التزاوج من أجل الحصول على الأنثى.

وبعد عشرين دقيقة من ضربات السيوف والمراوغات المتنوعة، أصبح الرجلان منهكين. يعرفان جيداً أنّ اللحظة الحاسمة قادمة. حان وقت محاولة توجيه الضربة القاضية المميتة. هذه هي اللحظة التي ستكون معرفته بالإيايدو حاسمة.

أخذ المحاربان يراقبان بعضهما بعضاً من خلف القناع المثبت على نحوٍ يخفي نظراتهما. يُظهر قناع الساموراي الأحمر نوعاً من التكشيرة الغاضبة.

أدرك رينيه أنّه لا يشعر إطلاقاً بأيّة مشاعر بغض أو عداوة تجاه هذا الخصم، لا شعور بالكراهية ولا حتى بالخوف، وإنّما فقط برغبة أن يكون الأسرع والأكثر قدرة على مباغتته. رفع سيفه، وفعل الآخر نفس الشيء. قام بحركة عمودية مباشرة، وفي اللحظة الأخيرة، ثنى ركبته متابعاً مسار السيف المائل، ووجه ضربة بغاية الحرفية إلى ركبة الخصم، فجاءت تحديداً في الشقّ الدقيق جداً الذي يفصل درع الفخذ عن درع الساق.

أطلق الرجل صرخة مقتضبة، ومن ثمّ وقع على ركبتيه. فقام ياماموتو وتجاوزه ليقف وراءه، ولحظتها قام بقطع رأس عدوّه في حركة جانبية وسلاسة مثالية.

قال ياماموتو في نفسه: «أهديك أيها الثور الأحمر قبلة من العقرب الأسود».

التقط الرأس، وبحركة محكمة، أزال القناع ومن ثمّ الخوذة ذات القرون كي يكشف رأس قتيله. إنّه رجل عجوز يشبهه.

وفي النهاية، قام بسيفه القصير بقطع أنف العدو مع شفته العليا ووضعه في قلادته قائلاً: «شكراً لك على هذا القتال، عسى أن تصعد روحك إلى النور أيّها الخصم الكريم».

قال رينيه في نفسه إنّ روح الساموراي تبدو الآن جاهزة، لذا يستطيع محاولة التقرّب منه.

- صباح الخير يا ياماموتو.

أصاب هذا الياباني الذهول.

- من يكلّمني داخل رأسي؟ هل هذا شيطان؟ هل هذا شبح؟

انحنى الساموراي من فوره. فتذكّر أستاذ التاريخ أنّ اليابانيين يتبعون مذهب الشنتو والبوذية، وهما مذهبان روحيان يؤمنان بالتقمص.

- كلّا، اطمأن. لست سوى تجسّدك المستقبليّ، وأنا أعيش في المستقبل. سوف تصبح في يوم ما متجسّداً فيّ.

أدار العقرب الأسود وجهه في جميع الاتجاهات.

- ماذا تفعل في جمجمتي أيها «التجسّد المستقبلي» ؟

- أنا أدعى رينيه توليدانو، هل تعرف في أيّة سنة تعيش بحسب التقويم المسيحي؟

- نعم، أعتقد أنّني في العام... 1642م. ولكن لا أرغب في الحديث معك. حتى ولو كنت تعيش بعد عام 1700م. وهذا ما أشكّ فيه أصلاً.

- حتى لو قلت لك إنّني أعيش بعد عام 2000م؟

- أنا في خضمّ المعركة وواجبي الوحيد هو جلب النصر لسيدي دايميو.

شعر فجأة بألم شديد في صدره؛ وإذ برأس رمح يخرج من عظم صدره. استدار ياماموتو دون أن يُفلت سيفه، فرأى فلاحاً شاباً يبدو فرحاً على غرزه الرمح في صدره من الخلف.

- ها قد اكتملت الدائرة، قالها ياماموتو متألماً وتاركاً بعض الدماء تخرج من بين شفتيه.

ابتسم وقال في نفسه:

كلّ شيء على ما يرام، وقد تم إنجاز كلّ شيء.

بدأت روحه تخرج من أعلى جمجمته وصعدت كي تتمركز فوق الجسد الذي كانت تسكنه.

- لقد متّ بسببك أنت. لقد قمتَ بتشتيت ذهني.
- عذراً.

رأى ياماموتو الفلاح وهو يحاول قطع رأسه.

- أيّ أخرق هذا! لا يعرف كيف يقوم بذلك، سوف يستغرق وقتاً طويلاً لقطع العنق بينما لو أنّه قام بخفض نصله إلى الخلف قليلاً، وبدأ بالقطع من تحت عقدة الحنجرة كان سيجد الفراغ بين الفقرات وستكون العملية بذلك سهلة جداً. كنت أفضل أن أُقتل على يد شخص أكثر مهارة وخبرة. ولكن أعتبر نفسي قد تشرفت فعلاً بالموت في ساحة القتال، على أن أشيخ وأموت بسبب المرض.
- كانت حياة جميلة.

فكّرت روح الساموراي بشكل سريع، وبدت عليه مشاعر مختلفة، ومن ثمّ عبّر بعنف:

- كلّا، لم أقم إلّا بالطاعة ولم أتخذ أيّ خيارات شخصية. إنّ الطاعة المطلقة لسيد ما هي أمر سهل. ولكن كان يجب عليّ أن أتخذ القرارات في حياتي، حتى لو كانت خاطئة. هل اتخذت في حياتك قرارات شخصية يا رينيه؟
- في الواقع نعم، خاصة في الآونة الأخيرة.
- في هذه الحالة، أستطيع أن أموت بسلام.
- تستطيع أن تقرّر منذ الآن إن كنت تريد أن تخلق رجلاً أم امرأة. أنصحك بصراحة، بأن تكون امرأة هندية. سوف يروق لك ذلك.
- عمّ تكلّمني؟

سحقاً! ماذا أفعل؟ إنّني أحاول التأثير على قراراته كي يصبح... ما يجب أن يصبح عليه أصلاً.

- أنا أعتذر، ولكنّني أحتاج إلى خدمة «شخصية»، عليّ طلبها منك في الحال. وتستطيع بالطبع أن ترفضها وسأتفهم ذلك.
- ماهي هذه الخدمة أيها الرجل المستقبلي الموقر؟
- أرغب أن تدخل في جسدي كي تهرّبني من السجن مع بعض أصدقائي

المسجونين أيضاً. هناك الكثير من الحراس والأسلحة والأعداء...
- أنت تضعني أمام تحدّ؟
- سيكون ذلك صعباً جداً وأعتقد أنّه لا أحد غيرك من بين جميع تجسداتي السابقة يمكنه النجاح في مثل هذا الاختبار الصعب. فأنت أفضل...

قاتل؟

- ... محارب.

توقف رينيه بعض الوقت ومن ثمّ أكمل:

- هل تقبل أن تدخل في جسدي كي أتحرك وأتصرف بردود أفعالك ولكن بيديّ أنا؟
- كم هو عدد الأعداء؟
- ربما يكونون عدة عشرات. كما أنّهم يملكون أسلحة لإطلاق النار من مسافات بعيدة.
- أحبّ المواجهة عندما تكون صعبة. أستطيع بهذا أن أُظهر مدى بسالتي في القتال.
- إذاً هل تقبل؟
- نعم أقبل.
- رائع، هيّا بنا. إذا قتلت أحدهم، فلا داعي لقطع أنفه، فلن أتجرأ أبداً على حمل قلادة مثل قلادتك.
- أنت لا تحبّ هذا النوع من الزينة؟
- دعنا نقول إنّ قطع الأنوف لنصنع منها قلادة ليس أمراً يحظى بتقدير وشعبية كبيرة في الزمن المستقبلي. علاوة على ذلك، دعني أصارحك القول إنّ كلّ هذه الأنوف وهي في طور التعفّن ستكون رائحتها كريهة جداً... ومن ثمّ أريد أيضاً أن أكون واضحاً معك جداً لأقول إنّني أفضل ألّا تقتل أحداً إن كان هذا بالإمكان.
- لا أقتل؟ ما هذه الفكرة المضحكة! ولِمَ لا؟
- لا أرغب بأن أزيد الثقل على كارما روحي الحالية.

أعاد رينيه - ياماموتو سيناريو الهروب ذاته الذي جرى في مستشفى الأمراض النفسية، على الأقل بدايته؛ فقد انتظر أن يحضر الحارس الطعام له، وحينها انقضّ عليه من الخلف وغرز إصبعيه تحت ذقنه إلى أن أغمي عليه. ومن ثمّ تقدّم في الممر يختبئ حيناً ويضرب حيناً آخر الحراس الذين يظهرون أمامه.

إنّ أسلوب ياماموتو مختلف جداً عن أسلوب هيبوليت. فعوضاً عن الضرب بحافة اليد، فإنّه لا يستخدم سوى إصبعي السبابة والوسطى، إنّه يضرب بهما كمحراب مدبّب بسرعة كبيرة وقوة هائلة مناطق معينة في أجسام ضحاياه، خصوصاً عقد الرقبة. نجح إذاً بكلّ صمت وهدوء، بإبعاد جميع خصومه الذين يفقدون الوعي واحداً تلو الآخر. فقد كانت إصبعاه الممدودتان هما اللدغة الحارقة للعقرب الأسود.

وفي ظلّ غياب أيّة معلومة عن خريطة السجن أو مكان تواجد رفاقه المغامرين، كان مضطراً إلى النظر من خلال فتحة الباب كي يتعرّف على وجوه ساكني كلّ زنزانة.

نجح أخيراً في إيجاد زنزانة نيكولاس حيث قام بخلع الباب، وعرض عليه هذا الأخير مباشرة المساعدة في البحث عن البقية. وكان التالي هو غوتيه الذي قال عندما رأى من يقوم بتحريره:

- هل أنتم مجانين! سوف يقتلوننا!

- افعل ما تشاء، تستطيع البقاء هنا إذا كنت تفضل ذلك.

بعد تردّد قليل تبعهم وراح يردّد: «سوف نموت. سوف نموت».

ذهبوا بعد ذلك إلى جناح النساء ونجحوا في تحرير سيريز وأخيراً أوبال التيَ هتفت عندما رأته:

- رينيه!

- أسرعي، يجب أن نهرب.

علاوة على مهارته العالية في استخدام أصابعه، فإنّ ياماموتو يمتلك

موهبة أخرى وهي قدرته على تحويل أيّ شيء إلى سلاح. فالمكنسة العادية مثلاً يستطيع نزع القشّ منها كي تتحول إلى عصا قتال.

ولحسن الحظ أنّ الساموراي كان قد تعلّم مبادئ فن البوجوتسو، أي القتال بالعصا الخشبية. لذا فإنّ سرعته في استخدام هذا السلاح المرتجل عوّضت عن عدم وجود جزء حاد فيه. أمام كلّ مواجهة كان رينيه يستطيع أن يلاحظ من الداخل كيف أنّ تعويذة «الوقت الكافي له بين اللحظة التي يقرّر فيها العدو الانقضاض وتسديد الضربة»، هي حقيقة واقعية.

كانت العصا تصفّر وتضرب وتدور بين اليدين الماهرتين لياماموتو. حتى إنّ الساموراي راح يحرّك العصا بشكل الرقم ثمانية «8» كي يحافظ على زخم الحركة وسلاستها. بعد كلّ ضربة، كان يطلق تنهيدة صغيرة وجافة وبصوت منخفض كي يفرّغ الضغط عن نفسه. على الرغم من خطورة هذه اللحظات، فإنّ رينيه لم يستطع أن يمنع نفسه من التفكير بطريقة غريبة ومخبولة شيئاً ما.

إنّ ياماموتو يقوم بتحريك العصا بشكل رائع لدرجة أنّه كان بإمكانه أيضاً أن تكون له مسيرة مهنية كـ... ماجوريت[1].

إن كانت هناك لحظات يجب على المرء فيها أن يتوقف عن الفكاهة، فستكون حتماً مثل هذه اللحظات بالذات. خصوصاً أنّ رينيه حين استكشف فكر اليابانيين عرف أنّ ثمن فعّالية هذا الفكر ونجاعته كان الغياب التام لحسّ الفكاهة.

إنّ الضحك بالنسبة لياماموتو هو علامة التفاهة. فالرجل الموقر هو الرجل الذي يسير على طريق المحارب، البوشيدو، ويضحي بنفسه لغاية تتجاوزه بكلّ جدية ومسؤولية. وليس هناك مكان في هذا الطموح للفكاهة. حتى إنّ الابتسام بحدّ ذاته هو إشارة ضعف.

هيّا يا ياماموتو، تابع!

ما تزال العصا توقع عدداً من الضحايا، فتارة يصيب طرفها المكان

1- راقصة متخصصة بالرقص بالعصا. المترجمة

المفصل للمحارب وهو الصدغين، وتارة يصيب أقصى عظم القصّ، وتارة الحلق، وتارة أخرى عقد الرقبة، وأحياناً الكبد والمنطقة التناسلية.

كان الفرنسيون الخمسة يتبعون رينيه - ياماموتو، وهم منبهرون بهذه الكفاءة العالية لأستاذ التاريخ في مواجهة الحراس المسلحين بالهراوات الطويلة والصواعق الكهربائية.

لم يحدث إطلاق نار قط ولم تصدر صرخة واحدة ولم يمت أيّ شخص. ومع ذلك فإنّ الإنذار قد تم إطلاقه من قبل أحد الحراس.

- سوف نموت، قال غوتيه كارلسون الذي لم يستطع أن يخفي قلقه.

نظراً لأنّ أعداد المهاجمين تتصاعد، استفاد رينيه - ياماموتو من دروس هروبه السابق من المستشفى، والتقط ولّاعة أحد الحراس واستخدمها لإضرام النار في أحد أغطية الأسرّة.

انتشر الدخان في الممرات. فأصبح المئات الآن يتراكضون في جميع الاتجاهات.

عمّت صرخات الفرح القادمة من الزنازين مشيرة إلى أنّ المساجين قد فهموا أنّ هناك هجوماً في السجن. وللمشاركة في الفوضى، دخل رينيه - ياماموتو إلى غرفة المراقبة العامة وضغط على الزر الذي كُتب عليه *التحكم بالأبواب*.

كما كان يأمل بالضبط، فقد فُتحت أقفال جميع الزنازين مرّة واحدة. وفوراً، بدأت أعمال الشغب. وتحوّل هروبهم إلى حركة تمرّد عام.

زدنا الطّين بلّة.

سهّل الدخان والضجيج والصراخ وصفارة الإنذار عملية عبورهم في الممرات. سمعوا رشقات رصاص من سلاح آلي.

اللعنة، لقد ساء الوضع.

فقد الحراس السيطرة على الوضع، لذا فضلوا إطلاق النار على أن يقتلهم السجناء. عرف رينيه- ياماموتو أنّ الوقت يداهمهم للوصول إلى مخرج سجن العقرب. لذا راح يبحث عنه طويلاً وأخيراً استطاع إيجاده. كان مئات السجناء يقاتلون حوالي العشرين حارساً الذين يغلبهم الذعر.

فضّل رينيه – ياماموتو البقاء بعيداً ومراقبة ما يجري. كان الرجال الذين يرتدون البيجامات الحمراء يجدون صعوبة في اجتياز خط الدفاع الذي شيّده الرجال المسلحون بالبنادق والمسدسات التي راحت تطلق النيران الآن دون أيّ تردد. وعادت الصرخات لتعلو من جديد، بالإضافة إلى أصوات الانفجارات والدخان الذي عمّ المكان. سقط بعض السجناء ونجح بعضهم الآخر في الاستيلاء على عدد من الأسلحة فتوازنت القوى بين الطرفين.

– سوف نموت، سوف نموت، سوف نموت، أخذ يكرّر غوتيه هذه الجملة كأنّها تعويذة.

– ماذا نفعل؟ سألت سيريز ونفَسها متهدّج.

– فلننتظر ونصبر قليلاً، اقترح رينيه على رفاقه.

ابقَ هادئاً وراقب وفكر جيداً، وعلى الأخص لا تتوتر.

بما أنّهم جميعهم دُهشوا بمدى كفاءة وبراعة أستاذ التاريخ، أطاعوا كلامه.

لديّ الوقت، يجب ألّا أستعجل وأقوم بأيّ فعل عبثيّ في حالة الذعر هذه.

كانت أوبال تمسك بهراوة اقتنصتها وهي تركض. وحملت إيلودي المكنسة لصديقها في حال أراد أن يستخدمها مجدداً. وأحكم نيكولاس قبضتيه مستعداً للضرب في أيّة لحظة. والتصقت سيريز بالحائط محاولة التخفي قدر الإمكان. ووقف وراءها غوتيه مغلقاً عينيه وهو يتمتم دائماً الجملة ذاتها «سوف نموت».

ابقَ هادئاً، راقب وفكر، اكتشف نقاط الضعف في نظام الدفاع.

حينما وصل دخان الممر أخيراً إلى منطقة القتال، أشار رينيه – ياماموتو إلى رفاقه أن يفعلوا مثله. قاموا باستغلال عدم وضوح الرؤية وحالة الجلبة الحاصلة، وسحبوا أجساد ستة حراس ونزعوا ملابسهم وقاموا بارتدائها. أخفت النساء شعورهنّ الطويلة تحت القبعة كي يتشبهوا بالرجال بشكل أفضل. وهكذا أصبح بإمكان الهاربين العبور كمراقبين يحاولون الهرب من الفوضى الحاصلة.

وبعدها قام الستة بالسير ببطء بمحاذاة أحد جدران الممر واستطاعوا

عبور المنطقة التي يحتدم فيها القتال بشكل كثيف. ولكنّهم تفاجأوا بأحد السجناء يحاول توجيه ضربة إلى سيريز معتقداً أنّها واحد من الحراس. ولكنّ رينيه - ياماموتو أسرع واعترضه وقام بتخليصها من هذا الرجل المزعج بغرز إصبعيه في عنقه.

ناولته أوبال بعد ذلك الهراوة التي كانت قد استولت عليها، قائلة في نفسها إنّه سيحسن استعمالها أفضل منها. وفي الواقع، لقد تمّ إبعاد عدّة سجناء آخرين بإسقاطهم أرضاً، وهذا ما زاد من مصداقية رينيه وأصدقائه بنظر الحراس الذين لم يعيروهم انتباهاً.

إنّهم لا يروننا، فالخوف يعمي بصيرتهم.

ومن جهته، ظلّ رينيه - ياماموتو واضعاً نصب عينيه باب الخروج.

لا يزال لدينا بضعة أمتار وبعدها نصبح خارج منطقة الخطر.

كانوا يتابعون زحفهم البطيء مقتربين من عتبة الباب في اللحظة التي وصلت فيها التعزيزات إلى السجن. ولحسن الحظ أنّ هؤلاء الواصلين الجدد كانوا مشغولين جداً لدرجة أنّهم لم يولوا أيّ اهتمام لستة أشخاص يرتدون اللباس العسكري ويتقدمون في الاتجاه المعاكس لمنطقة القتال.

وأخيراً اجتازوا باب المدخل، ووجدوا أنفسهم في الساحة الرئيسية المربعة. كانت صفارات الإنذار تدوي والجنود المسلحون يصلون كي يحاولوا إيقاف التمرد. أصبح عدد رشقات النيران أكبر وأكبر.

ابقَ هادئاً.

وجدوا بالقرب منهم عدّة مركبات. اكتشفوا وجود سيارة إطفاء وبداخلها المفاتيح موضوعة على لوحة القيادة. اندفع الجميع إلى المقاعد وتولّى نيكولاس القيادة وقام من فوره بتشغيلها. نجحوا في عبور بوابة المدخل التي بقيَت مفتوحة على مصراعيها للسماح بمرور التعزيزات التي تصل بتسارع وتواتر.

- سوف نموت جميعنا. كرّر غوتيه.

- أغلق فمك! قالت له إيلودي بصوت منخفض.

تفاجأ غوتيه بالمرأة الشابة وجرأتها في مخاطبته بهذه الطريقة، فانكمش على نفسه في المقعد، في حين أنّ نيكولاس الماهر في القيادة، قام، بحركة ذكاء منه، بتشغيل صفارة الإنذار كي يستطيعوا شقّ طريقهم بين الحشود التي بدأت تتجمع حول سجن العقرب في جادة شمال طورة.

– أخرجنا من هنا! قالت سيريز لزميلها.

نجحوا في الابتعاد بشكل كاف عن سجن العقرب وعلقوا في الازدحام المروري على الجادة، وهذا ما أجبرهم على التقدم ببطء شديد.

– إلى أين نذهب؟ سأل نيكولاس.

– إلى الأمام مباشرة للابتعاد عن السجن. وتستطيع الآن إطفاء صفارة الإنذار.

وجدوا أنفسهم على طريق «النصر» في هذه الساعة التي يكون فيها الطريق مغلقاً بشكل تام بسبب الازدحام الخانق. لم يعد بالتالي باستطاعتهم التقدم. أغلق رينيه عينيه منتهزاً فرصة الهدوء هذه، وراح يركز.

– أعتقد أنّ اللحظة قد حانت لنفترق يا ياماموتو. أريد شكرك على هذا الهروب الماهر الذي بفضلك نجحنا فيه.

– لم يكن أعداؤنا شجعاناً كما يجب، وهذا ما أشعرني بالخيبة. ولكن طالما أنّني استطعت تقديم خدمة إلى «تجسّدي المستقبلي الموقر»، فأنا سعيد بذلك.

– كما أنّك نجحت أيضاً بعدم قتل أيّ شخص، وهذا ما يعتبر في مثل هذه الظروف أداءً عالي الكفاءة.

– كان هذا ما طلبته مني، وأنا لم أقم إلّا بطاعتك يا رينيه – شان.

يعرف رينيه أنّ المقطع «شان» الذي يُضاف بعد الاسم يدلّ على الاحترام. وبهذا يكون قد حصل على التقدير من شخصه السابق.

– في حال تعرّضي لموقف صعب آخر توجّب عليّ الخروج منه، هل أستطيع أن أطلب خدماتك من جديد؟

– سيكون هذا دائماً شرفاً عظيماً لي أن أخدم من سأكونه في يوم ما.

حيّا كلّ منهما روح الآخر ومن ثمّ انفصلا. بقي رينيه متأملاً.

وقريباً سوف تصبح امرأة يا ياماموتو - شان. وبعد حياتك التي كرستها للموت، سوف تكتشف حياة مكرّسة للحب. أيها المحظوظ، إنّ روائح العطور الأخاذة لقصور بناريس ستنسيكَ ساحات القتال المغطاة بالدماء النازفة.

عندما فتح عينيه، رأى وجه إيلودي يحدّق به.

- هل أنت بخير؟ سألت المرأة الشابة.

- عذراً، كنت...

- ليس عليك الاعتذار، فنحن نعلم جميعنا ما قمت به، أجابت إيلودي. لقد شرحت لنا أوبال كلّ شيء.

- استطعنا الحكم من خلال أفعالك يا رينيه، اعترفت سيريز بذلك. في الواقع أنت سوبرمان، فليس هناك أحد غيرك يمتلك القدرة على استحضار متخصّص بمشكلتك من بين مائة وأحد عشر مرشحاً، أليس هذا هو الأمر؟

- أوه... نعم، نستطيع رؤيته على ذلك النحو. ولكنّ العيب الوحيد في الأمر أنّه لا يتمّ بهذه السرعة، أي أنّه يتطلب نظاماً معيناً يجب اتباعه للوصول إلى الغاية المنشودة، علماً أنّني أحاول اختزاله حالياً. عدا عن هذا، أين نحن؟

- أعتقد أنّنا بعيدون بما يكفي كي نستطيع إيجاد وجهة أكثر أماناً.

- هل يعرف أحدكم مكاناً للمبيت في القاهرة؟ سألت سيريز.

لم يجبها أحد.

- لن نستطيع أن نكمل سيرنا طويلاً ونحن بلباس حرس السجن هذا، وفي سيارة الإطفاء، دون جوازات سفر ودون نقود. أشارت أوبال.

نظر رينيه إلى المرأة الشابة ذات الشعر الأحمر والعينين الواسعتين ورغب بشدة أن يكون معها في مكان بعيد هادئ وآمن. ولكن كلّ شيء الآن يسير بسرعة في دماغه، فراح يبحث عن حلّ وقد وجده أخيراً.

- لديّ فكرة عن الوجهة. أعلن رينيه.

114. مذكرات. الجَمال عبر التاريخ.

لكلّ عصر مقاييسه الخاصة للجَمال.

ففي الماضي، كانت الأوراك العريضة تؤمن ولادة أكثر سهولة، والأثداء الكبيرة تعطي إنتاجاً مثالياً للحليب لحديثي الولادة. وكان من أشهر التماثيل الأنثوية تمثال فينوس ليسبوجي الذي يعود إلى عصر الباليولينيك- ما قبل التاريخ، وتتميز المرأة فيه بأردافها الضخمة وصدرها البارز.

كما نجد أيضاً في أغلب التماثيل التي تمجد الجمال الأنثوي القديم صور فينوس كالييبجي (تعني كلمة كالو في اليونانية؛ «جميل»، وبيجي «ردف»). وقد خلّد الرسام الفلمندي بيير بول روبنز في لوحاته عام 1600م، رسوماً لنساء بدينات وعاريات وقد ركّز على إظهار جميع تضاريسهنّ المتنفخة والبارزة.

أمّا اللاتينيون فقد اعتبروا الشعر الأشقر والعيون الزرقاء علامات تدلّ على الغباء، لأنّها كانت صفات البرابرة الشماليين.

وكانت البشرة البيضاء حتى القرن التاسع عشر في الدول الغربية، والمعروفة بالبشرة الحليبية، ترمز للنقاء والثروة؛ فهي تدلّ على أنّ المرأة لم تكن بحاجة إلى العمل في الحقول حيث تصبح البشرة بنية بسبب ضوء الشمس.

أمّا الجمال في الصين حتى القرن العشرين، فكان للمرأة ذات الأقدام الصغيرة.

وفي البيرو، كان الجمال مرتبطاً بالنساء ذوات الأرجل المشعرة، لأنّه يشير إلى أنّهنّ من أصول إسبانية وليس هندية.

ومن بين النساء اللواتي اعتبرهنّ محيطهنّ نموذجاً للجمال، سنذكر الأميرة الإيرانية تاج سلطانة قجار التي عاشت في عام 1900م في طهران. كانت امرأة قصيرة، سيقانها بدينة وملفوفة في جوارب طويلة تصل إلى فخذيها. وغالباً ما كانت ترتدي التوتو (الذي يمكن تشبيهه بغطاء طاولة عريض) الذي يبدو منتفخاً عند مستوى وركها العريض جداً. كان لها شارب

رفيع شديد السواد، بالإضافة إلى حواجب سميكة وعريضة تشبه العصا. وكان جميع رجال عصرها مجانين بها. وقد تلقت مائة وستة وأربعين طلباً للزواج من أرفع رجالات الدولة الفارسية. وانتحر منهم ثلاثة عشر بسبب رفضها لهم. لقد كانت أيضاً شاعرة عظيمة، وامرأة ذات أفكار متقدمة جداً.

-115-

تفاجأ جان شارل دي فيلامبروز برؤية هؤلاء الفرنسيين الستة باللباس العسكري الأزرق. استقبلهم في مكتبه الذي يطلّ مباشرة على جادة الجنرال دي غول.

– لقد أحسنتم صنعاً بتحرير بقية السجناء. تتحدث فقط عن أعمال الشغب في السجن وليس عنكم.

– أنا غوتيه كارلسون، قال الصحفي، لا بدّ أنك شاهدتني على التلفاز من قبل. يجب عليك إنقاذنا فوراً. أنا صديق مقرب لوزير خارجيتك، إن استطعت إخراجنا من هنا فسوف أذكرك أمامه.

– اسمعني يا سيد كارلسون، أنا أعرفك بالطبع، ولكنّني أفضل أن تمتنع عن ذكر اسمي، فأنا أخشى على مركزي الوظيفي إن علموا بأنّني ساعدتكم. لأنّ ما جرى يمكن أن يخلق على وجه الخصوص، مشكلة دبلوماسية بين البلدين. وفي النهاية، أطلب منك يا سيد كارلسون أن تخاطبني مع حفظ الألقاب بيننا. حتى وإن كنت تظهر كثيراً على التلفاز، ولكن لا أعتقد أنّنا نعرف بعضنا بعضاً جيداً.

كانت لهجة الدبلوماسي جافة بما يكفي كي يصمت الصحفي المشهور.

– أنا آسف، قال رينيه بشكل عفويّ.

– سأطلب منكم فقط أن تكونوا متكتمين جداً. وسأعطيكم ملابس تساعدكم على التحرك بسهولة بوصفكم سياحاً، ولكن ليس لديّ الوقت كي أجهّز لكم جوازات السفر، يجب عليكم المغادرة فوراً.

– هناك قارب ينتظرنا في مرفأ مرسى مطرح، أشارت أوبال.

– آه؟ هذا يمكنه أن يحلّ المشكلة. سوف أضع تحت تصرفكم سيارة

تحمل لوحة دبلوماسية. اذهبوا بسرعة قبل أن يضعوا الحواجز ويغلقوا مخارج طرق القاهرة. وفي حال أوقفتكم الشرطة اتصلوا بي فوراً.

أعطاهم هاتفاً محمولاً.

– نحن مدينون لك كثيراً، قال رينيه.

– في الواقع لا أعرف لماذا أفعل هذا معكم، اعترف الشاب الدبلوماسي. إنّ هناك إحساساً في داخلي يقول لي إنّ هذا ما ينبغي عليّ القيام به. ومن ثمّ لديّ إحساس «بالديجا – فو» تجاهك أنت يا سيد توليدانو، كما لو أنّني أعرفك منذ زمن طويل.

أعشق هذا الرجل.

– أحياناً نكون مدفوعين بأحاسيس بسيطة عفوية، أو كما قلت نشعر «بالديجا – فو». أجاب رينيه مراوغاً.

بحث جان شارل دي فيلامبروز في مكتبه ومن ثمّ أخرج مفاتيح.

– إنّها سيار بيجو 509 المركونة في الأسفل. قودوها بحذر، سيكون مؤسفاً أن يوقفوكم بتهمة السرعة الزائدة من قبل شرطي متحمس.

قبض رينيه على المفاتيح وقد عاد الأمل إليه. وجهت له أوبال إيماءة إعجاب على طريقته في إدارة الموقف.

– إنّ ما جرى كان مذهلاً. من كان هذا الذي ساعدك من «الداخل» ؟ سألته أوبال.

– عقرب، أجاب رينيه.

–116–

كان الرجال الأقزام يخيطون رقائق المخطوطات ليجعلوا منها لفائف. إنّهم مائة رجل يعملون بدقة بفضل أصابعهم الصغيرة.

– منذ أن علّمناهم عبادتنا وكلّ شيء يسير على نحو حسن، اعترفت نوت. إنّ الدين بالفعل هو الحل لجميع المشاكل. هل ترى مدى شغفهم بطاعتنا؟

– هذا صحيح، يبدو أنّ خدمتنا تشعرهم بالسعادة.

- وليس ما يخص المخطوطات فقط! إنّهم يفعلون كلّ شيء بطريقة رائعة من إمدادات الطعام وبناء المنازل. إنّهم يعوضون صغر حجمهم بعددهم الكبير.

وقف جيب بالقرب من فتحة في الجدار وأخذ يتفحص الطرقات الممتلئة بالأقزام البشرية الذين يرتدون جلابيب أو تنانير ويقومون بتسيير عربات تجرها الحمير والجمال والفيلة.

- أخبرني ني- هي أنّ عددهم سوف يصل في يوم ما إلى ما فوق الآلاف وفوق الملايين، سوف يصبح عددهم بالمليارات.

- إنّ هذا لا يقلقني. فبوجود الدين سيكون من السهل جداً أن نجعلهم يفعلون ما نريده دون تفكير.

- إنّهم يتكاثرون بسرعة كبيرة! ليس لديهم أيّ شعور أو دافع للتنظيم الذاتي أو للانسجام مع الطبيعة. إنّهم ينجبون الأطفال دون أن يحبوهم ودون أن يقوموا بتربيتهم. قال جيب آسفاً.

- لا بأس بهذا، سوف نربّيهم بمساعدة الدين وهذا سيعود علينا بالمزيد من الخدم المتفانين في العمل.

ناولته المرأة الشابة بعض الفواكه.

- يمكن أن يكون هذا خطيراً على المدى الطويل.

- ماذا تعتقد أنّه يتوجب علينا أن نفعل؟ هل نطلب منهم تخفيض عدد الولادات؟ سألته نوت.

شربت المرأة رشفات صغيرة.

- بالنسبة لي، أعتقد أنّه يجب أن نبقيهم مشغولين.

- ما نوع المهام التي تعتقدين أنّها تنفع أن نوكلها إليهم يا نوت؟

- اكتشاف واستصلاح الأراضي البرية التي تحيط بنا.

- لدينا المساحة الكافية، فلماذا نريد التوسع؟

وصل في هذه الأثناء عدة رجال أقزام كانوا قد انتهوا من خياطة رقائق المخطوطات، فجاؤوا لأخذ مخطوط آخر كي يضيفوه إلى اللفافة التي صنعوها.

- إنّ الرضا عما نمتلكه هي فكرة كنّا قد تكيفنا معها في ها- ميم- باث لأنّها كانت جزيرة، ومساحتها بالتالي محصورة بشكل طبيعي. ولكن نحن نعيش الآن هنا في هذه القارة، لذا فالأمر يتطلب منّا أن نكون طموحين أكثر. يجب تكييف حضارتنا مع هذا المكان الجديد. هل تتخيل ما إذا تمّ نشر قيمنا ومبادئنا على جميع الأراضي التي نراها أثناء أسفارنا عبر الإسقاط النجمي؟

نظر جيب من أعلى الشرفة إلى أعمال السكان الأصليين الأقزام الذين يعتبرون أنفسهم الآن مثل الأطلانطسيين.

- توقف عن الشعور بالخوف من كلّ ما هو جديد. لماذا نتصرف دائماً بحدود ضيقة بينما تُظهر لنا أرواحنا باستمرار مدى ضخامة وتعقيد العالم؟ أضافت نوت.

- لأنه بالنسبة للبشر الأقزام كلّ شيء له ثمن دائماً. كلّ ما هو صواب يتوازن مع ما هو خاطئ. إنّهم غير قادرين على تخيل عالم مستقر ومنسجم. يريدون دوماً الكثير من كلّ شيء إلى أن يجلبوا لأنفسهم المتاعب والمشاكل. إنّهم هكذا بطبيعة الحال.

- ولكن لدينا كما يبدو لي، وسائل جديدة لحلّ مشاكلنا ومشاكلهم أيضاً. كما نملك الآن القوارب والعربات ذات العجلات، بالإضافة إلى الحقول الكبيرة ذات المحاصيل الزراعية، والإنتاج المنظّم أكثر ممّا كان هو الحال في حقولنا الفردية. هل ترى كلّ ما فعلناه خلال عدة عقود.

- وماذا لو تمرّدوا علينا؟ قال جيب هامساً كي لا يسمعه خدمه القريبون منه.

- نحن آلهتهم.

- ربما نكون كذلك بالنسبة لهؤلاء، ولكن ماذا عن أولئك الذين يعيشون بعيداً؟

- إنّ أقزامنا المتحضرين قد سبق أن أخذوا على عاتقهم المبادرة في إنشاء جيش لحمايتنا من الأقزام البشرية الوحشية الأخرى التي تريد

مهاجمتنا. ذكرته نوت بهذا.

- أنا لا أثق «بأقزامنا» البشرية، اعترف جيب بذلك. ولهذا السبب أوكلت إليهم مؤخراً مهمّة إنشاء الشرطة.

- الشرطة؟

- إنّه مفهوم علّمني إياه ني- هي؛ يقوم على مراقبة الأقزام أنفسهم بأنفسهم، وعندما يتصرف أحد بشكل سيئ نقوم بحبسه في مكان يسمى السجن. وإذا لم يرتدع، فإنّه سيتعرض إلى الضرب من قبل الآخرين.

توجّه جيب إلى طاولة خشبية كبيرة يستخدمها كمكتب وراح يكمل كتابة المخطوطات. توقف بعد قليل:

- والآن بعد أن أصبحوا يعرفوننا جيداً، سيكون بإمكانهم إيجاد نقاط ضعفنا. كحال الأطفال مع آبائهم.

- بالضبط، إنّنا نسيطر عليهم بتفوقنا ونفوذنا الطبيعي الذي نمارسه عليهم وبالامتنان الذي يشعرون به تجاهنا. ومن ثمّ لا تقلّل من شأن السلطة الدينية، فهو نير يجعلهم تحت سيطرتنا. إنّ خيالهم يلعب ضدهم. وخيالهم ليس له حدود.

- وأنت بدورك أيضاً، لا تستهيني بقدرات الذكاء يا نوت.

أمام صمت نوت خلُص جيب للقول:

- طالما أنّه ليس هناك سبب للقلق الآن، فلنركز على مشروعنا وهو كتابة اللفافتين اللتين تصفان حضارتنا ووضعهما في الجرار. هذه هي الآن مهمتنا الأكثر أهمية، لأنّه بهذه الطريقة سوف يعرف إنسان المستقبل من كنا.

-117-

تمكّن الفرنسيون الهاربون الستة من الخروج من القاهرة، هذه العاصمة الكبيرة والضخمة كي يسلكوا الطريق الآن بسيارتهم البيجو 509 إلى مرسى مطروح. وبعد عدة ساعات من السفر في الصحراء، وصلوا أخيراً في وقت متأخر من الليل، إلى شمال البلاد كي يتوجّهوا إلى مرفأ المدينة الساحلية الصغيرة.

صعدوا من فورهم إلى *السمكة الطائرة*، ورفعوا المراسي على عجل. لم يكن هناك رياح، لذا استخدموا المحرك الآلي الذي يعمل على البنزين كي يبتعدوا عن مرسى مطروح.

وداعاً مصر.

ما إن أصبحوا بعيدين عن أنظار الساحل، قام رينيه بتشغيل القيادة الأوتوماتيكية للمركب. وأخيراً وجد الفرنسيون الستة أنفسهم يجلسون على الطاولة في قمرة القيادة ويحدقون بعضهم ببعض بصمت.

بما أنّهم لم يتناولوا طعاماً جيداً منذ وقت طويل، اقترح نيكولاس أن يحضّر عشاء سريعاً من المؤونة التي كانت قد بقيت منذ الرحلة السابقة. فأخذ يُعدّ سلطة من البقول والتوابل. وقد تبيّن أنّ نيكولاس طباخ ماهر، وقد حاول إيجاد خليط رائع.

استمتع الجميع بكل لقمة من هذا الطبق البسيط، خصوصاً بعد تجربة الطعام المقتر الذي لا طعم له في سجن العقرب.

– ما الذي دهانا كي نأتي إلى هنا؟ تنهد غوتيه. يا ليتني كسرت قدمي ساعة اتصلت بي يا إيلودي ولم آتِ إلى هنا.

– لن يفيدنا شيء أن يقوم كلّ منّا بإلقاء اللوم على الآخر. أجابت إيلودي.

– ومع ذلك، لقد وضعتنا أنتِ وصديقك هذا في ورطة كبيرة و... أخرجتمونا منها، كان يجب على النجم الصحفي الاعتراف بذلك. أعتقد أنّ مسيرتي المهنية قد قُضي عليها، ولكن حسناً، أظنّ أنّ هذا ليس هو الوقت المناسب للتفكير في نفسي فقط، وإلّا سوف تتهمونني بالأنانية.

حاول ضبط نفسه ولكنّه ألقى بكأس النبيذ وأكمل:

– تباً! ما الذي أصابني كي آتي إلى هنا!

– أنا أشعر بالندم لعدم قدرتي على تصوير عملية هروبنا، قالت سيريز، لقد كانت على أية حال مشاهد مدهشة حقاً. من جهتي، أستطيع أن أبوح بذلك الآن، لقد أحببت هذه اللحظات من المغامرة الخالصة.

وأثناء قولها ذلك، لم تستطع سيريز منع نفسها من الضحك. قهقه

نيكولاس بدوره أيضاً، وأصيب الآخرون بالعدوى، فراحت أوبال تضحك أيضاً وتبعها رينيه. وتخلّى غوتيه أخيراً عن التذمر وضحك بدوره. كما لو أنّ كل التوتر والضغوط التي عاشوها قد تحررت بلحظة. استأنف رينيه الحديث قائلاً:

– بقيت لدينا في جميع الأحوال هذه المسألة المعلقة؛ ماذا سنفعل الآن؟

– سنعود إلى فرنسا بالطبع، قال غوتيه.

– إلى فرنسا؟ لقد اعترفت بنفسك أنّ مسيرتك المهنية قد تحطمت. ماذا تريد أن تفعل؟ هل تريد أن تكون «النجم التلفزيوني السابق العاطل عن العمل» ؟

– وماذا يقترح إذاً «أستاذ التاريخ الصغير المتخصص في الكهوف الفارغة» ؟

– أقترح بالتحديد أن نتابع الأمر الذي جمعنا هنا، أي مهمتنا في إعادة تصحيح الحقيقة حول جذورنا.

تدخلت إيلودي.

– عليّ أن أعترف أنّك أقنعتني في النهاية يا رينيه، لذا فأنا سأتبعك.

– هل أنت مستعدة للتخلي عن عملك في باريس؟

– ليس لديّ هناك في جميع الأحوال عائلة أو حبيب أو أطفال، وقد بدأت أشعر بالملل حقاً في عملي. كما قلت أنت في السابق، إنّ محاولة تعليم أناس ليس لديهم رغبة في التعلّم هو عمل بغيض للغاية. ولكن مع هذه المغامرة، تولّد لديّ انطباع أنّني أعيش حقاً تجربة حقيقية، حتى ولو كانت محفوفة بالمخاطر. وإن كانت قصتك عن أطلانطس صحيحة، فأنا أجد أن تصحيح الحقيقة التاريخية هو قضية بغاية النبل. وفي وسط مجتمعنا الصغير هذا، إن كان هذا مفيداً، فأنا أرغب بالعمل معكم كممرضة، فقد سبق أن قمت بدورة تدريبية في الإسعافات الأولية.

– وأنت يا أوبال؟

أطلقت المرأة الشابة ذات الشعر الأحمر تنهيدة صغيرة.

- لقد رأيت بأمّ عينيّ الهيكلين العظميين العملاقين والجرتين مع علامة الدلفين. لذا لا أحتاج لأيّ دليل يقنعني. أنا سوف أتابع المغامرة. يمكن من جهتي المساعدة في قيادة الدفة، فأنا قائدة ماهرة، ويمكن لرينيه أن يؤكد لكم ذلك. عدا عن أنّني أستطيع مساعدتكم على الشعور بالراحة والاسترخاء بفضل معرفتي بالعلاج النفسي.
- سوف أجيبكم قبل أن تطرحوا عليّ السؤال ذاته، تدخل نيكولاس. وأنا أيضاً على استعداد لعدم العودة إلى فرنسا. لقد عملت خلال الخدمة العسكرية كطباخ على سفينة طوربيد قبل أن أصبح مهندس صوت، لذا أستطيع أن أحضر الطعام للجميع. كما أعرف الصيد وطهي السمك.
- وأنا أيضاً، قالت سيريز، قمت بدورات تعليمية في مجال المعلوماتية والإلكترونيات، وأستطيع بالتالي إصلاح جميع الآلات المعطلة. فكلّ ما يتعلق بالميكانيك أو الكهرباء هو ملعبي.
- هذا رائع، قال رينيه. وأنا أيضاً أستطيع أن أقود القارب بالتناوب مع أوبال إن كان هذا يفيد المجموعة، كما يمكنني أيضاً الاهتمام بصيانة المركب الشراعي.

استدار الجميع نحو غوتيه كارلسون.

- أعرف ما تصبون إليه! هل أصبحتم مجانين! لا تريدون العودة إلى فرنسا، ولكن إلى أين سنذهب؟
- لدينا بضعة أيام نقضيها على المركب لنفكر في هذا بروية، قال رينيه متهرباً.
- دعونا نفكر جميعنا بإيجاد حلّ، استأنفت أوبال. الفكرة هي بإيجاد وسيلة لنشر الحقيقة على الرغم من فقدان جميع الأدلة. فلا بدّ من وجود وسيلة ما.
- في جميع الأحوال، لا أعرف ما هي الوسيلة، ولكنني متعبة جداً وأريد النوم. هل تستطيع يا رينيه أن تدلّني على مقصورتي؟ طلبت سيريز.
- انتظري، قالت إيلودي. لقد عرضنا جميعنا ما نستطيع فعله لمصلحة المجموعة على هذا القارب. يجب أن تجد لنفسك مكاناً بيننا يا غوتيه.

- أنا... حسناً... غريب ما تطلبونه مني الآن. فأنا لا أعرف قيادة الدفة، ولا أعرف بأمور الاستشفاء، ولا الطبخ، ولا إصلاح الآلات، إن كان هذا هو سؤالك. لقد قمت بدورات في مجال العلوم النظرية وفي الصحافة التلفزيونية فقط لا غير.

- حسناً، في هذه الحالة سوف تقوم بأعمال الغسيل والتنظيف. فنحن بحاجة دائماً لأناس ينظفون سطح القارب، اتفقنا؟

بما أنّه لا يوجد سوى ثلاث مقصورات في المركب، لذا استقرّ كلّ اثنين في مقصورة. رينيه وأوبال، غوتيه وإيلودي، سيريز ونيكولاس.

ما إن تمدّدت المنومة المغناطيسية على السرير حتى غرقت في النوم من شدة التعب. ولكنّ رينيه من جهته، كان لا يزال ممتلئاً بالإثارة لدرجة أنّه لا يستطيع النوم. لذا، وكي لا يوقظها، صعد إلى مقدمة ظهر السفينة وتمدّد على ظهره.

إنّه وحده. ولا شيء فوقه سوى سقف السماء المرصع بالنجوم، والهواء الساخن. لا وجود لأيّة نسمة هواء، ولا لضجيج الأمواج، فقط صوت الطنين المنتظم للمحرك الذي يبعدهم عن مصر.

لذا باشر بالقيام بما يتقنه حقّ الإتقان؛ العودة إلى ذكرياته السابقة. يرغب هذه المرة بتجربة شيء أكثر جرأة من أيّ شيء عرفه حتى الآن.

أنا متأكد أنّه يمكن تحقيق ذلك. سيكون هذا بالفعل... أمراً خارقاً إن نجحت به.

ها هو السلّم. نزل بحذر الدرجات العشرة. فتح بتأنٍ باب اللاوعي. وجد الممر ذي المائة والأحد عشر باباً.

والآن، أريد أن أعرف أخيراً إن كان هذا ممكناً. هل بالإمكان فتح جميع أبواب حيواتي السابقة في الوقت عينه كي ألتقي بجميع تجسداتي السابقة دَفعة واحدة.

مستعيناً بقوة تفكيره وإرادته، قام رينيه بتحويل الجدران والممر الطولي إلى ساحة دائرية، بحيث تكون الأبواب المائة والأحد عشر مواجهة بعضها لبعض.

-118-

الطقس حارّ، وجيب لا يستطيع النوم.

راح يتأمل ميم – فيس، وقال لنفسه إنّ هناك شيئاً ما في هذه المدينة الغريبة لا يعجبه. إنّ طاقة الحياة، الزوار، تسير متقطعة بدل أن تتدفق بشكل متناغم ومستمر بين سكان مدينته، سواء الأقزام أو العمالقة.

أخذ يتجول في المدينة التي تصطف منازلها الخشبية بعضها بمحاذاة بعض إلى أن تصل إلى الأحياء التي يسكنها الأقزام البشر.

لاحظ عند وصوله إلى منازل الأقزام أنّهم في صدد التشاور فيما بينهم على بصيص ضوء المشعل. فتساءل في نفسه عن الموضوع الذي يتشاورون حوله في هذا الوقت المتأخر من الليل.

ومن ثمّ قرر العودة إلى منزله، رافضاً تخيّل وجود الأخطار هنا حيث لا وجود لها، ونام بالقرب من نوت وانتظر أن يأتيه النوم.

-119-

وقف رينيه وسط ساحة لا وعيه. وبدأ بفتح الباب رقم مئة وأحد عشر، هذا الذي خلفه فيرون.

كان الراهب الكمبودي لا يزال مسجوناً في زنزانته، وهو مغميّ عليه. دعاه أستاذ التاريخ للقدوم معه والوقوف في وسط الدائرة. قبل فيرون مندهشاً وانتظر مجريات بقية الأحداث.

فتح بعدها رينيه الأبواب المائة والعشرة المتبقية بحسب ترتيبها الزمني التنازلي واحداً تلو الآخر. بدا الجميع متفاجئاً باستثناء ليونتين وشانتي وزينو وياماموتو. أمّا الآخرون فقد احتاجوا لبعض التوضيح عن هذه الحالة الجديدة.

لحسن الحظ، أنّ شانتي لعبت بمهارة دور المضيفة، مستفيدة من ثقافتها في الديانة البوذية كي تؤكد أنّ كل هذا «طبيعي»، حتى وإن بدا غريباً لأولئك الذين ليس لهم دراية مسبقة بالتقمص.

استخدم رينيه بالنسبة للأشخاص الأكثر تشككاً، الحجة التي تسري دائماً في كلّ مكان: «أنت في حلم».

وأخيراً، كان جيب آخر من ظهر في الممر. حيّا الجمهور وأخذ مكانه في الحشد الذي تمّ تشكيله بصورة عفوية.

- مساء الخير جميعاً، بدأ رينيه. أهلاً وسهلاً بكم في هذه الاجتماع العام الأول لجميع تجسدات روحي. اجلسوا متربعين كي تستطيعوا جميعكم رؤيتي وسماعي، وكي نستطيع التواصل بسهولة أكبر.

شعر بالطاقات الوفيرة تحيط به. ومن أجل أن يتمكن من احتواء وإدارة الموقف، وضع لنفسه القاعدة رقم واحد وهي: الابتسام.

- شكراً على ثقتكم بي في هذه اللحظة بالذات، وفي هذا المكان المُتخيّل. لا أعرف إن كنتم قد فهمتم ما يجري بشكل جيد، ولكن نحن هنا داخل اللاوعي المشترك لكلّ واحد منا. وكلّ هؤلاء الناس الذين خرجوا من وراء الأبواب التي تشاهدونها هم في الواقع التجسدات المتابعة لروح واحدة. أي روحي أنا. أو روحكم أنتم، أو بالأحرى ينبغي أن أقول «روحنا».

هذه المرة بدأ الجميع ينصتون إليه.

- أول روح ظهرت في تاريخنا، هي تلك التي لا تزال تعيش خلف الباب رقم واحد، وهي روح جيب. هل تستطيع الوقوف لو سمحت يا جيب كي نستطيع رؤيتك جيداً؟

وقف الأطلانطسي وكان بإمكان رينيه أن يلاحظ أنّ له نفس الحجم والطول كما الآخرين، لأنّه حضر بروحه وليس بجسده.

لو أنّه ظهر كعملاق، كان سيشعر بالضيق من ذلك.

- تشرفت بلقائكم يا «تجسّداتي المستقبلية»، فأنتم تشكلون الصلة بيني وبين آخر تجسّد بيننا ألا وهو رينيه.

- حسناً، طالما أنّكم جميعكم تمثلون روحاً واحدة تطورت عبر الزمان والمكان، أعتقد أنّه سيكون مثيراً أن يقوم كلّ واحد منا بدءاً من جيب، بتقديم نفسه ذاكراً اسمه وتاريخ ومكان ولادته.

وهكذا وقفوا جميعهم واحداً تلو الآخر، حيوا الجمع ومن ثمّ قدموا أنفسهم. حدّق الجميع بعضهم ببعض بفضول متبادل كان يتزايد عند ذكر الأسماء والتواريخ.

تباً، من كان يتخيّل أنني سأحضر مثل هذا الحدث الاستعراضي. من يصدّق أنّ هذه الإمكانية لطالما وجدت في أعماقي. كلّ هذه الأعداد من الكارما كانت هنا من قبل، ولم يخطر في بالي قط أن أستدعيها. إنّها بالفعل لحظة مفاجئة ومدهشة.

استطاع رينيه أن يميز من بين تجسداته السابقة بعض الأفراد الذين خمّن تلقائياً هويتهم مثل: جريوت[1] سنغالي، وامرأة شابة كورية، وماندارين[2] صيني، ورجل قزم من القبائل الأفريقية الإستوائية، وعجوز شامانية سيبيرية، ورجل من قبيلة سو من سكان أمريكا الأصليين، وصياد من غابات الأمازون، وفارس منغولي، ورجل من قبيلة بابواويون[3]، ورجل آخر من الهنود الأمريكان، وراقصة باليه، ورجل من سكان أستراليا الأصليين، ورجل بدوي، وجندي روماني، وتاجر يوناني، وبحار فايكنغ، وصياد من الإسكيمو، وامرأة من المايا، وصوفي تركي، وكاهن أرمني، وجندي كردي، ويهودي من حركة حاسيديم الروحية البولونية، وملك ألماني من القرون الوسطى، ورجل فنلندي مقطوع القدمين، بالإضافة إلى متسولين اثنين لم يستطع معرفة بلدهما أو عصرهما بسبب ملابسهما، وحوالي عشرين شخصاً آخرين كان يصعب عليه التكهن بهويتهم.

ظهر عليهم جميعهم في الوقت ذاته الدهشة والذهول برؤية بعضهم لبعض.

– كلّ واحد منّا مكوّن من جميع الحاضرين هنا، أعلن رينيه.

1- الجريوت هو شخصية اجتماعية مهمته الحفاظ على المعارف ونقلها إلى الأجيال القادمة عن طريق سردها بواسطة آلة موسيقية تسمى «كورا» أو القيثارة الأفريقية. المترجمة

2- رجل مثقف يحمل ألقاباً عالية. المترجمة

3- السكان الأصليون لغينيا الجديدة. المترجمة

كي يوضح الموقف بشكل أفضل لمستمعيه، أظهر لهم مرآة مدورة ضخمة وقام بضربها في منتصفها. فتصدّعت المرآة إلى عدة قطع ولكنّها بقيت رغم ذلك مثبتة على الدعامة، بحيث صار كلّ جزء منها يرسل انعكاساً مختلفاً بعض الشيء للصورة التي تواجهه.

- برأيي أنّ «روحنا» اختارت عيش كلّ هذه الأحداث في أماكن ومواقف مختلفة لسبب واحد وهو خوض تجربة مشاعر جديدة.

وأثناء حديثه، كان أستاذ التاريخ واقفاً في منتصف الدائرة يدور حول نفسه كي يستطيع الجميع رؤيته.

- لقد اخترتم جميعكم الحياة التي ستعيشونها قبل أن تولدوا. واخترتم جميعكم أيضاً مواهبكم، كما اخترتم آباءكم.

دار الصخب بين الحاضرين.

يبدو أنهم جميعاً دون استثناء يتفاهمون فيما بينهم بشكل جيد، بمن فيهم القزم الأفريقي وصياد الإسكيمو، على الرغم من كونهم من أماكن وأزمنة مختلفة. ولحسن الحظ أنّنا نمتلك لغة الروح الكونية التي تمكننا من التواصل.

- لقد عرفنا حيوات سهلة وأخرى أكثر صعوبة لأنّ روحنا رغبت على الأرجح بتجربة كلّ شيء كي تتعلم أكثر. إنّ هذا يشبه المعدن الذي يتم تعريضه بالتناوب إلى الحرارة والبرودة من أجل تنقيته.
- أنا شخصياً، أعتبر أنّ حياتي بدأت بشكل سيئ، قال الرجل الفنلندي ذو الأرجل المقطوعة. كيف يمكن للمرء أن يكون ناجحاً دون أرجل؟
- وأنا أيضاً! أجاب شخص آخر ليس لديه قدمان ولا يدان.
- وأنا ولدت منبوذاً!
- وأنا كانت أمي مدمنة كحول.
- وأنا باعني والداي.
- وأنا والدي ألقى بي فوق كومة من القمامة بعد ولادتي! فقد كان يرغب بصبيّ ولم يكن يريد أن يدفع مهر زواجي.
- وأنا أصبت بالسرطان بعمر سبع سنوات!

أومأ رينيه للجمع بإشارة طالباً فيها الهدوء كي يتجنب أن يتحول مجلسه هذا إلى مكتب شكاوى. انتظر أن يعمّ الصمت من جديد كي يكون متأكداً أنّ الجميع يسمعه ويفهمه ليوضح رأيه.

– أنا لم أتوصل إلى هذه النتيجة إلا عند نهاية كلّ حياة من هذه الحيوات، فقد كان على كلّ واحد منكم إجراء نوع من التقييم الذاتي لحياته. وفي نهاية هذا التقييم التحليلي، اختارت كلّ روح الصفات والميزات التي ترغب بامتلاكها في حياتها التالية. فمثلاً بعد حياة الملك، ربما أراد أحدكم أن يستكشف ماذا يعني أن يكون المرء فقيراً في جسد متسول. وبعد حياة المرأة، جاءت الحياة في جسد رجل. وبعد الحياة في الطبيعة، جاءت الحياة في المدن الكبرى. وبعد حياة العبودية، جاءت حياة الأسياد. وبعد حياة الجلاد، جاءت حياة الضحية. وبعد حياة الراحة، جاءت حياة المتاعب.

– وكيف عرفت ذلك؟ سأل الملك الألماني بشيء من التشكيك.

– أصغِ إليّ وسوف أقول لك كيف توصلت إلى هذه الخلاصة. أعتقد أنّنا اختبرنا أشكالاً مختلفة من التناسخ للتعرف على الحيوات البالغة الاختلاف. هناك لعبة في عصري تسمى «ماستر مايند». يتوجب علينا في هذه اللعبة تخمين ترتيب الألوان الصحيحة للبيادق (بمطابقتها مع رمز سري يتكون من سلسلة من الألوان المتتالية)، حيث يجب تجريب مختلف الاحتمالات، وابتداءً من تلك التي نختارها، نبدأ بتحليل ما صحّ منها وما لم يصحّ، ونحاول بعدها اختيار ترتيب آخر للبيادق إلى أن نصل إلى الحلّ الصحيح.

رفع ياماموتو يده.

– إنّه محق، لقد أمضيت حياتي في طاعة الدايميو. ولم أتخذ في حياتي كلّها أيّ قرار شخصي. وقد تمنيت في النهاية أن أحظى بحياة معاكسة بحيث أكون قادراً على اتخاذ قرارات شخصية وأن أتحمل مسؤوليتها.

أشار إلى شانتي.

– وقد اكتشفت للتو أنني أصبحت هذه المرأة.

- في الواقع، أنا التي جئت بعد ياماموتو، قالت الهندية. أنا الكارما التي خلف الباب رقم اثنين وسبعين. لقد عشت حياة زاخرة على جميع الأصعدة، ولكن كان ينقصني الضحك. لذا تمنيت أن أعيش حياة أستطيع فيها المزاح دائماً. وسوف أصبح...

قام رجل يضع شعراً مستعاراً ويرتدي ملابس على نمط ثياب الملك لويس الخامس عشر، برفع قبعته المثلثية وانحنى بطريقة راقية أمام الباب رقم ثلاثة وسبعين.

- الموسيقي جيوفاني الذي يعيش في البندقية بخدمتكم أيّها السادة. لقد قمت بالتجوال طوال حياتي، لم أقتل أحداً، ولم أعمل لمصلحة أحد على الإطلاق. لقد ضحكت كثيراً وأعرف كيف أغوي النساء بفضل ذكائي. ومن جهة أخرى، يبدو لي الآن وأنا في نهاية حياتي، أنّ النساء أكثر دقة وحساسية من الرجال، لذا أرغب في أن أولد من جديد كامرأة في بلد مشمس.

- وسوف تصبح أنا، قالت شابة ترتدي زياً مغربياً. أدعى فاطمة. أعيش حياة هانئة، وأرتدي ملابس جميلة، وأعيش في غرفة نوم فاخرة، ولكنّني مسجونة في قفص ذهبي بعيداً عن الطبيعة. لذا يبدو لي منطقياً أنه بعد موتي، سأرغب بالعيش في غابة ضمن قبيلة بدوية دائمة التنقل. وأريد أن تكون لي عائلة متماسكة. لأنه في قصر الحريم الذي أعيش فيه ليس لديّ أطفال ولا أرى تقريباً على الإطلاق الرجل الذي أتبع له.

أشار القزم الأفريقي أنه ولد على إثر هذه الأمنية.

- إذاً هذا أنا نغوتسو، أعيش حياتي في الطبيعة، ولكنّها تعتمد على الصيد والالتقاط. سئمت من التنقل سيراً على الأقدام. رأيت منذ فترة قريبة رجلاً يمتطي حصاناً، وهذا ما أعطاني إحساساً بالقوة والقدرة. أحلم الآن بعبور السهول وأنا أمتطي الخيل.

- هذا أنا، قال فارس منغولي، إنّ أكثر ما ينقصني هو معرفة الكتابة والقراءة. أنا آسف لعدم مقدرتي على فهم أيّ كلمة كانت. لذا لقد سبق أن صغت أمنيتي، ففي حياتي القادمة أرغب أن أكون...

- ... أنا، أجاب من فوره كاهن يرتدي ملابس كنسية. أنا من يعرف القراءة والكتابة، ولكن لا أعرف الملذات الجسدية. لذا في حياتي التالية أريد أن أكون...

- ... أنا، قالت امرأة ترتدي زي المومس.

شرح كلّ واحد بدوره كيف أصبح في حياته التالية ما رغب أن يكونه في حياته السابقة. قاطعهم رينيه قائلاً:

- أعتقد أنّ الجميع فهم الآن ما استنتجته بنفسي. نحن جميعنا خُلقنا تبعاً لرغبة سابقة وجدت قبل أن نولد، تنصّ على أن نكون شخصاً محدداً في مكان محدد. وبعد ذلك، وعلى الرغم من أنّنا احتفظنا بإرادتنا الحرة، ولكن كنا محكومين باتباع المسار الذي رغب فيه سلفنا. وأعتقد بالإضافة إلى ذلك، أنّ سلفي فيرون ربما كان قد اختار لي أن أولد في كنف عائلة تسميني رينيه[1]، وذلك كي أهتمّ بمعرفة كيفية «الولادة من جديد».

استمتع الجميع بفكرة أن يكون الأمر بهذه البساطة. أكد فيرون معلناً:

- تفحّصوا أسماءكم جيداً فربّما تكون مفتاحاً لفهم مهمات أرواحكم.

تهامس البعض. واندهش البعض الآخر عندما اكتشفوا أنّ حياتهم بأكملها كانت مختزلة بالفعل بأسمائهم.

- آه نعم... اسمي ميلودي، وأنا مغنية، أشارت امرأة تبدو من ملابسها أنها كانت تعيش في الزمن الإمبراطوري، وقد عاشت قبل هيبوليت مباشرة.

- اسمي بيير[2]، وأنا صائغ مجوهرات.

- اسمي مارغريت، وقد عملت في زراعة الزهور.

- اسمي إيديت[3]، وقد عملت في مجال النشر.

1- إنّ اسم «رينيه» (René)، يتشابه لفظياً مع الفعل «يولد من جديد» (renaît) عند تصريفه مع ضمير المفرد الغائب. المترجمة

2- يعني حجر. المترجمة

3- إنّ اسم العلم إيديت (Edith)، وكلمة: نشر/ توزيع كتب (édition)، تتشابهان لفظاً. المترجمة

- اسمي رومان[1]، وأنا روائي.

وذُكرت أسماء أخرى، وفي كل مرة كان يتفاجأ صاحب الاسم من عدم ملاحظته هذه الكلمة التي حدّدت مصيره منذ ولادته.

- وأنا اسمي آن... ولا أعرف ما يمكن أن يعنيه ذلك.

أظهرت الشابة هيئة محبطة.

- ليس بالضرورة أن يسير الأمر دائماً بهذا الشكل المنهجي، ولكن يمكن أحياناً أن يكون إشارة، قال رينيه بشيء من المرونة كي يخفف عنها. لقد تلقينا جميعنا قبل ولادتنا من قِبل سلفنا المباشر، نوعاً من الرغبة بخصوص المواهب والقدرات التي سنمتلكها وحتى الأشخاص الذين سنلتقي بهم في تجسدنا التالي. إنّ هناك عائلات من الأصدقاء أو الأحباب الذين يلتقون بعضهم ببعض حياةً بعد حياة كي يساعدوا بعضهم بعضاً. وهذا ما يمكن أن نسميه «بعائلة الأرواح». والجميع في كنف عائلة الأرواح هذه، يتساعد لإظهار واستخدام مواهبه، ويساند بعضه بعضاً. ففي نهاية حياتكم، تذكروا ذلك جيداً، لن يُطرح عليكم سوى هذا السؤال: «ما الذي فعلته بمواهبك؟»

رفعت شانتي يدها.

- ما لا أفهمه هو أنّ جيب يبدو أنّه يمتلك في الأساس جميع المواهب، وعلاوة على ذلك يبدو حكيماً وسعيداً. لماذا كان عليه إذاً أن يمرّ بحيوات أقل موهبة وأقل حكمة وأقل راحة بعد حياته؟

- إنّه سؤال جيد. هل يمكنك أن تقدم لنا تفسيراً يا جيب؟

قام جيب الذي كان قد بقي صامتاً حتى الآن، واستدار نحو الجمع وقال:

- بالطبع، كان عالمنا يسوده التناغم وحياتنا هانئة جداً وممتعة للغاية. وعشنا في جزيرة ها- ميم- باث في وفاق مع الطبيعة، وعلى تواصل مع روح الحياة، وكانت بيننا علاقات مريحة جداً، ولكن...

راح يبحث عن أفضل طريقة للتعبير عن فكرته.

1- «رومان» (roman) تعني رواية. المترجمة

- ... ولكنّ انغماسنا في السعادة لم يجعلنا نتطور. كنّا نائمين ولم يسبق أن شعرنا بالخوف أو بالخطر أو بالقلق. كل ما كنا نتتجه كنشاط روحي، مهما كان بارعاً، يتبخر مع الوقت. ولم نفكر (إلى أن التقيت برينيه) في ترك وثائق مكتوبة تدلّ على وجودنا. كنا حكماء بلا جدوى. لأنّه لم يكن لدينا أي مؤرخ قادر على ترك أثر عن ذاكرتنا في الكتب.

أشار إلى رينيه.

- في الواقع، أنا أيضاً فاجأني أن أكون بعد اثني عشر ألف عام أستاذ تاريخ بسيطاً يعيش حياة متوترة وقصيرة.

لم يستطع جيوفاني قمع ضحكته.

- لماذا تضحك؟

فسّر موسيقي البندقية:

- لأنّ هناك نكتة عندنا تقول: «أن يكون لديك امرأة قصيرة عصبية المزاج أفضل من امرأة سمينة باردة». إنّها نكتة داعرة بعض الشيء، ولكن لها إسقاط في سياق قصتك. هيّا، أكمل يا جيب.

- وقد انتهى الأمر بي بفهم أنّ رينيه توليدانو المولود في فرنسا في هذا العصر وبهذا الفكر، وهذا الجسد، هو تتويج لأفضل تطور يمكن أن تصل إليه روحي. والدليل القاطع، إن كان لا يزال من الضروري الإشارة إلى ذلك، هو أنّها خطرت له فكرة التواصل معي.

- التواصل «معنا» جميعنا. صحّحت شانتي.

- نعم، إنّ هذه اللحظة هي تتويج لكلّ ما قام به كلّ واحد منا في عصره، وهي التي تمنحنا إمكانية أن نكون معروفين وغير منسيين أبداً، حدّد فيرون.

استوعب الجميع المعلومة وعرفوا قيمة ما تنطوي عليه.

أكّد ياماموتو:

- في النهاية إنّ حياة رينيه هي الأكثر نجاحاً. لأنّه وحده من يملك ما يكفي من المعلومات كي يطابق بين جميع عناصر الماضي.

- هذا صحيح، قال زينو، لم أكن أعرف أصلاً بوجود شعوب مثل الهنود

الحمر أو الصينيين. لقد اكتشفت وجودهم الآن فقط!

تابع جيب:

- لقد قام رينيه، بدافع الفضول، بفهرسة الأحداث التاريخية في كل منطقة. وعرف كيف يهتم بشيء آخر غير حياة القواد العسكريين وانتصاراتهم.

كان يعتبر الملك الألماني أنّ معرفة الحروب هي أفضل وسيلة لمعرفة التاريخ. كان يرغب بالتدخل في الحديث، ولكنه تراجع عن ذلك.

- وأنا أيضاً، قالت شانتي، أعترف بأنني كنت أجهل وجود مناطق شاسعة لهذه الدرجة ومكتظة بالسكان. لقد تحدثت لتوّي مع رجل من سكان أستراليا الأصليين، لم أكن أعلم أساساً بوجود قارة تدعى أستراليا.

- كنت أعرف أنّ أستراليا والصين وأمريكا موجودة، قالت ليونتين، ولكن لم أكن أعرف ماذا يجرى فيها. فكان من الممكن أن تحدث حرب في الشرق دون أن يعلم بها أحد في فرنسا.

- أؤكد أنّه في اليابان، في العصر الذي عشت فيه، لم نكن نعلم أشياء مهمة عمّا يجري في الغرب، قال ياماموتو ساخراً. بالنسبة لنا، لم يكونوا سوى برابرة.

أجاب جيب:

- هناك الكثير منكم ممن لا يعلمون وجود القطب الجنوبي أو الشمالي. رينيه هو الوحيد بيننا الذي قرأ كتباً عن جميع الثقافات في القارات الخمس، وهو الوحيد الذي ذاق نكهة جميع أطباق العالم، والذي استمع إلى موسيقى جميع البلدان، والذي تعرّف على الفلسفات الشرقية كما الفلسفة اليونانية، والوحيد الذي سافر وتجول في القارات الخمس.

- هذا صحيح، اعترف الشخص المعنيّ، لم أكن أدري إلى أية درجة كنت محظوظاً. لقد ركبت القطار والسيارة والطائرة، واستفدت من الكتب والحواسيب، وكان بمتناولي الكثير من الأدوات التي يجهلها الكثيرون منكم.

– ما هي الطائرة على وجه التحديد؟ سأل زينو.
– وما هو الحاسوب؟ سأل الملك الألماني.
– رينيه هو الإنسان الغني بالمعارف والخبرات الذي يرغب كلّ منا أن يصبح عليه. العديد منا لا يعرف القراءة والكتابة، ولا يعرف السباحة... أمّا هو فيعرف كلّ هذا وأكثر أيضاً.
– الطائرة هي عربة تطير في السماء، أجاب هيبوليت كمتخصص.
– إذاً هذا ممكن، قال جيوفاني. كنت أعرف ذلك، لقد تحدث البعض عن ذلك في عصري ولكن لم يصدق أحد هذا الكلام.
دُهشت الأرواح من جديد.
– لم أدرك قط قبل هذا اليوم كم أنا محظوظ، اعترف رينيه.
أكمل رينيه بعد أن تذكر ما كتبه سابقاً في مذكراته بعنوان «خطأ الحنين إلى الماضي»:
– في بلدي والعصر الذي أعيش فيه، أي في مستقبلكم، لم تحدث حرب منذ أكثر من سبعين عاماً، واستطعنا السيطرة على الأوبئة الكبرى بفضل اللقاحات والمضادات الحيوية. لم تعد هناك مجاعة، أصبحنا نعمّر أبنية أعلى من ثلاثين طابقاً تكون فيها الجدران زجاجية، أي أنّها شفافة بالكامل تقريباً، لدينا المياه الساخنة والمياه الباردة الصالحة للشرب والتي تصل مباشرة إلى جميع الشقق السكنية، ومعظم الناس يتنقلون عبر السيارة – عربات دون خيول.
ذُهل الجميع بما يسمعه.
– هذا هو إذاً عالم المستقبل؟ عالم رينيه! هتف الملك الألماني. يا للروعة!
– وهل ما زال الناس يعملون في المصانع؟ سأل هيبوليت.
– أغلب الأعمال المضنية أصبحت تقوم بها آلات تسمى الروبوت. هناك أيضاً آلات، مثل الحواسيب التي حدثتكم عنها منذ قليل، والتي تسمح بالقيام بالعمليات الحسابية بالإضافة إلى قيامها بعمليات البحث عوضاً عنا.

- هل تساعدكم الآلات على التفكير؟ سأل جيوفاني مندهشاً. وهل تستخدم أيضاً في عزف الموسيقى؟

- نعم... نحن نعمل تقريباً أقل منكم ونعيش بما نسميه «المجتمع الاستهلاكي والترفيهي». هناك الكثير من فترات الاستراحة، والكثير من الأسفار، ليس بالنسبة للجميع بالطبع، ولكن بالنسبة لأغلب الناس في فرنسا وفي الدول الغربية الحديثة بشكل عام.

استأنف جيب الحديث.

- حتى إنّ رينيه سبق أن أخبرني أنّه في عصرهم قد أرسلوا صاروخاً إلى القمر.

استقبلت هذه المعلومة بهمسات متفاجئة عمّت الحلبة الدائرية.

- وهذا مجرد مثال من بين آلاف المعلومات التي يمتلكها رينيه والتي لم يتخيّلها سوى القليل منا. وكي أكون صادقاً معكم، لم أتخيل في حياتي قط أنّه سيكون من الممكن الذهاب إلى القمر بطريقة أخرى غير الإسقاط النجمي.

تريّث أستاذ التاريخ قليلاً.

- أنت متواضع جداً يا جيب. إنّ عالمكم مثاليّ بالفعل. ليس هناك حروب، ولا مجاعة، ولا أوبئة، وإنّما الإيثار والوئام التام مع الطبيعة. إنّ هذا يساوي تماماً كلّ الطائرات واللقاحات وجميع الصواريخ التي نزلت على القمر. لقد كنتم سعداء.

- سعداء مثل الجاهلين. سيكون المرء راضياً بطبيعة الحال إذا لم يكن يرغب بشيء ولا يخشى من شيء ولكنّ هذا يصيب المرء بالخمول أيضاً. أنت يا رينيه مثلاً، قلق وخائف وخجول ومتضايق، لذا أنت تسأل وتتطور بسرعة. وهذا ما سمح لك بمواجهة مخاطر جسيمة واتخاذ قرارات صائبة. أعتقد أنّ هذا كافٍ كي نصفق لك، وتعلم أنّنا جميعنا فخورون بأن تكون آخر تجسيد «لروحنا».

- أنت رائع! قالت ليونتين.

- نعم أنت مدهش، أكد ياماموتو.

- وشجاع، قال هيبوليت محدداً.

صفّقت الأرواح المائة والإحدى عشرة لرينيه. فتأثر جداً.

تباً، لم أكن أتوقع قط أن تقوم تجسداتي السابقة بالإشادة والتصفيق لي.

- بقي سؤال واحد: لماذا نحن مجتمعون الآن؟ سألت العجوز الشامانية السيبيرية. بما أنّك كامل، وفهمت كلّ شيء، ما الذي تنتظره منا يا رينيه؟

أخذ أستاذ التاريخ وقته. عاد الجميع وجلسوا متربعين على الأرض.

- حسناً، في الواقع، أنتظر... فكرة.

- أيّ نوع من الأفكار؟ سأل رومان.

- لقد سبق أن عشتم جميعكم... ونسيكم العالم. لو أنّني لم أجتمع بكم هنا، لما كنت علمت حتى بوجودكم من قبل. في العموم، إنّ مدّة تذكر حياة «شخص غير مشهور» لا تتجاوز في أفضل الأحوال أربعة أجيال. لقد علّمني فيرون أنّه بالإمكان نسيان وجود إنسان ما عن قصد. وجعلني جيب أدرك أنّه من الممكن نسيان مدينة ما أو بلد أو حتى حضارة بأكملها.

أكد الشخصان كلامه.

- وقد اكتشفت حديثاً دليلاً على الحضارة الأطلانطسية: وقد عرفت ذلك من خلال جلسة تنويم مغناطيسية تراجعية، وقمت بوضع خطة كي أثبت وجودها بدليل حسي، ولكنّ ظروفاً معينة جعلت...

اجتاحته عاطفة جياشة أوقفته لبرهة عن الكلام.

- كادت الخطة تنجح، ولكنّها أخفقت في اللحظة الأخيرة. ولهذا فإنّه في عالمي وفي الزمن الذي أعيش فيه، يعتبر وجود أطلانطس للأسف، مجرد أسطورة.

عمّ الاضطراب بين الحشد.

- والآن لم أعد أملك أيّ دليل مادي على وجودها، ولكنّني أبحث عن كيفية استعادة الذاكرة المنسية لجيب وحضارته.

تبع هذا الحديث صمت كامل. فالجميع راح يركز كي يجد حلاً لكيفية إنقاذ ذاكرتهم.

تدخلت شانتي.

- انظر إلى نفسك من أنت، وأين أنت وماذا أنت يا رينيه.

- ما الذي تريدين قوله؟

- أنت أستاذ تاريخ. وإن كان فيرون قد اختار أن يتجسد فيك، فهذا، كما قلت بنفسك، لأنّه كان يشعر أنّ مسألة الذاكرة التاريخية سوف تكون تحدياً كبيراً. فإذا وجدت نفسك في بلد وعصر متطور جداً لنشر الأفكار، فهذا أيضاً لم يحدث على سبيل المصادفة.

- ماذا تقترحين يا شانتي؟

كانت ليونتين من أجابت.

- العب اللعبة بأوراقك أنت. بحسب ما فهمت، فجميعنا لدينا انطباع بأنّنا خضنا في لعبة غير مكتملة، وأنت من تمتلك جميع نقاط القوة. إنّك تملك بيدك ورقة الأص الديناري! لم يسبق أن كانت اللعبة بهذه السهولة من قبل، إذاً العبها!

أكمل جيب الحديث.

- إنّها محقة، لم تستطع الحفاظ على جراري وعلى المخطوطات وعلى هيكلي العظمي، ولكن إن تواصلت في عصرك مع وسائل النشر الحديثة، تستطيع استخدام الإنسانية بأكملها لمساعدتك في البحث عن أدلة أخرى.

أخذ رينيه يفكر.

- نحن نعتمد عليك في إنجاز هذا، قال الأرمني.

- أعد إصلاح الحقائق في كلّ مكان، أضاف اليهودي الحسيدي[1] البولوني. يجب إيجاد منهجية لا جدال فيها حتى يتم اعتبار وقائع الماضي على أنّها حقيقة.

ختم فيرون.

- عليك الآن وضع أوراقك في الجزء المخصص لك. كما قالت

1- من حركة حاسيديم اليهودية. المترجمة

ليونتين، استخدم كل نقاط قوتك والعبها!

- واجبك هو إعادة إصلاح الحقيقة التاريخية حولنا جميعنا، ونحن سوف نساعدك جميعاً في معارفك، قالت المرأة الكردية.

- من ناحيتنا، سوف نزودك بالمعلومات الضرورية كي تمتلك ما يكفي من التفاصيل التي تؤكد الوقائع. وهكذا ستكون بلا منازع، أضاف الرجل الذي ينحدر من سكان أستراليا الأصليين.

- تستطيع العودة لمقابلتنا، وسيخبرك كلّ واحد منا كيف جرت الأحداث بالفعل، وماذا رأينا فعلياً وليس ما سمعنا أنّه قيل من آخرين أو من البروباغاندا الرسمية. فالبشرية بحاجة إلى استعادة ذاكرتها، اختتم الراهب الكمبودي الذي انتهى بأن أزاح الألقاب في حديثه مع رينيه.

حيّا رينيه تجسداته المائة والأحد عشر بانحناءة شديدة تشبه كثيراً انحناءة جيوفاني في البداية.

- شكراً لكم جميعاً. لقد حللتم مشكلتي.

سرت موجة من الرضا بين أرواح الحاضرين جميعهم. وعاد كلّ واحد باتجاه الباب المخصص له وهم مستعدون لمتابعة مصيرهم، وقلوبهم تفيض بالمشاعر الجياشة على أثر هذا اللقاء غير المتوقع. اجتاحهم شعور جديد يمكن تلخيصه بجملة: «أنا لم أولد مصادفة».

120. مذكرات. ضريح ألان كارديك.

هيبوليت ريفايل هو الاسم الحقيقيّ لألان كارديك، مؤسس الفلسفة الروحية في فرنسا. أخذ هذا الاسم المستعار لأنّه اعتبر نفسه متقمصاً لكاهن سلتي كان يحمل الاسم نفسه.

ولد آلان كارديك في ليون عام 1804م، اكتشف الطاولات الدوّارة[1] عام 1855م، خصوصاً بفضل الأخوات فوكس الثلاث، مشاهير الروحانية الأمريكية. فبدأ بإطلاق الحلقات الروحانية في فرنسا. وشارك فيها مشاهير

1- إنّه أسلوب يتبعه أنصار المذهب الروحاني بالجلوس حول طاولة مستديرة ووضع أياديهم فوقها لاستحضار الأرواح. المترجمة

مثل فيكتور هيغو، والشاعر تيوفيل غوتيه، والمؤلف وعالم الفلك كميل فلاماريون، وأيضاً الطبيب والكاتب آرثر كونان دويل.

نشر في عام 1857م كتابه «*كتاب الأرواح*» الذي أصبح أكثر الكتب مبيعاً في زمانه.

وهذا بعض ما جاء في الكتاب:

«لا يتكوّن الإنسان من المادة فقط، بل أيضاً من جزء لا مرئي مرتبط بالجسد المادي الذي يخلعه كما يخلع المرء قميصه حين انتهاء مدة تجسده فيه. وبعد الانعتاق من الجسد، يمكن للميت التواصل مع الأحياء، إمّا بطريقة مباشرة، أو عن طريق الوسيط الروحي بشكل مرئي أو غير مرئي».

توفي عام 1869م، وشُيّد تمثال نصفيّ له في مقبرة بير لا شيز في باريس، ونقش تحته:

«لكل حدث سبب، لكلّ حدث ذكي سبب ذكي، عظمة السبب تتناسب مع عظمة الحدث».

وقال في حفل تأبينه الكاتب وعالم الفلك كميل فلاماريون: «الروحانية ليست ديناً وإنما علم».

ونقش في النهاية، على شاهدة قبره بحروف كبيرة أساس عقيدته: «ولادة، موت، ولادة جديدة وتطور بلا توقف، هذا هي القاعدة».

-121-

فتح عينيه من جديد.

- إذاً، كيف كان الأمر؟ سألته المرأة.

احتاج جيب القليل من الوقت كي يعود إلى عالمه.

- إنّ رينيه بالفعل رجل مذهل. صحيح أنّه يبدو خجولاً، ولكن مع ذلك فإنّ لديه مبادرات مفاجئة. لقد تولى هذه المرة مهمة الجمع بين كلّ تجسداته السابقة في آن معاً.

- جميع حيواته السابقة؟ تريد أن تقول كل تجسّد سابق له منذ أول تقمص حتى آخر تقمص؟

- كان عددنا كلّنا مائة واثني عشر.

نهض جيب وسار باتجاه النافذة حيث يمكنه رؤية ميم- فيس وهي تضج الآن بنشاطها الصباحي الذي لا يتمركز في الساحة الرئيسية التي تعتبر منطقة العمالقة، وإنّما في الأسواق المحيطة حيث يتمّ تبادل الأغذية والمصنوعات اليدوية بين السكان الأقزام.

- استطاع رينيه بفضل هذا الاجتماع، إيجاد وسيلة لإنقاذ ذاكرتنا.

- تقصد الجرار؟

عضّ جيب على شفته السفلى.

- كلّا، لن تنفع الجرار.

- خسارة، لقد انتهينا لتونا من كتابتها.

- ومع ذلك، سوف نمضي بهذه المهمة حتى النهاية. حتى وإن لم يكن هناك أدنى فرصة بأن يكون مستقبلنا مختلفاً عمّا رواه رينيه، ولكنّني مع ذلك أريد وضع المخطوطات في مكانها. لربما كانت هناك رواية أخرى عن المستقبل مختلفة عن رواية رينيه لا تُدمّر فيها جرارنا ويمكن بذلك أن تُقرأ مخطوطاتنا.

- هذا يعني أنّك لا تصدق بأنّ رينيه يعرف مستقبلنا؟

- أعتقد أنّ هناك احتمالاً قوياً أن يكون محقاً، ولكنّ هذا ليس يقيناً مطلقاً. يبقى هناك احتمال ضئيل بأنّ التأثير على تفصيل صغير يمكنه أن يغيّر ما سيحدث.

جاء إليهما أطفالهما الأربعة، وتعانقوا جميعاً قبل أن يتجمعوا حول الطاولة ليتناولوا طعام الفطور.

- كما تشاء. ولكن بعد هذا أرغب أن نعلّم أطفالنا أوزيريس وإيزيس وسيت ونفتيس فنّ السفر النجمي.

أمسك جيب بالمخطوطتين ذواتي الصفحات المخيطة ووضعهما بحذر في الجرتين المخصصتين لهما. ومن ثمّ أغلقهما وختمهما بالشمع.

- وهكذا أصبح بالإمكان أن تعيش ذاكرتنا طويلاً، قال جيب وهو يضع رمز الدلفين على جدار جرة الفخار.

إنّها مستلقية على السرير وتشخر بصوت منخفض. خلع رينيه ملابسه وحاول بحركات حذرة، أن يتمدّد على السرير دون أن يوقظ أوبال.

توقف شخيرها فجأة.

اللعنة، لم أنجح.

– كنت بانتظارك، همست أوبال دون أن تفتح عينيها.

– عذراً، هل أيقظتكِ؟

– كنت أتساءل كم من الوقت سوف تقضيه قبل أن تأتي إليّ.

– كنت أظنّ أنّك متعبة ونائمة.

رفعت الغطاء عن جسدها فاكتشف رينيه بأنّها عارية تماماً. مدّت أوبال يدها ببطء ووضعتها على قلب رينيه وأشارت له كي يضع بدوره يده على صدرها.

شعر بالنبضات المتسارعة لقلب المرأة.

أشعر بقلبها، وأشعر أيضاً بطاقة الحياة لديها.

إنّ طاقة الزوار تتواصل بواسطة يدينا الموضوعتين على قلبينا.

– أعتقد أنّه تمت مقاطعتنا آخر مرة من قبل الأطلانطسي، وبعدها جاءت الأحداث المرتبطة «بأنشطتنا التعليمية والترفيهية»، قالت له غامزةً بعينها.

أهكذا تسمي اكتشاف الهيكلين العظميين العملاقين وفترة وجودنا في السجن؟

– علينا إذاً أن نكمل من النقطة التي كنا قد توقفنا عندها، أليس صحيحاً؟

اقترب بخجل، وضمّ بين ذراعيه المرأة التي كانت أكثر ما يرغب به في هذا العالم.

لَطالما انتظرت هذه اللحظة. هل سأكون قادراً على الاستمتاع بكلّ هذا الفيض؟

تعانق العاشقان. وتلاحمت روحاهما مكوّنة طاقة تفوقهما.

هذه هي اللحظة التي لا أريد نسيانها على الإطلاق.

123. مذكرات. اندثار شعب.

تُنسى أحياناً ذكريات وجود شعب بأكمله. فعلى سبيل المثال، كان يعيش في تسمانيا منذ أكثر من عشرة آلاف سنة سكان أصليون لهم لغتهم وثقافتهم الخاصة.

كان الهولندي آبل تاسمان في عام 1642م، أول أوروبي تطأ قدمه هذه الجزيرة التي تقع جنوب أستراليا. وتبعه بعد ذلك الفرنسي ماريون دوفريسن عام 1772م، ومن ثمّ الإنجليزي جيمس كوك عام 1773م.

وتمّ في عام 1803م، تشكيل مستعمرة إنجليزية على الشاطئ الجنوبي، كانت بالأساس عبارة عن سجن سابق بكامل سجنائه وحراسه. قام بعدها المجرمون السابقون بعد أن أصبحوا مزارعين، بتطوير اقتصاد أخذ يتنامى شيئاً فشيئاً. وبينما كان الإنجليز يتخلصون من سجنائهم، كان التاسمانيون يتعرضون للطرد التدريجي من جميع الأراضي القابلة للزراعة إلى أن تمّ عزلهم في منطقة صحراوية. وتسبّب الكحول ومرض الزهري لاحقاً بأضرار كبيرة على التاسمانيين، فانخفض بذلك عددهم بين عام 1803م وعام 1833م من خمسة آلاف نسمة إلى ثلاثمئة نسمة. تمّ إرسال بعثات دينية على إثر ذلك لهداية السكان الناجين، على أساس أنّه لا بدّ أنّهم قد ارتكبوا الكثير من الخطايا كي يكون القدر سيئاً معهم إلى هذا الحدّ. ولكنّ هذا لم يكن كافياً لوقف النزيف السكاني.

لذا توقف آخر التاسمانيين، الذين لا نعلم أصلاً أسماءهم، عن إنجاب الأطفال وفقدوا إرادة الحياة. وفي عام 1876م، نقل علماء الأنثروبولوجيا إلى مدينة هوبارت آخر إنسان تاسماني بحسب زعمهم، وقد كانت امرأة تدعى تروجانيني وقد توفيت في الرابعة والستين من عمرها. وكانت آخر جملة وجهتها لطبيبها هي: «لا تدعهم يقطّعون جثتي». وبعد موتها، عُرض جسدها في صندوق زجاجي كقطعة نادرة في «*متحف تاسمانيا*». وكان يجب الانتظار حتى الذكرى المئوية لوفاتها عام 1976م كي يتمّ إحراق جثتها، على الرغم من اعتراضات هذا المتحف. وقامت الفرقة الأسترالية (ميدنايت أول) بتكريمها بأغنية أسموها باسمها «تروجانيني».

هذا كلّ ما تبقى كذكرى من حضارة سكان تاسمانيا الأصليين؛ أغنية روك.

أخذوا يستمعون إلى مقطوعة «الخريف» من كونشيرتو الفصول الأربعة لفيفالدي.

قرر رينيه وأوبال وغوتيه وإيلودي وسيريز ونيكولاس، بعد أحداث مصر أن يتابعوا معاً هذه المغامرة. فتولّى كلّ واحد منهم أمر تبرير غيابه أمام محيطه الاجتماعي ورئيسه في العمل. فعند اقترابهم من أحد الشواطئ، استخدمت إيلودي الهاتف الذكي الذي أهداهم إياه فيلامبروز كي تتصل بالمدير وتخبره بأنّها ستأخذ إجازة مرضية مفتوحة. وأخبر غوتيه مسؤول الإعداد في قناته أنّه يقوم بتقرير في غاية السرية، ولا يمكنه الإفصاح عنه بأية معلومة، وذكر بأنّ نيكولاس وسيريز سيكونان معه في هذه المهمة الدقيقة. وبالنسبة لأوبال، رتّبت كلّ شيء مع والدها كي يتولى أمر العروض في السفينة خلال فترة غيابها التي يمكن أن تطول أكثر من المتوقع. أمّا رينيه، فقد أجرى مكالمة مع والده قبل أن يتواصل مع الملازم رازيل ويقدّم شهادته حول التلاعب والتعذيب الذي يمارسه الطبيب تشوب. وقد أجابه الملازم رازيل بأنّ التحقيق سوف يأخذ وقته قبل أن يُبتّ بأمره.

وبهذا، أصبح أعضاء المجموعة يستطيعون التركيز بفكر هادئ على حياتهم على متن هذا القارب.

تابعت *السمكة الطائرة* إبحارها باتجاه الغرب، مستمتعين هذه المرة بالطقس المعتدل. إنّ الحياة في الهواء الطلق، وأمام هذه الآفاق غير المحدودة، والسماء المزخرفة بالنجوم البعيدة عن أضواء المدن، تعزّز رغبتهم بالعيش مؤقتاً بعيداً عن ضوضاء المدن الكبرى.

بعد فشل مغامرتهم في مصر ونهايتها المحزنة، وخّدتهم الإرادة والرغبة في تنفيذ خطة أكثر طموحاً يبدو أنّ رينيه وحده من يفكر بمجمل تفاصيلها. فقد قرروا تنظيم أنفسهم، بينما تطورت العلاقات التي تجمع فيما بينهم ضمن ثلاثة ثنائيات هي: رينيه وأوبال، سيريز ونيكولاس، وغوتيه وإيلودي.

وببطء أخذوا يشكلون مجتمعهم الصغير. وقد اكتشفوا طرقاً جديدة في استغلال مواهبهم واكتشفوا أنّها تتكامل بعضها مع بعض.

عندما تمكّن نيكولاس أخيراً من شراء طعام طازج من الموانئ التي

توقفوا فيها، حضّر للجميع أطباقاً شهية. وكانت جودة الطعام بالإضافة إلى النبيذ المرافق له تساهم بجعلهم يشعرون بالاسترخاء، وتوثّق الروابط بينهم.

ومن ثمّ منحتهم أوبال بفضل خبراتها المتنوعة، جلسات فردية وجماعية للاسترخاء ساهمت بالكشف عن ماضي كل واحد منهم.

واستخدم غوتيه مهاراته في الرواية، حيث قام بسرد القصص لهم عن تقاريره التي قام بها، كما شاركهم معارفه في علم الفلك. وأصبح الجميع بشكل سريع قادراً على التعرف على الأبراج ومن ثم الكواكب والنجوم.

وقامت إيلودي بجلسات تدليك واهتمت بالعناية بالمشاكل الصحية البسيطة للمجموعة.

وفي النهاية كان رينيه يصف لهم مساءً تحت قبة السماء المزينة بالنجوم، مدينة أطلانطس كما يتذكرها من خلال زياراته لها أثناء جلسات التنويم المغناطيسية الذاتية. ومن خلال هذه القصص الفريدة، أوجد رينيه أسطورة ركاب *السمكة الطائرة* كما كان الرواة في الماضي يخلقون القصص الثقافية وهم مجتمعون حول النار.

كانوا يتناوبون على دفة القيادة ويبحرون في سرعة متوسطة أي ست عقد، أو ما يقارب عشرة كيلومترات في الساعة. كانت الأيام تمضي هكذا، وهم يتعرفون بعضهم على بعضهم ويقدرون بعضهم بعضاً أكثر فأكثر.

وقف رينيه في مقدمة القارب وحيداً والرياح تلفح وجهه، وراح يفكر في جيب. ها قد مضت عدة ليالٍ لم يقم فيها بطقسه المعتاد بالتنويم المغناطيسي التراجعي. كما لو أنّ اجتماع المائة والأحد عشر أعطاه انطباعاً بأنّه قام بحلّ جميع مشاكله. كما أنّه بعد معرفته بفشل مشروع الجرار والمخطوطات، شعر بأنّه لم يعد لديه أيّ شيء يفعله سوى أن يترك جيب ونوت يحكمان مدينة ميم- فيس بسلام، ويعيشان حياتهما في مصر وهما محاطان بالأقزام البشرية التي تعبدهما بصفتهما إلهين.

قال رينيه لنفسه إنّه في حال تواصل معه، سيتوجب عليه أن يبرّر له سبب تأخره، كما حدث معه في الماضي حينما نسي لفترة طويلة أن يذهب ويزور جدته.

لذا، بعد أن خامره الشك، فضّل ألّا يزعجه بعد الآن.

قُرع ناقوس الخطر. استيقظ جيب ونوت على هذا الصوت الخاص الذي ينذر بأنّ كارثة على وشك الحصول. نهضا واقتربا من النافذة، وبنظرة واحدة قدّرا خطورة الموقف.

كان الآلاف من البشر الأقزام المدرعين يصرخون ويلوّحون بأسلحتهم المعدنية. كان البعض منهم يمتطي الأحصنة مشكلين سلاح الفرسان. وقاموا بإضرام النيران في منازل الأطلانطسيين الواحد تلو الآخر ونجحوا بإسقاط العمالقة أرضاً بعد أن حاولوا إيقافهم. لم تعد سهامهم مصنوعة من حجر الصوان، بل من الحديد الذي ينغرز عميقاً في الجسد. والشيء ذاته بالنسبة للرماح والفؤوس والسكاكين.

وكانت النقاط الاستراتيجية التي أقامها الأطلانطسيون تهوي شيئاً فشيئاً بمواجهة هذه الأسلحة المتقدمة الجديدة التي يستخدمها الأقزام البشر.

– اذهبي وأحضري أوزيريس وإيزيس وسيت ونفتيس، يجب أن نخرج سريعاً، قال جيب وهو يمسك بالجرتين اللتين تحويان المخطوطتين.

هرب هؤلاء الستة بالاتجاه المعاكس. وما إن وصلوا إلى الهضبة التي تطلّ على ميم- فيس حتى توقفوا كي يراقبوا المشهد بأكمله.

– لقد كنا آلهتهم. وقد انتهى الأمر بي إلى الاعتقاد بأنّهم يحبوننا فعلاً، اعترفت بحزن المرأة الأطلانطسية.

– أعتقد أنّهم قتلوا أصنامهم.

– ومع ذلك لقد قمنا بتعليمهم كوالدين حريصين على صغارهما.

– إنّهم في هذه الحالة أبناء جاحدون. أو أنّهم بطبيعة الحال، أطفال يريدون التحرر من وصايتنا، قال جيب.

– ما الذي جعل الأمور تصل إلى هذا الحدّ؟ لماذا لم يكن الدين كافياً لاحتواء غريزتهم في التدمير؟ سألت المرأة.

– لأنّهم أعادوا تأويل الدين نفسه الذي زرعناه فيهم كي يقوّلوه عكس ما أردنا تماماً.

- ومع ذلك لقد فعلنا كلّ شيء كي نكون واضحين جداً.
- سيأتي اليوم الذي ينسون فيه ما قدمناه لهم، ويحولوننا إلى آلهة متخيلة كي يتناسوا حقيقة ما جرى فعلاً. سوف يعبدون جيب ونوت جديدين ومُختَلَقين وفقاً لحاجاتهم السياسية. سوف يقوّلوننا أشياء لم نقلها. سيزعمون بأنّنا كنا عكس ما كنا عليه بالفعل. ولن يتواجد أيّ شخص يستطيع دحض أقوالهم.
- هل نتواصل مع ني- هي كي نعرف ما علينا فعله؟
أطلق جيب تنهيدة.
- لا داعي لإزعاجه. لقد مضى وقت طويل لم نتحدث فيه وأعتقد أنّه لم يعد يأبه لنا. ومن ثمّ، لقد سبق أن أخبرنا بكلّ ما علينا فعله.
نظروا إلى منازل الأطلانطسيين تحترق واحداً إثر واحدٍ من قبل الأقزام الغزاة.
- هيّا بنا، قال جيب.
- إلى أين؟ سألت نوت.
- إلى الكهف المقدس.
- أعتقد أنّه من الأفضل أن نفترق الآن. أوزيريس وإيزيس وسيت ونفتيس، إنّهم أملنا الأخير، ولديهم حياتهم التي يجب أن يبدأوها. بينما أنا وأنت علينا أن ننهي حياتنا.
لذا نصحا أطفالهما الأربعة أن يذهبوا باتجاه الجنوب الشرقي وأن يجتازوا النهر ويشيّدوا حضارتهم هناك حيث يبدو لهما أنّه المكان الأكثر ملاءمة.
- لتتذكروا هذه النصائح. عليكم التعامل بحذر كبير مع السكان الأصليين. يجب عليكم معاقبة أبسط جرم بالسرعة القصوى قبل أن يتصاعد الأمر. يجب أن توجدوا طبقة من الكهنة الحكام من أجل السيطرة عليهم بالخرافات. ويجب ألّا تقوموا بتعليمهم كلّ شيء بسرعة.
وعد الأطفال الأربعة والديهم بأنّهم سيعيدون بناء ممفيس جديدة تكون تحت السيطرة بشكل أفضل، وأنّه ابتداء من ذلك المكان سيشعّ من جديد نور الحكمة الضائع لجزيرة ها- ميم- باث.

احتضنوا بعضهم بعضاً ومن ثمّ افترقوا، ذهب الأربعة في طريق والاثنان في طريق آخر.

-126-

أبحرت *السمكة الطائرة* على طول شواطئ شمال أفريقيا. فاجتازت ليبيا ومن ثم تونس والجزائر والمغرب. عبرت مضيق جبل طارق كي تصل إلى المحيط الأطلسي.

أمضى الفرنسيون الستة وقتاً طويلاً دون أن يروا أي إشارة لليابسة على مرمى نظرهم. وبعد عدة أسابيع من السفر، وصلوا إلى أرخبيل الأزور في قلب المحيط الأطلسي وتوقفوا في جزيرة بيكو.

فكروا في البداية بالبقاء في الأزور، ولكن بيئتها القاسية وعداء سكانها الأصليين، صائدي الحيتان والدلافين، جعل المكان غير ملائم.

لذا فقد توجهوا إلى الغرب. وأمضوا أياماً ولياليَ وهم يشاهدون المنظر الوحيد في المحيط وهو الحيتان والدلافين.

وصلوا بعدها إلى أرخبيل برمودا، وهو تجمع جزر أخرى في المحيط الأطلسي، ويشكل ربما بقايا لقارة مغمورة.

راقبوا الشواطئ من مركبهم.

– أعتقد أنّنا وجدنا المكان المثالي لمشروعنا، قالت إيلودي.

– إنّ الطقس معتدل والشواطئ رملية ناعمة والمياه صافية. لدينا إحساس أنّنا بعيدون عن كلّ شيء، أضاف غوتيه.

– سنشعر كما لو أنّنا في عطلة، قالت سيريز.

لقد قطعوا 8800 كم من الشواطئ المصرية حتى شواطئ برمودا. قامت *السمكة الطائرة* بدورة حول الجزيرة من الجنوب، ومن ثمّ رسا المركب في مرفأ خليج إيلي. وصلوا أخيراً إلى أرض اليابسة، وذهبوا من فورهم للبحث عن وكالة عقارات. ولحسن حظهم، كان هناك العديد من الوكالات في الشارع الرئيسي في قرية سومريست. وقد نصحوهم بالاستقرار في هذه الزاوية غرب أرخبيل برمودا، وهي أبعد نقطة ممكنة عن المطار الدولي الواقع على جزيرة سان دايفيد شرق الأرخبيل.

زاروا خلال النهار عدّة منازل وقرروا البدء بسرعة. وكونهم يمتلكون ثروة ليونتين دي فيلامبروز، ارتأوا أن يستأجروا فيلا صغيرة في قرية سومريست التي تطل مباشرة على شاطئ لونغ باي الواقع في شمال غرب الجزيرة.

إنّ الفيلا حديثة البناء، وهي متينة ومقاومة للأعاصير ومزودة بأحدث تقنيات التشغيل الآلي للمنازل. استقروا في الغرف الثلاث وقضوا أول ليلة لهم بهناء على أرض اليابسة.

وفي اليوم التالي، بدأوا بالتبضع. اشتروا في البداية، احتياجاتهم من الأغذية. ومن ثمّ استأجروا سيارة وذهبوا إلى العاصمة هاملتون. إنّ المدينة بأبنيتها الملونة كمنازل ألعاب الدمى تعدّ جوهرة حقيقية للإمبراطورية الاستعمارية الإنجليزية. حتى عناصر الشرطة ما يزالون يضعون خوذ البوبي التقليدية اللندنية. والناس يتجولون بقمصان ذات أكمام قصيرة، وسراويل واسعة وجوارب عالية. ويبدو أنّ النساء يسرفن في القيام بالعمليات التجميلية كثيراً من أجل أن يبقين شابات إلى الأبد. إنّ النشاط الرئيسي لهذه الجزيرة واضح للعيان وهو البنوك المصطفة على طول الشوارع كما لو أنّها مطاعم. إنّ أرخبيل برمودا هو جنة[1] ضرائب شهير جداً.

وجد نيكولاس وسيريز متجراً لبيع الأدوات الإلكترونية. وبما أنّهما يعتمدان على المال المتوفر من ثروة ليونتين، فقد قاما بشراء أجهزة الإرسال والاستقبال الأحدث والأكثر تطوراً.

وبعد أن تجهّز الفرنسيون الستة من الملابس ومستلزمات المطبخ والأغطية وكلّ ما يبدو ضرورياً لحياتهم اليومية في جزيرة الفردوس هذه، عادوا إلى قصرهم.

واستجابة لمبادرة رينيه، فقد عقدوا العزم على استخدام هذا المنزل في برمودا لنشر رواية مختلفة عن التاريخ الرسمي مقدمين أكبر قدر ممكن من

1- جنة ضرائبية هي منطقة تفرض بعض الضرائب أو لا تفرض أي ضرائب على الإطلاق، وتتمتع أنظمتها المصرفية بقوانين صارمة لتحافظ على سرية حسابات عملائها الأجانب فتساعدهم على التهرب من دفع الضرائب في بلادهم الأصلية. المترجمة

الأدلة والمراجع، ليتمّ عرضها بصورة أساسيّة على شكل فيديوهات. حتى إنّهم قاموا بإنشاء قناة تلفزيونية تبث عبر الإنترنيت. ومن أجل هذه الغاية، قام غوتيه وسيريز بتثبيت طبق هوائي كبير للأقمار الصناعة على السطح بشكل زهرة.

شعر الجميع أنّه الآن فقط أصبح هناك معنى لحياتهم.

-127-

سارا وسط كثبان الرمال البنية، وفوقهما الشمس البيضاء التي تحرق كلّ شيء. حملا على كتفيهما الجرتين اللتين تحتويان على تاريخ حضارتهما، بعد أن قاما بربطها بالحبل.

- هل أنت متأكد أنّ الطريق من هنا؟ سألت نوت.
- لقد أظهر لي ني- هي المكان بالتحديد عبر السفر النجمي. لذا فأنا أعرف أين هو الكهف بالضبط. يجب مواصلة السير نحو الجنوب فقط، أجاب جيب.
- أنا عطشى.
- تماسكي. ليس المكان بعيداً جداً. إنّ هذا يستحق أن نتحمل شقاء طريق الصحراء؛ إنّه ذكرى حضارتنا.

-128-

أصبح الفرنسيون الستة جاهزين.

اسم قناتهم «مذكرات» وشعارهم عبارة عن صفحة من مخطوطات البحر الميت.

استعاد غوتيه ملف المشتركين بقناته على الإنترنيت، وأرسل لهم إشَعاراً يحثّهم على متابعة البرنامج. أنجزت سيريز مقدمة للبرنامج عبارة عن صور معدلة على الحاسوب تمزج لوحات أثرية قديمة وصوراً تاريخية حديثة. وجعل نيكولاس خلفية الديكور من المعروضات التي اشتراها من أحد متاجر التحف القديمة في العاصمة هاملتون. وصمّمت إيلودي الجزء

الأمامي من الديكور على شكل مكتب، ووضعت تمثالاً نصفياً لفيثاغورس، ودلفيناً كريتياً، وقطة مصرية، وعموداً رومانياً.

ورغبة منهم في المساء بعدم إضاعة المزيد من الوقت لاختبار التجربة، قاموا بتصوير أول سلسلة من الفيديوهات باللغة الإنكليزية كي يستطيعوا الوصول إلى أكبر عدد ممكن من الجمهور. وقد افتتحت الحلقة الأولى بالحديث عن موضوع يمتلك الجميع عنه وجهة نظر خاطئة، بحسب رينيه؛ ألا وهو فترة حكم كلّ من الملكين الفرنسيين لويس الرابع عشر ولويس السادس عشر. جلس رينيه إذاً أمام كاميرا سيريز، وعندما أشارت له أنّها جاهزة، بدأ بتقديم روايته عن الماضي في بث مباشر.

129. مذكرات. لويس الرابع عشر ولويس السادس عشر.

لطالما اعتقدنا أنّ لويس الرابع عشر كان ملكاً عظيماً، وأنّ لويس السادس عشر كان ملكاً يرثى له، فالأول أطلق على نفسه لقب «الملك - الشمس»، وبنى قصر فيرساي، كما اتخذ الكثير الكثير من الخليلات، بينما الملك الثاني انتهى الأمر به بإعلانه خائناً، وتمّ إعدامه تحت صيحات واستهجان الحشود.

ولكن إذا نظرنا جيداً إلى الأحداث، سنجد أنّ الواقع مختلف كلياً. فقد كان لويس الرابع عشر واحداً من أسوأ ملوك فرنسا وكان على الأرجح لويس السادس عشر هو الأفضل.

دعونا نتذكر تعاقب الأحداث؛ لقد أمضى الملك لويس الرابع عشر المصاب بجنون العظمة، معظم فترة حكمه في شنّ حروب باهظة الثمن على جميع الجبهات، وهذه الحروب كان غالباً ما يخسرها.

وقد أمر باعتقال وزيره نيكولاس فوكيه بدافع الغيرة فقط، وقام بعدها باستدعاء جميع أصدقاء فوكيه وثبّتهم في بلاطه. ونذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر؛ موليير، والكاتب جان دي لافونتين، والكاتب المسرحي بيير كورنيل، والطاهي فاتيل، والموسيقي لولي، والرسام بوسان. ولم يتجرأ أحد سوى لافونتين على التنديد بخيانة لويس الرابع عشر للوزير فوكيه.

لقد منع لويس الرابع عشر حرية الصحافة، وقد أعفى النبلاء من

الضرائب، ودمر البلد من أجل تزيين قصر فيرساي (وهو النسخة الفاخرة من قصر فوكس لي فيكومت للوزير فوكيه نفسه).

فشل الملك - الشمس في احتواء المجاعة الكبرى التي وقعت بين 1693- 1694م والتي حصدت (2،8 مليون قتيل!)، وقام بإخماد جميع الثورات الشعبية من خلال المذابح المنظمة- مثل ثورة الكاميسارد.

حظر مذهب البروتستانت واضطهد أتباعه وأجبرهم على الهرب من البلد، على الرغم من أنهم كانوا قد شاركوا بالنشاط الاقتصادي الحيوي والثقافي في البلد- مثل عائلة روكفلر الذين كان سَلفهم هو الماركيز روكيفيل.

ما إن انتهى بناء قصر فيرساي على حساب حياة مئات العمال، حتى أمضى هذا الملك وقته بلعب الورق في قصره الذي تحوّل إلى كازينو، كما واصل العربدة مع عشيقاته الكثيرات اللواتي نقل إليهنّ تباعاً أمراضه الجنسية وخصوصاً الجدري الصغير. وقد توفي بسبب الغرغرينا في ساقه التي كانت تنفث رائحة قميئة وقد حاول بشكل أخرق إخفاءها بالعطور، كما أنّه بقي محاطاً بحاشيته التي استمرت بخدمته. وقد ترك البلاد مدمرة عند وفاته.

ولكنّه اهتمّ بصورته وقد أحاط نفسه بكتاب سيرة ورسامين متملقين، حيث كانت اللوحات التي يظهر فيها مخادعة. فصورته الشخصية الذائعة الصيت هي لوحة أنجزها الرسام هياسينث ريغو حيث استعان بنموذج جسد أعظم رياضي في عصره، ولم يرسم حقيقة من الملك سوى صورة وجهه.

عندما وصل الملك لويس السادس عشر إلى العرش أراد إصلاح أخطاء جده. فألغى قانون الملكية المطلقة في محاولة للعودة إلى قانون الملكية الدستورية، مستوحياً ذلك من النموذج الإنجليزي، الأكثر مرونة وحداثة.

عيّن وزيراً كفوءاً وهو تورجوت لتحليل الوضع الاقتصادي للبلد. وأطلق أول استطلاع للرأي يقدم لعامة الناس ليعبّروا عن مشاكلهم الشخصية، وعرفت هذه فيما بعد «برسائل التظلم». فقام ملايين الناس من الشعب الذين كانوا حتى ذلك الحين محتقرين ومتجاهلين ولم يكن لديهم الحق في الكلام، بالتعبير عن همومهم اليومية.

قرر لويس السادس عشر إضافة إلى ذلك، إلغاء العبودية التي كانت ما تزال موجودة في فرنسا حتى ذلك الحين. أوقف العربدة في فيرساي، وطرد جميع النبلاء الطفيليين الذين كانوا قد استقروا في القصر. وأعاد فرض ضريبة عادلة للجميع، سواء على الفقراء أو على الأغنياء، حتى لو كان ثمن ذلك معاداة الطبقة الأرستقراطية. وقد عرف كيف يوقف مخاطر المجاعة بفضل نشر نبتة درنية جديدة جلبها العالم والصيدلاني بارمونتيه وهي البطاطا. أرجع حرية العبادة، وضع حداً للاضطهاد الديني، ومنع استعمال التعذيب من قبل الشرطة.

وفي المجال الاقتصادي، بادر بجميع الإصلاحات الضرورية للانتقال إلى العصر الصناعي، كما موّل الثورة الأمريكية بفضل الماركيز لافاييت، هذا الانتصار الذي سمح بإبطاء التوسع الاستعماري الإنجليزي. كما قام بتمويل البعثات لاستكشاف أراض جديدة في العالم بأسره، هذا ما سمح بتوسيع الإمبراطورية الاستعمارية الفرنسية. أجبر المستوطنين على احترام السكان الأصليين. وعندما بدأت حركات التمرد الشعبي في إشعال النار في باريس، منع الشرطة من إطلاق النيران على الحشود معلناً: «لن يسفك جندي فرنسي دماء فرنسي آخر أبداً». وهذا الضمير الشريف أدّى إلى سقوطه.

وعندما صعد إلى المقصلة وهو بكامل أناقته، سأل لويس السادس عشر منفّذ الحكم قبل أن يضع رأسه تحت المقصلة دون وجل: «هل من أخبار جديدة عن السيد لا بيروس؟»، وهو مستكشف فرنسي فقدت آثاره منذ عدة أسابيع.

-130-

أصيب الأطلانطسيان بالإنهاك الشديد. فمنذ أن فارقا ميم- فيس لم يتوقفا عن السير نحو الجنوب، لم يجدا أيّ نبع ماء، ولا أيّ ظلّ يرتاحان تحته. كانا يستخدمان ملابسهما كي يحميا رأسيهما. وفي درجات الحرارة المفرطة الارتفاع يتوقفان وينتظران. لم يعد لديهما طاقة للكلام.

كانا ينظران بعضهما إلى بعض ويتفاهمان بالنظرات، وابتسامة صغيرة كانت تكفي لتشجيعهما على الاستمرار عندما تضعف عزيمة أحدهما.

وحين تعود درجة الحرارة لتصبح أكثر احتمالاً، كانا يتابعان السير مجدداً.

وفي الليل كانا يتوقفان للنوم على الرّغم من البرودة الشديدة للطقس، ولكنّهما على الأقل كانا يستمتعان بالقليل من الرطوبة. ومن خلال لعق قطرات الندى العالقة على ملابسهما، كانا يستطيعان ترطيب فمهما صباحاً.

وبلا كلل، يضعان الجرار التي تحمل ماضيهما على كتفيهما ويعاودان السير.

-131-

إنّه فشل ذريع.

حصلت حلقة المقارنة بين عهدي لويس الرابع عشر ولويس السادس عشر على نسبة مشاهدة مخيبة.

تجمّع الفرنسيون الستة حول طاولة مستديرة في الفناء الذي يطل على الشاطئ حيث كان الجوّ العام بائساً.

- ربما لم يكن اختيار هذا الموضوع صائباً. أعتقد أنّ هذا الأمر لا يثير اهتمام سوى المجتمع الغربي. كما أنّ الكثير من الأمريكيين يجهلون تاريخ فرنسا، قال غوتيه مذكراً.
- حسناً، بالنسبة لفكرة «فضح المشاهير»، أستطيع أن أقترح عليكم بعد حلقة لويس الرابع عشر، أن تكون الحلقة التالية عن جون كينيدي.
- كان أفضل رئيس أمريكي!
- كان من أسوأهم، قال رينيه. فوالده جوزيف كينيدي كان رجل مافيا يقوم بتهريب الكحول على الحدود الكندية، كما كان سفير الولايات المتحدة الأمريكية في إنكلترا عام 1938م، وقد ناضل كي لا تدخل أمريكا الحرب ضد «صديقه» هتلر. أمّا ابنه جون كينيدي، فكان مدمن مخدرات ويشارك في العربدة التي ينظمها شقيقه في البيت الأبيض. لقد كان رجلاً مجنوناً وقد ضخّم الترسانة النووية الأمريكية، الأمر الذي زاد من حدة التوتر مع روسيا، وهدّد بتفاقم الأمور وحدوث

حرب عالمية ثالثة عدة مرات. فيما يخصّ قضية خليج الخنازير في كوبا كان على وشك التسبب في كارثة بينما كان القصد الوحيد منها هو ضمان شعبيته في الانتخابات المقبلة. كما أنّه هو من أرسل في عام 1961م الجنود الأمريكيين إلى فيتنام.

- وأنا الذي لطالما اعتقدت أنّ كينيدي رئيساً جميلاً، وغنياً، وصادقاً، وشجاعاً! هذا ربما يعود لأنني حكمت عليه من خلال اختياره لزوجته الفاتنة جاكي، اعترف نيكولاس.

- إنّه لمن المثير كشف حقيقة النجوم الإعلاميين وإسقاطهم من أبراجهم العاجية التي شيدها لهم مستشاروهم الإعلاميون، أضاف غوتيه.

- هل لديك أمثلة عن أشخاص آخرين كنا نعتقد أنّهم رائعون وتبين لاحقاً أنّهم مخيبون للآمال؟ سأله نيكولاس.

- من المعروف حالياً أنّ ستالين الذي ظنّه الناس لفترة طويلة ممثلاً للفكر الشيوعي، كان عميلاً للقيصر وقد نجح في التسلّل بين الشيوعين أنفسهم. وهو الذي حوّل الثورة السوفييتية إلى ديكتاتورية البروليتاريا أكثر قسوة واستبداداً من عهد القيصر نفسه.

- كنت أجهل هذا الجزء من القصة، اعترف الصحفي. ومن غيره؟

- أودّ الحديث عن ماو تسي تونغ، محرّر الشعب الذي قام بإقصاء جميع المثقفين وقضى بثورته «الثقافية» المزعومة على ثلاثة آلاف سنة من التقاليد والعلوم الصينية الرفيعة.

- من غيره؟

- تشي غيفارا والمناضل الفرنسي سان جست، وهما أيقونتان من رموز ما يسمى بالثورة الرومانسية واللذين بسببهما قُتل الآلاف دون ذنب وعُذب الكثير من الأبرياء.

- ومع ذلك، فصورهما معروضة على ثياب الشباب المراهقين الذين يعتبرونهما قدوة لهم، قال نيكولاس.

- أرغب أيضاً بالحديث عن نابليون الذي اجتاح البلدان المجاورة كي ينصّب أفراد عائلته وأصدقاءه ملوكاً دمى عليها. وسأتحدث عن

يوليوس قيصر المصاب هو الآخر بجنون العظمة، الذي لم يقم إلّا بزرع الحروب والدمار إرضاءً لطموحاته السياسية. كلّ هؤلاء الرجال الذين تسببوا بكوارث متتالية ومع ذلك، ما يزال المؤرخون يعتبرونهم قادة عظماء يتمتعون بشخصيات جذابة.

– يجب الاعتراف أنّنا جميعنا في لا وعينا الجماعي، نعتبر أنّ فكرة قتل شخص ما هي جريمة، أمّا قتل الملايين من الناس فهو مشروع سياسي طموح...، قال نيكولاس ساخراً وقد أصبح يهتم أكثر فأكثر بالمواضيع التي يطرحها رينيه.

راح الجميع يفكر في أسباب إخفاق حلقتهم الأولى من «مذكرات».

أحضرت أوبال النبيذ الأحمر الذي كان له أثر في جعل الجميع يشعرون بالاسترخاء.

– لا تكتفِ بالتنديد بالديكتاتوريين يا رينيه. يجب أيضاً أن تكون إيجابياً، حدثنا مثلاً عن أبطال حقيقيين منسيين، قالت إيلودي. حدثنا عن رجال جديرين بالتقدير ولكنّهم فشلوا في «حملتهم الإعلامية» مثل هانيبال، وفيثاغورس، والعالم لامارك، والطبيب سيملفيس. كلّ هؤلاء الذين سبق لك أن حدثتني عنهم في مطعم مدرسة جوني – هاليداي. إنّ الناس بحاجة إلى شخصيات تثير إعجابهم أكثر من حاجتهم إلى شخصيات يحتقرونها.

أدرك رينيه هذه المرة أيضاً، دقة وصواب تحليلات صديقته.

– سأتحدث المرة القادمة عن الفرعون أخناتون الذي حاول تحديث وتطوير المجتمع المصري وإضفاء الطابع الديمقراطي عليه، ولكنّه اغتيل بمؤامرة من كهنة معبد آمون الذين فعلوا كلّ شيء لتشويه صورته قبل محاولتهم صراحة أن يرموه في غياهب النسيان.

– ولكنّ هذا لن ينجح، قالت سيريز.

استدار الجميع نحوها.

– إنّنا نريد قول الحقيقة، ولكنّ الجميع سيعتبروننا كاذبين. فالإنترنيت يعجّ بالمواقع التي تتحدث عن المؤامرات التي يزعم أصحابها أيضاً

أنهم يقولون الحقيقة ولكنّهم في النهاية لا يبثون سوى المزيد من الأكاذيب.

... التي تثير إعجاب أبي.

– ذلك لأنّنا تحدّثنا بأسلوب وطريقة في التنديد بالنظام القديم الذي عفا عليه الزمن، أضافت المرأة الشابة.

– إنّها محقة، ففي جميع الأزمنة هناك من يدّعي أنّه وحده من يمتلك الحقيقة في وجه من يعتبرهم كاذبين، أضاف نيكولاس. إنّنا نظهر في هذا الطرح كالمغرورين المتغطرسين الذين يؤكدون أنهم يتحدثون باسم الحقيقة وسط مجموعة أخرى من المتغطرسين. لا يبدو أنّ موقعنا يقدمّ سوى وجهة نظر ذاتية فقط من بين وجهات نظر ذاتية أخرى. لا نستطيع تقديم دليل قاطع أنّنا وحدنا من ينطق بالحقيقة.

أدرك الجميع أهمية هذه الملاحظة.

– إذاً ماذا نفعل؟ هل نستسلم ونتخلى عن تقديم وجهة نظرنا للتاريخ لجميع الناس؟ قال رينيه متضايقاً.

– لنبدأ بقول الحقيقة حول أكثر ما نعرفه والذي بالمقابل لا يعرفه المستمعون جيداً، قالت سيريز.

– ماذا تقصدين؟

– بالنسبة لنا، أعتقد أنّه يجب الإشارة إلى أنّ مصدر معلوماتنا التاريخية هو التنويم المغناطيسي التراجعي، أضافت المرأة السمراء.

– أنا معك 200%! ولكنّهم سيعتبروننا من «المتنورين»، أشارت أوبال.

– إنّ سيريز محقة. استأنفت إيلودي، وبهذا لن نظهر بصورة العلماء، وإنّما بصورة المولعين بالتاريخ الذين يستخدمون وسيلة جديدة لاستكشاف الزوايا المخفية من الماضي.

ظهر على الشجرة التي أمامهم قردان صغيران راحا يراقبانهم وهما يحركان رأسيهما.

– الإشارة إلى موضوع التنويم المغناطيسي التراجعي؟ كرّر غونيه بشيء من التشكيك.

- سيكون لهذا على الأقل ميزة الأصالة والفرادة بالطرح، قالت إيلودي. إنّ مذكراتك عن لويس الرابع عشر ولويس السادس عشر كتبتها استناداً إلى وثائق تاريخية معروفة، حيث لم تقم سوى باختيار عدة وثائق وعدة شهادات. لذا يستطيع مؤرخ آخر قول عكس ذلك باختيار وثائق أخرى وشهادات أخرى. سيكون هناك دائماً تشكيك وشبهة بالتحيّز. ولكن تخيل كيف سيصبح برنامجك فيما لو...

تركت المرأة الشابة الجميع متشوقين لمعرفة المزيد.

- فيما لو؟ سأل غوتيه.

- فيما لو أنّ رينيه سرد قصة الحياة اليومية في قصر فيرساي بالتفصيل الدقيق الذي لا نجده في أيّ كتاب.

وهم في غمرة انشغالهم، دخل قرد صغير على عجل إلى الغرفة مستغلاً الشق الصغير المفتوح في النافذة، وقام بسرقة موزة كانت موضوعة في سلة كبيرة للفواكه فوق المنضدة. ولم يعره أحد اهتماماً.

- تخيل نفسك يا رينيه أنّه باستطاعتك رواية قصة إعدام الملك لويس السادس عشر كما لو أنّك كنت هناك حقاً. كما لو أنّه فيلم وثائقي تمّ إنتاجه بفضل وسيلة جديدة، أو نوع من الآلات التي تسافر عبر الزمن والتي ليس لها حدود سوى حدود الفكر. وفي السياق ذاته، تستطيع أيضاً الحديث عن الحياة في المقاطعات، وفي الحقول، وفي قصر ليونتين بإعطائك معلومات حصرية تملكها وحدك، لأنّ هذه المعلومات سيكون مصدرها أسفارك أنت عبر الزمن بالتنويم المغناطيسي التراجعي.

لم يشأ غوتيه بوصفه خبيراً في أمور الإعلام، أن يظهر بمظهر المرتبك، ولكنّه لم يقتنع حتى الآن بما يُقال.

لذا تولّت أوبال الحديث:

- إنّ سيريز محققة، يجب استخدام ما يميّزنا وتسليط الضوء عليه. ومن ثمّ سيشعر الناس من خلال عدد التفاصيل التي سنزودهم بها بأنّ هذا لا يمكن أن يكون فقط نتاج خيالنا الوهمي. وهنا فقط سوف تأخذ

«مذكرات» وبشكل سريع، مكانها في الذاكرة الجمعية التاريخية. عبر الكم الهائل من التفاصيل المجهولة التي سوف تتجمع فيما بينها وتتناسق وتسمح بشرح ما لم يستطع المؤرخون شرحه. إنّ نقطة قوتنا ستكون الدقة في وصف المشاهد.

راقب الفرنسيون الستة أنفسهم.

– هل تريدون أن نقوم جميعنا بالتنويم المغناطيسي التراجعي؟ سأل رينيه.

– لمَ لا؟ قالت إيلودي، فنحن الستة، على فرض أنّ كلّ واحد منّا كانت لديه المئات من الحيوات التي عاشها في مختلف العصور والبلدان، سوف نستطيع أن نغطي بذلك مجالاً واسعاً جداً.

– أأنتِ من يقول هذا؟ كنت أعتقد أنّك تعتبرين أوبال امرأة تتلاعب بالعقول...

– الحمقى فقط من لا يغيرون آراءهم. العالم يتغير وأنا أتغير. ومن ثمّ، لم أكن أعرفها جيداً من قبل. ونحن نطلق الأحكام سريعاً على ما نجهله كي نقنع أنفسنا بأنّنا نسيطر عليه.

تركت إيلودي بعض المجال لنفسها كي تتشرب روحها هذه الفكرة، ومن ثمّ استأنفت:

– كلما كان لدينا تفاصيل أكثر تتداخل بانسجام بعضها مع بعض، زادت مصداقيتنا. وبهذه الطريقة سوف نخبر البشرية بحقيقة ماضيها.

ازداد حماس الرفاق الستة أكثر لهذا الاقتراح الجديد.

– سيكون هذا بمنزلة تحليل نفسي جماعي على مستوى العالم، قالت أوبال متحمسة. سوف نكتشف معاً الحقائق المخفية، كما اكتشفت سابقاً المجزرة المنسية للستمائة ساحرة في منطقة الباسك.

– لن يكون من السهل أن نجعل العالم يتقبل مثل هذه الطريقة، أوضح غوتيه.

– لا تكن انهزامياً، قاطعته إيلودي. من الطبيعي أن يرفض الناس إلى حدّ ما مواجهة الحقائق المخفية أو المنسية. إنّ هذا سوف يستغرق بعض

الوقت. ولكنّه بالفعل مشروع جديد. «تحليل نفسي جماعي على مستوى العالم».

- قد يكون هذا هو التحدي الكبير القادم لتحقيق نوع من السلام العالمي: قول الحقيقة عمّا جرى في الماضي، أكدت إيلودي.

شرب غوتيه القليل من النبيذ كما لو أنّه يرغب بالتراجع عن تحفظاته السابقة. كرّر قائلاً:

- «أسرار العائلة الإنسانية».

- نعم، كلّ ما يتخمر في كهوفنا الداخلية، كالجبنة العفنة والمنسية التي لا تتوقف عن بث رائحتها البشعة في أرجاء المنزل.

- ربما في هذه الحالة، يجب علينا التعمق أكثر، أضاف غوتيه.

- بماذا تفكر؟

- لنقم بنشر الوسائل بحيث يمكن للجميع أن يفعلوا مثلنا. دعونا نعلمهم كيفية القيام بذلك.

ظهرت عدة قردة أخرى من النافذة، بعد أن استدلّت من القردة الأوائل على وجود أطعمة في هذه الفيلا.

- وماذا بعد يا غوتيه؟

- ليس على أوبال سوى اقتراح أن تقوم بجلسات تنويم مغناطيسية تراجعية في بث مباشر عبر الإنترنيت، من أجل كلّ من يرغب في خوض هذه التجربة. كما فعلت مع رينيه.

أكّد نيكولاس كلامه.

- سيستطيع بذلك عشرات الملايين من الأشخاص خوض التجربة ذاتها التي عشتها يا رينيه في بث مباشر. وسيتمكنون من الوصول إلى ذاكرتهم العميقة وسيدلون بعدها بشهاداتهم عمّا عاشوه.

- ونحن بدورنا سوف نخوض التجربة في الوقت نفسه، قالت سيريز محددة.

قرّر الستة عدم الانتظار. تفرق الجميع من أجل التحضير للحلقة التالية. أخذت أوبال المتحمسة للغاية تُملي على رينيه النص الذي يصف أسلوبها

في توجيه عملية التنويم المغناطيسي. فكان هذا هو النص الذي تريد أن يُقرأ بصوت مرتفع أمام الكاميرا.

132. مذكرات. التنويم المغناطيسي التراجعي.

اجلسوا في مكان هادئ بحيث لا تتعرضوا للإزعاج أو المقاطعة من أحد.

أطفئوا هواتفكم المحمولة، وجميع الشاشات حولكم، وأطفئوا أيضاً جميع الأنوار.

قوموا بفكّ أحزمة سراويلكم وتخلصوا من كلّ ما يمكن أن يضغط عليكم سواء كان ساعة أو سواراً أو نظارات أو خاتماً أو قلادة...

استلقوا بطريقة يكون فيها ظهركم مسترخياً ومرتاحاً.

أغلقوا عيونكم، وتنفسوا ببطء أكثر فأكثر إلى أن يصبح تموّج رئاتكم هادئاً وبطيئاً.

تخيلوا وجود سلّم. إنّه السلّم الذي يقودكم إلى لا وعيكم. كلّما هبطتم درجة فأنتم تغوصون أكثر داخل أنفسكم، ولكن دون نوم، وإنّما تصلون فقط إلى حالة من الاسترخاء التي تجعلكم تنسون كل مشاكلكم كي تقتربوا من جوهركم العميق.

10، 9، 8... اهبطوا كلّ درجة مع معرفتكم بأنكم تقتربون من باب لا وعيكم.

...7، 6، 5...

استعدوا لرؤية باب اللاوعي. وتذكروا أنّ خلفه، توجد حيواتكم السابقة.

...4، 3، 2، 1... صفر!

ها هو ذا، ها أنتم هنا. تشاهدون باب لا وعيكم، انظروا إليه. ترون قبضته، أمسكوها.

وراء هذا الباب، ستجدون ممراً فيه أبواب عليها أرقام.

خلف كلّ باب من هذه الأبواب تجدون واحدة من حيواتكم السابقة.

قبل أن تفتحوا أيّ باب، تمنّوا أمنية. اذكروا في هذه الأمنية الحياة التي بدون زيارتها بالضبط، واللحظة المحددة التي تريدون الوصول إليها في ث الحياة.

بعد أن تصوغوا رغبتكم بشكل نهائي، سوف يُضاء أحد الأبواب كي ير إليكم بأنّه الباب الذي يتوافق مع رغبتكم. افتحوه.

وبعدها...

وبعدها سترون.

-133-

- «وبعدها، سترون؟» ما معنى هذا؟ سأل رينيه بعد أن دوّن النص على حاسوبه.

- إنّ هذه مجرد مسوّدة أولى، ولكن ما قصدته هو أنّ كلّ واحد سيعيش تجربة مختلفة. ربما لن يجد الكثير منهم أيّ شيء، وربما يعيش البعض الآخر ما عشته أنت، أيّ ما يشبه الأفلام القصيرة حيث يكونون الأبطال فيها.

- إذاً نستطيع أن ننهي الجملة على سبيل المثال «وبعدها، بصرف النظر عمّا سيحدث» أو «بعدها، سيحدث ما ينبغي أن يحدث» ؟

راحت تدلّك كتفيه وأمامها المحيط الأزرق.

- هل ما زلتِ تعتقدين أنّ كلّ شيء مكتوب مسبقاً، كما في خدعتك السحرية «رغماً عني» ؟

استدارت نحوه، ونظرت إليه بعينيها الخضراوين الكبيرتين.

- أعتقد أن الأشياء تميل بشكل طبيعي باتجاه مسار محدد، مهما كانت خياراتنا. كان علينا أن نلتقي، كان علينا القيام بتجربة التنويم المغناطيسي التراجعي، كان علينا أن نلتقي من جديد بعدها، كان عليك إنقاذ المائة والأربعة والأربعين أطلانطسياً، وكان علينا الذهاب إلى مصر.

- والجرار والهيكلان العظميان هل كان يجب أن تدمّر أيضاً؟

– على الأرجح. كما كان علينا أن نلتقي نحن الستة جميعاً كي نستقر في برمودا.

قبّلته.

– وكان علينا أن نقبّل بعضنا بعضاً في هذه اللحظة. إنّ كلّ هذا عليه أن يكون مكتوباً في مكان ما، سواء في رواية مثلاً، أو في سيناريو فيلم أو كتاب عظيم عن الأقدار.

– هل ستشرحين لي في يوم ما خدعتك السحرية «رغماً عني[1]»؟

غمزته بعينها.

– ألا تعتقد أنّه من المثير أكثر الاحتفاظ ببعض الغموض؟ في الواقع، إنّ هذه الخدعة مثلها كمثل جميع الخدع السحرية الأخرى، قد تشعر بخيبة أمل كبيرة حينما تكتشف مدى بساطتها. انظر إلى جيب، كيف كان يمكنه العيش لو أنّك أخبرته بكلّ ما سيحصل معه؟ وأنت أيضاً، كيف كنت ستعيش لو أنّك قرأت في أحد الكتب ما سيجري معك في بقية حياتك؟

– لا أعتقد أنّ كلّ شيء مكتوب. أعتقد أنّنا نمتلك إرادتنا الحرة. ليس هناك حتى الآن أيّ شخص وراء الباب رقم مائة وثلاثة عشر. وربما حتى بالنسبة لجيب في هذه اللحظة بالذات، قد يكون ما يزال هناك مجال لحدوث شيء ما غير متوقع. من يعلم؟

–134–

أصبح الأطلانطسيان الآن منهكين وعطشين جداً لدرجة أنّهما لم يعودا يستطيعان الوقوف على أقدامهما. تابعا الكيلومترات الأخيرة على الأقدام والأيدي، ومن ثمّ زحفا زحفاً حتى وصلا إلى واحة سيوة.

وأخيراً، ارتوى جيب ونوت من المياه العذبة للبحيرة الفيروزية.

1– إن أردتم معرفة تفسير الخدعة السحرية «رغماً عني»، إليكم هذا العنوان على الإنترنيت الذي وضعت عليه تفسيراً عملياً:
www.bernardwerber.com/pandore/malgre–moi/. المؤلف

جمعا بعض النباتات وأكلاها، ومن ثمّ استراحا بعدها قليلاً، قبل أن يتابعا سيرهما للوصول إلى الكهف في الجبل الأبيض.

لم يجدا صعوبة في إيجاد الكهف الحجري وقد عبرا من فورهما المدخل. أرادت نوت النزول مباشرة في النفق الذي ظهر لهما، ولكنّ جيب أشار لها أنّه يجب عليهما أولاً القيام بعمل ما. فبحثا عن صخرة دائرية كبيرة ومن ثمّ، ومن الداخل، قاما بدفع الصخرة مثل باب متزحلق إلى أن أغلقا المدخل كلياً. أشعل جيب ونوت مشاعلهما ونزلا إلى أعمق نقطة في النفق فوجدا نفسيهما في كهف مستدير.

– ها قد وصلنا إلى المكان المنشود، قال جيب.

وضع الأطلانطسيان جرتي الفخار على مصطبة حجرية مرتفعة.

– ها قد أنجزنا الآن ما يجب علينا إنجازه، قال جيب. صحيح أنّ هناك احتمالاً ضئيلاً أن يقرأ أحدهم المخطوطتين، ولكن مع ذلك يبقى هذا الاحتمال قائماً.

أخرجت نوت من جيبها قارورتين تحويان سائلاً أزرق، ومن ثمّ شربا كلاهما السمّ.

استلقيا على الأرض، وعيونهما مفتوحة وهما ينظران إلى السقف المغطى بالنوازل الكلسية. وضعت نوت يدها بيد رفيق دربها.

– كانت حياتنا جيدة، أليس صحيحاً؟ قالت نوت.

– تكون الحياة سهلة عندما يتقبل المرء الوجود الذي مُنح له، ويقوم باستغلاله إلى أقصى درجة.

– لقد أحببت كلّ ما عشته.

– وأنا أيضاً، وهذا بفضلك، اعترف جيب.

أخذا يتنفسان ببطء.

– أتمنى أن ألتقي بك فيما بعد، قالت نوت.

– كيف ستتعرف بعضنا على بعض؟

شعرا بأنّ قلبيهما اللذين ينبضان معاً بانسجام، قد بدآ يتباطآن.

- سوف تجدني أضع قلادة تحمل دلفيناً أزرق. قد تكون هذه إشارة تعارف جيدة، أليس صحيحاً؟

قبّلا بعضهما بعضاً، ومن ثمّ أغلقا عيونهما مبتسمَين.

- وداعاً يا نوت.

- بعد أن عرفنا الآن ما ستصبح عليه أرواحنا، دعنا نقول بالأحرى «إلى اللقاء»...

الشكر

إلى إيميلي أندريو التي ساعدتني ودعمتني وتحملتني طوال فترة كتابتي لهذا العمل.

إلى الناشر، ريتشارد دوكوسيت الذي يواكبني منذ 28 عاماً.

إلى ناشرتي الجديدة، كارولين ريبول التي ساعدتني في ولادة طفلي الأخير هذا.

إلى أصدقائي الساحرين.

باسكال ليجيرن الذي علمني الخدعة السحرية «رغماً عني» (وعلّمني التنويم المغناطيسي الاستعراضي).

يان فريش وإريك أنطوان اللذين ساعداني على تحسينها من خلال إظهار المتغيرات المحتملة – التي اخترعاها بنفسيهما – في هذه الخدعة.

إلى أصدقائي الذين يعملون في مجال التنويم المغناطيسي التراجعي

تييري ليروكس (عازف درامز سابق مع جوني هاليداي) الذي أتاح لي فرصة القيام بأول جلسة تنويم مغناطيسية تراجعية (أعطاني إحساساً، بالصدفة، بأنني زرت مدينة أطلانطس).

أليخاندرو جودوروسكي الذي علمني إسقاط التنويم المغناطيسي على عوالم متخيلة (وعلمني قراءة أوراق التاروت).

سابين مولكو التي جعلتني أكتشف التنويم المغناطيسي الإريكسوني.

دايفيد بيكارد الذي قام أثناء جلسة تنويم لا تنسى، بتحسين وتطوير تقنيتي في الغوص في حيواتي السابقة، وجعلني أزور إحدى حيواتي المدهشة بشكل خاص (التي كنت فيها رامي سهامٍ في إنجلترا عام 1200م، وهو عمل يمكننا تشبيهه بالعمل في السينما... لأنّ رامي السهام آنذاك كان ينتظر المعارك كي يحصل على عمل مثلما ينتظر الممثل أن يشارك في أحد الأفلام في وقتنا هذا).

إلى أصدقائي المؤرخين

فرانك فيراند.

جوليان هيرفيوكس، أستاذ تاريخ (والمعروف أيضاً باسم «أوديو كونارد» نسبة إلى مدونته على الإنترنيت).

فيفيان بيريت، مؤرخة (متخصصة بعدة أمور منها تاريخ الساحر والمؤرخ والمستعرض هوديني بالإضافة إلى تخصصها في تاريخ السحر).

إلى قرائي الأوائل الذين صبروا على قراءة إحدى عشرة مسودة سابقة ومختلفة كلياً عن هذا العمل (كنت في كلّ مرة أغير الحبكة والشخصيات):
جوناثان فيربير، زوي أندريوكس، سيلفان تيمسيت، ميلاني لاجواني، سيباستيان تيسكيت، أغاثي ميري، إيزابيل دول، شارلوت جانوما كوهين، لورانس مالينسون، لورانت بيرتين، ستيفان بويود، هيلين بو، جيل مالينسون، بيريل هوسير، ستيفين لي بوزيك، دايفيد جالبي، جيل ميلاند.

الموسيقى التي استمعت
إليها أثناء كتابة الرواية

- أنطونيو فيفالدي، مقطوعة الفصول الأربعة، النسخة الكلاسيكية ونسخة الهارد روك.
- فرقة سوبرترامب، أغنية (Fool's Overture)
- بيتر غابرييل، (In Your Eyes)
- رينيه أوبري، (Steppes)
- بينك فلويد، (Shine on Your Crazy Diamond)

صدر للكاتب

عن دار النشر ألبين ميشيل

ثلاثية النمل:

النمل، 1991م

يوم النمل، 1992م

ثورة النمل، 1996م

ثلاثية مغامري العلوم:

والد آبائنا، 1998م

السر المطلق، 2001م

ضحكة السيكلوب، 2010

خماسية السماء:

ثنائية الملائكة:

مستكشف الموت، 1994م

إمبراطورية الملائكة، 2000م

ثلاثية الآلهة:

نحن، الآلهة، 2004م

نفخة الآلهة، 2005م

سر الآلهة، 2007م

ثلاثية الإنسانية الثالثة:

الإنسانية الثالثة، 2012م

بشر مجهريون، 2013م

صوت الأرض، 2014م

قصص قصيرة:

شجرة الاحتمالات، 2002م

فردوس حسب الطلب، 2008م

كتب أخرى:

كتاب السفر، 1997م

أصدقاؤنا البشر (مسرحية)، 2003م

فراشة النجمات، 2006م

موسوعة جديدة للمعرفة النسبية والمعرفة المطلقة، 2008م

مرآة كاساندرا، 2009م

النوم السادس، 2015م

القطط غداً، 2016م

من العالم الآخر، 2017م

تستطيعون هنا تدوين ذكرياتكم عن حيواتكم السابقة.

صفحة رقم 1:

الزمن المحتمل:

المكان المحتمل:

الهوية المحتملة:

وصف التجربة التي عشتها:

صفحة ذكريات الحياة السابقة رقم 2:

الزمن المحتمل:

المكان المحتمل:

الهوية المحتملة:

وصف التجربة التي عشتها:

صفحة ذكريات الحياة السابقة رقم 3:

الزمن المحتمل:

المكان المحتمل:

الهوية المحتملة:

وصف التجربة التي عشتها:

صفحة ذكريات الحياة السابقة رقم 4:

الزمن المحتمل:

المكان المحتمل:

الهوية المحتملة:

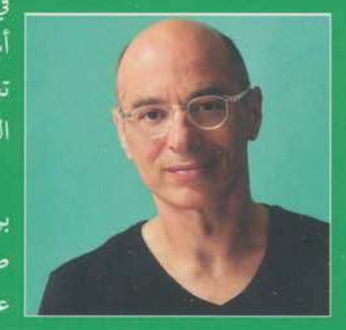
وصف التجربة التي عشتها:

المحتويات

هل تعرف من أنت حقاً؟

هل أنت متأكد أنك لم تَعِش حياة أخرى؟

رينيه توليدانو، مدرس تاريخ، يحضر عرضاً للتنويم المغناطيسي يتم خلاله اختياره من بين الجمهور للمشاركة في جلسة للتنويم المغناطيسي. ثم يجد نفسه منغمساً في حياته السابقة ويتساءل عما إذا كان بإمكانه التأثير على الأحداث. مع تقدم اكتشافاته، يدرك أن ما اختبره في حياته السابقة يمكن أن يؤثر على حياته الحالية. أستاذ التاريخ، ينشأ أمامه تحدٍّ جديد ومثير: هل يمكنه تغيير مجرى التاريخ وإعادة كتابته وبالتالي تعديل الذاكرة الجماعية؟



برنارد فيربير روائي وكاتب روايات خيال علمي صاحب ثلاثية «النمل» الشهيرة، ولد في 18 أيلول عام 1961 في مدينة تولوز الفرنسية، وبدأ الكتابة في عام 1990.

يمزج أسلوبه في الكتابة بين عدة أنواع أدبية مختلفة، كالأسلوب الملحمي، أسلوب الخيال العلمي والأسلوب الفلسفي. في معظم رواياته، قام برنارد باستخدام نموذج البناء القصصي نفسه، حيث يستعمل النص النثري بالتناوب مع الأسلوب العلمي. كما أن هناك العديد من أشكال الترابط في رواياته، فنجد شخصية إدمون ويلز في ثلاثيته الشهيرة «النمل»، موجودة أيضاً في بعض رواياته الأخرى.



9 789933 617813